الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي

دكتور محمد ابراهيم الفيومي

دار الشروق

الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي

الطبعـة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

توطئة

حين عهدت إلى إحدى الجامعات بتدريس مادة «الفرق والمذاهب الإسلامية» ، حسبتها مقررا تقليديا ، كذلك الذى درسناه أيام الكلية فى الأزهر . ورأيت أنها مادة وفيرة المراجع والمصادر ، فما أكثر كتب الفرق والملل والنحل لدى الإسلاميين ! فهدأ بالى ، واستقر حالى ، وأخذت فى جمع مصادرها ومراجعها ، وتحضير موضوعاتها فى خطة علمية وفق رؤيتى الثقافية . ثم أقبلت على القراءة ، فوجدت نفسى أمام مادة علمية متراكمة يحتاج الإنسان ، فى قراءتها قراءة علمية دقيقة وتحليلية ونقدية ، إلى منهج متروٍّ ، وبصر نقدى يصطنع الأناة .

لقد وجدت نفسى أمام مادة علمية مكرورة ، يتداولها المؤلفون فيما بينهم ، دون أن يقدموا جديدا إلا بالرد على المخالفين من الملاحدة والزنادقة وأسلوب الدفاع ، أو ما يضيفه المؤلف عما جدَّ فى عصره من فرق جديدة ، كما يختلفون فى حسن العرض تبويبا وتصنيفا وتنظيما .

وكان الملاحظ ـ كما يقول المستشرقون ـ أنه ينسب للإسلام عادة كثرة فرقه الدينية وتعددها ، وتباين تعاليمها ، وتنوعها ، وذلك إلى الدرجة التى لا يسمح بها التقدير المتزن للوقائع الصحيحة المستنبطة من تاريخه .

ويرجع السبب فى هذا إلى علماء الكلام المسلمين أنفسهم نتيجة فهمهم أحد الأحاديث النبوية ، قصد به فى الأصل تمجيد الإسلام وإعلاء شأنه ، فخصه بقدر من الفضائل والمزايا ، بلغت فى عددها ثلاثا وسبعين ، تقابلها من فضائل اليهودية إحدى وسبعون ومن المسيحية اثنتان وسبعون ، ففهمها الكلاميون على أنها ثلاثة وسبعون فرعا أو فرقة .

وقد استرسلوا ، اعتمادا على هذا التخريج ، فى الإكثار بقدر استطاعتهم من تعداد الفرق الذاهبة كلها فى النار ، ماعدا « الفرقة الناجية» التى يُفضى مذهبها وحده إلى النجاة والخلاص ، أى تلك التى توافق السنة . وقد أوجدت البيئات الأخرى ، التى هى

أقرب من هؤلاء إلى روح التسامح، والتى تستطيع أن تستشهد بالغزالى، تأويلا لهذا الحديث يتلاءم مع العقلية المتسامحة، وهو : « كلها فى الجنة إلا الزنادقة».

هذا الفهم الخاطئ للحديث النبوى، الخاص بفضائل الإسلام الثلاث والسبعين، وتخريجها على أنها فروع أو فرق، أثر أحيانا فى آراء الغربيين وتصوراتهم، فلم يقتصروا على اعتبار المذاهب الأربعة فرقا دينية، ولكنهم حسبوا أيضا أن من الفرق الدينية ما ظهر فى الإسلام من الخلافات الاعتقادية والمذاهب التى حادت عن جادة السنَّة، على الرغم من أنه لم يتح لها أن تؤسس فرقا دينية منشقة.(١)

أما الملاحظة الثانية، فقد أبداها فيلهوزن، وتتعلق بالتحكيم، وهو معلم من معالم التاريخ الإسلامى، ونقطة فاصلة فى التاريخ السياسى الإسلامى بين نظامين من صور الحكم : صورة رأى الجماعة فى الخليفة وصورة التوارث، فيقول : وهكذا نلاحظ قلة الدقة فى الرواية المتعلقة بزمان ومكان حادث من أكبر حوادث تاريخ صدر الإسلام. أما فيما يتعلق بما تضمنه هذا الحادث، وبسير القضية، وما انتهى إليه الحكم فيها، فإن الروايات أقل من أن تفى بالحاجة(٢).

وعلى الرغم من أن جميع كتاب الفرق يجمعون على أن التحكيم نقطة البداية لتاريخ الفرق الإسلامية، فإنهم لم يصفُّوا خلاف المؤرخين حولها، ولم يطيلوا الوقوف أمام بعدها السياسى وخلفيتها الفكرية.

من هنا، تغيرت رؤيتى التى كانت ترى حقل الفرق خصبا ذا وفرة فى المصادر واتضح لى أنه شىء عسير، يحتاج إلى مراجعات تستوعب نقاطا تفتقر إلى بحث ودراسة، واستقصاء مصادر التاريخ الإسلامى استيفاء وتحصيلا، ليتكامل بنيان ما أرساه السابقون من مؤرخى الفرق.

لذلك وجدت من الضرورى، لقراءة كتب الفرق ومؤرخيها، قراءة المصادر التاريخية قبل قراءة كتب الفرق، إذ يصعب فهم الفكرة مجردة دون فهم خلفيتها التاريخية. والأشد صعوبة أن نتصور تاريخا يتحرك من غير فكرة. ففهم الفكرة إذن يحتاج إلى ربطها بالحدث التاريخى. فكيف نفهم مشكلة «التحكيم»، وقد كان حدثا

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام. ترجمة د. محمد يوسف موسى، د. على حسن عبد القادر، د. عبد العزيز عبد الحق.

(٢) تاريخ الدولة العربية. ترجمة د. عبد الهادى أبو ريدة.

فاصلا بين نظامين سياسيين، الأول : يقوم على البيعة والاختيار وتلاحم الأمة بالخليفة، والثاني : يقوم على توارث الملك، وإقامة حواجز منيعة بينه وبين الأمة، وتنحيتها عن أن تكون فاعلة، ما لم يكن ثمة تأريخ للأفكار؟!

ثم خطر على بالى خاطر، وقف أمامى، وأخذت أقلبه فوجدته خاطرا حسنا يحتاج إلى دراسة، وهو : أن الأحداث التاريخية التى هبت على الأمة الإسلامية ترتبط ارتباطا وثيقة عراه بتاريخ أفكار الفرق السياسية والدينية، ورأيت أن تاريخ الفرق هو تاريخ للأفكار السياسية، وأن فهم مبادئ وأصول تلك الفرق لا يكون واضحا إلا إذا وضح الموقف التاريخى. فمثلا، إن غلبة بنى العباس تبقى غير مفهومة ما لم تفهم خلفية تلك الفرق التى مهدت السبيل لها، وكيف تغلبت الشعوبية على نزعة الدولة العربية.

ومع ظهور الفرق السياسية التى جرَّت إليها قضايا دينية، بدأ فتح السبيل أمام امتزاج السياسة بالدين. وكان كلما انتصرت السياسة، انتصرت قضاياها وشدت الأفكار الدينية إليها، كقضية «محنة خلق القرآن» أمخلوق أم حادث؟ وكذلك كلما اعتصم الفقيه بالسياسة، زاد وزنه وسادت قضاياه. وكان الموقف السياسى إذا تعرى تعلق الاهتمام أكثر بالأفكار الدينية التى اعتبرت فى حد ذاتها حقائق لها قيمتها واعتبارها، كاستقلال الأمراء السياسى من حيث الواقع وانفصالهم عن الخلافة، مع عدم البوح بالاستقلال الشرعى لإضفاء سلطة شرعية عليهم، مكتفين باستقلال فعلى لإضفاء صبغة شرعية على سلطتهم فى نظر رعاياهم. وبات التأريخ للأفكار السياسية تأريخا للأفكار الدينية، وهما معا يمثلان الخلفية التاريخية للفرق والمذاهب، ومع تلك المذاهب امتزجت السياسة بالدين امتزاجا عميقا.

وكانت مشكلة مرتكبى الكبيرة هى الخلفية الفكرية والسياسية لكل الفرق. يقول محمد الطالبى : فالاعتزال الذى لا يمكن إنكار دوره المهم، نشأ عن موقف سياسى، وكذلك بالنسبة للقدر والإرجاء[١].

غير أن النزاع تكشف عن أنه ليس نزاعا بين الأسس الدينية والأسس الدنيوية للوحدة، وإنما هو نزاع بين القوى القبلية المخربة وبين الوحدة التى كان الصحابة يسعون فى تحقيقها وهى وحدة معتدلة تنطوى على احترام الأسس الدينية التى تقوم عليها الجماعة. وظهر فى العراق فريق عنيف فى تعصبه المذهبى وفى عدائه لقريش، وهو

---

(١) الدولة الأغلبية ـ التاريخ السياسى ـ الأستاذ الدكتور محمد الطالبى ترجمة : دكتور المنجى الصيادى.

فريق الخوارج، فى مقابل شيعة على، وبين الفرجة التى بينهما دخل الشاميون تحت قيادة معاوية، وعندئذ تجسمت المشكلة بوضوح، ولم يعد ثمة مجال للشك يعوق اختيار الذين لا يعنيهم من أمر الشقاق شيئا ، فانحازوا تدريجا إلى جانب معاوية فهو حزب واحد.

أما الخوارج وثوار الشيعة، فقد شانهم شططهم وغلوهم فى نظر جميع الناس إلا أقلية صغيرة. وأما الحكومة المناوئة للخلافة الأموية التى أقيمت خلال الحرب الأهلية الثانية (٦٨٤ ـ ٦٩١ م) ، فقد برهنت على أنها عاجزة عن حفظ النظام. ثم إن الخلافة الأموية فى الوقت نفسه توجهت إلى الأخذ بالنظرة الإسلامية العامة الشاملة، حين أخذت مبادئ الإسلام الدينية والأخلاقية خلال القرن الأول لتنفذ إلى المجتمع العربى وتعمق فيه وتؤثر فى نظرته وسلوكه.

ولم يكد القرن الأول ينتهى، حتى كان غير العرب قد أخذوا يدخلون فى صفوف الفقهاء بأعداد متزايدة. وكان من الطبيعى أن يعتنق هؤلاء الدين الإسلامى بأوسع تفسيراته وأشملها، دون أن تحد من شموله أفكار عربية. وكان هؤلاء الفقهاء الموالى يعارضون الأمويين بدافع من عواطفهم، وشعورا منهم بما يلقاه غير العرب من ظلم ومن اضطهاد اجتماعى، ولذلك رفضوا موقف الولاء الذى وقفه مؤيدو الأمويين، كما رفضوا مذاهب الفرق العربية الأخرى، وظلوا يقفون بعامة على حياد مؤيد بالتشدد الدينى أمام تسامح بعض الفرق.

وهكذا، بعد أن نجح الأمويون فى فصل الدولة الإسلامية عن المذاهب المتشددة التى نادت بها الفرقتان المغاليتان من خوارج وشيعة غلاة، قاموا علنا حينئذ بالفصل بين الدولة الإسلامية ومفهوم السيادة العربية.

عمر مسجد البصرة بحلَق الفقهاء، والمفسرين، والمحدثين، والزهاد والنحاة، وعلوم الأدب. وكان رؤساء هذه الحلقات كبار التابعين من الموالى. فألفوا بين الأمة بعلمهم وسلوكهم. وقام بينهم وبين الناس نقاش حر مستنير، وعلاقات فكرية حول مسائل دينية وسياسية قد شاع أمرها بين الناس، وعانى المجتمع من أمرها معاناة شديدة.

وقد حدث فى أيام الحسن البصرى خلاف واصل بن عطاء الغزال فى القدر، وفى المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمرو بن عبيد بن باب فى بدعته، فطردهما الحسن عن مجلسه، فاعتزلا إلى سارية من سَوَارِى مسجد البصرة، فقيل لهما ولأتباعهما

«معتزلة»، لاعتزالهم قول الأمة فى دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر.

ولدى إثارة تلك القضايا، التف الناس حولهم، وآمنوا لهم، واستجابوا لطاعتهم. ونجح كبار التابعين من الموالى فى أن تكون لهم الريادة الفكرية، وترابط الناس، وغدا أمرهم له سطوته وبأسهم شديد، وكونوا نواة صالحة أطلق عليها مصطلح «أهل السنة والجماعة» فى مقابل مصطلح الفرق: من معتزلة وجهمية وخوارج وشيعة ومرجئة...... إلخ. وجعلها المحدِّثون، وسار على دربهم المتكلمون، الفرقة الثالثة والسبعين. يقول صاحب الفرق بين الفرق:

فأما الفرقة الثالثة والسبعون، فهى أهل السنة والجماعة، من فريقى الرأى والحديث دون من يشترى لهو الحديث. وفقهاء هذين الفريقين، وقراؤهم ومحدثوهم، ومتكلمو أهل الحديث منهم، كلهم متفقون على مقالة واحدة فى توحيد الصانع وصفاته، وعدله، وحكمته، وفى أسمائه وصفاته، وفى أبواب النبوة والإمامة، وفى أحكام العقبى، وفى سائر أصول الدين. وإنما يختلفون فى الحلال والحرام من فروع الأحكام، وليس بينهم فيما اختلفوا فيه منها تضليل ولا تفسيق. وهم الفرقة الناجية، ويجمعها الإقرار بتوحيد الصانع وقدمه، وقدم صفاته الأزلية، وإجازة رؤيته من غير تشبيه ولا تعطيل، مع الإقرار بكتب الله ورسله، وبتأييد شريعة الإسلام، وإباحة ما أباحه القرآن، وتحريم ما حرمه القرآن، مع قبول ما صح من سنّة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واعتقاد الحشر والنشر، وسؤال الملكين فى القبر، والإقرار بالحوض والميزان.

فمن قال بهذه الجهة التى ذكرناها، ولم يخلط إيمانه بها بشىء من بدع الخوارج والروافض والقدرية وسائر أهل الأهواء، فهو من جملة الفرقة الناجية، إن ختم الله له بها. ودخل فى هذه الجملة جمهور الأمة وسوادها الأعظم من أصحاب مالك والشافعى، وأبى حنيفة، والأوزاعى، والثورى.

وفى حديث عنه صلوات الله عليه أن رجلا سأله، فقال: «أخبرنا عن أهل الجماعة، ومن أهل الفرقة؟ ومن أهل السنة؟ ومن أهل البدعة؟» قال: «أما أهل الفرقة فالمخالفون لى ولمن اتبعنى، وإن كثروا. وأما أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله عز وجل وكتابه وسنّة رسوله صلى الله عليه، العاملون بآرائهم وأهوائهم وإن كثروا. وأما أهل السنّة فالمتمسكون بما سنه الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه، وإن قلوا»[1].

---

(١) الزينة ج ٣ ص ٢٥٥ ـ ملحق بكتاب الغلو والفرق الغالية. د. عبد السلام السامرائى، ط دار واسط ـ بغداد.

وأما مصطلح « الجماعة » ، فأصل ذلك اجتماع الناس على أبى بكر بعد النبى صلى الله عليه وعلى آله، ثم على عمر، ثم على عثمان، ثم على عليّ . . . فقيل لهم: أهل الجماعة. وكان هذا الاسم قد بان لهم بعد خروج على رضى الله عنه وأصحاب الجمل وأهل الشام، حتى قتل عليّ رضى الله عنه. فلما قتل وكثرت الفتن بخروج الحسن، ثم بخروج الحسين، ثم بعد ذلك أيام ابن الزبير والخوارج . . . كان السواد الأعظم وعامة الناس مجتمعين على بنى أمية أيام معاوية، وبعده على ولده، ثم بعد ذلك على بنى مروان . . . فادعى جمهور التابعين هذا الاسم، وقالوا: نحن أهل الجماعة . . فمن خالفنا فقد شق العصا، وخالف الأمة، وترك السنَّة، ونحن أهل السنَّة والجماعة. يعنون أنهم مجتمعون على إمام واحد مع اختلافهم فى المذاهب والآراء، وابتداعهم الأهواء الكثيرة، وإقامتهم على التنازع والتشاجر بينهم فى الأحكام والفرائض.

أدرك الخلفاء العباسيون بوضوح، أهمية الدور الذى كان الفقهاء قد لعبوه فى مصاير الدولة، فجعلوا التعاون بين دولتهم الجديدة وبين الفقهاء ركنا ركينا فى سياستهم. ولو لم تتغير الدولة، لكان مقدرا للتطور الذى بدأ فى ظل الأمويين نحو إقامة نظم ملكية مركزية، ونحو صهر العرب، ذوى السيادة والتميز حتى عهدئذ، فى نطاق الأمة الإسلامية عامة، أن يستمر استمرارا طبيعيا، إلا أن تغير الدولة أسرع بإنجاز ذلك التطور، وجعل وجهته واضحة محددة. وسر ذلك، أن العباسيين إنما نالوا الخلافة وحافظوا عليها بقوة التحالف الذى نشأ بين العرب النازلين فى خراسان وأرستقراطية الفرس الذين اعتنقوا الإسلام فى تلك البلاد. فأراحوا الخلافة من وطأة العصبية القبلية العربية. فقد أخذوا يؤدون للناس ما للخلافة من منزلة دينية ومن مهمات دينية، ويرعون الفقهاء رعاية يكفلون بها حماية رسمية «لمذهب سنِّى» يوحد أمر الجماعة.

ثم إن الارتباط الوثيق بين السنة والخلافة العباسية كان مقدرا له أن يؤدى ـ بل أدى فى الواقع ـ إلى أن يرفض المذهب السنى كل الجماعات التى تعارض الحكم العباسى، فانحاز البربر المعارضون للعباسيين فى شمال غربى إفريقية إلى المذهب الخارجى، ونجح المذهب الشيعى نجاحا مطردا فى أن يجتذب إليه القبائل العربية فى بلاد العرب وبادية الشام.

وقد وقع النزاع علنا، عندما قام المأمون وخلفاؤه يحاولون فرض المبادئ ذات الصبغة اليونانية، التى نادى بها فريق المعتزلة «مذهبا رسميا»، ويضطهدون زعماء السنَّة المعارضين. وانتهى الصراع بانتصار السنة، وكان برهانا قاطعا على استقلال النظام

الدينى الإسلامى عن الخلافة وغيرها من المؤسسات السياسية، وعلى أن الحكام السياسيين لا يستطيعون الإشراف على مصادر سلطان الدين لأنها ملك للجماعة ولا علاقة لأحد بها، وأن الخلافة ذاتها نابعة من ذلك السلطان، وأنها رمز سياسى له.

وكانت هذه الأحداث ذات أهمية أساسية فى مستقبل الإسلام كله، ذلك أنها حالت دون أن يرتبط بأى نظام سياسى، وأمدت النظام الدينى والجماعة معه بالحرية اللازمة للتطور على أسس ما يحويه الإسلام من طبيعة ومنطق ذاتيين. وفى الوقت نفسه، كان النزاع بين النظم الدينية والسياسية يقوم على نحو أكثر تعقيدا وأقل وضوحا، فى ميدان آخر، إلا أن ثمراته على هذا الصعيد لم تكن فى صالح النظام الدينى.

والمنحى السياسى الفارسي، استتبع صراعا بين المثل العليا الأخلاقية والاجتماعية، ودار أكثره فيما قد نسميه السيادة العربية. وتسمى حركة بث الصبغة الفارسية باسم «الشعوبية». وقد جرى الناس على أن يعتبروها تيارا من رد الفعل، ظهر بين الفرس ضد السيادة العربية. إلا أن هذا تفسير غاية فى الضيق. فقد كان أصحاب هذه الحركة هم طبقة الكتاب العاملين في الدواوين. وكان نفوذهم قد ازداد زيادة بالغة فى ظل الدولة العباسية، لسببين:

أولهما: أن الخلفاء أكثروا فى سرعة، من استخدام الموظفين فى دواوين الدولة.

وثانيهما: أن نفوذ الوزراء ورؤساء الدواوين كان يعظم ويتزايد.

فأهمية الحركة الشعوبية إذن، تكمن فى أنها تمثل جهود طبقة الكتاب ليفرضوا (وهم يتحاشون الاصطدام جهارا بالنظام الإسلامى) سيطرة تقاليد البلاط الفارسى. وليس هذا وحسب، بل ولكى يبعثوا البناء الاجتماعى الفارسى القديم بكل ما يحويه من مراتب طبقية متمايزة، ولكى يحلوا روح الثقافة الفارسية محل ما خلفته التقاليد العربية من مؤثرات فى المجتمع المدنى الجديد المتطور بسرعة فى العراق، وسبيلهم إلى ذلك أن يترجموا للناس وينشروا بينهم كتبا فارسية الأصل تلقى بينهم ذيوعا ورواجا.

وتمخضت هذه الحركة عن أولى النتائج، وإذا بالمانوية المستخفية فى العراق تنبعث من جديد، وانتشرت فى مجالات أوسع روح استخفاف بالدين، وقلة احترام له، خفية مستترة.

وبينما كانت الخلافة تحاول أن تستأصل شأفة الزندقة بتعذيب أصحابها، اتجه المفكرون الإسلاميون ممن كانوا أكثر ثقافة وتشددا ـ أعنى رجال المعتزلة ـ إلى المؤلفات

الفلسفية الإغريقية وإلى مؤلفات الجدل النصراني الهلنستي، حيث وجدوا وسائل الجدل التي تكفل لهم أن يقارعوا الثنوية حجة بحجة وأن يفحموهم، وأن يسندوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن.

وفى الوقت ذاته، دخلت حركة الشعوبية فى مرحلة من الهجوم العلنى على العرب، وتوجيه النقد الجارح اللاذع للتقاليد والأمجاد العربية، وبذلك دفعت بالنظام الدينى كله إلى أن يقف نصيرا للدراسات العربية على أسس دينية، لأن هذه الدراسات هى التى كانت تزود «العلوم الدينية» الناشئة بالأسس اللازمة لها. وبذلت جهود لمواجهة ما أبداه الشعوبيون من نشاط أدبى، ومن تلك الجهود ولد أدب عربى إنسانى متشرب بتقاليد الجزيرة العربية ونظمها، حسبما كانت قبل ظهوره.

وهكذا، كانت المقاومة المضادة للشعوبية ذات طرفين : دينى وأدبى، وكانت مقاومة استطاعت بقوتها ووزنها أن تكبح، فى سرعة، تيار الأخطار التى تنطوى عليها الحركة الشعوبية . .

فلما تم النصر فى مقاومة الشعوبية، برزت خصائص المذهب السُّنى. فقد تمسك هذا المذهب تمسكا شديدا بمبدإ استقلاله الروحى، وبحقوقه وواجباته فى فرض المقاييس الأخلاقية الإسلامية.

وكانت النتيجة الفورية لذلك، أن ظهر انقسام ظل إلى عهدئذ كامنا أو مستورا، بين النظام الدينى والنظام السياسى. فقد ترك النظام الثانى حرا فى تطوره، دون أن يكون للنظام الدينى سوى سيطرة ضئيلة نسبيا عليه. ولما اتسعت الهوة بين واقع الحكم السياسى، والمعايير الخلقية فى الإسلام، اتضح لعلماء السنة أنفسهم أن استقلالهم الروحى محفوف بالخطر، لأنهم أصبحوا مضطرين لأن يسلموا بمزيد من التنازلات والتسويات التوفيقية التى أصبحت تنتزع منهم انتزاعا، من أجل الحفاظ على مبدإ الوحدة.

استطاع فقهاء السنَّة أن يخلصوا الإسلام من المصالح والتقاليد السياسية والعنصرية. وفى تلك الخطوات تم عمل آخر مواز للأول، فى الوقت نفسه، أعنى تحديد مضمون الإسلام بعيدا عن التأويلات المذهبية وتعسف الفرق. كان الإسلام فى البداية نهجا فى الحياة من جميع نواحيها، اتخذ وجهة أخلاقية خاصة. نهجا قررته اعتقادات عامة مستمدة من القرآن. وقد استهدف الفقهاء، فى الأدوار الأولى من مراحل الصراع، أن يحافظوا على ذلك النهج فى وجه مختلف ضروب التحدى. وقد نعتت ضروب التحدى هذه بأنها كانت خارجية، إذا نحن نظرنا إلى أن القوى التى حفزتها كانت

مستمدة من قيم أخرى، وإن صدرت جميعها من داخل الجماعة، وتمثلت فى طريقة خاصة من التأويل للإسلام. ولهذا، اضطر الفقهاء عند مواجهة كل تحد منها إلى أن يهاجموا التأويل المتصل به. إلا أنهم نزعوا فى البداية إلى نبذ كل ما لا يرتضونه، لا إلى إحقاق ما يرتضونه بطريقة إيجابية، وذلك حرصا منهم على أن يحتفظوا بأكبر قسط ممكن من الوحدة الأخلاقية.

وأصبحت هذه السياسة، التى اتبعها فقهاء السنّة عامدين، دون إخلال أو تردد، خاصة بارزة من خصائص السنة. وأبى الفقهاء السنّيون، على نقيض الفرق الصغيرة المنشقة التى اعتنقت ما أنكره أهل السنة، أن يضعوا حدودها حاسمة فارقة، وأباحوا قسطا كبيرا من الحرية فى التأويل والاختلاف فى الفروع، ولم يتجاوزوا حد التوكيد على شىء غاية فى بساطته، وهو مبدأ الولاء للجماعة.

وخطا التنظيم الإسلامى خطوة أخرى، تجاوز بها موقف الدفاع ضد الانحراف، وبلغ مرحلة التعريف الإيجابى لماهية العقيدة، وهى مرحلة اشتملت على تكوين علم الكلام. وحينئذ، قام بخطوة كانت ذات أهمية حاسمة فى تاريخ الإسلام كله، ووجهت الثقافة الفكرية الإسلامية بالتالى فى وجهة لم تحد عنها.

وإذا بحثت عن أصول المنهج المتبع فى هذه الخطوة، وجدتها فى المشكلات العملية التى واجهت الجماعة أكثر مما تجدها فى النزعات الفلسفية. ويبدو أن أولى المشكلات إنما كانت تتصل بتطبيق الشريعة. فعند نهاية القرن الأول، أخذت تطبق فى مختلف المدن والولايات قواعد فقهية منفصلة ومختلفة، استمدت من تفسيرات الفقهاء فى كل بلد، وأصابها التعقيد بما فى ذلك البلد من قوانين عرفية ونظم إدارية. ولحظ كبار الفقهاء ما كان ينطوى عليه هذا الأمر من خطر. واقتضى هذا الأمر نشوء علم جديد غايته جمع الحديث ونقده وتصنيفه وتنسيقه والحصول فى النهاية ـ بقدر الإمكان ـ على مجموعة متفق عليها يتقبلها الجميع. وقد استأثرت هذه المهمة بالكثير من طاقات الفقهاء والعلماء فى القرن الثالث، ولكن القائمين عليها أحرزوا نجاحا حتى أصبح حديث الرسول الصحيح يعتبر مرجعا ثانيا معتمدا للفقه والعقيدة.

واتبع فقهاء السنّة هذا الأسلوب نفسه فى موقفهم من علم الكلام وهم يصارعون أسلوب النظر العقلى الذى استخدمه المعتزلة فى تفسير العقائد القرآنية. فإن فقهاء السنة لم يلجئوا إلى الجدل لتأييد مواقفهم، بقدر ما اعتمدوا على الأحاديث النبوية. وبهذه الطريقة ذاتها كسبوا جمهور المسلمين إلى صفوفهم.

وكان فقهاء المسلمين، الذين قاموا بهذا الدفاع عن الوحدة فى وجه الانحرافات

الهدامة ، لا يزالون يشعرون بأن أسس دفاعهم مصطنعة ، وأن وسائل الدراسة التى استخدمتها «علوم الحديث» إنما وضعت لتأييد صحة البناء كله بمعايير شكلية . وهذا لم يكن كافيا . ولذلك فإنهم ، استجابة للنزعة العامة فى الفكر السنى ، دعموا تلك الأسس بمبدإ ينص على أنه إذا أجمع الفقهاء المجتهدون على مسألة كبرى من مسائل العقيدة أو الفقه ، فإن إجماعهم حاسم قاطع ، وإثارة الجدل من حول تلك المسألة المجمع عليها مروق وضلال . أما المسائل الصغرى ، فلا مانع من الاختلاف حولها نظريا وعمليا . وبهذا تمكنت أن تبقى موحدة من حيث المبدأ فى وجه صنوف الضغط السياسى والكوارث ، والسيل الدافق من الأفكار الجديدة والشعوبية . بفضل تلك المصادر وهى :

١ ـ كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تفسره وتكمله .

٢ ـ السنَّة النبوية الصحيحة .

٣ ـ مبدأ الإجماع الفقهى .

واستغل الشيعة ، معارضو النظام السُّنى ، ما لدى هذه الطبقات من مظالم اجتماعية واقتصادية ، وقاموا بدعوتهم . غير أن ما أحرزوه من نجاح بين أعراب بادية الشام وأكارى السواد وعوام المدن ، اقتصر على خلق نواة للفوضى الاجتماعية ، دون غايات بناءة أو مثل عليا ثقافية ، ولذلك لم تكن هذه الحركات الشيعية ذات أهمية كبيرة فى تطور الثقافة الإسلامية . وأهم منها فى هذا الصدد تلك الحركة الفاطمية الإسماعيلية «الموجهة» ، التى قامت قبيل نهاية القرن الثالث . فقد استهدفت هذه الحركة إقامة نظام دينى جديد على أساس المزاوجة بين الإسلام والثقافة الهلنستية وكسب تأييد الطبقات المثقفة الجديدة . وأقام قادة هذه الحركة مراكز نظامية للتعليم المنهجى ، ونظموا دعوة واسعة النطاق لنشر تعاليمهم . ولم يفتهم الاهتمام بالجماهير الشعبية ، فأقاموا فى المدن مراكز ونقابات لأصحاب الحرف . فلما انتقلت الخلافة الفاطمية من تونس إلى القاهرة (٩٧٣) كان دعاتها منبثين فى جميع أرجاء العالم الإسلامى .

وقد قدم أنصار المذهب الفاطمى والميالون إليه إسهامات فى شتى الميادين الفكرية ، فظهر أبو حاتم الرازى والفارابى فى الفلسفة ، وعلى بن يونس فى الهيئة ، وابن الهيثم فى الطبيعيات والبصريات ، وماسويه وعلى بن رضوان فى الطب . وكتب إخوان الصفا رسائلهم فى العلوم الطبيعية . ولكن أهمية الحركة الفاطمية فى النهضة الإسلامية ينبغى ألا تقاس فحسب بما حققه هؤلاء الأنصار وأمثالهم ، وإنما تقاس أيضا بالتشجيع الذى حفزت به كل ضروب النشاط الفكرى حتى بين معارضيها فى السياسة والدين ، حتى

استمر تأثيرها طويلا بعد سقوط الخلافة الفاطمية (سنة ١١٧١ م). فقد بثت روح البحث الطليق، والجهد الفردى، والتفاعل بين الأفكار، وكل هذه العناصر تجلت فى مؤلفات معظم أعلام الكتاب فى فارس والعراق أثناء القرن الرابع، وبخاصة ابن سينا، ووجدت صدى حتى فى إسبانيا الإسلامية بالرغم من نزعات التشدد والتضييق لدى المذهب السُّنى المالكى وأمراء المرابطين.

وامحت فى الحضارة الجديدة قسمة الناس اجتماعيا إلى فريقين : عرب وغير عرب، بل ضعف شأن الفوارق فى قسمتهم إلى مسلمين وغير مسلمين. فاشترك علماء اليهود والنصارى فى جميع وجوه النشاط الفكرى مع العلماء المسلمين على السواء، وكان لهذه المشاركة أثرها فى مكانتهم الاجتماعية، إذ فتحت لهم الطريق إلى مناصب رفيعة فى الدولة ووظائفها العامة، وإن ظلوا عرضة لبوادر العوام، ونزواتهم بين الحين والحين. وانساق زعماء السنَّة أنفسهم فى هذا التيار العام حتى بلغ بهم الأمر أن سندوا الأسس العقائدية فى مذهبهم بحجج كلامية مستمدة من النظريات العلمية السائدة، ولكنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أن كثيرا من فروع الدراسة يحتوى نزعات إلحادية، وأصروا على تجنب المحاولات المضادة التى كان يقوم بها أمثال ابن سينا للربط بين النظريات الفلسفية السائدة وبين مبادئ الإسلام.

بيد أن النهضة الإسلامية، من الناحية الأخرى، كانت تعانى نواحى ضعف خطيرة إذ اقتصرت ثقافتها وحضارتها على المدينة، فقلما شاركت الأرياف فى الحضارة الناشئة أو لعلها لم تشارك فيها أبدا، وظلت تفصلها عن المدن هوة اجتماعية واسعة. ثم إن عدم الاستقرار فى النظم السياسية، وانعدام المرونة والنمو، واضطراب العلائق الاجتماعية الذى حال دون قيام نظم بلدية ـ إن كل هذه الأمور، حتى فى المدينة نفسها، كانت تنطوى على خطر دائم يهدد نواحى النشاط الثقافى خارج نطاق السنة التى وقفت من تلك الأمور المذكورة موقفا غامضا. وعلى ما حققته النهضة الإسلامية من منجزات ثقافية فذة، ظلت أسسها ـ من ثم ـ سطحية، ليس لها جذور عميقة فى أغوار الحركة الإسلامية، أو فى الكيانات الاجتماعية القوية. فاقتصرت على طبقة محدودة من مجتمع المدينة ـ وإن ظلت لمدة قصيرة طبقة ممتدة منتعشة الحال ـ واعتمدت فى قيامها على عوامل مؤقتة. وقد كانت إذا تقلصت فى ناحية، استطاعت الامتداد والتوسع فى ناحية أخرى ما دامت حضارة المدينة مزدهرة نامية، غير أن استمرارها كان رهنا باستمرار العوامل المؤقتة التى تمثل أسس وجودها.

وهكذا وقف أهل السنَّة والجماعة بين الدولة والرعية، وطالبوا أن تمنحهم الرعية

ولاءها كاملا . وبذلك بقيت هناك حلقة إيجابية قائمة بين الحكام والشعب . فلما أزيلت هذه الحلقة بتكوين جيوش محترفة من العبيد والمرتزقة ، انعدم ولاء الشعب للحاكم ولم تبق هناك أى علاقة منتظمة ، وكانت الصلة الوحيدة التى استمرت قائمة هى وظيفة جمع الضرائب . وقد أحسن من قال : لم يكن للمسلمين فى العصور الوسطى « دول »» حقيقية ، إنما كانت لهم «إمبراطوريات»» تتفاوت سعة ، وإن الوحدة السياسية الوحيدة لدى المسلمين إنما كانت تمثل فى ذلك المفهوم الأيديولوجى القوى ـ مفهوم «دار الإسلام» .

واتسم موقف الناس من النظم السياسية أولا بعدم المبالاة ، ثم تحول عدم المبالاة إلى عداء ، مما أدى بالحكام والأسر الحاكمة وطرائق الحكم إلى الاعتماد ، إلا فى النادر ، على نوعية القوى العسكرية . وكانت الأسباب التى قدمنا ذكرها قد حالت بين النظام الدينى وبين قيامه قياما مثمرا بدور الوساطة بين الفئات المتنازعة ، ولذلك جاء التاريخ السياسى أواخر القرن الثالث وطوال القرن الرابع ، فى معظمه ، سردا لأخبار التنازع على السلطات بين الخلفاء والأمراء والجيوش ، ذلك التنازع الذى كان ينتهى فى كل مرة بانتصار قادة الجيوش . وهكذا ، شهد القرن الرابع كيف انهار التنظيم السياسى الذى أقامته الخلافة على أنقاض الرومان والفرس انهيارا تاما . وجاءت الضربة النهائية خلال القرن الذى حكمت فيه غربى آسيا دول شيعية ـ تلك فترة سادها سوء الحكم والفوضى ، وأصيب فيها الريف بأبلغ الأضرار ، وإن تكن الفوضى والانقسامات المذهبية قد أثرت أيضا فى المدن بدرجات متفاوتة .

وأصبح للهيئات الاجتماعية بالمدن فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فى القرون الوسطى مظهر فذ مشترك فيما بينها ، وذلك هو نشوء أحزاب شعبية ، متفاوتة فى حظوظها من التنظيم ، وكثيرا ما تثور الخصومات الثورية العنيفة بينها ، أو فيما بينها وبين الدولة . وقد نجد أمثلة هذه الحال فى النزاع الذى قام فى بغداد بين السنة والشيعة ، وفى أعمال الشغب التى قام بها الكرامية فى المدن الفارسية ضد الإسماعيلية .

ذلكم موضوع الكتاب . . أسأل الله أن يجعله مقبولا ، ويتبعه الجزء الخاص عن الشيعة . وبالله التوفيق .

دكتور / محمد إبراهيم الفيومى

تحريرا فى : ١٢ ديسمبر ١٩٩٦ م

الموافق غرة شعبان ١٤١٧ هـ

الباب الأول

الفِرَقُ الإسْلاميّة

الفصل الأول

نشأة النظرية السياسية فى الإسلام

١ ـ العرب قبيل الإسلام

لا شك فى أن حالة البدو فى الصحراء كانت بسيطة ساذجة . أما فى المدن ، كمكة والمدينة ، فقد كان لهم قانون متطور . فمكة بلد تجارى ، له علاقات تجارية مستمرة بسوريا الرومانية البيزنطية ، وبالعراق الساسانى ، وباليمن . والمدينة كانت بلدا زراعيا ، تضم جالية كبيرة من اليهود . فكانتا متأثرتين بالقانون الرومانى الإقليمى ، والقانون الساسانى ، والقانون اليهودى ، حتى ليمكننا القول : إن البلدان العربية كانت محكومة فى القرن السادس الميلادى بقانون عربى متشعب الأطراف ، به عناصر من أسس عربية تعارف عليها العرب ، اختلطت بها أنواع من القانون الرومانى والساسانى واليهودى تطورت إلى درجة من نوع ما ، مختلفة اختلافا ملحوظا عما كانت عليه الحياة البدوية التى يحياها البدو فى الصحراء(١) .

على أنه لم يكن لديهم حكومة منظمة ، ذات سلطة تشريعية تسن القوانين ، وتقوم على تنفيذها ، وإنما كان هناك اصطلاح على الأوضاع التى استمدوها من النظم التى نقلوها من الأمم المجاورة ، التى عايشوها وخالطوها أثناء رحلاتهم التجارية ، وتأثروا بها ، وتشكلت أعرافهم المشيخية . ولم يكن العرب على الحقيقة ينتظمون فى جماعة لها كيانها المستقل . وإنما كانوا أمة بلا أرض محدودة ، وبلا سلطة إلا سلطة القبائل وسلطة رؤسائها ، وبلا رابطة إلا رباط الدم ، الذى يربط الفرد بقبيلته التى كانت تدفع الدية عنه ، وتقوم بفكاك الأسر ، وحماية الحمى . وهم على هذا الوضع القبلى كانت لهم تقاليد ، فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وولائمهم وأعيادهم ، وفى نكاحهم وطلاقهم ، وبيوعهم وسائر معاملاتهم . وكانت لهم محارم يحرمونها كالأمهات والبنات والأخوات وغيرهن . ولهم مزاجهم فى مظالمهم فى مثل الجنايات والديات والقسامة وما شاكلها(٢) .

---

(١) تاريخ الفكر الدينى الجاهلى ، د. محمد إبراهيم الفيومى .

(٢) حجة الله البالغة : ج ١ ص ١٢٦ ، ولى الله الدهلوى .

٢ ـ الدعوة الإسلامية

(١) الدعوة فى مكة :

بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هؤلاء العرب وهم على هذا الحال ، فقام بأعباء النبوة نحوا من ثلاث عشرة سنة بمكة . وكانت مهمته الأولى وغرضه الوحيد بمكة مقصورا على الدعوة الدينية ، وإرجاع الناس إلى إله واحد . وكانوا يتعجبون من دعوته إلى إله واحد ، قال تعالى :

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (١) .

ونبذ عبادة الأوثان والإيمان بالبعث بعد الموت ، والإيمان بالحساب فى اليوم الآخر والإرشاد إلى مكارم الأخلاق .

وعلى هذا ، جاء الوحى فى هذه الفترة المكية وثَرَّ هذه الموضوعات ، مثل : الإيمان بالله وتوحيده وتنزيهه والإيمان برسوله ، ووصف آثار الله فى مظاهر الطبيعة ، وأحوال الأمم الغابرة ، وقصص الأنبياء ، والإزراء على الضد من هذا بالآلهة الباطلة والسخرية من ضعفها . ولم يتبع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة إلا نفر قليل من الناس ، وكان يود لو أنه ضم إليه القرشيين من أهل مكة ، ولكن لم يتبعه فى هذه الفترة المكية إلا أفراد قلائل منهم ، ومن قبائل أخرى ومن طبقات غير عالية وبعض عبيدها .

(٢) الدعوة فى المدينة :

كانت الهجرة إلى المدينة ، وبها تكونت أمة جديدة ، وأصبح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإضافة إلى نبوته ورسالته القائد الأعلى الروحى والسياسى لهذه الأمة الجديدة . فقد كانت المدينة قبل الإسلام مسرحا لمعارك عنيفة بين الأوس والخزرج ، ولم تكن واقعة «بُعاث» فاصلة بينهما ، فلم تأت بالأوس المنتصرين إلى الحكم ، كما أنها لم تحسم ما بينهم من خلاف ، بل على العكس من ذلك أصبحت الحال شرا عما كانت عليه من قبل ، حيث لم ينسوا مسألة الثأر الحية ، وإنما تركت للانتقام الشخصى ،

---

(١) سورة ص ، آية : ٥ .

حتى إذا ما جاء النبى أخذ بزمامهم فخضعوا له . وقد كانت سرعة خضوعهم له ، وهو أجنبى عنهم ، نتيجة الفوضى التى لا يمكن البقاء عليها ، مجالا للاختلاف بين المستشرقين ، فهم يرون أن الدافع وراء ذلك الخضوع والانقياد له ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أن المدنيين الذين بايعوا النبى كان الباعث لهم سببا سياسيا دعت إليه حالتهم المدنية . لكن المؤرخين الإسلاميين يرون أن الباعث الأول : تعاليم الإسلام التى عرضها عليهم النبى فى البيعة الأولى والثانية ، والتى قبلتها طائفة المدنيين مخلصين ، ونشروها فى بلدهم هى السبب المباشر لدخولهم الإسلام . وذلك هو ما يؤيده الواقع ، ويرجحه فى نظرنا أن الذى ساعد على انقيادهم للإسلام وجود عدد كبير من اليهود الذين يساكنونهم ، ومن النصارى الذين يجاورونهم ، بالإضافة إلى أنهم كانوا أهل فلاحة واستقرار . فمن هنا نرى أن الروح الدينية عند أهل المدينة كانت هى الباعث الأكبر لقبول الإسلام ، فكان لابد من وضع أسس سياسية واجتماعية وتشريعية لهذه الأمة الجديدة ، مما هو لازم فى تكوين حياتهم التى أخذت تسلك فى أمورها مسلكا جديدا .

وعلى صور هذه العقيدة الدينية الجديدة أخذت تتطور الأمور وتتغير ، حتى تتناسب مع الدين ومبادئه . وكلما اتسعت دائرة التعاليم الجديدة ، كانت الحاجة ماسة إلى جعل الحياة الاجتماعية على توافق وتناسق معها .

يقول فيلهوزن(١) : كوّن الرسول فى المدينة على أساس من الدين ، جماعة موحدة ، وكان الأمر اللازم هو الواجب الأولى الذى ينحصر فى إقامة النظام والسلام والقانون . ولما لم تكن هناك سلطة أخرى غير سلطته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أخذت السلطة الدينية مكان الصدارة ، وصارت لها القوة ، وتوطدت أركانها بفضل أنها حققت ما يرجى منها . وفى هذه الأحوال تجلت قوة الدين ، ولها طابع سياسى غالب ، فأنشأ جماعة ، وأوجد فوقها سلطة مطاعة ، وكان هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ رمز رئاسة الدولة . وهكذا ظهرت بين العرب من طريق الإيمان بالله ، فكرة الرياسة ، بعد أن كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن أذهانهم . وقد ظهرت بظهور ذلك فكرة أخرى ، هى أن الحق فى السيادة لا ينبغى أن يكون لقوة إنسانية تفرض نفسها على الناس من خارج ، وليست السلطة المخوَّلة للحاكم قنْيَة خاصة يتصرف فيها صاحبها على النحو الذى يعود عليه بالنفع ـ بل الملك لله . فليس النبى مجرد مبلغ عن الله ، بل هو أيضا الرئيس السياسى الشرعى الوحيد على الأرض . وكان معنى السيادة الإلهية ، هو : سيادة العدل والحق وليس تقديس الله فقط .

(١) تاريخ الدولة العربية . ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة .

(٣) موقف مجتمع المدينة من الدعوة الجديدة :

كان هناك المسلمون الذين استقبلوا الدعوة الجديدة بالإيمان الصادق ، ورأوا فيها مستقبلهم ، وهم مهاجرون وأنصار .

أما المهاجرون : فهم الذين سبقوا إلى الإسلام من قبائل مكة ، وكانوا قلة ، خرجوا من مكة فى أثر النبى وصدِّيقه أبى بكر ، بعد هجرتهما إلى المدينة . وأما الأنصار : فهم يتكونون من عرب الأوس ، والخزرج ، ويكونون الجزء الأكبر من أهل المدينة .

وأقام الرسول بين المهاجرين والأنصار إطارا إنسانيا ، حل محل رابطة الدم التى كانوا يتعصبون لها .

وكان هناك المنافقون : الذين كان الرسول يعاملهم بحذر ، ويتسامح معهم كثيرا . وكان أظهرهم أثرا عبدالله بن أبىّ بن سلول ، زعيم الخزرج . فقد كان هذا الزعيم بعد ذهاب سلطانه السياسى أشد خصومة للرسول .

وكان هناك اليهود الذين استوطنوا المدينة «يثرب» والواحات المجاورة لها . وقد كان هؤلاء اليهود ، من الناحية العقلية ، يمتازون بثقافتهم الدينية والتجارية وفلاحة الأرض . فقد عرفوا الوحى والرسول والكتب المنزلة . ومع ذلك ، لم يقروا بالرسول، وناصبوه العداء . وأخذ الخلاف يستحكم بينه وبينهم ، وازداد ولم ينقطع ، حتى أوقع بطائفة منهم ، وطرد أخرى ، وآمنت طائفة . ولا شك أن عداءهم للإسلام والرسول كان خطرا ، ليس من ناحية السياسة والحرب فحسب ، بل أيضا من ناحية استهزائهم به ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو أسئلتهم عن أشياء فى الدين قصد الإحراج والتعنت .

ودار الوحى[1] فى المدينة ، حول مسائل هذه الطوائف ، بنوع خاص ، وما وقع فى المدينة من انقسام الناس ، أمام الدعوة الجديدة يعتبر حالة بيئية محلية ، يستشهد بها الذين فى قلوبهم مرض على أن الإسلام نزل إلى العرب خاصة ولبيئتهم . وليس غير ذلك ، إذ انقسام الناس فى المدينة وهى مجتمع مصغر حال ثابتة للمجتمع الإنسانى كله ، إذ الناس أمام أى دعوة جديدة بين مؤمن بها وكافر ومنافق . ومهما كانت هذه القسمة ثابتة وخاصة بشرية فى أى مجتمع من المجتمعات فقد تتبعها الوحى الإلهى

ودار حول مسائل هذه الطوائف بنوع خاص . فكان الوحى موجها إلى أمور الاعتقاد والأخلاق ، وفى أمور الحرب والسلام ، وكان أهم شىء هو الوحى التشريعى الذى أخذ يبرز فى القضاء والإفتاء والقوانين التى تنظم المجتمع وللعمل بها فى المستقبل .

---

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى : دكتور على حسن عبد القادر .

ومن ناحية أخرى ، فقد أخذ التشريع يهتم بالأعمال ويعطيها الكفة الراجحة ، بعد أن كانت الدعوة قبل هذا موجهة إلى الاعتقاد والعقائد وحدها . ومن هنا تجلى الطابع الخلقى العقدى فى التشريع الإسلامى ، فأخذت النظريات الدينية والأخلاقية تندرج فى التشريع الإسلامى، وتحدد اجتهاد المجتهد ، والدائرة الكبرى التى حكمت الفقه الإسلامى .

فهى من هذا الوجه حكومة العدل . ومن السلطة المخولة للرسول كانت تتفرع أنواع السلطات التى دون سلطانه ، ولكنه لم يعين موظفين بالمعنى الحقيقى ، وإنما كان يكلف من يشاء بمهام معينة يؤدونها ، وهم بعد أدائها يعودون إلى ما كانوا عليه من تلقاء أنفسهم .

ويقول : وأبعد ما يمكن أن يقال فى وصف الحكومة الإسلامية الأولى أنها كانت حكومة القديسين ، فهى لم تأخذ طابع منظمة ذات قداسة خاصة ، ومن هذا الوجه لم تكن شبيهة بالحكومة الدينية اليهودية . ولم تكن بين المسلمين طبقة من الرهبان ، ولا كان هناك تمايز بين الرهبان وبين غيرهم ، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية . فكانت الكلمة لله فى وظائف الجماعة ومنظماتها على حد سواء ، وكان للقضاء والحرب من القداسة ما للصلاة ، وكان المسجد يقوم مقام مكان الاجتماعات العامة ، وكانت الجماعة هى الجيش ، وكان الإمام فى الصلاة هو القائد[1] .

(٤) نظام الإسلام قائم على مفهوم العالمية :

انبثق الإسلام فى جزيرة العرب انبثاقا مفاجئا ، وأقام بسرعة تكاد تعز على التصديق ، فى أقل من قرن من الزمن ، إمبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والغربية . فإنه ، بعد أن أقام نظاما سياسيا شمل جميع تلك المناطق المفتوحة ، ومن بينها التى كانت قد قضت قرونا وهى فى صراع سياسى مع روما ـ صراع تسنده عقيدة دينية منافسة ـ واجه مهمة أخرى ، هى : إدخال هذه المناطق فى نظام ثقافى دينى مشترك قائم على مفهومه العالمى الشامل ، فكان عليه من أجل تحقيق هذا الهدف أن يقاوم تأثير المفهوم العالمى السابق ، أى المسيحية ، فى غربى آسيا والنصف الجنوبى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويضعفه إلى أقصى حد ممكن ، وأن يحطم الزرادشتية والديانات الثنوية فى فارس ، وما بين النهرين ، وأن يقيم حاجزا فى وجه انتشار البوذية فى أواسط آسيا ، وذلك لبلوغ أقصى درجة ممكنة من تحقيق الوحدة الدينية والاجتماعية والثقافية فى طول العالم الإسلامى وعرضه .

---

(١) المرجع السابق .

تحقق فى أثناء تلك المحاولة تفاعل واسع المدى بين شعوب تنتمى إلى أروقة تاريخية وثقافات وتقاليد مختلفة ، سيطرت صيغة الثقافة الإسلامية عليها ، ذاب فيها ما ذاب ونفر منها ما نفر . وكانت الثقافة الإسلامية هى المحك المركزى، يجذب إليه ما يتفاعل مع المعايير الإسلامية ، ويطرد منها ما سقط من حساب الثقافة الصالحة .

وترتكز الأصول الاجتماعية فى الإسلام فى أساسها إلى مجموعة المبادئ الأخلاقية المشتركة التى نادت بها الأديان السماوية من قبل(١) . إذ الإسلام - كدين سماوى - ينبع من ذات المصدر الإلهى الذى نبعت منه الأديان من قبل :

* فدعا إلى ترسيخ معنى الأخوة الإنسانية والدينية بين جميع أفراد الجماعة الإسلامية .

* وأنهم سواسية من حيث القيمة الشخصية الفطرية ، دون نظر إلى ما فى مكانتهم الدنيوية ، ووظائفهم وثرواتهم من تباين واختلاف .

* تعميق معنى العلاقات والواجبات المتبادلة التى تستتبعها هذه المبادئ على مبدإ الإيمان بالله وإسلام الوجه له والخضوع التام له .

* تحقيق مبدإ الأخوة الدينية بما كفل لهم الإسلام من حقوق وواجبات اجتماعية وأخلاقية .

(٥) الإسلام رابطة جديدة للأمة :

لقد هاجر مع النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة المهاجرون ، الذين فقدوا بهجرتهم معه رباطهم بقبائلهم . ثم إن المدنيين أنفسهم ، الذين كانوا منقسمين إلى معسكرين متعاديين ، قد حملوا معهم اختلافهم إلى الأمة الجديدة . وهنا عرف النبى أن الأمة الجديدة لا يمكن أن تنأى عن العصبية ، وترتفع فوق هذه المنازعات ، إلا عندما يلقى رباط الدم جانبا ، ويحل محله رباط جديد . فأقام الرسول مقام الدم رباط الإيمان بالله ، وأسس الأمة الجديدة بالمدينة ، على أساس من الدين الإلهى .

وكان الوحى الإلهى هو المرجع فى كل الأمور ، التى تتطلبها حاجة الأمة . وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يشرحها ، سواء كانت دينية أم دنيوية من غير أن يكون

---

(١) تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٠ : يوليدى فيلهوزن، ترجمة د. عبد الهادى أبو ريدة . مراجعة د. حسين مؤنس

هناك فصل بينهما . فقد كانت أمور السياسة والقانون شأنها شأن المسائل الدينية من العبادات وغيرها . ومن هنا كان الرسول مؤسسا لدولة سياسية ، ولم تكن مهمته علمية دينية فحسب ، ولكنها زيادة على هذا سياسية تشريعية . وكان الإسلام عقيدة وشريعة ونظاما اجتماعيا .

لاشك فى أن الصحيفة ، التى كتبها الرسول - صلى الله عليه وسلم - عهدا بينه وبين أهل المدينة ، ذلك المجتمع الجديد ، وذكرها مؤرخو السيرة النبوية ، كانت بمثابة قانون ينظم الحياة العامة والسياسية . وإلى هذا القانون ، يرجع الفضل فى تغيير أهل المدينة من أحوالهم القبلية القديمة ، ولا سيما إذا عرفنا إلى أى حد قد تغيرت ، وأصبحت منذ ذلك الحين أمة واحدة . وكلمة «أمَّة» كانت لا تطلق قبل الإسلام على الأمة العربية ، إنما أطلقها وأراد منها رابطة جديدة ، تربط الجماعة الجديدة ، وتلغى رابطة الدم التى كونت القبلية والعصبية . فأصبحت « الأمة» تدل على جماعة تقوم على الدين . فهى جماعة الله التى ترعى مبادئ السلام . والله هو الشهيد . فالإيمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم أول من يجب عليهم الوفاء بالاتحاد ، وفى الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقوق التى يخولها لهم .

وتؤكد الصحيفة أن الأمة لا تشتمل على المؤمنين وحدهم ، بل هى تتألف من كل من يتبعهم ويحارب معهم . وكذلك اليهود ، شملتهم الأمة ، وإن كان اليهود لا تقع عليهم نفس الواجبات ، وليس لهم نفس الحقوق . وكذلك المشركون دخلوا فى مفهوم الأمة ، غير مستبعدين منها . وبرغم أنها كانت تشمل اليهود والمشركين ، فإن درجة الانتماء ليست واحدة ، مع بقاء التمايز بين من له الحق الكامل وبين التابع والنزيل .(١)

وبمقتضى الدخول فى الأمة ، أصبح على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر فيما بينها ، لأن أول غاية للأمة هى منع الحرب فى الداخل . فإذا قام نزاع ، وجب أن يعرض على القضاء . وجاء هذا المبدأ فى الصحيفة : وأنكم مهما اختلفتم فى شىء فإن مرده إلى الله وإلى محمد عليه السلام . وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حديث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى هذا ، أصبح لا يمكن أن يتحول الأخذ بالثأر إلى ثأر يجر ثأرا . وبذلك أصبح هناك سلام واحد شامل ، هو سلام الأمة ، فأخرجتها هذه الصحيفة عن أن تكون

---

(١) تاريخ الدولة العربية : ص ١٠ .

داخلة ضمن الثأر للدم - بل أصبحت الحرب حربا فحسب ، ولذلك صار السلام مع قومه أمرا يعم ، بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يعقد سلاما لا يكون سلاما للجميع . وكلما كان الدين ينتشر كانت أركان الأمة تتوطد(١) .

(٦) اختلاف الأقاليم المفتوحة نظما وثقافة ، وتفاعل الفكر الإسلامى :

إذا نظرنا إلى انتشار الإسلام ، حسبما تمثل فى عدد من الكيانات السياسية والاجتماعية والدينية المترابطة المتباينة فى وقت معا ، وجدنا مفهوما يشمل منطقة واسعة مترامية الأطراف ، من حيث الزمان والمكان . فقد ظهرت للإسلام ملامح مختلفة فى مختلف الأزمنة والأمكنة . فقد ظهرت للإسلام ملامح مختلفة فى فكره وثقافته بتأثير العوامل المحلية الجغرافية والاجتماعية والسياسية وقوة استجابته لها . وفى تلك المناطق ، أنتجت تلك الاختلافات صورا مميزة للثقافة الإسلامية ، وإن كانت اتخذت لها طابعا إسلاميا مميزا ، انتظمت به مؤسساته ونظمه فى وحدة متناسقة . وأمام تلك العقبات التى واجهها الإسلام فى الأقاليم المفتوحة ، واجه تحديات ثقافية فى تلك الأقاليم ونظمها الثقافية . وكان من أصعب المهمات ، إدخال هذه المناطق فى نظامه الثقافى الإسلامى بحيث يأخذ صفة العالمية ، وأن يحطم الزرادشتية دين فارس ، والديانات الثنوية فى فارس وما بين النهرين ، وأن يقيم حاجزا فى وجه انتشار البوذية فى أواسط آسيا ، وذلك لبلوغ أكبر درجة ممكنة من الوحدة الدينية والاجتماعية والثقافية فى طول العالم الإسلامى وعرضه . وكانت الثقافة الإسلامية لها شأن آخر غير نظم الإسلام السياسية . فبينما كانت عرى وحدة نظام الإسلام السياسى تتفكك وتتحلل وتنهار ، كان تفاعله الثقافى واسع المدى بين شعوب تنتمى إلى أرومة وثقافات وتقاليد وأعراف مختلفة(٢) .

(٧) الإسلام والتوازن بين النقل والعقل :

حين اتصل العقل العربى بالعقل اليونانى اتصالا ثقافيا ، لم يكن عن طريق الغزو الحربى ، فلم يغز العرب ديار اليونان ، ولم تكن صلتهم باليونان صلة غالب ومغلوب . إنما هى الرغبة العربية فى الثقافة وألوان الفنون ، التى دفعت العرب إلى نقل التراث العقلى اليونانى والشرقى ، عن طريق المراكز الثقافية التى كانت موجودة فى مدارس : «جند يسابور» و « حران » و « الإسكندرية » ، وبفضل الرهبان اليعاقبة والنساطرة الذين كانوا يقومون على تلك الأديرة والمدارس المبثوثة بالممالك الإسلامية الجديدة . وكان إكبار العرب للتراث الإنسانى ، والإكباب عليه بالشرح والتفصيل

---

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى : د. على حسن عبد القادر - الناشر دار الكتب الحديثة .

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية - د. محمد إبراهيم الفيومى .

والترجمة والتأليف فيه من أروع صور الحوار الفكرى الثقافى بين الإسلام وتراث الحضارات السابقة ، ومن أكمل صور التضامن البشرى سموا بالحضارة ، وتزاوجا بين التراث الإسلامى والتراث العقلى .

أدى هذا التوسع الثقافى إلى تزاوج بين التراثين . ولم يكن تزاوجا عقيما ، بل تلاقح وأخصب ؛ فامتزج المنطق باللغة ، فكان علم النحو وعلم فقه اللغة ، وكانت تلك النهضة الفكرية الإسلامية . ودخلت الفلسفة أبحاث اللغة العربية ، فكانت تلك البحوث الفلسفية حول اللغة العربية ، ودار حول قضايا كان طرحها جديدا ، مثل : هل اللغة اصطلاحية أو توقيفية ، كتلك القضايا التى عالجها ابن جنى فى كتابه : الخصائص[٢] . كذلك امتزج المنطق بأصول[٣] الفقه ، وبالمسائل الكلامية . . وبالعقول العربية ، فكان الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد .

هذه الولائد الثقافية ، تشهد على مقدرة العقلية العربية على الإفادة من الثقافات وهضمها وتمثيلها . وإنها لقاح غير عقيم ، على غير ما ذهب إليه فيلسوف نظرية العرق والتميز الأوربى «أرنست رينان» ومدرسته ، التى ذهبت ـ عن قصد ـ إلى تشويه العقلية العربية بأنها لا تحتمل دراسة الثقافات الجادة ، وفق قوله ، وإذا درستها فلا تسيغها ولا تهضمها ولا تقوى على فهمها ؛ فهى عقلية ساذجة لا تستطيع تحليل القضايا المركبة ، وإذا حللتها لا تقوى على تركيبها . . . على هذا الأساس بنى نظريته العرقية التى تعنى التمييز بين الأجناس العرقية : الأمة السامية ، والآرية ، وأتاحت نظريته الاستعمارية للغرب أن يعلن وصايته على تلك الشعوب ، ويفتح الطريق واسعا للنيل منها ومن ثقافتها وقيمها ودينها ، وأحلت الصراع بينهما محل الحوار الحضارى .

إن الإبداع الفكرى والازدهار الحضارى ، لا يولد ولا يزدهر فى جو خانق تسيطر عليه عوامل القهر والتسلط والإحباط والاضطهاد ، إنما يكون ازدهاره دائما مع الحرية السياسية والفكرية ، وحوار الثقافات ، والجدل الحر النزيه عن الخوض فى الأعراض والتدنى إلى تسفيه أصحاب الآراء .

من هنا ، كانت المدارس الإسلامية تحرص على الإبداع الفكرى فى مجالات العلوم ، حتى كانت تلك النهضة الإسلامية الشاملة . لقد كان انفتاحها على الثقافات سببا دافعا إلى مناقشة أصالة تراثها أمام الوافد الجديد من العلوم العقلية ، فكان هناك معسكر المحافظين الذين دأبوا على النقل والنصوص ، ومعسكر المجددين الذين أخذوا

---

(١) الخصائص ـ ابن جنى حققه الشيخ محمد على النجار .

(٢) الإمام الغزالى وعلاقة اليقين بالعقل ـ د. محمد إبراهيم الفيومى .

بنصيب من التراث العقلى « علوم الحكمة » . وكان انقسامهم هذا إلى معسكرين له أثره فى ميادين النشاط الفكرى العربى . فرأينا فى الميدان الفقهى : قائلا بالرأى ، ومبطلا له يذهب إلى النقل . وأما فى النحو : فقائل بالسماع وقائل بالقياس . وفى التفسير : فقائل بالتأويل ، ومبطل له يذهب إلى الرواية . وفى ظل هذه القسمة الثنائية ، العقل والنقل ، تميزت العواصم الإسلامية وحواضرها الثقافية بعضها عن بعض : فمدرسة الرأى بالعراق ، ومدرسة النقل بالمدينة ، ومدرسة الوسط العادل بمصر، ونمت مدارس تشيعت للرأى وأخرى تشيعت للنص، ومن توسط بينهما . ودارت فى مواد هذه المدارس الفرق والمدارس . ولقد كيّف هذا الصراع الفكرى النشاط العقلى الإسلامى تكييفا خاصا، أخذ طابع الحوار الفكرى . وذلك لم يكن بدعا فى الثقافة الإسلامية ، يغض من شأنها أو يقلل من قيمتها ، أو يلحق العقل العربى بسوء كقول « رينان» ، إنما هو الشأن فى القضايا الفكرية ، تقع دائما بين الجذب والطرد ، بين الأخذ والعطاء ، بين الخصومة والتصالح ، وفى هذا تتشكل العلاقة الدائمة التى تربط بين أطراف المتحاورين .

يذهب ابن خلدون فى مقدمته ، إلى تأصيل هذه الثنائية ، فيقول :

إن العلوم صنفان :

صنف طبيعى للإنسان يهتدى إليه بفكره .

وصنف نقلى يأخذه على وضعه .

والأول : هو العلوم الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها ، حتى يفقه نظره ويحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر .

والثانى : هو العلوم النقلية الوضعية ، وهى كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى، ولا مجال للعقل إلا فى إلحاقه الفروع من مسائلها بالأصول(١) .

ومن طريف ما يروى، ما رواه أبو حيان التوحيدى فى مقابساته(٢) . تلك القصة الطريفة كل الطرافة، والممتعة كل الإمتاع، وفى نفس الوقت بالغة أعلى الدرجات فى البراعة والسخرية اللاذعة والفكهة المفحمة . بطلها ابن ثَوَابَة أحد كتاب الدولة

(١) المقدمة : ص ٧٧٦ .

(٢) المقابسات : أبو حيان التوحيدى . تحقيق حسن السندوبى .

العباسية . يقول عنه ياقوت الحموى(١) : إنه كان من الثقلاء البغضاء . أنشأ ابن ثوابة رسالة أسندها إلى غيره ، ضمنها بعض الآراء عن بعض المسائل مما ورد فيها عن تعلم المنطق والهندسة ، وهذه علوم جديدة ، قال فيها على لسان محاوريه : قال له بعض الماكرين : إنك بحمد الله ذو أدب وفصاحة وبراعة ، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسى ، وعلم الأشكال الهندسية ، وقرأت إقليدس وتدبرته؟ ويجد ابن ثوابة في نفسه ميلا إلى النداء ، فيؤتى له بمهندسين : أحدهما نصرانى ، والآخر مسلم، أراد الأول أن يعلمه ما النقطة . والثانى يعلمه ما الخط العقلى فى الهندسة . فيظن أنهما يريدان به شرا ، وأنهما يقصدان إلى أن يزحزحاه عن إيمانه .

وينحل الماكر ابن ثوابة رسالة ، يزعم فيها أن صديقه يقص عليه ما جرى له ، جاء فيها : قلت للمهندس المسلم : خطط . أخذ يخط وقلبى مروع ، يجُب وجيبا ، وقال لى غير متعظم : إن هذا الخط طول بلا عرض . فتذكرت صراط ربى المستقيم ، وقلت له : قاتلك الله ! أتدرى ما تقول؟! تعالى صراط ربى المستقيم ، وإنه لأحد من السيف الباتر ، والحسام القاطع ، وأدق من الشعر ، وأطول مما تمسحون ، وأبعد مما تزرعون . ومداه بعيد له وهو شديد ، أتطمع أن تزحزحنى عن طريق ربى ؟ . . . والله ما خططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض إلا ضلّة بالصراط المستقيم ، لتزل قدمى عنه ، وأن ترديني فى جهنم . وأعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة ومما تعلنون وتسرون .

قال ابن ثوابة : ثم أخذت قرطاسا ، وكتبت بيدى يمينا آليت فيها بكل عهد مؤكد وعقد . . ويمين ليس لها كفارة ، أنى لا أنظر فى الهندسة أبدا ولا أطلبها ولا أتعلمها من أحد . وأكدت بمثل ذلك على عقبى وعقب أعقابهم : لا تنظروا فيها ولا تتعلموها ما دامت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة لميقات يوم معلوم .

تلك المسامرة التى ذكرها ابن ثوابة ، لم تواته من فراغ ثقافى أو ابتدعها خياله ابتداعا ، بل واتته من المشادات والمشاحنات التى كانت قائمة فى عصره حول علوم الحكمة أو علوم «الأوائل» ، اختار منها علم الهندسة موضوعا للتفكه والسخرية ، برغم أن هذا العلم ظل بعيدا عن القضايا الكلامية ، بيانا منه أن الجدل القائم حول هذه العلوم وما يماثلها ، يجانب العقل والدين ولا يخدمهما ، وهو جدل قائم على إشاعة التشويش ، على التراث العلمي . وكان منهج هذا التشويش ، كما رمز إليه ابن ثوابة فى رسالته التى نحلها على لسان غيره : هو أن يأخذ مصطلحا من مصطلحات العلوم مثلا ، كالخط الهندسى العقلى ، ثم يتناول آية أو نصا دينيا ليصادم به المصطلح غير الدينى ، ثم يقوم بخطبة يعرِّض فيها بالجديد أو بالتجديد ، وفى النهاية لم يدرس هذا

(١) معجم .

ولا ذاك ، وإنما اندفع بتعصب أعمى ليشوش بها على من خالف هواه ومغالطاته ، وهذا نوع من التضليل فى الجدل يميل إليه كثير من الوعاظ والزهاد فيما يذهبون إليه من نصائح فى الوعظ والزهد.

من هنا ، كان من رأى التوحيدى فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» ، حين تكلم عن الجدل وآدابه ، أن يكون الجدل بريئا من الآفة ، منزها عن الهوى والعصبية ، محبا للإنصاف فى الخصومة ، منحرفا للحق فى الحكومة . . غير مسترق بالتقليد ، ولا مخدوع بالإلف ، ولا مسخر بالعرف ، مقاوما كل ما يلتاث بالهوس ، ويسمج بالتعصب ، ويجلب اللجاج .

ويقول الراغب الأصفهانى فى كتابه « محاضرات الأدباء فى آداب الجدل » : اجتمع متكلمان ، فقال أحدهما للآخر : هل لك فى المناظرة ؟ فقال : على شرائط ألا تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيرى وأنا أكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوز نفسك تأويل آية عل مذهبك إلا جوزت لى تأويل مثلها على مذهبى ، وعلى أن تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلا منا يبغى فى مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته .

وهكذا صنعت الثنائية ، العقل وتياره والنقل وأصوله ، قدرا ليس بالقليل من التفاعل الفكرى الجاد ، وقدرا ضئيلا أيده بعض المتعصبين الذين ينظرون إلى مسألة العقل والنقل على أنها بدعة . وهكذا جدد الحوار الفكرى بين طرفى الثنائية التواصل الثقافى بين أصحاب المدارس والفرق والمذاهب ، فقارب بينها بما أقامه من جسور ثقافية ربطت بين روافد الفكر الإنسانى ، ثم قدمته الحضارة الإسلامية فى صياغة متجانسة ومتناسقة .

(٨) المدينة عاصمة سياسية وثقافية للخلفاء :

بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صارت المدينة مقر التراث الإسلامى ، والمدينة الرئيسة التى تتقرر فيها أمور الدولة . وكان أصحاب الشورى هم أقدم ستة كانوا لا يزالون أحياء من أصحاب النبى ، أما بقية أهل المدينة فكانت لهم المبايعة لمن ينتخب ، فكان لابد أن تجىء البيعة بعد الانتخاب ، وكان لابد أن تتم البيعة فى المدينة .

أما عن امتيازها على غيرها من الأقطار الإسلامية لهذا العهد ، فقد قرر هذا الامتياز فى مسألتين أصوليتين متصلتين(١) :

أولاهما : أن إجماع أهل المدينة وحدهم ، يكون حجة على من خالفهم ، فى حالة انعقاد إجماعهم . فإذا اجتمعوا ، لم يعتد بخلاف غيرهم .

(١) مالك بن أنس ـ الشيخ أمين الخولى .

ثانيتهما : أن خبر الواحد من نقلهم ، إذا عارضه خبر آخر من نقل غيرهم من الآفاق ، كان ما نقلوه مرجحا ـ على رأى ـ بزيادة مزية مشاهدتهم قرائن الأحوال ، وتقصدهم لنقل آثار الرسول عليه السلام .

وكذلك دعا «مالك» للفكرة فى قوة ، كما نحس من رسالته إلى «الليث بن سعد» ، فقيه مصر . فهذه الفكرة تستغرق موضوع الرسالة كلها . وفى تأييد الفكرة والاستدلال لها ، يقول «مالك» رضى الله عنه : «فإنما الناس تبع لأهل المدينة» . إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وأحل الحلال ، وحرم الحرام ، إذ رسول الله بين أظهرهم ، يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعون ، ويسن لهم فيتبعون» ، حتي يقول : «فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به ، لم أر لأحد خلافا للذي فى أيديهم ، من تلك الوراثة التي لايجوز لأحد انتحالها ، ولا ادعاؤها . ولو ذهب أهل الأمصار يقولون : هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذي مضي عليه من مضى منا ، لم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك جاز لهم»(١) .

على أننا ننظر فى هذوأ المؤرخ المنصف إلى تلك المزايا ، فنراها تتلخص فيما يأتي(٢) :

أولاً : كثرة الصحابة فى المدينة ، وأنه مات بها منهم نحو عشرة آلاف كما فى عبارة «مالك» السابقة ـ وهو أمر لا ينكر .

ثانيا : أن أهل المدينة من العلم بسبيل حسن . رسول الله بين أظهرهم ، وهم يحضرون الوحي والتنزيل ، وكما قال غير «مالك» : قد رأوا آخر الأفعال ، وعرفوا الناسخ والمنسوخ . وهذا الكلام حق فى جملته . لكن المؤرخ يلحظ مع ذلك أيضا أن الصحابة قد التزموا تعليم الناس أحكام دينهم ، وسعوا لذلك فى كل مكان ، كما يقدر التزام الخلفاء الأولين بخاصة ، أن يبعثوا إلى كل قطر من يعلمهم السنن وأصول الدين . وكانوا على هذا الأساس يختارون ولاتهم على البلاد . فيبقي للمدينة بعد ذلك كله من الميزة العلمية ما لايقدره التاريخ مثل تقدير القائلين بإجماع أهل المدينة وإن لم ينكره أصلا .

هذا هو الرأى المعتدل . أما قول المالكية : «إن غير أهل المدينة من سائر البلدان لم تكن السنَّة بها قط متواترة» ، فذلك ومثله ، تحكم متطرف سيبين لنا تطرفه .

ولمسألة الامتياز هذه ناحية أخرى ، بدأت منذ عهد «مالك» ، واشترك فيها هو نفسه . تلك هى الناحية التى تشبه أن تكون عصبية ، قد أثارت نزاعا حادا بين المدينة دار

(١) القاضى عياض : (الترتيب) ١ / آخر ص ٦ وجه وأول ٦ ظهر .

(٢) الشيخ أمين الخولى ، مالك بن أنس .

الدعوة، والعراق دار الدولة، وهو نزاع لا يحجم المؤرخ عن تقدير أثره فى رواج هذه الفكرة عن أهل المدينة ورواياتهم.

قوى هذا النزاع حتى ترك للتاريخ آثارا لا تنكر.

وتحدثنا الرواية عن نصيب الأقطار من علم الدين، فتقول: أما أهل العراق، فأهل كذب، وباطل، وزور. وأما أهل الشام، فأهل جهاد، ليس عندهم كبير علم. وأما أهل الحجاز، ففيهم بقية العلم. وهذه الرواية عن «مالك» نفسه، من حديث بينه وبين «جعفر» ـ وهو الصادق غالبا ـ وتختم الرواية بقول «جعفر» «لمالك»: وأنت عليم الحجاز[1].

كما يروى عنه «ابن عبد الحكم» قوله: إذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته[2].

وتسند الرواية إلى «مالك» نفسه قوله لعراقى شكا قلة ما كتبه من الحديث بالحجاز: بالعراق عندكم دار الضرب، يضرب بالليل ويخرج بالنهار.

ويزيد الأمر حتى يلحق أهل العراق بأهل الكتاب، فيقال فى المدينة: أنزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم[3]. بل قد ينسب هذا القول إلى «مالك»[4] نفسه. ويسند ذلك إلى وصية «لعمر بن عبد العزيز» إذ استأذنه «إسحق بن عبدالله بن أبى طلحة الأنصارى» الفقيه ـ أحد أشياخ «مالك» ـ ت ١٣٢ هـ ـ فى الخروج إلى العراق، فقال له «عمر» ـ فيما يروى ـ إذا قدمت العراق فأقرهم ولا تستقرهم، وعلمهم ولا تتعلم منهم، وحدثهم ولا تسمع حديثهم[5].

وأما أقوال المتأخرين، فأجرأ من ذلك وأقسى.

لكن يتسع صدر المؤرخ النزيه، فيحاول استخراج تهم محددة يستطاع فحصها، فيجد مثلا:

١ ـ اتهام «ربيعة» لهم بنقص العقل، إذ يروى عنه «مالك» قوله: «ورب هذا المقام ما رأيت عراقيا تام العقل»[6]. وهى تهمة ليست أرزن من الأقوال السابقة، ولا

---

(١) الزواوى: (مناقب مالك) ص ٢٤. (٢) المصدر السابق ـ ٥٢.

(٣) الزواوى: (مناقب مالك) ـ ٥٥.

(٤) ابن عبد البر: (جامع بيان العلم ـ مختصره ـ) ـ ١٩٩.

(٥) الزواوى: (مناقب مالك) ـ ٥٧.

(٦) الذهبى: (تذكرة الحفاظ) ـ ١/ ١٩٦.

هى مما يقوله رجل قوى الذكاء « كربيعة » ، فيحكم على العراقيين عامة بضعف العقل ، وهو رجل قدم بلادهم فلزم بيته لم يخرج إليهم ، كما يقول « مالك » نفسه ! ! فهى تهمة لا يوقف عندها .

٢ ـ ضعف الإسناد ، كما يروى أن « مالكا » قال « لحماد بن زيد » حين قدم المدينة : « إنكم يأهل العراق ، تحبون أن تكتبوا عمن لا شهادة له عندنا ، فكذلك أنتم تفعلون فى بلدكم[١] » . مع أن « حماد بن زيد » هذا إمام ثقة ، قال فيه « ابن معين » : ليس أحد أثبت من « حماد بن زيد [٢] » . ولعل هذه القولة لحماد مما يستبعد أن يواجهه به «مالك» .

ومن هذه التهم ما يعزى لبعض العراقيين من قول فيهم ، كالذى ينسب إلى « عبد الرحمن بن مهدى » البصرى الحافظ ـ ت ١٩٨ ـ من أنه قال : لا تكاد أن تهجم على إسناد من أسانيد أهل الكوفة لا تجد له أصلا ، إلا هجمت . وهو اتهام جزئى للكوفة وحدها ، لا يهز العراق كله ، ولكنه مع ذلك لا يستقيم توجيهه بهذا العموم من فقيه محدث « كابن مهدى » ، وإن اتجه على هذه الحال فليس يثبت على النقد بهذه السعة وذاك العموم ، الذى لا يسلم معه إسناد من أسانيد أهل الكوفة ولا يقوم على أصل .

وهكذا لا تثبت تهمة علمية محددة من الحجازيين على العراقيين ، حتى يقف عندها المؤرخ . بل على العكس من ذلك ، نجد المالكية قد قلبوا البحث فى قضية ما بينهم وبين العراقيين ، فتساءلوا عن السبب فى خلاف أهل العراق دون غيرهم لأهل المدينة ، على حين أن غير أهل العراق من سائر البلدان كاليمن ، والشام ، ومصر ، وإفريقية ، والأندلس ، كلهم معترف بفضل علماء المدينة ، وحجة أصولهم ، وتقدم حديثهم[٣] .

فنرى من قولهم فى تعليل هذه الظاهرة شهادة صريحة لأهل العراق ، إذ يردون هذه المخالفة القوية إلى أشياء منها :

١ ـ كثرة جموع المسلمين فى صدر الإسلام فى المناطق العراقية التى منها امتد الفتح شرقا فى عهد « عمر بن الخطاب » .

---

(١) الزواوى : (مناقب مالك) ـ ٥٦ .

(٢) ابن العماد : (شذرات الذهب) ـ ١/ ٢٩٢ .

(٣) الزواوى : (مناقب مالك) ـ ٥٧ .

٢ ـ انتقال الخلافة من المدينة إلى الكوفة ووجود أكابر الصحابة بها ، كأمير المؤمنين «على بن أبى طالب» و «عبدالله بن مسعود» و «سعد بن أبى وقاص» و «أبى موسى الأشعرى» و «المغيرة بن شعبة» و «عمار بن ياسر» و «أنس بن مالك» وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ولم يك مثل ذلك فى غير العراق من البلدان : كاليمن ، والشام ، ومصر ، وإفريقية ، والأندلس . وكان هذا هو السبب فى قوة نفوس أهل العراق ، حتى خالفوا أهل المدينة فى كثير من العلم ، ظنا منهم أن السنة انتقلت إليهم وصارت عندهم[1] .

هذه قالتهم قديما ، كما نقرؤها فى (مناقب مالك) «للزواوى» المتوفى فى القرن الثامن الهجرى ، وهى تنقض ما أسلفوا فى حق العراقيين وغيرهم ، من أن السنَّة لم تكن قط متواترة عند غير أهل المدينة من سائر البلدان ، وإنما كان يخرج إليهم من المدينة آحاد من العلماء معلمين ، أو بعض الصحابة مؤمرين ، أو غزاة أو مجاهدين .

وإنك لتتنسم ريح هذا الإنصاف من مثل قولهم : لا ننكر أنه كان بالعراق علماء فى الدين ، ورواية فى السنَّة ، ولا ندعى العصمة لإمامنا ، ونفى الصواب عن غير علمائنا ، لكنا ندعى الفضل له ، والترجيح لمذهبه . ونقول إنه أقوم قيلا ، وأهدى سبيلا ، وإن يكن آخر هذا القول أظهر تسامحا من أوله .

ولكنك فى كل حال لا تصل إلى هذا القول النزيه إلى حد ما ، إلا بعد أن تضيق ذرعا بما سمعت من تنقص وعيب ، وحكم قاس شامل غير منضبط .

---

(١) الزواوى : (مناقب) ٥٧ ، ٥٨ بتصرف يسير جدا .

٣ ـ المشكلات التى جدت بعد وفاة رسول الله ﷺ

جدت بعد وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قضايا كبرى على المستوى السياسى والدينى :

(١) قضية الخلافة الإسلامية :

قال أنس : " ما نفضنا أيدينا من تراب قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا(١) " . يروى الطبرى رواية عن سعيد بن زيد، قال: فمتى بويع أبو بكر ؟ أشهدت وفاة النبى ؟ قال : نعم . قال : يوم مات رسول الله كرهوا أن يبقوا بعض الوقت وليسوا فى جماعة .

اختلفت وجهات النظر فى اختيار خليفة للمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة بدعوة من سعد بن عبادة، وقام بالدعوة لنفسه بالإمارة . وكاد الأمر ينتهى للأنصار، حتى حضر إلى السقيفة أبو بكر وعمر، ورهط من المهاجرين ،ليتداولوا الأمر وينظروا المسألة – مسألة الخلافة – وهى مستقبل الأمة والإسلام .

فلم يرُق للصحابة أن يكون مكان الاجتماع " سقيفة بنى ساعدة " (٢) . فهى بانتسابها إلى "بنى ساعدة " تحمل معنى القبلية والعرقية والتحيز إلى شعب بعينه ، وليس لها مأثرة فى الإسلام ترشحها مكانا لاجتماع الصحابة ، يتداولون فيه أمر

---

(١) العواصم من القواصم: ص ٥٤ . الإمام أبو بكر بن العربى المالكى (٤٦٨- ٥٤٣هـ) .

(٢) سقيفة بنى ساعدة ، بالمدينة ، وهى ظُلَّة كانوا يجلسون تحتها ، فيها اجتمع الأنصار لمبايعة سعد بن عبادة . قال الجوهرى : السقيفة الصُفّة ، ومنه سقيفة بنى ساعدة . وقال أبو منصور : السقيفة كل بناء سقف به صُفّة أو شبه صُفّة مما يكون بارزا ، ألزم هذا الاسم للتفرقة بين الأشياء . وأما بنو ساعدة الذين أضيفت إليهم السقيفة . . فهم حى من الأنصار ، وهم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج بن ساعدة ، وهو القائل يوم السقيفة : منا أمير ومنكم أمير ، ولم يبايع أبا بكر ولا أحدا .

مرشح الخلافة يخلف رسول الله . كذلك كانت محاولة الأنصار تنحو نحو الاستقلال بالدعوة إلى الاجتماع فى السقيفة ليختاروا عليهم " أميرا " دون دعوة المهاجرين ، وهذا ولا شك لشىء هجنه الإسلام وحمل عليه حين أقر " مبدأ الشورى " عاما للأمة الإسلامية ومن يدخل فى عهدها وذمتها ومن منحته حق المواطنة . وفى النهاية : هى دعوة إلى العصبية التى ذمها الإسلام ونفاها عن قومه .

لهذا أنف الصحابة من تلك الدعوة ، فهى تنحو نحو العصبية والقبلية ، وهى عودة إلى رابطة الدم ، رابطة الجاهلية الأولى التى وضعها عنهم الإسلام ، وأحل محلها رابطة الإسلام والأخوة .

فكان من الضرورى لدى أصحاب الرسول وعلى رأسهم أبو بكر وعمر أن يمسكوا بزمام الأمور ، وأن يقوموا بالدعوة إلى الاجتماع فى المسجد ، وهو بيت الله وبيت الجماعة الإسلامية ، وهو أيضا مركز الرابطة الإسلامية ، مكان الاجتماع الحقيقى للأمة الإسلامية . وكانت تلك الدعوة هى وضعا طبيعيا ، ومطلبا إسلاميا لعودة العرب إلى الطاعة ، وخير وسيلة لبقاء الوحدة الإسلامية قائمة . وفى المسجد النبوى ، أعلنت أول بيعة فى الإسلام . ولم يتخلف عن بيعة أبى بكر أحد من المهاجرين ولا من الأنصار ، حتى الإمام علىّ خرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عَجِلا كراهية أن يبطئ عنه حتى بايعه (١) .

(٢) تطبيق مبدإ البيعة : الأمة الإسلامية تختار الخليفة وتبايعه :

من الأمور المهمة فى التاريخ السياسى فى الإسلام ، أن نظام الحكم فى الإسلام بنى منذ أول اختيار خليفة فى الإسلام ليلى مقاليد أمر الأمة على " مبدإ البيعة " أى حق الأمة فى اختيار الحاكم وإسقاطه ، حقا مشروعا وهو مبدأ بات من السُّنن العملية التى استنها صحابة رسول الله وتم العمل بها ، فلم ينحصر أمرها فى أسرة مقدسة ، أو حق موروث لبيت على بيت تتوارثه الأجيال - كما حصل فيما بعد . ولم يدَّع الخلفاء الراشدون بأنهم ظل الله على الأرض ، أو أنهم خلفوا النبى فى النبوة والرسالة . وإنما هم قد خلفوه فى الإمامة والقيادة ، كما خلفوه فى القضاء والحكم بين الناس .

---

(١) يقول محمد عزة دروزة فى كتابه : الجنس العربى ج٧ ص١٧ : فإن المتفق عليه فى روايات الشيعة وغيرهم أن عليا وبنى هاشم بايعوا أبا بكر فورا . . يقول ابن العربى فى العواصم : واضطرب أمر الأنصار يطلبون الأمر لأنفسهم ، أو الشركة فيه مع المهاجرين . قال الحباب بن المنذر : أنا جزيلها المحكك وعذيقها المرجب " منا أمير ومنكم أمير " .

ولـم تكن فكرة وراثة النبوة موجودة إلا فيما بعد عند الشيعة التى كـانت تقول بانتقال النور الإلهى إلى أولاد النبى من بعـده ، وانتقلت وراثة النبـوة من مجالهـا النظرى إلى أصل من أصول الاعتقاد لدى الشيعة .

وحين قام عمر بمبايعة أبى بكر ، تدافع الناس من بعده يشـهدون له ويشدون على يده بالمبايعة ليكون خليفة لرسول الله ، وكـان أهم ما قـاله فى خطبته بعد أن صعـد المنبر ، والصحابة مازالوا ماكثين فى المسجد : رفض الإشـارة إلى مقولة الأنصار : " منا أمير ومنكم أمير " . ولم يكن رفـضه يحمل معنى التسلط والعنجـهية الكاذبة ، إنما كـان تذكيرا لأسس بناء المجتمع الإسلامى التى أرساها الرسول صلى الله عليه وسلـم .

(٣) أبو بكر يقر حق الأمة وسلطتها فى الحكم :

قال فى خطبته بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن كنت على حق فـأعينونى ، وإن كنت على باطل فـقومـونى . . . وقد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به أُلفتكم ، ويقيم به كلمتكم ، فـأعينونى على ذلك بخـير . واسم الـله ما حـرصتُ عليـها ليـلا ونهـارا ، ولا سـألتُهـا الله قط فى سـر ولا عـلانية . ولقد قلدت أمرا عظيمـا ، ما لى به طاقة ولا بد . . فأطيعـونى ما أطعت الله فيكـم فإذا عصيت فـلا طاعة لى عليكم . . وما أنا إلا كـأحـدكم ، فإذا رأيتمـونى قد استقمت فاتبعونى ، وإن زغت فقومونى " . ثم نزل (١) .

تلك هـى الخطبـة الأولى لأبى بكر ، خليفـة المسلمين الأول ، بعـد توليـه مـقـاليد الخلافة ، لم تعلن عن حق مزعوم فى الخلافة ، أو أنه ظل الله عـلى الأرض ، أو أنها حكر على قبيلة معينة أو أسرة لهـا مظاهر التقديس . . إنما الأمر فى شـأنها شورى بين المسلمين ، وأن الأمة لها حق اختيـاره وانتخابه ، ولها حق المتابعة والتنبيه ، " وما أنا إلا كأحدكم " . وبناء على هذا الاختيار ، تقررت أركان النظرية السياسية فى الإسلام ، سبق الإسـلام إليـهـا ، لم تكن مـعـروفـة - قـبل -لـدى الإمبـراطورية الرومـانيـة أو الامبراطورية الفارسية . فـهما معا يشتركـان فى التميز الأسرى ، وقدسية الإمبراطور ، وأنه ظل الـله على الأرض ، وتوارث الحكم فى أسـرة مـقـدسـة لهـا تميزهـا وشـرفـهـا وسؤددها .

ومـا تميزت به خطبة أبى بكر ، كـأول خطبة لأول خليـفـة ، أنه وضع فيـها مـلامح

---

(١) الإمامة والسياسة : ص ٢٢ . محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى . تحقيق طه الزينى .

سياسته ، وحدد فيها أيضا مفهوم الأمة، وأنها مشاركة فى المسئولية بالرجوع إليها بالمشورة، وأن كتاب الله حكم بينه وبينها ، وأنه السلطة الأعلى، " أطيعونى ما أطعت الله فيكم " ، وبيدها الحل والعقد . وذلك لم يكن واضحا فيما سبق حكم الإسلام، سواء فى الإمبراطورية الرومانية أو الفارسية ؛ فإن طبقة معاونيهم هم فقط أصحاب الامتياز، ودونهم من الشعوب هم خدم وعبيد ورعايا ورعاع مواطنون من الدرجة الثانية، أو بالأحرى هم الأدوات للسادة أشراف الإمبراطوريتين، يعرفهم الحاكم عند جباية الضرائب الباهظة، وخدم السادة، ومنهم الجيوش الحاشدة للإمبراطور، ومنهم الفداء، ومنهم العبيد .

من هنا جاءت النظرية الإسلامية لتقرر هذه المبادئ :

* أمة الإسلام أمة واحدة، يسعى أعلاها فى سبيل أدناها، يحكمها مبدأ سواسية الحقوق والواجبات : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

* مبدأ البيعة والاختيار، قرره العرف الإسلامى السياسى فى اختيار الخليفة .

* حق الأمة فى الاختيار حلاً وعقدا .

* الشورى فى الحكم، وفى كل ما يهم أمر الدولة والجماعة .

* خضوع الأمة والسلطة لأحكام الشريعة : " أطيعونى ما أطعت الله فيكم " .

* الدستور هو السلطة العليا والحاكم للأمة والخليفة متمثلاً فى كتاب الله .

(٤) مفهوم " أمة إسلامية " فى نظر أبى منصور البغدادى :

قدم البغدادى – مؤرخ الفرق الدينية – لكتابه " الفرق بين الفرق " بمقدمات :

* مقدمة فى بيان الحديث المأثور فى افتراق الأمة .

* ومقدمة فى بيان كيفية افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة .

* ومقدمة فى بيان المعنى الجامع للفرق المختلفة فى اسم ملة الإسلام على الجملة ومعنى أمة الإسلام . وهى مقدمة جديدة فى تعريف معنى الأمة الإسلامية .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

يقول البغدادى :

اختلف المنتسبون إلى الإسلام فى الذين يدخلون بالاسم العام فى ملة الإسلام .

فزعم أبو القاسم الكَعْبى (١) فى مقالاته أن قول القائل " أمة الإسلام " تقع على كل مُقرّ بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن كل ما جاء به حق ، كائنا قوله بعد ذلك مَا كان .

وزعم قوم أن "أمة الإسلام" كل من يرى وجوب الصلاة إلى جهة الكعبة .

وزعمت الكرامية ، مجسمة خراسان ، أن " أمة الإسلام " جامعة لكل من أقر بشهادتى الإسلام لفظا ، وقالوا : كل من قال : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " فهو مؤمن حقا ، وهو من أهل ملة الإسلام ، سواء كان مخلصا فيه أو منافقا مضمرا للكفر فيه والزندقة . ولهذا زعموا أن المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين حقا ، وكان إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل والأنبياء والملائكة مع اعتقادهم النفاق وإظهار الشهادتين .

وهذا القول مع قول الكعبى فى تفسير أمة الإسلام ينتقض بقول العيسوية من يهود أصبهان ، فإنهم يُقرّونَ بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبأن كل ما جاء به حق . ولكنهم زعموا أنه بُعث إلى العَرب ، لا إلى بنى إسرائيل . وقالوا أيضا : محمد رسول الله . وما هم بمعدودين فى فرق الإسلام . وقوم من موشكانية حكَوْا عن زعيمهم المعروف بموشكان أنه قال : إن محمدا رسول الله إلى العرب وإلى سائر الناس ما خلا اليهود ، وأنه قال : إن القرآن حق ، وكل ما جاء به من الأذان والإقامة والصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وحج الكعبة ، كل ذلك حق غير أنه مشروع للمسلمين دون اليهود ، وربما فعل ذلك بعض الموشكانية ، وقد أقروا بشهادتى أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأقروا بأن دينه حق . وما هم مع ذلك من أمة الإسلام ؛ لقولهم بأن شريعة الإسلام لا تَلْزمهم .

أما قول من قال إن اسم ملة الإسلام أمر واقع على كل من يرى وجوب الصلاة إلى الكعبة المنصوبة بمكة ، فقد رضى بعض فقهاء الحجاز هذا القولَ ، وأنكره أصحاب الرأى ؛ لما روى عن أبى حنيفة أنه صَحّح إيمانَ من أقَرَّ بوجوب الصلاة إلى الكعبة

---

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود ، البلخى ، الكعبى ، شيخ من شيوخ المعتزلة ، كان رأسا لطائفة منهم سموها " الكعبية " نسبة إليه ، وسيذكرها المؤلف فيما بعد ، وقد توفى سنة ٣١٩ (العبر : ٢/ ١٧٦ - شذرات الذهب) .

وشك في موضعها ، وأصحابُ الحديث لا يصححون إيمانَ من شك في موضع الكعبة ، كما لا يصححون إيمان من شك في وجوب الصلاة إلى الكعبة .

والصحيح عندنا : أن أمة الإسلام تجمع المقرين بحدوث العالم ، وتوحيد صانعه وقدَمه ، وصفاته ، وعَدْله ، وحكمته ، ونفى التشبيه عنه ، وبنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورسالته إلى الجميع ، وبتأييد شريعته ، وبأن كل ما جاء به حق ، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة ، وأن الكعبة هى القبلة التى تجب الصلاة إليها . فكل من أقر بذلك كله ، ولم يَشُبْه ببدعة تؤدِّى إلى الكفر فهو السنىُّ الموحِّدُ .

وإن ضم إلى الأقوال بما ذكرناه بدعة شَنْعاء نُظر .

فإن كان على بدْعة الباطنية ، أو البَيَانية ، أو المغيرية ، أو الخطابية الذين يعتقدون إلهية الأئمة أو إلهية بعض الأئمة ، أو كان على مذاهب الحلول ، أو على بعض مذاهب أهل التناسخ ، أو على مذهب الميمونية من الخوارج الذين أباحوا أن شريعة الإسلام تُنْسَخ فى آخر الزمان ، أو أباح ما نص القرآن على تحريمه ، أو حرم ما أباحه القرآن نصا لا يحتمل التأويل ؛ فليس هو من أمة الإسلام ولا كرامة له .

وإن كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة ، أو الخوارج ، أو الرافضة الإمامية ، أو الزيدية ، أو من بدع النجارية ، أو الجهمية ، أو الضرارية ، أو المجسِّمة فهو من الأمة فى بعض الأحكام ، وهو جواز دفنه فى مقابر المسلمين ، وفى أن لا يُمْنع حَظَّه من الفىء والغنيمة إن غزا مع المسلمين ، وفى ألا يُمْنَع من الصلاة فى المساجد ، وليس من الأمة فى أحكام سواها ، وذلك أنه لا تجوز الصلاة عليه ولا خَلْفه ، ولا تحل ذبيحته ولا نكاحه لامرأة سُنِّية ، ولا يحل للسنى أن يتزوج المرأة منهم إذا كانت على اعتقادهم . وقد قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه للخوارج : علينا ثلاث : لا نَبْدَؤكم بقتال ، ولا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ، ولا نمنعكم من الفىء مادامت أيديكم مع أيدينا .

(٥) حروب الردة والحفاظ على مفهوم الدولة السياسى والإسلامى :

لم يكن جهاد أهل الردة ضد المرتدين عن الدين ، بل ضد أولئك الذين امتنعوا عن أداء الضريبة لصاحب الدولة ، فهم قد ظنوا أنهم بايعوا النبى وحده . وأن ذلك كان مرتبطا بشخصه فقط ، وهى الفكرة السائدة عند العرب فى معاهداتهم ومبايعاتهم ، فكانت ردتهم خروجا على السلطان السياسى للمدينة أكثر منه خروجا عن الدين

الإسلامى ، فكان جهاد أبى بكر لأجل السيادة السياسية على العربى . ونجاح هذه الحملات لم يكن ، إعادة لهؤلاء العرب إلى حظيرة الدين ، بل كان على الأكثر مدا للسيادة وتدعيما لها ، وإقامة سلطان الدولة السياسى ، وهذا ولا شك تصرف منوط بالإمامة والحكم وليس حق الأفراد (١) .

(٦) بيت المال ومفهوم حق الأمة الاقتصادى والسياسى :

كان ديوان الإحصاء مقصوراعلى أهل الجيش والمقاتلة دون غيرهم ، على أساس أن القبائل العربية خرجت تحت فكرة الجهاد تدعو الأمم إلى الإيمان بالله، وتجاهد أعداء الإسلام . وهكذا تحولت إلى جيش وأمة مجاهدة . وكان أبو بكر يسوى بين الناس فى الأعطية . فلما جاء فتح العراق، شاور عمر الناس فى تفضيله بعضهم على بعض فى الأعطية ، ورأى أنه الرأى . فأشار عليه بذلك من رآه . يقول عمر : " ما من أحد إلا له فى هذا المال ، وما أنا فيه إلا كأحدهم ، ولكنا على منازلنا على كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته (٢) " .

(٧) الخراج والجزية والفقهاء :

مع انتشار الفتوحات الإسلامية ظهرت تفرقة بين الخراج والجزية ،لم تكن موجودة من قبل . منها : اعتبار الجزية متعلقة بالشخص ، فلا تقع إلا على غير المسلمين،وكانت تسقط عنهم إذا دخلوا الإسلام . أما الخراج ، فصار يعتبر متعلقا بالأرض المزروعة، كما اعتبر أنه لا يشين الشخص ، ويجوز بل يجب أن يدفعه المسلمون، إذا كانوا يملكون أرض الخراج . ففصلت الجزية عن الخراج. وأصبحت مقصورة على المجوس واليهود والنصارى ، ولا يدفعها العرب غير المسلمين ولا الداخلون فى الإسلام . أما نقص ما يدخل إلى بيت المال بسبب ازدياد عدد من يدخلون فى الإسلام وتسقط عنهم الجزية، فقد حسب حسابه مقدما ، ولم ير هناك بأس من أن تكون ضريبة الخراج وحدها هى الدخل الضرورى الثابت لبيت المال . . . وأصبح أصلا من أصول بيت المال. وأدى العمل به إلى توفيق بارع بين المصلحة المالية وبين مبدإ إعفاء مواطنى الدولة من دفع الإتاوة (٣).

---

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى .

(٢) تاريخ الطبرى : ج ٥ ص ٢٣ . (٣) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى

ولا شك فى أن الفقهاء قد قاموا فيما بعد بمهمة التوليد والتخريج من النصوص . وكان ذلك فى الحقيقة نتيجة لعمل استنباط معقد من جانبهم، غايته التوفيق بين مطالب متضاربة . غير أنهم فيما بعد نظروا إليه على أنه الحق الذى لا شك فيه، واعتبروه موجودا من أول الأمر . ولكن لو أنه كان فى الحقيقة موجودا من أول الأمر، لما قامت صعوبات قط . ومن عادة الفقهاء فى العصور المتأخرة، أنهم إذا تقررت قاعدة ما شيئا فشيئا تحت تأثير الحاجات أو النزعات المتجددة حينا بعد حين أرجعوها إلى البدايات الأولى، وجعلوا لها صبغة مقدسة بردهم إياها إلى سنَّة النبى وسنَّة الخلفاءالأولين .

(٨) الغنيمـة :

كان الأساس فى نظام الضريبة هو نظام الغنيمة ، وهى تطلق على البلاد التى فتحت عنوة فتضيع على أهلها حريتهم، ويصبحون وما لهم غنيمة للمسلمين .

قال تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خُمُسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . . .** ﴾ الآية [١] .

(٩) الضريبـة :

أما البلاد التى فتحت صلحا، بناء على عهد مع المغلوبين أو تسليم منهم، فإن لأهلها الحرية التامة فى أنفسهم وفيما يملكون ، ويدفعون فى سبيل حريتهم ضريبة يصالحون عليها .

(١٠) الفـــىء :

نزلت آيات الفىء عندما استولى المسلمون على أرض بنى النضير من غير قتال وأجلوهم . فلم تقسم وأعطاها الرسول للمهاجرين . كما صالح الرسول أهل خيبر وفدك على مثل هذا، وبقيت لرسول الله خاصة يصرفها كيف يشاء ، حتى إذا ما توفى الرسول قبضها أبو بكر، فعمل فيها بمثل ما عمل الرسول، ثم عمل بها عمر كذلك .

---

(١) الأنفال : ٤١ .

(١١) إبقاء الأرض لملاكها فى البلاد المفتوحة :

فلما اتسعت رقعة الفتوحات الإسلامية فى زمن عمر ، وسأل الصحابة قسمة ما فتح عنوة بين القائمين ، رأى عمر أن مثل هذه المدن : الشام ومصر والجزيرة والكوفة والبصرة ، لا بد لها من رجال يلزمونها . كما أنه يجب التفكير فى المستقبل ، فإذا قسمت بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء منه . فرأى عمر ترك الأرضين والأعمال لأهليها وعمالها ، على أن يوضع عليهم ما يحتملون من خراج ، تكون منه أعطيات المسلمين . فشاور عمر فى هذا الرأى الصحابة . وانتهى الأمر بأخذهم برأى عمر . وهذا الخراج يبقى على ملاك هذه الأرض بصورة دائمة فيدفعونه حتى ولو أسلموا ، وهكذا تطور الأمر شيئا فشيئا . وأصبحت الأرض بعد ذلك فى البلاد المفتوحة غير معتبرة فيئا . وكان هذا تشريعا جديدا ، دعت إليه الحاجة والحياة العملية ، وتكوين الدولة ، وتمكينها إزاء الجيش ، وحماية البلاد المفتوحة .

وقد حاول الفقهاء فيما بعد تبرير رأى عمر وتوجيهه ، وأفاض فى ذلك أبو يوسف فى كتابه " الخراج " والجصاص فى " أحكام القرآن " ، وصاحب « رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة » .

وهكذا اختلفت المذاهب فى توجيه ما فعله عمر .

(١٢) النظم الإدارية والمالية :

حين فتح العرب البلاد ، وجدوا بهذه البلاد شكلا معينا من النظم الإدارية ، رومانيا أو فارسيا ، فأبقى العرب على النظامين معا ولم يطرأ تغيير كبير إلا من ناحية استبدال حكم بحكم .

أما النظام المالى ، فقد دخل عليه تطور على الأساس الفقهى الإسلامى . وهذا من بعض تشريعات عمر بن الخطاب ، وهى كثيرة تتبين منه طريقته القائمة على مواجهة الحالة العملية ، والمرونة فى استعمال الرأى ، والنظر لجانب المصلحة .

٤ ـ عثمان وبنو أمية

بايع أصحاب الشورى الستة : عثمان بن عفان ، من بيت بنى أمية ، خليفة ثالثا بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

(١) من هم بنو أمية :

يلتقى الأمويون مع بنى هاشم عند عبد مناف . وكانوا أكثر مالا وأشد قوة من بنى هاشم وعبد المطلب . وكانوا قد توصلوا إلى السيادة فى مكة بفضل زعيمهم أبى سفيان ، وهم الذين ظلوا يتزعمون الحرب التى ظلت سنوات بين قريش من جهة والمدينة والرسول " صلى الله عليه وسلم " من جهة أخرى . ونستطيع القول : إنهم لم يدخلوا الإسلام عن رغبة فيه ، إنما دخلوه عن رهبة ، ودخلوه فى الساعة الأخيرة ، وعلى الرغم منهم ، ولكنهم استطاعوا بحذقهم ولباقتهم أن يقطفوا من ثمار أمر لم يساهموا فيه بكثير ، وأن يفوزوا بما قدر للإسلام من خير ونصر . وفى الحق أنهم لم يكونوا بطبيعة الحال عند توليهم الخلافة أعداء الإسلام . يقول د . على حسن عبدالقادر : وكل ما هناك أنهم لم يكونوا مثل سلفهم الصالح من الخلفاء الراشدين ، أو مثل الأتقياء من التابعين بالمدينة مثلا ، فى اتباع مبادئ الدين بحرص ودقة ، ولم يعيروا اهتماما للأمور المتعلقة بالدين ، مثل اهتمامهم بأمور الدولة السياسية ، وما يتعلق بكيانها وتوسيع رقعتها شرقا وغربا (١) .

(٢) بنو أمية يستبدون بالحكم :

فلما تولى عثمان شئون الخلافة ، وصل الأمويون إلى الخلافة بالفعل ، لأن رياسة عثمان كانت رياسة بيته . فاتخذ ابن عمه مروان بن الحكم كاتبا له فى المدينة ، وترك له

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى : ص ١١٨ .

الأمر، فملأ مروان كل مناصب الولاية بأهل قرابته . وبهذا أثار عثمان على نفسه زملاءه. بقية أعضاء مجلس الشورى ، وكانوا خمسة : عليّ بن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص . أما سعد فلم يكن له طموح سياسى . وأما ابن عوف فقد مات قبل عثمان . بينما أحس كبار الصحابة بمدى ارتفاع شأن أسرة بنى أمية باستيلائها على الحكم، حيث استولى ولاة بنى أمية على الأموال التى كانت فى الحقيقة من نصيب الجيش، ولم تكن تعطى المحاربين العرب من ذلك سوى أعطيات فرضتها لهم . واستطاعت الحكومة باستيلائها على نصيب الجيش، باسم بيت المال ، أن تستقل عن الجيش وتتخلص من سلطانه . وبعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش، أصبح هو يعيش من يد الحكومة . فنزل الجيش إلى مرتبة الافتقار إلى الحكومة والاعتماد عليها من طريق أعطيات كانت الدولة تستطيع أن تمنحها بالمقدار ، وإلى المدى الذى تشاؤه . فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الدولة قد غلبتهم على حقوقهم ، وعرَّتهم من أموالهم ، وأخذتها لنفسها، وأنها تستند إلى الخزانة. وزعموا أن المال الذى يجتمع من الخراج إنما هو لهم ، وليس للدولة ، وقالوا إنه مال المسلمين وليس مال الله [1] وتمسكوا بدعوى أن أموال الفىء يجب أن تقسم، وكان هذا فى الواقع اعتراضا موجها إلى النظام الذى وضعه ابن الخطاب ، لأن عمر هو الذى كان قد انتزع الفىء من يد الجيش من حيث لا يشعر الجيش ، وجعله للدولة مخالفا بذلك القرآن فيما بدا لبعض الفقهاء ، لكن النبى - قبل عمر - قد جعل لبيت المال ما يقع فى يد المسلمين من غير حرب ، وسبق عمر فى مصادرة (الأحماء) - جمع حمى - القديمة ، وجعل أحماء جديدة تكون مراعى لإبل الصدقة وخيلها ، وبذلك أعطى النبى مثالا لمصادرة الأرض . فكان عمر متفقا مع الاتجاه العام فى النظام المالى فى الإسلام . وحين اعترض على عثمان بأنه خالف ما جرى عليه العمل فى عهد عمر ، قال : إن الشىء الذى ما كان أحد يجرؤ على أن يعيبه على عمر أصبح يعيبه علىّ[2] .

وكانت رفاهية ولاة بنى أمية فى عهد عثمان ، باستيلائهم على أموال الخراج والفىء باسم بيت المال، دفعت أبا ذر الغفارى ذلك الصحابى الجليل إلى دعوة الناس إلى الزهد ، ونهيه عن اقتناء الأموال، وحضه الأغنياء على الخروج عن أموالهم إلى الفقراء[3] .

---

(١) الطبرى: ج١ ص ٨٥٨ . (٢) الطبرى: ج١ ص ٨٥٨، الطبعة القديمة .

(٣) نفس المرجع : ج١ ص ٨٥٨، حياة أبى ذر الغفارى، أو ج٥ طبعة دار المعارف .

يقول فيلهوزن [1] : وقد كان أثر ذلك فى النفوس شديدا ، وخصوصا أن عثمان جرى على اختيار الأمراء والعمال من آل بيته ، وبدا كأنما قد تحولت الدولة من كل الوجوه إلى مأكلة لطائفة ممتازة لها أن تجنى خيرات الأمصار . وكان عثمان رضى الله عنه شديد الشقة فى ولاته ، ويرعاهم بالعطف والرفق ، ويدفع كيد الكائدين ونقد الناقدين ، حتى لو كان الناقد من أقرب الصحابة إلى رسول الله ، وهم لم يقدروا دفعا لعثمان عنهم ، ولا تحمله غضب القوم من أجلهم ، فازدادوا غواية وإفكا وافتراء ، وكانوا أسرع الناس إلى تلطيخ سمعته ، ومن أعظم الأسباب خطرا عليه ، وتآمروا على قتله بما فعلوه ، وكان عثمان رضى الله عنه يرى ، فيما ينقل إليه ، من أخبار عن ظلم ولاة آل بيته ، افتراء وإثما ، وسبب ذلك : لينه .

(٣) عثمان وعمرو بن العاص :

هو أبو عبد الله - ويقال : أبو محمد - عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد ابن سهم ، السهمى . صحابى جليل ، أسلم فى هدنة الحديبية ، وهاجر ، وولى إمرة جيش ذات السلاسل ، وكان من دهاة قريش وأجلادها وذوى الحزم والرأى ، ولاه عمر مصر ، ثم وليها فى عهد معاوية ، ومازال يسكنها حتى مات بها ليلة عيد الفطر من سنة ٤٣هـ [2] .

فى سياسته ، يحكى الطبرى : قال عثمان لعمرو بن العاص ، بعد ما عزله عن مصر واستعمله على الصلاة ، واستعمل عبد الله بن سعد بن أبى السرح على الخراج ، فلما قدم عمرو إلى المدينة جعل يطعن على عثمان ويؤلب عليه الصحابة والحجاج ويحرض عليه جميع الناس حتى الراعى فى غنمه فى رأس الجبل ، ثم قابل عثمان ـ قال له عثمان : والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت ، ولكنى لنت لك فاجترأت علىّ .

(٤) عثمان والكوفة :

وقد التقى على البغض لبطانة عثمان أهل الأمصار وكبار الصحابة فى المدينة ، وكانت الغالبية العظمى فى العاصمة ، كما يحكى الطبرى : لما رأى الناس ما وضع

---

(١) تاريخ الدولة العربية - ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة .

(٢) العبر (١/ ٥١) . وذكر ابن حبان (مشاهير علماء الأمصار رقم ٣٧٦) أن وفاته فى سنة ٦١ ، وما أراه يصح .

عثمان ، كتب من بالمدينة إلى من بالآفاق منهم ، وكانوا قد تفرقوا من الثغور ، بالعودة إلى المدينة لمدارسة الوضع ، فإن الجهاد فى المدينة وليس فى غيرها . وكانت الرسائل ملهبة فى بعض العواصم الإسلامية أكثر من غيرها . فمثلا فى الكوفة كان أكثر لكونها كانت أكبر مركز للمعارضة ، قامت ثورة فيها يقودها مالك بن الأشتر وهو من كبار اليمنيين والذى أصبح من أكبر قادة الأمة لعَلىٍّ فيما بعد ، وكان من أسبابها كما يحكى الطبرى : أنه حين ولى الكوفة من قبل عثمان رضى الله عنه : سعيد بن العاص ، قال وهو فى مجلس من وجوه أهلها وفيهم مالك بن الأشتر : إنما هذا السواد بستان قريش . فقال مالك بن الأشتر وكان حاضرا : أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟! والله ما يزيد أوفاكم نصيبا إلا أن كان كأحدنا . ثم قامت مناقشة بينهم وبين الوالى ، وتدخل رجال الشرطة . . ثم تطورت الثورة واتهم مالك بن الأشتر سعيدا ، إلى جانب زعمه أن السواد بستان قريش ، بأنه يريد إنقاص الأعطيات المفروضة . هنا استدعاه عثمان ، فلما عاد سعيد من مكة ، خرج أهل الكوفة بسيوفهم لرده ، فرجع إلى عثمان ، فعزله وولى أبا موسى الأشعرى ، استصلاحا لأهل الكوفة ، وإسقاطا لحجتهم ، ولم يرض أبو موسى الأشعرى أن يصلى بهم إلا بعد أن اعترفوا بعثمان [1] .

لم يرض المصريون بولاية ابن عم عثمان عبد الله بن سعيد بن أبى السرح ، وكان النبى قد طرده وأباح دمه ، فثار فاتح مصر عمرو بن العاص وهو الرجل الداهية الخطر . وثار عليه محمد بن أبى حذيفة ، وكان من أقارب عثمان ، لشىء فى نفسه يترجمه الطبرى : بأنه طلب من عثمان أن يوليه عملا ، فلم يجده أهلا لذلك ، فتغير على عثمان . وثار عليه محمد بن أبى بكر ، وذلك بسبب انشقاقه فى معركة الصوارى ، وكانت بين المسلمين وهرقل قرب شواطئ لوقيه . ولما التقى الأسطولان ، أمن الجيشان بعضهما بعضا حتى قرنوا بين صوارى السفن . انشق محمد بن حذيفة انشقاقا روحيا أكثر منه حربيا ، وأخذ يعيب على عثمان ما صنع وخصوصا استعمال عبد الله بن سعد ، فنبذه عبد الله وتركه يقاتل وحده .

وتحت ضغط هذا التذمر الذى قوبل به عبد الله بن سعيد بن أبى السرح ، ثار عليه أهل مصر وذهبوا إلى عثمان وسمع شكواهم ثم أقنعهم بالعودة وبإزالة أسباب

(١) الدولة الأموية بين عوامل البناء ومعاول الفناء : د . محمد الطيب النجار . تاريخ الدولة العربية فيلهوزن – ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة .

شكواهم . وبعد أيام قلائل ، وصل المصريون إلى المدينة مرة ثانية فجأة، وأحضروا خطابا من الخليفة موجها إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتلهم وصلبهم وجلدهم وحبسهم، وأطلعوه عليه ، فأقسم بالله أنه ما كتبه ولا أملاه ولا أشار به ، ولا علم به . فقالوا : إنهم وجدوه مع غلامه ، وعلى جمله ، وهو بخط كاتبه وعليه خاتمه . فأجاب أن كل ذلك بغير علمه، وأنكره وقال : الخط يشبه الخط ، وإن الخاتم يجوز أن ينتقش مثله . فقالوا : أيجترئ عليك فيبعث غلامك على جملك وينقش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام؟! فإما أن تكون ضعيفا مغلوبا ، أو غافلا لا يصح أن يلى أمور المسلمين [1] . ثم طلبوا منه أن يعتزل ويخلو إلى نفسه، ولكنه رفض ذلك رفضا حاسما . وقال : لست خالعا قميصا ألبسنيه الله عزوجل، حتى يئس الصحابة من استجابته وهم : علىّ وطلحة والزبير ، وخرجت الحوادث من أيديهم، فلم يستطيعوا إيقاف سير الحوادث، وكان تيارها جارفا وأعاصيرها مهلكة .

(٥) مقتل عثمان :

أثار مقتل عثمان حربا أهلية من أجل اختيار خليفة يخلف عثمان، واتخذ شكلا قبليا يهدد مبدأ الوحدة الدينية ، ويهدد نظام الحقوق والواجبات التى كانت أساسا ثابتا من أسس الإسلام .

أججت نار العصبية القبلية بين البيت الهاشمى وبنى أمية ، ثم بين عائشة وطلحة والزبير وبين الإمام علىّ . نظمت عائشة مع الزبير جيشا لاقت به جيش علىّ فى موقعة تعرف بالجمل، نسبة إلى جمل عائشة ، انتصر فيها الإمام على وقتل طلحة والزبير، أما السيدة عائشة فقد أرسلها علىّ إلى مكة معززة مكرمة . ثم خرج عليه معاوية فى موقعة تسمى صفين . ولم يكن النزاع بينهما دينيا أو صداما بين الأسس الدينية ، والأسس الدنيوية ، إنما فى الحقيقة نزاع بين القوى القبلية أغمر به ، وبين الوحدة الإسلامية السياسية . يقول جب : وهى وحدة معتدلة تنطوى فى أقل صورها على احترام الأسس الدينية التى تقوم عليها الجماعة [2] .

---

(١) الطبرى : ج٥ .

(٢) دراسات فى الحضارة الإسلامية : ص ٣ . هاملتون جب . دار العلم للملايين .

(٦) نتائج اغتيال عثمان :

كان مقتل عثمان ، حادثا حاسما لا يكاد يدانيه فى خطره حادث آخر فى التاريخ الإسلامى . فمنذ ذلك الحين ، صار للسيف القول الفصل فيما بعد . وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك أبدا انسدادا تاما .

يقول فيلهوزن : ولم يمكن منذ ذلك الحين المحافظة على وحدة ممثلة فى شخص إمام على رأس الجماعة إلا فى الظاهر على الأكثر . . وبالقوة والقهر . فالحقيقة ، أن الجماعة قد انشقت وتفرقت شيعا وأحزابا ، كل منهم يحاول أن يفرض سلطانه السياسى ، وأن يلجأ للسيف تأييدا لإمامه على الإمام الحاكم بالفعل . (١) وكانت المشكلة مؤلمة وكان وقعها أشد على أهل الورع ، وكان الخيار فيها صعبا بين الوقوف بجانب عثمان وبين الوقوف بجانب الحق .

* انتقلت الخلافة من بعده إلى علىّ ، وبذلك انتهت من مدينة رسول الله .
* جعلت الخلافة الجديدة مقرها الكوفة .
* قضى على قداسة الخلافة .
* صار الحكم فى النزاع عليها للسيف .
* انتقل مركز الثقل فى جزيرة العرب من وسطها إلى أطرافها ، وكان أهل المدينة قد خطوا تلك الخطوة ، حين دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم وخلوا بينهم وبينها يفعلون فيها ما يشاءون . وبذلك تنازل أهل المدينة عن سيادتهم التى كانت شاملة .

ويمكن القول : إن كبار الصحابة – بنوع خاص حين سكتوا ـ قد ارتكبوا انتحارا سياسيا لأنهم صدموا السيادة العربية التى كانوا يستندون إليها . ومنذ ذلك الحين ، نزلت جزيرة العرب من مستواها الذى كان لها قبل الإسلام نزولا كبيرا ، وذلك بسبب هجرة العرب منها على نطاق واسع ، فلم تعد المدينة عاصمة الدولة ، ولم يبق لها من الشأن سوى أنها أصبحت دارا للعلم والعلماء . وفيها نشأت مدرسة الإمام مالك وأهل الحديث . ولم يبق لها من الشأن سوى أنها أصبحت دارا تنزوى فيها الطبقة الساخطة ، أومأوى لقوم أخفقوا فى دورهم السياسى ، أو مأوى لقوم انسحبوا لأسباب أخرى . ونشأ على مشارفها مدائن التسلية والموسيقا والغناء واللهو والمجون .

---

(١) تاريخ الدولة العربية : ص ٥١ .

الفصل الثانى

الإمام علىّ والخارجون على الشرعية

١ ـ خلافة الإمام علىّ

(١) بيعة الإمام علىّ :

كان مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان حدثا عظيما، لا يكاد يدانيه فى خطره حادثة أخرى فى التاريخ الإسلامى . فمنذ ذلك الحين، صار للسيف فى أمر رئاسة الحكومة القول الفصل ، وانشقت الجماعة الإسلامية بعده، وتفرقت شيعا وأحزابا ، كل منها يحاول أن يفرض سلطانه السياسى ، وأن يلجأ للسيف تأييدا لإمامه على الإمام الحاكم بالفعل . فى تلك الساعة المضطربة ، إثر مقتل عثمان ، تلقى علىّ البيعة وسلطان الخلافة من أيد غير بريئة من الإثم ، فلحق النفوس شىء من الاضطراب . فلصق بعلىّ وبجيشه ومبايعيه الإثم ، كما كان لاصقا به أيضا أن مصدر خلافته يرجع إلى الثورة التى قضت على عثمان ، وأن دمه يلحق به ، ومع مبايعته نشبت حرب أهلية . ومن هؤلاء الخارجين على عثمان تكون جيش علىّ ، وتكون منهم جبهة المعارضة الإسلامية على طول التاريخ الإسلامى :

* الخوارج .
* الشيعة .

من هنا ، نرى أن منشأ قوة المعارضة الدينية والسياسية ، يرجع إلى الذين خرجوا على عثمان وثاروا عليه وتلطخت أيديهم بدمائه ، وكان يجمع بينهم بغض بنى أمية الذى حرك فيهم قتل عثمان ، غير أن بغض الخوارج لبنى أمية يرجع إلى اغتصابهم الحق الشرعى من الخليفة الشرعى . أما الشيعة فكانوا أشد من الخوارج بغضا لبنى أمية، لكن بغضهم لبنى أمية لم يكن يرجع لأسرة ما ، بل لأنهم أرادوا أن يزيلوا الأسرة

الزائفة ويحلوا محلها الأسرة الصحيحة صاحبة الحق الشرعى، أعنى بيت النبى " صلى الله عليه وسلم " الذى رأسه بعد وفاته ابن عمه علىّ بن أبى طالب .

ويطلق اسم الشيعة على شيعة علىّ، وكانوا فى أول أمرهم هم أهل العراق، وذلك فى مقابل أهل الشام - شيعة معاوية . وقد ظل علىّ عند أهل العراق - حتى بعد وفاته - يرمز إلى سيادتهم المفقودة ، وكان التشيع يعنى : الدعوة إلى الحق الشرعى لعلىّ وبنيه ومن خلف منهم ، تعبيرا عن شعور العداء لبنى أمية ، وخصوصا أهل الكوفة من العراقيين .

(٢) أهل الحل والعقد والخروج على شرعية المبايعة :

وقعت ثمرة تلك الفعلة المحملة بالبلاء فى حجر الإمام علىّ الذى كان مهيأ قبل قتل عثمان لتولى مقاليد الخلافة، فكان بعد موت أبى بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف أكبر الصحابة غير مدافع . وكانت له مكانته المشهورة ، وكان فى أثناء حصار الدار هو الذى يصلى بالناس، كما أنه هو الذى يقوم بهم . وكان فى نظر أهل المدينة كافة، هو الخليفة الطبيعى لعثمان ، وكان هوى المصريين معه ، وكانت كلمتهم فى تلك الساعة المضطربة هى الكلمة الفاصلة . وعلى غير عادة اختيار أبى بكر وعمر وعثمان ، فكان أحدهم ينتخب أولا ثم تتم البيعة ، إلا عليا فتلقى البيعة العامة فى المسجد فى نفس اليوم الذى قتل فيه عثمان .

ولم تكد بيعته تتم حتى خرج عليه طلحة والزبير، وهما اثنان من كبار الصحابة ، وانقلبا عليه انقلابا مزريا ، واتهماه : بأنه هو الذى استفاد من قتل عثمان ، فتركا المدينة إلى مكة ، وكانت هناك عائشة أم المؤمنين ، حيث التجأت إلى مكة قبل أن يبلغ الأمر غايته وذلك لتعلن براءتها من دم عثمان ، فنادت معهما إلى الأخذ بالثأر من الخليفة الجديد ، وكانت تبغض عليا ، فخرجوا عليه ثلاثتهم . وقد كان هذا إحراجا لعلىّ وتحديا له فى الواقع وكانوا رؤساء وقواد الثورة على الإمام علىّ ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدءوا الثورة عليه ومحاربته من مكة ، لأنه كان فى المدينة ، فقرروا أن يخرجوا من جزيرة العرب وأن يقصدوا البصرة واستطاعوا أن يستولوا على البصرة . وأن يستقروا فيها .

وإزاء ذلك رأى علىّ أنه لا يستطيع البقاء فى المدينة، فتتبعهم إلى العراق ، وقصد الكوفة أولا . وكان مالك بن الأشتر ، ذلك اليمانى صاحب الكلمة النافذة، قد مهد الأرض هناك، وخرج مع علىّ مع أهل الكوفة ، وهاجم أهل البصرة ، فانتصر عليهم

على مقربة من مدينتهم فى موقعة الجمل ، وهو جمل عائشة أم المؤمنين . فأما طلحة والزبير فقد وقعا قتيلين . وأما عائشة فإنها بعد هذا الإخفاق انسحبت من على المسرح ، ثم صالح أهل البصرة عليا ، وبايعه أهل العراق جميعا ، فأقام هناك وجعل الكوفة مقرا له .

(٣) الشام وولاية معاوية :

هو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف - واسم أبى سفيان صخر بن حرب - أسلم عام الفتح مع أبيه ، وكتب لرسول الله وولى الشام لعمر . وبقى بها إلى أن مات بدمشق يوم الخميس منتصف رجب من سنة ستين ، عن ثمان وسبعين سنة (١) .

لم يكن أهل الشام من العرب الذين هاجروا إليه مع الفتح العربى ، إنما هم أهله ، وكانت لهم تقاليد غير التى كانت لأهل الكوفة والبصرة ، وكانوا قبل الإسلام تابعين لدولة " بنى غسان " التى كانت إحدى ولايات الإمبراطورية الرومانية . ووقعوا تحت تأثير تلك الثقافات اليونانية والرومانية واليهودية والمسيحية ، ولذلك تعودوا على النظام والطاعة ، بعض التعود ، فلم يثوروا على أميرهم معاوية بن أبى سفيان ، وكان قد لبث على ولاية الشام عشرين عاما ، ورضى عنه الناس جميعا .

وكان موقفه إزاء علىّ يختلف عن موقف طلحة والزبير فهو لم يكن من المستحقين للخلافة ، ولا هو طالب بها ، بل اختط لنفسه فى تلك الولاية التى كان يدير شئونها سياسة خاصة ، فهو لم يعتبر ولايته انتهت بمقتل عثمان ، وحافظ على منصبه إزاء الثورة واستطاع أن يعرب عن الولاء والطاعة للحكومة الشرعية ، فقد كان له الإمرة فى الشام وقام على جيش وطنى منظم . كذلك لم يشترك مع أصحاب الفتنة ، وهى فتنة بالمعنى الحقيقى ، لأن الذين أثاروها ونفخوا فيها هم أهل الصلاح والورع من كبار الصحابة باسم الإسلام ، وهم يعلمون أن الخلافة آلت مقاليدها إلى الإمام علىّ بمبايعة شرعية ، وللإمام الحق فى أن يرى من هم المشاركون له فى الرأى والمشورة .

فكان الأمويون يعتمدون على أهل الشام ، وهم بمعونة أهل الشام قد أخضعوا أرض الدولة الإسلامية كلها ، وبمعونتهم حافظوا عليها . ولو أن انشقاقا حصل فى الشام لتضعضع الأساس الذى تقوم عليه سيادة بنى أمية على الدولة الإسلامية . أما

(١) مشاهير علماء الأمصار: رقم ٣٢٦. والعبر: ج١ ص ٦٤ .

خراسان فقد كانت على ذلك الحين لاتزال فى مرتبة ثانوية جدا ، وكان الشقاق فى هذه الجهة النائية قليل الأثر على وسط الدولة . أما فى الشام فقد كان الأمر على خلاف ذلك ، وكان من المستحيل أن يغيب عن بال أهل الشام أنهم لابد لهم من أن يتضافروا مع الأسرة الحاكمة لكى يحافظوا على مركزهم ، هم ، وكان ذلك عاملا فعالا فى كسر شوكة الخصومة القبلية بينهم . فكانت كل ولايات الدولة ، عدا بلاد أهل الشام ، تعتبر خاضعة مغلوبة ، وكانت بلادهم وحدها هى التى تعتبر الغالبة الحاكمة . وكانت مصلحتهم - وهى مصلحة مادية إلى حد كبير - فى أن تظل الخلافة والسيادة ملكا لهم ، من جملة الأسباب التى أوجدت شعورا بالتضامن السياسى بينهم (١) . وقد تجلى هذا الشعور بنوع خاص فى المناسبات التى كان لابد لهم فيها ، بوصف أنه جيش الدولة ، من محاربة أعداء الأسرة الحاكمة فى الداخل والخارج . وقد أتيحت لهم فرص كثيرة لذلك (٢) .

ولكى يزيد خلفاء بنى أمية فى رجحان كفة الشام من الناحية السياسة ، حاولوا ، فيما حاولوا ، نقل مركز الشعائر الدينية إلى الشام ، وكان مما استوجب ذلك أن ابن الزبير ظل يحتل البيت الحرام فى مكة قرابة من عشر سنين ، فلم يكن أهل الشام يستطيعون الحج ، ما داموا على ولائهم للأسرة الأموية ، إلا بمشقة .

فقد كان للشام فى بيت المقدس المكان الوحيد الذى يستطيع أن يبارى مكة ، على ظهر الأرض (٣) . ولم يكن مكانا مقدسا عند اليهود والنصارى فحسب ، بل كان عند المسلمين أيضا مكانا مقدسا من أول الأمر . وقد جعل الخليفة عمر لبيت المقدس بفضل زيارته له شأنا خاصا ، وأثار بذلك حسد أهل العراق .

وفى بيت المقدس نصب معاوية أيضا نفسه خليفة ، وصلى فى هذه المناسبة على جبل الجلجلة وعند جيتسيمانى . ولكن عبد الملك ترك ما كان ينويه من إحلال القدس محل مكة ، إن كان قد نوى ذلك على الإطلاق ، وذلك بمجرد أن امتد سلطانه إلى ما وراء بلاد الشام . وقد بدا أن فكرة إحلال بيت المقدس محل مكة بالنسبة للأمة الإسلامية كلها فكرة لا يمكن تنفيذها (٤) .

---

(١) تاريخ الدولة العربية : فيلهوزن - ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة .

(٢) الدولة الأموية : الدكتور / محمد الطيب النجار .

(٣) الطبرى : ج٢ ص ١٦٦٦ س٣ .

(٤) تاريخ الدولة العربية .

(٤) الشام وفكرة التضامن السياسى :

ولا شك أن الفكرة السياسية للإسلام ، أعنى الوحدة والتضامن فى الجماعة الإسلامية ، كان لها تأثير مضاد لتأثير النزعة القبلية ، وكان الممثلون الطبيعيون للروح الإسلامية هم قريشا الذين كانوا ، بحكم وضعهم القانونى فوق القبائل وخارج منافساتها . وكان القرشيون الحاكمون ، أعنى بنى أمية ، قد اضطروا إلى أن يرموا أنفسهم فى الشام بين أحضان كلب لكى يحافظوا على سيادتهم إزاء قيس المائلين مع ابن الزبير . ولكن كانت رابطة الدم تربطهم مع ذلك بقيس .

ويرى المؤرخون أن العرب فى أرض الشام والجزيرة لم يتغيروا فى ظروفهم الجديدة عما كانوا عليه ، من وضع القبيلة والثأر فوق كل شىء . فكانوا يؤثرون النار على العار ، وكانوا لا يندمون إلا أخيرا حين لا ينفع الندم . بل هم صاروا فى ظروفهم الجديدة أشد قسوة مما كانوا عليه فى الجاهلية فى وطنهم القديم ، فصاروا يقتلون بعضهم على نحو أوسع نطاقا وأقل مبالاة ، فكانوا يبقرون بطون من يأسرونه من النساء ، وهذه عادة لم تكن موجودة فى جزيرة العرب بمعناها الحقيقى . بل إنه بعد أن كان القتال من أجل الخلافة قد انتهى وكان السلام قد عاد ، استمر القتال الوحشى بين القبائل أمام أبواب دمشق وتحت بصر الخليفة ، ومع الاستهانة بهيبته أحيانا .

(٥) العراق والعداوات القبلية والنزاع السياسى :

وكان للعداوات القبلية موطن ثان فى الشرق الأقصى للدولة الإسلامية ، ذلك أن البغض القديم بين تميم وربيعة اشتد فى البصرة بسبب هجرة أزد عمان فى أواخر أيام معاوية وفى أيام يزيد الأول . فتحالفت ربيعة مع الأزد ، وتحالفت تميم مع قيس ، وهكذا نشأت مجموعتان كبيرتان من القبائل . وفى أثناء الفترة التى اضطرب فيها أمر الخلافة بعد وفاة يزيد الأول بدأ القتال فى البصرة [١] ، واضطر أميرها ، عبيد الله بن زياد ، إلى الهرب . وأراد مسعود بن عمرو ، رئيس الأزد ، أن يحتل منصبه ، واستطاع أن يستولى على القصر وعلى المسجد بالقوة ، يساعده الأزد وربيعة فى ذلك . ولكن بينما هو على المنبر فى المسجد إذ اقتحمت عليه تميم ، فأنزلوه من على المنبر وقتلوه . وعند ذلك قامت حرب الثأر بين الأزد وتميم بسبب قتل هذا الأمير القبلى .

---

(١) راجع الطبرى : ج٢ ص ٤٣٣ – ٤٦٧ .

ولكن الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، وكان حكيما حنكته السن ، أفلح فى إعادة السلام فى مقابل دفع دية كبيرة .

ولكن العداوة بين الأحزاب لم تزل ، ووجدت الصدور المترعة منزعا فى خراسان(١) . وكانت خراسان أشبه بمستعمرة بصرية ، وإليها انتقلت ظروف الحياة القبلية من البصرة . وكانت الحروب القبلية كلما خبت نارها اندلعت من جديد . وكانت فى أول الأمر بين تميم وربيعة ، ثم بين مضر (تميم وقيس) واليمن (الأزد وربيعة) ، وذلك بعد أن دخل الأزد أيضا على المسرح بفضل المهلب . وكان الخصام بين مجموعات القبائل فى شرق الدولة مرتبطا فى آخر الأمر بالخصام بينها فى مغربها . وكان الوزر فى ذلك وزر قيس خاصة ، لأن قيسا كانوا موجودين فى المشرق والمغرب على سواء ، وكانوا فى كل مكان متماسكين فيما بينهم " كما تتماسك أجزاء البناء " . وقد كان هذا الخصام ينزع إلى أن يمتص فى ذاته أنواع الخصومات الأخرى ، وأن يقسم العالم العربى كله قسمين متنابذين .

وقد تسربت سموم هذه الخصومة إلى الدوائر الحاكمة ، وكان من العسير تفاديها . فماذا كان أمير يستطيع أن يفعل ، إذا كانت قيس تعتبره أميرها ؟! فهو إن ردهم حرم نفسه تأييدهم ولم يجد ما يستند إليه . بل إن بعض الأمراء فى بلاط عبد الملك كانوا يتحمسون فى الميل إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر ، بحسب نسب أمهاتهم(٢) .

---

(١) راجع الطبرى أيضا : ج٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٦ .

(٢) كتاب الحماسة : ص ٢٦٠ .

٢ - صفــين والتحكيـــم

(١) صفين وانقسام جيش علىّ :

هناك عند صفين [١] على حدود الفرات، التقى جيش الإمام علىّ مع جيش معاوية، ووقعت بينهما معركة حامية الوطيس، حتى إذا رأى أهل الشام أنهم على وشك الهزيمة، ومال النصر إلى جانب الإمام، رفعوا المصاحف على أسنة الرماح. وفهم قوم من العراقيين من جند الإمام علىّ أنهم يطلبون الحق تحت راية كلام الله الذى ثاروا باسمه على عثمان.. ومن أجله حاربت عائشة، وانشقت الجماعة الإسلامية على نفسها، فما هو هذا الحق ؟

فوضعت قيادة علىّ السلاح أمام تحكيم القرآن، وأجبروا عليًا على أن يقبل التحكيم ويكف عن القتال، وعلى ألا يجعل تقرير أمر الخلافة للسيف بل للقرآن، أى على يد محكمين يصدرون فى حكمهم عن القرآن [٢]. فلما مانع فى ذلك هددوه بأن مصيره مصير عثمان.

وأدرك جند علىّ وهم فى طريقهم إلى الكوفة أنهم خدعوا عن النصر. وكان أشدهم ندما أولئك الذين كانوا أول من وقع فى شرك الخديعة فأضلوا غيرهم، واعتبروا أنه قد كان من أكبر الإثم أنهم سمحوا للاضطراب أن يتطرق إلى إيمانهم، وأنهم تحيروا حينا فى اعتقادهم بمشروعية الثورة على عثمان.

ولكنهم من جهة أخرى، لاموا عليًا أيضا، لأنه قبل التحكيم، ولأنه بقبوله إياه قد جعل القضية العادلة التى كانوا يحاربون من أجلها موضع شك بالفعل. فطلبوا منه أن يبادربالرجوع عن الخطوة التى كانوا هم أنفسهم أجبروه على أن يخطوها، وأن ينتقض

(١) صفين - بوزن سكين - موضع بقرب الرقة فى شمالى سورية على شاطئ الفرات، كانت به الحرب التى ثارت عجاجتها بين علىّ ومعاوية، وقد ألفت فى هذه الحرب مؤلفات خاصة، منها " وقعة صفين " لنصر بن مزاحم المنقرى المتوفى فى سنة ٢١٢.

(٢) كتاب وقعة صفين -نصر بن مزاحم المنقرى-تحقيق عبد السلام هارون.

المعاهدة التى عقدها مع أهل الشام . فلما لم يكن فى استطاعته أن يتبعهم ولا أن يتراجع طبقا للنغمة التى يضربونها ، خرجوا عليه ونزلوا معسكرا خاصا بهم فى " حروراء " . فسموا لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذى يطلق عليهم فهو اسم : الخوارج .

واختير بناء على اقتراح معاوية حكمان ليحكما فى مسألة من له الخلافة ؟ واختير عمرو بن العاص نائبا عن أهل الشام ، وأبو موسى الأشعرى نائبا عن أهل العراق . وتقرر أن يصدر الحكم فى رمضان التالى فى مكان واقع بين الشام والعراق هو " دومة الجندل " (١) .

ولم يكن مالك بن الأشتر مخدوعا بخدعة التحكيم ، وكان هو وحده الحكيم ، عندما قبل الآخرون أن يخدعوا وأن يؤخذ منهم النصر ، فكان عربيا نبيلا بإزاء أهل الورع ، وبإزاء أهل التراخى أو المكر من الساسة .

(٢) خدعة التحكيم وفكرته :

كانت لمعركة صفين نتائج غيرت وجه التاريخ الإسلامى والعرف السياسى الذى جرى عليه الخلفاء الراشدون . فحين بدى خطر الهزيمة فى جيش معاوية وبشائر النصر للإمام على، رفع أهل الشام المصاحف على أسنة الرماح عملا بمشورة عمرو بن العاص، فأحدثوا فى أهل العراق الأثر المطلوب، فأسقط فى يد الإمام علىّ ولم يترك له فرصة الخيار . تقدم إليه الأشعث بن قيس أمير كندة بالكوفة فى أن يفوض إليه الذهاب إلى معاوية ليفاوضه، فاقترح عليه معاوية أن يختار كل فريق من يمثله ليقر كلاهما حكم القرآن فيمن منهما أحق بالخلافة . وتبنى الأشعث هذا الاقتراح وعرضه على أهل العراق، فأبدوا موافقتهم عليه فورا دون أن يستشيروا عليا ، فوقع اختيار أهل الشام على عمرو بن العاص ، بينما اختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى . وعبثا احتج علىّ على اختيارهم لأبى موسى، فقد كان محايدا مما كرّهه إلى علىّ وحببه إلى أهل العراق " إذ وقعنا فيما حذرنا منه " . أما الأشتر النخعى فقد رفض ذلك رفضا باتا وشدد النكير على الأشعث .

---

(١) على بعض آراء المؤرخين . وكان مثيرا للدهشة أن يقع خلاف غير محسوم حول أهم معلم من معالم التاريخ الإسلامى الذى فصل بين عصرين من حيث زمنه ومكانه ورجاله، ثم لا يكون واضحا زمنه ومكانه . . . إلخ .

أما الأشعث فقد استمر يلعب دور الوسيط المتحمس فى وساطته ، وبعدُ ركب دابته ودار فى معسكر أهل العراق ليعلن مضمونها للجميع .

ولما عاد أهل العراق أدراجهم عم السخط بينهم على نتيجة هذه المعركة . بل إن الذين دفعوا عليّا إلى وقف القتال أخذوا عليه ترك أمر الخلافة إلى هوى متفاوضين؛ فدب نزاع عنيف بينهم . فاغتبط المنافقون . واغتم المخلصون . وانفصل عن علىّ اثنا عشر ألف رجل أبوا العودة معه إلى الكوفة وساروا إلى قرية حروراء تحت لواء التحكيم وشعارهم : لا حُكم إلا لله : ومن هنا سموا باسم المحكّمة . (١) ولكن يطلق عليهم عادة اسم : " الحرورية " أو بلفظ أعم " الخوارج " . كل هذا ولم يمض على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثون عاما . مما كان فى الواقع خيانة لجوهر الإسلام بوصفه دينا وعقيدة لا مذهبا فى السياسة تنتحله المذاهب .

وقد تمكن معاوية وأصحابه خلال معركة صفين من ابتداع حيلة حربية بارعة عدّها أوجوست ميلر " من أشنع المهازل وأسوئها فى التاريخ البشرى " ، وتوصلوا بها ، بعد معركة دامية كان ينبغى أن تُفضى إلى اختلال صفوفهم واندحارهم ، إلى عقد هيئة للتحكيم .

(٣) من هو أبو موسى الأشعرى ؟ :

عبد الله بن قيس ، الأشعرى ، الأمير ، المقرئ ، صحابى جليل استعمله النبى صلى الله عليه وسلم على عدن ، واستعمله عمر على الكوفة والبصرة ، وفتحت على يديه عدة أمصار ، وتوفى فى شهر ذى الحجة من سنة ٤٤ .

من أقدم صحابة رسول الله ، وقد ظل اثنتى عشرة سنة من ١٧ - ٢٩هـ واليا على البصرة فى فترة حافلة بالأحداث والاضطرابات . وفى سنة ٢٩ عزله عثمان فاستقر به المقام فى الكوفة ، حتى أن أهل الكوفة طالبوا بأن يكون واليا عليهم . وبطبيعة الحال لم يكن صديقا لعثمان بن عفان الذى عزله عن ولاية البصرة بغير سبب ولم يوله الكوفة إلا مكرها . وكانت سياسته أن يلتزم موقف الحياد إزاء الأحداث التى اجتاحت الكوفة والبصرة ، وعدم الانضمام إلى الإمام علىّ . وكان الإمام علىّ يعرف موقفه جيدا ،

(١) الخوارج والشيعة : أحزاب المعارضة السياسية والدينية فى صدر الإسلام - يوليوس فيلهوزن - ترجمة عبدالرحمن بدوى . مقالات الإسلاميين : تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

ولهذا اعترض على اتخاذه حكما . كذلك لم يتواطأ مع معاوية ، ولم يبد فى أثناء التحكيم أنه متحيز له ، وهرب من وجه أهل الشام إلى مكة ، فلم يكن رجله عليا ولا معاوية بل عبد الله بن عمر . فمن السهل إذن أن نفهم لماذا وقع اختيار أهل الكوفة على واليهم القديم . . . وفى النهاية رجعوا إلى رأى علىّ فيه حين قالوا : " إذ وقعنا فيما حذرنا منه " .

(٤) المنافسة بين الأشتر والأشعث فى تحريك عصبية القبائل وأثرها فى التحكيم :

كان الأشتر على رأس أقوى القبائل اليمانية ، وهما قبيلتا همدان ومذحج ، حينما انتصر فى صفين . وكان الأشعث من نفس قبيلة كندة اليمانية ، وكان قد حمل عليا على عزل الأشتر . وكاد القتال أن ينشب بينهما . فأثار الأشعث حمية بنى عشيرته ضد أبناء القبائل العربية الشمالية الكثيرين فى جيش علىّ وذلك على ما يقدره اليعقوبى أن معاوية كان قد كسب لصفه الأشعث .

وفى نظرنا : أن قراءة الروايات المتعددة الخاصة بموضوع التحكيم كان يحكمها بعض الأمور التى تنأى بها عن الطعن بالتهمة فى بعض قيادات الإمام علىّ ، وهى :

إنه حين لاح التحكيم - وهو فى ظاهره كما وصفه الإمام علىّ " كلمة حق يراد بها باطل " اختار أهل الكوفة " جيش على " رجلا معروفا بالتقوى والورع والنزاهة والمحايدة عن قوى التنازع . أما من ناحية الاختيار فكان موفقا من حيث المواصفات اللازمة للحكم القاضى ، هذا من جانب الذين فوضوا للاختيار . أما من جانب الإمام علىّ فإنه نظر إلى مسألة التحكيم على أنها ليست بذات موضوع ؛ فليس ثمة خلاف حول خلافته وأن التحكيم - كما يبدو من وصفه له - يثير جدلا وخصومة ولا يقدم حلا ، وهذا ولا شك إدراك دقيق للموقف . لهذا فإن الموقف لا يتطلب رجلا ورعا محايدا كأبى موسى ، إنما الأمر أدق من ذلك ، فهى لعبة سياسية تحتاج إلى من يتحايل لها ويجيد المداورة . غير أنه لم يقترح اسما آخر . كما أن الذين قاموا بالتفاوض كانوا يصدرون فى آرائهم من غير أن يراجعوا الإمام عليا ، فكانت القيادة فى جانب والمفاوضون فى جانب . وكان للقيادة فكر ، ولجماعة جيشه فكر ، والقبلية هواها مع زعمائها .

أما جانب معاوية : فهو الذى اقترح لعبة التحكيم فهو يعلم مداها مع عمرو بن العاص ، وقدرا معا أبعادها . وكانت القيادة هى الموجهة ، والمفاوض صاحب الاقتراح هو الحكم القاضى ، وكان الجيش وحدة من ورائهما . وصعدت لعبة التحكيم مستوى

الخلاف الذى كان يدور حول حق معاوية فى ولايته على الشام متخذا شعار قتل عثمان، وحق القصاص من قاتليه، إلى قضية الخلافة الكبرى، وانقلبت نسب الأمور وكانت فتنة كبرى.

أما جيش الإمام على فكان فى مجموعه قبائل، ومن أقواها اليمانية. وقد شقها صراع بين الأشتر والأشعث، وهما معا من اليمانية ومن كبار قادة جيش الإمام علىّ. وجدّت بعض الحوادث التى جرها التحكيم، كالذى وقع بين أُدَيَّة الحنظلى من تميم أهل البصرة، وبين الأشعث اليمانى، فحرك ما بين القبائل من إصر وبغضاء فى وقت كان الموقف أحوج ما يكون فيه إلى وحدة الرأى ووحدة الصف. وكان أظهر ما فى جيشه المنافسة بين القبائل.

من هنا: ترجحت وجهة نظرنا فى الموقف، وهو أنه ليس محلا للتهمة والتآمر وتوزيع التهم على هذا أو ذلك. إنما الموقف بالنسبة للإمام علىّ كان سيئا من حيث عدم الانضباط فى القيادة وعدم وحدة الرأى، وغابت المشورة التى تعتبر الأساس الأول فى التفاوض [١].

وهذا على خلاف ما يذهب إليه بعض المستشرقين، مثل: دوزى وبرتوف وملر حينما تأولوا بعض روايات لبعض أحداث ليقووا فكرة التآمر على الإمام على [٢].

يقول فيلهوزن: فالبحث عن خونة إذن لا جدوى فيه ولا محل له. وليس أمرا بعيدا عن التصديق أن تكون حيلة رفع المصاحف لدى الخطر العظيم قد طرأت فجأة على فكر عمرو بن العاص الداهية، [٣] فانقسمت الجماعة على نفسها إلى شيعة على وشيعة معاوية، وهذه نتيجة خطيرة فى ذاتها.

(٥) الشرعية مع من ؟ جدل بين أهل العراق وأهل الشام :

لم يكن معاوية مزاحما للإمام علىّ فى طلب الخلافة. غير أن مجريات الأحداث التاريخية لها من القوة ما تجعل الأوضاع الطارئة مشروعة، مع ضرورة التسليم بها.

---

(١) الطبرى: ج٣ ص ٣٨٣.

(٢) الخوارج والشيعة: فيلهوزن - ترجمة عبد الرحمن بدوى.

(٣) نفس المرجع ص ٣١.

يذهب المؤرخون إلى أن البيعة تمت للإمام على وتولى مقاليد الخلافة ، لكن ما معنى خروج كبار الصحابة عليه : طلحة ، الزبير ، وعائشة ؟ (١)

علىّ فى نظر أهل العراق صاحب الولاية الشرعية ، فخرج العراقيون معه ، على حين يذكر المؤرخون أنه كان فى أهل الشام أبناء أبى بكر وعمر ، إلى جانب أربعة آلاف من القراء . معنى هذا أن القراء لم يكونوا فى جانب علىّ وحده ، كما يذكر المؤرخون . إن أهل الشام كانت ضمائرهم مطمئنة كأهل العراق . فلم يكن هؤلاء جميعا مقتنعين بحق علىّ اقتناعا راسخا ، وكانوا يطلبون الأدلة ، وكانوا يتجادلون فيما بينهم ويجادلون خصومهم مجادلات استمرت إلى ما بعد صفين بزمان طويل، واشتدت مع تطور الحوادث حتى اليوم . حتى ما يحكى عن النبى " صلى الله عليه وسلم " فى علامة أهل البغى : «أن عمارا تقتله الفئة الباغية " لم يخل من جدل فى أغلبه يحمل أهواء أهل الفرق والقدرة على التأويل والتوجيه . رآه أهل العراق فى أهل الشام، أى أن التى قتلته فئة الشام لأنه فى جيش علىّ . لم يرض أهل الشام أن يكونوا أهل بغى ، فقالوا دفعا لصفة البغى عنهم ، إنما قتلته الفئة التى أخرجته، أى أهل العراق هم أهل البغى .

(٦) علىّ ومعاوية فى ميزان الموازنة :

حين يطلق «أهل العراق» على جند علىّ يراد «أهل الكوفة» الذين ظلوا فى الجملة موالين لعلىّ ، وكانوا على نصرتهم للإمام علىّ يذكرون أنهم هم الذين رفعوه إلى منصبه حين لحقت بالإمام علىّ فتنة الثورة على عثمان ، والتصقت به وأشعلها ثورة على يد طلحة والزبير وعائشة . وكانت الكوفة هى التى ناصرته بجيشها حين سبقته الثورة الأهلية إليها . وكانوا على نصرتهم للإمام علىّ يذكرون أنهم هم الذين رفعوه إلى منصبه ، وكانوا أبعد عن روح النظام ، وبهم غرور وصلف ، يتشربون روح البداوة ، والتزاما بالدين التزاما ساذجا ، فكان يصعب على الإمام علىّ قيادتهم فى الغالب ولا ينقادون لرأيه . فكثيرا - وعلى خلاف آداب الجند - ما كان رأيهم فى جانب ، ورأى الإمام علىّ فى جانب آخر ، وبهذه العلاقة أفسدوا عليه سياسته ، وبعد أن تبين أن التحكيم انتهى بمهزلة ، رغم شدة الحاجة لهم فى ذلك الوقت . حتى إذا

---

(١) وقعة صفين : نصر بن مزاحم المنقرى. تحقيق عبد السلام هارون أمين .

أجمع أهل العراق همتهم أخيرا ، وكانوا على أهبة الاستعداد والمسير ، قتل ، الإمام عليّ . ولحق بهم الندم على ما ارتكبوا من خطإ فى شأنه وشأن أنفسهم وشأن التاريخ .

أما معاوية ، فقد رفعه التحكيم إلى منصب الخلافة . وتلك مصادفات تتكرر كثيرا فى التاريخ فى بعض فتراته . وهو يعلم أنه لم يرق إلى منصبه مرفوعا من أسفل ، بل هو عُيِّن من فوق ، ولم يكن مدينا لمن هم دونه من الرعية . وكان أهل الشام يطيعونه ، إذا أمر ، ومقتنعين بأنه على الحق فى محاربته قتلة عثمان ، فجعلوا قضيته قضيتهم . وكانوا يعرفونه ويبجلونه منذ سنين طويلة ، واعتادوا أخلاق الجند ، وشيئا من النظام الحربى .

يرى ابن قتيبة : أن عليا ظلمه قومه بجدالهم معه وعدم انصياعهم له ، وأن معاوية نصره قومه وكانوا إليه ألين قيادة وسلاسة ، فيقول : ذكروا أن عليا دعا زحر بن قيس ، فقال له : سر فى بعض هذه الخيل إلى الققطانة فاقطع الميرة عن معاوية ، ولا تقتل إلا من يحل لك قتله ، وضع السيف فى موضعه . فبلغ ذلك معاوية ، فدعا الضحاك بن قيس فأمره أن يلقى زحر بن قيس فيقاتله . فسار الضحاك فلقيه زحر فهزمه وقتل من أصحابه وقطع الميرة عن أهل الشام . ورجع الضحاك إلى معاوية منهزما ، فجمع معاوية الناس فقال : أتانى خبر من ناحية من نواحى أمر شديد . فقالوا : يا أمير المؤمنين لسنا فى شيء مما أتاك إنما علينا السمع والطاعة .

وبلغ عليا قول معاوية وقول أهل الشام ، فأراد أن يعلم ما رأى أهل العراق ، فجمعهم فقال : أيها الناس إنه أتانى خبر من ناحية من نواحى . فقال ابن الكواء وأصحابه : إن لنا فى كل أمر رأيا ، فما أتاك فأطلعنا عليه حتى نشير عليك . فبكى عليّ ثم قال : ظفر والله ابن هند باجتماع أهل الشام له واختلافكم عليّ ، والله ليغلبن باطله حقكم . إنما أتانى أن زحر بن قيس ظفر بالضحاك وقطع الميرة وأتى معاوية هزيمة صاحبه فقال : يأهل الشام إنه أتانى أمر شديد ، فقلدوه أمرهم واختلفتم عليّ ، فقام قيس بن سعد فقال : أما والله لنحن كنا أولى بالتسليم من أهل الشام (١) .

ويوضح ذلك أيضا ويؤكده قول الحجاج بن خزيمة لمعاوية : إنك تقوى على عليّ بدون ما يقوى به عليك . قليل ممن معك خير من كثير ممن معه (٢) .

---

(١) الإمامة والسياسة : ج٢ ص ١٧٤-١٧٥ ط كتب ثقافية .

(٢) نفس المصدر : ص ١٣٥ .

٣ ـ مقتل الإمام علىّ ونهاية الخلافة الشرعية

(١) النهروان :

يحكى الطبرى [١] : رجع أهل العراق إلى أنفسهم ، وهم فى طريق العودة من أقرب طريق على الشاطئ الأيمن من الفرات . ولام بعضهم بعضا ولاموا عليًا أيضا . وإن كان لم يوقف المعركة إلا مضطرا . ولما دخلوا الكوفة خرج اثنا عشر ألف رجل - وعسكروا فى حروراء - فسموا بالخوارج أو الحرورية ، وكان شعارهم عبارة احتجاج على التحكيم ، وقالوا : " لا حكَم إلا الله " .

وكان رؤساؤهم : شبث بن ربعى ، وعبد الله بن الكواء اليشكرى ، ويزيد بن قيس الأرحبى ، اجتمعوا احتجاجا وإنكارًا لهذه البدعة المضلة والأحكام الجائرة ، وهم أكبر رجال قبائل تميم وبكر وهمدان الكبيرة فى الكوفة ، وقد نجح علىّ فى أن يعيد هؤلاء الرؤساء إلى جانبه . وقد وعد أحدهم بولاية أصفهان والسرى وأعطاه إياها . ثم عاد الحرورية إلى الكوفة وانضموا إليه ، لكنهم انتظروا ، وزعموا أنه وعدهم أن يقودهم ، دون إبعاد إلى محاربة الشام . فلما لم يفعل ذلك ، وبعث أبا موسى ، لإنفاذ الحكومة فى " دومة الجندل " فى رمضان عام ٣٧هـ ، اعتبروا ذلك خُلفا منه للموعد . فخرجوا عليه من جديد ، وعينوا منهم خليفة عليهم استقلوا به عن علىّ ـ هو عبد الله بن وهب الراسبى - وبايعوه فى اليوم العاشر من شوال عام ٣٧هـ .

ثم خرجوا من الكوفة وحدانا مستخفين ، **واجتمعوا فى النهروان على الجانب الآخر من دجلة . وهناك عرضوا على خوارج فى البصرة - وكانوا خمسمائة رجل - أن ينضموا إليهم تحت قيادة سعد بن فَدَكى التميمى** [٢] .

وبعد أن انتهى التحكيم كما تنتهى المهزلة ، شعر علىّ أن له الحق فى أن يستأنف

---

(١) ج٥ ٤٨٣ . وتاريخ الدولة العربية : ص ٧٨ .

(٢) وقعة صفين : نصر بن مزاحم .

القتال مع أهل الشام، فجمع جيشه فى معسكر النخيلة ، ودعا الخوارج أيضا للانضمام إليه ، لكنهم لم يستجيبوا لدعوته . وطالبوه بأن يشهد على نفسه بالكفر **لقبوله التحكيم ويستقبل التوبة** . فأراد علىّ أن يدعهم ويمضى إلى قتال أهل الشام، ولكن جيشه ألح عليه أن يقاتل الخوارج ، لأن خوارج البصرة وهم فى طريقهم إلى النهروان ، قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت ابن أحد السابقين فى الإسلام ، بقروا بطن أم ولده عما فى بطنها وقتلوا آخرين واعترضوا الناس ، فاضطر الإمام علىّ أن يستجيب لإلحاحهم ، وحاول عبثا أن يقنع الخوارج بأن يدفعوا إليه القتلة ، وحاول عبثا أن يبين لهم أنه إنما يريد أن يجعل السيف حكما بينه وبين أهل الشام أعدائه وأعدائهم . فأجابوهم : لو بايعناكم اليوم حكمتم غدا . يقصدون أن عليا وشيعته يفعلون ما يفعلون فى صفين من قبول التحكيم ، ولم يقبلوا أى شىء وتهيئوا للقتال ، فتنادوا : الرواح الرواح إلى الجنة (١) .

(٢) فتنة الخرّيت بن راشد :

كانت الصيغة التى اتفق عليها الحكمان بعد مداولاتهما : هى خلع علىّ ومعاوية ، وعلى الأمة أن تستقبل أمرها وتولى عليها من تراه أهلا . غير أن عمرو بن العاص خدع صاحبه أبا موسى حين قال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه . وأنا أخلع صاحبه وأثبت صاحبى معاوية .

أخذ الخريت على علىّ أنه لم يقبل حكم أبى موسى الذى يقضى بترك اختيار الخليفة إلى الشورى بين المسلمين . ولما لم يكن ثمة خليفة غير الإمام على ، وجد فى رأى الخريت مناصرة لأهل الشام وخروجا على خلافته الشرعية . أما معاوية فإنه لم يفقد بذلك شيئا لأنه لم يكن خليفة بعد، ولم ينصب للخلافة إلا فى عام ٤٠ هـ فى بيت المقدس . ولكن عليّا لم يستطع أن يتنازل عن الموقف الذى اتخذه ، ولا أن يجعل حقه متوقفا على الشورى . فمعاوية لم يكن خليفة فيخلع بالمعنى الذى يخلع به علىّ ، وكان الخلع وإنكار الحق فى الخلافة لا يصيب إلا عليا .

وكان الخريت بن راشد من قبيلة ناجية ، حارب مع علىّ فى موقعة الجمل، وحارب معه فى صفين والنهروان . فلما لم يعترف علىّ بحكم الحكمين، جاهره الخريت بالخروج والعداء ، واتجه ومعه أصحابه إلى الأهواز، وتلاحق بهم قوم من

---

(١) الطبرى : ج١ ٣٣٨٣ . تاريخ الدولة العربية : ص ٨٧ .

أصحابهم ، كانوا معهم فى الكوفة ، وانضم إليهم طائفة من العرب يرون رأيهم . فهزمهم جيش على رأسه معقل بن قيس التميمى عند " رامهرامز " .

رجع الخريت بن راشد إلى بلاده فى البحرين ، واشتغل بالفتنة ، فأخذ يؤلب القوم على الإمام علىٍّ ، وكان يقول لصنف من الناس ما يرضيهم ويسر إليهم أنه على رأيهم . فكان إذا تكلم مع الخوارج أظهر أنه على رأيهم ، وأنحى على علىٍّ لأنه حكّم الرجال فى أمر الله . وإذا تكلم مع آخرين أظهر لهم رأيه الذى كان رآه ، حين خرج من الكوفة ، وهو أن عليا ما كان ينبغى له أن يرفض رأى المحكمين بعد أن رضى بالتحكيم ، واختار نائبا عنه ، وظل على سعايته ووشايته ، إلى أن قتله معقل بن قيس .

(٣) موقف علىٍّ السيئ واغتياله :

ساء موقف علىٍّ بعد صفين سوءًا شديدا . فكان الخوارج فى العراق يحاربونه حربا شديدة . وكان أهل البصرة متكاسلين متثاقلين عن نصرته ، ولم يكن أهل الكوفة بأهوائهم معه بكل قواهم ، وكان بينهم بعض المحايدين وهم الذين يسمون : بالمرجئة ، أى الذين كانوا يميلون إلى عثمان . وليس معنى ميلهم إلى عثمان أنهم مع حزب أهل الشام بل هم اتخذوا موقفا محايدا لم ينضموا إلى حزب الشام ، ولا إلى جيش علىٍّ . كان منهم فى مصر ، وكان منهم فى الكوفة ، وفى الأمصار ، لا يجمعهم سوى المطالبة بدم عثمان فقط .

وقد كان لضعف مركزه أثره فى مكانته وهيبته فى الأطراف ، فقامت ثورة الخريت وامتنع عرب البحرين عن الخراج ، وصدقة المال ، وارتد بعضهم إلى النصرانية ، وتمردت الولايات الفارسية ، وتراخت عقيدة طاعتها للحكومة المركزية ، وطمع أهل فارس وكرمان فى كسر الخوارج .

وقع حادث الاعتداء عليه الذى مات بسببه يوم الجمعة ١٥ من رمضان سنة ٤٠هـ فى مسجد الكوفة . وتوفى الإمام علىّ يوم الأحد التالى . وفقد الإسلام بمقتل الإمام علىّ زعيما من أعظم وأنبل زعمائه . وطويت صفحة الولاية الشرعية القائمة على البيعة والشورى ، من غير سيف ولا قتل . أما القاتل ، فهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى النجوبى ، فقد كان خارجيا ، والخوارج يذكرونه فخورين ويقولون : إنه أخوهم (١) .

(١) يراجع : الطبرى ج ٥ .

(٤) انتقال عاصمة الخلافة من الكوفة إلى الشام :

لم يستطع الأمويون ـ رغم استيلائهم على مقاليد الخلافة ـ أن يحافظوا على سيادتهم إلا بالقوة ، وكان موطن الثورة عليهم فى العراق ، وخصوصا مدينة الكوفة مركز الثورة على الإمام علىٍّ، غير أن معارضتهم تكون خفية أحيانا وسافرة أحيانا أخرى .

ومع انتقال الخلافة إلى معاوية ، انتقل مركزها من الكوفة إلى دمشق ، وانتقل معها فى الوقت نفسه بيت المال ، وصارت الكوفه مصرا من الأمصار ، وعليهم أن يقتنعوا بفتات الأعطيات التى تتساقط من مائدة سادتهم أعداء الأمس ، الشاميين . فلا عجب أنهم كانوا يرون فى سيادة الشام عليهم هوانا قاسيا ، وأنهم كانوا مستعدين أن يطرحوه إذا بدا لهم أن الفرصة مواتية لذلك ، لأنهم كانوا مجتمعين على الحنق بسبب ضياع ما كان لهم من سيادة ، ومجتمعين على البغض لمن غصبهم إياها . وكانت أعنف الثورات على الأمويين تأتى من جانب أهل العراق[١] .

---

(١) وقعة صفين : نصر بن مزاحم .

٤ - الخوارج الأولى (الحَرورية - الشُّــرَاة)

(١) جدلهم مع الإمام علىّ واستحلالهم أعراض المسلمين :

المحكِّمة الأولى : يقال للخوارج : محكِّمة ، وشُراة .

واختلفوا فى أول من تشرّى منهم ، فقيل [١] : عروة بن حدير أخو مرداس الخارجى . وقيل : أولهم يزيد بن عاصم المحاربى . وقيل : رجل من ربيعة من بنى يشكر ، كان مع علىٍّ بصفين ، فلما رأى اتفاقا على الحكمين استوى على فرسه وحمل على أصحاب معاوية وقتل منهم رجلا ، وحمل على أصحاب علىٍّ وقتل منهم رجلا ، ثم نادى بأعلى صوته : ألا إنى قد خلعت عليا ومعاوية ، وبرئت من حكمهما . ثم قاتل أصحاب علىّ حتى قتله قوم من همدان .

ثم إن الخوارج بعد رجوع علىّ من صفين [٢] إلى الكوفة ، انحازوا إلى حروراء ، وهم يومئذ اثنا عشر ألفا ، ولذلك سميت الخوارج حرورية ، وزعيمهم يومئذ عبدالله ابن الكواء ، وشبث بن ربعى . وخرج إليهم علىّ يناظرهم ، فوضحت حجته عليهم ، فاستأمن إليه ابن الكواء مع عشرة من الفرسان .

وانحاز الباقون منهم إلى النهروان ، وأمَّروا على أنفسهم رجلين ، أحدهما : عبدالله بن وهب الراسبى ، والآخر : حرقوص بن زهير البجلى المعروف بذى الثدية .

والتقوا فى طريقهم إلى نهروان برجل رأوه يهرب منهم ، فأحاطوا به ، وقالوا له : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن خباب بن الأرت . فقالوا له : حدثنا حديثا سمعته عن أبيك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فقال : سمعت أبى يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى ، فمن استطاع أن يكون مقتولا فلا

---

(١) الفرق بين الفرق ، للبغدادى - تحقيق الشيخ / محمد محيى الدين عبد الحميد . والملل والنحل : الشهرستانى - تحقيق د . محمد فتح الله بدران . ومقالات الإسلاميين : الأشعرى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) وقعة صفين : نصر بن مزاحم - تحقيق عبد السلام هارون .

يكونن قاتلا " (١) . فشد عليه رجل من الخوارج يقال له مسمع بسيفه فقتله ، فجرى دمه فوق ماء النهر كالشراك إلى الجانب الآخر . ثم إنهم دخلوا منزله وكان فى القرية التى قتلوه على بابها ، فقتلوا ولده وجاريته أم ولده . ثم عسكروا بنهروان ، وانتهى خبرهم إلى علىٍّ رضى الله عنه ، فسار إليهم فى أربعة آلاف من أصحابه ، وبين يديه عدى بن حاتم الطائى وهو يقول :

نسير إذا ما كاع قوم وبلّـدوا ❊❊❊ برايات صـدق كالنسور الخوافـق

إلى شر قوم من شراة تحزبوا ❊❊❊ وعـادوا إله النـاس رب المشـارق

طغاة عماة مارقين عن الهدى ❊❊❊ وكل يرى فى قوله غير صـادق

وفينا علىّ ذو المعالى يقودنـا ❊❊❊ إليهم جهـارا بالسيوف البـوارق

فلما قرب علىٌّ منهم أرسل إليهم : أن سلّموا قاتل عبد الله بن خباب . فأرسلوا إليه : إنا كلنا قتله ، ولئن ظفرنا بك قتلناك . فأتاهم علىّ فى جيشه ، وبرزوا إليه بجمعهم ، فقال لهم قبل القتال : ماذا نقمتم منى ؟ فقالوا له : أول ما نقمنا منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ما وجدنا فى عسكرهم من المال ، ومنعتنا من سبى نسائهم وذراريهم ، فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ؟ فقال : إنما أبحت لكم أموالهم بدلا عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومى عليهم ، والنساء والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر . وبعد ، لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة فى سهمه ؟ فخجل القوم من هذا .

ثم قالوا له : نقمنا عليك محو إمرة أمير المؤمنين على اسمك فى الكتاب بينك وبين

---

(١) رواه أحمد فى المسند : (١/ ١٦٩ ، ٢/ ٢٨٢) ، والدولابى فى الكنى والأسماء : (١/ ١٨٢) ، والبيهقى فى السنن الكبرى : (٨/ ١٩٠) ، والطبرانى فى الكبير : (٤/ ٢٤٩) . وانظر كنز العمال : (٣٠٨٢٩) ، والبداية والنهاية : (٧/ ٢٨٨) .

معاوية لما نازعك معاوية فى ذلك . فقال : فعلت مثل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية حين قال له سهيل بن عمرو : لو علمت أنك رسول الله لما نازعتك ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك . فكتب : " هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله وسهيل بن عمرو " . وأخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لى منهم يوما مثل ذلك ، فكانت قصتى فى هذا مع الأبناء قصة رسول الله عليه الصلاة والسلام مع الآباء .

فقالوا له : فلم قلت للحكمين : إن كنت أهلا للخلافة فأثبتانى ، فإن كنت فى شك من خلافتك فغيرك بالشك فيك أولى . فقال : إنما أردت بذلك النصفة من معاوية ، ولو قلت للحكمين احكما لى بالخلافة لم يرض بذلك معاوية . وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى نجران إلى المباهلة، وقال لهم : **﴿ تعالوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهلْ فنجعل لَّعنة الله على الكاذبين﴾** (١) فأنصفهم بذلك من نفسه ، ولو قال " أبتهل فأجعل لعنة الله عليكم " لم يرض النصارى بذلك . لذلك أنصفت أنا معاوية من نفسى ، ولم أدر غدر عمرو بن العاص .

قالوا : فلم حكمت الحكمين فى حق كان لك ؟ فقال : وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكم سعد بن معاذ (٢) فى بنى قريظة ، ولو شاء لم يفعل . وأقمت أنا أيضا حكما ، لكن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكم بالعدل ، وحكَمى خُدِع حتى كان من الأمر ما كان ، فهل عندكم شىء غيرهذا ؟

فسكت القوم ، وقال أكثرهم : صدق والله . وقالوا : التوبة ، واستأمن إليه منهم يومئذ ثمانية آلاف ، وانفرد منهم أربعة آلاف بقتاله مع عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير البجلى .

---

(١) من الآية ٦١ من سورة آل عمران ، وانظر قصة وفد نصارى نجران والمباهلة فى سيرة ابن هشام: (٣١٨/١) ويقال : إن هؤلاء النصارى من الحبشة .

(٢) سعد بن معاذ : أبو عمرو ، سيد الأوس ، شهد الخندق مع رسول الله فأصابه سهم . وكانت غزوة بنى قريظة عقب الخندق ، وفيها نزل يهود بنى قريظة على حكم سعد بعد حصار خمسة وعشرين يوما ، فحكم سعد بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، فقال منهم أكثر من ستمائة ، فقتل من عداهم ، وقد قال رسول الله لسعد حين حكم : " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة " . ثم مات سعد متأثرا بجراحه فقال رسول الله " اهتز عرش الله لموت سعد " . وفى ذلك يقول حسان بن ثابت :

وما اهتز عرش الله من أجل هالك *** سمعنا به إلا لسعد أبى عمرو

وقال عليٌّ للذين استأمنوا إليه : اعتزلونى فى هذا اليوم . وقال لأصحابه : قاتلوهم ، فوالذى نفسى بيده لا يقتل منا عشرة ولا ينجو عشرة منهم . فقتل من أصحاب عليٍّ يومئذ تسعة ، وهم : ذويبة بن وبرة البجلى ، وسعد بن مجالد السبيعى ، وعبد الله بن حماد الجريرى ، ورفاعة بن وائل الأرحبى ، والفياض بن خليل الأزدى ، وكيسوم بن سلمة الجهنى ، وعتبة بن عبيد الخولانى ، وجميع بن جشم الكندى ، وحبيب بن عاصم الأودى . قتل هؤلاء التسعة تحت راية عليٍّ رضى الله عنه فحسب .

وبرز حرقوص بن زهير إلى عليٍّ ، وقال : يا بن أبى طالب ، لا نريد بقتالك إلا وجه الله والدار الآخرة . وقال له عليٌّ ، بل مثلكم كما قال الله عز وجل ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ . [1] منهم أنت ورب الكعبة . ثم حمل عليه فى أصحابه ، وقتل عبدالله بن وهب فى المبارزة ، وصرع ذو الثدية عن فرسه .

وقتلت الخوارج يومئذ ، فلم يفلت منهم غير تسعة أنفس ، صار منهم رجلان إلى سجستان ، ومن أتباعهما خوارج سجستان ، ورجلان إلى اليمن ومن أتباعهما إباضية اليمن ، ورجلان إلى عمان ، ومن أتباعهما خوارج عمان ، ورجلان صارا إلى ناحية الجزيرة ، ومن أتباعهما كان خوارج الجزيرة ، ورجل منهم صار إلى تل مَوْزَن .

وقال عليٌّ لأصحابه يومئذ : اطلبوا ذا الثدية ، فوجدوه تحت دالية ورأوا تحت يده عند الإبط مثلَ ثدى المرأة ، فقال : صدق الله ورسوله ، وأمر فقتل .

فهذه قصة المحكمة الأولى ، وكان دينهم إكفار عليٍّ ، وعثمان ، وأصحاب الجمل ، ومعاوية ، وأصحابه ، والحكمين ، ومن رضى بالتحكيم ، وإكفار كل ذى ذنب ومعصية .

ثم خرج على عليٍّ بعد ذلك من الخوارج جماعة كانوا على رأى المحكمة الأولى ، منهم أشرس بن عوف ، وخرج عليه بالأنبار . وغفلة التيمى من تيم عدى ، خرج عليه بماء سبذان . والأشهب بن بشر العرنى ، خرج عليه بجرجرايا . وسعد بن قفل ، خرج عليه بالمدائن ، وأبو مريم السعدى ، خرج عليه فى سواد الكوفة . فأخرج عليٌّ إلى كل واحد جيشا مع قائد حتى قتلوا أولئك الخوارج ، ثم قتل عليٌّ رضى الله عنه فى تلك السنة فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة .

(١) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

فلما استوت الولاية لمعاوية خرج عليه وعلى من بعده إلى زمان الأزارقة قوم كانوا على رأى المحكمة الأولى .

منهم عبد الله بن جوشا الطائى ، خرج على معاوية بالنخيلة من سواد الكوفة ، فأخرج معاوية إليه أهل الكوفة حتى قتلوا أولئك الخوارج .

ثم خرج قرة بن نوفل الأشجعى ، والمستورد بن علقمة التميمى ، على المغيرة بن شعبة ، وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل معاوية ، فقتلا فى حربه .

ثم خرج معاذ بن جرير على المغيرة ، فقتل فى حربه .

ثم خرج زياد بن خراش العجلى ، على زياد بن أبيه ، فقتل فى حربه .

وخرج قريب بن مرة على عبيد الله بن زياد ، وخرج عليه أيضا زحاف بن زحر الطائى ، واستعرضا الناس فى الطريق بالسيف ، فأخرج ابن زياد إليهما عباد بن الحصين الحبطى فى جيش ، فقتلوا أولئك الخوارج .

أسفر هذا النقاش الذى جرى بينهم وبين الإمام علىّ عن خيبة أمل بعد رجوعهم إليه من حروراء إلى الكوفة بعد عام من اعتزالهم ، فانقلبوا عليه مرة ثانية وانضووا تحت لواء عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى ، وكان يقال له " ذو الثفنات " (من كثرة العبادة ، ركبتاه كَرُكَب الإبل لها ثفنات) . والتقوا مع خوارج البصرة ، وكان عددهم خمسمائة على رأسهم مسعر بن فدكى التميمى ، فخرج علىٌّ لمقاتلتهم فقتل أكثرهم وقتل خليفتهم عبد الله بن وهب الراسبى ، بيد أن هذه الهزيمة لم تضع حدا لحركة الخوارج ، فانبثق خوارج من دم شهدائهم . وكان من نتيجتها أن أصبح الصدع بين الخوارج والجماعة صدعا لا يمكن رأبه مدى الدهر ، وراح ضحيته علىّ نفسه ، فالذى حرض قاتله عروسه فطام ابنة الشجنة وقد قتل أبوها وأخوها فى النهروان . وهكذا انتقم ابن ملجم ، لأن الأمر لم يكن أمر قبيلة بل أمر حزب سياسى . فالخوارج إذن كانوا حزبا ثوريا صريحا ، كما يدل على ذلك اسمهم .

أجل ، كانوا حزبا ثوريا يعتصم بالتقوى . لم ينشئوا عن عصبية العروبة ، بل عن إيمان صادق وإدراك أبعاد المهزلة التى رفعت معاوية إلى الجلوس على كرسى الخلافة . وكان القراء يرون أن " السيف " هو الذى فصل فى موضوع " الخلافة " دون " الشورى " و " المبايعة " ، ونقض لميثاق المبايعة الذى أخذ للإمام علىّ فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وأدت نصرة شرعية الخلافة والحق إلى تصادم مع السلطة الحاكمة ، وانطوى الموقف من الخلافة الشرعية على تناقض بين خليفة شامى

كان فى الأصل واليا معزولا من قبل الخليفة الشرعى ، وخليفة شرعى يطلب حقا فى يده ، وسيوف لا تدرى إلى أين تتجه ! !

وعلى الرغم من وضوح نشأة الخوارج ، فإنه وقع بين مؤرخى الفرق بعض الاجتهادات فى البحث عن أصول نشأتهم ، ووفق تقاليدهم الفكرية ، فإنهم يلتمسون بعض الأحاديث الضعيفة ليقرروا أن خلفهم كان مقررا سلفا ، راجعناها وعلقنا عليها .

(٢) رأى الشهرستانى :

هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين " علىّ " رضى الله عنه حين جرى أمر المحكمين ، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة ، ورأسهم : عبد الله بن الكواء ، وعتاب بن الأعور ، وعبد الله بن وهب الراسبى ، وعروة بن جرير ، ويزيد بن عاصم المحاربى ، وحرقوص بن زهير البجلى المعروف بذى الثدية . وكانوا يومئذ فى اثنى عشر ألف رجل أهل صلاة وصيام ، أعنى يوم النهروان .

وفيهم قال النبى صلى الله عليه وسلم : «تحقر صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم ، وصوم أحدكم فى جنب صيامهم ، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم " .

فهم : المارقة ، الذين قال فيهم : " سيخرج من ضضئ هذا الرجل قوم يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية "

وهم الذين أولهم " ذو الخويصرة " ، وآخرهم : " ذو الثدية " . وإنما خروجهم - فى الزمن الأول - على أمرين :

أحدهما : بدعتهم فى الإمامة ، إذ جوزوا أن تكون الإمامة فى غير قريش . وكل من نصبوه برأيهم وبايعه الناس على العدل واجتناب الجور : كان إماما ، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه . وإن غيَّر السيرة ، وعدل عن الحق ، وجب عزله أو قتله . وهم أشد الناس قولا بالقياس . وجوزوا : ألا يكون فى العالم إمام أصلا ، وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون : عبدا ، أو حرا ، أو نبطيا ، أو قرشيا .

والبدعة الثانية : أنهم قالوا : أخطأ " علىٌّ " فى التحكيم ، إذ حكم الرجال ، ولا حكم إلا لله . وقد كذبوا على " علىٍّ " رضى الله عنه من وجهين : **أحدهما** فى التحكيم ، أنه حكم الرجال ، وليس ذلك صدقا ، لأنهم هم الذين حملوه على التحكيم . **والثانى** : أن تحكيم الرجال جائز ، فإن القوم هم الحاكمون فى هذه المسألة ، وهم رجال ، ولهذا قال علىٌّ رضى الله عنه : " كلمة حق أريد بها باطل " .

وتخطوا عن هذه التخطئة إلى التكفير ، ولعنوا " عليًا " رضى الله عنه فيما قاتل : الناكثين ، والقاسطين والمارقين . فقاتل الناكثين ، واغتنم أموالهم ، وما سبى ذراريهم ونساءهم . وقتل مقاتلة من القاسطين ، وما اغتنم ، ولا سبى . . . ثم رضى بالتحكيم . وقاتل مقاتلة المارقين ، واغتنم أموالهم ، وسبى ذراريهم . وطعنوا فى عثمان رضى الله عنه ، للأحداث التى عدوها عليه . وطعنوا فى أصحاب الجمل وأصحاب صفين . . .

قاتلهم : علىّ " رضى الله عنه" بالنهروان مقاتلة شديدة ، فما انفلت منهم إلا أقل من عشرة، وما قتل من المسلمين إلا أقل من عشرة. فانهزم اثنان منهم إلى عمان، واثنان إلى كرمان، واثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تل موزن باليمن. وظهرت بدع الخوارج فى هذه المواضع منهم، وبقيت إلى اليوم.

وأول من بويع من الخوارج بالإمامة: عبدالله بن وهب الراسبى فى منزل زيد بن حصين، بايعه: عبدالله بن الكواء، وعروة بن جرير، ويزيد بن عاصم المحاربى، وجماعة معهم. وكان يمتنع عليهم تحرجا، ويستقبلهم ويومئ إلى غيره تحرزا، فلم يقنعوا إلا به. وكان يوصف برأى ونجدة، فتبرأ من الحكمين، وممن رضى بقولهما وصوب أمرهما.

وأكفروا أمير المؤمنين «عليًا» رضى الله عنه، وقالوا: إنه ترك حكم الله، وحكم الرجال. وقيل : إن أول من تلفظ بهذا رجل من بنى سعد بن زيد بن مناة بن تميم، يقال له: الحجاج بن عبيد الله، يلقب بالبرك. وهو الذى ضرب معاوية على إليته ـ لما سمع بذكر الحكمين ـ وقال: أتحكم فى دين الله؟ لا حكم إلا لله، فلنحكم بما حكم الله فى القرآن به. فسمعها رجل فقال: طعن والله فأنفذ. فسموا: المحكمة بذلك. ولما سمع أمير المؤمنين «علىّ» رضى الله عنه هذه الكلمة قال: «كلمة عدل أريد بها جور، إنما يقولون: لا إمارة، ولابد من إمارة بر أو فاجر».

ويقال: إن أول سيف سل من سيوف الخوارج سيف: عروة بن أذينة، وذلك أنه أقبل على الأشعث بن قيس، فقال: ما هذه الدنية يا أشعث؟ وما هذا التحكيم؟ أشرط أحدكم أوثق من شرط الله تعالى؟ ثم شهر السيف. والأشعث مول. فضرب به عجز البغلة. فشبت البغلة فنفرت اليمانية. فلما رأى ذلك الأحنف، مشى هو وأصحابه إلى الأشعث فسألوه الصفح، ففعل.

وعروة بن أذينة نجا بعد ذلك من حرب النهروان، وبقى إلى أيام معاوية، ثم أتى إلى زياد بن أبيه ومعه مولى له، فسأله زياد عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فقال فيهما

خيرا. وسأله عن عثمان، فقال: كنت أوالى عثمان على أحواله فى خلافته ست سنين، ثم تبرأت منه بعد ذلك، للأحداث التى أحدثها. وشهد عليه بالكفر. وسأله عن أمير المؤمنين «علىّ» رضى الله عنه، فقال: كنت أتولاه إلى أن حكم الحكمين، ثم تبرأت منه بعد ذلك. وشهد عليه بالكفر. وسأله عن معاوية، فسبه سبا قبيحا، ثم سأله عن نفسه، فقال: أولك لريبة وآخرك لدعوة، وأنت فيما بينهما بعد عاص ربك. فأمر زياد بضرب عنقه. ثم دعا مولاه، فقال له: صف لى أمره واصدق. فقال: أأطنب أم أختصر؟ فقال: بل اختصر. فقال: ما أتيته بطعام فى نهار قط، ولا فرشت له فراشا بليل قط. هذه معاملته واجتهاده، وذلك خبؤه واعتقاده.

(٣) ألقاب الخوارج :

وللخوارج ألقاب: فمن ألقابهم: الوصف بأنهم (خوارج). ومن ألقابهم: (الحَرُورية). ومن ألقابهم. (الشُّراة). ومن ألقابهم. (المارقة). ومن ألقابهم: (المحكِّمة).

وهم يرضون بهذه الألقاب كلها، إلا بالمارقة، فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

والسبب الذى سموا له خوارج، خروجهم على علىٍّ بن أبى طالب.

والذى له سموا محكِّمة إنكارهم الحكمين، وقولهم: لا حكم إلا لله.

والذى له سموا حَرورية، نزولهم بحَروراء فى أول أمرهم.

والذى له سموا شُراة قولهم: شرينا أنفسنا فى طاعة الله، أى بعناها[1] بالجنة.

(٤) البلاد التى انتشروا فيها :

والكور التى غلب عليها الخارجية: الجزيرة، والموصل، وعمان، وحضرموت، ونواح من نواحى المغرب، ونواح من نواحى خراسان. وقد كان لرجل من الصفرية سلطان فى موضع يقال له سجلماسة على طريق غانة.

---

(١) مقالات الإسلاميين للإمام أبى الحسن الأشعرى تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، الملل والنحل للشهرستانى تحقيق د. محمد بن فتح الله بدران.

(٥) انتماء الخوارج للقبائل العربية :

إن الخوارج لم يكونوا من قريش ولا ثقيف ولا الأنصار. بل من قبائل أقل أهمية من حيث المكانة السياسية، اندمجت فى الإسلام وخصوصا بعد حرب الردة.

وكانت سيادة قريش التى نالت اعتراف جميع العرب عدا الخوارج أحد أسباب تمردهم. يقول عبد القاهر البغدادى : ثم اختلفوا بعد ذلك فى الإمامة، وأذعنت الأنصار إلى البيعة لسعد بن عبادة الخزرجي. وقالت قريش إن الإمامة تكون فى قريش. ثم أذعنت الأنصار لقريش لما روى لهم قول النبى - عليه السلام - الأئمة من قريش، وهذا الخلاف باق إلى اليوم لأن ضرارا أو الخوارج قالوا بجواز الإمامة فى غير قريش[١].

وأقامت فى الكوفة والبصرة. وكذلك وطن الخوارج أقدامهم فى اليمامة واليمن وخصوصا بين قوم متحضرين لا بدو. ولكن هذا إنما حدث فى عهد متأخر. فكان منهم كثير من بنى تميم. ففى البصرة، حيث كانت الأغلبية من بنى تميم، كان: مسعر ابن فدكى، حرقوص بن زهير، عروة بن أدية وأخوه أبو بلال. وفي الكوفة: شبث بن ربعى (الذى تركهم بعد ذلك)، والمستورد وهلال بن علقة، وكلاهما من تيم الرباب الذين لحقوا ببنى تميم. وكان كثيرون من قبائل أخرى. فمن المضريين: فروة بن نوفل الأشجعى، وشريح بن (أبى) أوفى العبسي، وعبدالله بن شجرة السلمى[٢]، وحمزة بن سنان الأسدى[٣]، وكثير من المحاربين[٤]. ومن الطائيين: زيد بن الحسين، ومعاذ ابن جوين، وطرفة بن عدى بن حاتم. ومن اليمانيين: يزيد بن قيس الأرحبي (وقد تركهم فيما بعد) وابن وهب الراسبى، أول خلفائهم، وابن ملجم المرادى، قاتل علىّ ابن أبى طالب. ومن بنى ربيعة لا نرى فى بدء الأمر كثيرين. ومنهم ابن كوا اليشكرى (وقد تركهم فيما بعد)، ولكن الحال تغيرت فيما بعد كثيرا. ولا نجد خوارج من الأزديين فى البصرة أول الأمر، لأن بنى الأزد لم ينتقلوا إلى البصرة إلا فيما بعد. وكان الزعماء الثلاثة الأول فى حروراء هم أبرز رجال القبائل العظمى فى الكوفة، أعنى: تميم وبكر وهمدان.

---

(١) الفرق بين الفرق: تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد.

(٢) راجع الطبرى: ج ١ ص ٣٣٧٧، ٣٣٨٢، والدينورى: ص ٢١٦ س ١٣، ص ٢٢١ س ٦.

(٣) الطبرى: ص ٣٣٦٤، الدينورى: ص ٢١٥ س ١٧.

(٤) ص ٣٣٠٩ وما يليها، ص ٣٣٦١ وما يليها.

(٦) آراء حول أصل نشأة الخوارج :

الرأي الأول : الخلاف حول التحكيم : كان بدء الخلاف في الإسلام : الثورة على عثمان ، من أجل الحق والعدل ضد فساد الحكم وظلمه . ولا شك في أنها كلمات تستعمل تبريرا ضد كل حاكم يضل سواء السبيل ـ بالحق وبالباطل . فاستخدمها الخوارج ضد عليّ نفسه ، فانفصلوا بهذا عن شيعته ، وصاروا خوارج . فالثورة التى أتت بعليّ إلى الخلافة لم تتهاون معه حينما ضل الطريق ، من وجهة نظرهم . وقد يرى المرء من العار أن يأخذ الخوارج على عليٍّ هذا الموقف ، وقد دفعوه إليه أولا ، ثم طالبوه من بعد بالنكوص عنه . أورد الطبرى بعض جدالهم معه حول هذه النقطة وخلاف عليّ معهم .

لتوضيح هذا نورد ما ورد فى الطبرى : «قيل لعليّ بعد ما كتبت فى الصحيفة ، إن الأشتر لا يقر بما فى الصحيفة ولا يرى إلا قتال القوم . قال عليّ : وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا . فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت . فإذا رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار ، إلا أن يعصى الله عز وجل ويتعدى كتابه»(١) . وفي موضع آخر : «إن عليًا لما أراد أن يبعث أبا موسى للحكومة ، أتاه رجلان من الخوارج : زرعة بن البرة الطائى ، وحرقوص بن زهير السعدى ، فدخلا عليه فقالا له : «لا حكم إلا لله» . فقال عليّ : « لا حكم إلا لله» . فقال له حرقوص : تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا . فقال لهم عليّ : «قد أردتكم على ذلك فعصيتمونى . وقد كتبنا بيننا وبينهم كتابا ، وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا . وقد قال الله عز وجل : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون** (٢) ﴾»(٣) . فقال له حرقوص : ذلك ذنب ينبغى أن نتوب منه . فقال على : « ما هو ذنب ، ولكنه عجز من الرأى وضعف من الفعل ، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه»(٤) .

---

(١) ج ١ ص ٣٣٤٤ . (٢) النحل : ٩١ .
(٣) الملل والنحل : ٩١ . (٤) ج ١ ص ٣٣٦٠ .

غير أنهم يرون أنه تخلى عن الحق الشرعي ، وحق الجهاد ضد معاوية ، وألزم نفسه بالميثاق معه ، وأن فى الميثاق معه ما يقضى على ذلك الحق الشرعى .

ونقطة الخلاف بينهم وبين الشيعة هى :

* ينظر الخوارج منذ البداية : أن الحق حق الأمة مع علىٍّ ، وهي لم تنقض معه ميثاقها .

* أما الشيعة فهم يرون أن الحق حق علىٍّ لشخصه ولبنيه من بعده .

وعلى هذا شق الخلاف بينهما ، فوزعهما إلى طريقين مستقيمين لا يلتقيان . فالخلاف بينهما جوهرى بعيد المدى ، برغم أن نقطة البداية فى الخلاف واحدة وهدفهما أيضا واحد وهو الخروج على معاوية ، والانتصار للحق الشرعى .

فالخوارج إذن كانوا حزبا ثوريا صريحا ، كما يدل على ذلك اسمهم . أجل كانوا حزبا ثوريا يعتصم بالتقوى . وتحت مبدإ التقوى كان عليهم إلزام أنفسهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مبدأ إسلامى عام . ولكن تحقيقه بمناسبة وغير مناسبة كان علامة دالة على الخوارج .

الرأى الثانى : عرب البادية : يذهب بعض المستشرقين إلى أن الخوارج جماعة من عرب البدو الخلص . ويرى «برنوف» أنهم كانوا على العموم أتقياء عاكفين على دراسة القرآن . ويناقش «فيلهوزن» هذا الرأى مناقشة ناقدة ، فيقول : الحق أنه بدأ من مقدمات كاذبة . إن عرب الكوفة والبصرة كانوا جميعا تقريبا من البدو ، بمعنى أنهم جاءوا من قبائل تقيم فى البادية ، ولكن هذا لا يدل على شيء بالنسبة إلى الخوارج . إن رابطتهم بقبائل البادية كانت قد انحلت منذ هجرتهم . أعنى منذ ارتحالهم إلى مدائن الجيوش وانخراطهم فى الجيوش . والهجرة نفى للبداوة ، والمهاجر فى مقابل الأعرابى[1] . أما البدو الخلص الذين احتفظوا بطباعهم الأصيلة ، فقد ظلوا بعيدين عن الحركات والأحزاب الدينية السياسية ، شأنهم شأن سكان القرى . ثم يقول : ولا شيء يدل على أن قدماء الخوارج الذين يسكنون الكوفة والبصرة كانوا يختلفون من هذه الناحية عن سائر أهل الكوفة والبصرة . ثم يقول : وإنما يكون «برنوف» على صواب لو أنه أراد أن يقول إن الخوارج لم يكونوا من قريش ولا ثقيف ولا الأنصار ، بل من قبائل أقل أهمية

(١) الخوارج والشيعة : ص ٣٢ .

من حيث المكانة السياسية، اندمجت فى الإسلام وخصوصا بعد حرب الردة، وأقامت فى الكوفة والبصرة[1].

الرأى الثالث : الخوارج والسبئية : يرى بعض كتاب الفرق أن السبئية تكاد تنهض بالدور الرئيسي فى تشعيب الفرق الإسلامية، والأحزاب الدينية السياسية. فهى التى أثارت الثورة ضد عثمان، وهى وراء اشتراكية أبى ذر الغفارى، ومبادئ الشيعة والخوارج، إلى أن حصروها وراء غلاة الشيعة - وسنناقش هذه القضية فى مقامها - غير أن فيلهوزن ينكر هذا الرأى، وهو محاولة بعض الكاتبين ربط الخوارج بالسبئية استنتاجا من رواية سيف بن عمر التى أوردها الطبرى يقول فيها: إن بعض قادة الخوارج الأولى كانوا يعارضون سياسة عثمان واشتركوا فى المسئولية، بل فاخروا بهذا الاشتراك. ولما كانوا - أى السبئية - أظهر الفرق فى التمرد على سياسة عثمان . . فاستنتجوا أن الخوارج كانوا سبئية، وممن خرجوا على الإمام علىّ فى حروراء والنهروان، ومنهم بن ملجم المرادى قاتل الإمام علىّ.

يقول فيلهوزن: والحق أن التلقيب بلقب السبئية إنما كان يطلق على الشيعة وحدهم، واستعماله الدقيق ينطبق على غلاة الشيعة وحسب، ولكنه كان كلمةَ ذم تطلق على جميع الشيعة على السواء.[2] والخوارج أنفسهم كانوا ينعتون خصومهم الشيعة فى الكوفة بنعت «السبئية» تحقيرا وذما لهم[3]. والذين يسندون لهم دورا فى الثورة على عثمان يجعل الخوارج أقدم فى وجودهم من «صفين» والتحكيم، يعوزهم البحث عن السند التاريخى، وكانت الثورة على عثمان من وجهة نظرهم ثورة مذهبية تزعمها السبئية والخوارج، بينما واقع الأمة شاهد على أن الحركة ضد عثمان كانت من بعض الأمصار على سياسة الولاة، ولا علاقة بالمذهبية ولا الحزبية بمسألة قتله.

لم يكن الخوارج بذرة فاسدة بذرها اليهودى ابن سبأ سرا، بل كانوا نبتة إسلامية من حيث الظاهر. وكانوا جادين فى مسألة الخلافة، ولم يأتوا فيها بأمر غريب أو مستنكر. ولم يكونوا فرقة صغيرة مغمورة فى الظلام، بل كانوا ظاهرين علنا على أساس واسع كأوسع ما يكون الأساس. أعنى على أساس الرأى العام الذى ساد معسكر أهل العراق

---

(١) الطبرى: ج ٢ ص ٨٦٤.
(٢) الطبرى: ج ٢ ص ١٣٦، ج ٣ ص ٢٩.
(٣) الطبرى: ج ٢ ص ٤٣.

فى صفين. وكانوا فى البدء يتألفون من أعداد عديدة بعيدة عن التحديد الدقيق، ثم جرى فيهم مد وجزر متفاوتان. الأشعث ليس منهم، ونشأتهم تختلف اختلافا جوهريا عن نشأة جماعة مثل العباسيين أو الفاطميين. لم يكونوا يلجئون إلى المؤامرات ولا إلى تكوين الشعب المنتشرة فى مختلف المواطن، ولم يسيطر على شئونهم تنظيم سرى معقد، إنما كانت لهم مبادئ، مبادئ ليس فيها ما يغرى بالانضمام إليها. جرى إليهم الأنصار دون أن يسعوا هم إليهم، ولو أن أولئك الذين برزت أعمالهم كانوا فيما بعد قليلين جدا. وكان أنصارهم يتجددون باستمرار، فإن اندلعت النار فى مكان شبت مثلها من جديد فى مكان آخر دون أن يكون ثمة اتصال ظاهر فيما بينها، وكان التوتر قائما فى كل مكان وعلى أهبة الانفجار.

الرأى الرابع : الخوارج والقراء : الموضوع المشار إليه ورد فيه خبر أن عبد الرحمن ابن أبى ليلى الفقيه هو الذى جعل برنوف يربط بين القراء ونشأة الخوارج. فلقد ورد على لسانه توجيه إلى القراء رواه عن الإمام علىّ يشير إلى أصل الخوارج. قال: «يا معشر القراء: إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم. إنى سمعت عليًا - رفع الله درجته فى الصالحين، وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين - يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون: إنه من رأى عدوانا يعمل به ومنكرا يدعى إليه فأنكره بقلبه، فقد سلم وبرئ. ومن أنكر بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه. ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذى أصاب سبيل الهدى ونور قلبه باليقين».

كذلك يرى برنوف: أن تاريخ القراء فى موقف الجهاد كانوا دائما فى المقدمة، يخطبون فى الناس قبل المعارك ليثيروا حميتهم ويستنفروهم للقتال. وإذا لم يكونوا رجال أفعال فى المرتبة الأولى، فقد كانوا يعلمون أيضا أن خير الإيمان الجهاد بالسيف فى سبيل إعلاء كلمة الله(1). وفى معركة «اليمامة» كان أبرز المقاتلين هم القراء الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويتلونه. وكانوا فى طليعة المحاربين فى معركتى «الجمل» و «صفين»، وخصوصا فى الحرب ضد الحجاج بن يوسف الثقفى. وكان أبرز ميادين نجاحهم فى الكوفة والبصرة. واللواء الذى انضووا تحته وانتموا إليه هو لواء الله والقرآن وسنة رسوله والحق. أما وهذا شأن القراء، فعلى المرء كما يرى برنوف، الإقرار بإمكان أن يكون هؤلاء هم الذين نبت فيهم الخوارج. فهؤلاء الأخيرون كانوا

---

(1) الطبرى: ج ٢ ص ١٠٨٦.

قوما شديدى التقوى تنحل لهم صفات أولئك : كانوا يقرءون القرآن لا بلسانهم فحسب ، بل ليتعبدوا به ، ويفكرون فيه آناء الليل وأطراف النهار . وكانوا أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، ويناقشون فى أحكامه بمهارة . ولكننا نرى فيما قدمه برنوف ما يرفض نتائجه .

أما فيلهوزن[١] ، فيرى : أن من الضرورى توكيد وجود هوة ، بين جماعة القراء وجماعة الخوارج من أجل أن يوزع دور السقوط ودور النهوض على فريقين مختلفين .

أمن المعقول أن يكون نفس الأشخاص قد ضلوا السبيل فى أول الأمر ، ثم ثابوا إلى رشدهم من بعد؟ فإذا أقررنا بذلك ، فإننا لم نستطع أن نفهم حقيقة الخوارج . لقد أخطئوا ، وبعد خطيئتهم رجعوا عن باطلهم وأيقنوا بما بان لهم أنه جوهر الإيمان . وعدوا أن الحيرة الطارئة التى ألمت بهم كانت ذنبا عظيما ، فوطنوا العزم على بذل أقصى الجهد فى الكفارة عنه .

فالباعث إذن على ظهور الخوارج وعلى كيفية سلوكهم هو التوبة . والتوبة عندهم إنما تكون بالأفعال ، وبهذا طالبوا عليًا وسائر القوم : أعني أن يتوبوا بالأفعال - وهو أمر ظهر جليا فى كل مناسبة عرضت . فهذا مالك بن الأشتر ، من أحق الناس بلقب الخوارج ، لأنه وحده لم يدع نفسه ينساق فى الضلال ، واحتج على التحكيم مع أهل الشام واقتصر دوره على هذا فقط . فالقول بأن الخوارج نبتوا بين طبقة القراء رأى قائم على تخمينات وافتراضات لا أساس لها من حيث المضمون التاريخى .

فما قدمه وصفا للقراء هى صفات عامة يتفق فيها صفوة الصحابة الذين أخلصوا فى الدعوة إلى الإسلام سواء فى مجال الحرب أو فى حياة السلم ، ولا ينبغي فى مجال المقارنة أن تكون الوجوه العامة فى الاتفاق ، كالاشتراك فى الدين والتقوى وقراءة القرآن والإخلاص فى العبادة ، وهى ركائز الحياة الإسلامية ، أن تكون صفات خاصة لمذهبية خارجة فنسيء إلى الإسلام ونجعل مميزاته العامة خصائص مذهبية كريهة وتكون مسوغات رفض المذهبية هى مسوغات رفض الإسلام .

فلم يكن القراء يؤلفون طبقة محددة ، بل كانوا غير واضحى المعالم . كذلك لم يكونوا يؤلفون حزبا سياسيا ذا برنامج محدد ثابت ؛ فمنهم من كان فى صف أهل الشام ، ومنهم من كان فى صف أهل العراق ، وهناك من تخلف عن القتال مع عليّ ومع معاوية ، وبقوا فى أماكنهم امتثالا لعبدالله بن مسعود وأبى موسى

---

(١) الخوارج والشيعة - أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام : ترجمة د. عبد الرحمن بدوى .

الأشعري[1] ، وليس لهم قائد رفعوه هم أنفسهم إلى مركز القيادة . كان القراء على صلة بالفقهاء ، ولم يكن نشاطهم الرئيسى نظريا بل عمليا[2] . فالقرآن ، الذى منه اسمهم القراء ، لم يكن فى نظرهم موضوع دراسة نظرية بل من أجل العمل والتقوى . وكان القرآن على لسانهم يحفظونه عن ظهر قلب ويتلونه بحرارة ، وشاركوا فى الحرب شأنهم شأن المسلمين الصالحين . ويبدو أن الإحساس بعقدة الذنب لدى الخوارج الأولى كانت أساس خروجهم وتمردهم وفق قول أبى نواس :

داونى بالتى كانت هى الداء

فالدواء هنا هو الانفعال المماثل .

يقول الخياط[3] ، وهو فى معرض الرد على ابن الراوندى : لم يذكر الجاحظ محاسن الخوارج ، ولم يخبر عن مآثرهم ، لا لأنه يتولاهم ولا (لأنه) يميل إليهم ، ولكنه خبر أنهم مع مروقهم من الدين وخروجهم عنه وجهلهم به أحسن اقتصادا من الرافضة ، فخبر عن توقيهم للكذب على من عاداهم ، وجرأة الرافضة على الكذب على أعدائهم ، وخبر عن شعر الخوارج ونواحهم على ذنوبهم ووصف أصحابهم بالنسك والفضل وأنهم لم يخلعوا المصاحف . . ثم خبر عن شعر الرافضة أنهم يبتدئون شعرهم بشرب الخمر وارتكاب المحارم ، وما قال من ذلك موجود مشاهد : هذا شعر عمران بن حطان وحبيب بن خدرة وأشباههما من شعراء الخوارج .

الرأى الخامس : الخوارج لعنة الرسول : يرى بعض مؤرخى الفرق : أن البحث فى هذا الحديث أرهص بظهور الخوارج ، ويجعلون من ذى الخويصرة أصل بذرتها الفاسدة . ولكننا نرى أن هذا تأويل يخرج عن حد الاعتدال وتعسف فيه عسر . فالحديث فى مورده لما كان النبى يقسم فى الجعرانة غنائم يوم حنين ولم تكن القسمة بطريقة متساوية ، أقبل رجل من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة ، فوقف على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعطى الناس فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم! فقال رسول الله : أجل! فكيف رأيت؟ قال : لم أرك عدلت . فغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : ويحك! إذا لم يكن العدل عندى ، فعند من يكون؟! فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله! ألا تقتله؟ فقال : لا! دعوه فإنه سيكون

(١) الدينورى : ص ١٧٥ .
(٢) الطبرى : ج ٢ ص ٥٦٤ .
(٣) الانتصار : ص ١٤٢ .

له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية : ينظر فى النصل فلا يوجد شيء ، ثم فى الفوق فلا يوجد شيء : سبق العزل الدم(١) .

يقول صاحب كتاب الانتصار : وأما إضافة الشيعة لمذاهبها إلى أسلافها ، فليس ذلك بأعجب من إضافة أهل الإمامة لمذاهبها مع اختلافها وتضادها ، إلى رسولها . فإن كان ما فعلته الشيعة من ذلك يفسد مذهبها فى التشيع لبنى هاشم ، فما فعلته الخوارج والمعتزلة والمرجئة والشيعة وأصحاب الحديث من إضافتهم ما هم عليه إلى المصطفى عليه السلام يبطل مذهبهم فى التوحيد وفى الإقرار بمحمد عليه السلام(٢) .

فيبدو أن محاولة إضافة المذاهب والفرق إلى الإسلام وإلى الرسول عليه السلام كانت شائعة ومحل نظر .

ثم يقول : لبعض أهل البدع أخبار شاذة يرويها عن قوم ضَعْفَى فى تثبيت بدعهم عن رسول الله عليه السلام ، ولكن لرسول الله سنن مشهورة معروفة تبطل تلك الرواية وتدفعها وتكذب الرواة لها(٣) .

الرأى السادس : المالطى والشُّراة : كتب المالطى كتابا فى الفرق الإسلامية عنوانه : **«التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع»**، فيه أطلق الشراة - وهو لقب يطلق على الخوارج - لقبا خاصا على الفرقة العاشرة من الخوارج . وحين راجعنا أصولها وجدناها هى عين أصول «الشراة الأولى» الذين التمسنا أصولها من جدلهم مع الإمام علىّ . حتى أصولها التى ذكرها المالطى لا تبدو متناقضة مع أصول الشراة الأولى . فمثلا الخوارج الأولى يكفرون أصحاب الصغائر وأصحاب الكبائر ، ويتبرءون من الختنين : عثمان وعلى ، ويتولون الشيخين . . ثم يقول حكاية عنهم معلقا : ولا يخالفون فى دين ولا سنَّة . . وهل هناك مخالفة أشد وأقسى من ذلك؟ ! ولا نرى غير أنهم ، هم ، وهم عينهم ، فالخوارج هم الشراة ، والشراة هم الخوارج .

(١) ابن هشام : ص ٨٤٤ ، الطبرى : ج ١ ص ١٦٨٢ ، الواقدى : ص ٣٧٧ ، الكامل : ص ٥٤٥ ، البخارى : ج ٢ ص ١٥٩ ، ص ١٦١ وما يليها ، ص ٢٢٦ وما يليها ، ج ٣ ص ٦٢ ، ص ١١٤ ، ص ١٩٦ ، ج ٤ ص ٦٣ ، ص ١٦١ وما يليها ، ص ١٨٣ وما يليها ، ج ٩ ص ٢١ ، ومسلم : (١٥٤) ، وأحمد فى مسنده : (٢/ ١٩٩) . ولقب : «ذو الخويصرة» يستبدل به «ذو الثدية» و «المخدج» .

(٢) الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم - أبى الحسن عبد الرحيم بن محمد عثمان الخياط المقزلى مع مقدمة وتحقيق وتعليقات د . نيبرج .

(٣) نفس المرجع : ص ١٣٧ .

ثم يربط بينهم وبين الاعتزال - كما هي عادة مؤرخي الفرق حين يربطون بين المعتزلة، دائما، والفرق الضالة تسفيها لهم. والفرقة العاشرة من الخوارج: هم الشراة الذين يكفرون أصحاب المعاصي في الصغائر والكبائر، ويتبرءون من الختنين: عثمان وعلى، ويتولون الشيخين: أبا بكر، وعمر، وهم لا يستحلون أموال الناس ولا يسبون النساء، ولا يخالفون في دين ولا سنَّة. كيف لا يخالفون في دين وسنَّة بعد مقالة تكفيرهم كبار الصحابة؟ وهم يقولون: العصاة كفار نعمة لا كفار شرك، وهم في ناحية هراة، وإصطخر بين داري بجرد، وكرمان، ولهم كتب وضعوها على تصحيح مذهبهم، فيها حجج وكلام صعب، وفيهم علماء، وفقهاء، ولهم مروءة ظاهرة، ودنيا واسعة وخصب. وقد ظهر فيهم اليوم مذاهب المعتزلة، فمنهم من ترك مذهبه وقال بالاعتزال، فنعوذ بالله من الضلال كله[١].

(١) الفرق بين الفرق.

٥ ـ تعقيب

وخلاصة مذهب الخوارج قبل أن يفترق إلى خوارج الخوارج أى إلى أزارقة ونجدات . . . . . إلخ ، هى :

* أن الإمامة قد تكون فى غير قريش ، ويجب ألا ينظر فى اختيار الإمام إلا لتوافر الكفاية والعدل واجتناب الجور . فكل من آنس فيه المسلمون هذه الخلال فلهم أن يولوه الإمامة . ومن خرج عليه وجب اعتباره عاصيا ووجب قتاله . وإن غير الإمام السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله . كما أنه يجوز أن يكون الإمام عبدا أو حرا قرشيا أو غيره ، بل يجوز ألا يكون فى العالم إمام أصلا إذا لم يدع الأمر إلى اختياره[١] .

* وقد خطأ الخوارج عليّا فى التحكيم كما رأينا وقالوا : «لا حكم إلا لله» ، وقالها له ابن ملجم الذى غدر به : " الحكم لله لا لك يا علىّ ولا لأصحابك " .

* ولعنوا عليّا لأنه «ترك حكم الله وحكّم الرجال» ، ولأنه «قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ، وما اغتنم أموالهم ولا سبى ذراريهم ونساءهم» .

* ولعنوا عثمان للأحداث التى أخذوها عليه ، وأشدها أنه أتلف نسخ القرآن المختلفة .

* وهناك قضايا أخرى ظهرت مع انقسامهم قبل البراءة من سائر المسلمين وتكفير من يرتكب الكبيرة وتخليده فى النار .

يقول ابن العربى[٢] : إن الحرب قد دارت بين أهل الشام وأهل العراق فى موضع يسمى صفين ، بقرب الرقة على شاطئ الفرات ، آخر تخوم العراق وأول أرض الشام . سار إليها علىّ بجيوشه فى أواخر ذى القعدة سنة ٣٦ هـ . هؤلاء يدعون إلى علىّ بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام ، وهؤلاء يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان . ويقولون : لا نبايع من يؤوى القتلة ، وكان هؤلاء بقيادة معاوية وأتباعه الذين خالفوا الإجماع .

---

(١) العواصم من القواصم .

(٢) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة : محمد عبدالله عنان .

وهو لا شك صراع فجره معاوية بين «روح جاهلية» وبين الروح القرآنية .

ولا شك أن واقعة صفين قد قصمت الوحدة الشاملة التى بدأت يوم بدر . . قال تعالى : **﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾**[(١)] .

من هذه الوقعة فقد العالم الإسلامى توازنه . بالرغم من ظهور عدم التوازن فى الأنظمة فى العالم الإسلامى إلا أن الإنسان المسلم ظل محتفظا بعقيدته وقيمه الإيمانية لأنه يظل هو يعمل على تحقيق التوازن بينه وبين الإسلام .

وإن كل سلطة غضبية تحتمى تحت ضربات الدم والقتل هى سلطة غير شرعية ، مثلها مثل صفين تصنع هوة بينها وبين الضمير الشعبى وتحتوى فى داخلها على جميع أنواع التمزق والمناقضات السياسية التى قد تظهر فى أى وقت ، لأن كل سلطة قامت على أسلوب الدم إنما قامت فى حقيقة الأمر على كيان أحشاؤه مريضة لا يلبث أن يتفكك ويتحلل إلى كيانات ممزقة .

وأبغض ما فى التحكيم أنه أقام السيف مقام الشورى ، وأقام الفرق مقام وحدة الأمة ، وتسربت إليها الفتن وتخللت ثنايا جسدها ورمته بدائها وانسلت ، كما يقول المثل العربى .

---

(١) الأنفال : ٤٦ .

الفصل الثالث

الأمويّون ومفهوم الخلافة الجديدة

(١) الأمويون وقوى المعارضة :

وضعت الحرب أوزارها بين الإمام علىّ، ذلك الخليفة الشرعى، وبين معاوية، ذلك الوالى المعزول، على نحو مفاجئ لم يخطر على بال الإمام علىّ وأكفاء صحابة رسول الله من حيث نتائجه، وما اتخذه معاوية من وسائل وتدابير تفوق مكائد السياسة وخداعها. فلم يكن التحكيم تسوده وجهة نظر عادلة من عدة وجوه: فمن وجه، لم يكن للحرب أسبابها الشرعية تدفع بوال معزول كمعاوية، أن يعلن حربا على الخليفة الشرعى. ومن وجه، يعد بخروجه خارجا على إجماع الأمة على اختيار الإمام علىّ، فكيف تكون حربا عادلة؟! إن الفهم الحقيقى لواقع الأحداث يرى أن عرب الشام خرجوا تحت قيادة معاوية، وهو وال معزول، يشقون عصا الطاعة على إجماع الأمة وعلى الإمام الشرعى، وخارجون على الشرعية.

والعجيب فى الأمر، أن تلك الجماعة التى خرجت على الخليفة، تطورت خصومتها من المناداة بحق ولاية معاوية للشام إلى استوائه على عرش الخلافة، فتبلد مفهوم الخلافة القائم على الشورى والمبايعة بين الجماعة الإسلامية إلى تمرد وتآمر واغتيالات سياسية. وغدا السيف هو الحاكم والفاصل فى شأن نظمه ما جرى عليه عرف الخلفاء الراشدين، وهو: الانتخاب ثم المبايعة وفق مبدإ الشورى. فخالف سنَّة الخلفاء، وجعل الحرب والغلب والقهر وسائله.

وتلك سنَّة خطها البيت الأموى، فحكمت شئون الخلافة حتى اليوم، وتنحت وحدة الأمة، وغابت البيعة الآمنة، وتخلفت شرعية الشورى، وخلف مكانها مع سيطرة البيت الأموى على مقاليد الخلافة والحكم، بذور خبيثة نمت فى باطن المجتمع الإسلامى أفرزت قوى المعارضة للسلطة. وكانت القوى السياسية تتشكل فى بداية الأمر من:

* الخوارج.

* والشيعة.

* والمرجئة.

* وبنى هاشم وعرب من الكوفة والبصرة وبعض من الجزيرة.

* وبنى أمية وعرب الشام.

* وحزب عائشة والزبير وطلحة.

* والموالى الذين أحسوا بتعصب الأمويين للعرب وسيادتهم.

وكان يجمع تلك القوى السياسية المختلفة في مفاهيمها السياسية اتفاق فى وجهة النظر، هو إدراكهم بما لدى البيت الأموى من ميول دنيوية فى خروجه على الخلافة الشرعية. يقول جب: ولكن الصعوبة التى كانت تواجههم، هى أنهم إن نجحوا فى القضاء على الدولة الأموية فما هو البديل الذى يحل محلها بحيث لا يتصدع كيان الجماعة؟ أما الخوارج وثوار الشيعة، فقد شانهم شططهم وغلوهم فى نظر جميع الناس إلا أقلية صغيرة. وأما الحكومة المناوئة للخلافة الأموية خلال الحرب الأهلية الثانية ٦٨٤ - ٦٩١، فقد برهنت على أنها عاجزة عن حفظ النظام. ثم إن للخلافة الأموية فى الوقت نفسه توجهات إلى الأخذ بالنظرة الإسلامية العامة الشاملة حين أخذت مبادئ الإسلام الدينية والأخلاقية خلال القرن الأول تنفذ إلى المجتمع العربى، وتتعمق فيه، وتؤثر فى نظرته وسلوكه. وترتب على هذه السياسة التوقيفية ظهور تفسير للإسلام تتبناه الدولة وتؤيده جماعة كبيرة من أهل العلم. ومما يستلفت النظر، أن العقاب على الإلحاد إنما تم فى ظل الخلفاء الأمويين المتأخرين(١).

ينحو جب فى تحليله، منحى نظريا يغلب عليه الفكر النظرى المجرد، حين ذهب فى تحليله إلى أن غيبة البديل المناسب فى حالة سقوط الدولة الأموية هو الذى ثبت أركانها. قد نرى فى هذا جانبا من الصواب، إذا كان البديل محصورا فى طائفة الخوارج، فهى كانت تطلبه لنفسها، وفعلا أعلنت خليفة عليها لا ينتسب إلى القرشية وإنما من قبيلة بنى تميم، وهو الراسبى، لكنها كانت جماعة متمردة خرجت عن حد الاعتدال، وفضلت أن ينعتها التاريخ بالخروج عن الجماعة، فمن الصعب أن نلتمس البديل من بينها.

أما الشيعة، فهم جماعة من الأعراب تشيعوا لآل علىّ، ويرون أنهم أحق بالخلافة.

---

(١) دراسات فى حضارة الإسلام: ص ١١، ١٢.

فهم لا يطلبون الخلافة لعربى من بينهم، إنما يطلبونها لبنى علىّ من فاطمة الزهراء. ولم تكن الشيعة فى هذا الوقت قد تميزت ووضحت تميز الخوارج ووضوحهم، إنما هم أنصار على من أجناد العرب، جيش الخلافة. وكانت نصرتهم فى بادئ الأمر رد فعل لخروج معاوية، وانتقال عاصمة الخلافة من الكوفة إلى الشام، وتقدم عليهم عرب الشام، ثم أخيرا ما زال فى نظرهم أن معاوية غاصب للخلافة، وأنهم صاروا عربا بالنسبة لعرب الشام فى المدينة الثانية، لذلك وقفوا ينادون بالشرعية أمام سيف معاوية وغدر عمرو بن العاص. فلم يكن الحسن رئيسا للشيعة أو الخوارج، إنما كان أنصاره من الجماعة الإسلامية. كذلك ابن الزبير كان له أنصاره. ثم الإمام الحسين شهيد المبدإ وليس شهيدا لحزب أو فرقة.

كان من الممكن أن يكون من ذلك كله البديل، لكن الذى حال دون ذلك صلة البيت الأموى بعثمان وذريته ومساندة عرب الشام له، فقد كانوا يرون أنه أحق بالخلافة لقرابته لعثمان، وبأخذ حقه فى القصاص من قاتليه، وأن عرب الشام كانوا أكثر نظاما وتآلفا من عرب الكوفة الذين جاءوا من قبائل مختلفة ولم يكن النظام من شأنهم. ومن جانب آخر، لم تكن الشيعة قد تحزبت وتميزت، إنما كانت - فى هذا الوقت - مفهوما لا يخرج عن الدلالة اللغوية التى تحمل معنى الأنصار. فكان هناك شيعة على وشيعة معاوية.

وكذلك الخوارج، أخرجهم التحكيم على علىّ لقبوله التحكيم، وخرجوا على معاوية لاستيلائه على الحكم عنوة دون مشورة الأمة، وخروجه على الخلافة الشرعية وعلى أمير المؤمنين الإمام علىّ.

فلم يكن البحث عن بديل غير الخلافة الأموية هو السبب المباشر لقيام الدولة الأموية، أو أجل الخروج عليها. إنما السبب الذى نذهب إليه، كان وراء اغتيال الإمام علىّ، وهو انقسام جيش علىّ وراء وجهات نظر متعاكسة لا يجمع بينها رابط واحد. فالشاميون وقفوا مع معاوية وقفة واحدة أمام جيش الإمام علىّ. فالمكيون منهم مع ابن الزبير، والعراقيون تأرجحوا بين ما يبدونه من قول وما يخفونه من عمل، فكما قال أحدهم للإمام الحسين: «السيوف عليك والقلوب معك»، فكانوا يترددون بين السيف والقلب. والحسن اختصر الطريق وبايع واعتزل السياسة ويمم شطر المدينة. ومن أصعب الأمور أن أنصار علىّ دون أنصار معاوية احتوتهم الإيقاعات بسبب اختلافهم حول مفهوم من هو الخليفة بعد اغتيال الإمام علىّ:

ذهب بعضهم إلى أنها بين بنى هاشم، وهؤلاء من الشيعة.

والآخر ذهب إلى أنها بين المسلمين شورى، وهؤلاء هم الخوارج .

وكان الرأى السائد أنها من قريش .

والآخر يرى: جواز المبايعة لإمامين، وهؤلاء هم المرجئة .

فكان من الصعب على جماعة الإمام عليّ أن تلتئم فيها تلك الفجوات وتلك الشروخ التى فتقت بها، وتتوحد مرة ثانية لتقيم شأن الخلافة الشرعية من جديد . وكان معاوية قد قبض على الشام قبضة حديدية فوحده وأعاد نظامه ، وأعانه دهاؤه السياسى مع عدْله عمرو بن العاص على أن يغدق بسخاء عليه ، ويشترى نفوسا باعت دينها بدنياها . ذلك ما جعل البحث عن البديل صعبا .

أما أن تطبيق العقاب على الإلحاد، كما يقول جب، تم فى ظل الخلفاء الأمويين المتأخرين . . فذلك فى نظرنا ليس إهمالا لظاهرة الإلحاد . . إنما الرأى أن الإلحاد ظهر متأخرا بصورة تستلفت النظر، وكان ذلك من إرهاصات أفول الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . كما كان شيوع الإلحاد من أهم العوامل تشويشا على الدولة الأموية من قبل الجماعات السرية التى كانت تعد لقلب نظام الحكم . وشغل الأمويون بتعقب الإلحاد والملحدين من الزنادقة وأرباب المذاهب الباطلة عن تعقب الحركات السرية التى كانت تسعى لقلب النظام، كما أثار إعدام الملحدين والزنادقة الرأى العام ضدها، وهذا ما مهد لسقوطها، وأثار كوامن الموالى .

(٢) الشام ومفهوم وراثه الملك :

نظر عرب الشام إلى مسألة البيعة ليزيد على أنها أمر سياسى وليس دينيا، فوقفوا بجانب معاوية، وذلك كان منهم دفاعا عن مكان الصدارة الذى كان لولايتهم . وهم لم يكونوا يأبهون لمسألة الحق الشرعى، وهى فى نظرهم مسألة سياسية محضة . أما الأسباب الدينية التى يثيرها خصومهم، فليست إلا تمويها ونفاقا يستر وراءه مسألة التطلع إلى السلطان . وفى الجانب الآخر، قابلوا خصومهم بالانسلاخ من الدين .

فقد كانت الشام تختلف عن العراق اختلافا كبيرا . وكانت غالبية القبائل العربية قد توطنت فى وسط الشام منذ قرون، ولم تكن قد جاءت مع مجىء الإسلام، مثل: قبائل كلب وقبائل قُضاعة وقبائل أزد العداة . أما قبائل شمال الشام، مثل قيس، فقد هاجروا إليه أثر الفتح الإسلامى، وأقاموا فى الشام دولا تحالفت مع الإمبراطورية الرومانية، فتعرضوا لتأثير الحضارة اليونانية الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية، فلم تخل هذه العوامل كلها من ترك أثرها فيهم، وتعودوا على مظاهر

الدولة المنظمة، وتشبعوا بروح الطاعة الحربية والسياسية. وكان منهم الأمراء والحكام، فدانوا لهم بالطاعة، وتلقنوا حقوق الدولة عليهم. وكانوا بسبب الحروب الدائمة مع الروم يتدربون تدريبا منظما، لذلك كانوا من الناحية الحربية يفوقون العرب جميعا.

كذلك من أسباب وقوف الشام مع معاوية: كون معاوية يقيم في دمشق في المنطقة التي كانت كلب تسكنها، وتزوج امرأة من أشراف كلب، وجعل ابنها يزيد وارثا لعرش الدولة. وكان التضامن بمعنى التحالف السياسي عند العرب، فكانت كلب تَنها تشعر أنهم أصهار للخليفة وأخوال لولي عهده. وكانت نائلة زوجة الخليفة عثمان من كلب، ومن الجائز أن يكون الثأر لمقتله لقي قبولا بين كلب نفسها، وربما هذا السبب أيضا رماهم بين أحضان معاوية.

يقول فيلهوزن[1]: ولم يكن المسلمون في الشام يعيشون بمعزل وفي مستعمرات مخصصة لهم، بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد في المدن القديمة، مثل: دمشق، وحمص، وقنسرين وغيرها، بل كانوا أحيانا يقاسمونهم بيتا لله نصفه مسجد والنصف الآخر كنيسة. وكان التراث المسيحي في فلسطين والشام موضع تقدير كبير من جانب المسلمين[2]. وكانت الشام في نظر المسلمين أيضا أرضا مقدسة، وفي بيت المقدس نصب معاوية نفسه خليفة، وكان من حيث هو سياسي متسامحا مع رعاياه المسيحيين، وقد نال محبتهم وعرفانهم بفضله، وكانوا يشعرون أنهم تحت كنفه في عافية لا تقل عما كانوا عليه تحت حكم الرومان.

(٣) وراثة الخلافة ويزيد بن معاوية :

لم تكد الفتنة تهدأ وتضع الحرب أوزارها وانكبت الفرق تتساءل عن حق شرعية الخلافة والحق الشرعي مع من، حتى أجج نارها مرة ثانية ذلك الذي أججها أول مرة، معاوية بن أبي سفيان، حين قام بطلب البيعة لابنه يزيد تحت أسنة الرماح. .

يروى ابن الأثير :

كان ابتداء أخذ البيعة ليزيد قد جاء من قبل المغيرة بن شعبة. وكان قصد المغيرة في الحقيقة سيئا. فقد بلغه أن معاوية يريد عزله عن الكوفة، فرأى أن يشخص إلى معاوية ويستعفيه، لتظهر لمعاوية كراهته للولاية، ولكي يستريب معاوية في خروجه منها، فيبقيه في منصبه. ثم دخل المغيرة على يزيد، ففاتحه في وجوب عقد البيعة له، وحدث

(١) تاريخ الدولة العربية : ص ١٢٨.

(٢) يراجع الطبري : ج ٢ ص ٢٠٥ ، ٢٢٨.

يزيد أباه بذلك. فأحضر المغيرة وسأله، فعرض الفكرة، وراقت الفكرة معاوية، فأمره معاوية أن يرجع إلى عمله، ويتحدث مع من يثق إليه فى ذلك. فلما عاد المغيرة إلى الكوفة قال لمن كان ينتظر نتيجة سعيه للبقاء فى الولاية: لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغى على أمة محمد، وفتقت عليهم فتقا لا يرتق أبدا.

وبدأ استطلاع الجو فى المدينة، عاصمة الإسلام الأولى، التى كانت لا تزال تعتبر المكان الحقيقى للبيعة، وخصوصا أن كبار المسلمين الذين كان لا بد أن تؤخذ منهم البيعة قبل غيرهم كانوا يسكنون فيها. فلما بلّغ مروان كبار أهل المدينة بالأمر، بدأت مظاهر الاعتراض والنقد من جانبهم. وكان الاعتراض آتيا من قبل أبناء كبار الصحابة خاصة، كالحسين بن على، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبى بكر، وعبدالله بن الزبير.

(٤) احتجاج كبار الصحابة فى المدينة على معاوية :

يقول خليفة بن خياط عن أخبار سنة إحدى وخمسين[١] : فيها قتل معاوية بن أبى سفيان حجر بن عدى بن الأدبر ومعه محرر بن شهاب، وقبيصة بن ضبيعة بن حرملة القيسى، وصيفى بن بسيل[٢] من ربيعة. وفيها مات كعب بن عجرة. وفيها أخذ معاوية الناس بالبيعة ليزيد.

حدثنا وهب بن جرير بن حازم قال: حدثنى أبى قال: ثنا النعمان بن راشد عن الزهرى عن ذكوان مولى عائشة، قال: لما أجمع معاوية أن يبايع لابنه يزيد حج، فقدم مكة فى نحو من ألف رجل، فلما دنا من المدينة خرج ابن عمر وابن الزبير وعبدالرحمن ابن أبى بكر. فلما قدم معاوية المدينة صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ابنه يزيد فقال: من أحق بهذا الأمر منه؟

ثم ارتحل فقدم مكة، فقضى طوافه، ودخل منزله. فبعث إلى ابن عمر فتشهد وقال: «أما بعد يا بن عمر، فإنك قد كنت تحدثنى أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء ليس

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط العصفرى المتوفى عام ٢٤٠ هـ - ٨٥٤ م، رواية بقى بن خالد - حققه وقدمه الأستاذ الدكتور / سهيل زكار.

(٢) فى تاريخ الطبرى: ٥/ ٢٧١ : (صيفى بن فسيل) بالفاء.

عليك أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى[1] في فساد ذات بينهم». فلما سكت، تكلم ابن عمر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإنه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت أنت في ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار. وإنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم». قال: «فخرج ابن عمر وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر فتشهد وأخذ في الكلام، فقطع عليه كلامه فقال: «إنك والله لوددت أنّا وكلناك في أمر ابنك إلى الله، وإنا والله لا نفعل، والله لتردنّ هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لنفرنها عليك جذعة». ثم وثب فقام، فقال معاوية: «اللهم اكفنيه بما شئت». ثم قال: «على رسلك أيها الرجل لا تشرفن بأهل الشام، فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك حتى أخبر العشية أنك قد بايعت ثم كن بعد على ما بدا لك من أمرك».

ثم أرسل إلى ابن الزبير فقال: «يا بن الزبير إنما أنت ثعلب روّاغ، كلما خرج من جحر دخل آخر، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين، فنفخت في مناخرهما وحملتهما على غير رأيهما». فتكلم ابن الزبير فقال: «إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها وهلم ابنك فلنبايعه. أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع؟ لأيكما نطيع؟ لا نجمع البيعة لكما والله أبدا». ثم قام.

فراح معاوية فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنا وجدنا أحاديث الناس ذوات عوار، زعموا أن ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيد. قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له».

فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رءوس الناس، وإلا ضربنا أعناقهم. فقال: «مه، سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء! لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم». ثم نزل.

فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر، ويقولون: لا والله ما بايعنا، ويقول الناس: بلى لقد بايعتم. وارتحل معاوية فلحق بالشام.

وحدثنا وهب قال: حدثني أبي عن أيوب عن نافع قال: خطب معاوية فذكر ابن عمر فقال: والله ليبايعن أو لأقتلنه. فخرج عبدالله بن عبدالله بن عمر إلى أبيه فأخبره وسار إلى مكة ثلاثا. فلما أخبره بكى ابن عمر فبلغ الخبر عبدالله بن صفوان فدخل على ابن عمر فقال: أخطب هذا بكذا؟ قال: نعم. فقال: ما تريد؟ أتريد قتاله؟ فقال:

(١) في الأصل: (تسع).

يا بن صفوان، الصبر خير من ذلك. فقال ابن صفوان: والله لئن أراد ذلك لأقاتلنه. فقدم معاوية مكة، فنزل ذا طوى، فخرج إليه عبدالله بن صفوان، فقال: أنت الذى زعم أنك تقتل ابن عمر إن لم يبايع لابنك؟ فقال: أنا أقتل ابن عمر؟! إنى والله لا أقتله.

وهب بن جرير قال: حدثنى جويرية بن أسماء قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يحدثون أن معاوية لما كان قريبا من مكة، فلما راح مَرّ(١) قال لصاحب حرسه: لا تدع أحدا يسير معى إلا من حملته أنا. فخرج يسير وحده، حتى إذا كان وسط الأراك لقيه الحسين بن على، فوقف وقال: «مرحبا وأهلا بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيد شباب المسلمين. دابة لأبى عبدالله يركبها». فأتى ببرذون فتحول عليه، ثم طلع عبد الرحمن بن أبى بكر فقال: «مرحبا وأهلا بشيخ قريش وسيدها وابن صدّيق هذه الأمة. دابة لأبى محمد». فأتى ببرذون فركبه. ثم طلع ابن عمر فقال: «مرحبا وأهلا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق وسيد المسلمين». ودعا له بدابة فركبها. ثم طلع ابن الزبير فقال: «مرحبا وأهلا بابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الصديق وابن عمة رسول الله». ثم دعا له بدابة فركبها.

ثم أقبل يسير بينهم لا يسايره غيرهم، حتى دخل مكة. ثم كانوا أول داخل وآخر خارج، ليس فى الأرض صباح إلا لهم فيه حبَاء وكرامة، لا يعرض لهم بذكر شىء مما هو فيه. حتى قضى نسكه، وترحلت أثقاله، وقرب مسيره إلى الكعبة وأنيخت رواحله.

فأقبل بعض القوم على بعض، فقالوا: أيها القوم لا تخدعوا، إنه والله ما صنع بكم لحبكم ولا كرامتكم، وما صنعه إلا لما يريد، فأعدوا له جوابا. وأقبلوا على الحسين فقالوا: أنت يا أبا عبدالله؟ قال: «وفيكم شيخ قريش وسيدها هو أحق بالكلام». فقالوا: أنت يا أبا محمد؟ لعبد الرحمن بن أبى بكر. فقال: «لست هناك، وفيكم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن سيد المسلمين» - يعنى ابن عمر - فقالوا لابن عمر: أنت؟ قال: «لست بصاحبكم، ولكن ولوا الكلام ابن الزبير يكفيكم». قالوا: أنت يا بن الزبير؟ قال: «نعم، إن أعطيتمونى عهودكم ومواثيقكم ألا تخالفونى كفيتكم الرجل». فقالوا: فلك ذلك.

فخرج الإذن فأذن لهم، فدخلوا. فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

---

(١) بطن مَرّ: من نواحى مكة، عنده يجتمع واديا النخلتين، فيصيران واديا واحدًا يأتى فى نخلة وفى مَرّ.

«وقد علمتم سيرتى فيكم، وصلتى لأرحامكم، وصفحى عنكم، وحملى لما يكون منكم، ويزيد ابن أمير المؤمنين أخوكم وابن عمكم وأحسن الناس فيكم رأيا. وإنما أردت أن تقدموه باسم الخلافة، وتكونون أنتم الذين تنزعون وتؤمرون وتجبون وتقسمون، لا يدخل عليكم فى شىء من ذلك». فسكت القوم فقال: «ألا تجيبونى؟» فسكتوا. فأقبل على ابن الزبير فقال: «هات يا بن الزبير فإنك لعمرى صاحب خطبة القوم». قال: «نعم يا أمير المؤمنين، نخيرك بين ثلاث خصال، أيها ما أخذت فهو لك رغبة». قال: «لله أبوك، اعرضهن». قال: «إن شئت صنعت ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن شئت صنعت ما صنع أبو بكر فهو خير هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن شئت صنعت ما صنع عمر فهو خير هذه الأمة بعد أبى بكر». قال: «لله أبوك وما صنعوا؟».

قال: «قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يعهد ولم يستخلف أحدا. فارتضى المسلمون أبا بكر. فإن شئت أن تدع هذا الأمر حتى يقضى الله فيه قضاءه فيختار المسلمون لأنفسهم». فقال: «إنه ليس فيكم اليوم مثل أبى بكر. إن أبا بكر كان رجلا تقطع دونه الأعناق، وإنى لست آمن عليكم الاختلاف». قال: «صدقت والله ما نحب أن تدعنا على هذه الأمة». قال: «فاصنع ما صنع أبو بكر». قال: «لله أبوك، وما صنع أبو بكر؟» قال: «عمد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه ولا من رهطه الأدنين فاستخلفه، فإن شئت أن تنظر أى رجل من قريش شئت ليس من بنى عبد شمس فترضى به». قال: «لله أبوك، الثالثة ما هى؟» قال: «تصنع ما صنع عمر». قال: «وما صنع عمر؟» قال: «جعل هذا الأمر شورى فى ستة نفر من قريش، ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه ولا من رهطه». قال: «فهل عندك غير هذا؟» قال: «لا». قال: «فأنتم؟» قالوا: «ونحن أيضا».

قال: «إما لا فإنى أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من أنذر، وإنه قد كان يقوم منكم القائم إلىّ، فيكذبنى على رءوس الناس، فأحتمل له ذلك وأصفح عنه. وإنى قائم بمقالة: إن صدقت فلى صدقى، وإن كذبت فعلىّ كذبى، وإنى أقسم لكم بالله لئن رد علىّ منكم إنسان كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يسبق إلىّ رأسه، فلا يُرعين رجل إلا على نفسه». ثم دعا صاحب حرسه فقال: «أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين من حرسك، فإن ذهب رجل يرد علىّ كلمة فى مقامى هذا بصدق أو كذب فليضرباه بسيفيهما».

ثم خرج وخرجوا معه، حتى إذا رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا نستبد بأمر دونهم، ولا نقضى أمرا إلا عن

مشورتهم. وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ابن أمير المؤمنين من بعده. فبايعوا باسم الله».

فضربوا على يديه، ثم جلس على راحلته وانصرف. فلقيهم الناس فقالوا: زعمتم وزعمتم فلا أُرضيتم وحُبيتم وفعلتم. قالوا: إنا والله ما فعلنا. قالوا: فما منعكم أن تردوا على الرجل إذ كذب؟

ثم بايع أهل المدينة والناس، ثم خرج إلى الشام.

حدثنا عبدالرحمن بن مهدى قال: ثنا سفيان عن محمد بن المنكدر قال: قال ابن عمر حين بويع يزيد بن معاوية: إن كان خيرا رضينا وإن كان بلاء صبرنا(١).

وحدثنا عبد الرحمن قال: ثنا أبو عُوانة عن داود بن عبدالله الأودى عن حُميد بن عبد الرحمن(٢) قال: دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استخلف يزيد بن معاوية فقال: أتقولون إن يزيد ليس بخير أمة محمد، لا أفقه فيها فقها، ولا أعظمها فيها شرفا؟ قلنا(٣): نعم. قال: وأنا أقول ذلك، ولكن والله لأن تجتمع أمة محمد أحب إلىّ من أن تفترق. أرأيتم بابا لو دخل فيه أمة محمد وسعهم، أكان يعجز عن رجل واحد لو دخل فيه؟ قلنا: لا. قال: أرأيتم لو أن أمة محمد قال كل رجل منهم: لا أهريق دم أخى ولا آخذ ماله، أكان هذا يسعهم؟ قلنا: نعم. قال: فذلك ما أقول لكم. ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يأتيك من الحياء إلا خير»(٤).

إسماعيل بن سنان قال: ثنا حماد بن سلمة عن يَعلى عن عمه قال: كنت مع عبدالله ابن عمرو حين بعثه يزيد بن معاوية إلى عبدالله بن الزبير قال: فسمعت عبدالله بن عمرو يقول لابن الزبير: «تعلم أنى أجد فى الكتاب أنك ستُعَنّى وتُعَنّى وتدعى الخليفة ولست بخليفة وإنى أجد الخليفة يزيد بن معاوية».

أشهل قال: ثنا ابن عون عن محمد عن عقبة بن أوس السدوسى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: مَلِكُ الأرض المقدسة معاوية وابنه(٥).

---

(١) فى حاشية الأصل: (وقال الأوزاعى أن ابن عمر قال فى ذلك نحو هذا).

(٢) فى حاشية الأصل: (هو الحميرى). انظر طبقات ابن سعد: ٧/ ١٤٧ ـ ط بيروت.

(٣) فى حاشية الأصل: (هو ساقط فى الأم ومما زاد القاضى لأنه غير مستغنى عنه).

(٤) رواه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٧/ ٤٧)، والبخارى فى التاريخ (٨/ ٤٢٣)، وانظر كنز العمال (٥٧٨٦).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط العصفرى المتوفى عام ٢٤٠ هـ ـ ٨٥٤ م رواية بقى بن خالد، حققه وقدمه له الأستاذ الدكتور سهيل زكار ـ دار الفكر ـ بيروت.

(٥) معاوية يخالف سنّة الخلفاء قبله في وراثة الملك :

قد جاء عمل معاوية مخالفا لما جرى عليه عرف الخلفاء السياسي الذي قام على احترام رأي الأمة ، فلها الحق أن تختار خليفتها أو أن تنتخبه والأمر بينها شورى ، فجاء عمل معاوية بدعا لم يألفه كبار الصحابة ، أهل الحل والعقد من قبل من حيث :

* إنه وضع البيعة لولده يزيد ليكون خليفة من بعده وهو ما يزال حيا ، في أعناق العرب وأشرافهم .

* نقل الحكم وهو شورى بين الأمة الإسلامية وجعله وراثيا من الأب لولده ، على ما هو معروف عند الساسانيين والروم ، وتلك بدعة منكرة في الأمة الإسلامية .

* ولم تكن سنّة الخلفاء قبله قائمة على وراثة الخلافة ، وليس من حق الخليفة أن يعين من يخلفه في حياته . فالبيعة مقدما قبل وفاة الخليفة ليست حقا مقررا له ، إنما هي للأمة إذا كان الابن ليس هو صاحب الحق في ذلك ، فإنه لم يكن بحال من الأحوال محروما منه .

(٦) ثورة الحسين وأهل الكوفة :

أثار صنيع معاوية الرأي العام الإسلامي ، وبخاصة أهل الكوفة أو بالأحرى أهل العراق . وكان تاريخ العراق ، في تلك الحقبة ، التاريخ الحقيقي للدولة الإسلامية ، فأرسل أهل الكوفة إلى الحسين بن علي أن يقدم إليهم ويقبل بيعتهم في العاشر من رمضان سنة ٦٠ هـ . فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل لكي يرى صدق ما كتبوا به له ، ولكي يمهد له الأمر . وما أن وصل إلى الكوفة حتى بايعه اثنا عشر ألفا ، وسرعان ما انفضوا عنه حتى أمسى ومعه خمسمائة . وفي المساء تسللوا ، وبقي وحده يتردد في العراق . فأوى إلى مكان ، فدلوا عليه الشرطة فأحاطوا بالدار وأخذوه مجردا من سلاحه وسلموه لعبيد الله بن زياد ، فأسلمه لبكر بن عمران ، فذبحه وأرسلت رأسه إلى دمشق ، وصلبت جثته في الكوفة ، فكان أول رأس أرسل إلى الشام ، وأول جثة صلبت من بني هاشم في ٨ أو ٩ من ذي الحجة سنة ٦٠ هـ .

وكان الحسين ، قبل أن يصله خبر مقتل ابن عمه ، لم يستمع نصيحة أخيه وأهله له ألا يغرر بنفسه مع أهل الكوفة الذين خانوا أباه وأخاه من قبل . ثم قتل الحسين وهو يقاتل جنود الكوفة في كربلاء على نهر الفرات في اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ .

وهكذا انتهت خطة الثورة انتهاء مؤلما. وكان استشهاد الحسين له شأن معنوى كبير، وكان تأثيره أعظم عند الشيعة.

(٧) ثورة المدينة:

لم يكن ليزيد حزب بين المدينة، ولم يكن هو الممثل لسادة العرب، وإن كان ينتمى إليها.. فألّفت المدينة جبهة كاملة معارضة له، كما ألفت من قبل جبهة معارضة لأبيه، كقبائل بنى مخزوم مثلا، وهى قبائل نابهة لها محتدها العربى، زبيرية الهوى تماما. بل لم يكن الأمويون فى المدينة على علاقة طيبة مع يزيد. فلم يكن فى جانب يزيد إلا أهل الشام، وقد ألف منهم جيشا من آلاف كثيرة، ولكنهم يتقاضون أعطيات كثيرة إلى درجة غير عادية.

(٨) ثورة ابن الزبير:

استغل ابن الزبير مقتل الحسين للتشنيع على أهل الكوفة وعلى حكومة بنى أمية وللتعريض بيزيد، ونادى بخلعه، ومالأه كثير من الناس على ذلك. وقام عبدالله بن حنظلة، وقال: خلعت عمامتى. ونزعها عن رأسه، وتبعه الناس يخلع كل منهم عمامته أو نعله أو خفه أو ثوبه علامة على التبرى والخلع كما هى عادة العرب، حتى حصل من ذلك كوم كبير[١]. كانوا يرون أنهم أصحاب الحق فى الخلافة. وكان الرأى العام، كما كانت غالبية قريش إلى جانبهم، وكانوا يعتبرون الأمويين غاصبين لها. وكانوا ينظرون فيما يدعونه من حق فى الخلافة على أنها مخالفة لما جرى عليه عرف الخلفاء، ولم تكن البيعة اختيارية، إنما أورثها معاوية لولده. وكان عرف عنه السكر والخلاعة والمجون، وهذه الأسباب تمنعه من الخلافة. أى ليس أهلا للخلافة لأسباب دينية.

خوارج اليمامة مع ابن الزبير: يذهب الطبرى فى روايته عن أعوانه: إلى أن خوارج اليمامة قد بادروا تحت إمرة نجدة بن عامر للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام تحت قيادة الحصين بن نمير قبل نهاية المحرم سنة ٦٥. وفى مساء السبت

(١) الأغانى: ج ١ ص ١٣.

لثلاثة أيام مضت من ربيع الأول سنة ٦٥هـ . قذف أهل الشام البيت بالمنجنيق وحرقوه بالنار . وكانت نهاية ابن الزبير يوم الثلاثاء ١٧ من جمادى الأولى سنة ٧٣هـ . وكان شيخا فى الثالثة والسبعين ، وذلك بعد حصار مكة ستة أشهر وسبعة عشر يوما على يد الحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد عبد الملك بن مروان بعد ما ضرب الكعبة بالمنجنيق . وقتل فى المكان الذى لاذ به ، وبذلك انتهت الفتنه الكبرى وعادت الجماعة إلى وحدتها .

(٩) الموالى ينكرون على بنى أمية عصبية السيادة العربية :

واجهت الدولة الأموية وهى تبنى دولتها مشكلة التنسيق بين البناء الاجتماعى للدولة العربية وبين الاقتصاد الزراعى فى الولايات المفتوحة . ثم تحقق ذلك التنسيق بطريقة تتفق والمبادئ الخلقية فى الإسلام ، فأعلنت الدولة الأموية المساواة بين المسلمين العرب وغير العرب . وبرغم تحقيق المساواة فى ذلك الجانب فإن الشعور بالظلم الأموى تزايد بسبب سيطرة العرب على النظم السياسية والعربية وصدارة الدولة وتفوقهم فى المستوى الاجتماعى . فساهم هذا الشعور بالظلم الاجتماعى لغير العرب (الموالى) إلى دفعهم أن يدخلوا فى صفوف الفقهاء بأعداد متزايدة . وكان من الطبيعى أن يعتنق هؤلاء الدين الإسلامى ، ويدخلوا فيه من أوسع أبوابه الثقافية ، فمهروا فى علومه ونظموا أبوابه ووسعوا فنونه ، وكان لهم فى كل علم شأن .

فأصبحوا قوة لها رأيها ولها سطوتها ، وكان بأسها على أمراء الدولة الإسلامية شديدا فى توجيه عقائدهم المذهبية . وكان هؤلاء الفقهاء يعارضون الأمويين فى أمور كثيرة ، منها : تعصبها للعرق العربى ، وتحويل الخلافة إلى ملك عضوض وأطلقوا عليها اسم الخلافة الناقصة . كما رفضوا مذاهب الفرق العربية مثل الخوارج ، وظلوا يحيون حياة قوية بالدين . ووجد الأمويون فى وجهة نظر الفقهاء ، وهى فصل الدولة عن المذاهب المنشودة التى نادت بها الفرقتان الغاليتان من خوارج وشيعة ، رأيا يروقها فهو يؤيد وحدتها والشد من قبضتها على الحكم ، فقاموا بإعلان هذا الرأى وهو فصل الدولة عن المذهبية وتأكيد سيادة الدولة العربية فى وجه تلك الفرق .

(١٠) العراق مركز التذمر والمعارضة :

لم ينس العراقيون للأمويين بعد هزيمتهم أمام أهل الشام ، وانتقال الخلافة من الكوفة إلى دمشق وانتقل معها بيت المال ونزل شأن بلادهم ، أنهم كانوا منذ أول أمرهم أخطر أعداء النبى ، وأنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا فى الساعة الأخيرة ، وأنهم عرفوا بعد ذلك كيف يجنون لأنفسهم ثمرة انتصاره وسيادته ، وذلك من طريق استغلال ضعف عثمان أولا ، ومن طريق المهارة فى استغلال مقتله بعد ذلك .

ولقد زادت الشكوى من بعض ولاة الأمويين وأفعالهم ، وظلت هذه الشكوى موجهة إليهم خاصة ، وكانت موضوعاتها :

* أن العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون الناس .

* أن أموال الدولة تجرى إلى جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها ، على حين أن معظم جيوب غيرهم تبقى خالية .

* انتشرت الحانات الخاصة بالشراب والميسر والغانيات .

من هنا بدأ أهل العراق يجعلون قضيتهم قضية الإسلام نفسه ، وجندوا الدين ومبدأ الحق والعدل فى محاربتهم للقوة الغاشمة . وهكذا حالفت المعارضة الدين على الدولة الأموية . ومن الواجب على المسلم أن يأمر بالمعروف ، وأن ينهى عن المنكر بلسانه ويده ، ولا يسوغ أن يكتفى هو نفسه بالامتثال لإرادة الله ، بل يجب عليه أن يعمل على أن تكون إرادة الله هى العليا فى المجتمع . فلا محل للسكوت على الأوضاع الفاسدة ، لأن الدين يلزم الفرد بالتدخل فى الحياة العامة ، وذلك أن الدين يعتبر الفرد مسئولا عن نصيبه فيما يجب عليه للجماعة ، وميدان النشاط الدينى هو السياسة ، وأن مبادئ الإسلام الدينية لا تقر صورة الحكم التى كانت عليها الدولة الأموية[1] .

---

(١) تاريخ الدولة العربية : ص ١٩٦ .

١١ - الخوارج يتزعمون قوى المعارضة :

وكان أبرز أهل العراق سخطا على الحكومة فرقة الخوارج يساندهم بعض الفقهاء والقراء ، وكان الحق الذى يعارضون به القوة الحاكمة حقا إيجابيا ثابتا تماما ومكتوبا ومأثورا ، وكان موجودا فى القرآن والسنة . هكذا بدأت المعارضة الدينية والسياسية تشتد من قبل الخوارج على الدولة الأموية ، وأخذ الحق الدينى عندهم صورة مبدإ ثورى بالمعنى الكامل ، وكانوا يفخرون بأنهم هم أصحاب الفعلة الثورية الكبرى - وهو مقتل عثمان . يقول فيلهوزن : فبينما كان هناك قوم يخجلون من هذه الفعلة بعد أن وقعت ، جعل الخوارج الاعتراف الصريح بها شعارا لهم .

وقد اشتركوا مع بقية أهل العراق فى الثورة على معاوية أولا ، لأنه لم يسلم بآرائهم ، وكانوا قد عارضوا عليًا وانشقوا عليه . وهم ، وإن كانوا قد عملوا على تأييده ، فإنهم لم يريدوا أن يكون حزبه بالمعنى الذى كان عليه أهل الشام حزبا لمعاوية ، لأنهم قالوا إن الدين ليس لمعاوية ولا لعلىّ ، بل هو لله وحده ، ومن ضحى فى أمر من الأمور بعقيدته الدينية والسياسية من أجل صاحب الأمر ، أو جعل طاعته مقدمة على طاعة الله ، فقد اتخذه صنما له ، وعبّاد الأصنام ليسوا بمسلمين .

كان الخوارج يرون أنهم وحدهم هم المسلمون ، ورأوا أن اسم المسلمين لهم وحدهم ، ولذلك أراقوا دماء غيرهم من المسلمين دون تحرج ، ولم يجاهدوا إلا المسلمين والمسلمين وحدهم . أما تهمة تمزيق الجماعة الإسلامية على هذا النحو ، فلم يروا أنها فى حقهم . وكانوا ثائرين على مذهب « الجماعة » ويرونه فاسدا ، فهو لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز بين الغث والسمين . وكانوا يرون أنهم وحدهم ، وهم الخارجون على الدين ، هم الجماعة بالمعنى الحقيقى ، وأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكرهم ، وقد هاجروا من **دار « الجماعة » المزيفة** .

وهم ، إن لم يكن من مبادئهم **التمسك بأسرة حاكمة** ، فإنهم هم أيضا من حيث إنهم يمثلون الجماعة الموحدة للمؤمنين ، كان لهم خليفتهم وإمامهم الذى يصلى بهم ويقودهم فى الحرب ، لكنهم كانوا يراقبون حركاته وسكناته ويعترضون عليه إذا أخطأ فى نظرهم . ويخرجون عليه ويعتبرونه كافرا ، إن لم يرجع عما فعل ، ولذلك افترقوا فيما يتعلق بمسألة **« معرفة الإمام الحق »** ، لاعن سائر المسلمين فحسب ، بل هم سرعان ما انقسموا فيما بينهم أيضا .

يقول فيلهوزن : وكان انقسامهم من أجل خلافات فى الرأى ليس لها كبير شأن ،

وقد تطرفوا فى الأخذ بمبدإ القيادة الدينية والسياسية ، وجعلوه مسألة اعتقادية وموضوعا للنية الممحصة ، حتى ذهبوا به إلى المحال ، وحتى صارت فكرتهم عن الدولة ، أن تأخذ صورة ملطفة معقولة ، غير صالحة لتكوين جماعة وغير مؤدية إلا إلى الفساد والهدم . وقد وضعوا كل قوتهم فى محاولة تحقيق ، غاية لا يمكن تحقيقها ، فسار تدينهم إلى سياسة نشيطة كل النشاط ، ولكنها سياسة يائسة مخالفة تماما لكل سياسة . وهم لم يجعلوا النجاح غرضا لهم ، وإنما كانوا يريدون نجاة أرواحهم من شرور الدنيا . وقد قنعوا بطلب الشهادة فى ميدان الجهاد، فباعوا أرواحهم لله فى سبيل الجنة ، وبرغم هذا ، وربما من أجل هذا نفسه كانوا يغلبون جيوشا كبيرة ، وقد أرعبوا العالم الإسلامى فى بعض الأحيان، وبرغم أنهم كانوا يؤلفون جماعة صغيرة ، فإنه لا يمكن القضاء عليهم ، كأنما كانوا كلما قضى عليهم ينبتون من الأرض نباتا . وكانت لآرائهم جاذبية متجددة دائما ، أما مقاومة غيرهم للحكومة القائمة فإنها مهما لبست ثوب التدين والورع ، كانت دائما مدخولة بأغراض دنيوية ، وكانت لذلك تتلون بألوان شتى ، وكثيرا ما كانوا يستغلون رجالا من أهل الطموح والتغلب لا يقصدون سوى الوصول إلى السلطان .

وفى وسط اضطراب الحركات والأغراض، تمسك الخوارج بالمبادئ الأساسية التى رسمها الإسلام ، ولم يحيدوا عنها . وكانوا فى جهادهم فى سبيل " دولة الله " أشد ما يكون المجاهدون إخلاصا وأقواهم عزما ، ولكنهم كانوا فى حربهم ، بطبيعة الحال ، أشد ما يكون المحاربون قسوة ، وذلك من أجل وضع خيالى لا يتيسر لبنى الإنسان(١) .

(١٢) أحزاب القبائل : حزب مضر ، حزب اليمنيين ، بنو هاشم وبنو أمية :

لم تقف المعارضة للدولة الأموية وسياستها العربية ، عند حد لبوس ثوب الدين ، بل بلغت ذراها حين انضاف إليها تنافس القبائل العربية ، وهو تنافس قديم عروقه ضاربة فى العربية نفسها ، جدده وأشعل ناره تلك الروح الأموية التى كانت تتعصب للعرب وتقلل من شأن الأعاجم ، فلقد وصفها المؤرخون بأنها كانت تمثل السيادة العربية ، لا سيادة الإسلام . فالذى كان يحدث على طول السياسة الأموية وولاتها هو أن الوالى كان يستظهر بقبيلته على من عداها من القبائل . وكان يأتى بها معه أحيانا فتكون عدته

---

(١) تاريخ الدولة العربية : ص ٢٦١ .

فى ولايته تشاركه فى الحكم وفى المزايا التى كان يكفلها التصرف فى المناصب والأموال .

يقول فيلهوزن : وكانت تتولى دفة الأمور مع كل عامل قبيلة جديدة ، فكان الأمر ينتهى بأن تقع القبيلة المغلوبة فى العداء المرير للقبيلة الحاكمة . وهكذا سرى السم إلى الفوارق والخلافات القبلية من جراء السياسة والنزاع على المغانم السياسية . وأسوأ ما تجلى ذلك فى ولاية خراسان التى كانت ملحقة بالبصرة ، فهناك ارتفع شأن قيس على يد عبد الله بن حازم . كما ارتفع شأن أزد عمان على يد المهلب .

يقول فيلهوزن : وحل محل التنازع القديم بين بكر وتميم ، التنازع بين قيس وتميم أولا ثم بين الأزد وقيس ، وأخيرا بين ربيعة وقيس وتميم .

وقد لعبت قيس فى الشام وخراسان دورا سياسيا كبيرا ، وكانوا منتشرين فى كل مكان ، وكانوا أشد ما تكون القبيلة اتحادا ، وكانوا أول من كون عصبة بالمعنى الحقيقى فى جميع أنحاء الدولة ، وقد شقوا طريقهم إلى الحكم متخذين الوسائل المختلفة ، **فتعاونوا مع ثقيف وتميم وتكون منهم حزب مضر الكبير** .

وكانت تميم أكثر ما كانوا عددا فى البصرة وخراسان ، وكانوا يتميزون بشعور قبلى شديد .

وكان أزد عمان فى البصرة وخراسان يضمون إليهم **قبائل "ربيعة بكر "** ودخلت إليهم أيضا قبائل قضاعة " كلب " الشاميين ، **وتكون من هؤلاء حزب اليمنيين** .

وهكذا كان خرق الانشقاق يتسع ويبرز مع مهاوى الخلاف القبلى الخطر . ولم يكن الأمويون الأسرة الحاكمة والقرشيون وبنو هاشم ، بأحسن حال من تلك القبائل ، فلقد جدد الواقع المر تحت راية التحكيم جرح السنين الخالية وفق ما صوره صاحب كتاب : " التخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم " .

(١٣) التحالف بين الفرق واختلاط الأفكار :

أ - الموالى والخوارج : لقد أغرت مبادئ الخوارج ، وخصوصا رأيهم فى شروط الخليفة أو الإمام : ففى رأيهم أنه ليس بلازم أن يكون قرشيا أو من آل بيت النبوة كما تذهب الشيعة ، ذلك مما شجع الموالى على الانخراط فى مذهب الخوارج الذى يسوى بين المسلمين العرب ، والمسلمين من غير العرب . وفى انتخابهم رئيسا عليهم ، طبقوا

هذه القاعدة عليهم، فاختاروا المهلب بن أبى صفرة خليفة عليهم ، فدخل الموالى فى زمرتهم وفى جيشهم، وجعلوهم على قدم المساواة مع العرب . كذلك وحد بينهم كراهيتهم الشديدة لبنى أمية مع اختلاف أسباب الكراهية ، فالخوارج يرون أن بنى أمية أمة خارجة على الخلافة الشرعية ، وتاريخها فى الإسلام لا يؤهلها لأن تكون خادمة له . بينما الموالى يرون فى بنى أمية أنها حرمتهم حقوق المواطنة ، وحرمتهم حقوقهم السياسية وحقوقهم المالية ، وجعلتهم فى المرتبة الثانية وموالى تابعين للسيادة العربية .

ب - الموالى والشيعة : وقد ترسم الشيعة خطى الخوارج ، ونجحوا فى ذلك أكثر منهم بكثير . . ذلك أن الشيعة فى الكوفة ارتبطوا بالمختار الثقفى الذى استطاع أن يجمع الموالى حوله ، وجهاد القبائل العربية الذين رأوا أن مركزهم كمسئولين اضطرهم إلى الحيطة ولكى لا يعرضوا مركزهم للمتاعب . فلم يشاركوا غيرهم فى ثورات لا ينتظرها النجاح ، فنفروا من الشيعة ، وانقلبوا عليهم فسلكوا على يد المختار طريقا آخر غير طريق سائر العرب ، فاستطاع بذلك أن يرتفع وأن يرفع الأعاجم معه فى نفس الوقت . فاختفى فى الظلام ثم انتقل من الكوفة إلى أرض الأعاجم الحقيقية ، إلى خراسان ، وانتشر هناك بين من دخل فى الإسلام من سكان تلك البلاد ، وتحت راية الإسلام ، أعنى تحت راية التشيع ، استطاع الخراسانيون أن يطردوا العرب من أرضهم أولا ، وأن يقضوا على السيادة العربية ، وأن يحلوا العباسيين محل الأمويين .

(١٤) السبئية قاسم فكرى مشترك بين قوى المعارضة :

يحكى الطبرى عند خروج أبى ذر الغفارى على معاوية فى الشام وشكايته إلى عثمان ، ثم استقدمه عثمان مرة أخرى ، أن الذى كان وراء خروج أبى ذر على الأغنياء هو ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أظهر الإسلام وأحدث الفتن بين المسلمين . هو الذى أوحى إلى أبى ذر بما فعل ، فقال له يوما : يا أبا ذر ألا تعجب لمعاوية يقول : " المال مال الله "؟! ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجزه دون المسلمين ، ومسحوا اسم المسلمين .

تلك هى نقطة البداية فى تاريخ الفتن الإسلامية . وتوارت السبئية فى الظلام وبثت أفكارها ، وكان من أهمها أن شخص النبى لم يمت بموت محمد - صلى الله عليه وسلم - بل هو باق فى سلالته واحدا بعد واحد ، وبنوا مذهبهم على القول بتناسخ

الأرواح ووجهوه توجيها خاصا ، فقالوا إن روح الله الذى يسرى فى الأنبياء ينتقل بعد موت كل نبى إلى النبى ، الذى بعده ، وأن روح محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة انتقل إلى علىٍّ ، وأنه باق فى سلالته . وعلى هذا فإن عليًا لم يكن فى نظرهم هو الخليفة الشرعى وحسب ، بل كان فى مرتبة أعلى من مرتبة أبى بكر وعمر وعثمان الذين - يزعم الشيعة - أنهم دخلوا بينه وبين الرسول ، واغتصبوا حقه . بل ذهب السبئية إلى أن عليًا هو الروح الإلهى المتجسد وأنه وارث النبوة ، ولذلك فلا يمكن فى زعمهم أن يكون بعد وفاة النبى خليفة غيره فى خلافته لأن هذه لا يمكن أن تخلو من ممثل لله ، يكون على رأسها .

ويقال إن السبئية سموا بذلك من اسم يهودى يمنى هو : عبد الله بن سبأ . وكانت أوكاره فى بعض القبائل العربية فى الكوفة ، لكنهم بعد ذلك درجوا منها وانتشروا فى الكوفة نفسها وخصوصا بين موالى الفرس الكثيرين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام . وإذًا ، فإن انتشارهم إنما كان بين قوم من غير العرب ، وقد صار لهم شأن سياسى على يد المختار ، أحد أشراف ثقيف ، وهو الذى اتخذهم جيشا له ، ثم استمال قدماء الشيعة أيضا وعمل حينا من الدهر على اغتنام ما تجدد من فوضى وانقسام ، فأراد أن يسقط كبار القبائل فى الكوفة ويقيم هناك رئاسة حكومة يقضى فيها بفضل التشيع على التمايز بين العرب والفرس وبين السادة والرعية .

(١٥) الكوفة والبصرة وصراع العشائر العربية :

* **البصرة** : ففيها طغت روح العصبية القبلية أكثر من طغيانها فى غيرها ، وكانت صولة القبائل وشوكة العشائر هى مبدأها الأعلى فى الوقوف إلى جانب أفرادها ، بل إلى جانب مجرميها مهما كان جرمهم ، وحمايتها من القبائل الأخرى بل من سلطان الدولة ، وكان أفظع مما عرف فى حياة البادية .

* **أما فى الكوفة** : فقد كانت المعارضة للحكومة مصطبغة بصبغة دينية أكثر مما كانت لها هذه الصبغة فى المدن الأخرى ، ولم تكن هذه المعارضة موجهة لسلطان الدولة فى ذاته بل موجهة إلى حق الحكومة التى كانت قائمة ، أعنى حكومة الأمويين فى الحكم ، وتلك كانت المشكلة الأساسية التى كانت تدور حولها الفرق الدينية فى الكوفة والبصرة ومصدر تمردها .

ولم يكن ولاة الكوفة والبصرة، أمثال المغيرة بن شعبة ، وخلفه زياد ابن أبيه، يتعرضون للأحزاب الدينية السياسية إلا إذا تعرض الأمن العام للاضطراب فقضى المغيرة بن شعبة على ثورة الخوارج تحت قيادة المستورد بن علقمة التيمى .

أما صراع الأحزاب فيما بينها، فلم يكن المغيرة يوليه اهتماما ، وكان صراعها فى نظره يمثل ثورة مؤجلة ضد البيت الأموى، وهذا مما كان يسعده . وكان يعلم أن غالبية أهل الكوفة تميل إلى علىٍّ من حيث إنه فى نظرهم المحارب لاستقلال العراق السياسى، وكان أهل الكوفة من هذا الوجه شيعيى النزعة ، وكان البعض منهم يظهر ذلك علانية فى المسجد .

وخلف زياد ابن أبيه المغيرة بعد وفاته عام ٥٠هـ، فقضى على ثورة الشيعة تحت قيادة حجر بن عدى الكندى حين حصبوا خليفته عمرو بن المريث بينما كان يخطب فى المسجد، وحين أرسل فى طلبهم لم يستجب له. فاضطر إلى القضاء عليهم برغم أنه كان وما زال على حبه لعلىٍّ ، وكان شيعى النزعة. يحكى الطبرى أن زيادا لم يخمد ثورة الشيعة فى الكوفة بواسطة الشرطة، بل بدعوة أهل البصرة أن يكفوه أولئك الشيعة، رغم ذلك اعتبر الشيعة حجرا وأصحابه فى المحنة شهداء .

من هنا نرى أن الولاة لم يتعقبوا صراع الفرق من أجل القضاء عليها، إنما تعقبوا فقط ما يحدثوه من توتر سياسى . وظلت الفرق تعمل عملها تحت غطاء الولاة وعطفهم عليهم ما لم يحدثوا تمردا . وكان خوارج البصرة أخطر من الشيعة وكانوا مختلفين، فكان منهم أهل ورع وديانة ، وكان منهم متطرفون قليلو المبالاة بالمبادئ ، فى غريزتهم ميل إلى سفك الدماء . لذلك لم يتتبع زياد ابن أبيه إلا المجرمين منهم الذين جىء بهم وقام الدليل على إجرامهم .

(١٦) غدر الكوفة :

قال عبد القاهر : روافض الكوفة موصوفون بالغدر ، والبخل ، وقد سار المثل بهم فيهما ، حتى قيل : أَبْخَلُ من كوفى . وأَغْدَرُ من كوفى ، والمشهور من غدرهم ثلاثة أشياء :

أحدها : أنهم بعد قتل علىٍّ رضى الله عنه بايَعُوا ابنَه الحسنَ ، فلما توجَّه لقتال معاوية غَدَرُوا به فى سَابَاط المدائن ، فطعنه سنان الجعفى فى جَنْبِه فصَرَعَه عن فرسه ، وكان ذلك أحَدَ أسباب مصالحته معاويةَ .

والثانى : أنهم كاتبوا الحسين بن علىٍّ رضى الله عنه ، ودعوه إلى الكوفة لينصروه على يزيد بن معاوية [1] فاغتر بهم ، وخرج إليهم ، فلما بلغ كربلاء غدروا به ، وصاروا مع عبيد الله بن زياد يدا واحدة عليه ، حتى قتل الحسين وأكثر عشيرته بكربلاء .

والثالث : غدرهم بزيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب بعد أن خرجوا معه على يوسف بن عمر ، ثم نكثوا بيعته وأسلموه عند اشتداد القتال حتى قتل ، وكان من أمره ما كان .

أصبحت الكوفة فيما بعد مركز المؤامرة العباسية ، كما كانت مركز السبئية ، وهى الفرقة الغالية من الشيعة . وكان الموالى الفرس هم الذين وضعوا نواة كل من هاتين الحركتين ، وتعهدوهما ووجهوهما ضد السيطرة العربية فى الإسلام .

---

(١) يزيد بن معاوية بن أبى سفيان : الخليفة الذى وقعت فى عهده موقعة الحرة ، واستبيحت مدينة رسول الله ، وفى عهده قتل الحسين بن علىٍّ وجمع كثير من بنى هاشم ، واحتز رأس الحسين ونقل إلى هذا الخليفة بدمشق . وقد مات بعد وقعة الحرة ببضعة وسبعين يوما ، فى منتصف ربيع الأول من سنة ٦٤ (العبر : ١/ ٦٩) . وقال المسعودى : وهلك يزيد بحوارين من أرض دمشق لسبع عشرة - وفى نسخة لأربع عشرة - ليلة خلت من صفر سنة ٦٤ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة (مروج الذهب : ٣/ ٦٣) .

الفصـــل الرابع

بنو أميّــة والمرجئــة

١ ـ الموقف السياسى للمرجئة

لم يكن الموقف واضحا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن الخلافة ورياسة الدولة . فكان للأنصار رأى فيها أعلنوه فى سقيفة بنى ساعدة ، " منا أمير ومنكم أمير " ، فلم ير المهاجرون رأى الأنصار فى الخلافة ، ولا فى السقيفة مكانا مناسبا للاجتماع . فرفضوا مبدأ تعدد الأميرين ، كما رفضوا السقيفة أن تكون مكانا مناسبا للاجتماع ، فقدموا عليها المسجد ، بيت شورى المسلمين ، وبايعوا أبا بكر رضى الله عنه خليفة لرئاسة الدولة . وظل الأمر كذلك حتى كانت فتنة التحكيم ، فتنازعت الفرق الرأى فى الخلافة .

ومما يجب تنبيه ذهن القارئ إليه أنه لم يرد فى الروايات التى وردت عما دار فى السقيفة ذكر شرط القرشية للخلافة على لسان عمر أو أبى بكر ، وكذلك الأنصار لم يروها فى قريش (١) .

أما أهل الشام ، فيرون أن الخلافة فى قريش ليدخل معاوية فيها .

ورأى العراقيون رأيين : منهم الخوارج أن الخلافة عامة لكل المسلمين ، أما الشيعة فقد حصروها فى بيت علىٍّ من نسل فاطمة الزهراء .

حكى الشهرستانى عن الكرامية رأيهم فيها : أنها تثبت بإجماع الأمة دون النص والتعيين ، كما قال أهل السنّة . أى أنهم جوزوا عقد البيعة لإمامين فى قطرين ، وغرضهم السياسى : إثبات إمامة معاوية فى الشام باتفاق جماعة من أصحابه ، وإثبات أمير المؤمنين " علىٍّ " بالمدينة والعراقين باتفاق جماعة من الصحابة . ورأوا تصويب معاوية فيما استبد به من الأحكام الشرعية : قتاله على طلب قتلة عثمان رضى

(١) هناك روايات وردت أوردها الشهرستانى وغيره ، إلا أن نص الخطب لم يرد فيها هذا الأثر ، كذلك لو ورد مثل هذا الحديث فى مقام اختيار أبى بكر للخلافة وسمعه هذا الجمع العظيم من الصحابة لأصبح فى حكم المتواتر ، ولما اختلف فى صحة روايته المحدثون ، ويكون حكمه حكم حديث " إنما الأعمال بالنيات " وهو رواية عمر على المنبر وسمعه جمع عظيم فأخذ حكم المتواتر .

الله عنه ، واستقلاله ببيت المال . ومذهبهم الأصلي اتهام " عليٌّ " رضى الله عنه سياسيا وليس دينيا كما ذهب الخوارج في الصبر على ما جرى مع "عثمان" رضى الله عنه والسكوت عنه ، وذلك : عرق نزع (١) .

وقد كانت موافقة عليّ على التحكيم الباعث الأول لظهور الفرق الدينية فى الإسلام ، فقد كان في معسكر الخليفة بعض المسلمين المتعصبين الذين رأوا أن الفصل فى موضوع خلافة النبى لا يصح أن يوكل إلى البشر ، بل ينبغى الاحتكام فيه إلى الحرب والكفاح وسفك الدماء .

وإذا كانت السيادة والسلطة مما يصدر عن الله ، فالحكم فيهما لا يحسن إخضاعه للاعتبارات البشرية أو الملابسات الدنيوية . وهكذا ، اتخذوا هذا المبدأ " لا حكَم إلا الله " شعارا لهم ، وانسحبوا من جيش عليّ وأصحابه ، وعرفوا فى تاريخ الإسلام ، بسبب انفصالهم " بالخوارج " . وقد أنكروا حق كل من عليّ ومعاوية فى الخلافة لأنهما استهانا بالدين وأخلا بأحكامه .

وقد ظهر للخوارج أن ما صنعوه فى حروب عليّ لم يكن فى سبيل إعلاء كلمة الله " وحكمه " ، ولكن كان الباعث على إثارة هذه المنازعات والغاية فيها هو التماس المصالح الدنيوية والسعي للنفوذ والسلطان وتحقيق المطامع الشخصية ، وعندهم أن الخلافة ينبغى أن تعقد لأفضل أبناء الأمة الإسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد .

وبعد أن اشترطوا حرية اختيار الخليفة ، استخرجوا من هذه المقدمة كل النتائج المنطقية المترتبة عليها ، فلم يقصروا الخلافة ، كما كانت الحال إلى ذلك الوقت ، على قوم تمتعوا وحدهم بهذا الامتياز ، بل إنهم أنكروه على قبيلة قريش التى ينتمى إليها النبى ، وذهبوا إلى أن " عبدا حبشيا " لا يقل أهلية للخلافة واستعدادا لها عن سليل أعظم القبائل حسبا ونسبا .

ولكنهم فى مقابل هذا ، يشترطون فى الخليفة أن يكون أشد الناس خشية لله ، وأعظمهم طاعة له ، وأقواهم استمساكا بالدين واتباعا لأحكامه . فإذا لم يف مسلكه بهذه الشرائط وقصرت سيرته عن إدراكها ، جاز للأمة أن تخلعه .

وقد شمل تشددهم أيضا عامة المسلمين ، فأقروا حكما هو أقسى مما ذهب إليه أهل السنّة . وهم فى هذه المسألة على طرفى نقيض مع المرجئة ، إذ جعلوا الأعمال جزءاً

---

(١) الملل والنحل : ج١ ص ١٠٤ .

مكملا للإيمان إلى حد أن مرتكب الكبيرة لم يقولوا بعصيانه فحسب ، بل عدوه كافرا . ووفق حكمهم على مرتكبي الكبيرة ، ثاروا على الأمر الواقع . أما المرجئة فقد قبلوا الواقع وهيئوا أنفسهم للتعامل مع الحكم الأموى .

من هنا مال المرجئة ، إزاء موقف الخوارج المتعسف الظالم وسد باب الرحمة على العباد ، بقولهم صاحب الكبيرة كافر ومخلد في النار ، إلى القول ، المقابل للخوارج ، بأن الإيمان نطق بالشهادتين فقط دون العمل ، وأن صاحب الكبيرة مؤمن غير كافر .

فالمرجئة استسلموا للأمر الواقع ، وقبلوا الحكم الأموى ، وهيئوا الجو الفكرى لقبول الحكم وإشاعة الاستقرار .

وكانت المرجئة بموقفها الهادئ الذى يغلب عليه الانشراح والطمع فى رحمة الله على خلاف إشاعة جو الفزع والحزن الذى أشاعه الخوارج . وكان ابن حزم ينظر إليها من بين فرق الشيعة والخوارج أنهم أقل الطوائف بعدا عن الإسلام الصحيح (١) . وقول المرجئة بحرية العبد يشير إلى أن هناك صلة مباشرة بين مبادئ المرجئة والقدرية . ولهذه الصلة ، ربط مؤرخو الفرق الإسلامية على اتفاق بأن ثمة رابطة تربط بين المعتزلة والمرجئة حتى إذا ما تكلموا عن فرق المعتزلة جعلوا من بينها مرجئة المعتزلة .

يتضح موقف المرجئة السياسى ، بمقارنته بمواقف الخوارج والشيعة ، أنهم كانوا ضدهما معا سعيا إلى تخفيف غلواء هذه المذاهب المتطرفة . أخذ المرجئة على الخوارج أنهم لا يعدون مسلما غير الخارجى ، ويحكمون على إيمان الناس بأحكام قطعية ، وبهذا يسبقون حكم الله . ورأى المرجئة ، على غير ما يذهب إليه الخوارج - من شرعية الخروج على الإمام الظالم وقتاله - أن من يتبعون إماما فاسدا يمكن أيضا أن يكونوا من المسلمين الصالحين . ويتركون لله الإجابة عن مسألة : من الأحق بالخلافة ، علىّ أو عثمان . وكانوا ينكرون حق الأمويين فى الخلافة ، شأنهم فى هذا شأن سائر الفرق . بيد أنهم لم يبينوا من هو الإمام الحق ، بل اكتفوا بأن قالوا إن حق الخلافة ليس حقا شخصيا لأحد . وكان الحارث بن سريج فى خراسان ممثلا نشيطا لهم .

وأمام صراع الفرق ، ظلت الدولة الأموية تشتد بقبضتها على مقاليد الخلافة وظل نفوذها قويا . فاستطاعت أن تقضى على مقاومة الشيعة الذين كانوا قد هزموا هزيمة ساحقة بقرب " عين الوردة " (٦٥هـ) .

واستمرت معارضة الحجاز حتى الاستيلاء على مكة وموت عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ .

---

(١) الفصل فى الملل والنحل .

أما الحرب مع الخوارج فقد طالت حتى سنة ٧٧هـ، وتحت ضغط ضربات القواد لقوى المعارضة انسحبوا من المواجهة الظاهرة . ولكن عداءهم للأسرة الحاكمة لم يعدم الوسائل للانتشار والملاءمة بينه وبين مقتضيات الظروف الجديدة التى نشأت فى الشرق إبان الحكم العربى . وكما يقول فان فلوتين : امتد نزاع الإضراب السياسى إلى الدائرة الاجتماعية والدينية .

وشواهد الواقع التاريخى تفيد أن فرقة المرجئة : من الفرق التى نشأت مبكرا إثر مشكلة التحكيم، وكانت مواقفها السياسية فى مساندة دولة بنى أمية ، عملت على التوازن بين الشيعة التى رفضت دخول المجتمع والانضواء تحت لواء الخلافة إلا من خلال أصول سياسية اصطنعتها من عند نفسها وبين الخوارج الذين لا يرون الإسلام منطبقا إلا عليهم وأنهم هم وحدهم الذين ينطبق عليهم دار الإيمان .

من هنا كان المرجئة يمثلون دورا مهما فى التوازن والاعتدال ؛ إذ رفضوا السيف حلا للمشكلات ، وجعلوا اختيار الخليفة حقا مشروعا سبيله الشورى بين المسلمين، وأنه لا مانع لديهم من وجود خليفتين، وذلك كان منهم لتخفف حدة الحرب الأهلية التى نشبت أظفارها فى جسد الجماعة الإسلامية .

٢ ــ موقفهــــا الدينــــى

لكن من جانب آخر، كان موقفها الدينى، كما وصفها زيد بن على، أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله . وكان وصف زيد بن على إياها نتيجة موقفها السياسى من الإيمان والعمل، حين جعلت الإيمان لا يتجاوز القول إلى العمل بالشعائر والعبادات، أى لا يترابطان، وذلك وفق مقالتهم : لا ينفع مع الكفر طاعة ، كما لا يضر مع الإيمان معصية .

والذى نراه : أن رأى المرجئة فى الإيمان ليس تعريفا دينيا للإسلام أو الإيمان بقدر ما كان حلا لمشكلة عصرهم التاريخية والسياسية، والتى تركت بصماتها على جبين التاريخ الإسلامى حتى اليوم، وهى الانقسامات السياسية التى تحتمى بالدين .

والانقسامات الدينية التى من هذا القبيل، والتى لا تزال قائمة فى العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر، إنما ترجع إلى أقدم عصوره التاريخية ، ولا تعزى كما قد يتبادر إلى الذهن إلى اختلاف وجوه النظر إلى المسائل الدينية ، ولكنها ترجع إلى مشكلات تتعلق بالتنظيم السياسى ، وهى مشكلات شغلت المحل الأول فى تفكير المسلمين القدامى .

وفى الحق ، إن المسائل السياسية التى ظهرت فى جماعة وبنت كيانها على أساس دينى ، لا بد أن تصطبغ بصبغة دينية ، وأن تتخذ المصالح الدينية مظهرا لها ، مما يضفى على المنازعات السياسية طابعا خاصا .

وإن الحركات التى أدت إلى الانقسامات الدينية الأولى فى صدر الإسلام ترجع أهميتها - حقيقة - إلى ما اشتملت عليه من المسائل والنظريات الدينية التى نمت وتفرعت فى بيئتها العربية . ثم لما زادت وفرة وقوة بامتزاجها بالعناصر الخارجية والمؤثرات الأعجمية ، سرعان ما طبعت هذه النظريات انشقاقات المسلمين بطابع دينى ظاهر .

ومع ذلك، فقد شغلت المشكلات السياسية ، وفى بدء قيامها ، المحل الأول من

عناية المسلمين ، ثم لابستها الاعتبارات الدينية وامتزجت بها كعامل من عوامل الإعداد والاختمار . وتحولت حثيثا هذه الاعتبارات الدينية إلى مؤثرات فعالة وعناصر قوية ، عملت على استدامة هذه الانقسامات وإبراز ما يفرق بينها من وجوه الخلاف .

لذلك كان تفسيرهم للإيمان حلا لمعضلة سياسية وحقنا لدماء المسلمين ، وليس تفسيرا دينيا يتحرى الدقة العلمية شأن الفقهاء الذين يحررون المسائل العقدية أو الفقهية تحريرا وافيا ، إنما الأمور كانت تسير بين الفعل ورد الفعل تحكمها العصبيات والأهواء المضللة برزت تحت وطأة أحوال تاريخية استثنائية رمت بالمجتمع فى فلك التغيير ، أما إذا نحينا جانبا الفترة التاريخية التى ساعدت على ظهور مشكلة الانفصام بين القول والفعل ، فإن رأى المرجئة أصبح من أهم العوامل التى أفسحت السبيل أمام الفرق الإباحية القديمة ، وظهور زندقة تراث فارس القديم ليلتمس المرجئة من ذلك التراث وغيره سندا يرفع من مستوى عقيدتهم الدينية أمام تطرف الخوارج السياسى والدينى الذين يربطون بين الإيمان والعمل ربطا لا يقبل تفريقا إلا بالكفر .

ولذلك ازدهرت تعاليمها مبكرا . ورد فى كتاب " المعارف " [(١)] أن عتبة بن مسعود/ ٩٨هـ كان له ابن اعتنق فى شبابه تعاليم المرجئة ، ولكن رجع عنها فيما بعد . كذلك جاء فى شرح الموطأ : يقال إن محمد بن على أدخل تعاليم المرجئة وقد مات سنة ٨١هـ .[(٢)] وما ذكره الشهرستانى أن الحسن حفيد الإمام على أدخل تعاليم المرجئة .

يذكر البعض أن : " أول من قال بالإرجاء هو الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ، المعروف بالحسن بن محمد بن الحنفية - ٩٩هـ أو ١٠٠هـ " .

فقد كتب عنه القاضى عبد الجبار يقول : لم يكن - يقصد الحسن - مخالفا لأبيه - محمد بن الحنفية - وأخيه - أبى هاشم أستاذ واصل بن عطاء - إلا فى شىء من الإرجاء أظهره .

يذكر ابن سعد : أنه أول من تكلم فى الإرجاء ، يوضح المقريزى المعنى من إرجاء الحسن فيقول : " وكان الحسن بن محمد بن الحنفية يكتب كتبه إلى الأمصار [(٣)] يدعو إلى الإرجاء . " ثم يوضح معنى الإرجاء عنده بقوله : " إلا أنه لم يؤخر العمل عن الإيمان ، كما قال بعضهم ، بل قال : أداء الطاعات وعدم ترك المعاصى ليس من الإيمان ولا يزول بزوالها " .

---

(١) المعارف لابن قتيبة : ص ١٢٩ .

(٢) للزرقانى : ج٣ .

(٣) الملل والنحل : الشهرستانى ج١ .

هذه النصوص ، وقد وردت عن أناس اعتنقوا تعاليمها ، تبين أنها من حيث كونها فرقة لها تعاليمها يعتنقها روادها ، وأنها كانت مشهورة مأمونة الجانب من الاضطهاد السياسى والدينى وكانت تعاليمها رائجة بين العلماء والفقهاء ، ولو لاحظنا وصف أبى حنيفة بالإرجاء على أى معنى من المعانى الحسنة ، لقلنا إنها كانت مأوى للمعتدلين .

قلت : ولا يخفى أن الإرجاء بالمعنى الأول ليس من الضلالة فى شىء ، بل هو - والله - الورع والاحتياط . والسكوت عما جرى فى الصحابة وشجر بينهم أولى . فليس كل من أطلق عليه الإرجاء متهما فى دينه وخارجا عن السنة ، بل لا بد من الفحص عن حاله ، فإن كان لإرجائه أمر الصحابة - الذين تقاتلوا فيما بينهم - إلى الله ، وتوقفه عن تصويب إحدى الطائفتين ، فهو من أهل السنة ومن حزب الورعين حتما . ومن أطلق عليه ذلك لقوله بعدم إضرار المعاصى ، فهو الذى يتهم فى دينه[1] .

(١) قواعد فى علم الحديث للشيخ حبيب أحمد الكيرانوى على ضوء ما أفاده الإمام الفقيه الشيخ أشرف على .

٣ ـ مَن المرجئـــــة ؟

يقول الزركشي [١] : المرجئة طائفة من القدرية يقولون: الإيمان قول بلا عمل. وذكر فيهم أبوحاتم في الرتبةحديثا مرفوعا: "المرجئة يهود هذه الأمة" .

قال وقد انتفوا من هذا اللقب زاعمين أن المرجئ أحق بالذى يزعم أن الإيمان قول وعمل ، وهذا جهل باللغة لأن المرجئ مأخوذ من الإرجاء وهو التأخير ، والمرجئ من يؤخر العمل عن الإيمان .

وقال الزمخشرى فى شرح الفصيح : المرجئة قوم مذهبهم الإرجاء وهم يقولون فى أصحاب الكبائر يرجئون عملهم إلى الله ولا يحكم أنهم من أصحاب النار .

وهذا الذى جعله إرجاء هو مذهب أهل السنة .

وقال الجوهرى فى الصحاح : يقال : رجل مرجئ أى بوزن مرجع .

والنسبة إليه مرجئى هذا إن همزت ، وإن لم تهمز قلت : مرج كمعط وهم المرجيّة بالتشديد .

وقال ابن برى فى حواشيه : هم صنف يقولون الإيمان قول بلا عمل كأنهم أرجئوا العمل ، أى أخروه ، لأنهم يرون أنه لو لم يصلوا ويصوموا لنجاهم إيمانهم ، فقول الجوهرى وهم المرجيّة بالتشديد : إن أراد به منسوبين إلى المرجية بتخفيف الياء فهو صحيح ، وإن أراد به الطائفة نفسها فلا يجوز فيه تشديد الياء إنما يكون ذلك فى المنسوب إليه هذه الطائفة ، ولذلك ينبغى أن يقال مرجئ ومرجئى فى النسبة إلى المرجئة والمرجية بلا همز . انتهى .

وحكى صاحب المنتهى فى اللغة مرج ومرجى ، ثم قال : وهم المرجية بالتشديد لأن بعض العرب يقولون : أرجيت وأخطيت وتوضيت ، بلا همز ، وتابعه فى أخباره العباب .

---

(١) المعتبرفى تخريج أحاديث المنهاج والمختصر ، لبدر الدين الزركشى : ص٣٠٠-٣٠١ .

زاد صاحب المنتهى : وقد اختلفوا فى أصل التسمية فقيل : إنهم أخروا بعض ما يجب عليهم أن يقدموا ، وقيل : لأنهم أخروا العمل . وقيل : لأنهم أخروا عليًا عن الإمامة وقدموا عليه غيره .

وإنما كثر الخلاف لأنه لقب مذموم فكل فرقة نفته عن نفسها ، ومن سمى المرجية لمن أرجى فقد أخطأ لأنهم الراجية .

ويطلق الإرجاء على معنيين : أحدهما بمعنى : التأخير ، كما فى قوله تعالى : ﴿**أرجه وأخاه**﴾ أى : أمهله وأخره . والثانى : إعطاء الرجاء .

قال الحافظ فى " مقدمة الفتح " : فالإرجاء بمعنى التأخير وهو عندهم على قسمين :

منهم من أراد به : تأخير القول فى الحكم فى تصويب إحدى الطائفتين اللتين تقاتلتا بعد عثمان . ومنهم من أراد : تأخير القول فى الحكم - على من أتى الكبائر وترك الفرائض - بالنار ، لأن الإيمان عندهم الإقرار والاعتقاد ، ولا يضر العمل مع ذلك .

أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ، لأنهم كانوا يؤخرون العمل على النية والعقد . وأما بالمعنى الثانى فظاهر ، فإنهم كانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وقيل : الإرجاء : تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا ، من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار . فعلى هذا : المرجئة ، والوعيدية فرقتان متقابلتان . وقيل : الإرجاء : تأخير " علىّ " رضى الله عنه عن الدرجة الأولى إلى الرابعة . فعلى هذا : المرجئة والشيعة ، فرقتان متقابلتان .

والتشيع محبة علىّ وتقديمه على الصحابة . فمن قدمه على أبى بكر وعمر فهو غال فى تشيعه ، ويطلق عليه رافضى ، وإلا فشيعى ، فإن انضاف إلى ذلك السب أو التصريح بالبغض فغال فى الرفض ، وإن اعتقد الرجعة إلى الدنيا فأشد فى الغلو .

وقال فى " التهذيب " : التشيع فى عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل علىّ على عثمان ، وأن عليا كان مصيبا فى حروبه ، وأن مخالفه مخطئ ، مع تقديم الشيخين وتفضيلهما . وربما اعتقد بعضهم أن عليا أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان معتقد ذلك ورعا دينا صادقا مجتهدا ، فلا ترد روايته بهذا لا سيما إن كان غير داعية . وأما التشيع فى عرف المتأخرين فهو الرفض المحض (أى السب والشتم) ، فلا تقبل رواية الرافضى الغالى ولا كرامة .

والمرجئة : أصناف أربعة : مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة . ومحمد بن شبيب ، والخالدى : من مرجئة القدرية . وكذلك الغيلانية أصحاب غيلان الدمشقى ، أول من أحدث القول بالقدر والإرجاء .

ونحن إنما نعد مقالات المرجئة الخالصة بهم [1] .

يقول البغدادى [2] : وقد ذكرت المرجئة ، إذ قولها خارج عن التعارف والعقل . ألا ترى أن منهم من يقول : من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وحرم ما حرم الله وأحل ما أحل الله ، دخل الجنة إذا مات ، وإن زنى ، وإن سرق ، وقتل ، وشرب الخمر وقذف المحصنات ، وترك الصلاة والزكاة والصيام ، إذا كان مقرا بها يسوف التوبة لم يضره وقوعه على الكبائر ، وتركه للفرائض ، وركوبه الفواحش ، وإن فعل ذلك استحلالا كان كافرا بالله مشركا ، وخرج من إيمانه وصار من أهل النار ، وإن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وإيمان الملائكة ، والأنبياء ، والأمم وعلماء الناس وجهالهم واحد، لا يزيد منه شىء على شىء أصلا .

قال سلمة بن كهيل : اجتمع هؤلاء الأربعة : بكير الطائى ، وأبو البخترى ، وميسرة والضحاك المشرقى فى أيام الجماجم على أن الإرجاء بدعة ، والشهادة والولاية بدعة ، والبراء بدعة . وهو قول أبى سعيد الخدرى وإبراهيم .

وقال الشعبى : أرجئ ما لا تعلم إلى الله ولا تكن مرجئا . وقال ذر : قد شرعت شيئا - أو قال دينا - أخاف أن يتخذ سنة . وقال إبراهيم : إذا لقيت ذرا فتنصل إلىّ منه [3] .

يقول المكلاتى [4] : « معاشر المرجئة، مذهبكم يرفع معظم التكاليف من الأوامر والنواهى ويقبح باب الإباحة، لأنه إن لم يكن مؤاخذاً بترك ما أمر به لم يكن مثابا بامتثال ما أمر به ، وهذا كله معلوم بطلانه من جهة الشرع ولا خفاء بذلك ولا معنى للإطناب فيه » .

---

(١) الملل والنحل، للشهرستانى، تحقيق محمد بن فتح الله بدران .

(٢) الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٣) التنبيه والرد على أهل الأهواء والزيغ - المالطى .

(٤) ص ٣٩١ .

٤ ـ قضـــايا المرجئـــة

(١) اختلافهم فى الإيمان :

اختلفت المرجئة فى الإيمان ما هو ، وهم اثنتا عشرة فرقة :

فالفرقة الأولى : يزعمون أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء من عند الله فقط ، وأن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله والتعظيم (لهما) ، والخوف منهما والعمل بالجوارح ، فليس بإيمان .

إن مبدأ الانفصام بين الإيمان تصديقا بالله بالقلب والإقرار به عملا وسلوكا ليعتبر أثرا من آثار الجهمية ، وليس من الأصول الإسلامية فى شيء . لقد زعموا أن الكفر بالله هو الجهل به ، وهذا قول يحكى عن " جهم بن صفوان " .

وزعمت الجهمية أيضا أن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر بجحده ، وأن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه ، وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا فى القلب دون غيره من الجوارح .

والفرقة الثانية من المرجئة يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر هو الجهل به فقط ، فلا إيمان بالله إلا المعرفة به ، ولا كفر بالله إلا الجهل به ، وأن قول القائل " إن الله ثالث ثلاثة " ليس بكفر ، ولكنه لا يظهر إلا من كافر ، وذلك أن الله سبحانه أكفر من قال ذلك ، وأجمع المسلمون أنه لا يقوله إلا كافر .

وزعموا أن معرفة الله هى المحبة له ، وهى الخضوع لله . وأصحاب هذا القول لا يزعمون أن الإيمان بالله إيمان بالرسول ، وأنه لا يؤمن بالله إذا جاء الرسول إلا من آمن بالرسول ، ليس لأن ذلك يستحيل ، ولكن لأن الرسول قال : ومن لا يؤمن بى فليس بمؤمن بالله .

وزعموا أن الصلاة ليست بعبادة لله ، وأنه لا عبادة إلا الإيمان به وهو معرفته .

والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص ، وهو خصلة واحدة ، وكذلك الكفر . والقائل بهذا القول أبو الحسين الصالحى .

والفرقة الثالثة منهم يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له ، وهو ترك الاستكبار عليه والمحبة له ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن . وزعموا أن إبليس كان عارفا بالله غير أنه كفر باستكباره على الله ، وهذا قول قوم من أصحاب " يونس السمرى " .

وزعموا أن الإنسان وإن كان لا يكون مؤمنا إلا بجميع الخلال التى ذكرناها ، قد يكون كافرا بترك خلة منه ، ولم يكن يونس يقول هذا .

والفرقة الرابعة منهم وهم أصحاب " أبى شمر ويونس " يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والخضوع له ، والمحبة له بالقلب والإقرار به أنه واحد ليس كمثله شىء ، ما لم تقم عليه حجة الأنبياء ، وإن كانت قامت عليه حجة الأنبياء ، فالإيمان (الإقرار بهم) والتصديق لهم ، والمعرفة بما جاء من عند الله غير داخل فى الإيمان .

ولا يسمون كل خصلة من هذه الخصال إيمانا ولا بعض إيمان حتى تجتمع هذه الخصال ، فإذا اجتمعت سموها إيمانا لاجتماعها ، وشبهوا ذلك بالبياض إذا كان فى دابة لم يسموها بلقاء ولا بعض أبلق حتى يجتمع السواد والبياض ، فإذا اجتمعا فى الدابة سمى ذلك بلقا إذا كان بفرس ، فإن كان فى جمل أو كلب سمى بقعا . وجعلوا ترك الخصال كلها وترك كل خصلة منها كفرا ، ولم يجعلوا الإيمان متبعضا ولا محتملا للزيادة والنقصان .

وحكى عن أبى شمر أنه قال : لا أقول فى الفاسق الملى فاسق مطلق ، دون أن أقيد فأقول فاسق فى كذا .

وحكى " محمد بن شبيب وعباد بن سليمان " عن أبى شمر أنه كان يقول : إن الإيمان هو المعرفة بالله والإقرار به وبما جاء من عنده ومعرفة العدل ، يعنى قوله فى القدر ما كان من ذلك منصوصا عليه أو مستخرجا بالعقول مما فيه إثبات عدل الله ونفى التشبيه والتوحيد ، وكل ذلك إيمان ، والعلم به إيمان ، والشاك فيه كافر ، والشاك فى الشاك كافر أبدا . والمعرفة لا يقولون إنها إيمان ما لم تضم الإقرار ، وإذا وقعا كانا جميعا إيمانا .

والفرقة الخامسة من المرجئة (الثوبانية) أصحاب " أبى ثوبان " يزعمون أن الإيمان هو الإقرار بالله وبرسله ، وما كان لا يجوز فى العقل إلا أن يفعله وما كان جائزا فى العقل ألا يفعله فليس ذلك من الإيمان .

والفرقة السادسة من المرجئة (النجارية) يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله، وفرائضه المجتمع عليها ، والخضوع له بجميع ذلك ، والإقرار باللسان ، فمن جهل شيئا من ذلك فقامت به عليه حجة أو عرفه ولم يقر به كفر ، ولم تسم كل خصلة من ذلك إيمانا كما حكيناه عن أبى شمر .

وزعموا أن الخصال التى هى إيمان إذا وقعت فكل خصلة منها طاعة ، فإن فعلت خصلة منها ولم تفعل الأخرى لم تكن طاعة ، كالمعرفة بالله إذا انفردت من الإقرار لم تكن طاعة ، لأن الله عز وجل أمرنا بالإيمان جملة أمرا واحدا ، ومن لم يفعل ما أمر به لم يطع .

وزعموا أن ترك كل خصلة من ذلك معصية ، وأن الإنسان لا يكفر بترك خصلة واحدة ، وأن الناس يتفاضلون فى إيمانهم ويكون بعضهم أعلم بالله وأكثر تصديقا له من بعض، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وأن من كان مؤمنا لا يزول عنه اسم الإيمان إلا بالكفر ، وهذا قول " الحسين بن محمد النجار " وأصحابه .

والفرقة السابعة من المرجئة " الغيلانية " أصحاب " غيلان " يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله الثانية [1] والمحبة والخضوع والإقرار بما جاء به الرسول وبما جاء من عند الله سبحانه وتعالى . وذلك أن المعرفة الأولى عنده اضطرار ، فلذلك لم يجعلها من الإيمان . وذكر " محمد بن شبيب " عن الغيلانية أنهم يوافقون الشمرية فى الخصلة من الإيمان أنه لا يقال لها إيمان إذا انفردت ، ولا يقال لها بعض إيمان إذا انفردت ، وأن الإيمان لا يحتمل الزيادة والنقصان .

وأنهم خالفوهم فى العلم ، فزعموا أن العلم بأن الأشياء محدثة مدبرة ضرورية ، والعلم بأن محدثها ومدبرها ليس باثنين ولا أكثر من ذلك اكتساب ، وجعلوا العلم بالنبى – صلى الله عليه وسلم – وبما جاء من عند الله اكتسابا ، وزعموا أنه من الإيمان إذا كان الذى (جاء) من عند الله منصوصا بإجماع المسلمين ، ولم يجعلوا شيئا من الدين مستخرجا إيمانا .

وكل هؤلاء الذين حكينا قولهم من الشمرية ، والجهمية ، والغيلانية ، والنجارية ينكرون أن يكون فى الكفار إيمان ، وأن يقال : إن فيهم بعض إيمان ، إذا كان الإيمان لا يتبعض عندهم .

وذكر " زرقان " عن " غيلان " أن الإيمان هو الإقرار باللسان وهو التصديق وأن

---

(١) يريد بالمعرفة الثانية المعرفة الناشئة عن نظر واستدلال .

المعرفة بالله فعل الله ، وليست من الإيمان فى قليل ولا كثير ، واعتل بأن الإيمان فى اللغة هو التصديق .

والفرقة الثامنة من المرجئة أصحاب " محمد بن شبيب " يزعمون أن الإيمان الإقرار بالله والمعرفة بأنه واحد ليس كمثله شيء ، والإقرار والمعرفة بأنبياء الله وبرسله وبجميع ما جاءت به من عند الله مما نص عليه المسلمون ، ونقلوه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة والصيام وأشباه ذلك مما لا اختلاف فيه بينهم ولا تنازع .

وأما ما كان من الدين نحو اختلاف الناس فى الأشياء فإن الراد للحق لا يكفر ، وذلك أنه إيمان واستخراج ليس برد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما جاء به من عند الله سبحانه ولا يرد على المسلمين ما نقلوه عن نبيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونصوا عليه .

والخضوع لله هو ترك الاستكبار ، وزعموا أن إبليس قد عرف الله سبحانه وأقر به ، وإنما كان كافرا لأنه استكبر ، ولولا استكباره ما كان كافرا ، وأن الإيمان يتبعض ويتفاضل أهله ، وأن الخصلة من الإيمان قد تكون طاعة وبعض إيمان ويكون صاحبها كافرا بترك بعض الإيمان ولا يكون مؤمنا إلا بإصابة الكل ، وكل رجل يعلم أن الله واحد ليس كمثله شيء ويجحد الأنبياء فهو كافر بجحده الأنبياء ، وفيه خصلة من الإيمان وهى معرفته بالله . وذلك أن الله أمره أن يعرفه وأن يقر إن كان عرف ، (وإن عرف) ولم يقر ، أو عرف الله سبحانه وجحد أنبياءه ، فإذا فعل ذلك فقد جاء ببعض ما أمر به ، وإذا كان الذى أمر به كله إيمانا فالواحد منه بعض إيمـــان .

ما اتفق عليه المرجئة : وكان " محمد بن شبيب " وسائر من قدمنا وصفه من المرجئة يزعمون أن مرتكبى الكبائر من أهل الصلاة العارفين بالله وبرسله المقرين به وبرسله مؤمنون بما معهم من الإيمان، فاسقون بما معهم من الفسق .

الرد على المرجئة : من كتاب (أصول العدل والتوحيد) للقاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسِّ : وليحذر العبد أيضا هذه الطائفة من المرجئة فإن قولهم من شر قول وأخبثه . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : صنفان من أمتى لعنوا

على لسان سبعين نبيا القدرية والمرجئة. [1] قيل : ومن القدرية والمرجئة يا رسول الله؟ فقال : أما القدرية فالذين يعملون بالمعاصى ويقولون هى من عند الله وهو قدرها علينا . وأما المرجئة فهم الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل. فهذان قولان فيهما ذهاب الإسلام كله ووقوع كل معصية .

وذلك أن القدرية زعمت أن الله جل ثناؤه أدخل العباد فى المعاصى، وحملهم عليها، وقدرها عليهم، وخلقها فيهم، فهم لا يمتنعون منها ولا يستطيعون تركها .

وأما المرجئة، فرخصوا فى المعاصى، وأطمعوا أهلها فى الجنة بلا رجوع ولا توبة، وشككوا الخلق فى وعيد الله، وزعموا أن من ارتكب كبيرة من معاصى الله مؤمن كامل الإيمان عند الله بعد أن يكون مقرا بالتوحيد .

وإن جميع أعمال المؤمنين الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك ليس من الإيمان ولا من دين الله، مع أشياء كثيرة تقبح من قولهم، فكان فى قولهم ذلك انتهاك حرمات الله وتعدى حدوده وقتل أوليائه وخفر ذمته واستخفاف بحقه والفساد فى الأرض والعمل بالظلم فى عباده وبلاده[2] .

والفرقة التاسعة من المرجئة " أبو حنيفة وأصحابه " [3] يزعمون أن الإيمان المعرفة

(١) انظر سنن الترمذى: (٢١٤٩) ، والبيهقى : (٦٢ ، ٦٣) ، والطبرانى: (٨/ ٣٣٧ ، ١١/ ٢٦٢) ، وكنز العمال: (٥٥٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ١٥٩٧) ، ومجمع الزوائد: (٧/ ٢٠٦) .

(٢) ص ٢٠ ، ٢١ تحقيق د . محمد عمارة .

(٣) يناقش الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد تلك القضية فيقول : إن الإرجاء فى اللغة على معنيين : التأخير ، وإعطاء الرجاء ، وإن علماء الكلام يطلقون الإرجاء على ما يقابل التشيع أحيانا وعلى ما يقابل القول بالوعيد أحيانا أخرى . وإن كلمة المرجئة أطلقت فى عرف أهل الكلام على أربعة أصناف من أهل المقالات ، وهم : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة . ونقول هنا : إنه قد اشتهر عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى فى تعريف الإيمان أنه " التصديق بما علم مجىء النبى - صلى الله عليه وسلم - به ضرورة ، تفصيلا فيما علم تفصيلا ، وإجمالا فيما علم إجمالا " وأن الإقرار باللسان ليس جزءا من حقيقة الإيمان والأعمال الصالحة ليست جزءا من حقيقة الإيمان . وبنى على ذلك أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأن الجزم الذى ينعقد القلب عليه إن نقص صار جهلا أو شكا أو وهما فلا يكون إيمانا . ومن أجل هذا قال بعض أهل الحديث فى حق أبى حنيفة رضى الله عنه " إنه مرجئ " ، ومرادهم بذلك الإرجاء بمعناه اللغوى الذى هو التأخير . ومعنى كونه مرجئا - على هذا الوجه - أنه يجعل مرتبة العمل متأخرة عن عقد القلب وإذعانه وجزمه ، ولا شىء فى ذلك . بل إن هذا هو الذى تدل عليه آيات الكتاب العزيز وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإنا نجد القرآن الكريم فى غير آية=

بالله والإقرار بالله والمعرفة بالرسول والإقرار بما جاء من عند الله فى الجملة دون التفسير .

وذكر " أبو عثمان الأدمى " أنه اجتمع أبو حنيفة وعمر بن أبى عثمان الشمرى بمكة ، فسأله عمر فقال له : أخبرنى عمن يزعم أن الله سبحانه حرم أكل الخنزير ، غير أنه لا يدرى لعل الخنزير الذى حرمه الله ليس هى هذه العين . فقال : مؤمن . فقال له عمر : فإنه قد زعم أن الله قد فرض الحج إلى الكعبة غير أنه لا يدرى لعلها كعبة غير هذه بمكان كذا ، فقال : هذا مؤمن . قال : فإن قال : أعلم أن الله قد بعث محمدا وأنه رسول الله ، غير أنه لا يدرى لعله هو الزنجى . قال : هو مؤمن .

= يعطف الأعمال على الإيمان ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا** ﴾ الكهف : ١٠٧ . ولا شك أن المعطوف غير المعطوف عليه فتكون الأعمال غير الإيمان . ولجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد جعل محل الإيمان هو القلب فى نحو قوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم ثبت قلبى على دينك » . رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٣٨٣٤) . وفعل القلب ليس شيئا غير التصديق . وهكذا من وجوه الاستدلال التى فصلناها تفصيلا وافيا فى شرحنا على جوهرة التوحيد (ص ٤٩) . ثم إنه ينبنى على تفسير أبى حنيفة الإيمان بالتصديق أنه لا يقطع فى الدنيا بأن صاحب الكبيرة يعذب فى الآخرة ، بل نفوض أمره إلى الله تعالى ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، كما قال تعالى على لسان عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ . وقد سمى الوعيدية هذا المعنى إرجاء لأنهم قالوا : إنا نحكم بأن الله تعالى يعذب عصاة المؤمنين ، وسموا أبا حنيفة مرجئا وأرادوا أنه يرجع حكم عصاة المؤمنين إلى اليوم الآخر يحكم الله تعالى فيه بما يشاء . وانظر إلى قول أبى البقاء فى الكليات (ص ٣٥٠ بولاق) : " المرجئة : هم الذين يحكمون بأن صاحب الكبيرة لا يعذب أصلا ، وإنما العذاب للكفار ، والمعتزلة جعلوا عدم القطع بالعقاب وتفويض الأمر إلى الله تعالى يغفر إن شاء - على ما هو مذهب أهل الحق - إرجاء ، بمعنى أنه تأخير للأمر وعدم الجزم بالثواب والعقاب ، وبهذا الاعتبار جعل أبو حنيفة من المرجئة " اهـ كلامه .

والخلاصة أن إطلاق القول بالإرجاء على الإمام الأعظم أبى حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ ليس على المعنى العرفى المصطلح عليه عند أهل الكلام ، وليس أبو حنيفة - رحمه الله - مرجئا من أحد أصناف المرجئة الأربعة ، وأن الذين أطلقوا عليه هذا اللفظ لم يريدوا به معناه العرفى وإنما أرادوا المعنى اللغوى وهو التأخير . والذين أطلقوا عليه هذا اللفظ فريقان : أولهما بعض المحدثين ، ومنشأ هذا الإطلاق أنه كان يخالفهم فى تحديد معنى الإيمان ، فبينما يجعلون الإيمان مؤلفا من ثلاثة أركان : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، يجدون أبا حنيفة يقصره على الركن الأول وهو التصديق ، فيسمونه مرجئا بمعنى أنه يؤخر العمل فى المرتبة . والفريق الثانى الوعيدية - وهم جمهور المعتزلة - ومنشأ إطلاق الإرجاء على أبى حنيفة عندهم أنه كان يخالفهم فى حكم مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، فبينما يحكمون على مرتكب الكبيرة بأنه يعاقب جزما بدخول النار وأنه يخلد فيها ، يجدون أبا حنيفة لا يحكم عليه بشىء ، بل يقول : إن أمره مفوض فيسمونه مرجئا ، على معنى أنه يؤخر الحكم ولا يجزم به ، مع أن المرجئة الذين يسمون بهذا الاسم عرفا يحكمون ويجزمون بأنه لا عقاب على مرتكب الكبيرة لأنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، وشتان ما بين المذهبين ، فاعرف ذلك ، وتنبه له .

ولم يجعل " أبو حنيفة " شيئا من الدين مستخرجا إيمانا ، وزعم أن الإيمان لا يتبعض ولا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه .

فأما غسان وأكثر أصحاب أبي حنيفة فإنهم يحكون عن أسلافهم أن الإيمان هو الإقرار والمحبة لله والتعظيم له والهيبة منه وترك الاستخفاف بحقه ، وأنه لا يزيد ولا ينقص (١) .

رأى أبى البقاء : من أغرب ما قرأت رأى لأبى البقاء، وحسبنا إيراده ، وهو يمثل نوعا من التأويل الباطنى ، حبا من أبى البقاء لأبى حنيفة وعصمة له من التهمة بالإرجاء .

يقول أبو البقاء ، تحت مادة " المرجئة " :

المرجئة هم الذين يحكمون بأن صاحب الكبيرة لا يعذب أصلا ، وإنما العذاب والنار للكفار .

والمعتزلة جعلوا عدم القطع بالعقاب وتفويض العلم إلى الله تعالى ، يغفر إن شاء ويعذب إن شاء ، على ما هو مذهب أهل الحق ، بمعنى أنه تأخير للأمر وعدم الجزم بالثواب والعقاب .

وبهذا الاعتبار جعل أبو حنيفة من المرجئة ، وقد قيل له : من أين أخذت الإرجاء ؟ قال : من الملائكة . قالوا : لا علم لنا إلا ما علمتنا .

رأى الشهرستانى فى علاقة أبى حنيفة بالمرجئة : فقد حسم الشهرستانى علاقة أبى حنيفة بالمرجئة ، وبين كيف لحقته نسبته إلى الإرجاء ، فقال : لعمرى ! كان يقال لأبى حنيفة وأصحابه : مرجئة السنة . وعده كثير من أصحاب المقالات من جملة المرجئة ، ولعل السبب فيه أنه لما كان يقول : " الإيمان : هو التصديق بالقلب ، وهو لا يزيد ، ولا ينقص »، ظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان . والرجل مع تخريجه فى العمل كيف يفتى بترك العمل ؟! وله سبب آخر : وهو أنه كان يخالف القدرية ، والمعتزلة الذين ظهروا فى الصدر الأول ، والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم فى القدر : مرجئا ، وكذلك الوعيدية من الخوارج ، فلا يبعد أن اللقب إنما لزمه من فريقى المعتزلة ، والخوارج . والله أعلم .

---

(١) فى الأصول " وأنه يزيد ولا ينقص "

رسالة أبى حنيفة : المرجئة ، أهل العدل وأهل السنة : كتب الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه رسالة إلى عثمان البَتِّى[1] عالم أهل البصرة ، ردا على رسالته التى كتبها إليه يسأل فيها عما أشاعوه عنه « بأنه من المرجئة » وأن ذلك يسوء عثمان البتى وفقهاء العصر ، وذلك هو الذى حمل عثمان على أن يكتب إلى أبى حنيفة رسالته التى يعرب له فيها عن استيائه مما يشيعه الناس عن اتهامه بعقيدة الإرجاء ، على أن القول بالإرجاء ، يصف صاحبه بأنه " مؤمن ضال " وأن ذلك يشق على عثمان البتى .

ولا شك فى أن الكتابة بها إلى أبى حنيفة تعنى أنها كانت شائعة ووصفه بالإرجاء فيه منقصة لا تليق بالإمام .

وكان رد أبى حنيفة على الرسالة يشرح موقفه من الإرجاء ، والرأى فيه ومعنى وصفه به . أما عن الصيغة العامة للرسالة فإنها تندرج تحت أسلوب الإثبات وليس النفى . فهى فسرت الموقف وشرحت معنى الإرجاء الذى يأخذ به أبو حنيفة من خلال عرضه لمعنى « الإقرار » لديه :

* لقد بين أن الإقرار ضرورة ، وبه أخذ السلف الصالح قبل العمل ، إذ يقول : إن الناس كانوا أهل شرك - قبل أن يبعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - فبعث محمدا يدعوهم إلى الإسلام ، فدعا إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإقرار بما جاء به من الله تعالى . وكان الداخل فى الإسلام مؤمنا بريئا من الشرك ، محرم ماله ودمه ، له حق المسلمين وحرمتهم ، وكان التارك لذلك - حين دعا إليه - كافرا بريئا من الإيمان ، حلال ماله ودمه لا يقبل منه إلا الدخول فى الإسلام أو القتل . . ثم نزلت الفرائض بعد ذلك على أهل التصديق فكان الأخذ بها عملاً ، مع الإيمان .

ولذلك يقول تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فلم يكن المضيع للعمل مضيعا للتصديق ، وقد أصاب التصديق بغير عمل .

(١) قال ابن قتيبة فى المعارف : عثمان البتى (بفتح فتشديد) هو عثمان بن سليمان بن جرموز ، وكان من أهل الكوفة فانتقل إلى البصرة ، وهو مولى لبنى زهرة . وكان يبيع البتوت فنسب إليها اهـ . وهى الثياب الغليظة - وقال الذهبى فى الميزان : عثمان البتى الفقيه هو ابن مسلم ثقة إمام ، وقيل اسم أبيه أسلم ، وقيل سليمان اهـ . وفى المشتبه : فقيه البصرة زمن أبى حنيفة اهـ . توفى بالبصرة قبل وفاة أبى حنيفة بتسع سنوات . وبينهما مكاتبات لم يحفظ لنا التاريخ شيئا منها غير هذه الرسالة . وكان من عظماء مجتهدى هذه الأمة . وممن انقرضت مذاهبهم . وله انفرادات فى الفقه ذكرها الطحاوى فى (اختلاف العلماء) وأبو بكر الرازى فى مختصره ، وابن المنذر فى الأشراف لكن أصلها ابن جرير فى اختلاف الفقهاء له . رضى الله عنه وعن سائر الأئمة ونفعنا ببركات علومهم (ز) .

ولو كان المضيع للعمل مضيعا للتصديق ، انتقل من اسم الإيمان وحرمته بتغييبه للعمل إذا كان . . كما لو أن الناس ضيعوا التصديق ، انتقلوا بتغييبه من اسم الإيمان وحرمته وحقه ، ورجعوا إلى حالهم التى كانوا عليها من الشرك .

ثم قال : إن الناس لا يختلفون فى التصديق ، ولا يتفاضلون فيه ، وقد يتفاضلون فى العمل ، وتختلف فرائضهم . ودين أهل السماء ودين الرسل واحد .

ثم قال : واعلم أن الهدى فى التصديق بالله وبرسله ، ليس كالهدى فيما افترض من الأعمال . ثم قال متعجبا : ومن أين يشكل ذلك عليك ، وأنت تسميه مؤمنا وهو جاهل بما لا يعلم من الفرائض ؟ . . . . . إلخ .

من هنا : كان أبو حنيفة لا ينكر على نفسه الإرجاء ، ولكنه يفسر موقفه منه بأن مراده من ذلك المعنى الذى وقر بالقلب وعدم علاقته بالعمل ، لكنه لا يهمل العمل كما أهملته المرجئة وفق مبدئهم القائل : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

كذلك أبو حنيفة يرى : أن شرحه لقضية العلاقة بين الإقرار والعمل فيه توضيح لموقفه وعلاقته بالإرجاء ، وبيان وتفسير لمذهب المرجئة .

ويبدو أن الإرجاء والانتماء إليه لم تكن من العقائد المستهجنة . وما أخذه العلماء عليها ليس صحيحا ، وذلك وفق قول أبى حنيفة ، ردا على عثمان البَتِّى . وأما ما ذكرت من اسم المرجئة : فما ذنب قوم تكلموا بعد وسماهم أهل البدع بهذا الاسم ولكنهم أهل العدل وأهل السنة ، وإنما هذا اسم سماهم به أهل شنئان .

ثم هو يلمح إلى رأى المعتزلة ويرى أن القول به بدعة والوقوف عنده تعنت ولا يدخل تحت مفهوم الاتباع بقوله : « وإن قلت بقول من تعنَّت من أهل البدع وزعمت أنه ليس بكافر ولا مؤمن ، فاعلم أن هذا القول بدعة وخلاف للنبى وأصحابه » .

أى إشارة إلى قول المعتزلة : بالمنزلة بين المنزلتين .

وأما قوله عن اختلاف الصحابة بين علىٍّ ومعاوية وأيهما الفئة الباغية فيقول : وإنى أقول فيما مضى من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان بينهم : الله أعلم ، ولا أظن هذا إلا رأيك فى أهل القبلة ، لأن هذا أمر أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام وأمر السنة والفقه . ثم قال : ثم إن أشكل عليك شىء إذا أدخل أهل البدع شيئا ، فأعلمنى أجبك فيه إن شاء الله ثم لا آلوه ونفسى خيرا . والله المستعان .

ومجمل القول فى هذه الرسالة [1] أن موقعها من أساليب اللغة العربية الثلاثة : أسلوب النفى ، أسلوب الإثبات ، أسلوب الاستفهام ، يقع تحت أسلوب الإثبات . فأثبت نسبته إلى الإرجاء ، أى جاءت الرسالة شارحة معنى عقيدة الإرجاء ، وتعميقا لمعنى التصديق وعلاقته بالإيمان وقيمة العمل فى كمال عقيدة المؤمن . والذين اتهموا المرجئة بالضلال هم أهل البدع والضلال « ولا ذنب لهم » . فمن هنا كانت الرسالة مثبتة مخيبة لرجاء البَتّى « ولا ذنب لهم » .

ثم شرح أهم مبدإ لديهم وهو القول بالتصديق . . ثم سماهم « أهل العدل وأهل السنة » .

وتعتبر الرسالة بما حوت انتصارا لفرقة المرجئة وشرحا لعقيدتهم ، وأن التاريخ - كما يرى أبو حنيفة فى رسالته المنسوبة إليه - لم ينصفهم . وهذا يذكرنا بقول الشعبى فى الإرجاء .

ومن وجهة نظرى : إن كتب الفرق أكدت أن معنى الإرجاء هو القول بالفصل بين الإقرار والعمل ، وعلى هذا ساقت مبدأهم القائل : بأنه لا ينفع مع الكفر طاعة ، كما لا يضر مع الإيمان معصية . نفس المبدإ كان منزلقا سهلا للخوارج وفرق الباطنية والإلحاد والزندقة وجميع الحركات السرية التى نشبت بأظفارها فى المجتمع الإسلامى . وعلى ذات المبدإ الذى يعنى أن الإيمان هو الإقرار والمعرفة والتصديق ، أهملت الشعائر الدينية وشاعت الازدواجية فى القول والعمل ، فبات القول فى جانب والعمل فى جانب آخر ، وخرقوا أعمالاً مزرية بالعقيدة ، سيئة الهدف ، مرذولة الأخلاق ، مجانبة للسلوك الإسلامى ، ما أنزل الله بها من سلطان ، استنادا إلى أن أصل الإيمان هو الإقرار وليس شرطه أو شطره العمل . ولما كانت المرجئة هى التى شرعت ذلك من قبل ، نالها سوء عملها .

وفى " شرح المقاصد " للتفتازانى : اشتهر من مذهب المعتزلة أن صاحب الكبيرة بدون التوبة مخلَّد فى النار ، وإن عاش على الإيمان والطاعة مائة سنة . ولم يفرقوا بين أن تكون الكبيرة واحدة أو كثيرة واقعة قبل الطاعات أو بعدها أو بينها . وجعلوا عدم القطع بالعقاب وتفويض الأمر إلى الله - يغفر إن شاء أو يعذب على ما هو مذهب أهل

---

(١) كانت الرسالة غير داخلة فى أدب الكلام الدفاعى ، إنما هى تحسب من أدب المرجئة الذى كتبه أبو حنيفة بلغة المطمئن المقتنع ، فيه دقة التحليل وسعة الثقافة المذهبية لمذاهب عصره فى عرض فلسفى لمفاهيم كلامية دقيقة من غير ملق ظاهر لسائله ولا يستخفى وراء حيلة من حيل الفقهاء ، كيف وهو الإمام ؟!

الحق – إرجاء بمعنى أنه تأخير للأمر ، وعدم جزم بالعقاب والثواب . وبهذا الاعتبار جعل أبو حنيفة وغيره من المرجئة . [1] اهـ .

وقال ابن حجر المكى فى الفصل السابع والثلاثين من كتابه « الخيرات الحسان »، قد عد جماعة الإمام أبا حنيفة من المرجئة ، وليس هذا الكلام على حقيقته .

أما أولا : فلأنه قال شارح " المواقف " : كان غسَّان المرجئ ينقل الإرجاء عن أبى حنيفة ويعده من المرجئة . وهو افتراء عليه ، قصد به غسان ترويج مذهبه بنسبته إلى هذا الإمام الجليل .

وأما ثانيا : فقد قال الآمدى : إن المعتزلة كانوا فى الصدر الأول يسمون من خالفهم فى القدر : مرجئا ، أو لأنه لما قال : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ظن به الإرجاء بتأخير العمل من الإيمان . اهـ .

قلت : وإطلاق الإرجاء من المحدثين على من لا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه ، ولا بدخول العمل فى حقيقته : كثير ، وهو ليس بطعن فى الحقيقة ، على ما لا يخفى على مهرة الشريعة ، فإن النزاع فى ذلك لفظى ، كما حققه المحققون من الأولين والآخرين [2] .

ويشهد لما ذكرناه [3] : ما فى « لسان الميزان » للحافظ فى ترجمة « الإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة » : نقل ابن عدى عن إسحاق ابن راهويه ، سمعت يحيى بن آدم يقول : كان شريك – القاضى – لا يُجيز شهادة المرجئة ، فشهد عنده محمد بن الحسن ، فرد شهادته ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : أنا لا أجيز شهادة من يقول : الصلاة ليست من الإيمان . اهـ .

فهذا صريح فى أنه إنما أطلق الإرجاء على محمد ، لكونه لا يرى الصلاة جزءا من حقيقة الإيمان ، مع قوله بكماله بالطاعات وضعفه بالمعاصى ، ومع قوله بأن الطاعات تفيد والمعاصى تضر . ومن المعلوم أن هذا ليس من الضلال فى شىء وإلا جاز لنا أن نرمى المحدثين بالاعتزال لقولهم بدخول الأعمال فى الإيمان المستلزم لكفر صاحب الكبيرة . وحاشاهم عن ذلك .

---

(١) بمعنى أنهم لم يحكموا برأى فى هذا الأمر ، وإنما أرجئوا الحكم فيه إلى الله سبحانه .

(٢) قواعد علم الحديث : الشيخ أحمد الكيرانوى .

(٣) قواعد فى علم الحديث للشيخ أحمد الكيرانوى على ضوء ما أفاده الإمام الفقيه : الشيخ أشرف على النهاوندى .

فتنَّبه لذلك وكن متيقظا فى فهم كلام المعدلين والجارحين ولا تكن من الغافلين ، فإن كتب الإمام أبى حنيفة " كالفقه الأكبر " و " كتاب الوصية " له تنادى بأعلى النداء على أنه ليس مذهبه فى باب الإيمان وفروعه ما ذهبت إليه المرجئة والجهمية وغيرهما من أصحاب الغواية . وكذا كتب الحنفية تشهد ببطلان مذهب المرجئة وكل مذهب يخالف السنة ، وأن أبا حنيفة وأصحابه براء منه ، ولله تعالى الهداية يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

ونذكر قول ابن جرير : لو كان كل من ادعى عليه مذهب من المذاهب الرديئة ، ثبت عليه ما ادعى به وسقطت عدالته ، وبطلت شهادته بذلك ، للزم ترك أكثر محدثى الأمصار ، لأنه ما منهم إلا وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه . ا هـ . وقد ذكرناه فى أول الباب .

قلت : فهذا إمام المحدثين البخارى رحمه الله لم يسلم من الرمى بالبدعة أيضا ، فقد رماه الذهلى فى مسألة القرآن بالقول بالخلق (1) . كما هو مبسوط فى « مقدمة الفتح » فليراجع ، وقس عليه غيره .

والفرقة العاشرة من المرجئة (التومنية أو المعاذية) أصحاب " أبى معاذ التومنى »(2) يزعمون أن الإيمان ما عصم من الكفر ، وهو اسم لخصال إذا تركها التارك أو ترك خصلة منها كان كافرا . فتلك الخصال التى يكفر بتركها أو بترك خصلة منها إيمان . ولا يقال للخصلة منها إيمان ولا بعض (إيمان) . وكل طاعة إذا تركها التارك لم يجمع المسلمون على كفره ، فتلك الطاعة شريعة من شرائع الإيمان تاركها إن كانت فريضة يوصف بالفسق ، فيقال له إنه فسق ولا يسمى بالفسق ، ولا يقال فاسق ، وليس تخرج الكبائر من الإيمان إذا لم يكن كفر ، وتارك الفرائض مثل الصلاة والصيام والحج على الجحود . بها والرد لها والاستخفاف بها كافر بالله ، وإنما كفر للاستخفاف والرد والجحود وإن تركها غير مستحل لتركها متشاغلا مسوفا يقول : الساعة أصلى ، وإذا

---

(1) وننقل فيما يلى من طبقات الشافعية للسبكى مناظرات محنة خلق القرآن ، ومن طبقات ابن سعد وكتاب أحمد بن حنبل والمحنة وكتاب تاريخ الخلفاء وحلية أبى نعيم وتهذيب التهذيب لابن حجر والنجوم الزاهرة مقاطع متفرقة عن هذه المحنة وتاريخها .

وسميت فى التاريخ بالمحنة ، وهى فى الأصل الخبرة : محنته وامتحنته : خبرته واختبرته ، وامتحنت (اختبرت) .

(2) انظر معجم البلدان : (٢/ ٤٣٢)

فرغت من لهوى ومن عملى ، فليس بكافر إذا كان عزمه أن يصلى يوما (من الأيام) ووقتا من الأوقات ، ولكن نفسقه .

وكان أبو معاذ يزعم أن من قتل نبيا أو لطمه كفر ، وليس من أجل اللطمة والقتل كفر ، ولكن من أجل الاستخفاف والعداوة والبغض له . وكان يزعم أن الموصوف بالفسق من أصحاب الكبائر ليس بعدو لله ولا ولى لـه .

وكل المرجئة يقولون : إنه ليس فى أحد من الكفار إيمان بالله عز وجل .

والفرقة الحادية عشرة من المرجئة (المريسية) أصحاب " بشر المريسى " يقولون : إن الإيمان هو التصديق ، لأن الإيمان فى اللغة هو التصديق ، وما ليس بتصديق فليس بإيمان .

ويزعم أن التصديق يكون بالقلب وباللسان جميعا . وإلى هذا القول ذهب الراوندية ، أصحاب " ابن الراوندى " . وكان ابن الراوندى يزعم أن الكفر هو الجحد والإنكار والستر والتغطية وليس يجوز أن يكون الكفر إلا ما كان فى اللغة كفرا ، ولا يجوز أن يكون إيمانا إلا ما كان فى اللغة إيمانا .

وكان يزعم أن السجود للشمس ليس بكفر ، ولكنه علم على الكفر ، لأن الله عز وجل بين لنا أنه لا يسجد للشمس إلا كافر .

والفرقة الثانية عشرة من المرجئة " الكرامية " أصحاب " محمد بن كرام " يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب ، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شىء غير التصديق باللسان إيمانا ، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانوا مؤمنين على الحقيقة ، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان .

ومن المرجئة من يقول : الفاسق من أهل القبلة لا يسمى بعد تقصى فعله فاسقا ، ومنهم من يسميه بعد تقصى فعله فاسقا .

ومنهم من يقول : لا أقول لمرتكب الكبائر فاسق على الإطلاق ، دون أن يقال : فاسق فى كذا ، ومنهم من أطلق اسم الفاسق .

(٢) اختلافهم فى تحديد الكفر :

اختلفت المرجئة فى الكفر ما هو :

(أ) فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن الكفر خصلة واحدة ، وهو الجهل بالله ، وهؤلاء هم " الجهمية " .

(ب) والفرقة الثانية منهم يزعمون أن الكفر خصال كثيرة ، ويكون بالقلب وبغير القلب ، والجهل بالله كفر ، وكذلك البغض لله والاستكبار عليه كفر ، وكذلك التكذيب بالله وبرسله بالقلب واللسان ، وكذلك الجحود لهم ، والإنكار لهم ونعيهم ، وكذلك الاستخفاف بالله وبرسله كفر ، وكذلك ترك التوحيد إلى اعتقاد التثنية والتثليث أو ما هو أكثر من ذلك كفر ، وزعم قائل هذا القول أن الكفر يكون بالقلب وباللسان دون غيرهما من الجوارح ، وكذلك الإيمان .

وأكثر المرجئة لا يكفرون أحدا من المتأولين ، ولا يكفرون إلا من أجمعت الأمة على إكفاره .

وأجمعت المرجئة بأسرها على أن الدار دار إيمان ، وحكم أهلها الإيمان ، إلا من ظهر منه خلاف الإيمان .

واختلفت المرجئة فى الاعتقاد للتوحيد بغير نظر : هل يكون علمًا وإيمانًا أم لا ؟ وهم فرقتان :

(أ) فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن الاعتقاد للتوحيد بغير نظر لا يكون إيمانا .

(ب) والفرقة الثانية منهم يزعمون أن الاعتقاد للتوحيد بغير نظر إيمان .

(٣) اختلافهم فى تخليد الله الكفار :

واختلفت المرجئة فى تخليد الله الكفار ، على مقالتين :

فقالت الفرقة الأولى منهم ، وهم أصحاب " جهم بن صفوان " : الجنة والنار تفنيان وتبيدان ويفنى أهلهما حتى يكون الله موجودًا لا شىء معه كما كان موجودًا لا شىء معه ، وأنه لا يجوز أن يخلد الله أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . وهذا ردٌّ لما اتفق المسلمون عليه ونقلوه نصا .

وقال المسلمون كلهم إلا جهمًا : إن الله يخلد أهل الجنة فى الجنة ويخلد الكفار فى النار .

(٤) اختلاف المرجئة في فجار أهل القبلة :

واختلفت المرجئة فى فجار أهل القبلة ، هل يجوز أن يخلدهم الله فى النار إن أدخلهم النار على خمسة أقاويل :

(أ) المريسية والراوندية : فزعمت الفرقة الأولى أصحاب " المريسى " [١] أنه محال أن يخلد الله الفجار من أهل القبلة فى النار لقول الله عز وجل (الزلزلة : ٧ ، ٨) **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾** وأنهم يصيرون إلى الجنة إن أدخلهم الله النار لا محالة ، وهو قول " ابن الراوندى " .

(ب) المرجئة الغيلانية : وقالت الفرقة الرابعة وهم أصحاب " غيلان " : جائز أن يعذبهم الله ، وجائز أن يعفو عنهم ، وجائز ألا يخلدهم . فإن عذب أحدًا عذب من ارتكب مثل ما ارتكبه ، وكذلك إن خلده وإن عفا عن أحد عفا عن كل من كان مثله .

---

(١) بشر المريسى : هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبى كريمة ، المريسى ، الفقيه الحنفى المتكلم ، وأصله من موالى زيد بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أخذ الفقه عن القاضى أبى يوسف الحنفى ، ثم اشتغل بالكلام ، وجرد القول بخلق القرآن ، وحكى عنه فى ذلك أقوال شنيعة . وكان مرجئا وإليه تنسب الطائفة المريسية من المرجئة . وكان يقول : إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، ولكنه علامة الكفر ، وكان يناظر الإمام الشافعى رضى الله عنه . وكان لا يعرف النحو ويلحن لحنا فاحشا ، وروى الحديث عن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وأبى يوسف القاضى وغيرهم ، رحمهم الله تعالى . وكان يقال : إن أباه كان يهوديا صواغا بالكوفة ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٢١٨ وقيل ٢١٩ ببغداد . والمريسى -بفتح الميم وكسر الراء وبعد الياء سين مهملة- هذه النسبة إلى مريسى ، وهى قرية بمصر . هكذا ذكره الوزير أبو سعد فى كتاب " النتف والطرف " . وسمعت أهل مصر يقولون : إن المريسى جنس من السودان بين بلاد النوبة وأسوان من ديار مصر وكأنهم جنس من النوبة ، وبلادهم متاخمة لبلاد أسوان ، وتأتيهم فى الشتاء ريح باردة من ناحية الجنوب يسمونها المريسى ويزعمون أنها تأتى من تلك الجهة . ثم إنى رأيت بخط من يعتنى بهذا الفن أنه كان يسكن فى بغداد بدرب المريس فنسب إليه ، ودرب المريس بين نهر الدجاج ونهر البزازين . قلت : والمريس فى بغداد هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر كما يصنعه أهل مصر بالعسل بدل التمر ، وهو الذى يسمونه البسيسة . (وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ١١٥) .

(٥) اختلافهم فى الصغائر :

واختلفت المرجئة فى الصغائر والكبائر على قولين :

(أ) فقالت الفرقة الأولـى : كل معصية فهى كبيرة .

(ب) وقالت الفرقة الثانية : المعاصى منها كبائر وصغائر .

(٦) اختلافهم فى غفران الكبائر بالتوبة :

واختلفت المرجئة فى غفران الله الكبائر بالتوبة ، وهى على مقالتين :

(أ) فقالت الفرقة الأولى منهم : غفران الله سبحانه الكبائر بالتوبة تفضل وليس باستحقاق .

(ب) وقالت الفرقة الثانيـة منهم : غفران الله الكبائر بالتوبة استحقاق .

(٧) اختلافهم فى معاصى الأنبياء :

واختلفت المرجئة فى معاصى الأنبياء ، هل هى كبائر أم لا ؟ على مقالتين :

(أ) فقالت الفرقة الأولى منهم : معاصيهم كبائر ، وجوزوا على الأنبياء فعل الكبائر من القتل والزنا وغير ذلك .

(ب) وقالت الفرقة الثانية : معاصيهم صغائر ، ليست بكبائر .

(٨) اختلافهم فى الموازنـة :

واختلفت المرجئة فى الموازنة على مقالتين :

(أ) فقال قائلون منهم : الإيمان يحبط عقاب الفسق ، لأنه أوزن منه ، وأن الله لا يعذب موحدا . وهذا قول " مقاتل بن سليمان " .

(ب) وقال قائلون منهم بتجويز عذاب الموحدين ، وأن الله يوازن حسناتهم بسيئاتهم ، فإن رجحت حسناتهم أدخلهم الجنة ، وإن رجحت سيئاتهم كان له أن

يعذبهم ، وله أن يتفضل عليهم ، وإن لم ترجح حسناتهم على سيئاتهم ، ولا رجحت سيئاتهم على حسناتهم تفضل عليهم بالجنة . وهذا قول " أبى معاذ " .

(٩) اختلافهم فى إكفار المتأولين :

واختلفت المرجئة فى إكفار المتأولين على ثلاثة أقاويل :

(أ) فقالت الفرقة الأولى منهم : لا نكفر أحدا من المتأولين ، إلا من أجمعت الأمة على إكفاره .

(ب) وقالت الفرقة الثانية منهم أصحاب " أبى شمر " إنهم يكفرون من رد قولهم فى القدر والتوحيد ، ويكفرون الشاك فى الشاك .

(جـ) وقالت الفرقة الثالثة منهم : الكفر هو الجهل بالله فقط ، لا يكفر بالله إلا الجاهل به ، وهذا قول " جهم بن صفوان " [١] .

(١٠) اختلافهم فى العفو عن مظالم العباد :

واختلفت المرجئة فى عفو الله عن عبد الله ما بينه وبين العباد من المظالم على مقالتين :

(أ) فقالت الفرقة الأولى منهم : ما كان من مظالم العباد فإنما العفو من الله عنهم فى يوم القيامة - إذا جمع الله بينه وبين خصمه - أن يعوض المظلوم بعوض فيهب لظالمه الجرم فيغفر له .

(ب) وقالت الفرقة الثانية منهم : إن العفو عن جميع المذنبين فى الدنيا جائز فى العقول ما (كان) بينهم وبين الله وما كان بينهم وبين العباد .

(١١) اختلافهم فى التوحيد :

واختلفت المرجئة فى التوحيد : فقال قائلون منهم فى التوحيد قول المعتزلة ، وقال قائلون منهم بالتشبيه ، فهم ثلاث فرق :

---

(١) سنذكر ترجمة جهم بن صفوان فيما يلى قريبا .

(أ) فقالت الفرقة الأولى منهم ، وهم أصحاب " مقاتل بن سليمان " : إن لله جسما وإن له وجها ، وإنه على صورة الإنسان لحم ودم وشعر وعظم ، له جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس وعينين ، مصمت ، وهو مع هذا لا يشبه غيره ، ولا يشبهه (غيره) .

(ب) وقالت الفرقة الثانية (منهم) أصحاب " الجواربى " مثل ذلك غير أنه قال : أجوف من فيه إلى صدره ، ومصمت ما سوى ذلك .

(جـ) وقالت الفرقة الثالثة منهم : هو جسم لا كالأجسام .

(١٢) اختلافهم فى الرؤية :

(أ) فمنهم من مال فى ذلك إلى قول المعتزلة ، ونفى أن يُرى البارئ بالأبصار .

(ب) وقالت الفرقة الثانية منهم : إن الله يُرى بالأبصار فى الآخرة .

(١٣) اختلافهم فى القرآن :

واختلفت المرجئة فى القرآن ، هل هو مخلوق أم لا ؟ على ثلاث مقالات :

(أ) فقال قائلون منهم : إنه مخلوق .

(ب) وقال قائلون منهم : إنه غير مخلوق .

(جـ) وقال قائلون منهم بالوقف ، وإنا نقول : كلام الله سبحانه لا نقول إنه مخلوق ولا غير مخلوق .

(١٤) اختلافهم فى ماهية البارئ عز وجل :

واختلفت المرجئة ، هل للبارئ ماهية أم لا ؟ على مقالتين :

(أ) فقال قائلون : لله ماهية لا ندركها فى الدنيا ، وإنه يخلق لنا فى الآخرة حاسة سادسة فندرك بها ماهيته .

(ب) وقال قائلون منهم بإنكار ذلك ونفيه .

(١٥) اختلافهم فى القدر :

واختلفت المرجئة في القدر :

(أ) فمنهم من مال إلى قول المعتزلة فى القدر .

(ب) وقال قائلون بالإثبات للقدر ، وهو قول " الحسين بن محمد النجار " فى القدر .

(١٦) اختلافهم فى أسماء الله :

واختلفت المرجئة فى أسماء الله وصفاته :

فمنهم من مال إلى قول المعتزلة فى ذلك ، ومنهم من قال بقول عبد الله بن كلاب ، وسنشرح قول " عبد الله بن كلاب " [١] إذا انتهينا إليه .

---

(١) ابن كلاب : هو عبد الله بن محمد بن كلاب ، القطان ، له ترجمة فى كتاب الفهرست لابن النديم ، وترجمة فى كتاب طبقات الشافعية لابن السبكى (٢/ ٥١) ، وفيها أنه توفى بعد سنة ٢٥٠ من الهجرة .

٥ ـ تعقيب

والمرجئة ثلاثة أصناف كما يذهب الشهرستانى : صنف منهم قالوا بالإرجاء فى الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية والمعتزلة ، كغيلان ، وأبى شمر ، ومحمد بن شبيب البصرى . وهؤلاء داخلون فى مضمون الخبر الوارد فى لعن القدرية ، والمرجئة . وصنف منهم قالوا بالإرجاء بالإيمان، وبالجبر فى الأعمال ، على مذهب جهم بن صفوان ، فهم إذن من جملة الجهمية . والصنف الثالث منهم خارجون عن الجبرية والقدرية ، وهم فيما بينهم خمس فرق : اليونسية ، والغسانية ، والثوبانية ، والتومنية ، والمريسية ، وإنما سموا مرجئة لأنهم أخروا العمل عن الإيمان . والإرجاء بمعنى التأخير ، يقال : أرجيته ، وأرجأته إذا أخرته . وروى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " لعنت المرجئة على لسان سبعين نبيا . " قيل : من المرجئة يا رسول الله ؟ قال : " الذين يقولون الإيمان كلام " (١) .

يعنى الذين زعموا أن الإيمان هو الإقرار وحده دون غيره . والفرق الخمس التى ذكرناها من المرجئة تضلل كل فرقة منها أختها ويضللها سائر الفرق (٢) .

من هنا كان تصنيف الشهرستانى قائم على أسس التحرى والفهم، وليس نقلاً وتقليداً ويغلب عليه طابع الأشعرى فى مقالاته، غير أن الأشعرى أثبت تأثر بعضهم بابن الراوندى وبعضهم بالمعتزلة .

يقول الشهرستانى :

---

(١) انظر العلل المتناهية (١/ ١٤٣) .

(٢) الفرق بين الفرق – البغدادى – تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد، انظر عن هذا الفريق من أصحاب المقالات : التبصير : ص ٥٩ – والملل والنحل : ١/ ١٣٩ – ومقالات الإسلاميين : ١/ ١٩٧ .

وأما المرجئة فثلاثة أصناف :

صنف منهم قالوا بالإرجاء فى الإيمان ، وبالقدر على مذاهب القدرية ، فهم معدودون فى القدرية والمرجئة ، كأبى شمر المرجئ ، ومحمد بن شبيب البصرى ، والخالدى .

وصنف منهم قالوا بالإرجاء فى الإيمان ، ومالوا إلى قول جهم فى الأعمال والإيمان ، فهم من جملة الجهمية والمرجئة .

وصنف منهم خالصة فى الإرجاء من غير قدر ، وهم خمس فرق : يونسية ، وغسانية ، وثوبانية ، وتومنية ، ومريسية .

بعد هذا العرض لعقائد المرجئة ، وجدنا من أقوالهم شواهد على ارتباطها بعقائد الجهمية والغيلانية والراوندية وآراء مقاتل بن سليمان. بذلك الارتباط تسللت عقائد خارجة عن الإسلام تمثل مللاً مختلفة لعقائد زائفة من مجوسية ومانوية ومزدكية . فالضحاك مثلا : أجاز للمسلمات أن يتزوجن سرا من بنى قومهن من الكفار ، والإسلام يمنع زواج المسلمة بالمشرك .

أما جماعة المرجئة فرغم اعتدالها فى مبادئها السياسية والدينية ، إلا أن الشعوبيين والزنادقة نجحوا فى التسلل إلى صفوفها ، واستتر هؤلاء المتسللون وراء ستار اعتدال المرجئة حتى لا يتهموا بما اتهم به غلاة الشيعة والخوارج .

ونجح الشعوبيون والزنادقة فى أن يجرفوا تقاة المرجئة إلى تيار الثورة على السلطات العربية ، حيث نصب أولئك التقاة من أنفسهم حماة للضعفاء والموالى .

ولم يقتصر تسلل الشعوبيين فى فرقة المرجئة عند الجانب السياسى فحسب ، وإنما وقع بعض قادة المرجئة فريسة لسموم الشعوبيين الدينية كذلك .

وكان جهم بن صفوان فى مقدمة هؤلاء المتسللين ، وهو رجل فارسى أقام بالكوفة ، واعتنق آراء المرجئة ، ونادى بتعاليم جديدة غريبة جعلته صاحب فرقة خاصة تنسب إليه ، وتعرف بالجهمية. وقد انضم إليه الحارث بن سرج أحد الذين ثاروا على السلطات الأموية وصار كاتبا له .

نادى جهم هذا بأن الإيمان عقد بالقلب ، وأن الإنسان مادام مؤمنا بقلبه ، فلا يضره

أن يعلن غير ما يبطن أمام ضغط أو خوف . أى أن جهما يبيح للشخص غير المسلم أن يدعى الإسلام سرا أو العكس . وهذا عرف فيما بعد بالتقية ، أهم مبدإ لدى الحركات السرية ، ويعلن اعتناقه أى مذهب آخر من المذاهب المجوسية أو الثنوية ، وأن ذلك لا يضره شيئا مادام مسلما بقلبه وإيمانه .

وانتشرت هذه التعاليم التى يمكن وصفها بالزندقة فى خراسان وفارس ، وجعلت بعض أهلها يتحللون من الفرائض كالصلاة والصوم والزكاة وغيرها مكتفين أن يكون إيمانهم بقلوبهم .

الفصل الخامس

الخوارج الثانية
(ضوابط الخوارج والخروج على دار الإسلام)

١ ـ نشأة الخوارج الثانية وتفرقهم إلى فرق

(١) ظهورهم وتصدى أهل السنة لهم :

نشأت حركة الخوارج الثانية عن الخوارج الأولى ، وامتداداً عن الحرب التي دارت بين عليٍّ ومعاوية. وتولد عن حركة الخوارج الأولى ٦٥هـ-٦٨٤م ، الأزارقة والصفرية والإباضية والنجدات . . . . . .إلخ . وكانوا في أصل خروجهم يرغبون بعجرفة عربية في تطبيق حقيقي للمثل الإسلامية من أُخوة ومساواة في الحقوق والواجبات على جميع المسلمين ، وأن ممارسة السلطة يجب أن تسلم من الانتماءات القبلية ولو كانت من قريش ، بل للأفضل والأنقى ولو كان عبدا أسود كما أشار إليه الحديث .

غير أن نشاطهم، وإن كان في الأصل يحمل معنى الاحتجاج السياسي ، إلا أنه لم يكن خاليا تماما من أهداف دينية ، وكانوا يظهرون بمظهر التحرر في بعض أصولهم كمبدإ الاستحلال ، وشدة صرامتهم في حمل السيف ، وسبيلهم لتحقيق مبادئهم هو القتال ، وأقاموا علاقتهم في المجتمع والدولة في إطار من العنف ، فأيقظوا العصبية والعداوات القديمة التي قضى الإسلام عليها ورمى بها في صحاري العرب . فترتب على ذلك أن ضعفت السلطة المركزية للخلافة ، واهتزت الأوضاع الاجتماعية ، وظهرت أطماع جديدة تظهر في أهداف الفرق ونشأتها ، ونمت مبادئ هدامة تعبر عن الأحقاد الدفينة التي تكيد للإسلام بعد أن كبحها ورمى بها . كذلك ظهرت خصومات عنيفة نشبت بين مختلف الجند - جند المرتزقة - التي تتصادق تارة وتتعادى أخرى ،

حملت العرب على البحث عن حلفاء بين الموالى . وكان المتوقع مع هذا كله، أن تتعرض سياسة التعاون الرسمية لاضطراب حقيقى . ولقد حاول عمر بن عبد العزيز - مخاطرا بموارد بيت المال فى سبيل أن يحقق نوعا من التوازن الذى افتقدته الدولة، فأعاد تنظيم الخراج والجزية بين طبقات المجتمع : عربا وموالى وأهل الأرض المفتوحة وكانت الشكوى قد وصلت إليه حتى شملت مساعدات الدولة للجميع . وبعد عمر بن عبد العزيز ، لم تعد تعنى السياسة الرسمية بالوصول إلى طريق القلوب .

وكان رد الفعل المناسب هم جماعة أهل السنة، التى أظهرت علماء الأعاجم والموالى، وحازوا ثقة الرأى العام الذين شعروا بخطورة الموقف، وهو أنه لا يجب ترك الخوارج وأنماط مذاهب أخرى يدعون أنهم الذين يدافعون عن المثل الإسلامية وحدهم. ففطن جماعة أهل السنة إلى الدور المنوط بهم وإلى قيمة الدور الذى يجب أن يضطلعوا بعبء القيام به فعمرت بيوت العلم وحلقات الدروس فى المساجد لتغيير المنكر وتثقيف الناس ولما كانوا يعيبون على الخوارج روحهم العدائية للمجتمع، فإنهم كانوا يستنكفون من الثورة المسلحة . بل شقوا طريقهم إلى التفقه فى الدين، وهى نفس السبيل التى اتبعها صحابة رسول الله ، طريق رفض التمرد والعداء والمقاومة . ولقد نجحت طريق التابعين من الموالى ، وما تحصلوا عليه من النفوذ الأدبى كان أقوى من نفوذ سيوف الخوارج والأمراء. وكانت عدوانية الخوارج وبطشهم بالأمة الإسلامية وتقسيمهم دار الإسلام إلى دار كفر ودار هجرة ، وتلوث سيوفهم بعداوات وأعراف الجاهلية الأولى للقبائل العربية، وانتماءاتهم العرقية البغيضة ، كل ذلك صنع رد فعل مناسبا ترك طابع الوحدة على الموالى ودعواتهم، بينما هم فى حقيقة الأمر لا تربطهم رابطة غير رابطة كره العرب ولكن الإسلام وحّد بين قلوبهم .

ومذهب الخوارج مذهب سياسى ، هدفه تقرير الأمور العامة وفقا لأوامر الله ونواهيه، ووفق تصورهم. بيد أن سياستهم ليست موجهة نحو أهداف يمكن تحقيقها، فضلا عن استخدامها وسائل منافية للمبادئ الإسلامية . إنهم يطلبون عدالة وفق تصورهم بالسيف ولو فنيت الدنيا بأسرها . ولو فنيت الدنيا فأين تتحقق العدالة ؟ إنما هى رغبة فى نفوسهم أورثهم إياها موقف معاوية الظالم ، وشعورهم بالتقصير مع علىٍّ وأنهم خذلوه جعل رغبتهم فى الجهاد والاستشهاد جامحة. إنهم يبيعون أنفسهم ويحملونها إلى سوق ثمن أرواحهم فيه هو الجنة .

فالواقع إذن أن الخوارج ذوو نزعة فردية قتالية من نوع خاص تماما ، وبالرغم من أن العلامة المميزة لهم كل التمييز هى الترجمة عن إيمانهم بالأفعال وامتشاق السيف فى

سبيل إقرارها كلما اجتمع اثنان من رأى واحد ، فإنهم مع ذلك قد شاركوا فى وضع القضايا الكلامية والتمهيد لنشأة علم الكلام .

(٢) تطور الرؤية لدى الخوارج :

ظهر الخوارج على المسرح السياسى تحت وطأة التحكيم كما عرضنا ، وكانوا دائما فيما قبل قليلى العدد . ولذلك كان لابد لهم من الاكتفاء بالحروب الصغيرة التى كانت تقوم هنا وهناك . ومع ذلك استطاعوا أن يتعبوا قائدا كبيرا كالحجاج ، بما كلفوه من جهد لكنهم لم يكن عندهم اهتمام جدى بالتوصل إلى تولى الحكم ، بل كانت سياستهم " غير سياسية ألبتة " ، وكانت غايتهم الأولى أن ينجوا بأنفسهم وبأرواحهم من شرور هذه الدنيا ، واستبد بهم الغرام بالاستشهاد ، ليس من أجل أن يسيطروا على العالم الإسلامى ، بل لأنهم كانوا يتبرءون من غيرهم من المسلمين .

فأما الآن ، فقد تضخمت جماعتهم الصغيرة ، فصارت جماهير كبيرة . هذا إلى أنهم تركوا ما كانوا عليه من تشدد أخرجهم على الناس وباعد الناس عنهم ، وصاروا يقبلون كل من ينضم إليهم ليعينهم على تحقيق أغراضهم . وهم وإن كانوا قد أخذوا من كان ينحاز إليهم بأن يقول بمقالتهم فى الدين ، فإنهم لم يطردوا حليفا أراد أن يقاتل فى صفوفهم . على أنهم الآن لم يكونوا فى الحقيقة يسعون إلى الجنة ، بل صاروا يطمعون فى ملك الدنيا ، وصاروا فى ميدان التدافع من أجل السيادة المتداعية ينافسون غيرهم بنفس وسائل هؤلاء . ولم يكن بينهم وبين الظفر إلا قليل ، ولو أنهم ظفروا لما بقوا خوارج النزعة كما كانوا .

وقد بدأت الحركة فى أرض الجزيرة ، وهى الولاية التى كانت بمثابة وطن لمروان ، لكنها لم تبدأ بين قيس فى الجنوب ، بل بين ربيعة فى الشمال. وكانت ربيعة من قبل متباعدة دائما بعض التباعد عن بقية العرب المسلمين ، وخصوصا عن مضر ، منافسيهم القدماء . وكانت ربيعة قد اضطروا أن يتخلوا لمضر عن أرضهم القديمة ، ولم تكن نفوسهم راضية بأن تكون فى مضر النبوة والخلافة . وكانت شيبان بكر بنوع خاص – وكانوا يقطنون ناحية الموصل على ضفتى نهر الدجلة – هم مقدمة جيوش الخوارج منذ أيام شبيب بن يزيد .

(٣) الرئيس الثانى (المستورد بن علَّفة) :

ولم ينتخب الخوارج فى الكوفة خليفة جديدا لهم بعد مصرع الراسبى إلا بعد تولى المغيرة بن شعبة أمر الكوفة . . وذلك حين تولى معاوية الخلافة ، بعث المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة ، فأحب العافية وأحسن فى الناس السيرة ، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم ، ما داموا لم ينتقلوا من الكلام إلى الأفعال . وكان يقول : قضى الله ألا تزالوا مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون (١) .

وتبعا لهذا المبدإ تغاضى عن الخوارج ، فراحوا يتذاكرون مكان إخوانهم فى النهروان . ويرون أن فى الإقامة " الغبن والوكف " ، وأن فى جهاد أهل القبلة الفضل والأجر ، فاتفقوا على إعلان القتال على أهل القبلة (٢) واختاروا المستورد بن علَّفة (من تيم الرباب) ، لأنه أسن الحاضرين ، وتواعدوا على الخروج فى غرة هلال شعبان سنة ٤٣هـ .

بيد أن المغيرة بن شعبة جاءه خبر هذه المؤامرة ، فأمر الشرطة أن تسير حتى تحيط بدار حيان بن ظبيان ، فلما مثلوا بين يدى المغيرة أنكروا وادعوا أنهم إنما يجتمعون فى منزل حيان بن ظبيان ليقرءوا القرآن عليه ، فلم يقتنع وقضى عليهم بالسجن قرابة عام .

(٤) الرئيس الثالث (حيان بن ظبيان) وتفرقهم إلى قيادات سياسية :

بعدما تعقبهم المغيرة بن شعبة ودحرهم وقتل المستورد بن علَّفة زعيم الخوارج الثانى ، لزم الخوارج الكوفة ، وساد الهدوء سنوات إلى أن انتخبوا خليفة لهم جديدا . وكان يعنى انتخابهم تجديد الكفاح ضد الجماعة ، وبايعوا حيان بن ظبيان السلمى ، لكن أمام بطش عبيد الله بن زياد هربوا من البصرة إلى مكة ، وساعدوا عبد الله بن الزبير ضد أهل الشام . فلما مات يزيد بن معاوية ظهر الخلاف بين موقف الخوارج السياسى وبين موقف ابن الزبير فارتحلوا عن مكة .

فذهب أبو طالوت وأبو فديك وابن الأسود - وهم من آل بكر - إلى اليمامة واستولوا عليها .

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٩ ، ٢٠ . المعارف : ص ٢٩٥ - ومشاهير علماء الأمصار : ٢٦٩ - والعبر : ١/ ٥٦ - والإصابة رقم ٧١٧٥ .

(٢) الطبرى : ج٢ ص ٢٠ .

وذهب نافع بن الأزرق ، وعبد الله الصفار وعبد الله بن إباض وحنظلة بن بيهس - وهو من بنى تميم - وعبد الله وعبيد الله والشربير أبناء الماحوز - ذهبوا إلى البصرة .

وهيأ هرب عبيد الله بن زياد وتنازع القبائل فى البصرة - الفرصة لكى يتنفس الخوارج ، فكسروا أبواب السجون وخرجوا منها . وتولى نافع بن الأزرق قيادة ثلاثمائة رجل وخرج يريد الأهواز .

فلما اصطلح أهل البصرة على إمارة ببة (وهو لقب عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب القرشى) اجتمعوا ضد الخوارج الباقين فى البصرة واضطروهم إلى الفرار واللحاق بنافع بن الأزرق . " إلا قليلا منهم ممن لم يكن أراد الخروج يومه ذلك : منهم عبد الله بن صفار وعبد الله بن إباض ورجال معهما على رأيهما (١) " . وكان خلافهما مع ابن الأزرق يقوم على أساس أن هذا الأخير يرى أن الله حرّم على المسلم الصحيح الإيمان المقام بين أظهر المشركين . بل عليه مفارقتهم نهائيا . على أن ابن صفار وابن إباض قد اختلفا هما أيضا فيما بينهما . واجتمع لابن الأزرق معظم الخوارج واشتدت شوكته ، وكثرت جموعه . وأقبل نحو البصرة حتى دنا من الجسر . فبعث إليه عبد الله بن الحارث مسلم بن عبيس بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبدشمس بن عبد مناف - فى أهل البصرة (٢) .

وهكذا تفرق الخوارج إلى فرق . فالأسماء المذكورة هى (باستثناء أبناء الماحوز) فى الوقت نفسه أسماء مؤسسى فرق وأحزاب : فالأزارقة هم أصحاب نافع بن الأزرق ، والصفرية أصحاب عبد الله بن صفار . والإباضية أصحاب عبد الله بن إباض . والبيهسية أصحاب أبى بيهس . بيد أن المصادر المختلفة لم تفسر لنا كيف نشأ الخلاف بين الخوارج . بل تظهر الفرق الأربع فى لحظة معلومة حاضرة كلها كاملة التكوين (٣) .

---

(١) الطبرى : ج ٢ ص ٥١٨ .

(٢) المرجع السابق : ج٢ ص ٥٢٠ .

(٣) الكامل : ص ٦٠٤ س ٧ - س ١٢ .

٢ ـ من رءوس الخوارج الثانية

(١) ابن الأزرق والأزارقة :

كيف خرج ؟ ويلوح أن ابن الأزرق ، كان ذا تأثير عظيم جدا فى عصره . وإن لم يبلغ الذروة قبل سنة ٦٤هـ ثم انقضى فى سنة ٦٥هـ . والذى حرضه على الخروج كان - فيما يروى - أبا الوازع الراسبى [(١)] . فقد نعا عليه أن لسانه صارم وقلبه كليل . ووود لو أن صرامة لسان نافع كانت لقلبه ، وكلال قلبه كان للسانه . فسمع له نافع واستبدل بلسانه صارما . وحتى يدله أبو الوازع على ما يجب عليه ، مضى أبو الوازع " فاشترى سيفا . وأتى صيقلا - كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم - فشاوره فى السيف فحمده فقال : استحذه ! فشحذه . حتى إذا رضيه حكم وخبط به الصيقل . وحمل على الناس . فتهاربوا منه " .

ابن الأزرق يحدد من هو الخارجى : [(٢)] هذا المثل جعل من نافع بن الأزرق " خارجيا " أو " شاريا " بدلا من " قاعد " . فمنذ ذلك الحين ، أصبح المبدأ الأسمى عنده هو أنه لا يجوز المقام بين أظهر المشركين ، بل يجب الذهاب إلى " دار الهجرة " وقتالهم وبيع أنفسهم لله . وبسبب هذا ، كان الخلاف بينه وبين من بقى فى البصرة . فالخلاف كان يدور إذن حول مسألة الفرصة المناسبة . ولم يكن أمرا جديدا عليهم . فمن جماعة القاعدين كانت تنفصل دائما فئة قليلة من الفعالين . فمن خلال الرماد المنطوى على الحطب الساخن ، كان يبرز وميض نار من حين إلى حين . ولكنه هذه المرة برز بكل وضوح .

صرامة مبادئه : وكان ثمة فى هذا الصدد خلافات مشابهة كان موقف نافع بن الأزرق فيها موقف المتشدد المغالى . وطبق مبدأ الانفصال عن " الجماعة " على الأسرة والوراثة . وأخضع " المهاجرة " - أى المنضمين حديثا إلى رأى الخوارج - لامتحان

(١) " الكامل " : ص ٦٠٤ وما يليها . (٢) " الكامل " : ص ٦٠٥ .

قاس ، ولم يعترف بـ " التقية " ، أعنى بالانضمام إلى رأى الخوارج خوفا منهم دون إيمان باطن صادق .

الفرق بينه وبين فرق الخوارج الأخرى : أما أصحاب الفرق الخارجية الأخرى فكانوا فى هذه المسائل أكثر لينا ومرونة ، على درجات متفاوتة فيما بينهم لا يمكن تحديدها بالدقة . والفارق الرئيسى هو أنهم كانوا يجوّزون التستر فى بعض الأحيان وعدم خوض القتال باستمرار ضد " الجماعة " . ولكن حين ينشب القتال ويشتركون فيه ، كانوا يظهرون من الجرأة وعدم الاحتياط ما لا يقل عما كانت تفعله الأزارقة .

(٢) نجدة بن عامر والنجدات (البحرين واليمن) :

تعاون نجدة وابن الأزرق : وقد انتشرت الفرق الخارجية المضادة لفرقة الأزارقة من البصرة إلى سائر مواطن الخوارج فى دار الإسلام . وكانت هناك فرقة من الخوارج غير هذه كلها ، لا تذكر كثيرا نظرا لقصر عمرها ولانحسارها فى بيئة صغيرة ، ونعنى بها فرقة " النجدات " التى كانت تقيم فى اليمامة من أرض البصرة . كان رجالها من بنى بكر ، ومن الفلاحين العتاة من بنى حنيفة منهم بخاصة . وسموا بذلك نسبة إلى نجدة ابن عامر الحنفى الخارجى ، لا أحد غيره ، الذى سمح بأن يساعد الخوارج ابن الزبير فى مكة (١) .

ولما رفع الحصار عن مكة لم يلحق بأولئك الذين قفلوا راجعين إلى اليمامة . بل لحق بابن الأزرق – وهما ينتسبان إلى قبيلة واحدة – وذهبا معا إلى البصرة فى سنة ٦٤هـ . ثم ما لبث أن انفصل عنه لخلاف بينهما ولأنه – فيما يلوح – توارى فى ظله . فعاد إلى اليمامة .

نجدة وأبو طالوت : اختار خوارج اليمامة أبا طالوت قائدا لهم ، على أن يظل كذلك حتى يجدوا خيرا منه . وفى السنة التالية – أى سنة ٦٦هـ- خلع الخوارج أبا طالوت

---

(١) الطبرى : ج٢ ص ٤٠١ وما يليها ، ص ٤٢٥ .

وبايعوا نجدة . وبايعه طالوت فكان نجدة خليفة [1] . ثم إن نجدة قال للخوارج ربوا العبيد - الذين غنموا هناك - واجعلوهم يعملون فى الأرض كما كانوا يعملون من قبل بالاشتراك فيما بينهم وذلك لحساب الخوارج فإن ذلك أنفع .

ابن الزبير ينقلب على نجدة : وأقام نجدة بالقطيف، [2] وحاول حمزة بن عبد الله ابن الزبير إخراجه منها - وكان حمزة واليا على البصرة من قبل أبيه عبد الله بن الزبير - فأرسل عبد الله بن عمير الليثى فى أربعة عشر ألفا من أهل البصرة سنة ٦٧هـ [3] . فأتى نجدة إلى ابن عمير وهو غافل . فقاتلهم طويلا وافترقوا . وفى تلك الأثناء، كان نجدة ابن عامر قد بسط سلطانه على شمال البحرين (كاظمة) وأرغم بنى تميم على أن يؤدوا له الصدقة . ثم سار من اليمامة إلى الجانب الآخر الغربى من بلاد العرب . وأخضع بنفسه جزءا من اليمن بما فيه صنعاء العاصمة . وبعث أبا فديك إلى حضرموت فجبى صدقات أهلها، وذلك سنة ٦٨هـ .

نجدة يقيم إمارة : وفى نهاية هذا العام، حج نجدة وهو فى ثمانمائة وستين رجلا . وقد وافقت عرفات ألوية : لواء ابن الحنفية . ولواء ابن الزبير . ولواء نجدة بن عامر . ولواء بنى أمية - ولم ينشب بينها قتال، بل اشتركت كلها فى الوقوف بعرفات فى سلام [4] . وقد تخلى نجدة عن فكرة مهاجمة المدينة لما أن " أخبر بلبس عبد الله بن عمر ابن الخطاب السلاح " تأهبا لقتاله مع أهل المدينة . ذلك أن نجدة وسائر الخوارج كانوا يوقرون أباه - عمر بن الخطاب - توقيرا شديدا .

نجدة وابن عمر وابن عباس : ويقال إن نجدة كتب إلى ابن عمر يسأله عن أشياء فى الفقه . ولكنها كانت أسئلة عويصة، فترك الإجابة عنها إلى ابن عباس . فسألوا ابن عباس فدهش كيف أن رجلا لا يتورع عن سفك دماء المسلمين أنهارا يهتم ويدقق فى هذه الأمور الفرعية الفقهية ! ثم نجده بعد ذلك فى الطائف، حيث جاءه عاصم بن

---

(١) ونجدة يومئذ ابن ثلاثين سنة (ابن الأثير : ج٤ ص ١٦٦) ولكن ابن المطرح قال كان قد بلغ النضوج (ص ١٦٦) . قارن ياقوت ج٢ ص ٤٥٠ وما يليها .

(٢) ابن الأثير : ج٤ ص ١٦٦ . (٣) هذه السَّنة هى الصحيحة كما فى الطبرى : ٢/ ٧٥٢.

(٤) الطبرى عن سنة ٦٨ ج٢ ص ٧٨٢ ، ابن الأثير : ج٤ ص ١٦٨ .

عروة بن مسعود الثقفى - ممثل الحكومة الشرعية - فبايعه عن قومه ، واستمر يسير جنوبا حتى تبالة . واستعمل عمالا له فى هذه المواضع ووضع قواعد لإدارتها (١) . ورجع نجدة إلى البحرين وبينما أحجم عن مهاجمة البلدين الحرام : مكة والمدينة، لم يتورع عن قطع الميرة . فجعلها لهم - وإنك قطعت الميرة عنا ونحن مسلمون . فجعلها نجدة لهم (٢) . وكان نجدة بسبيل بسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها . وكان ابن الزبير ضعيف الحول . ولكن اختلف عليه أصحابه فطمع فيهم الناس .

الخوارج لا يحتملون السلطة مدة طويلة : ذلك أن الخوارج لم يكونوا يحتملون السلطة عليهم مدة طويلة . حقا إنهم عارضوه لأسباب دينية ، كما يزعمون . فقد نقموا منه أنه أعطى بعض الجنود مالا أكثر مما أعطى آخرين . وهذا أيضا كان السبب فيما وقع من خلاف بينه وبين عطية بن الأسود . فضلا عن أن عطية اتهم نجدة - حين كتب عبد الملك بن مروان إلى نجدة يدعوه إلى طاعته مقابل توليه اليمامة ويهدر له ما أصاب من الأموال والدماء .

اتهام نجدة بالدهان فى الدين : نقول إن عطية اتهم نجدة قائلا إنه ما كاتبه عبد الملِك ابن مروان حتى علم منه دهانا فى الدين . وقد حمى بنتا لعبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان - بعد أن سباها - من المصير الذى ينتظر السبايا من النساء ، وكان ذلك فيه تعارض مع الشريعة ولكنه فعله لأسباب إنسانية ، ويقال أيضا بسبب خوفه من تهديد ابن الزبير له (إذ كتب إليه : " والله لئن أحدثت فيها لأطأن بلادك وطأة لا يبقى معها بكرى» (٣)) . ومن الأسباب التى نقموها عليه أيضا أنه لم يعاقب رجلا كان شديد النكاية على العدو، ولكنه كان يشرب الخمر فى عسكره . وكلما امتد به الزمان ، ازدادت الاتهامات ضده، وعلا صوت شكايتهم منه . ثم عاهدهم على أن يتوب وأن يصلح من أمر نفسه .

أحد الموالى يترأس النجدات : ولكن السخط يجد دواعى جديدة أبدا . فخلعوه

(١) ومن أبرز أعماله فى اليمن الحاروق .

(٢) ابن الأثير ص ١٦٨ .

(٣) ابن الأثير : ٤/ ١٦٨ .

وولوا أمرهم رجلا آخر ، ووقع اختيارهم أولا على أحد الموالى ، وهو ثابت التمار . لكنهم سرعان ما تبينوا أنه لابد لمن يكون أميرهم أن يكون عربيا خالصا . فكلفوا ثابتا بأن يبحث لهم عمن يصلح لتولى أمرهم . فاختار لهم أبا فديك . فنال أبو فديك البيعة . فاستخفى نجدة بن عامر فى قرية من قرى حجر وقتل فى سنة ٧٢هـ . وبهذا كان سقوط دولة النجدات فى اليمامة والبحرين (١) .

(٣) صالح بن مسرح والصفرية :

خروج على دار الإسلام : كان يعيش فى دارا ، بين نصيبين وماردين ، رجل ناسك مخبت مصفر الوجه صاحب عبادة اسمه صالح بن مسرح ، وكان زعيما للخوارج فى تلك النواحى : (دارا وأرض الموصل والجزيرة) . وهؤلاء كانوا على اتصال بالكوفة ومن هنا انتشروا (٢) . وكان تميميا ، ولكن غالبية العرب الذين كانوا يسكنون هناك على جانبى الدجلة كانوا من بنى ربيعة ، وعلى الأخص من بنى شيبان بن بكر ، الذين نزحوا من مواطنهم الأولى على الجانب الأيمن من نهر الفرات إلى صحارى الكوفة(٣) . وكان أتباعه من بين هؤلاء ، وكان يقرئهم القرآن ويعظهم داعيا إلى الحمية لله والثأر للناس من مظالم الحكام ومكافحة أئمة الباطل ومن والاهم من الفاسقين .

ولكنه لم يتعجل العمل ، بل ظل يدعو ويجتذب الأنصار إليه طوال عشرين عاما . واجتمع إليه من أصحابه جماعة تتراوح بين ١١٥ و ١٢٠ رجلا كان عليهم أن يبدءوا بالهجوم على دواب الحاكم فى رستاق دارا حتى تكون لهم خيول ، يغيرون عليها وهم قلة إلا أنهم لم يستطيعوا عمل شىء . (وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة) وتحصن منهم أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجار .

هنالك أصبح أمرهم مع الحجاج الذى أرسل إليهم جيشا من الكوفة يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل . والتقى الجمعان فى قرية يقال لها المدبح من أرض الموصل على تخوم ما بينها وبين أرض جوخى ، وذلك فى يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٦هـ - الخميس ٣ من سبتمبر سنة ٦٩٥م ، وانتهت فى غير صالح الخوارج ، وأصيب صالح ابن مسرح وقتل ، فمجّد الخوارج ذكراه تمجيدا عظيما وحزنوا عليه حزنا بالغا . إذ

---

(١) راجع كذلك ابن الأثير : ج٥ ص ٨٨ وما يليها .

(٢) الطبرى : ج٢ ص ٨٨١ ، ص ٩٧٧ .

(٣) تاريخ الدولة العربية .

بايعوا بعد قتله شبيب بن يزيد بن نعيم وهو رجل كفاح حقيقى ، ومن أسرة عريقة وهى مرة بن همام من ذهل بن شيبان [1] . فتولى شبيب القيادة على البقية الباقية من رجال صالح وكانت سبعين أو تسعين رجلا ، وزحف بهم فى نواحى الموصل على تخومها حيث كان بمأمن من أهل الكوفة . ثم مضى إلى المدائن - وهى من نواحى الكوفة - ومعه ١٦٠ رجلا . وتقع بين الدجلة والجبل ، أعنى فى أرض جوخى [2] عند النهروان . وهى الأرض العتيقة للخوارج التى قدستها دماء شهداء الخوارج الأقدمين . وكان فى تلك النواحى عدد كبير من أديرة النصارى كانت معسكرات ونقط ارتكاز ملائمة للمحاربين ، ولكن لم يكن لشبيب مركز ثابت ، منه يخرج للقتال وإليه يعود ، بل كان يغير مقامه باستمرار .

لقد برز شبيب على أصحابه بشدة أسره وقوة بدنه وشجاعته . ولم يكن مجرد مغامر مندفع دائما . فقد كان إلى جانب ذلك كثير الحيطة والفطنة ، واسع التدبير والحيلة . لم يكن لديه غير جيش صغير جدا : نواته من قومه بنى شيبان ، ولا نعلم أنه كان فى جيشه أحد من الموالى . وكان على تفاهم تام مع نصارى البلاد . الذين رأوا فيه نصيرا ضد المستبدين بهم ، وإذا كان هؤلاء النصارى لم يقفوا إلى جانبه علنا ، فقد قدموا له خدمات جليلة كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وبعد موت شبيب لم تعد عصابته بذات أهمية . ولكن حركة الخوارج ظلت قوية فى نواحى الموصل بين بنى شيبان وسائر آل بكر ، وقامت لهم حركات من حين إلى حين . ولم يكن قديسهم أو وليهم هو شبيب ، بل سلفه صالح بن مسرح . يتعظون بمواعظه المجموعة ويزورون قبره و يحلقون رءوسهم عنده [3] . ويعد صالح من الصفرية[4] .

الصفرية والأزارقة : والصفرية لم يكونوا قساة غلاظا كالأزارقة . ولكن رقتهم لم تكن تدوم إلا بقدر ما يدوم الوفاق بينهم وبين جماعة المسلمين . ثم تأخذ بهم الشدة

---

(١) نفس المرجع .

(٢) كان يتبع المدائن أيضا الأنبار الطبرى: ج٢ ص ٩٨٠ والاستان ، (الطبرى: ٢/ ٩٢٩) .

(٣) ابن قتيبة : ص ٢٠٩ . وكان الخوارج عامة يحرصون على ذكر شهدائهم والاستغفار لهم والبكاء لموتهم. (الطبرى: ج٢ ص ٩٠٠ س ٢ - س ٤) .

(٤) الطبرى: ج٢ ص ٨٨٠ .

مأخذها حينما يخرجون ويمتشقون السيوف ، فالخلاف إذن بين الصفرية والأزارقة لا يدل على شيء ذي بال في الواقع العملي . فالصفرية كما توصف أحوالهم في القتال تحت إمرة شبيب كانوا في حقيقة الأمر يمثلون النموذج التقليدي العام للخوارج . وفي هذه المنطقة من نهر دجلة وجد بعد ذلك فرق كثيرة من الخوارج خرجت أحيانا للغارات والقتال (١) . وكانت ألوية بعضهم بيضا ، والبعض الآخر سودا أو عمائم (٢) .

وتكاد جميع ثورات الخوارج التي نسمع بها في العصر الأموي المتأخر أن تكون قد خرجت من الموصل ومن آل بكر .

ثم اتخذت حركة الخوارج أسلوبا آخر يختلف تماما عما مضى، لما أن بدأت الدولة الأموية تتداعى ، إذ انقلبت تلك الحركة إلى ثورة شاملة .

(٤) عبد الله بن يحيى والإباضية :

وبذر إباضية البصرة بذورهم في جنوب الجزيرة العربية ، وكان عبدالله بن يحيى في حضرموت على صلة وثيقة بهم ، وهو كندي من بني شيطان . أراد أن ينتقض على جور الحكام . وشجعه المقيمون بالبصرة على الخروج. وأقبل إليه من هناك أعضاء بارزون في حزب الإباضية ، من بينهم بلج بن عقبة بن الهيصم الأسدي، (٣) وأبو حمزة المختار بن عوف الأزدي . وكان هذا الأخير اليد اليمنى لعبد الله، وكان في الواقع أهم من عبد الله . وفي بداية سنة ١٢٩ بويع عبد الله خليفة للخروج، ولقب بـ" طالب الحق " ، بينما لقبه خصومه بـ " الأعور " ، ولعل ذلك لأن هذه علامة " الدجال " وهم كانوا ينظرون إليه على أنه كذلك (٤) . استولى على حضرموت . ثم زحف على اليمن فانتصر على والي اليمن ، وتوقف بحملته في العاصمة صنعاء . وذلك في النصف الثاني من سنة ١٢٩هـ (٥) . فأقام حكمه هناك وأبقى على الموظفين السابقين ، وأظهر لين الجانب فاستطاع أن يمتلك قلوب أهل اليمن .

محاولاته في التوفيق بين أهل السنة والخوارج : وأكد أنه لا اختلاف بين مذهب

(١) الطبري: ج٢ ص ٢٨٩٧ وما يليها . وإلى جانب الصفرية (ج٢ ص ١٩٠٠، ص ١٩٠١) كان منهم أيضا بيهسية (ج٢ ص ١٨٩٨) .

(٢) الطبري: ج٢ ص ١٦٢٤ ، ١٨٩٨ . (٣) هكذا يسمى في الطبري: ص ٢٠١٢ .

(٤) الأغاني: ج ٢٠ ص ١٠٨ . (٥) الأغاني: ج ٢٠ ص ٩٧ .

الخوارج ومذهب أهل السنة والجماعة فى الجوهر ، ولكنه اشتد على مرتكبى الذنوب التى نص عليها القرآن ، وكان ارتكابها شائعا فى ذلك الحين . وقد انضم إليه كثير من الخوارج جاءوه من مختلف الأصقاع .

موقعة قديد فى الحج بين أبى حمزة الخارجى وعبد الواحد بن سليمان والى المدينة :

وعند نهاية سنة ١٢٩ ، لما كان موسم الحج ، بعث جيشا إلى مكة بقيادة أبى حمزة الخارجى . يتألف من ألف رجل تقريبا على رءوسهم عمائم سود وحمر [١] . وكان الذى يحج بالناس فى ذلك العام هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك الأموى ، والى المدينة ، فلم يتعرض لأبى حمزة بل عقد هدنة معه طوال أيام الحج ثم عاد إلى المدينة . ومن المدينة أرسل جيشا ضد أبى حمزة تحت إمرة عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان الأموى [٢] . وكان هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف رجل كانوا كالدهماء ليس عليهم سيماء المقاتلين الحقيقيين ، وكان فيهم كثير من بنى قريش . يلبسون فاخر الثياب ، وقد ظنوا أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد نزهة حربية ، وبخاصة الأمويون - وكان لا يزال بالمدينة منهم عدد كبير - وكانوا متكبرين متعجرفين فى حديثهم عن هذه الخشارة من الرعاع . فهكذا كانوا يتصورون الخوارج . زحف أبو حمزة ضد جيش أهل المدينة . والتقى الجمعان فى قديد يوم الخميس التاسع من صفر سنة ١٣٠ هـ [٣] . وحاول أولاً إقناعهم بالحسنى أن قضية الخوارج هى بعينها قضية أهل المدينة ، وهى مقاومة حكومة بنى أمية ، ولم يشأ أن يبدأ القتال إلا بعد أن هاجمه جيش العدو وجرحوا برمية منهم أحد رجاله ، فتبين له حينئذ أن إراقة دمائهم حلال . فوثب على جيش المدينة وثبة نكراء اضطرت هذا الجيش إلى الفرار ، ولكنه منع من مطاردته . أما القرشيون - وهم يمثلون الحكومة الكافرة (حكومة بنى أمية) - فلم يراع معهم أى اعتبار . وامتلأ ميدان المعركة بجثث قتلاهم ومن بينهم قائدهم عبد العزيز . والأسرى الذين رفضوا التنصل من مذهبهم كان جزاؤهم القتل . ومن هنا كانت

---

(١) الأغانى : ج٢٠ ص ٩٩ ، ص١١٢ . والواقدى - كما نقله الطبرى ص ٣٠٠٨ .

(٢) (الأغانى ص ١٠٠) والواقدى (الطبرى ص ٢٠٠٩) أما المدائنى (الأغانى ص ١٠٠) فيذكره باسم عبدالعزيز بن عمر بن عبد العزيز ، ولكنه هو نفسه يقول بعد ذلك (ص ١٠١) إنه من نسل الخليفة عثمان فكأنه أخطأ إذن ، اللهم إلا أن يكون الخطأ من أحد النساخ . على أنه لعله قد أخطأ أيضا حينما جعل عبد الواحد واليا على مكة ، وعبد العزيز واليا على المدينة . تاريخ الدولة العربية الكبرى .

(٣) يوم الخميس ١٩ من أكتوبر سنة ٧٤٧ . (الأغانى : ج ٢٠ ص ١٠١ ، الطبرى : ج ٣ ص ٢٠٠٩) .

الضجة حول معركة قديد ، ولذلك سر الناس أن كانت المذبحة فى السادة المتكبرين ، الذين كانوا دائما يتركون لغيرهم التقاط القسطل لهم من النار . ومن ثم ، أصبح الطريق إلى المدينة مفتوحا أمام أبى حمزة ، فدخلها فى ١٣ من صفر (٢٣ من أكتوبر سنة ٧٤٧) دون أى قتال بعد أن خلاها الوالى عبد الواحد بن سليمان (١) .

أبو حمزة يحكم المدينة ويثير الناس ضد بنى أمية : ظل أبو حمزة قرابة ثلاثة أشهر فى المدينة . لقد كان محاربا ممتازا ، لكنه كان بطبعه كاتبا وخطيبا واعظا . ولابد أن تكون خطبه التى ألقاها على منبر الرسول فى المدينة قد جمعت (٢) ، ونقل عنها هارون فى روايته طائفة كبيرة بعضها طويل . وفيها يصور بالأمثلة الصارخة مدى البعد بين حكومة عصره وبين نموذج الحكم كما رسمه الرسول والخليفتان الأول والثانى (أبو بكر وعمر) . وكان يهدف إلى إفهام أهل المدينة أن ماضيهم كله يقضى عليهم بأن يكونوا على وفاق مع الخوارج فى محاربة بنى أمية ، ولكن أهل المدينة لم يستخلصوا النتيجة لذلك ، ولم يساعدوا على إسقاط الحكومة الجائرة .

أبو حمزة يعلن مبادئه : وراح يقارنهم بآبائهم الذين تقبلوا الرسول وآووه ونصروه مع أن الناس كلهم كانوا أعداءه ولم يكن معه إلا قلة من الشباب والمغمورين . وما يقولونه الآن ضد الخوارج كان أهل مكة يعيرون به الرسول . وهذه الكلمات كانت تستهوى نفوس السامعين . ولكن أبا حمزة لم يرفع علم الإسلام وحده فى ميدان المعركة ضد حكومة بنى أمية ، بل طالب أيضا كل فرد بأن يرعى الأوامر والنواهى الدينية الأخلاقية : فمن زعم أن الله يكلفنا ما لا طاقة لنا به فهو عدو الله وعدونا . وتشدد خصوصا فى أمر الزنا وشرب الخمر ، وكان يعجب بعمر بن الخطاب لأنه وقع حد الخمر فى ثمانى عشرة حالة دون اعتبار لشخص الشارب . وهذا أمر لم يكن يستهوى أهل المدينة ، لأن المدينة كانت قد اشتهرت فى ذلك العهد بأنها أشد بلاد الإسلام إغراقا فى اللهو والمجون . وعلى الرغم من اعترافهم بأن أبا حمزة يحكم بالعدل ويريد الخير للناس ، فقد كانت الأغلبية معرضة عنه . ولكنه كسب لنفسه

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٢ ص ٢٠١٢ .

(٢) جمعها ابن فضالة النحوى (الأغانى : ج٢٠ ص ١٠٥ س ٢٧) .

بعض الأنصار ، الذين لم يقتصروا على المساكين والفقراء من أمثال عبد العزيز بشكست النحوى القارئ، وهوإيرانى المولد ، بل كان فيهم أمثال أبى بكربن محمد حفيدعبدالله بن عمر ، و ابن حفيد عمر بن الخطاب الخليفة الثانى (١) .

وكان لابد – من أجل القضاء على هذه الفتنة – من الالتجاء إلى أهل الشام مرة أخرى . ففى مستهل جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ زحف من أهل الشام جيش يبلغ أربعة آلاف ، معظمهم من القيسية ، متوجهًا إلى المدينة ، وهم بقيادة عبد الملك بن عطية من بنى سعد هوازن (٢) . فانتصر ابن عطية مرة أخرى وأمر بقتل الأسرى وصلب زعماء الخوارج (ومن بينهم أبو حمزة) . وبعد أن أقام مدة طويلة فى الطائف هجم على خليفة الخوارج طالب الحق نفسه فهزمه وقتله واستولى على العاصمة صنعاء بعد حصار لم يستمر طويلا ، واستولى كذلك على حضرموت (٣) .

وحوالى نهاية سنة ١٣٠ هـ أراد الرجوع إلى مكة بأسرع ما يستطيع ومعه قليل من أصحابه ، لأن الخليفة أسند إليه أمر الحج بالناس . وفى أثناء الطريق فاجأه رجلان من بنى مراد ، هما ابنا جمانة ، حسباه لصا فقتلاه .

كان (الإباضية) ألين عريكة من إخوانهم الخوارج ، لم يكن هدفهم – مع طهارتهم وشدة تمسكهم بالدين – أن ينتصروا على جماعة المسلمين بالقوة ، بل أن يكسبوهم لمذهبهم .

وهكذا تفرق الخوارج ، وفقدوا ما كان لهم من شأن . وبعد أن كانوا أقدم حزب يناوئ الخلافة الرسمية ، أصبحوا مفرقين فى وسط العالم الإسلامى يؤلفون جماعات صغيرة لها مذاهبها الخاصة التى تنطوى على بغض وكراهية لنظم المجتمع على نحو أشد وأقسى من أسلافهم الخوارج الأولى .

---

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٠١٢ .

(٢) راجع " الأغانى " : ج١ ص ٨٣ وما يليها أيضا . وهنا يذكر اسم عبد الملك كاملاً ، وكان عطية أبا جده .

(٣) أفرد "الأغانى" (ج٢٠ ص ١١١ وما يليها) مرثية طويلة تنعى من قتل من رؤساء الإباضية مع ذكر أسمائهم .

٣ ـ من فرق الخوارج الثانية

(١) الأزارقة وأخلاط من المجوسية والزنادقة :

أصحاب " أبى راشد[١] : نافع بن الأزرق " الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز ، فغلبوا عليها ، وعلى كورها ، وما وراءها من بلدان : فارس وكرمان ، فى أيام عبد الله بن الزبير ، وقتلوا عماله بهذه النواحى . وكان مع نافع من أمراء الخوارج : عطية بن الأسود الحنفى ، وعبد الله بن ماخون وأخواه عثمان والزبير ، وعمرو بن عمير العنبرى ، وقطرى بن الفجاءة المازنى ، وعبيدة بن هلال اليشكرى ، وأخوه محرز بن هلال ، وصخر بن حبيب التميمى ، وصالح بن مخراق العبدى ، وعبد ربه الكبير ، وعبد ربه الصغير . . . فى زهاء ثلاثين ألف فارس ، ممن يرى رأيهم ، وينخرط فى سلكهم فأخرج إليهم ابن كريز بن حبيب ، فقتله الخوارج ، وهزموا أصحابه . فأخرج إليهم أيضا عثمان بن عبد الله بن معمر التميمى فهزموه . فأخرج إليهم حارثة بن بدر العتابى فى جيش كثيف ، فهزموه ، وخشى أهل البصرة على أنفسهم وبلدهم من الخوارج . فأخرج إليهم المهلب بن أبى صفرة ، فبقى فى حرب الأزارقة تسع عشرة سنة إلى أن فرغ من أمرهم فى أيام الحجاج . ومات نافع قبل وقائع المهلب مع الأزارقة ، وبايعوا بعده قطرى بن الفجاءة المازنى ، وسموه : أمير المؤمنين .

بدع الأزارقة ثمانية : إحداها : أنه أكفر عليا - رضى الله عنه - وقال : إن الله أنزل فى شأنه : **﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويُشهدُ الله على ما فى قلبه**

---

(١) يراجع : الفرق بين الفرق ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد . الملل والنحل - الشهرستانى - تحقيق د . محمد بن فتح الله بدران - مقالات الإسلاميين . . أبو الحسن الأشعرى ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد .

وهو ألد الخصام ﴾[1] . وصوب : عبد الرحمن بن ملجم (لعنه الله) وقال : إن الله تعالى أنزل فى شأنه : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾[2] .

وقال عمران بن حطان وهو : مفتي الخوارج ، وزاهدها ، وشاعرها الأكبر ، فى ضربة ابن ملجم (لعنه الله) لعلى - رضى الله عنه - :

يا ضربة من منيب ما أراد بها **** إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره يوما فأحسبه **** أوفى البرية عند الله ميزانا

وعلى هذه البدعة مضت الأزارقة ، وزادوا عليه تكفير : عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وسائر المسلمين معهم ، وتخليدهم فى النار جميعا .

والثانية : أنه أكفر القعدة . وهو أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال ، وإن كان موافقا له على دينه ، وأكفر من لم يهاجر إليه .

والثالثة : إباحته قتل أطفال المخالفين والنسوان منهم .

والرابعة : إسقاطه الرجم عن الزانى ، إذ ليس فى القرآن ذكره ، وإسقاطه حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال ، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء .

والخامسة : حكمه بأن أطفال المشركين فى النار مع آبائهم .

والسادسة : أن التقية غير جائزة فى قول ولا عمل .

والسابعة : تجويزه أن يبعث الله تعالى نبيا يعلم أنه يكفر بعد نبوته ، أو كان كافرا قبل البعثة . والكبائر والصغائر : كانت بمثابة واحدة عنده ، وهى كفر . وفى الأمة من جوز الكبائر والصغائر على الأنبياء عليهم السلام ، فهى كفر .

والثامنة : اجتمعت الأزارقة على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر ملة ، وخرج به عن الإسلام جملة ، ويكون مخلدا فى النار مع سائر الكفار . واستدلوا بكفر إبليس ، وقالوا : ما ارتكب إلا كبيرة حيث أمر بالسجود لآدم عليه السلام فامتنع ، وإلا ، فهو عارف بوحدانية الله تعالى .

---

(١) البقرة : ٢٠٤ .

(٢) البقرة : ٢٠٧ .

ونافع بن الأزرق الحنفى المكنى بأبى راشد هو أبو راشد نافع بن الأزرق بن قيس بن نهار ، أحد بنى الدول ابن حنيفة . كان أول خروجه بالبصرة فى عهد عبد الله بن الزبير ، وفى سنة ٦٥ اشتدت شوكته وكثرت جموعه ، فبعث إليه عبد الله بن الحارث مسلم بن عيسى بن كريز بن ربيعة على رأس جيش كثيف ، فاشتد بينهم القتال حتى قتل مسلم أمير الجيش وقتل نافع أمير الخوارج ، فى جمادى الآخرة . ولم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عددا ولا أشد منهم شوكة [١] .

والذى جمعهم من الدين أشياء :

منها : قولهم بأن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون ، وكانت المحكمة الأولى يقولون : إنهم كفرة لا مشركون .

ومنها : قولهم إن القعدة [٢] - ممن كان على رأيهم - عن الهجرة إليهم مشركون ، وإن كانوا على رأيهم .

ومنها : أنهم أوجبوا امتحان من قصد عسكرهم إذا ادعى أنه منهم : أن يدفع إليه أسير من مخالفيهم ويأمروه بقتله ، فإن قتله صدقوه فى دعواه أنه منهم ، وإن لم يقتله قالوا : هذا منافق ومشرك ، وقتلوه .

ومنها : أنهم استباحوا قتل نساء مخالفيهم ، وقتل أطفالهم ، وزعموا أن الأطفال مشركون ، وقطعوا بأن أطفال مخالفيهم مخلدون فى النار .

واختلفوا فى أول من أحدث ما انفردت الأزارقة به من إكفار القعدة عنهم ، ومن امتحان من قصد عسكرهم .

---

(١) خطط المقريزى : ٢/ ٣٥٤ - وكامل ابن الأثير : ٤/ ٨١ - وشرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد : ١/ ٣٨٠ وما بعدها - وكامل المبرد : ٢/ ١٧١ ـ و ١٨٠ والمعارف: ص ٦٢٢ .

(٢) يقال " القَعَد " : جمع قاعد ، ونظيره حارس وحرس وخادم وخدم . ويقال " قَعَدَة " بالتاء ، ونظيره كافر وكفرة وفاجر وفجرة وفاسق وفسقة . والقعدة : غلب على قوم من الخوارج قعدوا عن نصرة علىٍّ وعن مقاتلته أيضا . وينسب إليهم فيقال : قعدى . وفى شعر الحسن بن هانئ المشهور بأبى نواس :

فكأنى وما أزين منها ***** قعدى يزين التحكيما

فمنهم من زعم أن أول من أحدث ذلك منهم عبد ربه الكبير، ومنهم من قال : عبدربه الصغير (١) .

ومنهم من قال : أول من قال ذلك رجل منهم اسمه عبد الله بن الوضين، وخالف نافع بن الأزرق في ذلك، واستتابه منه . فلما مات ابن الوضين رجع نافع وأتباعه إلى قوله ، وقالوا : كان الصواب معه . ولم يكفر نافع نفسه بخلافه إياه حين خالفه ، وأكفر من يخالفه بعد ذلك . ولم يتبرأ من المحكمة الأولى في تركهم إكفار القعدة عنهم، وقال : إن هذا شيء ما زلنا نأخذ به دونهم ، وأكفر من يخالفهم بعد ذلك في إكفار القعدة عنهم .

وزعم نافع وأتباعه أن دار مخالفيهم دار كفر ، ويجوز فيها قتل الأطفال والنساء . وأنكرت الأزارقة الرجم ، واستحلوا كفر الأمانة التي أمر الله تعالى بأدائها ، وقالوا : إن مخالفينا مشركون ، فلا يلزمنا أداء أماناتنا إليهم ، ولم يقيموا الحد على قاذف الرجل المحصن ، وأقاموه على قاذف المحصنات من النساء ، وقطعوا يد السارق في القليل والكثير ، ولم يعتبروا في السرقة نصابا .

وأكفرتهم الأمة في هذه البدع التي أحدثوها بعد كفرهم الذي شاركوا فيه المحكمة الأولى ، فباءوا بكفر على كفر ، كمن باء بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين .

ثم الأزارقة بعد اجتماعها على البدع التي حكيناها عنهم بايعوا نافع بن الأزرق ، وسموه أمير المؤمنين . وانضم إليهم خوارج عمان واليمامة فصاروا أكثر من عشرين ألفا ، واستولوا على الأهواز وما وراءها من أرض فارس وكرمان وجبوا خراجها ، وعامل البصرة يومئذ عبد الله بن الحارث الخزاعي من قبل عبد الله بن الزبير ، فأخرج عبد الله بن الحارث جيشا مع مسلم بن عبس بن كريز بن حبيب بن عبد شمس لحرب الأزارقة ، فاقتتل الفريقان في دروب الأهواز ، فقتل مسلم بن عبس وأكثر أصحابه ، فخرج إلى حربهم من البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي في ألفي فارس ،

(١) كان عبد ربه الصغير قبل أن يتردى في المهواة معلم كتاب . وكان عبد ربه الكبير بائع رمان ، وكلاهما من موالي قيس بن ثعلبة . وأول ظهورهما أن الخوارج ذهبوا إلى قطرى بن الفجاءة يشكون من رجل قطرى يقدمه عليهم . فلم يشكهم منه . فقال القوم لقطرى : فإنا قد خلعناك . وبايعنا عبد ربه الصغير . وانفصل إلى عبد ربه الصغير أكثر من شطرهم، وجلهم من الموالي والعجم (انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٠ . وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١/ ٤٠٣ . وانظر بنوع خاص كامل المبرد : ٢/ ٢٣١ و ٢٣٧ و ٢٤٣ وما بعدها، ط الخيرية ١٣٠٨) .

فهزمته الأزارقة ، فخرج إليهم حارثة بن بدر الغدانى فى ثلاثة آلاف من جند البصرة ، فهزمتهم الأزارقة .

كتب عبد الله بن الزبير من مكة إلى المهلب بن أبى صفرة (١) وهو يومئذ بخراسان يأمره بحرب الأزارقة وولاه ذلك ، فرجع المهلب إلى البصرة ، وانتخب من جندها عشرة آلاف ، وانضم إليه قومه من الأزد ، فصار فى عشرين ألفا ، وخرج وقاتل الأزارقة وهزمهم ، ومات نافع بن الأزرق فى تلك الهزيمة . وبايعت الأزارقة بعده عبيد الله بن مأمون التميمى ، وقاتلهم المهلب بعد ذلك بالأهواز فقتل عبيد الله بن مأمون فى تلك الواقعة ، وقتل أيضا أخوه عثمان بن مأمون مع ثلاثمائة من أشد الأزارقة ، وانهزم الباقون منهم إلى أيدج وبايعوا قطرى بن الفجاءة (٢) وسموه أمير المؤمنين . وقاتلهم المهلب بعد ذلك حروبا كانت سجالاً ، وانهزمت الأزارقة فى آخرها إلى سابور من أرض فارس ، وجعلوها دار هجرتهم .

وثبت المهلب وبنوه وأتباعهم على قتالهم تسع عشرة سنة ، بعضها فى أيام عبد الله ابن الزبير ، وباقيها فى زمان خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج على العراق . وقرر الحجاج المهلب على حرب الأزارقة فدامت الحرب فى تلك السنين بين المهلب وبين الأزارقة كرا وفرا فيما بين فارس والأهواز ، إلى أن وقع الخلاف بين الأزارقة ففارق عبد ربه الكبير قطريا وصار إلى واد بجيرفت كرمين فى سبعة آلاف رجل ، وفارقه عبد ربه الصغير فى أربعة آلاف ، وصار إلى ناحية أخرى من كرمان . وبقى قطرى فى بضعة عشر ألف رجل بأرض فارس ، وقاتله المهلب بها ، وهزمه إلى أرض كرمان ، وتبعه وقاتله بأرض كرمان وهزمه منها إلى الرى ، ثم قاتل عبد ربه الكبير فقتله ، وبعث بابنه يزيد بن المهلب إلى عبد ربه الصغير فأتى عليه وعلى أصحابه .

وبعث الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبى فى جيش كثيف إلى قطرى بعد أن انحاز من

(١) هو أبو سعيد : المهلب بن أبى صفرة - واسم أبى صفرة ظالم بن سراق، الأزدى ، من أزد العتيك . كان المهلب من أشجع الناس ، وهو الذى حمى البصرة من الخوارج حتى سماها الناس بصرة المهلب . ولاه عبدالله بن الزبير خراسان فى سنة ٦٥ ، فحارب الأزارقة وأفنى منهم عدداً كثيرا ، ثم ولى قتالهم فى عهد عبد الملك بن مروان ، وفى شهر ذى الحجة من سنة ٨٢ مات (المعارف: ٣٩٩ - والعبر : ١/ ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٥) .

(٢) هو أبو نعامة : قطرى بن الفجاءة ، أحد بنى حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، خرج فى أيام عبد الله بن الزبير ، وبقى عشرين سنة يسلم عليه بالخلافة ، وفى أيام عبد الملك بن مروان وجه إليه الحجاج جيشا بعد جيش ، وكان آخرها بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى ، فقتله - ويقال : عثرت به فرسه فمات ، وأتى الحجاج برأسه ، وذلك فى سنة ٧٩ (المعارف: ٤١١ - العبر : ١/ ٩٠) .

الرى إلى طبرستان فقتلوه بها ، وأنفذوا برأسه إلى الحجاج ، وكان عبيدة بن هلال اليشكرى [1] قد فارق قطريا وانحاز إلى قومس ، فتبعه سفيان بن الأبرد وحاصره فى حصن قومس ، إلى أن قتله وقتل اتباعه ، وطهر الله بذلك الأرض من الأزارقة ، والحمد لله على ذلك .

قال أحدهم للمهلب : ما رأيت قوما أصبر ولا أشد بأسا من القوم الذين يقاتلونك ، والله ما يعينك عليهم إلا الله . وقال المهلب فى وصفهم : إنهم سباع العرب .

(٢) النجدات [2] منهم :

هؤلاء أتباع نجدة بن عامر الحنفى . [3] وكان السبب فى رياسته وزعامته أن نافع بن الأزرق لما أظهر البراءة من القعدة عنه بعد أن كانوا على رأيه ، وسماهم مشركين ، واستحل قتل أطفال مخالفيه ونسائهم ، وفارقه أبو فديك ، وعطية الحنفى ، وراشد الطويل ، ومقلاص ، وأيوب الأزرق ، وجماعة من أتباعهم ، ذهبوا إلى اليمامة ، فاستقبلهم نجدة بن عامر فى جند من الخوارج يريدون اللحوق بمعسكر ناعف ، فأخبروهم بأحداث نافع ، وردوهم إلى اليمامة ، وبايعوا بها نجدة بن عامر ، وأكفروا من قال بإكفار القعدة منهم عن الهجرة إليهم ، وأكفروا من قال بإمامة نافع ، وأقاموا على إمامة نجدة ، إلى أن اختلفوا عليه فى أمور نقموها منه . فلما اختلفوا عليه صاروا ثلاث فرق :

---

(١) عبيدة بن هلال : أحد بنى يشكر بن بكر بن وائل . وهو الذى يقول عن نفسه :

أنا ابن خير قومه هلال **** شيخ على دين أبى بلال

وذاك دينى آخر الليالى

(انظر كامل ابن الأثير : ٤/ ٨١، وكامل المبرد : ٢/ ٢٣٢ ومقالات الأشعرى : ١/ ١٦٠) .

(٢) انظر فى شأن هذه الفرقة : مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٢ وما بعدها ، والتبصير : ص ٣٠ ، والملل والنحل للشهرستانى : ١/ ١٢٢ وما بعدها ، وخطط المقريزى : ٢/ ٣٥٤ .

(٣) نجدة بن عامر الحنفى ، استولى على اليمامة والبحرين فى سنة ٦٦ ، وكان منه ما ذكر المؤلف بعضه ، وفى سنة ٦٩ قتله أصحابه (العبر : ١/ ٧٤، ٧٧) .

١ - فرقة صارت مع عطية بن الأسود الحنفى (١) إلى سجستان ، وتبعتهم خوارج سجستان ، ولهذا قيل لخوارج سجستان فى ذلك الوقت " عطوية " .

٢ - وفرقة صارت مع أبى (٢) فُديك حربا على نجدة ، وهم الذين قتلوا نجدة .

٣ - وفرقة عذروا نجدة فى أحداثه وأقاموا على إمامته .

والذى نقمه على نجدة أتباعه أشياء :

منها : أنه بعث جيشا فى غزو البر ، وجيشا فى غزو البحر ، ففضل الذين بعثهم فى البر على الذين بعثهم فى البحر فى الرزق والعطاء .

ومنها : أنه بعث جيشا ، فأغاروا على مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأصابوا منها جارية من بنات عثمان بن عفان ، فكتب إليه عبد الملك فى شأنها ، فاشتراها من الذى كانت فى يديه وردها إلى عبد الملك بن مروان ، فقالوا له : إنك رددت جارية لنا على عدونا .

ومنها : أنه عذر أهل الخطإ فى الاجتهاد بالجهالات . وكان السبب فى ذلك أنه بعث ابنه المضرج مع جند من عسكره إلى القطيف ، فأغاروا عليها ، وسبوا منها النساء والذرية ، وقوموا النساء على أنفسهم ، ونكحوهن قبل إخراج الخُمس من الغنيمة ، وقالوا : إن دخلت النساء فى قسمنا فهو مرادنا ، وإن زادت فيهن على نصيبنا من الغنيمة غرمنا الزيادة من أموالنا . فلما رجعوا إلى نجدة سألوه عما فعلوا من وطء النساء ومن أكل طعام الغنيمة قبل إخراج الخمس منها وقبل قسمة أربعة أخماسها بين الغانمين ، فقال لهم : لم يكن لكم ذلك . فقالوا : لم نعلم أن ذلك لا يحل لنا . فعذرهم بالجهالة ، ثم قال : إن الدين أمران أحدهما : معرفة الله تعالى ، ومعرفة رسله ، وتحريم دماء المسلمين ، وتحريم غصب أموال المسلمين ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى جملة ، فهذا واجب معرفته على كل مكلف ، وما سواه فالناس معذورون بجهالته حتى تقام عليهم الحجة فى الحلال والحرام ، فمن استحل باجتهاده

---

(١) قال المقريزى : " عطية بن الأسود : بعثه نجدة إلى سجستان ، فأظهر مذهبه بمرو ، فعرفت أصحابه بالعطوية " ، وذكر مقالتهم (٢/ ٣٥٤) . وقال الأشعرى : " فأما عطية بن الأسود الحنفى وأصحابه الذين يسمون العطوية ، فإنه لم يحدث قولا أكثر من أنه أنكر على نافع ما أحدثه من أقاويله ففارقه ، ثم أنكر على نجدة ففارقه ومضى إلى سجستان " (١/ ١٦٤) .

(٢) يقول الأشعرى (المقالات : ١/ ١٦٩) : " ومن الخوارج الفديكية أصحاب أبى فديك ولا نعلم أنهم تفردوا بقول أكثر من إنكارهم على نافع ونجدة " . وانظر أيضا كامل المبرد : ٢/ ٢٥١ .

شيئا محرما فهو معذور ، ومن خاف العذاب على المجتهد المخطئ قبل قيام الحجة عليه فهو كافر .

ومن بدع نجدة أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه ، وقال : لعل الله يعذبهم بذنوبهم فى غير نار جهنم ، ثم يدخلهم الجنة . وزعم أن النار يدخلها من خالفه فى دينه .

ومن ضلالاته أيضا أنه أسقط حد الخمر .

ومنها أيضا أنه قال : من نظر نظرة صغيرة ، أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك ، ومن زنى ، وسرق ، وشرب الخمر غير مصر عليه فهو مسلم ، إذا كان من موافقيه على دينه .

فلما أحدث هذه الأحداث وعذر أتباعه بالجهالات ، استتابه أكثر أتباعه من أحداثه ، وقالوا له : اخرج إلى المسجد وتب من أحداثك . ففعل ذلك .

ثم إن قوما منهم ندموا على استتابته ، وانضموا إلى العاذرين له ، وقالوا له : أنت الإمام ولك الاجتهاد ، ولم يكن لنا أن نستتيبك ، فتب من توبتك ، واستتب الذين استتابوك وإلا نابذناك . ففعل ذلك ، فافترق عليه أصحابه وخلعه أكثرهم ، وقالوا له : اختر لنا إماما ، فاختار أبا فديك وصار راشد الطويل مع أبى فديك يدا واحدة .

فلما استولى أبو فُدَيك على اليمامة علم أن أصحاب نجدة إذا عادوا من غزواتهم أعادوا نجدة إلى الإمارة ، فطلب نجدة ليقتله ، فاختفى نجدة فى دار بعض عاذريه ينتظر رجوع عساكره الذين كان قد فرقهم فى سواحل الشام ونواحى اليمن ، ونادى منادى أبى فديك : من دلنا على نجدة فله عشرة آلاف درهم ، وأى مملوك دلنا عليه فهو حر . فدلت عليه أمة للذين كان نجدة عندهم ، فأنفذ أبو فديك راشدا الطويل فى عسكر إليه ، فكبسوه وحملوا رأسه إلى أبى فديك .

فلما قتل نجدة صارت النجدات بعده ثلاث فرق :

١ - فرقة أكفرته وصارت إلى أبى فديك ، كراشد الطويل ، وأبى بيهس ، وأبى الشمراخ وأتباعهم .

٢ - وفرقة عذرته فيما فعل ، وهم النجدات اليوم .

٣ - وفرقة من النجدات بعدوا عن اليمامة ، وكانوا بناحية البصرة شكوا فيما حكى من أحداث نجدة وتوقفوا فى أمره ، وقالوا : لا ندرى هل أحدث تلك الأحداث أم لا ، فلا نبرأ منه إلا باليقين .

وبقى أبو فديك بعد قتل نجدة ، إلى أن بعث إليه عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمى فى جند ، فقتلوا أبا فديك ، وبعثوا برأسه إلى عبد الملك بن مروان . فهذه قصة النجدات .

(٣) الصُّفْرِيَّة من الخوارج [1] :

هؤلاء أتباع زياد بن الأصفر ، وقولهم فى الجملة كقول الأزارقة فى أن أصحاب الذنوب مشركون ، غير أن الصفرية لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم ، والأزارقة يرون ذلك .

وقد زعمت فرقة من الصفرية أن ما كان من الأعمال عليه حد واقع لا يسمى صاحبه إلا بالاسم الموضوع له ، كزان ، وسارق ، وقاذف ، وقاتل ، وليس صاحبه كافرا ولا مشركا . وكل ذنب ليس فيه حد كترك الصلاة والصوم فهو كفر وصاحبه كافر . وإن المؤمن المذنب يفقد اسم الإيمان فى الوجهين جميعا .

وفرقة ثالثة من الصفرية قالت بقول من قال من البيهسية : إن صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالى فيحده . فصارت الصفرية على هذا التقدير ثلاث فرق :

١ - الأولى : تزعم أن صاحب كل ذنب مشرك ، كما قالت الأزارقة .

٢ - والثانية : تزعم أن اسم الكفر واقع على صاحب ذنب ليس فيه حد ، والمحدود فى ذنبه خارج عن الإيمان وغير داخل فى الكفر .

٣ - والثالثة : تزعم أن اسم الكفر يقع على صاحب الذنب إذا حده الوالى على ذنبه .

وهذه الفرق الثلاث من الصُّفْرية يخالفون الأزارقة فى الأطفال والنساء كما بيناه قبل هذا . وكل الصفرية يقولون بموالاة عبد الله بن وهب الراسبى ، وحرقوص بن زهير وأتباعهما من المحكمة الأولى . ويقولون بإمامة أبى بلال مرداس الخارجى بعدهم ، وبإمامة عمران بن حطان السدوسى بعد أبى بلال .

---

(١) انظر فى مقالة هذه الفرقة : مقالات الإسلاميين : ١-١٦٩٠ والتبصير : ص٣١ . والملل والنحل للشهرستانى : ١/ ١٣٧٠ ويقال لهم " الصفرية " جمع صُفْرى بضم الصاد وسكون الفاء - وهو يحتمل وجهين : الأول أن يكون نسبة إلى الصفرة إشارة إلى صُفرة وجوههم من أثر ما تكلفوه من السهر والعبادة . والثانى : أن يكون نسبة إلى جمع الأصفر الذى هو زياد الذى تنسب إليه هذه المقالة ، وجاز النسب إلى الجمع ولم يرد إلى الواحد ، لأنه أشبه المفرد بسبب كونه قد جعل علما . وانظر كامل المبرد : ٢/ ١٨٠ .

فأما أبو [١] بلال مرداس فإنه خرج فى أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة على عبيد الله بن زياد ، فبعث إليه عبيد الله بن زياد زرعة بن مسلم العامرى [٢] فى ألفى فارس . وكان زرعة يميل إلى قول الخوارج . فلما اصطف الفريقان للقتال، قال زرعة لأبى بلال : أنتم على الحق ولكنا نخاف من ابن زياد أن يسقط عطاءنا فلابد لنا من قتالكم . فقال له أبو بلال : وددت لو كنت قبلت فيكم قول أخى عروة ؛ فإنه أشار علىّ بالاستعراض قريب وزحاف الناس فى طرقهم بالسيف ، ولكنى خالفتهما وخالفت أخى . ثم حمل أبو بلال وأتباعه على زرعة وجنده فهزموهم ، ثم إن عبيد الله بن زياد بعث إليه بعباد بن أخضر التميمى [٣] فقاتل أبا بلال بنوج وقتله مع أتباعه . فلما ورد على ابن زياد خبر قتل أبى بلال قتل من وجدهم بالبصرة من الصفرية ، وظفر بعروة أخى مرداس، فقال له : أشرت على أخيك مرداس بالاستعراض للناس ، فقد انتقم الله للناس منك ومن أخيك . ثم أمر به فقطعت يداه ورجلاه ، وصلبه .

فلما قتل مرداس اتخذت الصفرية عمران بن [٤] حطان إماما ، وهو الذى رثى مرداسا بقصائد يقول فى بعضها [٥] :

أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ✻✻✻ ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

---

(١) هو أبو بلال : مرداس بن حدير ، أحد بنى ربيعة بن حنظلة . ويقال : مرداس بن أدية ، وأدية - بزنة المصغر - جدة له جاهلية ، وقيل : أمه . وهو أخو عروة بن حدير الذى سبقت ترجمته فى ص ٧٧ ، وحديثه طويل فى كامل المبرد : ٢/ ١٥٤ وما بعدها . وانظر المراجع التى ذكرناها فى ترجمة عروة أخيه .

(٢) سماه المبرد فى الكامل (٢/ ١٥٧) أسلم بن زرعة ، وساق حديثا عنه فى تركه قتال أبى بلال ، وقوله : لأن يذمنى ابن زياد حيا خير من أن يمدحنى ميتا .

(٣) قال أبو العباس المبرد : " عباد بن أخضر ، وليس هو بابن أخضر ، هو عباد بن علقمة المازنى ، وكان أخضر زوج أمه ، فغلب عليه " اهـ (الكامل ٢/ ١٥٨) وساق حديثا عنه ، وأن عبادا اهتبل اشتغال الخوارج بصلاة الجمعة - بعد أن كان الفريقان اتفقا على الموادعة وترك القتال حتى يؤدوا صلاتهم - فمال عليهم ميلة فقتلهم جميعا ، وساق فى ص ١٦٠ حديث مقتل عباد .

(٤) عمران بن حطّان - بكسر الحاء وتشديد الطاء المهملتين - السدوسى ، البصرى ، أحد بنى عمرو بن شيبان ابن ذهب بن ثعلبة بن عكاية بن صعب بن على بن بكر بن وائل ، رأس من رءوس الخوارج ، وخطيبهم وشاعرهم البليغ ، مات فى سنة ٨٤ (العبر : ١/ ٩٨) .

(٥) البيت فى كامل المبرد (٢/ ١٠٨) ثالث خمسة أبيات ، ومعها أربعة أبيات لامية فى رثاء أبى بلال أيضا .

وكان عمران بن حطان هذا ناسكا شاعرا شديدا فى مذهب الصفرية . وبلغ من خبثه فى بغض [1] علىٍّ رضى الله عنه أنه رثى عبد الرحمن بن ملجم ، وقال فى ضربه عليا :

يا ضربة من منيب ما أراد بهـا **** إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانـا

إنى لأذكره يوما فأحسبـــــه **** أوفى البـرية عـند الله ميـزانـــا

قال عبد القاهر : وقد أجبناه عن شعره هذا بقولنا :

يا ضربة من كفور ما استفاد بها **** إلا الجزاء بما يصليـه نيرانـا

إنى لألعنه دينا ، وألعن مـــن **** يرجو له أبدا عفـوا وغفـرانـا

ذاك الشقى لأشقى الناس كلهـم **** أخفهم عند رب النـاس ميزانـا

(٤) العجاردة من الخوارج[2] :

العجاردة كلها أتباع عبد الكريم بن عجرد [3] . وكان عبد الكريم من أتباع عطية بن الأسود الحنفى . وكانت العجاردة مفترقة عشر فرق يجمعها القول بأن الطفل يدعى إذا بلغ ، وتجب البراءة منه قبل ذلك حتى يدعى إلى الإسلام أو يصفه هو . وفارقوا الأزارقة فى شىء آخر ، وهو أن الأزارقة استحلت أموال مخالفيهم بكل حال ، والعجاردة لا يرون أموال مخالفيهم فيئا إلا بعد قتل صاحبه . فكانت العجاردة على هذه الجملة إلى أن افترقت فرقها التى نذكرها بعد هذا :

---

(١) فى المطبوعتين جميعا " فى غزوة علىٍّ رضى الله عنه " .

(٢) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٤ - والتبصير : ص٣٢ - والملل والنحل : ١/ ١٢٨ .

(٣) قال فى لسان العرب : " وعجرد : اسم رجل من الحرورية ، والعجردية من الحرورية : ضرب ينسبون إليه . . . الجوهرى : العجاردة : صنف من الخوارج أصحاب عبد الكريم بن العجرد " اهـ .

الخـازمـية(1) : وهؤلاء أكـثـر عـجـاردة سـجـسـتـان ، وقـد قـالوا فى باب القدر، والاستطاعة ، والمشيئة بقول أهل السنة : أن لا خالق إلا الله ، ولا يكون إلا ما شاء الله ، وأن الاستطاعة مع الفعل . وأكفروا الميمونية الذين قالوا فى باب القدر والاستطاعة بقول القدرية المعتزلة عن الحق .

ثم إن الخازمية خالفوا أكثر الخوارج فى الولاية والعداوة ، وقالوا : إنهما صفتان لله تعالى ، وإن الله عز وجل إنما يتولى العبد على ما هو صائر إليه من الإيمان ، وإن كان فى أكثر عمره كافرا ، ويرى منه ما يصير إليه من الكفر فى آخر عمره ، وإن كان فى أكثر عمره مؤمنا ، وإن الله تعالى لم يزل محبا لأوليائه ومبغضا لأعدائه .

وهذا القول منهم موافق لقول أهل السّنة فى الموافاة ، غير أن أهل السّنة ألزموا الخازمية على قولها بالموافاة أن يكون علىٌّ ، وطلحة ، والزبير وعثمان من أهل الجنة لأنهم من أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ . (2) وقالوا لهم : إذا كان الرضا من الله تعالى عن العبد إنما يكون عمن علم أنه يموت على الإيمان ، وجب أن يكون المبايعون تحت الشجرة على هذه الصفة . وكان علىّ وطلحة والزبير منهم ، وكان عثمان يومئذ أسيرا فبايع له النبى عليه السلام(3) ، وجعل يده بدلا عن يده . وصح بهذا بطلان قول من أكفر هؤلاء الأربعة .

ذكر الشعيبية (4) : قول هؤلاء فى باب القدر والاستطاعة والمشيئة كقول الخازمية . وإنما ظهر ذكر الشعيبية حين نازع زعيمهم المعروف بشعيب رجلا من الخوارج اسمه ميمون ، وكان السبب فى ذلك أنه كان لميمون على شعيب مال ، فتقاضاه ، فقال له

---

(1) انظر مقالات الإسلاميين : 1/ 166 - والتبصير : 32 .

(2) من الآية 18 من سورة الفتح .

(3) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - حين صده كفار مكة عن دخولها - قد بعث عثمان بن عفان إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به ، فاحتبسته قريش عندها ، وبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال رسول الله - حين بلغه ذلك - " لا نبرح حتى نناجز القوم " ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه على ألا يفروا ، وبايع الرسول لعثمان : ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه عن عثمان . (انظر حديث ذلك فى سيرة ابن هشام : 3/ 363 - 365) .

(4) انظر فى الحديث عن هذه الفرقة : مقالات الإسلاميين : 1/ 165 - والتبصير : ص 32. والملل والنحل، للشهرستانى : 1/ 131 .

شعيب : أعطيكه إن شاء الله . فقال له ميمون : قد شاء الله ذلك الساعة . فقال شعيب : لو كان قد شاء ذلك لم أستطع ألا أعطيكه . فقال ميمون : قد أمرك الله بذلك ، وكل ما أمر به فقد شاءه ، وما لم يشأ لم يأمر به . فافترقت العجاردة عند ذلك. تبع قوم شعيبا ، وتبع آخرون ميمونا ، وكتبوا فى ذلك إلى عبد الكريم بن عجرد - وهو يومئذ فى حبس السلطان - فكتب فى جوابهم : إنما نقول : " ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن " ولا نلحق بالله سوءا . فوصل الجواب إليهم بعد موت ابن عجرد، وادعى ميمون أنه قال بقوله ، لأنه قال نقول " ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن " . ومالت الخازمية وأكثر العجاردة إلى شعيب، ومالت الحمزية مع القدرية إلى ميمون .

ثم زادت الميمونية على كفرها فى القدر نوعا من المجوسية ، فأباحوا نكاح بنات البنات وبنات البنين ، ورأوا قتال السلطان ومن رضى بحكمه فرضا ، فأما من أنكره فلا يرون قتله ، إلا إذا أغار عليهم ، أو طعن فى دينهم ، أو كان دليلا للسلطان .

وقد كان من جملة الميمونية رجل يقال له خلف ، ثم خالف الميمونية فى القدر والاستطاعة والمشيئة ، وقال فى هذه الثلاثة بقول أهل السنة ، وتبعه على ذلك خوارج كرمان ومكران ، فيقال لهم " الخليفة " وهم الذين قاتلوا حمزة بن أكرك الخارجى فى أرض كرمان .

الخليفة (١) : هم أتباع خلف الذى قاتل حمزة الخارجى ، والخليفة لا يرون القتال إلا مع إمام منهم . وصارت الخليفة إلى قول الأزارقة فى شىء واحد ، وهو دعواهم أن أطفال مخالفيهم فى النار .

ذكر المعلومية والمجهولية (٢) : هاتان فرقتان من جملة الخازمية . ثم إن المعلومية منهما خالفت سلفها فى شيئين :

أحدهما : دعواها أن من لم يعرف الله تعالى بجميع أسمائه فهو جاهل به ، والجاهل به كافر .

والثانى : أنهم قالوا : إن أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى .

---

(١) انظر فى شأن هذه الفرقة : مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٥ - والتبصير : ص ٣٢ . والملل والنحل : ١/ ١٣٠ .

(٢) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٦ . وقد أفرد كل واحدة منهما بحديث قصير ، ثم انظر التبصير : ٣٣ - ولم يذكر الشهرستانى المعلومية ولا المجهولية بين فرق العجاردة التى ذكرها .

ولكنهم قالوا فى الاستطاعة والمشيئة بقول أهل السنة فى أن الاستطاعة مع الفعل وأنه لا يكون إلا ما شاء الله .

وهذه الفرقة تدعى إمامة من كان على دينها وخرج بسيفه على أعدائه ، من غير براءة منهم عن القعدة عنهم .

وأما المجهولية منهم فقولهم كقول المعلومية ، غير أنهم قالوا : من عرف الله ببعض أسمائه فقد عرفه . وأكفروا المعلومية منهم فى هذا الباب .

الصلتية(١) : وهؤلاء منسوبون إلى صلت بن عثمان(٢) ، وقيل : صلت بن أبى الصلت ، وكان من العجاردة ، غير أنه قال : إذا استجاب لنا الرجل وأسلم توليناه وبرئنا من أطفاله ، لأنه ليس لهم إسلام حتى يدركوا فيدعون حينئذ إلى الإسلام فيقبلونه .

وبإزاء هذه الفرقة فرقة أخرى - وهى التاسعة من العجاردة - زعموا أنه ليس لأطفال المؤمنين ولا لأطفال المشركين ولاية ولا عداوة حتى يدركوا فيدعوا إلى الإسلام فيقبلوا أو ينكروا .

الحمزية(٣) : وهؤلاء أتباع حمزة بن أكرك الذى عاش فى سجستان ، وخراسان، ومكران ، وقهستان ، وكرمان ، وهزم الجيوش الكثيرة ، وكان فى الأصل من العجاردة الخازمية ، ثم خالفهم فى باب القدر والاستطاعة فقال فيهما بقول القدرية ، فأكفرته القدرية فى ذلك . ثم إنه والى القعدة من الخوارج مع قوله بتكفير من لا يوافقه على قتل مخالفيه من فرق هذه الأمة مع قوله بأنهم مشركون . وكان إذا قاتل قوما وهزمهم أمر بإحراق أموالهم وعقر دوابهم ، وكان مع ذلك يقتل الأسراء من مخالفيه .

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين : ١٦٦ - والتبصير : ص ٣٣ - والملل والنحل : ١/ ١٢٩ .

(٢) فى المقالات " عثمان بن أبى الصلت " ومثله فى خطط المقريزى ، وفى الملل والنحل " عثمان بن أبى الصلت ، أو الصلت بن أبى الصلت " .

(٣) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٥ - والتبصير : ص ٣٣ - والملل والنحل : ١/ ١٢٩ . وفيه " حمزة بن أدرك " .

وكان ظهوره فى أيام هارون الرشيد فى سنة تسع وسبعين ومائة ، وبقى فى فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، ولما استولى على بعض البلدان ، جعل قاضيه أبا يحيى يوسف بن بشار ، وصاحب جيشه رجلا اسمه حيوية بن معبد ، وصاحب حرسه عمرو بن صاعد . وكان معه جماعة من شعراء الخوارج كطلحة بن فهد ، وأبى الجلندى ، وأقرانهم . وبدأ بقتال البيهسية من الخوارج ، وقتل الكثير منهم ، فسموه عند ذلك أمير المؤمنين ، وقال الشاعر طلحة بن فهد فى ذلك :

أمير المؤمنين على رشـــاد ***** وخير هداية ، نعم الأميـــر

أمير يفضل الأمراء فضـــلا ***** كما فضل السها القمر المنير

ثم إن حمزة أسرى سرية إلى الخازمية من الخوارج بناحية فلجرد ، فقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم قصد بنفسه هراة ، فمنعه أهلها من دخولها ، فاستعرض الناس خارج المدينة ، وقتل منهم الكثير . فخرج إليه عمرو بن يزيد الأزدى - وهو يومئذ والى هراة - مع جنده فدامت الحرب بينهم شهورا ، وقتل من أرض هراة جماعة ، فقتل من أصحاب حمزة هيصم الشارى وكان داعية حمزة يدعو الناس إلى ضلالته . ثم أغار حمزة على كروخ من رستاق هراة ، وأحرق أموالهم وعقر أشجارهم . ثم حارب ابن يزيد الأزدى بقرب بوشنج وقتل عمرا .

ثم انتصب على بن عيسى بن ماديان - وهو يومئذ والى خراسان - لحرب حمزة ، فانهزم منه إلى أرض سجستان بعد أن قتل من قواده ستون رجلا سوى أتباعه . فلما وصل إلى سجستان ، منعه أهل زرنخ عن دخول البلد ، فاستعرض الناس بالسيف فى صحراء البلد . ثم تنكر لأهل زرنخ بأن ألبس أصحابه السواد يوهمهم أنهم أصحاب السلطان ، وأنذرهم بذلك منذر ، فمنعوه من دخول البلدة ، فعقر نخلهم فى سوادهم ، وقتل المجتازين فى صحاريهم .

ثم قصد نهر شعبة ، وقتل بها الكثير من الخوارج الخلفية ، وعقر أشجارهم ، وأحرق أموالهم . وانهزم منه رئيس للخلفية اسمه مسعود بن قيس ، وعبر فى هزيمته واديا وغرق فيه ، وشك أتباعه فى موته ، وهم ينتظرونه اليوم .

ثم رجع حمزة من كرمان ، وأغار فى طريقه على رستاق بست من رساتيق نيسابور ، وكان بهم قوم من الخوارج الثعالبة ، فقتلهم حمزة ودامت فتنة بخراسان ،

وكرمان ، وقهستان ، وسجستان ، إلى آخر أيام الرشيد وصدر من خلافة المأمون ، لاشتغال جند أكثر خراسان بقتال رافع بن ليث بن نصر بن سبار على باب سمرقند .

فلما تمكن المأمون من الخلافة ، كتب إلى حمزة كتابا استدعاه فيه إلى طاعته ، فما ازداد إلا عتوا فى أمره . فبعث المأمون بطاهر بن الحسين لقتال حمزة ، فدارت بين طاهر وحمزة حروب قتل فيها من الفريقين مقدار ثلاثين ألفا أكثرهم من أتباع حمزة ، وانهزم فيها حمزة إلى كرمان . وأتى طاهر على القعدة عن حمزة ممن كانوا على رأيه ، وظفر بثلاثمائة منهم ، فأمر بشد كل رجل منهم بالحبال بين شجرتين قد جذبت رءوس بعضها إلى بعض ، ثم قطع الحبل بين الشجرتين فرجعت كل واحدة من الشجرتين بالنصف من بدون المشدود عليها .

ثم إن المأمون استدعى طاهر بن الحسين من خراسان وبعث به إلى منصبه ، فطمع حمزة فى خراسان ، فأقبل فى جيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النيسابورى فى عشرين ألف رجل من غزاة نيسابور ونواحيها ، فهزموا حمزة باذن الله ، وقتلوا الألوف من أصحابه ، وانفلت منهم حمزة جريحا ، ومات فى هزيمته هذه ، وأراح الله عز وجل منه ومن أتباعه العباد بعد ذلك . وكانت هذه الواقعة التى هلك بعدها حمزة الخارجى القدرى من مفاخر أهل نيسابور ، والحمد لله على ذلك .

الثعالبة (١) : وهؤلاء أتباع ثعلبة بن مشكان . (٢) والثعالبة تدعى إمامته بعد عبدالكريم بن عجرد ، وتزعم أن عبد الكريم بن عجرد كان إماما قبل أن يخالفه ثعلبة فى حكم الأطفال ، فلما اختلفا فى ذلك كفر ابن عجرد ، وصار ثعلبة إماما . والسبب فى اختلافهما أن رجلا من العجاردة خطب إلى ثعلبة بنته ، فقال له : بين مهرها . فأرسل الخاطب امرأة إلى أم تلك البنت يسألها هل بلغت البنت ؟ فإن كانت قد بلغت ووصفت الإسلام على الشرط الذى تعتبره العجاردة لم يبال كم كان مهرها . فقالت أمها : هى مسلمة فى الولاية ، بلغت أم لم تبلغ ، فأخبر بذلك عبد الكريم بن عجرد وثعلبة بن مشكان ، فاختار عبد الكريم البراءة من الأطفال قبل البلوغ ، وقال ثعلبة نحن على

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٧ - والتبصير : ٣٣ - والملل والنحل : ١/ ١٣١ .

(٢) سماه فى الملل والنحل " ثعلبة بن عامر " ومثله فى خطط المقريزى ، فأما صاحب التبصير فذكر مثل الذى ذكره المؤلف ههنا ، وأما الأشعرى فلم يزد عن " ثعلبة " .

بتهم صغارا وكبارا إلى أن يبين لنا منهم انكار للحق . فلما اختلفا فى ذلك برئ كل د منهما من صاحبه ، وصار أتباع كل واحد منهما فرقا . وقد ذكرنا فرق العجاردة هذا .

وصارت الثعالبة بعد ذلك ست فرق :

فرقة أقامت على إمامة ثعلبة ولم تقل بإمامة أحد بعده ، ولم يكترثوا لما ظهر فيهم خلاف الأخنسية والمعبدية .

المعبدية (١) : والفرقة الثانية منهم معبدية قالت بإمامة رجل منهم بعد ثعلبة اسمه بد ، خالف جمهور الثعالبة فى أخذ الزكاة من العبيد وإعفائهم منها ، وأكثرهم من يقل بذلك ، وأكفره سائر الثعالبة فى قوله .

الأخنسية (٢) : والفرقة الثالثة منهم الأخنسية ، أتباع رجل منهم كان يعرف أخنس ، وكان فى بدء أمره على قول الثعالبة فى موالاة الأطفال ، ثم خنس من بينهم ال : يجب علينا أن نتوقف عن جميع من فى دار التقية ، إلا من عرفنا منه إيمانا إليه عليه ، أو كفرا فبرئنا منه . وقال بتحريم القتل والاغتيال فى السر ، وألا يبدأ د من أهل القبلة بقتال حتى يدعى إلا من عرفوه بعينه ، وصار له تبع على هذا ول ، وبرئ من سائر الثعالبة ، وبرئ منه سائرهم .

الشيبانية (٣) : والفرقة الرابعة من الثعالبة شيبانية ، هم أتباع شيبان بن سلمة ارجى الذى خرج فى أيام أبى مسلم صاحب دولة (٤) بنى العباس ، وأعان أبا مسلم

(١) انظر المقالات : ١/ ١٦٧-والتبصير : ص٣٣ - والملل : ١/ ١٣٢ وسمى صاحب هذه الفرقة " معبد بن عبدالرحمن " .

(٢) انظر المقالات : ١/ ١٦٧ - والملل والنحل : ١/ ١٣٢ - وسمى صاحب هذه المقالة الأخنس بن قيس - والتبصير : ص٣٣ .

(٣) انظر المقالات : ١/ ١٦٧ - والتبصير : ص٣٤-والملل والنحل : ١/ ١٣٢ .

(٤) أبو مسلم الخراسانى : هو صاحب الدعوة إلى العباسيين ، والذى أقام صرح دولتهم ، ووطد أركانها . وقد كانت له فرقة من فرق الحرورية تدعى بالمسلمية يقولون بإمامته ، وأكبر الظن أن هذا وحده هو الذى حمل أبا جعفر المنصور على قتله . وكان مقتله فى شعبان من سنة ١٣٧ (انظر مروج الذهب للمسعودى : ٣/ ٣٠٢ - ٣٠٥ - العبر : ١/ ١٨٦) .

على أعدائه فى حروبه ، وكان مع ذلك يقول بتشبيه الله سبحانه لخلقه ، فأكفره سائر الثعالبة مع أهل السنة فى قوله بالتشبيه . وأكفرته الخوارج كلها فى معاونته أبا مسلم . والذين أكفروه من الثعالبة يقال لهم **زيادية** أصحاب زياد بن عبد الرحمن . والشيبانية يزعمون أن شيبان تاب من ذنوبه ، وقالت الزيادية : إن ذنوبه كان منها مظالم العباد التى لا تسقط بالتوبة ، وإنه أعان أبا مسلم على قتاله مع الثعالبة ، كما أعانه على قتاله مع بنى أمية .

الرشيدية (١) : والفرقة الخامسة من الثعالبة يقال لها " رشيدية " نسبوا إلى رجل اسمه رشيد ، وانفردوا بأن قالوا : فيما سقى بالعيون والأنهار الجارية نصف العشر ، وإنما يجب العشر الكامل فيما سقته السماء فحسب ، وخالفهم زياد بن عبد الرحمن ، فأوجب فيما سقى بالعيون والأنهار الجارية العشر الكامل .

المكرمية (٢) : والفرقة السادسة من الثعالبة يقال لهم " المكرمية " أتباع أبى مكرم(٣) زعموا أن تارك الصلاة كافر ، لا لأجل ترك الصلاة ، لكن لجهله بالله عز وجل . وزعموا أن كل ذى ذنب جاهل بالله ، والجهل بالله كفر . وقالو أيضا بالموافاة فى الولاية والعداء .

فهذا بيان فرق الثعالبة وبيان أقوالها .

(٥)الإباضية (٤) :

أجمعت الإباضية على القول بإمامة عبد الله بن إباض ، (٥) وافترقت فيما بينها فرقا

(١) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٨ وذكر بيانها تسمى " العشرية " أيضا - والملل والنحل للشهرستانى : ١/ ١٣٢ وقال " أصحاب رشيد الطوسى . ويقال لهم العشرية " .

(٢) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٦٨ ، والملل والنحل : ١/ ١٣٣ ، والتبصير : ص٣٤ .

(٣) هكذا ورد اسم صاحب هذه المقالة فى المقالات والتبصير مثل ما ذكره المؤلف وسماه الشهرستانى " مكرم ابن عبد الله العجلى " .

(٤) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٧٠ -والملل والنحل للشهرستانى : ١/ ١٣٤ -والتبصير ٣٤ -والمعارف لابن قتيبة : ص٦٢٢ -ومروج الذهب : ٣/ ٢٥٨ .

(٥) عبدالله بن إباض : أحد بنى مرة بن عبيد من بنى تميم رهط الأحنف بن قيس ، وفى لسان العرب " وإباض : اسم رجل ، والإباضية : قوم من الحرورية لهم هوى ينسبون إليه ، وقيل : الإباضية فرقة من الخوارج أصحاب عبد الله بن إباض التميمى» .

يجمعها القول بأن كفار هذه الأمة - يعنون بذلك مخالفيهم من هذه الأمة - برآء من الشرك والإيمان ، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ، ولكنهم كفار ، وأجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم في السر ، واستحلوها في العلانية ، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم ، وزعموا أنهم في ذلك محاربون لله ولرسوله لا يدينون دين الحق ، وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض ، والذى استحلوه الخيل والسلاح ، فأما الذهب والفضة فإنهم يردونهما على أصحابهما عند الغنيمة .

ثم افترقت الإباضية فيما بينهم أربع فرق ، وهى : الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية ، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها .

واليزيدية منهم غلاة لقولهم بنسخ شريعة الإسلام فى آخر الزمان ، وهم من فرق الغلاة المنتسبين إلى الإسلام .

وإنما نذكر فى هذا الباب : الحفصية ، والحارثية ، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها :

الحفصية (١) : هؤلاء قالوا بإمامة حفص بن أبى المقدام ، وهو الذى زعم أن بين الشرك والإيمان معرفة الله تعالى وحدها ، فمن عرفه ثم كفر بما سواه : من رسول ، أو جنة ، أو نار ، أو عمل بجميع المحرمات من قتل النفس واستحلال الزنا وسائر المحرمات ، فهو كافر بريء من الشرك . ومن جهل بالله تعالى وأنكره فهو مشرك ، وتأول هؤلاء فى عثمان بن عفان مثل تأويل الرافضة فى أبى بكر وعمر . وزعموا أن عليًا هو الذى أنزل الله تعالى فيه ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام** ﴾ . (٢) وأن عبد الرحمن بن ملجم هو الذى أنزل فيه : ﴿ **ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله** ﴾ (٣) . ثم قالوا بعد هذا كله : إن الإيمان بالكتب والرسل متصل بتوحيد الله عز وجل ، فمن كفر بذلك فقد أشرك بالله عز وجل . وهذا نقيض قولهم إن الفصل بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده، وإن من عرفه فقد برئ من الشرك وإن كفر بما سواه من رسول أو جنة أو نار ، فصار قولهم فى هذا الباب متناقضا .

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٧٠ - والملل والنحل : ١/ ١٣٥ - والتبصير : ٣٤ .

(٢) الآية : ٤ ,٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٢٠٧ من سورة البقرة .

الحارثية (١) : وهؤلاء أتباع حارث بن يزيد (٢) الإباضى ، وهم الذين قالوا فى باب القدر بمثل قول المعتزلة ، وزعموا أيضا أن الاستطاعة قبل الفعل ، وأكفرهم سائر الإباضية فى ذلك ، لأن جمهورهم على قول أهل السنة فى أن الله تعالى خالق أعمال العباد ، وفى أن الاستطاعة مع الفعل .

وزعمت الحارثية أنه لم يكن لهم إمام بعد المحكمة الأولى ، إلا عبد الله بن إباض وبعده حارث بن يزيد الإباضى .

أ ما صاحب الفرق بين الفرق ، فيقول ـ مخالفا لصاحب مقالات الإسلاميين فى ذكر اليزيدية من الخوارج ، وبيان خروجهم عن فرق الإسلام (٣) :

هؤلاء أتباع يزيد بن أبى أنيسة الخارجى ، (٤) وكان من البصرة ، ثم انتقل إلى جور من أرض فارس ، وكان على رأى الإباضية من الخوارج . ثم إنه خرج عن قول جميع الأمة ، لدعواه أن الله عز وجل يبعث رسولاً من العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء ، وينسخ بشرعه شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - وزعم أن أتباع ذلك النبى المنتظر هم الصابئون المذكورون فى القرآن . فأما المسمون بالصابئة من أهل واسط وحران فما هم الصابئون المذكورون فى القرآن .

أصحاب طاعة لا يراد الله بها (٥) : زعم هؤلاء أنه يصح وجود طاعات كثيرة ممن لا يريد الله تعالى بها ، كما قال أبو الهذيل وأتباعه من القدرية .

وقال أصحابنا : إن ذلك لا يصح إلا فى طاعة واحدة ، وهو النظر الأول ، فإن

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٧١ - والملل والنحل : ١/ ١٣٦ - والتبصير : ٣٥.

(٢) وقع فى التبصير وحده " الحارث بن مزيد الإباضى " .

(٣) انظر فى شأن هذه الفرقة : التبصير : ص٨٣ - والملل والنحل : ١/ ١٣٦ - ومقالات الإسلاميين : ١/ ١٧٠ - والسفارينى : ١/ ٨٠ .

(٤) ورد هذا الاسم فى الملل وفى المقالات وفى أصول الدين للمؤلف (ص١٦٢) " يزيد بن أنيسة " وفى المحدثين من اسمه زيد بن أبى أنيسة ، وله ترجمة فى ميزان الاعتدال للذهبى برقم ٢٩٩٠ ، وقد يختلط بهذا على بعض الناس .

(٥) انظر مقالات الإسلاميين : ١/ ١٧٢ - وذكر افتراقهم فى النفاق على ثلاث فرق - والتبصير : ص ٣٥ - ولم يذكر الشهرستانى هذه الطائفة .

صاحبه إذا استدل به كان مطيعا لله تعالى فى فعله وإن لم يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لاستحالة تقربه إليه قبل معرفته . فإذا عرف الله تعالى فلا يصح منه بعد معرفته طاعة منه لله تعالى إلا بعد قصده التقرب بها إليه .

وزعمت الإباضية كلها أن دور مخالفيهم من أهل مكة دار توحيد ، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي عندهم .

واختلفوا فى النفاق على ثلاثة أقوال :

فقال فريق منهم : إن النفاق براءة من الشرك والإيمان جميعا ، واحتجوا بقول الله عز وجل فى المنافقين : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً** ﴾[1] .

وفرقة منهم قالت : لا نزيل اسم النفاق عن موضعه ، ولا نسمى بالنفاق غير القوم الذين سماهم الله تعالى منافقين .

ومن قال منهم : بأن المنافق ليس بمشرك ، وزعم أن المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا موحدين ، وكانوا أصحاب كبائر ، فكفروا وإن لم يدخلوا فى حد الشرك .

قال عبد القاهر -بعد الجملة التى حكيناها عنهم : شذوا من الأقوال انفردوا بها :

منها : أن فريقا منهم زعموا أن لا حجة لله تعالى على الخلائق فى التوحيد وغيره إلا بالخبر وما يقوم مقام الخبر من إشارة وإيحاء .

ومنها : أن قوما منهم قالوا : كل من دخل فى دين الإسلام وجبت عليه الشرائع والأحكام ، سمعها أو عرفها أو لم يسمعها ولم يعرفها ، وقال سائر الأئمة : لا يأثم بترك ما لم يقف عليه منها إلا أن ثبتت عليه الحجة فيه .

ومنها : أن قوما منهم قالوا بجواز أن يبعث الله تعالى إلى خلقه رسولا بلا دليل يدل على صدقه .

ومنها : أن قوما منهم قالوا : من ورد عليه الخبر بأن الله تعالى قد حرم الخمر أو أن القبلة قد حولت فعليه أن يعلم أن الذى أخبره به مؤمن أو كافر ، وعليه أن يعلم ذلك بالخبر ، وليس عليه أن يعلم أن ذلك عليه بالخبر .

ومنها : قول بعضهم : ليس على الناس المشى إلى الصلاة ولا الركوب والمسير

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة النساء.

للحج ، ولا شيء من الأسباب التى يتوصل بها إلى أداء الواجب ، وإنما يجب عليهم فعل الطاعات الواجبة بأعيانها ، دون أسبابها الموصلة إليها .

ومنها : قولهم جميعا : بوجوب استتابة مخالفيهم فى تنزيل أو تأويل ، فإن تابوا وإلا قتلوا ، سواء كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله .

وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب ، فإن تاب وإلا قتل .

وقالوا : إن العالم يفنى كله إذا أفنى الله أهل التكليف ، ولا يجوز إلا ذلك لأنه إنما خلقه لهم .

وأجازت الإباضية وقوع حكمين مختلفين فى شيء واحد من وجهين ، كمن دخل زرعا بغير إذن مالكه ، فإن الله قد نهاه عن الخروج منه إذا كان خروجه منه مفسدا للزرع وقد أمره به .

وقالوا : لا يتبع المدبر فى الحرب إذا كان من أهل القبلة وكان موحدا ، ولا نقتل منهم امرأة ولا ذرية . وأباحوا قتل المشبهة واتباع مدبرهم وسبى نسائهم وذراريهم ، وقالوا : إن هذا كما فعله أبو بكر بأهل الردة .

وقد كان من الإباضية رجل يعرف بإبراهيم دعا قوما من أهل مذهبه إلى داره ، وأمر جارية له كانت على مذهبه بشيء ، فأبطأت عليه ، فحلف ليبيعنها فى الأعراب . فقال له رجل منهم اسمه ميمون ـ وليس هو صاحب الميمونية من العجاردة : كيف تبيع جارية مؤمنة إلى الكفرة ؟ فقال له إبراهيم : إن الله تعالى قد أحل البيع ، وقد مضى أصحابنا وهم يستحلون ذلك . فتبرأ منهم ميمون ، وتوقف آخرون منهم فى ذلك ، وكتبوا بذلك إلى علمائهم ، فأجابوهم بأن بيعها حلال .

(٦) البيهسية :

ومن الخوارج " البيهسية " أصحاب " أبى بيهس [(١)] " :

ومما أحدث أنه زعم أن ميمونا كفر حين حرم بيع المملوكة فى دار الكفار ، وحين برئ

---

(١) قال ابن قتيبة فى المعارف (٢٦٧) : " البيهسية من الخوارج ينسبون إلى أبى بيهس من بنى سعد بن ضبيعة بن قيس ، واسمه هيصم بن جابر . وكان عثمان بن حيان والى المدينة قطع يديه ورجليه " . وقال الشهرستانى فى الملل والنحل : " وقد كان الحجاج طلب أبا بيهس فى أيام الوليد ، فهرب إلى المدينة ، فطلبه بها عثمان بن حيان المرى ، فظفر به وحبسه . وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ويقتله ، ففعل به ذلك " .

ممن استحل ذلك . وكفر أهل التثبت حين لم يعرفوا كفر ميمون وصواب إبراهيم - وأهل التثبت الواقفة - وكفر إبراهيم حين لم يتبرأ من أهل الوقف لوقفهم فى أمرهم، وجحدهم الولاية عنه، وجحدهم البراءة من ميمون . وذلك أن الوقف لا يسع على الأبدان ، ولكن يسع على الحكم بعينه ما لم يواقعه أحد من المسلمين . وإذا واقعه أحد من المسلمين لم يسع من حضر ذلك ألا يعرف من أظهر الحق ودان به ، ومن أظهر الباطل ودان بــه .

البيهسية الواقفة : وزعم أبو بيهس أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة ما جاء به محمد جملة ، والولاية لأولياء الله سبحانه ، والبراءة من أعداء الله ، وما حرم الله سبحانه مما جاء فيه الوعيد فلا يسع الإنسان إلا علمه ومعرفته بعينه وتفسيره ، ومنه ما ينبغى أن يعرفه باسمه ولا يبالى ألا يعرف تفسيره وعينه حتى يبتلى به ، وعليه أن يقف عندما لا يعلم ، ولا يأتى شيئا إلا بعلم . فتابعه على ذلك ناس كثيرون من الخوارج ، وفارقه ناس كثيرون منهم ، فسموا " البيهسية " وسمت البيهسية من خالفهم من الخوارج « الواقفة » .

أصحاب النساء وأصحاب المرأة والخلاف بينهما : واختلف هؤلاء فى أهل دار الكفر عندهم ، فمنهم من قال : هم عندنا كفار إلا من عرفنا إيمانه بعينه . ومنهم من قال : هم أهل دار خلط ، فلا نتولى إلا من عرفنا فيه إسلاما ، ونقف فيمن لم نعرف إسلامه . وتولى بعض هؤلاء بعضا إلى اختلافهم ، وقالوا : الولاية تجمعنا ، فسموا " أصحاب النساء " وسموا من خالفهم (من) الواقفة " أصحاب المرأة " .

وصارت " الواقفة " فرقتين :

فرقة تولوا الناكحة ، وفرقة ينسبون إلى " عبد الجبار بن سليمان " ، وهم الذين يتبرءون من المرأة الناكحة من كفار قومهم .

وهذا خبر " عبد الجبار " الذى خطب إلى " ثعلبة " ابنته ، ثم شك فى بلوغها ، فسأل أمها عن ذلك ، حتى وقع الخلاف بين ثعلبة وعبد الكريم فى الأطفال ، فاختلفا بعد أن كانا متفقين .

فأما عبد الجبار الذى خطب إلى ثعلبة ابنته فسأل ثعلبة أن يمهرها أربعة آلاف درهم، فأرسل الخاطب إلى أم الجارية مع امرأة يقال لها " أم سعيد " يسأل : هل بلغت ابنتهم

أم لا ؟ وقال : إن كانت قد بلغت وأقرت بالإسلام لم أبال ما أمهرتها . بلغتها أم سعيد ذلك فقالت : ابنتى مسلمة بلغت أم لم تبلغ ، ولا تحتاج أن تدعى إذا بلغت . فرد مرة أخرى ذلك عليها . ودخل ثعلبة على تلك الحال فسمع تنازعهما ، فنهاهما عنه . ثم دخل عبد الكريم بن عجرد وهما على تلك الحال ، فأخبره ثعلبة الخبر ، فزعم عبد الكريم أنه يجب دعاؤها إذا بلغت ، وتجب البراءة منها حتى تدعى إلى الإسلام . فرد عليه ثعلبة ذلك ، وقال : لا ، بل نثبت على ولايتها ، فإن لم تدع لم تعرف الإسلام ، فبرئ بعضهم من بعض على ذلك .

الولاية والبراءة : وقال غيره من الناس : قد يسلم الإنسان بمعرفة وظيفة الدين ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء من عند الله جملة ، والولاية لأولياء الله ، والبراءة من أعداء الله . وإن لم يعرف ما سوى ذلك ، فهو مسلم حتى يبتلى بالعمل . فمن واقع شيئا من الحرام مما جاء فيه الوعيد وهو لا يعلم أنه حرام فقد كفر ، ومن ترك شيئا من كبير ما افترضه الله سبحانه عليه وهو لا يعلم فقد كفر ، فإن حضر أحد من أوليائه مواقعة من واقع الحرام وهو لا يدرى أحلال أم حرام أو اشتبه عليه وقف فيه ، فلم يتوله ولم يبرأ منه حتى يعرف أحلال ركب أم حرام ، فبرئت منه البيهسية .

ومن " البيهسية " فرقة يقال لهم " **العوفية** " وهم فرقتان :

١ - **فرقة تقول** : من رجع من دار هجرتهم ومن الجهاد إلى حال القعود نبرأ منهم .

٢ - **وفرقة تقول** : لا نبرأ منهم ، لأنهم رجعوا إلى أمر كان حلالا لهم .

وكلا الفريقين من " العوفية " يقولون : إذا كفر الإمام فقد كفرت الرعية : الغائب منهم والشاهد .

والبيهسية يبرءون منهم ، وهم جميعا يتولون أبا بيهس .

ومن " البيهسية " فرقة يقال لهم " **أصحاب شبيب النجرانى** " يعرفون " بأصحاب السؤال " .

الجهل بأحكام الله : والذى أبدعوه أنهم زعموا أن الرجل يكون مسلما إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وتولى أولياء الله ، وتبرأ من أعدائه ، وأقر بما جاء من عند الله جملة ، وإن لم يعلم سائر ما افترض الله سبحانه عليه مما سوى ذلك أفرض هو أم لا ، فهو مسلم حتى يبتلى بالعمل به (فيسأل) .

قولهم بقدرة العبد كالمعتزلة : وفارقوا " الواقفة " وقالوا فى أطفال المسلمين بقول " الثعلبية " : إنهم مؤمنون أطفالا وبالغين حتى يكفروا ، وإن أطفال الكفار كفار أطفالا وبالغين حتى يؤمنوا ، وقالوا بقول المعتزلة فى القدر ، فبرئت منهم البيهسية .

التوقف كالمنزلة بين المنزلتين : وقال بعض " البيهسية " : من واقع زنا لم نشهد عليه بالكفر حتى يرفع إلى الإمام أو الوالى ويحد . فوافقهم على ذلك طائفة من الصفرية ، إلا أنهم قالوا : نقف فيهم ، ولا نسميهم مؤمنين ولا كافرين .

كفر الإمام بكفر الرعية : وقالت طائفة من " البيهسية " إذا كفر الإمام كفرت الرعية ، وقالت : الدار دار شرك ، وأهلها جميعا مشركون . وتركت الصلاة إلا خلف من تعرف ، وذهبت إلى قتل أهل القبلة وأخذ الأموال ، واستحلت القتل والسبى على كل حال .

الجهل بالدين شرك : وقالت " البيهسية " : الناس مشركون بجهل الدين ، مشركون بمواقعة الذنوب ، وإن كان ذنب لم يحكم الله فيه حكما مغلظا ، ولم يوقفنا على تغليظه فهو مغفور ، ولا يجوز أن يكون أخفى أحكامه عنا فى ذنوبنا ، ولو جاز ذلك جاز فى الشرك .

وقالوا : التائب فى موضع الحدود وفى موضع القصاص والمقر على نفسه يلزمه

الشرك إذا أقر من ذلك بشيء ، وهو كافر ، لأنه لا يحكم بشيء من الحدود والقصاص إلا على كل كافر يشهد عليه بالكفر عند الله .

السكر وترك الصلاة : وقال بعض " البيهسية " : السكر من كل شراب حلال موضوع عمن سكر منه ، وكل ما كان فى السكر من ترك الصلاة ، أو شتم الله سبحانه ، فهو موضوع لاحد فيه ولا حكم ، ولا يكفر أهله بشيء من ذلك ما داموا فى سكرهم .

وقالوا : إن الشراب حلال الأصل ، ولم يأت فيه شيء من التحريم ، لا فى قليله ، ولا فى كثيره .

أصحاب التفسير : ومن " البيهسية " فرقة يسمون " أصحاب التفسير " كان صاحب بدعتهم رجل يدعى " الحكم بن مروان " من أهل الكوفة .

زعم أنه من شهد على المسلمين لم تجز شهادتهم إلا بتفسير الشهادة : كيف هى . قال : ولو أن أربعة شهدوا على رجل منهم بالزنا لم تجز شهادتهم حتى يشهدوا كيف هو . وهكذا قالوا فى سائر الحدود ، فبرئت منهم " البيهسية " على ذلك وسموهم " أصحاب التفسير " .

وقالت " العوفية " من البيهسية " : السكر كفر ، ولا يشهدون أنه كفر حتى يأتى معه غيره كترك الصلاة وما أشبه ذلك ، لأنهم يعلمون أن الشارب سكر إذا ضم إلى سكره غيره مما يدل على أنه سكران .

(٧) أقوال وفرق :

أصحاب صالح : ومن الخوارج " أصحاب صالح " ولم يحدث صالح قولا تفرد به ، ويقال إنه كان صفريا .

إن كل ذنب مغلظ كفر : ومن قول " الصفرية " وأكثر الخوارج أن كل ذنب مغلظ كفر ، وكل كفر شرك ، وكل شرك عبادة للشيطان .

من قال بضرب من الحق لا يكفر : وقالت " الفضلية " : لا يكفر عندنا ولا يعصى من قال بضرب من الحق الذى يكون من المسلمين وأراد به غير الله أو وجهه على غير ما يوجهه المسلمون عليه ، نحو قول القائل " لا إله إلا الله " يريد بها قول النصارى الذى لا إله إلا هو الذى له الولد والزوجة ، أو يريد صنما اتخذ إلها ، وكقول القائل " محمد رسول الله " وهو يريد غيره ممن قال : هو حى قائم ، وما أشبه ذلك من القول كله واعتقاد القلب والتوجه إلى غير الله عز وجل .

الحكم بالكفر بعد إقامة الحد عليه : وحكى " اليمان بن رباب الخارجى " أن قوما من " الصفرية " وافقوا بعض البيهسية على أن من واقع ذنبا عليه حرام (؟) لا يشهد عليه بأنه كفر حتى يرفع إلى السلطان ويحد عليه ، فإذا حد عليه فهو كافر ، إلا أن البيهسية لا يسمونهم مؤمنين ولا كافرين حتى يحكم عليهم ، وهذه الطائفة من الصفرية يثبتون لهم اسم الإيمان حتى تقام عليهم الحدود .

الخوارج تفردوا بقول أحدثوه أنهم من أهل الجنة : وحكى أن صنفا من الخوارج تفردوا بقول أحدثوه ، وهو قطعهم الشهادة على أنفسهم ومن وافقهم أنهم من أهل الجنة من غير شرط ولا استثناء .

الحسينية يقولون بالإرجاء : وذكر أن صنفا منهم يدعون " الحسينية " ، ورئيسهم رجل يعرف " بأبى الحسين " . يرون الدار دارحرب ، وأنه لا يجوز الإقدام على من فيها إلا بعد المحنة . ويقولون بالإرجاء فى موافقيهم خاصة ، كما حكى عن " نجدة " ، ويقولون فيمن خالفهم : إنهم بارتكاب الكبائر كفار مشركون .

الشمراخية دماء قومها حلال : وذكر " اليمان " أيضا أن صاحب " الشمراخية " ، وهو عبد الله بن شمراخ ، كان يقول : إن دماء قومه حرام فى السر ، حلال فى العلانية ، وإن قتل الأبوين حرام فى دار التقية ودار الهجرة ، وإن كانا مخالفين ، والخوارج تبرأ منه .

ومن العلماء باللغة ، وهو من الخوارج " أبو عبيدة معمر بن المثنى »[(١)] ، وكان صفريا .

---

(١) أبو عبيدة : معمر بن المثنى ، التيمى ، تيم قريش ، مولاهم ، البصرى ، النحوى ، الإخبارى ، اللغوى ، كان شعار الغريب أغلظ عليه ، وأخبار العرب وأيامها . وكان -مع معرفته- لا يقيم البيت إذا أنشده حتى يكسره . وكان يخطئ إذا قرأ القرآن الكريم نظرا ، وكان شعوبيا يكره العرب ، وألف فى مثالبها كتبا . أقدمه هارون الرشيد من البصرة إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة ، وقرأ عليه بها أشياء من كتبه ، وأسند الحديث إلى هشام بن عروة وغيره ، وروى عنه على بن المغيرة الأثرم ، وأبوعبيدالقاسم بن سلام ، وأبوعثمان المازنى ، وأبوحاتم السجستانى ، وعمربن شبة النميرى ، وغيرهم . وكان أبوعبيدة كثير الوقوع فى أعراض الناس ، قال له بعض الناس : تقع فى الناس ، فمن أبوك ؟ فقال : " أخبرنى أبى عن أبيه أنه كان يهوديا من أهل باجروان» . فمضى الرجل وتركه . وكان أبوعبيدة – مع ذلك أيضا – جباها ، لم يكن بالبصرة أحد إلا وهو يتقيه ويداجيه . وخرج أبوعبيدة إلى بلاد فارس قاصدا موسى بن عبدالرحمن الهلالى ، فلما قدم عليه قال لغلمانه : احترزوا من أبى عبيدة فإن كلامه كله دق . ثم حضر الطعام فصب بعض الغلمان على ذيله مرقة فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك بدله عشرة ثياب . فقال أبوعبيدة : لا عليك ، فإن مرقك لا يؤذى . يريد أنه لا دسم فيه ، ففطن موسى لما أراد وسكت . وكانت ولادة أبى عبيدة فى سنة إحدى عشرة ومائة على الأصح ، وتوفى سنة تسع ومائتين بالبصرة ، وقيل : سنة إحدى عشرة . أطعمه محمد بن القاسم بن سهل النوشجانى موزا فمات منه (انظر المعارف لابن قتيبة ٢٣٦ ، ثم انظر الترجمة رقم ٧٠٢ فى وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ٣٢٣) .

ومن شعرائهم " عمران بن حطان [1] " وهو صفرى .

ومن مؤلفى كتبهم ومتكلميهم : " عبد الله بن يزيد " و " محمد بن حرب " و " يحيى بن كامل " وهؤلاء " إباضية " ، و " اليمان بن رباب " وكان ثعلبيا ، ثم صار بيهسيا ، و " سعيد بن هارون " وكان فيما أظن إباضيا .

الخوارج تدعى أن أبا الشعثاء فقيه : والخوارج تدعى من السلف " أبا الشعثاء جابر ابن زيد " و " عكرمة " و " إسماعيل بن سميع " و " أبا هارون العبدى " و " هبيرة ابن مريم " .

الشبيبية (مرجئة الخوارج) : ومنهم فرقة يسمون " الشبيبية " ، وذلك أن شبيبا وقف فى صالح وفى الراجعة ، لا ندرى أحق ما حكم به صالح أم جور ، وحق ما شهدت به الراجعة أم جور ، فبرئت الخوارج منهم ، وسموهم " مرجئة الخوارج " .

وكان شبيب أصاب أموالا بجرجرايا ، فقسمها ، وبقيت رمكة ومنطقة وعمامة ، فقال لرجل من أصحابه : اركب هذه الدابة حتى نقسمها . وقال لآخر : البس هذه

---

(١) عمران بن حطان : سدوسى خارجى ، كان شاعر الخوارج ، وروى عن أبى موسى وعائشة رضى الله عنهما . وكان عمران فصيحا ، قبيح الشكل ، وكانت زوجته جميلة فدخل عليها يوما وهى بزينتها فأعجبته ، وعلمت منه ذلك ، فقالت : أبشر فإنى وإياك فى الجنة . قال : ومن أين علمت ؟ قالت : لأنك أعطيت مثلى فشكرت ، وأنا ابتليت بمثلك فصبرت ، والصابر والشاكر فى الجنة . وعمران - قبحه الله - هو القائل فى عبدالرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين أبى السبطين على بن أبى طالب :

يا ضربة من تقى ما أراد بها ＊＊＊ إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره يوما فأحسبه ＊＊＊ أوفى البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير أقبرهم ＊＊＊ لم يخلطوا دينهم بغيا وعدوانا

يريد بقوله " بطون الطير أقبرهم " أنهم لا يموتون حتف أنوفهم ، ولكنهم يموتون فى المعارك والحروب فتأكل الطير أجسادهم . ومات عمران إلى غضب الله ونقمته فى سنة تسع وثمانين من الهجرة (وانظر الكامل للمبرد : ٢/١٠٨) .

العمامة والمنطقة حتى نقسمهما ، فبلغ (ذلك) أصحابه ، فخرج إليه سالم بن أبى الجعد الأشجعى وابن دجاجة الحنفى ، فقالا : يا معشر المسلمين ، استقسم هذا الرجل بالأزلام . فقال شبيب : إنما كانت رمكة ، وأحببت أن يركبها صاحبها يوما أو يومين حتى نقسمها . فقالوا : لم أعطيت هذا منطقة وعمامة ، فلو استشهد وأخذ متاعه ؟ تب مما صنعت . فكره أن يخنع ، فقال ما أرى موضع توبة . فبرئوا منه فليس يتولاه خارجى فيما نعلم ، وهم يرجئون أمره [1] ، ولا يكفرونه ولا يثبتون له الإيمان .

(١) يرجئون ، هنا ، أى يؤخرون ، وهو معنى لغوى للإرجاء ، كما بيناه فيما سبق .

(٤) قضايا الخوارج والتقاؤها مع الفرق الأخرى

فأما التوحيد فإن قول الخوارج فيه كقول المعتزلة .

والخوارج جميعا يقولون بخلق القرآن .

والإباضية تخالف المعتزلة فى التوحيد فى الإرادة فقط ، لأنهم يزعمون أن الله سبحانه لم يزل مريدا لمعلوماته التى تكون أن تكون ، ولمعلوماته التى لا تكون ألا تكون . والمعتزلة إلا بشر بن المعتمر ينكرون ذلك .

فأما القدر فقد ذكرنا من يذهب فيه إلى قول المعتزلة من الخوارج ، وذكرنا من يميل إلى الإثبات منهم .

وأما الوعيد فقول المعتزلة فيه وقول الخوارج قول واحد ، لأنهم يقولون : إن أهل الكبائر الذين يموتون على كبائرهم فى النار خالدون فيها مخلدون . غير أن الخوارج يقولون إن مرتكبى الكبائر ممن ينتحل الإسلام يعذبون عذاب الكافرين ، والمعتزلة يقولون : إن عذابهم ليس كعذاب الكافريـن .

وأما السيف فإن الخوارج جميعا تقول به وتراه ، إلا أن الإباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون إزالة أئمة الجور ، ومنعهم أن يكونوا أئمة بأى شىء قدروا عليه بالسيف أو بغير السيف .

فأما الوصف لله سبحانه بالقدرة على أن يظلم فإن الخوارج جميعا تنكر ذلك .

والخوارج بأسرها يثبتون إمامة أبى بكر وعمر ، وينكرون إمامة عثمان - رضوان الله عليهم - فى وقت الأحداث التى نقم عليه من أجلها ، ويقولون بإمامة على قبل أن يحكم ، وينكرون إمامته لما أجاب إلى التحكيم ، ويكفرون معاوية وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعرى ، ويرون أن الإمامة فى قريش وغيرهم إذا كان القائم بها مستحقا لذلك ، ولا يرون إمامة الجائر .

وحكى " زرقان " عن النجدات أنهم يقولون : إنهم لا يحتاجون إلى إمام ، وإنما عليهم أن يعلموا كتاب (؟) الله سبحانه فيما بينهم .

وللخوارج فى الأطفال ثلاثة أقاويل :

١ - صنف منهم يزعمون أن أطفال المشركين حكمهم حكم آبائهم يعذبون فى النار ، وأن أطفال المؤمنين حكمهم حكم آبائهم . واختلف هذا الصنف فى الآباء إذا انتقلوا بعد موت أطفالهم عن أديانهم ، فقال قائلون : ينتقلون إلى حكم آبائهم . وقال قائلون : هم على الحال التى كان آباؤهم عليها فى حال موتهم ، لا ينتقلون بانتقالهم .

٢ - وقال الصنف الثانى منهم : جائز أن يؤلم الله سبحانه فى النار أطفال المشركين على غير المجازاة لهم ، وجائز ألا يؤلمهم . وأطفال المؤمنين يلحقون بآبائهم لقول الله عز وجل : **﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾** [(١)] .

٣ - وقال الصنف الثالث - وهم " القدرية " : أطفال المشركين والمؤمنين فى الجنة .

وحكى حاك عن " الأخنسية " أنها تزوج النساء فى نصبة الحرب ، وغير نصبة الحرب .

وحكى أيضا أن الشمراخية والصفرية تصلى خلف من لا تعرف .

وحكى أن البيهسية تقول بقتل أهل القبلة ، وأخذ الأموال ، وترك الصلاة إلا خلف من تعرف ، والشهادة على الدار بالكفر .

وحكى حاك أن البدعية تقول مثل مقالة الأزارقة ، غير أنها تزعم أن الصلاة ركعتان بالغداة ، وركعتان بالعشى .

واختلفت الخوارج فى اجتهاد الرأى ، وهم صنفان :

١ - منهم من يجيز الاجتهاد فى الأحكام ، كنحو النجدات وغيرهم .

---

(١) الطور : ٢١ .

٢ - ومنهم من ينكر ذلك ، ولا يقول إلا بظاهر القرآن ، وهم الأزارقة .

وحكى حاك عن الخوارج أنهم لا يرون على الناس فرضا مالم تأتهم الرسل ، وأن الفرائض تلزم بالرسل ، واعتلوا بقول الله عز وجل : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[1] .

والخوارج لا يقولون بعذاب القبر ، ولا ترى أحدًا يعذب فى قبره .

فأما القول فى البارئ : هل يرزق عباده الحرام إذا غلبوا عليه وأكلوه؟ فإن من مال منهم إلى قول المعتزلة فى القدر ينكر ذلك ، ومن قال منهم بالإثبات قال : إن الله يرزق عباده الحرام إذا غلبوا عليه وأكلوه .

---

(١) الإسراء : ١٥ .

(٥) المبادئ المشتركة بين فرق الخوارج الثانية

رأى الكعبى : وقد اختلفوا فيما يجمع الخوارج على افتراق مذاهبهم ، فذكر الكعبى[(١)] فى مقالاته أن الذى يجمع الخوارج - على افتراق مذاهبها - إكفار علىٍّ ، وعثمان ، والحكمين ، وأصحاب الجمل ، وكل من رضى بتحكيم الحكمين ، والإكفار بارتكاب الذنوب ، ووجوب الخروج على الإمام الجائر .

رأى الأشعرى : وقال شيخنا أبو الحسن[(٢)] : الذى يجمعهم إكفار علىٍّ ، وعثمان ، وأصحاب الجمل ، والحكمين ، ومن رضى بالتحكيم وصوب الحكمين أو أحدهما ، والخروج على السلطان الجائر . ولم يرض ما حكاه الكعبى من إجماعهم على تكفير مرتكبى الذنوب . والصواب ما حكاه شيخنا أبو الحسن عنهم ، وقد أخطأ الكعبى فى دعواه إجماع الخوارج على تكفير مرتكبى الذنوب منهم . وذلك أن النجدات[(٣)] من الخوارج لا يكفرون أصحاب الحدود من موافقيهم .

وقد قال قوم من الخوارج : إن التكفير إنما يكون بالذنوب التى ليس فيها وعيد مخصوص ، فأما الذى فيه حد أو وعيد فى القرآن فلا يزاد صاحبه على الاسم الذى ورد فيه ، مثل تسميته زانيا ، وسارقا ، ونحو ذلك .

وقد قالت النجدات : إن صاحب الكبيرة من موافقيهم كافر نعمة ، وليس فيه كفر دين .

وفى هذا بيان خطإ الكعبى فى حكايته عن جميع الخوارج تكفير أصحاب الذنوب كلهم منهم ومن غيرهم .

وإنما الصواب فيما يجمع الخوارج كلها ما حكاه شيخنا أبو الحسن رحمه الله من تكفيرهم عليًا ، وعثمان ، وأصحاب الجمل ، والحكمين ، ومن صوبهما أو صوب أحدهما ، أو رضى بالتحكيم .

---

(١) قد تقدمت ترجمة الكعبى فى ص ٣٧ من هذا الكتاب .

(٢) انظر ذلك فى الموضع الذى ذكرناه من مقالات الإسلاميين : ١/ ١٥٦ .

(٣) النجدات : هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفى ، وسبق ذكرهم وتفصيل مقالاتهم فى هذا الفصل .

(٦) مآخذ على مذهب الخوارج

وهذه هى مبادئ فى السياسة والعقائد والأخلاق ميزت المذهب الخارجى وطبعته بطابع خاص ، واتخذها الخوارج أسسا لمذهبهم ، وتابعوا كفاحهم لبنى أمية بعد أن استقرت الخلافة فى أيديهم ، ووصموهم بالفسق والمعصية واغتصابهم للحكم ، وأثاروا فى وجه دولتهم الفتن والقلاقل فى أطراف الإمبراطورية العربية الشاسعة .

ولم تتألف من الخوارج جماعة محدودة ثابتة ، كما أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم ، بل أخذت جموعهم المتفرقة ، فى أنحاء الدولة بزعامة رؤسائهم يقلقون الولاة ويناوئونهم ، مما استغرق جهود قواد الدولة الكبار فى مكافحتهم ، هؤلاء القواد الذين يرجع الفضل فى تثبيت دعائم الخلافة الأموية إلى مهارتهم وتوفيقهم الحربى .

وقد سارع إلى الانضمام إلى الخوارج الطبقات المعدمة الرقيقة الحال فى المجتمع الإسلامى ، التى راقتها كثيرا ميول الخوارج الديمقراطية واحتجاجاتهم على مظالم الحكام والولاة .

وكانت ثورات الخوارج تتخذ ذريعة لكل فتنة ترمى لمناوأة الأمويين ، وتعلل بها البربر المستقلون فى إفريقية الشمالية فى الثورة التى قاموا بها فى وجه الحكام الأمويين .

وكما أن الخوارج ظهروا فى صدر الإسلام إبان حروبهم وفتنتهم على شكل طوائف وجماعات متفرقة ، فإننا نلاحظ مثل هذه الفروق فى تفصيلات مذهبهم ، وخاصة فى الصيغ والعبارات والآراء التى تُعزى عادة إلى رؤسائهم الأقدمين .

ولا غرابة فى أن يشتمل مذهبهم عليها ، لأن قواعده تكونت فى عهد هذه الفتن

والحروب التى كان الخوارج فيها منقسمين إلى طوائف مختلفة . ومما يسترعى النظر أنهم فى بعض المسائل الاعتقادية المهمة يقربون كثيرا من المعتزلة (١) .

نستطيع القول هنا : إن الخوارج الأولى والثانية والثالثة . . . . إلخ فرقة أو فرق يتوالد بعضها من بعض فى حضن التمرد والثورية والخروج الظالم على الجماعة الإسلامية كما يدل على ذلك اسمهم . وما يعنينى هنا قبل كل شيء هو نقد الخوارج . فأول شيء يلاحظ عليهم هو التشدد فى مبادئ الإسلام وهو ما أوقعهم فى حرج شديد مع الجماعة الإسلامية ويفضى بهم إلى أن يتجاوزوا بنقدهم مبادئ الإسلام السمحاء .

ومذهب الخوارج مذهب سياسى . هدفه تقرير الأمور العامة وفقًا لأوامر الله ونواهيه . بيد أن سياستهم ليست موجهة نحو أهداف يمكن تحقيقها فضلاً عن أنها منافية للمدنية : لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها ! وهو أمر لم يكونوا يجهلونه . إذ لم يكونوا يعتقدون بانتصار مبادئهم على الأرض . وإنما يرضون أن يموتوا مجاهدين . إنهم يبيعون حياتهم ويحملون أنفسهم إلى سوق الشهادة .

كما يؤخذ عليهم أنهم لا يريدون الإقرار بأية " إمارة " ، وأية فكرة تدعى دعاوى كهذه لابد أن تحطم الجماعات التى أقيمت لتحقيقها .

ويرون أن الإقرار ليس باللسان بل بالعمل الذى هو المبدأ الأساسى ، وعليه يمتحنون كل من يشكون فيه من أنصارهم فى هذه المسألة امتحاناً عسيرًا . ويستحلون دماء خصومهم المسلمين . ولم يعد جهادهم ضد الكفار . بل ضد أهل السنة والجماعة من عامة المسلمين ، إذ كانوا يرون فى هؤلاء كفارًا . بل أشد كفرًا من النصارى واليهود والمجوس . ويحسبون قتال عدوهم هذا الداخل أهم الفروض . هم يقولون عن أنفسهم إنهم وحدهم المسلمون الحقيقيون . ولا يطلقون اسم " المسلم " على غير أنفسهم . أجل هم عند غيرهم " خوارج " . . . . إلخ . لكنهم عند أنفسهم "المسلمين " أو " المؤمنين " ويلقبون رئيسهم بلقب " أمير المؤمنين " . ولا تكون السلطة شرعية إلا إذا كانت ، وطالما كانت ، تحكم باسم الله ووفق مشيئته . فهى إذن تخضع للدين ولنقد الدين (أى للنقد الذى يوجه إليها باسم الدين) . فهى تقيم " الجماعة جماعة

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام : جولد زيهر ، ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر ، عبد العزيز عبد الحق ، دكتور محمد يوسف موسى .

المسلمين كلهم " في هيئة منظمة يسودها السلام والاتحاد . تنتفى عنها الفوضى . وفى هذا السبيل تضع على رأسها " إماما " يرمز ويعبر عن وحدة الأمة الإسلامية .

وفى هذا التعارض بين " الدين " و " الجماعة " ، بين واجب أن يضع الإنسان الله والحق فوق كل شيء - وواجب الخضوع لأمر الجماعة وإطاعة الإمام - نقول فى هذا التعارض يقف الخوارج فى صف الدين بكل قوة . وفى فهمهم لماهية الدين يختلفون عن سائر الناس . كذلك مثارات شكواهم مشابهة لمثارات شكوى سائر الناس . وإنما يمتازون عن غيرهم بشدتهم فى تقديم الدين على أى اعتبار آخر وتصلبهم بحيث لا يقبلون أدنى تساهل فى أمر الدين . فلا جماعة (أى دولة) على حساب الدين . إذ الجماعة (الدولة) إنما تصان بالعادة والنظام الظاهرى وتتضمن الطيب والخبيث . ولا يعترف الخوارج بالجماعة (الدولة) التى لا يبررها إلا مجرد وجودها فى الواقع التاريخى . فالأمة الحقيقية هى تلك التى لا ينتسب إليها إلا المسلمون الصالحون، سواء كانوا من العلية أو الطبقة الدنيا ، عربا أو موالى ، والمكانة العليا هى للأتقى ، وهم لا يحسبون أنهم بهذا يمزقون شمل الجماعة . كذلك تسللت إلى عقائد الخوارج كثير من التعاليم المجوسية والآراء التى تتضح فيها الزندقة وخاصة فى تعاليم فرقة الخوارج الأزارقة التى اتخذت من الأهواز مركزاً لنشاطها السياسى والحربى مما جعلها تنادى ببعض التعاليم المجوسية لتجذب الفرس إليها، وظهر هذا واضحًا فى آراء ميمون بن عمران والضحاك ، وهما من أبرز علماء الخوارج الأزارقة . فقد أباح ميمون لأتباعه زواج بنات البنات وبنات البنين، وهو ما تبيحه التعاليم المجوسية ومما يتعارض تمامًا مع تعاليم الإسلام .

(٧) النزعات السياسية والدينية

كانت الخصومات عنيفة إذن ، حتى بين أنصار الوحدة ، وكان القتال غامضا . لم يكن التفكك فعلاً ثمرة العصبيات والطموح فقط . بل ساعدت عليه النزاعات السياسية والخلافات المذهبية . لا ريب أن الأحزاب السياسية والدينية الكبيرة التى توجهت فى نزاعات لا هوادة فيها ، لم تهدف إلى تقسيم المملكة وتفكيكها . بل إنها كانت ترمى إلى أهداف متعارضة كل التعارض . إلا أن النتائج التى وصلت إليها كانت مخالفة للأهداف المصرح بها والمرغوب فيها .

إن شرعية العلويين التى كانت تتهم جميع النظم الأخرى بالاستيلاء على السلطة وبالتالى ابتعادها عن الالتفاف حول الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الوحدة التى استمرت ملتفة حول آل بيته ، لم تنجح ، بعد سلسلة طويلة من المعارك الدامية فى تاريخ الإسلام ، ومزيد من التصدعات فى جبهة وحدة الإسلام ، والزيادة من أسباب الخصام ، سوى بعث تيار مضاد للخلافة ، من توفى بدون أن يعرف الإمام الحق فى عصره مات كافرا ، كما صدع بذلك الشيعة الدين ، كانوا يضعون أساس الإيمان ذاته فى الاعتقاد فى الإمام الحق . عمل الشيعة تارة بطرق خفية وطورا بطرق علنية ، وهى سبل ذات تفريعات غير متناهية وتحويلات لا تقل عنها عددا ، بمهارة وتحيل وثبات وإخلاص جدير بالإعجاب ، على تجنيب المسلمين مثل هذا الموت . وسواء أرادوا ذلك أم لا ، فإن عملهم الخفى منه والعلنى ، خرب الخلافة فى الواقع ، وجعلها عرضة للتفتت إن الشرعية المدعاة للفرق لم تقدر أبداً – مهما كانت رغبتها وتحمسها لفرض سيطرتها ، على تحقيق وحدة دار الإسلام حولها . وخلافاً لذلك ، فقد تولد عنها كثير من الفرق المتنافسة التى تتنوع فى مدى الهيجان والتطرف ، مما زاد فى خطورة عوامل الانقسام والتفكك .

وكذلك كان الأمر بالنسبة لمذهبية المعارضة ، نعنى مذهب الخوارج الذين كانوا يعتبرون مسألة الخلافة ، أى السلطة المركزية ، ثانوية . فمن حق كل شخص أن يكون

خليفة ، ولو كان عبدًا حبشيا . الواقع أنهم رضوا جيداً بالانقسام ، ولم يؤسسوا ملكا متلاحما قويا أبدا . بل إنهم قاوموا أكثر من ذلك النظام القائم ، قبل إقامة نظام جديد ودولة جديدة معينة . كان المثل السياسى لدى الخوارج نوعا من الفوضى التى يعدلها وجود دستور هو القرآن ، ووجود إمام هو رئيس روحى أكثر منه رئيس دولة . جمعوا أتباعهم من بين كل أولئك الذين كانوا يحنون إلى حياة الجاهلية ، بدون ضغط من السلطة أو حياة فجر الإسلام ، وانتدبوهم من بين كل أولئك الذين بقوا متعلقين ببساطة حياة البداوة ، ومن بعض الناقمين الذين وجدوا فى مذهب الخوارج أحسن سلاح لمحاربة مساوئ السلطة والتبعية . إن مذهب الخوارج من الوجهة المذهبية وبسبب نوعية تجنيده الخاص ، كان يحمل فى طياته طلائع التفكك . فعند انتصاب بنى العباس فقدت قوى التفجر التى كان يمثلها ، كثيرا من قوتها فى العراق والشرق عامة ، لكنها بقيت محيرة فى المغرب .

أنهك الخوارج فعلاً فى حروب دامية ساحقة ، وخاصة ضد بنى أمية ، وقد أسهموا بالكثير فى إسقاطهم . فشغل السادة الجدد بالدولة المنهارة المتمثلة فى شخص أنصارها ، وصارت موضوعًا للحيرة . هوجم النظام الجديد من كل جانب وعلى جبهات متعددة ، وتناقضت مقاومته للانشقاقات . " كان لتقديس معاوية فى القرن الثالث من الهجرة " ، من القوة ما جعل المأمون سنة ٢١١ أو ٢١٢/٨٢٦-٨٢٦ ، ثم المعتضد سنة ٢٨٤/ ٨٩٧ ، يعزمان على الأمر بلعن مؤسس الدولة الأموية من أعلى المنابر ، ثم عدلا عن ذلك . إن هذين الخليفتين ، إذ قررا الشروع فى هذا العمل ثم العدول عنه فى فترة سبعين سنة تقريبا تفصل بينهما ، لدليل ، كما لاحظ ذلك شارل بيلا ، على أن الخطر كبير ، وأن الإقدام على إثارة غضب " أنصار معاوية " لأمر خطير . اعتبر الجاحظ ، بصفته خادما أمينا لبنى العباس الذى كان يشعر بالخطر ، أنه من واجبه أن ينبه السلطة ، " فأدى به الأمر إلى تحرير تقرير حقيقى عن أسباب الانقسامات فى الأمة الإسلامية " .

(٨) مراحل التفكك الكبرى

خدمت كل هذه الانقسامات وكل هذه النزاعات السياسية والمذهبية فى نهاية الأمر وأحيانا عن جهل ، العصبيات وأولئك الذين استفادوا منها بصورة أو بأخرى . وهكذا، تمكنت عدة حركات منشقة من نيل أغراضها . فقد انشق عن الخلافة بصورة تزيد وتنقص وعلى التوالى ، مع احترام متنوع للصيغ : بنو أمية بالأندلس ١٣٩/ ٧٣٦، والصفرية بسجلماسة ١٤٠/ ٧٣٨ ، وبنو رستم بالمغرب الأوسط ١٦٠/ ٧٧٦ ، والإدريسيون بالمغرب الأقصى ١٧٣/ ٧٨٨ ، والأغالبة بإفريقية ١٨٤/ ٨٠٠ ، وبنو طاهر بخراسان ٢٠٣/ ٨٢٠ ، وأحمد بن أسد بطبرستان ٢٠٥/ ٨٢٠ ، والصفاريون بسجستان ٢٥٣/ ٨٦٧ ، والطولونيون بمصر ٢٣٤/ ٨٦٨ ، والسامانيون بإقليم ما وراء النهر ٢٦١/ ٨٦٤ .

هذا إذا اقتصرنا على ذكر أشهر الدول التى تقاسمت بين القرن الثامن والتاسع غنائم الخلافة . كان الأمراء المستقلون أو الموالون شكلا للخلافة فى بغداد ، يتصرفون بأنفسهم فى ممالك اضطرب تاريخها ولم تستقر حدودها على حال ، بل كانت تمتد وتتقلص وتزول مع الحروب التى كانت تنشب بينهم . قضى الصفاريون على بنى طاهر، ثم أزيحوا بدورهم من طرف بنى سامان الذين لم ينجوا من المصير المشترك الذى كان يتربص بهم فى أشخاص الغزنويين مواليهم السابقين . كان الخلفاء العاجزون يشاهدون ذلك ويوزعون التوليات على الغالبين . وفقدوا أثناء ذلك العراق، إذ نافسهم عليه منذ نهاية القرن التاسع عائلة بنى حمدان القوية التى تولت حكم الموصل ، وبرز ملكها بحلب ، بإمرة سيف الدولة الذى خلد ذكره المتنبى . أما بلاد العرب ذاتها ، فقد عادت إلى وضع شبيه بما كانت عليه قبل الإسلام تنازع فيها على الحكم : العباسيون والطولونيون (ثم الإخشيديون) والزياديون بزبيد ، والجلنديون بعمان والقرامطة . وكانت بلاد الشام فى حكم الفسطاط أكثر من أن تحكمها بغداد عاصمة الخلافة ، التى استولى عليها منذ سنة بنو بويه .

انتهت على هذه الحال الفترة الأولى من دولة بنى العباس . وهى مرحلة الأفول التدريجى والتفكك البطىء . وتجسمت المرحله الموالية (٣٣٤ - ٦٥٦ / ٩٤٥ - ١٢٥٨) فى سيادة شكلية صرفة للخلفاء ، ووجدت خاتمتها الطبيعية لما سقطت بغداد نهائيا وانهار الملك الذى أقامه أبو مسلم الخراسانى . كل ما وقع أوضح أن قوة البداية المتجهة إلى المركز ، وهى قوة أتاحت إقامة مملكة عظيمة فى بضعة عقود ، وتبعتها ، حين أبطأ دفع البداية ، قوة ابتعدت عن المركز وأدت إلى ظهور أسلوب متسارع فى التفكك لا رجعة فيه ، وذلك بإطلاق ما اختمر من عناصر الانفجار التى ردعت أو خمدت لحين ، كالعصبية القبلية والعرقية والقومية ، والخلافات السياسية والدينية والضغائن الشخصية ، وطموح القادة ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية ، وكثير من العناصر الأخرى التى لا تخضع بسهولة لتحليل واضح والتى لا يمكن تعدادها جميعًا فى هذا المجال . واستولت على السلطة بالمشرق ، دول من الأهالى - ولو أنها غير عربية على كل حال - بينما تكونت بالمغرب الإسلامى الممالك المستقلة الأولى حول أسر من أصل عربى قح ونسب شريف أحيانا ، لفائدتها . إلا أن عناصر من الأهالى نجحوا فى الانتصار فى البقاع الأخرى . وسوف يرتفع هذا التطور وهذا الانتصار للمظهر الإقليمى والأهلى والبيئة إلى ذروة خطه البيانى ، ويجد فى الجملة خاتمة له منطقية فى إزالة الخلافة (مارس ١٩٢٤) التى كانت منذ أمد بعيد تلفظ أنفاسها ، إذ اعتبر أن داءها عضال [١] ، وفى بلورة القوميات تحت تأثير المذاهب الأوربية الحديثة .

---

(١) حاول بعض الفقهاء منذ العهد الوسيط - وقد تفطنوا إلى الخطر - أن ينقذوا الخلافة ، بواسطة علاجات تختلف جسارة ، وذلك بالرضا بالتطور الضرورى والضرورات التاريخية . ويمكن اعتبار تأليف الماوردى (الأحكام السلطانية) محاولة من هذا القبيل ، وكذلك الأمر بالنسبة لبعض مؤلفات الغزالى (١٠٥٨ - ١١١١) ومنها " كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد " .

الباب الثاني

تنازع الحق السياسي

الفصل الأول
الكيسانية والتيار المعادى للأمويين

١ - مضمون الكيسانية[1] السياسى :

كانت بعض العبارات التى فاه بها عثمان ، وبعض الأحاديث التى ذاعت كثيرا موضحة جدا للحالة النفسية السائدة آنذاك . [2] روى عن عثمان عندما حاصره قتلته أنه قال : " لئن قتلونى لم يصلوا بعدى جميعا أبدا ، ولم يقاتلوا عدوا جميعا أبدا " . وروى فى حديث نسب للرسول أنه قال : تدوم الخلافة بعدى ثلاثين سنة . ثم تصبح "ملكا عضوضا " .

لقد كانت حصيلة النزاعات التى أثارها دم عثمان تجاوزت فعلا كل التقديرات ، واتضح أنها غير متناهية . وكان من هذه الحركات أن خرج المختار الثقفى يطالب بثأر الحسين، وقتل أكثر الذين قتلوا حسينا بكربلاء، فانضم إليه بعض من الموالى والمحبين لآل البيت والخارجين على يزيد. وانضم هو أيضا تارة إلى ابن الزبير، وتارة أخرى يدعو إلى ابن الحنفية وتارة يختفى تحت اسم كيسان مولى علىٍّ . وليس كذلك فحسب، بل أيضا احتمى ببعض من المبادئ ينتسب بعضها إلى الراوندية كالوصية بالإمامة متنقلة بين بنى هاشم ممهدة بذلك لفرق أخرى خارجة عن الإسلام، ولكنها

---

(١) انظر عن هذه الفرقة : مروج الذهب : ٣/ ٨٧ - ومقالات الإسلاميين : ١/ ٨٩، وجعلها إحدى عشرة فرقة - والتنبيه ، لأبى الحسين الملطى : ٢٩ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، وقد سماها المختارية نسبة إلى المختار بن أبى عبيد - والحور العين : ١٥٧ - واعتقادات المسلمين للرازى : (٦٢) - والملل والنحل، للشهرستانى : ١/ ١٤٧ ، ونسبها إلى كيسان مولى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، وجعلها فرقا منها المختارية والهاشمية . وفى مقالات الإسلاميين أن كيسان لقب كان يطلق على محمد بن الحنفية . الفرق بين الفرق .

(٢) راجع طه حسين الفتنة الكبرى . عثمان ص ٢٢١ .

انضوت تحت لوائه من خلال الكيسانية ومقالات الثقفي كالبيانية . وتحت ضغط الاضطهاد السياسي ، كان يختفي بعض من نسل الحسين وبعض من بني هاشم ، فوجدوا في التراث المسيحي واليهودي من الأفكار ما يناسب تفسير اختفائهم ، فظهرت " الرجعة " و " الاختفاء " . وكانت الأفكار المسيحية قد شقت في عصر مبكر مع قادة الفرق السياسية والطامعين في التمرد والثأر . وكانت الكوفة مركز المؤتمرات ودسائس الفتن ضدالسيطرة الأموية .

أما الموالي الذين انخرطوا في سلك المختار وثورته للمطالبة بالمساواة بالعرب فقط ، فقد بدءوا على المسرح ، فيما بعد ، ضربا له أغراض معينة هو ضرب " الشعوبية " ، أي " أنصار العناصر الأجنبية " ، وقد بدءوا بالمناداة بأن جميع المسلمين متساوون ، ثم تجاوزوا ذلك إلى المناداة : بأن العرب أخطر بكثير من الأجناس الأخرى .

وأدى اعتماد المختار على الموالي إلى ظهور بعض الآراء التي يمكن وصفها بالزندقة أو بالخروج عن تعاليم الإسلام . فقد اشترى المختار كرسيا قديما من بائع زيت ، ثم أزال منه بقع الزيت ، ووقف في الناس يحدثهم عنه فيقول : إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله ، وإن كان في بني إسرائيل التابوت ، فإن فينا مثل هذا التابوت .

ويفسر البغدادي [1] سر هذه المبادئ الغريبة بأن السبئية الغلاة قد خدعت المختار وحملته على ادعاء النبوة . يفسرها بروكلمان : بأن المختار أراد أن يعوض ما كان يشعر به من نقص ، حيث لم يكن له حق في الخلافة ، ولكن يمكن تفسيرها بأنها هي المبادئ التي تناسب موالي العراق والفرس الذين عرفوا المبادئ الزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها ، بدليل رضاهم عنها .

أدت حركة المختار إلى نتائج سياسية ودينية . أما النتائج السياسية ، فأبرزها بداية حركة الشعوبية ، فقد شعر الموالي الفرس أنهم قوة سياسية لها كيانها في الدولة ، وكانت حركة المختار الحلقة الأولى من سلسلة ثورات الموالي التي انتهت بانتصارهم ، وسقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية . أما النتائج الدينية ، فهي ظهور بعض أفكار الزندقة ، وظهور الآراء التي تتعارض مع الإسلام . فقد نادى المختار بأن الدين

---

(١) الفرق بين الفرق ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

هو طاعة رجل ، فحملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة والزكاة والحج وغيرها ، فحمل بعضهم على ترك القضايا الشرعية بعد الوصول إلى طاعة الرجل كما حمل المختار البعض على ضعف الاعتقاد بالقيامة وحمل فريقا آخر على القول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت . " فمن مقتصر على واحد معتقد أنه لا يموت ولا يجوز أن يموت حتى يرجع " .

ويرى (خـودا بخش) (١) : أن الدولة الأموية مسئولة عن انضمام الموالى إلى الخوارج فأدى تتبع الولاة الأمويين للخوارج بالعراق إلى مغادرتهم مواطنهم الأصلية ، والالتجاء إلى الأطراف الشرقية للدولة الأموية حيث امتزجوا بالموالى الفرس الذين أقبلوا على معاونتهم وتأييد آرائهم ، وبذلك صارت طائفة الخوارج تضم عناصر غير عربية .

بدأ تطوير عقائد الشيعة منذ عهد على بن أبى طالب ، على يد أحد غلاة الشيعة ، وهو عبد الله بن سبأ ، الذى كان اعتناقه للإسلام ظاهريا . فنادى ابن سبأ بأن الرسول عهد إلى علىّ بالوصاية يوم " غدير خم " ، وأن « الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤلونها " . وتقبل الفرس هذه المبادئ لأن العراق كانت منبع الديانات القديمة والمذاهب الغريبة .

أدى اضطهاد الأمويين للموالى إلى عدم إخلاصهم للإسلام ، ولكنهم لم يستطيعوا الارتداد عنه ، فعقاب ذلك القتل ، فالتمسوا سعادتهم الروحية بعيدا عن الإسلام وعقائده . وقد وجدت العقائد البابية القديمة وغيرها الطريق إلى نفوس هؤلاء ، ولجأت عامة الموالى إلى تأويل الإسلام حسب أهوائهم ، لما كان يعوزهم من القوة المعنوية للارتداد عنه ومجاهرتهم بالخروج عليه ، ومن ثم استنبطوا منه ما يلائم ميولهم ويتمشى مع حاجاتهم ، على حين أنهم تركوا الكثير من الفرائض الدينية التى كانت لا تروقهم . وكانت الطريقة الفذة التى لجئوا إليها هى التأويل الذى وضع أساسه الأئمة العلويون . وهذا ما حدا بجميع الساخطين والمتذمرين من الغلاة المتطرفين إلى الانضمام إلى الشيعة

---

(١) تاريخ الغزوات الثقافية فى بلاد الإسلام - فون كريمر - تعليق خودا بخش .

فى الدعـوة إلى آل البيت . كمـا نادت الشيعة بفكرة الوراثة القـديمة الخاصـة بالملكية الإلهية وهى التى ترضى مشاعر الموالى الفرس .

نجحت الدعـوة ضد الدولة الأموية فى الكوفة والعراق وخراسان، لأنها جعلت من شعاراتها المطالبة بدم الحسين بن على ودماء أهل البيت، والدعوة إلى " الرضا من آل محمد " ولو كانت الدعوة صريحة لكل حزب وفرقة لكان مصيرها الإخفاق .

وكانت تلك البداية نقطة انطلاق وتجمع لكل الموالى، ودفعتهم إلى اعتقاد راسخ أنهم يدافعـون عن حق مغـصـوب لآل البيـت، وأنه لابد من إرجاع هذا الحق إلى أصحابه، ولا يكون ذلك إلا بكفاح الأمويين . وكان الذى صنع نسيجها الأول المختار بن أبى عبيد الثقفى (١) الذى قام مطالبا بثأر الحسين بن على بن أبى طالب، وقتل أكثر الذين قتلوا حسينا بكربلاء، وقتال الظلمة .

وكان المختار يقال له كيسان . وقيل : انه أخذ مقالته عن مولى لعليّ رضى الله عنه كان اسمه كيسان . وقد خرج بالكوفة سنة ٦٦هـ واستولى عليها

٢ ـ أمران يجمعان فرق الكيسانية :

وافترقت الكيسانية فرقا يجمعها شيئان :

أحدهما : قولهم بإمامة محمد بن الحنفية (٢) وإليه كان يدعو المختار ابن أبى عبيد .

---

(١) المختار بن أبى عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى، الذى خرج يطلب بثأر الحسين بن على . وهو الذى جهز الجيش لحرب عبيد الله بن زياد بقيادة إبراهيم بن الأشتر النخمى . فكانت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها ابن مرجانة عبيد الله بن زياد وكثيرا من أشراف الشام . وحمل إبراهيم بن الأشتر رأس ابن زياد وغيره إلى المختار بالعراق . فبعث المختار بهذه الرءوس إلى عبد الله بن الزبير بمكة . وهذا كله فى عهد عبد الملك بن مروان (مروج الذهب : ٣/ ١٠٤ وما بعدها) . وفى سنة ٦٧، سار مصعب بن الزبير فنزل حروراء والتقى بالمختار، فكانت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها المختار وقوم ممن كانوا معه (والعبر : ١/ ٧٤ - والمعارف : ٤٠٠) .

(٢) محمد بن الحنفية : هو أبو القاسم - ويقال : أبو عبد الله - محمد بن على بن أبى طالب، وأمه خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة، من بنى حنيفة بن لجيم . وقد كان محمد عالما فاضلا شجاعا، وتوفى فى سنة ٨١ (تهذيب التهذيب : ٩/ ٣٥٤ - العبر : ١/ ٩٣ - ومشاهير علماء الأمصار رقم ٤١٩) .

والثانى : قولهم بجواز البداء على الله عز وجل ، ولهذه البدعة قيل بتكفيرهم .

وكان أول من قام بدعوة الكيسانية إلى إمامة محمد بن الحنفية المختار بن أبى عبيد الثقفى . وكان السبب فى ذلك أن عبيد الله بن زياد لما فرغ من قتل مسلم بن عقيل، [1] وفرغ من قتل الحسين بن على رضى الله عنه ، رفع إليه أن المختار بن أبى عبيد كان ممن خرج مع مسلم بن عقيل ثم اختفى .

واختلف هؤلاء فى الإمام بعد أبى هاشم ، فمنهم من نقلها إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب [2] بوصية أبى هاشم إليه . وهذا قول الراوندية . ومنهم من زعم أن الإمامة بعد أبى هاشم صارت إلى بيان بن سمعان [3] وزعموا أن روح الله تعالى كانت فى أبى هاشم ، ثم انتقلت منه إلى بيان . ومنهم من زعم أن تلك الروح انتقلت من أبى هاشم إلى عبد الله بن عمرو بن حرب ، [4] وادعت هذه الفرقة إلهية عبد الله بن عمرو بن حرب .

والبيانية والحربية كلتاهما من فرق الغلاة وكان كُثيِّر [5] الشاعر على مذهب

---

(١) مسلم بن عقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب ، الهاشمى، عمه على بن أبى طالب، والحسنان ابنا عمه، وقد تقدم الحسين إلى الكوفة حين دعاه أهلها ليبايعوه . وانظر خبر مقتله فى مروج الذهب: ٣/ ٦٨ مفصلا .

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته *** والبيت يعرفه والحل والحرم

وقد اختلف فى سنة وفاته ، فقيل : فى سنة ٩٣ وقيل : فى ٩٢، وقيل : فى ٩٤ ، وقيل : فى ٩٥، وقيل : فى ١٠٠ (تهذيب التهذيب : ٧/ ٣٠٤ - ومشاهير علماء الأمصار: رقم ٤١٩) وفى المشاهير سنة ٧٣ وأحسبه تطبيعا .

(٢) هو أبو عبد الله : محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى والد الخليفتين : السفاح والمنصور . وكان دعاة العباسيين يلقبونه بالإمام، وكان عابدا عالما . وتوفى فى سنة ١٢٤ ، ويقال : فى سنة ١٢٥ (العبر: ١/ ١٦٠ - ومشاهير علماء الأمصار: رقم ١٠٠٣ - وتهذيب التهذيب : ٩/ ٣٥٥).

(٣) هو بيان بن سمعان التميمى النهدى، اليمنى مخرق ظهربالعراق فى أوائل القرن الثانى من الهجرة، وادعى أول الأمر أن جزءا إلهيا حل فى على ، ثم فى محمد بن الحنفية، ثم فى ابنه أبى هاشم، ثم فى بيان نفسه . ثم تزايدت مخرقته فادعى النبوة . ومازال يمخرق حتى أخذه خالد القسرى فقتله وصلبه (مقالات الإسلاميين : ١/ ٦٦ - والتبصير: ٧٢ - والحور العين: ١٦١ ، ٢٦٠ - والملل والنحل: ١/ ١٥٢ - وشرح المواقف : ٨/ ٣٥٨ - واعتقادات فرق المسلمين: ٥٧ - وكامل ابن الأثير : ٥/ ٨٢) .

(٤) عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى ، كان أول أمره على دين البيانية أتباع بيان بن سمعان النهدى ، ثم زعم أن روح الله انتقلت من أبى هاشم إلى عبد الله بن حرب (مقالات الإسلاميين: ١/ ٦٨ - والتبصير: ٧٣ - والحور العين: ١٦٠) .

(٥) هو أبو صخر : كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة بن الأسود . كان ينسب نفسه فى قريش، ويقال : هو أزدى من قحطان ، من شعراء الدولة الأموية ، واشتهر باسم كثير عزة . أضافوه إلى أم عمرو عزة بنت جميل من بنى حاجب بن غفار ، وكثيرا ما يسميها فى شعره الحاجبية . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، وكان خشبيا يؤمن بالرجعة (الأغانى ٨/ ١٥ - وفيات الأعيان رقم ٥١٩ - وخزانة الأدب: ٢/ ٢٧٦ - وطبقات الجمحى : ١٨٤ - والشعراء لابن قتيبة: ١/ ٤٨٠ - ومعاهد التنصيص: ٢/ ١٣٦ بتحقيقنا - ومقالات الإسلاميين: ١/ ٩٠)، وأراد بسبط إيمان وبر الحسن بن على ، وأراد بسبط غيبته كربلاء الحسين بن على ، وأراد بسبط لا يذوق الموت محمد بن الحنفية . وقد أخطأ فوق عقيدته الفاسدة لأن ابن الحنفية ليس سبطا ، لأن أمه ليست قرشية، فضلا عن أن تكون بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون ابنها سبطا .

الكيسانية الذين ادعوا حياة محمد بن الحنفية ولم يصدقوا بموته ، ولذا قال فى قصيدة له :

ألا إن الأئمة من قريش **** ولاة الحق أربعة سواء

علىّ والثلاثة من بنيه **** هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر **** وسبط غيّبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى **** يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيّب لا يرى فيهم زمانا **** برضوى عنده عسل وماء

وقد خرج المختار هاربا من الكوفة إلى مكة ، وبايع عبد الله بن الزبير [1] وبقى معه إلى أن قاتل ابن الزبير جند يزيد بن معاوية الذين كانوا تحت راية الحصين بن نمير . واشتدت نكاية المختار فى تلك الحروب على أهل الشام . ثم مات يزيد بن معاوية ورجع جند الشام إلى الشام ، واستقام لابن الزبير ولاية الحجاز ، واليمن والعراق ، وفارس .

ولقى المختار من ابن الزبير جفوة فهرب منه إلى الكوفة وواليها يومئذ عبد الله بن يزيد الأنصارى [2] من قبل عبد الله بن الزبير . فلما دخل الكوفة بعث رسله إلى شيعة الكوفة ونواحيها إلى المدائن ودعاهم إلى البيعة له ، ووعدهم أنه يخرج طالبا بثأر الحسين بن على رضى الله عنه، ودعاهم إلى محمد بن الحنفية ، وزعم أن ابن الحنفية قد استخلفه ، وأنه قد أمرهم بطاعته، وعزل ابن الزبير فى خلال ذلك عبد الله بن يزيد الأنصارى عن الكوفة، وولاها عبد الله بن مطيع العدوى، واجتمع إلى المختار من بايعه فى السر ، وكانوا زهاء سبعة عشر ألف رجل . ودخل فى بيعته عبد الله بن الحر

---

(١) هو أبو بكر - وأبو خبيب أيضا - عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلةبن أسد بن عبد العزى ، وأمه أسماء ذات النطاقين بنت أبى بكر الصديق . وهو أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة . قتله الحجاج بن يوسف الثقفى فى المسجد الحرام سنة ٧٢ فى عهد عبد الملك بن مروان ، ثم صلبه . وقيل : كان ذلك فى سنة ٧٣ (مشاهير علماء الأمصار : رقم ١٥٤ - والعبر : ١/ ٨١ - وتهذيب التهذيب : ٥/ ٢١٣ - ومروج الذهب : ٣/ ٨١) .

(٢) هو أبو أمية : عبد الله بن يزيد بن زيد بن حصين بن عمرو بن الحارث بن خطمة، شهد الحديبية وهو صغير، وشهد الجمل وصفين مع على ، واستعمله ابن الزبير أميرا على الكوفة، وكان الشعبى كاتبه (تهذيب التهذيب : ٦/ ٧٨ - المعارف: ٤٥٠ - ومشاهير علماء الأمصار: رقم ٢٧٩) .

الذى لم يكن فى زمانه أشجع منه ، وإبراهيم بن مالك الأشتر ، ولم يكن فى شيعة الكوفة أجمل منه ولا أكثر منه تبعا ، فخرج به على والى الكوفة عبد الله بن مطيع ، وهو يومئذ فى عشرين ألفا . ودامت الحرب بينهما أياما ، ووقعت الهزيمة فى آخرها على الزبيرية ، واستولى المختار على الكوفة ونواحيها ، وقتل كل من كان بالكوفة من الذين قاتلوا الحسين بن على بكربلاء . ثم خطب الناس فقال فى خطبته :

الحمد لله الذى وعد وليه النصر ، وعدوه الخسر ، وجعلهما إلى آخر الدهر مقضيا ، ووعدا مأتيا . يأيها الناس قد سمعنا دعوة الداعى وقبلنا قول الداعى فكم من باغ وباغية وقتلى فى الواعية ، فهلموا عباد الله إلى بيعة الهدى ، ومجاهدة العدى ، فأنى أنا المسلط على المحلين ، والطالب بثأر ابن بنت خاتم النبيين .

ثم نزل عن منبره وأنفذ بصاحب شرطته إلى دار عمر بن سعد حتى أخذ رأسه ، ثم أخذ رأس ابنه جعفر بن عمر ، وهو ابن أخت المختار ، وقال : ذاك برأس الحسين ، وهذا برأس ابن الحسين الكبير ، ثم بعث بإبراهيم بن مالك الأشتر مع ستة آلاف رجل إلى حرب عبيد الله بن زياد ، وهو يومئذ بالموصل فى ثمانين ألفا من جند الشام قد ولاه عليهم عبد الملك بن مروان ، فلما التقى الجيشان على باب الموصل انهزم جند الشام ، وقتل منهم سبعون ألفا فى المعركة ، وقتل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير السكونى ، وأنفذ إبراهيم ابن الأشتر برءوسهم إلى المختار . فلما تمت للمختار ولاية الكوفة والجزيرة والعراقيين إلى حدود أرمينية ، تكهن بعد ذلك وسجع كأسجاع الكهنة ، وحكى أيضا أنه ادعى نزول الوحى عليه .

فمن أسجاعه قوله : أما والذى أنزل القرآن ، وبين الفرقان ، وشرع الأديان ، وكره العصيان ، لأقتلن البغاة من أزد عمان ، ومذحج وهمدان ، ونهد وخولان ، وبكر وهزان ، وثعل ونبهان ، وعبس وذبيان ، وقيس عيلان .

ثم قال : وحق السميع العليم ، العلى العظيم ، العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم لأعركن عرك الأديم ، أشراف بنى تميم .

ثم رفع خبر المختار إلى ابن الحنفية ، وخاف من جهته الفتنة فى الدين ، فأراد قدوم العراق ليصير إليه الذين اعتقدوا إمامته . وسمع المختار ذلك ، فخاف من قدومه العراق ذهاب رياسته وولايته ، فقال لجنده : أنا على بيعة المهدى ، ولكن للمهدى علامة ، وهو أن يضرب بالسيف ضربة ، فان لم يقطع السيف جلده فهو المهدى . وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية ، فأقام بمكة خوفا من أن يقتله المختار بالكوفة .

ثم إن المختار خدعته السبئية الغلاة من الرافضة ، فقالوا له : أنت حجة هذا الزمان .

وحملوه على دعوى النبوة ، فادعاها عند خواصه ، وزعم أن الوحى ينزل عليه ، وسجع بعد ذلك فقال : أما وممشى السحاب ، الشديد العقاب ، السريع الحساب ، العزيز الوهاب ، القدير الغلاب ، لأنبشن قبر ابن شهاب ، المفترى الكذاب ، المجرم المرتاب ، ثم ورب العالمين ، ورب البلد الأمين ، لأقتلن الشاعر المهين ، وراجز المارقين ، وأولياء الكافرين ، وأعوان الظالمين ، وإخوان الشياطين ، الذين اجتمعوا على الأباطيل ، وتقولوا عليّ الأقاويل ، وليس خطابى إلا لذوى الأخلاق الحميدة ، والأفعال السديدة ، والآراء العتيدة ، والنفوس السعيدة .

ثم خطب بعد ذلك فقال في خطبته : الحمد لله الذى جعلنى بصيرا ، ونور قلبى تنويرا ، والله لأحرقن بالمصر دورا ، ولأنبشن بها قبورا ، ولأشفين منها صدورا ، وكفى بالله هاديا ونصيرا . ثم أقسم فقال : برب الحرم ، والبيت المحرم ، والركن المكرم ، والمسجد المعظم ، وحق ذى القلم ليرفعن لى علم ، من هنا إلى أضم ، ثم إلى أكناف ذى سلم .

ثم قال : أما ورب السماء ، لتنزلن نار من السماء ، فلتحرقن دار أسماء . فأنهى هذا القول إلى أسماء بن خارجة ، (١) فقال : قد سجع بى أبو إسحاق ، وإنه سيحرق دارى . وهرب من داره ، وبعث المختار إلى داره من أحرقها بالليل ، وأظهر من عنده أن نارا من السماء نزلت فأحرقتها .

ثم إن أهل الكوفة خرجوا على المختار لما تكهن ، واجتمعت السبيئة إليه مع عبيد أهل الكوفة لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال ساداتهم ، وقاتل بهم الخارجين عليه ، فظفر بهم ، وقتل منهم الكثير ، وأسر جماعة منهم . وكان فى الأسراء رجل يقال له سراقة بن مرداس البارقى (٢) فقدم إلى المختار ، وخاف البارقى أن يأمر بقتله ، فقال للذين أسروه وقدموه إلى المختار : ما أنتم أسرتمونا ولا أنتم هزمتمونا بعدتكم ، وإنما هزمنا

---

(١) هو أبو حسان : أسماء بن خارجة بن حصين بن حذيفة بن بدر ، الفزارى ، الكوفى من سادات أهل المدنية ، ومن جلة التابعين ، وتوفى فى سنة ٦٥ على الأرجح (الإصابة : رقم: ٤٤٧-ومشاهير علماء الأمصار : رقم٥٣٢) .

(٢) سراقة بن مرداس ، البارقى - نسبة إلى بارق ، وبارق : يحتمل واحدا من اثنين ، فإما أن يكون قبيلة من قبائل اليمن منهم معقر بن حمار البارقى الشاعر ، وإما أن يكون موضعا قريبا من الكوفة وفيه يقول الأسود ابن يعفر :

أرض الخورنق والسدير وبارق *** والقصر ذى الشرفات من سنداد

(لسان العرب : برق) .

الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البلق فى عسكركم ، فأعجب المختار قوله هذا ، فأطلق عنه ، فلحق بمصعب بن الزبير [(١)] بالبصرة ، وكتب منها إلى المختار هذه الأبيات :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى *** رأيت البق دهما مصمتات

أرى عينى ما لم تنظراه *** كلانا عالم بالترهات [(٢)]

كفرت بوحيكم وجعلت نذرا *** على قتالكم حتى الممات

وفى هذا الذى ذكرناه بيان سبب كهانة المختار ودعواه الوحى إليه .

وأما سبب قوله بجواز البَدَاء : على الله عز وجل ، فهو أن إبراهيم بن الأشتر لما بلغه أن المختار تكهن وادعى نزول الوحي إليه قعد عن نصرته ، واستولى لنفسه على بلاد الجزيرة . ، وعلم مصعب بن الزبير [(٣)] أن إبراهيم بن الأشتر [(٤)] لا ينصر المختار ، فطمع عند ذلك فى قهر المختار ، ولحق به عبيد الله بن الحر الجعفى [(٥)] ومحمد بن الأشعث

---

(١) هو مصعب بن الزبير بن العوام ولاه أخوه عبد الله العراق ، وحرب المختار ، فدخل البصرة وتأهب منها ، ثم سار لحرب المختار وعلى ميمنته وميسرته المهلب بن أبى صفرة وعمرو بن عبيد الله التيمى ، فقتلوا من جند المختار عددا عديدا ، ثم ساروا فدخلوا الكوفة ، وحصروا المختار بقصر الإمارة أياما إلى أن قتل فى رمضان من سنة ٦٧ . وفى سنة ٧٢ تجهز عبد الملك بن مروان وسار يقصد مصعب بن الزبير بالعراق ، فالتقى الجمعان فخان مصعبا بعض جيشه ولحق قوم منهم بعبد الملك وقد كان كتب إليهم يعدهم ويمنيهم ، فأثخنوا مصعبا بالجراح ، ثم شد عليه واحد منهم فطعنه وهو يقول : يالثارات المختار (العبر : ١/ ٧٥ ، وشذرات الذهب : ١/ ٧٤ - ومشاهير علماء الأمصار : رقم ٤٥٧ ، وذكر أن مقتله فى سنة ٧١ وله تسع وثلاثون سنة ، والمعارف ٢٢٤) .

(٢) يروى علماء الصرف هذا البيت " أرى عينى ما لم تر إياه " على أنه رجوع إلى الأصل المهجور . وقد رواه على هذا الوجه الذى ذكرناه ابن منظور فى لسان العرب " رأى " وذكر أنه يروى " ما لم ترياه " بغير همز .

(٣) قد تقدمت ترجمة مصعب بن الزبير أعلاه .

(٤) إبراهيم بن الأشتر ، النخعى الذى وجه المختار بن أبى عبيد لقتال عبيد الله بن زياد فالتقى جيشاهما بقرب الزاب ، فقتل عبيد الله بن زياد ، قتله محمد بن مروان بن الحكم بدير الجاثليق بين الشام والكوفة . وقد سمى أصحاب إبراهيم بن الأشتر " الخشبية " لأنهم لقوا مصعب بن الزبير ومعهم الخشب وهو أكثر سلاحهم .

(٥) هو عبيد الله بن الحر الجعفى : كان من قواد العرب ذوى النجدة ، وكان مع ذلك - من فحولة الشعراء ، كان أول أمره معدودا فى أصحاب عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، فلما قتل عثمان تحيز إلى معاوية بن أبى سفيان ، وشهد معه صفين . فلما كان زمن عبد الله بن الزبير خرج عليه ، وكانت بينه وبين مصعب منافسات ومنازعات ومناوشات ، وقد حاربه وصمد له ، ولكن أصحابه تفرقوا عنه ، فلما رأى الدائرة عليه خشى على نفسه الأسر فألقى بنفسه فى الفرات فمات غريقا فى سنة ٦٨ (انظر تاريخ ابن الأثير فى حوادث ٦٨) .

الكندى [١] وأكثر سادات الكوفة ، غيظا منهم على المختار ، لاستيلائه على أموالهم وعبيدهم ، وأطمعوا مصعبا فى أخذ الكوفة قهرا .

فخرج مصعب من البصرة فى سبعة آلاف رجل من عنده سوى من انضم إليه من سادات الكوفة ، وجعل على مقدمته المهلب [٢] بن أبى صفرة مع أتباعه من الأزد ، وجعل أعنة الخيل إلى عبيد الله [٣] بن معمر التيمى وجعل الأحنف بن [٤] قيس على خيل تميم .

فلما انتهى خبرهم إلى المختار ، أخرج صاحبه أحمد بن شميط [٥] إلى قتال مصعب فى ثلاثة آلاف رجل من نخبة عسكره ، وأخبرهم بأن الظفر يكون لهم ، وزعم أن الوحى قد نزل عليه بذلك . فالتقى الجيشان بالمدائن ، وانهزم أصحاب المختار وقتل أميرهم ابن شميط وأكثر قواد المختار ، ورجع فلولهم إلى المختار . وقالوا له : لماذا تعدنا بالنصر على عدونا ؟ فقال : إن الله تعالى كان قد وعدنى ذلك ، لكنه بدا له . واستدل على ذلك بقول الله عز وجل : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾[٦] .

فهذا كان سبب قول الكيسانية بالبَدَاء . ثم إن المختار باشر قتال مصعب بن الزبير بنفسه بالمذار من ناحية الكوفة ، وقتل فى تلك الواقعة محمد بن الأشعث الكندى . قال

(١) هوأبوقيس محمدبن الأشعث بن قيس الكندى، وأمه أخت خليفة رسول الله أبى بكرالصديق رضى الله تعالى عنه، وقدقتل محمد هذا فى سنة ٦٧ .

(٢) هو المهلب بن أبى صفرة القائد الباسل ، واسم أبى صفرة ظالم بن سراق الأزدى أزد العتيك ، غزا المهلب أرض الهند فى سنة أربع وأربعين ، ووصل إلى قندابيل بأرض السند، وكان أميرا فى جيش سعيد بن عثمان بن عفان الذى وجهه معاوية على خراسان فغزا سمرقند، وقد ولى المهلب بعد ذلك خراسان لابن الزبير ، وحارب الأزارقة وأباد منهم ألوفا فى سنة ٦٥ وكان على ميمنة جيش مصعب الذى حارب المختار بن أبى عبيد ، وتوفى المهلب فى ذى الحجة من سنة ٨٢ بمرو الروذ، وكانت ولادته فى عام الفتح ويقال إن لأبيه صحبة (العبر : ١/ ٩٥ - المعارف: ٣٩٩) .

(٣) عبيدالله بن معمرالتيمى ، أحد بنى تيم بن مرة رهط أبى بكر الصديق وقد وقع فى أصل هذا الكتاب "التميمى " وهو خطأ صوابه ما ذكرنا .

(٤) هوأبوبحر : صخربن قيس - ويقال : الضحاك بن قيس - بن معاوية بن حصن بن عباد بن مرة بن عبيد أحد بنى تميم وقد أسلم ولم يفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما كان زمن عمر وفد عليه ، وشهد صفين مع على رضى الله عنه ولم يشهد الجمل مع أحد الفريقين. فلما كان زمن عبدالله بن الزبير خرج مع مصعب إلى الكوفة وفيها مات وقد كبرت سنه جدا (المعارف: ص ٤٢٣). وهو مضرب المثل فى الحلم وكانت وفاته فى سنة٧٢ (العبر : ١/ ٨٠) وقال ابن حبان : توفى فى سنة ٦٧ (مشاهير علماء الأمصار: رقم ٦٤١) .

(٥) لم أقف لأحمد بن شميط على أكثر مما تفيده هذه العبارة من أنه كان من أصحاب المختار وقواده .

(٦) من الآية ٣٩ من سورة الرعد .

المختار : طابت نفسي بقتله إن لم يكن قد بقي من قتلة الحسين غيره ، ولا أبالى بالموت بعد هذا . ثم وقعت الهزيمة على المختار وأصحابه ، فانهزموا إلى دار الإمامة بالكوفة ، وتحصن فيها مع أربعمائة من أتباعه ، وحاصرهم مصعب فيها ثلاثة أيام ، حتى فنى طعامهم ، ثم خرجوا إليه في اليوم الرابع مستقتلين ، فقتلوا وقتل المختار معهم ، قتله أخوان يقال لهما طارف وطريف ابنا عبدالله بن دجاجة من بنى حنيفة :

وقال أعشى همدان في ذلك :

لقد نبئت والأنباء تنمى *** بما لاقى الكوارث بالعذار

وما أن سرنى إهلاك قومى *** وإن كانوا وحقك فى خسار

ولكنى سررت بما يلاقى *** أبو إسحاق من خزى وعار

فهذا بيان سبب قول الكيسانية بجواز البداء على الله عز وجل .

* * *

واختلفت الكيسانية الذين انتظروا محمد بن الحنفية : وزعموا أنه حى محبوس بجبل رضوى إلى أن يؤذن له بالخروج ، واختلفوا فى سبب حبسه هنالك بزعمهم .

فمنهم من قال : لله فى أمره سر لا يعلمه إلا هو ، ولا يعرف سبب حبسه .

ومنهم من قال : إن الله تعالى عاقبه بالحبس لخروجه بعد قتل الحسين بن على إلى يزيد بن معاوية ، وطلبه الأمان منه ، وأخذ عطائه ، ثم لخروجه فى وجه ابن الزبير من مكة إلى عبد الملك بن مروان هاربا من ابن الزبير . وزعموا أن صاحبه عامر بن واثلة الكنانى سار بين يديه ، وقال فى ذلك المسير لأتباعه :

يا إخوتى ، يا شيعتى لا تبعدوا *** ووازروا المهدى كيما تهتدوا

محمد الخيرات ، يا محمد *** أنت الإمام الطاهر المسدد

لا ابن الزبير السامرى الملحد *** ولا الذى نحن إليه نقصد

وقالوا : إنه كان يجب عليه أن يقاتل ابن الزبير ولا يهرب ، فعصى ربه بتركه قتاله ، وعصاه بقصده عبد الملك بن مروان ، وكان قد عصاه قبل ذلك بقصده يزيد بن معاوية ، ثم إنه رجع من طريقه إلى ابن مروان إلى الطائف ، ومات بها ابن عباس ودفنه ابن

الحنفية بالطائف ، ثم سار منها إلى الذر ، فلما بلغ شعب رضوى اختلفوا فيه ، فزعم المقرون بموته أنه مات فيه ، وزعم المنتظرون له أن الله حبسه هنالك وغيبه عن عيون الناس عقوبة له على الذنوب التى أضافوها إليه ، إلى أن يؤذن له بالخروج ، وهو المهدى المنتظر .

كان طموح القادة وجميع الأمزجة القوية الباحثة عن المغامرات ، يشكل تهديدا كبيرا بالنسبة لوحدة المملكة ، خاصة وأنه وجد حليفا قويا فى الروح العصبية للقبائل والأجناس والتقاليد واللغات ، وهى خاصيات إقليمية تطفو كلما أتاحت الظروف ذلك فى شكل انقسامات قبلية وعرقية وقومية ولغوية . أينما حل العرب ، كانت تمزقهم نزاعاتهم القبلية القديمة وتحركهم روح الفوضى والاستقلال القديمة ، التى أنسوا بها فى مسقط رأسهم ببلاد العرب ، والتى امتحنت امتحانا عسيرا ، عند وفاة الرسول ، الدولة الفتية المتولدة عن الدعوة الإسلامية التى عجزت عن محو الاحقاد الموروثة عن الجاهلية ، رغم النداءات الملحة إلى التآخى استنفد رؤساؤهم خاصة قادة الجند قواهم فى نزاعات بين الأشقاء ، للاستيلاء على الحكم والتفوق الذى كان يدعيه العرب كان له من جهة أخرى مفعول أثار ظهور الشعوبية بجميع أشكالها ، سواء اصطبغت بلون المانوية أو الشيعة أو الخوارج أو فرق أخرى غيرها .

إن مطالب " الشعوب " كانت تعلن عن اليقظة وهيجان القوميات أحيانا خاصة أن الناس كانوا يؤملون من الثورة على السلطة حياة أحسن ، ويجب أن نقول إن أملهم لم يخب دائما . وغالبا ما كان إشارة للتفاؤل وكانت الجباية بلا شك التى كانت جائرة ومصحوبة بأصناف التناقضات الاجتماعية ، كادت هذه الجبايات تضعف السلطة المركزية ، وبالتالى فقد كانت تعد العدة للتفكك . إن ثورة بنى كرين (١) فى طبرستان التى قادها " ونداد بن هرمز " وبلغ بها أقصى حدها فى مازيار الذى روى عنه " أنه أمر المزارعين بمهاجمة أوليائهم ونهبهم " وثورة بابك وثورة الزنج كذلك لا تدرك تماما إلا فى سياق عرقى واجتماعى واقتصادى ساعد على النزاعات والانفصالات . وكذلك كان الأمر بالمغرب فى خصوص الاضطرابات التى سبقت انتصاب المملكات المستقلة .

٣ – طموح الموالى وراء ثورة المختار وابن الأشعث :

ألقى أليفريد فون كريمر (Alfred Von Kremer) على ثورة ابن الأشعث

(١) دولة الأغالبه – د . محمد الطالبى .

نورا جديدا ، أعشى به بصر آخرين مثل ا . موللر ، وج . فان فلوتن (صاحب كتاب بحوث فى السيادة العربية) ذلك أنه يجعل ثورة ابن الأشعث راجعة إلى طموح من جانب الموالى ، أعنى الرعايا الذين دخلوا الإسلام فى الكوفة والبصرة ، للحصول على المساواة بطبقة الأشراف الحاكمين ، أعنى العرب ، وللتخلص من دفع الجزية ، وإلى طموحهم إلى أن تقيد أسماؤهم فى ديوان أصحاب الأعطيات - وكانت هذه الأعطيات رمزا يدل على شرف العرب .

يقول فون كريمر (١) : أمر الحجاج بأن يدفع من دخل فى الإسلام ، أعنى كل الطبقة الكبيرة من المسلمين الجدد ، ضريبة الرأس ، كما كانوا يدفعونها قبل إسلامهم . وهذا إجراء كان من أثره ثورة مريعة قام بها المسلمون الجدد ومواليهم . وقد اشترك فيها بنوع خاص كثير من الناس من أهل البصرة ومن المقاتلة القدماء والموالى والقراء . وفى رواية أنه كان من هؤلاء الثوار مائة ألف رجل مقيدين فى ديوان الاعطيات ، أو إذا أردنا أن نعبر تعبيرا حديثا ، هم كانوا من فرق المقاتلة فى الأمصار ، وقد انضم إليهم مثلهم . وقد قهر الحجاج هؤلاء الثوار وأعادهم إلى رشدهم ، وصمم على أن يشتت كل طائفة الموالى تشتيتا لا يجتمع بعده شمل ، حتى لا يستطيعوا أن يتجمعوا من جديد لتكوين معارضة موحدة ، فأمر باستدعائهم أمامه وقال لهم : إنكم عجم وعلوج أشقياء ، والأجدر بكم أن تبقوا فى قراكم . وبعد ذلك أمر بأن يفرقوا فى القرى ، وشتت جمعهم تشتيتا تاما . ولكى لا يستطيع أحد أن يرحل عن القرية التى أمره بالمقام فيها ، فإنه أمر بأن يطبع على يد كل واحد اسم القرية التى يجب عليه ألا يبرحها . ويعتمد فون كريمر على رواية للجاحظ فى كتابه " الموالى والعرب " (٢) .

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب " الموالى والعرب " أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ولقى ما لقى من أهل العراق ، كان أكثر من قاتله وخرج عليه الفقهاءوالمقاتلة والموالى من أهل البصرة . فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ويتعاقدوا . فأقبل على الموالى وقال : أنتم علوج وعجم ، وقراكم أولى بكم . ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب ، وصيرهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه إليها .

(١) تاريخ الغزوات الثقافية فى بلاد الإسلام - مع تعليقات خدا بخش .

(٢) يراجع العقد الفريد : ابن عبد ربه ج٢ ص٩٣ . الطبرى : ج٢ ص١١٢٢ ، ابن الأثير : ج٤ ص٣٠٩ .

وعلى هذا، فقد كان ما اتخذه الحجاج من إلزام الموالى البقاء فى قراهم أحد الإجراءات التى اتخذها لكسر القوة التى أصبحت بعد التجارب السابقة . خطرا عليه فى مدينة البصرة ، بعد أن اتسعت اتساعا عظيما . وكان من هذه التجارب ثورة ابن الأشعث ، وكانت قبلها بسنين ثورة ابن الجارود، ولا نجد أكثر من ذلك . أما الموالى الذين كان الحجاج قد أخرجهم ، فيروى أنهم انضموا إلى القراء الذين كانوا يعطفون عليهم إلى ابن الأشعث ، ولكن لا ذكر عندالطبرى للقول بأن الثورة جاءت من الموالى .

ولا شك فى أن ثورة المختار لم تقض قضاء تاما على طموح هؤلاء المسلمين الجدد إلى الارتفاع ، وأن الحجاج كان يعالج الصعوبات التى نشأت من دخول الموالى فى الإسلام طلبا للمساواة السياسية وفرارا من الجزية . ولا شك أيضا فى أن ثورة ابن الأشعث كان مهدها الحقيقى فى الكوفة ، شأنها شأن ثورة المختار ، ولذلك استطاع الفرزدق أن يقول ، على سبيل الذم : كما أن الكوفيين كانوا من قبلُ سبئية ، يعنى أتباعا للمختار ، فهم اليوم أتباع للثائر الجديد ابن الأشعث (١) . ولم يكن الموالى هم الذين طبعوا ثورة ابن الأشعث بطابعها الخاص على أنه إذا كان الموالى قد اشتركوا فى الثورة فإن ذلك لا يجعلها ثورة الموالى . ومن الجائز أيضا أنه قد كانت للموالى مصلحة خاصة فى معاداة حكومة الشام التى كانت عماد العروبة ، ولكنهم لم يكونوا أكثر من مؤيدين ، ولم تأت الثورة منهم ، بل من جانب جيش " الطواويس " ، وهو الجيش الذى كان يؤلفه أهل العراق والذى انضمت إليه مسالح سائر الولايات والثغور . وقد قام هذا الجيش بالثورة لما صار فى سجستان .

وقد كان الموالى فى ثورات كل من المختار وابن الأشعث يعدون بالآلاف ، ورغم هذه الأعداد فإنه لا يغرب عن بالنا أنه لم تكن واحدة من هاتين الثورتين حركة من حركات الموالى الخالصة لكنه من الطبيعى أن يتعاون الموالى مع الخارجين على السياسة الأموية لوحدة الهدف المشترك فى كل من الثورتين (٢) .

---

(١) راجع ديوان الفرزدق : ص ٢١١ .

(٢) تاريخ الغزوات الثقافية فى بلاد الإسلام – فون كريمر – تعليقات خدا بخش – ترجمة د . مصطفى بدر .

٤ ـ فرق الرافضة :

كان عبد الله بن وهب بن سبأ (*) قد أفضى بذات نفسه إلى بعض شيعة على وأفهمهم أن ما يخرق به على الناس ، من تمجيد على وتأليهه تارة ، والقول بأنه وصى الرسول تارة أخرى ، إنما هو خدعة ابتدعها لينتزع بها إعجاب العامة من أصحاب عليّ. وهو فى حقيقة الأمر يريد أن يفسد على على أصحابه ، وأخذ عليهم العهود أن يفعلوا هم ذلك إن اخترمته المنون قبل أن يبلغ ما يريد .

ومهما يكن من شيء ، فقد قال أبو الحسين الملطى رحمه الله : إن أهل الضلال الرافضة ثمانى عشرة فرقة يتلقبون بالإمامية ، (١) وأنا أذكرها إن شاء الله على رتبها :

فأولهم : الفرقة الغالية من السبئية وغيرهم ، وهم أصحاب عبد الله بن سبأ . قالوا لعلى عليه السلام : أنت أنت . قال : ومن أنا ؟ قالوا : الخالق البارئ .

فاستتابهم ، فلم يرجعوا ، فأوقد لهم نارا ضخمة وأحرقهم وقال مرتجزا :

لما رأيت الأمر أمرا منكـرا *** أججت نارى ودعوت قنبـرا

فى أبيات له رضى الله عنه . وقد بقى منهم إلى اليوم طوائف يقولون ذلك ، ويتلون من القرآن﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾ (٢) .

وهم يقولون : إن عليا مات ، ولا يجوز عليه الموت ، وهو حى لا يموت . ويقال لما جاءهم نعى على إلى الكوفة رحمة الله عليه ، قالوا : لو أتيتمونا بدماغه فى سبعين قارورة لم نصدق بموته . فبلغ ذلك الحسن بن على رضى الله عنهما فقال : فلم ورثنا ماله ، وتزوج نساؤه ؟ !

والفرقة الثانية من السبئية يقولون : إن عليا لم يمت ، وإنه فى السحاب ، وإذا

---

* ألف السيد مرتضى العسكرى من علماء الشيعة كتابا عنوانه : " عبد الله بن سبأ " يرى فيه : أن شخصية عبد الله بن سبأ شخصية مزعومة ، والحديث عنها حديث خرافه وفق أدلة تاريخية راقت له . وهى لا شك فى أنها تحتاج إلى دراسة – والهدف من الدراسة ، هو رفض ما جرى عليه عرف المؤرخين فى جعل عبد الله بن سبأ بأوصافه التاريخية أصلا للشيعة ومفرداتها الاصطلاحية . وسنعرض له فى كتابنا قيد الدراسة عن الشيعة .

(١) والمعروف أن الإمامية هم الاثنا عشرية ، وجعلها المؤلف تشتمل صنوف الروافض الذين لهم رأى ما فى الإمامة ، ولا مشاحة فى الاصطلاح إلا أن الرفض لا يشمل معظم الزيدية (ز) .

(٢) سورة القيامة : ١٧ ، ١٨ .

نشأت سحابة بيضاء صافية منيرة ، مبرقة ، مرعدة قاموا إليها يبتهلون ، ويتضرعون ويقولون : قد مر عليّ بنا في السحاب .

والفرقة الثالثة من السبئية هم الذين يقولون : إن عليا قد مات، ولكن يبعث قبل القيامة، ويبعث معه أهل القبور حتى يقاتل الدجال ، ويقيم العدل والقسط في العباد والبلاد. وهؤلاء لا يقولون إن عليا هو الله، ولكن يقولون بالرجعة .

والفرقة الرابعة من السبئية يقولون بإمامة محمد بن على ، ويقولون : هو في جبال رضوى [1] حي لم يمت، ويحرسه على باب الغار الذى هو فيه تنين وأسد ، وإنه صاحب الزمان يخرج ويقتل الدجال ويهدى الناس من الضلالة ويصلح الأرض بعد فسادها .

وهؤلاء الفرق كلهم يقولون بالبَداء ـ إن الله تبدو له البداءات ـ وكلاما لا أستجيز شرحه في كتاب ولا أقدم النطق به ، وهؤلاء كلهم أحزاب الكفر ، وفرق الجهل ، فمتى لم يقروا بموت محمد وعلى رضى الله عنهما ، فالضرورة إلى المكابرة ، وأينما كانوا لا حجة لهم . وأما قولهم إن عليا هو الإله القديم فقد ضاهوا بذلك قول النصارى، وقد تقدم بالرد على النسطورية من النصارى أن ذا جسم وكيفية لا يكون إلها . فكذلك قولهم في الرجعة أكذبهم فيه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ [2] يخبر أن أهل القبور لا يبعثون إلى يوم النشور ، فمن خالف حكم القرآن فقد كفر .

وقولهم : عليّ في السحاب، فإنما ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى أقبل وهو معتم بعمامة للنبى صلى الله عليه وسلم كانت تدعى السحاب ، فقال صلى الله عليه وسلم " قد أقبل عليّ في السحاب " يعنى في تلك العمامة التى تسمى السحاب فتأولوه[3] هؤلاء على غير تأويله .

الفرقة الخامسة : هم القرامطة ، والديلم ، وهم يقولون : إن الله نور علوى لا تشبهه الأنوار ولا يمازجه الظلام ، وإنه تولد من النور العلوى النور الشعشعانى فكان

(١) جبال في الحجاز شمال ينبع، مطلة على البحر الأحمر . والتنين : ثعبان عظيم .

(٢) المؤمنون: ١٠٠ مكية.

(٣) هكذا في الأصل والقياس فتأوله .

منه الأنبياء والأئمة فهم بخلاف طبائع الناس . وهم يعلمون الغيب ويقدرون على كل شيء ، ولا يعجزهم شيء ويقهرون ولا يقهرون ، ويعلمون ولا يعلمون ، ولهم علامات معجزات ، وأمارات ، ومقدمات قبل مجيئهم وظهورهم وبعد ظهورهم يعرفون بها . وهم مباينون لسائر الناس فى صورهم وأطباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ، وزعموا أنه تولد من النور الشعشعانى نور ظلامى وهو النور الذى تراه فى الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنار ، والجواهر ، الذى يخالطه الظلام ، وتجوز عليه الآفات والنقصان ، وتحل عليه الآلام والأوصاب ، ويجوز عليه السهو والغفلات ، والنسيان، والسيئات ، والشهوات ، والمنكرات ، غير أنه الخلق كله تولد من القديم البارئ ، وهو النور العلوى الذى لم يزل ولا يزال ، ولا يزول ، سبق الحوادث وأبدع الخلق من غير شيء كان قبله ، قدره نافذ ، وعلمه سابق ، وإنه حى لا بحياة ، وقادر لا بقدرة ، وسميع بصير لا بسمع ولا ببصر ، ومدبر لا بجوارح ولا آله . فيصفون الإله جل وعز كما يصفه الموحدون مع قولهم : إنه نور لا يشبه الأنوار ، ثم يزعمون أن الصلاة ، والزكاة ، والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض ، وإنما هو شكر للمنعم ، وإن الرب لا يحتاج إلى عبادة خلقه ، وإنما ذلك شكرهم فمن شاء فعل ، ومن شاء لم يفعل ، والاختيار فى ذلك إليهم، وزعموا أنه لا جنة ولا نار ، ولا بعث ولا نشور ، وأن من مات بلى جسده ، ولحق روحه بالنور الذى تولد منه حتى يرجع كما كان .

وقوم منهم يقولون بتناسخ الروح ونذكره إذا أتينا عليهم ، وزعموا أن كل ما ذكر الله عز وجل فى كتابه من جنة ، ونار ، وحساب ، وميزان ، وعذاب ، ونعيم ، فإنما هو فى الحياة الدنيا فقط من الأبدان الصحيحة ، والألوان الحسنة ، والطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، والأشياء المبهجة التى تنعم فيها النفوس .

والعذاب : هو الأمراض ، والفقر ، والآلام ، والأوصاب وما تتأذى به النفوس . وهذا عندهم الثواب والعقاب على الأعمال ، وهم يقولون بالناسوت فى اللاهوت على قول النصارى سواء، يزعمون أن الإنسان هو الروح فقط ، وأن البدن هو مثل الثوب الذى هو لابسه فقط ، ويزعمون أن كل ما يخرج من جوف واحد منهم من مخاط ، ونخاع ، ورجيع ، وبول ، ونطفة ، ومذى ودم وقيح ، وصديد ، وعرق ،

فـهـو طاهر نظيف حـتى ربما أخـذ بعـضـهم من رجـيع بعض فـأكله لعلمـه أنه طاهر نظيف(١) .

وزعـمـوا أن من قـال بهذا القـول ، واعـتـقـد هذا المذهب فـهـو مـؤمن ، ونسـاؤهم مؤمنات ، محقنو الدماء ، محقنو الأموال . ومن خالفهم فى قولهم ، واعتقادهم فهو كافر مشرك حلال الدم والمال والسبى ويسمى بعضهم بعضا المؤمنين ، والمؤمنات . وزعـمـوا أن نساء بعضـهم حلال لبعض ، وكـذلك أولادهم ، وأبدانهم مباحة من بعضهم لبعض لا تحظير بينهم ولا منع . فهذا عندهم محض الإيمان حتى لو طلب رجل منهم من امرأة نفسها ، أو من رجل ، أو من غلام فامتنع عليه فهو كافر عندهم ، خارج من شريعتهم ، وإذا أمكن من نفسه فهو مؤمن مواس فاضل . والمفعول به من الرجال والنساء أفضل عندهم من الفاعل ، حتى يقوم الواحد منهم من فوق المرأة التى لها زوج وليست بمحرم فيقول لها : طوباك يا مؤمنة . وهكذا يقولون للرجل والغلام إذا أمكن من نفسه . وكذلك أموالهم ، وأملاكهم لا يحظرونها من بعض على بعض مباحة بينهم وهـم فى الحرب لا يدبرون حتى يقتلوا ، ويقـولـون : حياة بد القـتل والموت ، إنا نخلص أرواحنا من قذر الأبدان وشهواتها ونلحق بالنور ، وهم يرون قتل من خالفهم لا يتحاشون من قتل الناس وليس عندهم فى ذلك شىء يكرهونه .

فأما شرب الخمور ، والمنكر ، والملاهى ، وسائر ما يفعله العصاة ، فهو عندهم شهوات إن شاء فعلها وإن شاء تركها ، ولا يرون فيها وعيدا ، ولا فى تركها ثوابا . وهؤلاء قوم سبيلهم سبيل المانية سواء ، والرد عليهم فى النور كالرد على المانية ، وهم ظاهرو الجهل والعماء .

والفرقة السادسة : هم أصحاب التناسخ ، وهم فرقة من هؤلاء الحلولية يقولون : إن الله عز وجل نور على الأبدان والأماكن ، زعموا أن أرواحهم متولدة من الله القديم وأن البدن لباس لا روح فيه ولا ألم عليه ولا لذة له ، وأن الإنسان إذا فعل الخير ومات وصار روحه إلى حيوان ناعم مثل فرس ، وطير ، وثور مودع يتنعم فيه ثم يرجع إلى بدن الإنسان بعد مدة . وإذا كان نفسا خبيثة شريرة ومات صار روحه فى بدن حمار

---

(١) وفى الهامش : قلت أنا أصدق المصنف رضى الله عنه كان المسمى منيرا الصوفى قبحه الله قدم إلينا فى سنة خمس وأربعين وخمسمائة وذكر أنه هو أكل رجيع شيخ كان له وخطب ذلك من بعض أصحابى وقال له : أكلت غائط الشيخ يعنينى وذكر ذلك عن نفسه وهو شيخ متدين له أصحاب وهو مشهور قبحه الله أهـ .

دبر(١) أو كلب جرب، يعذب فيه بمقدار أيام عصيانه ، ثم يرد إلى بدن الإنسان ، لم تزل الدنيا هكذا ، ولا تزال تكون هكذا وهذا مذهب الخرمية سواء ، وسنذكر الحجة على الجميع فى موضعها إن شاء الله .

وأما الفرقة السابعة من الحلولية فهم الذين يقولون : إن الله تبارك وتعالى بعث جبريل إلى على فغلط جبريل وصار إلى محمد عليه السلام، فاستحيا الرب وترك النبوة فى محمد صلى الله عليه وسلم وجعل عليا وزيره والخليفة بعده .

والفرقة الثامنة من الحلولية زعموا أن عليا ومحمدا عليهما السلام شريكان فى النبوة وأن الرسالة إليهما ، وأن طاعتهما ومعصيتهما واحد لا فرق بينهما ، وأن عليا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقول النبى عليه السلام " أنت منى بمنزلة هارون من موسى " . (٢) وهؤلاء جهال وقد خالفوا الأمة ، والكتاب ، والسنّة ، والعقل ، والحجة عليهم آخر كتابنا هذا فى باب الحجاج .

والفرقة التاسعة : هم المختارية الذين يقولون بنبوة المختار بن أبى عبيد وينحون نحو التناسخية من الحلولية .

والفرقة العاشرة : هم السمعانية الذين يقولون بنبوة ابن سمعان (٣) وينحون نحو التناسخ أيضا . وقد ذكرت مذاهبهم أولا وآخرا لتعرفوا ذلك وتحذروا إن شاء الله .

الفرقة الحادية عشرة : هم الجارودية ، وهم بين الغالية والتناسخية ، لا يفصحون بالغلو ويقولون : إن الله عز وجل نور ، وأرواح الأئمة والأنبياء منه متولدة ، وينحون نحو التناسخ . ولا يقولون بانتقال الروح من جسد إنسان إلى جسد غير إنسان ، بل يقولون بانتقال الروح من جسد إنسان ردىء إلى جسد إنسان مؤلم ممرض، فتعذب فيه مدة بما عمل من الشر والفساد، ثم تنقل إلى جسد إنسان متنعم فتنعم فيه طول ما بقيت فى الجسد الأول .

وهؤلاء قد غلطوا فى تأويل هذه الآية . وإنما تأويلها : أن قريشا ومشركى العرب كانوا يشكون فى النشأة الآخرة ويوقنون بالنشأة الأولى ، ولا يجيزون قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى . فقال الله عز وجل يحتج عليهم بالنشأة الأولى قوله : ﴿**أفعيينا**﴾ أى عجزنا ﴿ **بالخَلْق الأوَّل** ﴾ يعنى أن ابتدعته من غير شىء وهم لا

---

(١) الحمار الدبر : الذى فى ظهره جرح .

(٢) رواه أحمد والبزار والطبرانى، وتكملة الحديث " إلا انه لا نبى بعدى " .

(٣) هو : بيان بن سمعان .

يشكون فيه ﴿ بل هم في لَبْس ﴾ أي شك ﴿ من خَلْق جديد ﴾ [1] أي ابتداع الشيء أقرب في الوهم من إعادته ، وهؤلاء تأولوه على الأكوار .

الفرقة الثانية عشرة من الإمامية : هم أصحاب هشام بن الحكم ، يعرفون بالهاشمية ، وهم الرافضة الذين روى فيهم الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يرفضون الدين . وهم مشتهرون بحب على رضى الله عنه فيما يزعمون ، وكذب أعداء الله وأعداء رسوله وأصحابه ، وإنما يحب عليا من يحب غيره . وهم أيضا ملحدون ، لأن هشاما كان ملحدا دهريا ، ثم انتقل إلى الثنوية والمانية ، ثم غلبه الإسلام فدخل في الإسلام كارها ، فكان قوله في الإسلام بالتشبيه والرفض ، وسأذكر الرد على المشبهة إن شاء الله .

وأما قوله بالإمامة ، فلم نعلم أن أحدا نسب إلى على رضى الله عنه وولده عيبا مثل هشام لعنه الله . والله نحمد ، قد نزع من على وولده عليهم السلام العيوب والأرجاس وطهرهم تطهيرا . يقول الملطى : وما قصد هشام بقوله في الإمامة قصد التشيع ولا محبة أهل البيت ، ولكن طلب بذلك هدم أركان الإسلام والتوحيد ، والنبوة فأراد هدمه . وانتحل في التوحيد والتشبيه ، فهدم ركن التوحيد ، وساوى بين الخالق والمخلوق . ثم انتحل محبة أهل البيت ، ونشر عنهم أو طعن على الكتاب والسنة وكفر الأمة التي هي حجة الله على خلقه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكفرهم ونسب إليهم الردة والنفاق ، فعمل على هدم الإسلام العمل الذى لم يقدم عليه أحد من أعداء الإسلام ، فالله يحكم فيه يوم القيامة بسوء كيده .

فزعم هشام لعنه الله أن النبي عليه الصلاة والسلام نص على إمامة علىّ في حياته بقوله " مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ [2] مولاه " وبقوله لعلى " أَنْتَ منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى " وبقوله " أنا مدينة العلم وعلىّ بابها " [3] وبقوله لعلى " تقاتل على تأول القرآن كما قاتلت على تنزيله " ، وأنه وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته في ذريته وهو خليفة الله في أمته ، وأنه أفضل الأمة وأعلمهم ، وأنه لا يجوز عليه السهو ولا الغفلة ، ولا الجهل ، ولا العجز ، وأنه معصوم ، وأن الله عز وجل نصبه للخلق إماما لكى لا يهملهم ، وأن المنصوص على إمامته كالمنصوص

---

(١) سورة (ق) آية : ١٥ .

(٢) رواه الطبرانى وأحمد ، والحديث متواتر أو مشهور وتكملة الحديث " اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ، والطبراني في الكبير ، والترمذى وأبو نعيم .

على القبلة وسائر الفرائض ، وأن الأمة بأسرها من الطبقة الأولى بايعوا أبا بكر الصديق رضى الله عنه فكفروا وارتدوا ، وزاغوا عن الدين ، وأن القرآن نسخ وصعد به إلى السماء لردتهم ، وأن السنة لا تثبت بنقلهم إذ هم كفار ، وأن القرآن الذى فى أيدى الناس قد انتقل ووضع أيام عثمان وأحرق المصاحف التى كانت قبل . وأن الأمة قد داهنت ، وغيرت ، وبدلت ، ونافقت ، لأحقاد كانت لعلى فيهم من قتله آباءهم وعشيرتهم مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزواته . وأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير وعائشة رضى الله عنهم أجمعين عندهم من شر الأمة وأكفرها يلعنونهم ويتبرءن منهم ، وأنه ما بقى مع على على الإسلام إلا أربعة : سلمان ، وعمار ، وأبو ذر ، والمقداد بن الأسود ، وأن أبا بكر مر بفاطمة عليهما السلام فرفس فى بطنها فأسقطت وكان سبب علتها وموتها ، وأنه غصبها فدك ، فذكر أشياء كثيرة مما كاد بها الإسلام من المخاريق ، والأباطيل والزور ، التى لا تجوز عند العلماء ، ولا تخفى إلا على أهل العمى والغباء .

وأنه ليس لله حجة على خلقه فى الدين والشريعة فى كتاب ولا سنة ، ولا إجماع إلا من قبل الإمام الذى اختصه الله لدينه على كتمان ، وتقية ، وإخفاء لا يتكلم لله بحق ، ولا يقوم لله بحجة ، مخافة على نفسه أن تقتل ، وخشية على الإسلام أن يهتك .

والفرقة الثالثة عشرة من الإمامية : هم الإسماعيلية ، يتبرءن ويتولون ، ويقولون بكفر من خالف عليا ، ويقولون بالأئمة الاثنى عشر ، ويصلون الخمس ، ويظهرون التنسك والتأله (1) والتهجد ، والورع . ولهم سجادات (2) وصفرة فى الوجوه ، وعمش فى أعينهم من طول البكاء والتأوه على المقتول بكربلاء : الحسين بن على ورهطه رضى الله عنهم . ويدفعون زكاتهم وصدقاتهم إلى أئمتهم . ويتحنئون (3) بالحناء ، ويلبسون خواتيمهم فى أيمانهم ، ويشمرون قمصهم وأرديتهم كما تصنع اليهود ، ويتحذون (4) بالنعال الصفر . وينوحون على الحسين عليه السلام .

---

(1) التأله : التعبد .

(2) السجادات مفرده سجادة : وهى أثرالسجود فى الوجه .

(3) حنّأ لحيته : خضبها بالحناء .

(4) احتذى يحتذى إذا انتعل . ولم يرد فى قواميس اللغة تحذى فلعلها محرفة عن يحتذون .

واعتقادهم العدل ، والتوحيد ، والوعيد ، وإحباط الحسنات مع السيئات ويكبرون على جنائزهم خمسا ، ويأمرون بزيارة قبور السادة .

والفرقة الرابعة عشرة من الإمامية : هم أهل قم : قولهم قريب من قول الإسماعيلية غير أنهم يقولون بالجبر والتشبيه ، يجمعون بين الظهر والعصر فى أول الزوال ، وبين المغرب والعشاء فى جوف الليل آخر وقت المغرب عندهم . ويصلون صلاة الفجر بين طلوع الفجر الأول الذى يسمى ذنب السرحان ، ويمسحون فى الوضوء بالماء على ظهور أقدامهم وأسفلها . ولهم طعن على السلف ، وشتم عظيم حتى يبلغ الواحد منهم أن يأخذ شيئا أو مثالا يحشوه تبنا أو صوفا يسميه أبا بكر ، وعمر ، وعثمان رضى الله عنهم ، ويضربه بالعصى حتى يهريه ليشفى بذلك ما فى قلبه من الغل للذين آمنوا ، مع أشياء يقبح ذكرها من مذاهبهم ، مذاهب السفلة العمى أخوة القردة ، بل أخوة القردة أفضل منهم .

والفرقة الخامسة عشرة : هم الجعفرية : يشبه قولهم قول الإسماعيلية .

والفرقة السادسة عشرة : القطعية العظمى ، الذين يقطعون على محمد وعلىّ عليهما السلام ويقولون قول الجعفرية ويتبرءن ويتولون .

والفرقة السابعة عشرة : القطعية القصرى : الذين يقطعون على الرضا ويرون : لا إمام بعده رضى الله عنه ، ويقتدون بمن قبلهم من إخوانهم القطعية العظمى فى جميع مذاهبهم .

ويرى المؤرخ (فلهوزن) أن أشراف العلويين من أبناء السيدة فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام لم يخرجوا عن أصول الإسلام أو عن أصول العروبة ، ولذلك نبذوا السبئية ، فتمسك هؤلاء السبئية بأحد أبناء على من زوجة أخرى له ، وهو محمد ابن الحنفية . ويرى (فلهوزن) أن السبئية اتخذوا من اسم " ابن الحنفية " بمثابة الصنم الذى كانوا يحتاجون إليه فى مذهبهم . ولم يكن هناك بأس من أن يتوارى ابن الحنفية دون أن يفعل شيئا ، (لأنه حتى ولو كان ميتا لما كانت فائدته أقل منه حيا) فقد زعم شيعته أنه لم يمت ، وانه لا يزال حيا غائبا فى جبل رضوى قرب المدينة ، وأنه يظهر فى الوقت المناسب وصار ابنه أبو هاشم عبد الله هو الإمام من بعده .

كانت فرقة الهاشمية من العمد التى قامت عليها الدعوة العباسية . وقد استترت وراء آراء الهاشمية بعض آراء الزنادقة .

فيذكر الشهرستانى (١) أن الهاشمية كانت تقول إن لكل ظاهر باطنا ، ولكل شخص

(١) الملل والنحل – تحقيق محمد بن فتح الله بدران .

روحا ، ولكل تنزيل تأويلا . ولكل مثال فى هذا العالم حقيقة فى ذلك العالم . والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى وهو العلم الذى استأثر على بن أبى طالب ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى ذلك السر إلى ابنه أبى هاشم ، وكل من اجتمع فيه ذلك فهو الإمام حقا .

ويكشف (فان فلوتن) عن الصلة بين آراء الهاشمية وبعض الآراء غير الإسلامية ، وبخاصة المجوسية ، فيقول : ولعقيدة الهاشمية أهمية كبيرة فى تاريخ الشيعة ، فقد ساعد ما ذهبت إليه من التأول والقول بأن لكل ظاهر باطنا على تسرب الكثير من العقائد غير الإسلامية إلى الشيعة ، تلك العقائد التى انتقلت إليها من المجوسية والمانوية والبوذية وغيرها من الديانات التى كانت سائدة فى آسيا قبل ظهور الإسلام(١) .

ويرى (فان فلوتن) أيضا أن الدعوة الهاشمية ، وإن كانت دينية فى أصلها ونشأتها ، لم توجه دعايتها نحو الغلاة من الشيعة إلا لتضم إلى صفوفها الكثيرين من المعتدلين ، ممن لم يحملهم بعضهم لمن كان يضطهدهم من ولاة الأمويين إلى كراهة الإسلام ، كما اضطرت بطبيعة الحال إلى التوفيق بين الإسلام ، والعقائد غير الإسلامية ، تلك العقائد التى كانوا لا يكشفون عن خباياها إلا لمن يكرسونه لهذه الدعوة . على أن الدعاة من الهاشميين قد أخذوا يطلعون العامة شيئا فشيئاعلى سرالدعوة الهاشمية .

٥ - الموالى وطلب المساواة :

يقول فلهوزن (٢) : ودخل الأعاجم فى الفرجة بين القبائل وصراعها ، وبين الفارسيين والأمويين ، وخصوصا تلك الطوائف الكبيرة من أسرى الفرس فى الكوفة والبصرة . وخاصة بعد أن نالوا حريتهم ودخلوا الإسلام، لكنهم لم يصلوا إلى التمتع بالحقوق المدنية للمواطنين ولا بالحقوق والحرية ومزاياها المادي، ة فاعتبروا موالى للقبائل العربية . وظلوا على تلك الصورة من التبعية للقبائل العربية ، ذلك لأن الدولة الأموية كانت فى الواقع دولة عربية خالصة ، دولة العرب التى جعلتهم فوق الأمم المغلوبة .

---

(١) أحزاب المعارضة السياسية والدينية فى صدر الإسلام: فلهوزن .

(٢) تاريخ الدولة العربية : ص ١٠٠ .

وكـان في هذا مناقضـة : ذلك أن الإيمان بالله والاعتراف له بالملك وحده كـان من شأنه أن يدعو إلى نبـذ كل تمايز بين الأمم من أسـاسه ، وكـانوا يرون أن مبـادئ الإسلام كفيلة لإعطائهم حقوقهم التى انتزعها العرب منهم . ولما كان الفقهاء وأهل الفتيا من الأعاجم يقفـون على حقيقة الإسلام ، فقد وقفوا بجنب الموالى وهم منهم ليطالبوا بالمساواة بينهم وبين العرب .

وكان عمر بن الخطاب قد نظم الدولة الإسلامية طبقا لقانون الفتح ، بحيث جعلها دولة للعرب على المغلوبين ، وأقامها على أساس من التمييز الدينى والقومى على السواء بين طبقتين منفصلتين : طبقة العرب للمسلمين وطبقة أهل الديانات الأخرى من غير العرب . ذلك أن الحاجز الذى كان يفصل بين العرب والموالى أخذ يتصدع بسبب دخول غير العرب فى الإسلام شيئا فشيئا ، وبسبب غلبتهم فى المدن التى أنشئت للجيوش العربية .

وكان الموالى بالباب يتربصون الدوائر . كانوا يتطلعون إلى المساواة التامة بالعرب . وكان الإسلام فى جانبهم ، فاجتذبتهم الثورة التى كانت تستند إلى الإسلام . ولم يكن من المستطاع كسر الروح الإسلامية ، بل كان لابد من أن يحسب حسابها ، وأن يكون الإسلام لا القومية ، هو الذى يجعل للمواطنين فيها حقوقهم .

كان فى الكوفة والبصرة عدد كبير من المسلمين الجدد أو الموالى ، وكانوا أول أمرهم أسرى حرب قد أطلقوا . وكـان معظمـهم من أصل فارسى، وكـانوا يكونون طبقة وسطى بين السادة من العرب وبين الرعايا من غير العرب ، ولم يكونوا يدفعون لا خراجا ولا جزية . ولكنهم لم يكونوا مقيدين فى ديوان المقاتلة ، وعلى ذلك لم يكونوا يتقاضون أعطيات ، مع أنهم كانوا يرافقون سادتهم السابقين فى الحرب ويحاربون معهم . وكانوا ملزمين أدبيا بأن يقوموا لسادتهم بكل أنواع الخدمات ، فكان موقفهم هذا ، لا هم أعلى ولا هم أسفل ، لا يرضيهم بطبيعة الحال . وكان من شأن الإسلام أن يدفعهم إلى الطموح ، فكانوا يسعون إلى المساواة الكاملة بالعرب المسلمين .

وقد أظهرت ثورتهم بقيادة المختار مدى الخطر الذى كان يهدد الدولة العربية من جانبهم . وقد قضى على هذه الثورة بإراقة دماء القائمين بها ، ولكن ملء الفجوة التى أوجدها السيف فى صفوفهم كان سهلا بفضل المسلمين الجدد الذين جاءوا من القرى والرساتيق ، هؤلاء المسلمين الذين ربما كانت روحهم أكثر حبا للإسلام من غيرهم ، ولكن كانت لهم نفس المصالح التى كانت لطبقة الموالى ، وكان هذا بمثابة فجوة فى النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب ، ذلك أن مدن الجيش والحكومة لم تلبث أن فقدت طابعها العربى المميز لها .

إن الحجاج رد إلى الخراج أرضين كانت عشرية [1] معفاة من الخراج بسبب إسلام أهلها أو بسبب انتقالها إلى أيدى قوم من العرب . إن الحجاج أخرج الموالى من حواضر الأمصار ، وأعادهم إلى قراهم وبلدانهم وقال للموالى : " أنتم علوج وعجم ! وقراكم أولى بكم " ، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب ، وصيرهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه إليها .

ولما عين نوح بن دراج ، أحد الموالى قاضيا على البصرة فيما بعد ، قال فيه أحد الشعراء :

إن القيامة ، فيما أحسب ، اقتربت **** إن كان قاضيكم نوح بن دراج

لو كان حيا له الحجاج ما بقيت **** صحيحة كفه من نقش حجاج

وتشهد بهذا أيضا الروايات الموجودة فى كتاب الطبرى (ج٢ ص ١١٢٢ و ١٤٣٥ وفى كتاب أنساب الأشراف ص٣٣٦) . فيذكر أنه لما كتب عمال الخراج إلى الحجاج أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار ، كتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل فى قرية فليخرج إليها . فخرج الناس فعسكروا ، وجعلوا يبكون ويقولون : وامحمداه ! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون . فجعل قراء البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون معهم . وقدم ابن الأشعث على بغتة ، فاستنصر القراء أهل البصرة فى قتال الحجاج مع ابن الأشعث .

الموالى والريادة العلمية : أدى موقف الخوارج المتمرد على السلطة الأموية إلى انضواء الموالى تحت رايتهم ، يجمع بينهم كره بنى أمية وشعورهم المتزايد بأن بنى أمية لا

(١) البلاذرى : ص٣٦٨، أنساب الاشراف .

تطبق أحكام الإسلام فى مبدإ المساواة الاجتماعية بالعرب ، بيد أن الموالى اشتدت كراهيتهم للحكومة التى وضعت امتيازات اجتماعية بغيضة للعرب وسنت قوانين ظالمة فرضت ضرائب باهظة على المسلمين الجدد والموالى ، لا تتناسب مع مكانتهم العلمية وتفوقهم ، فإنهم سرعان ما نبغوا فى العلم . وهكذا كانت الهوة بين الحكومة الأموية والأجناس الخاضعة لها تزداد اتساعا من وقت لآخر .

وقال ابن الصلاح فى رحلته : روينا عن الزهرى أنه قال : قدمت على عبد الملك بن مروان، فقال : من أين قدمت يازهرى ؟ قلت : من مكة . قال : فمن خلفت بها يسود أهلها ؟ قال : قلت عطاء بن أبى رباح . قال : فمن العرب، أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . قال : فبم سادهم ؟ قلت : بالديانة والرواية . فقال : إن أهل الديانة والرواية ينبغى أن يسودوا الناس ، قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاووس بن كيسان . قال : فمن العرب ، أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . قال : فبم سادهم؟ قلت : بما سادهم به عطاء . قال : من كان كذلك ينبغى أن يسود الناس . قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن أبى حبيب . قال : فمن العرب . أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . فقال كما قال فى الأولين ، ثم قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول الدمشقى . قال : فمن العرب ، أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل . فقال كما قال فى الأولين . ثم قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . فقال كما قال ، ثم قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : فمن العرب ، أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . فقال كما قال ، ثم قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبى الحسن . قال : فمن العرب ، أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى . قال : ويلك ! فمن يسود أهل الكوفة ؟ قلت : إبراهيم النخعى . قال : فمن العرب ، أم من الموالى ؟ قلت : من العرب . قال : ويلك يا زهرى ، فرجت عنى ! والله لتسودن الموالى على العرب ، حتى يخطب لها على المنابر وإن العرب تحتها ! ! قال قلت : يا أمير المؤمنين ، إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد ومن ضيعه سقط (١) .

ومهما بلغ الموالى من رفعة الشأن ، فإن الحكومة الأموية لم تكن لتمنحهم حقوقا سياسية .

وقد كان الموالى فى ثورات كل من المختار وابن الأشعث يعدّون بالآلاف ، ولكن يجب ألا يعزب عن بالنا أنه لم تكن واحدة من هاتين الثورتين حركة من حركات الموالى

(١) كمال الدين الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ج٢ ص١٠٧ . وتوجد فى العقد الفريد : ج٢ ص٩٥ - ٩٦ .

الخالصة . لكنه من الطبيعى أن يتعاون الموالى الذين تضغط عليهم السياسة الأموية وتدوسهم تحت أقدامها . من هنا كان للموالى مصلحة فى كل من هاتين الثورتين، ولكن لعبوا دورا له ما بعده .

فالموالى كانت توجد لديهم أسباب متعددة تدعوهم إلى ذلك . لذلك، كانوا دائما ينحازون ضد الحكومة كلما سنحت لهم الفرصة . وكان شعورهم يتزايد يوما بعد يوم من قسوة معاملة العرب لهم على أنهم فىء أفاءه الله عليهم . وعلى ذلك، كان العرب يعتبرونهم جنسا منحطا لا يمتاز عن العبيد إلا قليلا . ولعمرى، إن الشعر العربى ليفيض بالازدراء والاحتقار لمن لم يكن الدم العربى يجرى فى عروقهم . معنى هذا أن الولاء لقبيلة عربية كان يعتبر شرفا إذا وضع فى الميزان مع الأصل الفارسى .

تضامن القراء مع الموالى : وكان أشدالناس حماسة وأقواهم صوتا فى الاشتراك فى الثورة هم القراء ، أعنى أهل الدين من العلماء بالقرآن . وكانوا فى كل مناسبة كهذه يظهرون فى المقدمة باليد واللسان (١) . وذلك أنه لم يكن هناك بد ، من بيان السند الدينى الذى من أجله تتهم السلطة الحاكمة بالظلم ، وعلى أساسه تحل الثورة عليها .

ولكن ثورة ابن الأشعث لم يكن لها بالجملة أسباب دينية ، بل هى كانت بالأحرى محاولة جديدة قوية ومستميتة من جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم . ولما جاء الحجاج زاد فى ضجرهم من هذا النير ، وذلك أنه استبقى جند الشام الذين كان قد جاء بهم لمحاربة شبيب فى بلاد العراق . ولم يكن ذلك بقصد حماية الدولة من العدوان الخارجى بمقدار ما كان لأجل حماية سلطانها فى الداخل ، فكان هؤلاء الجند يمثلون السيادة الأجنبية مجسمة (٢) . وكان على جند العراق أن يقنعوا بأعطيات قليلة، ويحتملوا فى الوقت نفسه مئونة جند الشام ويرسلوا إلى البلاد ، على حين كان يبقى جند الشام فى أهليهم .

وإذن، فلا يمكن تجاهل طبيعة ذلك الصراع ، فهو لم يكن صراعا بين الموالى والعرب، بل كان صراعا بين عرب العراق وعرب الشام . فكان صراعا بين ولايتين فى الدولة العربية، كانتا تتنافسان دائما، وكان أهل العراق ، أيا كان أصلهم ، متحدين فى ذلك الصراع (٣) .

---

(١) الطبرى : ج ٢ ص ١٠٨٦ .

(٢) الخوارج والشيعة : فى ص٩ ومابعدها . فيلهوزن ترجمةعبدالرحمن بدوى .

(٣) الطبرى : ج٢ ص ١٠٨٩ .

الشعبى ينتقد الحجاج : كذلك، لم يكن أشراف القبائل العربية يستطيعون أن يتحملوا لحظة أن يروا الحجاج - وهو فى نظرهم من الرعاع - يستخف بهم ويهينهم . وهكذا أضاع الحكم الأموى معونة الرؤساء العرب، وفقد إخلاص الموالى الذين كانوا دائما ينحازون ضد الحكومة كلما سنحت الفرصة . وصفه يزيد بن المهلب بابن الحجاج الفاسق . بل إن ثورة يزيد بن المهلب كانت رد فعل على بطش الحجاج .

فقد عفا عن الشعبى الذى ثار مع ابن الأشعث، ثم وقع أسيرا فى يده . وقد أطلقه كرما منه ، لأنه لم يحاول أن يعتذر بالكذب ، بل قال الحق ، معترفا بأنه ثار وحارب عن قصد ، وقد عرف للمختار قدره ، مع أنه كان بثورته قد خالف الدين والدولة . وكان عند الحجاج من الشجاعة ما يجعله يصرح بإعجابه به . وهو لما ضرب الكعبة بالمنجنيق ، وجاء رعد وبرق أشعر الناس بغضب الله على هذه الفعلة الشنيعة ، لم يتردد فى أن يفسر ذلك بأنه تحية من السماء تبشر بالنصر (١) .

وكذلك كان جنود الاحتلال الشاميون يشعرون ، وهم خارج وطنهم ، بما بينهم من أواصر الاتحاد . على أنهم كانوا فى الأغلب ينتسبون إلى كلب وقضاعة .

أما قول شاعر العراق فى وصفه موقف أهلها ، بعد رحيلهم مع ابن الأشعث وهو :

تركنا دورنا لطغام عــك *** وأنباط القرى والأشعرينا (٢)

ففيه وصف إجمالى لأهل الشام ، يذكر البعض بدلا من ذكر الكل ، ويظهر أنه جادلهم بأنهم غير متحضرين ، وهم يوصفون (٣) بأنهم الأنباط والأقباط ، يعنى الأعراب الأجلاف غير المتحضرين .

وقد أدى ذلك إلى زيادة فى شدة الحكومة العسكرية الشامية فى العراق . وفى سنة ٨٣هـ بنى الحجاج مدينة واسط ، وجعلها حصنا فى منتصف الطريق بين الكوفة والمدائن والأهواز والبصرة ، وجعلها مقرا للحكومة ، ونقل جمهور جند الشام إليها أيضا . ويقال إنه فعل ذلك لكى يتلافى ارتكابهم للمفاسد فى الأحياء التى يقيم فيها

(١) يراجع الطبرى : ج ٢ ص ١١١٢ - ١١١٣ .

(٢) الطبرى : ج٢ ص ١١٠٢ .

(٣) الطبرى : ج٢ ص ١٣٩٣ .

الناس فى الكوفة والبصرة . ولكن يظهر أن السبب الأكبر هو أنه أراد أن يعزل جند الشام عن أهل العراق [1] ويجعلهم حوله ليكونوا أداة طيعة .

٦ – عمر بن عبد العزيز والموالى :

عمر بن عبد العزيز يتصالح مع العراق والموالى: وربما كان هذا هو البرنامج الذى وضعه عمر بن عبد العزيز ، فهو قد حاول أن يجد فى الإسلام أساسا مشتركا بين الجميع ، يمكن أن تلتقى عنده الحكومة والقوى المتحفزة الطامحة المعادية لها . وهو ، تمشيا مع هذه الغاية ، سار على سياسة التفاهم والتصالح . ولم يكن عمله فى ذلك مقصورا على الموالى وحدهم ، فقد حاول أيضا أن يزيل أسباب التذمر فى الأمصار ، وخصوصا حاول أن يزيل ما كان فى نفوس أهل العراق من شعور بأنهم تحت حكم رياسة شامية أجنبية عنهم .

وكان بره يتسع للجميع على سواء ، بل كان يظن أنه يستطيع إرضاء الخوارج بمناظرته إياهم فى آرائهم [2] ، وهو قد نجح على الأقل فى أن جعلهم يغمدون سيوفهم ما امتدت حياته . ولم يكن يعاقب المجرمين السياسيين ، على حين أنه كان شديدا على غيرهم من المجرمين . وقد أثبت بره بالعلويين ، ورد إليهم ما كان قد أخذ منهم من ممتلكات . وفعل مثل ذلك مع ورثة طلحة ، وترك لعن على بن أبى طالب على المنبر ، وكتب بذلك إلى الآفاق . [3] أما القول بأنه كان يعترف فى أعماق نفسه بصحة دعوى العلويين فى الخلافة ، فلا يمكن أن يؤخذ من ذلك ولا يصح تصديقه . لقد كان عمر بن عبد العزيز مسلما من الطراز القديم ، وكان الإسلام لا يؤيد فى الجملة ما يدعيه الشيعة من أنهم أصحاب الحق فى الخلافة .

وقد شهد المنصور العباسى لعمر بن عبد العزيز بأن أعماله مرضية فى جملتها ، ولكنه كان يرى أن عمر كان أمويا ، لأنه تمسك بتقديم أهل بيته[4] . ولا يمكن التكهن بما كان سيحقق من أعمال ، لأن خلافته لم تدم إلا نحو عامين ونصف عام ، فقد توفى عن تسعة وثلاثين عاما فى يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ (٩ من فبراير سنة

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٢٥٧ ، ١٢٧٥ .

(٢) راجع فى هذا الطبرى مثلا : ج٢ ص ١٣٤٨ – ١٣٤٩ .

(٣) الأغانى : ج٢ ص١٥٣ ، واليعقوبى : ج٢ ص٣٦٦ ، والطبرى : ج٣ ص١٤٨٢-١٤٨٣ .

(٤) الطبرى : ج٢ ص٥٣٤ .

٧٢٠م) فى الخناصرة ، قرب دمشق . ويقول أبو عبيدة إن الأمويين دسوا إليه من سقاه السم ، لأنهم خافوا من أن يستمع إلى الخوارج ، فيخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ، مخالفا فى ذلك لما عهد به سليمان بن عبد الملك من أن يكون يزيد هو الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز . (١) ولكن المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لا يذكرون هذه الرواية ، وهى لا تنم إلا عن الأسف من أن عمر بن عبد العزيز المصلح قد اخترم وفارق الدنيا قبل الأوان ، وأن النظام الذى كان سائدا قبله عاد من جديد .

تختلف الروايات فى تاريخ ومكان وفاة عمر بن عبد العزيز ، وهى موجودة عند الطبرى (٢) ، وعند المسعوى . أما مسألة أن الأمويين دسوا إليه من سقاه السم ، فهى موجودة عند الطبرى ، وهى تتلخص فى أن بعض الخوارج ثاروا فى عهده ، فكتب عمر إلى زعيمهم : بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولنبيه ، ولست أولى بذلك منى ، فهلم أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يديك نظرنا فى أمرنا . فبعث الزعيم الخارجى رجلين لمناظرة عمر ، فكان مما اعترضا به عليه أنه أقر يزيد بن عبد الملك لكى يلى الخلافة بعده . فقال لهما : صره غيرى . فقيل له : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك ؟ فقال عمر : أنظرانى ثلاثا . وخرج المندوبان الخارجيان من عنده . وخاف بنو مروان أن يخرج ما عندهم وفى أيديهم من الأموال وأن يخلع يزيد ، فدسوا إليه من سقاه سما ، فلم يلبث عمر إلا ثلاثة أيام حتى مات . فالظاهر أن عمر اقتنع باعتراض هؤلاء الخوارج ، وأراد التفكير فيما يصنع . على أن سلوك عمر بن عبد العزيز ليس هو المستوى العام للخلق الأموى ، فقد كان بتقواه وخوفه من الله يقف من الخلفاء الأمويين موقفا فريدا .

عمر بن عبد العزيز يختار الموالى أهل شورته : إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يكتفى باختيار رجال يظهرون أنهم على شاكلته ، ثم يتركهم بعد ذلك يفعلون ما يشاءون ، ماداموا يحملون إليه ما يلزم أن يحملوه من أموال ، بل كان يشعر أنه مسئول هو نفسه عما يجرى فى جميع البلاد . ولم يكن همه الزيادة فى قوة الدولة ، بل إقامة

---

(١) الطبرى : ج٢ ص١٣٦١ .

٢) يراجع الطبرى : ج٢ص١٣٦١ . المسعودى : التنبيه والإشراف ص٣١٩ .

الحق والعدل فيها . وعلى يديه صار للفقهاء وأهل العلم كلمة مسموعة [1] ، بعد أن كانوا حتى ذلك الحين أشبه بحزب ذى كيان شرعى مستقل عن الحكومة ومناوئ لها بعض الشيء . ويظهر من هذا الوجه أيضا أن منصب القاضى قد أصبح على عهد عمر أكثر استقلالا وأكبر شأنا مما كان . فقد جاء فى كتاب كتبه عمر إلى عقبة بن زرعة فى خراسان : إن للسلطان أركانا لا يثبت إلا بها . فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا - يعنى الخليفة [2] . وكان الحسن المشهور - أى البصرى - فى عهد عمر بن عبد العزيز قاضيا على البصرة ، وعامر الشعبى قاضيا على الكوفة . وقد أرسل عمر مع عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى أمير الكوفة أبا الزناد الفقيه ليكون كاتبا عنده . وفى بدء ولايته ٨٧هـ ، جمع الفقهاء وطلب منهم أن يدلوه على ما يرون من ظلم وأنه لا يريد أن يقطع أمرا إلا برأيهم [3] .

البصرى ينتقد يزيد بن المهلب : وكان حميد بن عبد الملك بن المهلب ، لما ثار عمه ، قد ذهب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه بالأمان للمهالبة جميعا ، ولكنه لما أقبل بالأمان ، ومعه خالد بن عبد الله القسرى وعمرو بن يزيد الحكمى ، كان يزيد بن المهلب قد انتصر وقتل القتلى وحبس عدى بن أرطأة ، وجاهر بالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه " صلى الله عليه وسلم " وحث الناس على الجهاد . وكان يزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم [4] . فهو قد أراد أن يتخذ من الإسلام قوة يشتد بها أزره . ولكن كان فى البصرة رجل ذلك هو الحسن البصرى ، صديق عمر ابن عبد العزيز . فقد كان الحسن يثبط الناس عن الفتنة ويحضهم على أن يكفوا أيديهم عن قتال على دنيا زائلة وأن يكتفوا بالإقبال على الله وعظيم ثوابه فى الآخرة . وقد اتهم الثوار الحسن بأنه موال لأهل الشام ، وبأنه الشيخ الضال المرائى ، فقال فيه مروان بن المهلب مثلا : " والله لو أن جارا له نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه ،

---

(١) راجع الطبرى : ج٢ ص١١٨٢ - ١١٨٣ .

(٢) راجع الطبرى : ج٢ ص١٣٦٦ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) انظر خطبة ليزيد بن المهلب (الطبرى : ج٢ ص١٣٩١) . أما بيعته (الطبرى : ج٢ ص١٣٩٨) فكان يقول لمن يبايعه : " تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه " صلى الله عليه وسلم " ، وعلى ألا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ، ولا تعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج ، فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه ومن أبى جاهدناه وجعلنا الله بيننا وبينه " . فإذا قالوا : نعم ، بايعهم . وفى نظرنا أنها كانت رد فعل على بطش الحجاج .

أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خيرنا وأن ننكر مظلمتنا ؟! " . ولكن الحسن لم يكف عما كان يفعل ، وهو لم يفتن عن رأيه ، بل هو مضى فى سبيله محاولا أن يثبط من استمع إليه عن الاشتراك فى الفتنة . وقد كان له تأثير خصوصا على الموالى فى بعض القرى القريبة من البصرة . على أن الحسن ، بفصله بين الدين والسياسة قد اتخذ موقفا شاذا ، ولم يكن أتباعه من ذوى النباهة فى القبائل ، وإلا لكان من الصعب أن يسكت عنه ابن المهلب . وقد اتبع عامة المؤمنين فى البصرة ، وعلى رأسهم القراء ، دعوة يزيد ، وتبعهم عدد كبير من الموالى . وبهذا تضخم عدد أنصاره تضخما كبيرا . ولكن هذه الجموع الكثيفة لم تكن لها مهارة حربية بقدر ما كان لها من كثرة العدد .

وغلب ابن المهلب على البلاد التابعة للبصرة ، مثل الأهواز وفارس وكرمان ، ولكن لم تنضم إليه خراسان . وهى ولايته القديمة التى فيها قومه ، وذلك لأن قبائل تميم هناك لم تمكن الأزد من أن تتحرك .

لا شك أن أهل الدين كانوا دائما معارضين لأساليب بنى أمية ولأساليب عمالهم فى الحكم ، وكثيرا ما كان عمالهم ينتقضون عليهم ، وكأنما كانوا يحسون أن لهم الحق فى ذلك (١) . أما موقف الحسن البصرى فهو يحتاج إلى تأمل ، فقد كان صديقا لعمر بن عبد العزيز ، وكان عمر يكره المهالبة ويقول إنهم جبابرة . ولعل الحسن أيضا كان يكره المهالبة للسبب الذى كرههم له عمر من قبل ، والدليل على ذلك أنه وصف من اجتمع ليزيد بن المهلب بأنهم عتاة ، وأنه كان يرى فى يزيد من المهلب أنه غير صادق فيما يدعو إليه من الكتاب والسنة ، وأن الأولى به أن يوضع قيد فى رجليه ويرد إلى محبس عمر الذى حبسه فيه .

ولكن لم يكن معنى ذلك أن الحسن البصرى كان راضيا عن أهل الشام ، فقد دفع عن نفسه هذه التهمة دفعا صريحا (٢) . ولما كان الحسن يعتقد أن ثورة ابن المهلب ليست لله ، فقد دعا الناس إلى الكف عنها وعن الفتنة . وقد عجب الحسن للنضر بن أنس بن مالك كيف غره ما يقول ابن المهلب من دعوة إلى الكتاب والسنة ، مع أنه كان بالأمس يضرب أعناق الناس إرضاء لبنى مروان . ولا شك فى أن الحسن كان يمقت المهالبة ، وإن كان ليس هناك ما يمنع أن يمقت الفتنة خصوصا من أجل الباطل . ولولا أن دعوته إلى الزهد والدعوة إلى ترك النزاع على الدنيا والإقبال على الله كانت هى الغالبة فى

---

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٤٠٠ .

(٢) الطبرى : ج٢ ص١٣٩١ – ١٣٩٣ .

كـلامه ، لكان الإنسان على حق فى رفض ما يدعيه البعض من أن الحسن فصل بين الدين والسياسة (١) .

٧ - خروج الشام وأهل الديانة على بنى أمية :

كان مقتل الوليد بن يزيد بمثابة العلامة التى آذنت بسقوط أسرة بنى أمية ، وكانت هذه الأسرة الحاكمة قد انتحرت عند ذلك انتحارا سياسيا . وكان عهد الإيمان بحقها الشرعى فى الملك وبقداسة خلافتها قد ولى ، حتى فى الشام . ذلك أن بلاد الشام نفسها ، وكانت حجر الزاوية فى النظام الذى كان قائما ، قد لفتها دوامة الثورة ، وكان الثوار من أهل الديانة والورع قد ثبتت قدمهم وازدادت قوتهم فى الشام ، فأخذت تتحلل فى كل مكان تلك العرى التى كانت تمسكها القوة المركزية ، وقامت أنواع مختلفة من التمرد والعصيان فى كل مكان .

وقد أراد مروان بن محمد أن يهدئ الخواطر ، ويبعث الثقة فى النفوس ، اشتد مع الثائرين من أهل الديانة ضد الذين كان لهم ضلع حقيقى فى مقتل الوليد بن يزيد .

وفى الوقت نفسه اشتد غضبه على القدرية الذين كان يزيد قد قربهم إليـــه .

الوليد ونفى القدرية : وكان من حيث التمسك بالدين يختلف فى سلوكه الشخصى عن هشام اختلافا كبيرا ، لكن اختلافه عنه من حيث المبادئ الأساسية كان أقل من ذلك كثيرا (٢) . أما الزهرى وأبو الزناد صديقا هشام ، فكان الوليد يبغض أحدهما (٣) ، لأنه كان يعيبه مع هشام ، فأما الآخر ، وكان قد التزم الحكمة والصمت فى أمر يزيد ، فإن الوليد أكرمه ، وهو كان يحبه من قبل . وكذلك عادى الوليد القدرية المبتدعة ، كما عاداهم هشام من قبل ، وأقر ما كان قد صنعه هشام من نفى رؤسائهم إلى جزيرة دهلك (قرب مصوع) ، واعتبر ذلك عملا ترجى منه المغفرة لهشام . وامتنع الوليد من الاستجابة إلى من كلمه فى أمر القدرية ، فهو لم يرض كما لم يرض هشام من قبل

(١) تاريخ الدولة العربية - فيلهوزن .

(٢) ربما قصد المؤلف مثلا ما يقوله فيما يلى : من أن الوليد لم يغير شيئا مما فعله هشام بالقدرية (الطبرى : ج٢ ص١٧٧٧) . تاريخ الدولة العربية .

(٣) هو الزهرى ، بحسب الأغانى : ج٦ ص١٠٦ .

بالخروج بالدين من مرحلة الأخذ بالموروث إلى مرحلة النظر العقلى متابعا مذهب الاعتزال .

هشام والمعتزلة : ومات هشام فى الرصافة يوم الأربعاء لست ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ (٦ من فبراير سنة ٧٤٣م) ، ولم يكن قد تقدمت به السن كثيرا ، فكان فى وسط العقد الخامس من العمر [١] . ولكن لعل الشباب لم يبد عليه قط ، وكان مظهره غير رائع ، فقد كان "أحول شديد انقلاب العين" ، وهو وإن كان قد استطاع أن يفرض على الناس احترامه ، فإنه لم يكن له من الصفات ما يملأ نفوس الناس لأول وهلة أو يجتذبهم إليه أو يملؤهم رهبة منه . وكان فيه شىء من خصال أوساط الناس من أهل التحفظ ، ولكنه كان " دقيق النظر . . . متيقظا فى سلطانه ، سائسا لرعيته [٢] " . وهو لم يفعل بنفسه ما يغضب أهل التقى ، بل كان مسلما حسن الإسلام ، من طراز السلف الأولين ، وكان صديقا لرواة الحديث والأثر أمثال الزهرى وأبى الزناد ، وعدوا للمعتزلة المبتدعة الذين أثاروا البحث فى مسائل اعتقادية ، وكانوا يقولون بالاختيار .[٣] ولذلك لم يكن متعصبا على رعاياه المسيحيين . فأذن لهم (للمكانية منهم ؟) فى أن يعيدوا شغل كرسى أنطاكية بعد أن كانوا قد منعوا منه .

يزيد بن الوليد والمرجئة : كان يزيد قبل موته قد أخذ لأخيه إبراهيم بن الوليد البيعة على الناس ، ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد إبراهيم . ويقول المؤرخون إن المعتزلة لم تزل تحثه على البيعة لمن يخلفه ، وتقول له إنه لا يحل له أن يهمل أمر الأمة ،

---

(١) الطبرى : ج٢ ص١٧٢٨ فما بعدها .

(٢) آثرت اقتباس هذه الصفات من كتاب التنبيه للمسعودى : ص٣٢٢ ، ويجد القارئ كثيرا من صفات هشام عند الطبرى : ج٢ ص١٧٣٠ فمابعدها .

(٣) الطبرى : ج٢ ص١٧٧٧ - قارن أيضا ص١٧٣٣ . تاريخ الدولة العربية .

حتى بايع لأخيه ولمن يأتى بعد أخيه [(١)] . وعلى هذا فلم يكن تأثير القدرية على يزيد تأثيرا دينيا فحسب بل وسياسيا أيضا .

وكان مما قاله : " وإن لكم أعطياتكم عندى فى كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم . فإن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن أنا لم أف لكم فلكم أن تخلعونى إلا أن تستتيبونى ، فإن تبت قبلتم منى ، فإن علمتم أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ويدخل فى طاعته " . وختم خطبته قائلا : " أيها الناس إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا وفاء له ينقض العهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم [(٢)] " . وكأنما كان الخليفة يعبر بخطبته عن أعماق نفوس القدرية الذين كانوا فى مبادئهم السياسية متفقين مع المرجئة ، وهم الذين كان يزيد يتودد إليهم أيضا . فمن مبادئهم السياسية يجوز البيعة لإمامين فى وقت واحد ، فأجازوا بيعة علىٍّ على العراق وبيعة معاوية على الشام .

لكن من وجهة نظرنا كما يبدو أن اسم القدرية كان شائعا أكثر من استعمال اسم المرجئة ، ذلك الذى سوغ للطبرى ترديد اسم القدرية بديلا عن المرجئة ، وعلى ذلك تكون رواية الطبرى وهو مؤرخ للتاريخ ، شاهدا على أن القدرية تطلق على المرجئة منذ زمن مبكر لأن خطبة يزيد بن الوليد تضمنت مبادئ المرجئة كما هو فى كتب الفرق .

خالد والتشنيع عليه : وقد جر خالد على نفسه إلى جانب عداوة قيس عداوة الإسلام أيضا . فقد كانت أمه رومية نصرانية ، وظلت على نصرانيتها ، وقد بنى لها كنيسة فى الكوفة فى ظهر قبلة المسجد الجامع . وهو سمح للنصارى بوجه عام بأن يبنوا

---

(١) راجع الطبرى : ج٢ ص١٨٤١ ، ١٨٥٤ ، على الولاء .

(٢) خطبة يزيد عند الطبرى : ج٢ ص١٨٣٤-١٨٣٥ .

كنائس جديدة [١] ، وكان متسامحا مع اليهود أيضا . واستعمل فى أعمال الخراج وفى الإدارة كثيرا من المجوس ، وعابه بهلول الخارجى بأنه " يهدم المساجد ، ويبنى البيع والكنائس ، ويولى المجوس على المسلمين ، وينكح أهل الذمة المسلمات " . وقد حكيت عنه فضائح تقشعر لها الأبدان [٢] ، فقيل إن أصله من يهود تيماء وإن جده كان آبقا من موالى عبد القيس من هجر ، وإنه كان فى حداثته فى المدينة يتخنث ويتبع المغنين والمخنثين ، وإنه كان يمشى مع عمر بن أبى ربيعة صاحب التشبيب الكثير ويترسل بينه وبين النساء ، حتى كان يقال له : خالد الخريت ، وإنه زنديق كافر فاسق ، وإنه قال عن بئر زمزم - وكان قد عرف كيف يقلل من شأنها بإنشاء مجرى مائى جديد - إنها " أم الجعْلان " وإنه قال مثل هذا الفسق عن الكعبة وعن النبى عليه السلام وآل بيته وعن كتاب الله نفسه . ويجوز أنه قال ما ينسب إليه فى مقام التعريض بغباء أهل الورع من أنه لا يوجد رجل عاقل يحفظ القرآن عن ظهر قلب . ويظهر أنه كان يشعر بتفوقه العقلى ، وأنه لم يكن دائما يمسك لسانه الفصيح ، حتى صدرت منه عبارات نابية استغلت فى التشنيع عليه .

ظهور فرق الجند المرتزقة : أدت الإجراءات الظالمة إلى عدم إخلاص رعاياها وأصبحت تلقى عبأها على جندها الذين لم يكن فى مقدورهم أن يحموا الدولة من الخطر ، إذ إن القوة العسكرية بدون وجود الولاء من جانب الرعايا ليست ولم تكن أقوى عضو لأى حكومة . وعلى أثر ذلك انتشرت بذور التمرد فى كل مكان ، وكانت الأرض صالحة لإخراج الثمرة عندما ظهرت فيها رسالة أو دعوة مستفيدة من عناصر الكراهية الشديدة التى كانت موجودة وقوضت سلطانها وأزالت كيان دولتهم المتداعى .

---

(١) ولكن النصارى فى الحيرة ، وهى المدينة النصرانية قرب الكوفة ، أخذوا جانب أعداء خالد لما سقط (الطبرى : ج٢ ، ص ١٦٥٣) .

(٢) يجد القارئ كثيرا من أخبار خالد فى الأغانى : ج١٩ ص٥٣-٥٦ ، قارن الطبرى : ج٢ ص١٦٢٣ - المترجم . تاريخ الدولة العربية فيلهوزن .

بدأت تحل محل القبائل التى كانت تؤلف الجيش فى النظام القديم فرق بالمعنى الحقيقى لتكون صلب الجيش ، وحل القواد المحترفون والجنود المرتزقة محل رؤساء القبائل . وكانت كل فرقة تحمل أحيانا اسم قائدها كالوضاحية والذكوانية نسبة إلى عمر ابن الوضاح ومسلم بن ذكوان . وفى عهد الوليد بن يزيد أعطى كل من خرج من أهل الشام لمحاربة الخوارج فى اليمن عام ١٣٠ هـ ماثة دينار وفرسا وحيوانا للحمل . كذلك يحكى أن الضحاك بن قيس ، وهو أحد الخوارج ، إنما حصل على أتباع له بأن كان يعطيهم أرزاقا كبيرة. وعلى أثر ذلك، انكسرت شوكة الزعامة القبلية وتفكك عرى العصبية القبلية وولائها .

وبذلك أصبح الجيش مركبا من العبيد والمرتزقة ، وكان غير متلاحم يثقل كاهل الميزانية . كانت تتقاسمه عداوات الأجناس بعد ما كانت تتنازعه عداوات القبائل بدون أن يعى وعيا واضحا أن مهمته ترمى إلى الدفاع عن الوحدة ، بل إنه خدم جميع الأغراض الخاصة ، والمصالح التى قادته فى المقام الأول . إن أول شاغل للجيش الموجه ضد المنشقين هو أن يتمرد بالذات ، بعد الانتصار . وحتى لو أعاد نفوذ السلطة المركزية إلى نصابه ، فإن ذلك يتم لفائدة قائده . إن قادة الجيش ، إن لم تزد أطماعهم اتساعا ، فانهم يهدفون جميعا إلى الاستقلال وتوارث الحكم فى إمارة اقتطعوها من المملكة الشاسعة . وهكذا ، اكتست الخلافة فى الغالب مظهر الحجابة المتخصصة فى منح بيعات فعلية للولاة ولجميع المتمردين الناجحين .

حران : عاصمة بديلة لدمشق مركز الصابئة الثقافى :[(١)] كان قتال مروان لأبناء عبدالملك قتالا لكلب وقضاعة ، وقد انضمت إليه قيس وحاربت معه . لذلك اتخذ مقر إقامته بين قيس فى حران بأرض الجزيرة ، وهناك كان يقيم أبوه ، وهناك نما وترعرع . وكان يشعر أنه فى وطنه ، مخالفا بذلك جميع من ملك قبله من بنى أمية الذين اتخذوا دمشق عاصمة لهم . أما مروان فقد نقل عاصمة الملك منها إلى حران . وقد جر هذا على مروان عواقب خطيرة ، منها أنه أغضب الشام الذى أحس أنه انتزعت منه السيادة[(٢)] . وفى ظل غضب الشام ، أخذت الخلافات بين الأحزاب تختفى وسط هذا الشعور شيئا فشيئا ، وزادت الميول إلى البيت الشرعى الذى اغتصبت منه الخلافة ،

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٩٤١ .

(٢) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٣٢٥ .

وهم آل البيت ، وكانت له علاقات وأواصر بجميع البلاد ، وتحويل هذا الميل إلى غاصب غريب عن أهل الشام .

ويرى بعض مؤرخى المذاهب أن الجبرية التى كان يميل إليها مروان بن محمد إنما أخذها من حران مركز دين الصابئة عبدة النجوم والكواكب الذى مؤداه أن الإنسان ومستقبله ومصيره مسير بحركات الأفلاك .

موالى الكوفة وداعية جديد : وكان من الطبيعى أن يكون أهل الكوفة على غير ود مع جند الشام من يوم أن استولى معاوية على مقاليد الحكم . وكانوا يحسون أن أهل الشام غاصبون للخلافة وأنهم غرباء ، فوجد أهل الكوفة فى تذمر أهل الشام بعد نقل الخلافة من دمشق عاصمة الملك القديمة ، مرتعا خصبا لنقل التمرد إليه وخير معين لتحقيق أهداف الخارجين من أهل المذاهب .

غير أن عبد الله بن عمر عمل على استرضائهم ، فأعاد إلى مقاتلة الكوفة أرزاقهم وأعطياتهم بعد أن كانت منعت عنهم ، لأنهم لم يكونوا فى الحقيقة يؤدون واجبات حربية ، ولم يستخدموا السلاح إلا فى الثورة ، وكان أهل الشام يرفضون أعطياتهم قائلين : نقسم على هؤلاء فيئنا ، وهم عدونا (١) .

ذلك أنه كان يقيم بين أهل الكوفة فى ذلك الوقت رجل يمكن أن يعتبر من آل بيت النبى عليه السلام ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . فهو أحد أحفاد جعفر بن أبى طالب أخى على بن أبى طالب . (٢) وكان قد وفد هو وأخوه على عبد الله بن عمر يلتمس صلته ، لكنه بقى فى الكوفة لا يريد عنها رحيلا ، وتزوج من أسرة ذات نباهة .

ونظرا لنسبه ، فقد بدا أنه أهل للخلافة (٣) ، وقد أظهر استعداده للخروج من أجلها ، ، وكان الزيدية ، أعنى الشيعة الذين كانوا قبل ذلك ببضع سنين قد ثاروا على

---

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٨٥٤ .

(٢) تجد أخبار خروج عبد الله بن معاوية ، والروايات المختلفة فى ذلك ، والظروف التى دعا فيها لنفسه أو حسن له غيره أن يفعل ذلك ، وما كان من جميع أمره عند الطبرى : ج٢ ص١٨٧٩ ـ١٨٨٧ وص١٩٧٦ - ١٩٨١ - تاريخ الدولة العربية .

(٣) قال له أهل الكوفة ، بعد قيام النزاع بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد : ادع لنفسك ، فبنو هاشم أولى بالأمر من بنى مروان " الطبرى : ج٢ ص ١٨٨٠ " .

حكومة هشام وعلى رأسهم زيد بن على ، يكونون نواة أنصاره ، فجاءوا به وأدخلوه القصر وحالوا بين صاحب الشرطة وبين القصر ، وكان بينهم كثير من الموالى ، ولكن بقية أهل الكوفة بايعوه ، ثم خرجوا معه يريدون ابن عمر فى الحيرة .

ولم يكن فى ابن عمر شىء من التراخى ، ولكن لم يكن من الممكن أن يخرجه عن هدوئه شىء مهما كان ، وكان إذا لم يستطع تغيير مجرى الأمور عام فى تيارها ، وقد ثبت له من التجربة أن ذلك يؤدى به إلى الغرض . وبينما كان يأكل ويشرب ترك لجنده من أهل الشام أن يصدوا المهاجمين ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد فر أهل الكوفة عندما بدأ القتال ، وذلك فى المحرم سنة ١٢٧هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ٧٤٤م) . ولكن كان الزيدية هم الذين قاتلوا قتال الشجعان ، بل صمدوا فى القتال أياما فى القصر وفى شوارع الكوفة ، حتى حصلوا على الأمان لأنفسهم ولعبد الله بن معاوية ، يذهبون حيث شاءوا ، لا يمنعهم أحد .

فخرج ابن معاوية من الكوفة ، ولم يكن قد انتهى الدور الذى أراده ، وقصد إلى المدائن وبلاد الجبل (ميديا) ، فبايعه أهلها ، وكان قد أتاه قوم من أهل الكوفة . ثم خرج إلى بلاد الجبل فغلب عليها ، وعلى حلوان وقومس وأصبهان والرى ، وانضم إليه خصوصا كثير من العبيد والموالى ، أى من الفرس . فاستقر أولا فى أصبهان ، لكنه ذهب إلى إصطخر فى فارس سنة١٢٨هـ (٧٤٥-٧٤٦م) .

وخضعت له أجزاء كبيرة من بلاد الجبل والأهواز وفارس وكرمان ، لأنه بدا بحكم نسبه أهلا للخلافة . وبايعه أيضا آخرون من صغار الثوار الذين ظهروا فى ذلك الوقت فى تلك الناحية ، وكانوا يريدون أن يقرهم على ما غلبوا عليه . وجاء آخرون من بنى أمية وبنى العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم فى أوطانهم ، فاستتروا تحت جناحه ، طامعين فى أن ينالوا منه صلة أو ولاية . أما التشيع الذى ارتفع شأن ابن معاوية بسببه ، فقد كان عنده شيئا ثانويا ، وقد التف حوله كل ألوان الناس . وهكذا قامت فجأة فى المشرق الذى لم يكن له سيد دولة شاسعة من الدول السريعة الزوال . وهذا من العلامات التى كان يتميز بها ذلك العصر .

٨ - مروان بن محمد وصراع الخوارج السياسى :

وبعد أن قتل الوليد بن يزيد ، ثار بينهم سعيد بن بهدل الشيبانى وبايع لنفسه خليفة على الخوارج ، وهو بعد أن تغلب على بسطام البيهسى - وكان هذا قد خرج منافسا له

فى وطنه ومفارقا لرأيه - خرج إلى الكوفة حيث كانت تلوح له آمال فى النجاح أكثر مما كانت تلوح فى البلاد التى كانت لمروان . ولكن سعيدا مات وهو فى الطريق ، فخلفه فى منصبه شيبانى آخر ، هو الضحاك بن قيس ، من بيت مرة النابه الذى كان منه شبيب أيضا ، فانحاز إليه الخوارج فى شهرزور وأرمينية وآذربيجان ، حتى صارت تحت لوائه آلاف كثيرة . وتوجه معهم إلى الكوفة ، وقد تضافر عليه الواليان المتنازعان هناك (ابن عمر والحرشى) ، ولكنهما لم يستطيعا صده ، وهزما فى رجب سنة ١٢٧ هـ (إبريل سنة ٧٤٥م) أقبح هزيمة . وعلى أثرها أخليا الكوفة . فأما الحرشى ، فإنه توجه إلى مروان فى الشام ، وأما ابن عمر فإنه لحق بواسط [١] ، وكان قد سبقه إليها بعض أصحابه من كلب . وفى شعبان سنة ١٢٧ هـ (مايو سنة ٧٤٥م) اتبعه الضحاك وحاصره . وقد تميز فى قتال الخوارج منصور بن جهور ، ولكنه كان أول من جنح إليهم ، [٢] وقبل مقالتهم فى الدين ، وذلك بأن أعلن أنه قد أسلم وامتثل لكلام الله[٣] .

ولم يزحزح الخوارج عن موقفهم على نهر الدجلة إلا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق . فعند ذلك لم يستطيعوا أن يصدوا الجيش الذى كان مسرعا من جهة الكوفة لمساعدة مروان ، وأرادوا أن يتجنبوا الوقوف بين نارين ، فتخلوا عن مركزهم فى الموصل حوالى آخر سنة ١٢٩ هـ (أغسطس ٧٤٧ م) واجتازوا الجبال قاصدين جهة المشرق .

وكان عامل مروان الذى انتزع العراق من يد الخوارج ، فجعل مقامهم على الدجلة مستحيلا ، هو يزيد بن عمر بن هبيرة ، من قيس قنسرين ، وكان أبوه فى عهد يزيد بن عبد الملك أميرا على الكوفة .

تحالف الخوارج والشيعة وبعض القبائل : أما منصور بن جهور ، فقد فر مع أصحابه من كلب إلى بلاد عبد الله بن معاوية . وكان الخوارج الذين كانوا يقاتلون مروان على الدجلة قد تقهقروا هم أيضا إلى هناك ، فارتفع شأن ابن معاوية بحكم هذه الظروف حينا ، بعد أن لم يكن له كبير شأن ، ولا شك أنه لم يكن يحلم بذلك . فقد اجتمع إليه

---

(١) الطبرى : ج٢ ص١٨٩٩ . أما أبو عبيدة (الطبرى : ج٢ ص١٩٠٢) .

(٢) تاريخ الدولة العربية .

(٣) تاريخ الدولة العربية .

الشيعة والخوارج وكلب والعباسيون والأمويون . وقد بدا أن كل الفوارق فى هذه الكتلة المتعصبة الموالية لمروان قد تلاشت . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تفرقت هذه الفلول المختلفة التى ألفت بينها الضرورة ولم تحتمل الحياة معا (١) .

وقف الموالى الفرس دائما موقف المعارضة من الدولة الأموية ، وانضموا إلى كل ثائر عليها ، واستترت عصبيتهم وشعوبيتهم وراء ستار المطالبة بمساواة الموالى بالعرب ، حتى إذا قامت الدولة العباسية ، انزاح هذا الستار ، وبدأت الشعوبية واضحة للعيان ، فقد انتعش الموالى الفرس وحازوا المناصب السياسية والإدارية ، واصطبغ العصر العباسى الأول بالصبغة الفارسية .

وبذلك انتعشت القومية الفارسية . وقد كان للفرس ديانات سابقة لم ينسوها جميعا لما اعتنقوا الإسلام ، وكانوا لا يجرءون فى العصر الأموى على أن يظهروها ، فقد كان همهم الأول أن يتحرروا سياسيا لا دينيا ، فكانت دعوتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين والزندقة ، حتى إذا نجح الموالى الفرس فى معاونة العباسيين فى القضاء على الدولة الأموية اعتبروا الدولة العباسية دولتهم ، وظهرت الديانات القديمة وبدأت حركات الزندقة (٢) .

الشعوبية والتأويل الباطنى : سلكت الشعوبية سبلا عديدة ، بين ظاهر ومستور ، كان لها أثرها وخطرها . فهى تريد أن تربك العقائد وتشوه المفاهيم الإسلامية لتزعزع قاعدة المجتمع وأساسه وهى تنفذ باسم العقل والمنطق إلى تحوير معنى النصوص والمفاهيم الإسلامية ، إذ تنتقل إلى التأويل الذى يخرج النصوص من معانيها الإسلامية إلى مفاهيم غريبة بعيدة عن الإسلام .

وعملت الشعوبية على التنديد بالمثل الخلقية وبالقيم العربية الإسلامية ، وذهبت إلى التحلل ، ونزعت إلى المجون ، ودعت إلى نظرات اجتماعية وخلقية تتعارض تماما مع القيم العربية الإسلامية ، والشعوبية تفعل ذلك باسم الظرف والحضارة وتتبجح به ، وبدعوى الحرية الاجتماعية ، وهى تدرك أن هذا سبيل فعال لتفكيك الروابط ولاضعاف الكيان الاجتماعى .

---

(١) راجع فيما يتعلق بحرب مروان مع الخوارج منذ الضحاك وخلفائه الطبرى مثلا : ج٢ ص١٨٩٧-١٩٠٨ ، ١٩١٣-١٩١٦ ، ١٩٣٨-١٩٤٢ ، ١٩٤٣-١٩٤٩ .

(٢) الزندقة والشعوبية : وانتصار الإسلام والعروبة عليها - سميره مختار الليثى .

الفصل الثاني

الجهمية وتراث السريان

١ ـ الفكر المسيحى والقول بخلق القرآن

وجد المسلمون فى البلاد التى فتحت لهم أقواما يدينون بديانات شتى . . ففى سورية ومصر : عمت المسيحية واليهودية ، وفى العراق وفارس : غلبت المجوسية بفرقها المتعددة والصابئة والسمنية . فكان لزاما على المسلمين أن يعيشوا بين أرباب تلك الأديان . وكان لا مندوحة لهم من الاتصال المستمر بهم ، فتأثروا بآرائهم وأفكارهم ، وتسربت إلى الإسلام من عقائدهم ، نتيجة لذلك الاحتكاك والتأثر المتواصلين ، ما كان أئمة السلف لا يقرونه ولا يرضون به .

فالسوريون والمصريون (١) : كانوا تابعين للدولة البيزنطية ، إحدى دولتين كبيرتين كانتا تحكمان العالم قبيل الإسلام ، لها حضارة هى مزيج من مدنيتى اليونان والرومان ، لذلك ، فإنهم تأثروا بتلك الحضارة ، واقتبسوا عنها كثيرا من عناصرها ، وأسسوا المدارس الراقية يتلقون فيها الفلسفة والعلم ، ويدققون فى المسائل اللاهوتية ، ويشتغلون بترجمة الأسفار الإغريقية .

فقد كانت لهم مدرسة كبيرة فى الإسكندرية ، وهى وإن كان رجالها قد انصرفوا فى الفترة التى سبقت الإسلام إلى الدروس الفلكية والطبية والكيمياوية ، إلا أنها كانت قبل ذلك ميدانا لحركة لاهوتية واسعة من أبرز القائمين بها الفيلسوف اليهودى فيلون (٢٠ ق . م – ٤٠ م) ، ترمى إلى دمج الدين اليهودى بالفلسفة . وقد ظهر صدى هذه

(١) يراجع : الرد على الجهمية والزنادقة ، الإمام أحمد بن حنبل ، تاريخ الجهمية والمعتزلة – الشيخ جمال الدين القاسمى – نشر فى المجلد السادس عشر من مجلة المنار ، جهم بن صفوان ومكانته فى الفكر الإسلامى – خالد العسلى .

الحركة فى المدارس السورية، ولاسيما مدرسة أنطاكية التى لعبت دورا مهما فى اللاهوت ، والتى نتج عن أبحاثها تكون الفرق المسيحية التى اختلفت حول طبيعة السيد المسيح كالنسطورية واليعقوبية .

وكانت تقوم فى شمال شرق سورية على الحدود بينها وبين العراق أربع مدارس أخرى : اثنتان منها للنساطرة السريان ، هما مدرسة نصيبين الأولى (١) ومدرسة الرها (٢) ، واثنتان لليعاقبة هما مدرسة رأس العين (٣) ومدرسة قنسرين (٤) ، تدور الأبحاث فيها كلها فى الأمور اللاهوتية والفلسفية .

أما الدولة الفارسية ، فقد قامت فيها مدرستان : الأولى مدرسة نصيبين الثانية التى أعاد النساطرة فتحها بعد أن أغلقت الحكومة البيزنطية مدرستهم فى الرها ، فرحب الفرس بها ، وسمحوا لعلمائها أن يواصلوا أبحاثهم وأن يشتغلوا باللاهوت والفلسفة ، وتغاضوا عن أعمالهم التبشيرية فى نواحى آسيا فى سبيل الفائدة التى قد تعود على البلاد منهم . والمدرسة الثانية هى مدرسة جند يسابور قاعدة خوزستان إحدى مقاطعات فارس ، فتحها كسرى أنو شروان فى القرن السادس الميلادى، وجلب إليها العلماء النساطرة وعهد إليهم بالتدريس فيها وترجمة الكتب من اليونانية إلى الفارسية ، فتأثر الفرس بالحضارة اليونانية عن طريقها . ولما كانت جند يسابور قريبة من الهند ، فقد تسربت إليها المدنية الهندية ، وأصبحت مدرستها محطة للتفاعل بين الحضارات الثلاث : اليونانية والفارسية والهندية ، ومركزا للاحتكاك بين الديانتين المسيحية والمجوسية . وقد عمرت مدرسة جند يسابور طويلا ، واستدعى أحد علمائها سنة (١٤٨هـ = ٧٦٥م) ليعالج المنصور ، وكانت تمد الخلفاء العباسيين من بعد المنصور بالأطباء (٥) .

لذلك كله، استطاع أولئك القوم أن يرتبوا عقائدهم الدينية على أصول فلسفية ،

---

(١) نصيبين : بلدة فى شمال غرب العراق، كانت تابعة للبيزنطيين ولما استولى عليها الفرس سنة ٣٦٤م ، أغلق العلماء السريان مدرستهم فيها ورحلوا إلى الأراضى البيزنطية آملين أن يجدوا حرية أوفر ومجالا أوسع لمتابعة دروسهم .

(٢) الرها : مدينة على الحدود بين سوريا ، وبين العراق . فتح العلماء النساطرة مدرسة فيها بعد رحيلهم عن نصيبين سنة ٣٧٣م . ثم أقفلتها السلطة البيزنطية سنة ٤٨٩م . لنزعتها النسطورية .

(٣) رأس العين : مدينة فى أرض الجزيرة على بعد (١١٠) كيلومترات إلى الجنوب من الرها .

(٤) قنسرين : مدينة على شاطئ الفرات الغربى .

(٥) أخبار العلماء بأخبار الحكماء، للقفطى : ص ٧١ - ٧٢ .

وأن يوجدوا لأنفسهم كلاما منطقيا مدققا ، وأن يتقنوا المجادلة والمناظرة . فلما شمر المعتزلة عن سواعدهم لمناهضتهم ، وجدوا أنهم لن يتمكنوا من مجاراتهم ، ولن يتهيأ لهم الغلبة عليهم ما لم يعمدوا مثلهم إلى درس الفلسفة ويستعينوا بها فى دعم حججهم وتقوية أقوالهم . فالأدلة النقلية وحدها غير كافية لإفحام الغير وإلزامهم الحجة ، وإنما هى تفتقر إلى البراهين العقلية التى تسندها وتظهر صحتها . وهكذا أقبل المعتزلة على درس الفلسفة كيما يتأتى لهم أن يحاربوا خصوم الدين الإسلامى بنفس سلاحهم ، ويخاطبوهم باللغة التى اعتادوا أن يفهموها والأساليب التى درجوا عليها وألفوها .

ولعل هذه الحاجة الماسة إلى الفلسفة هى التى دفعت المنصور إلى تشجيع الترجمة . فقد كان صديقا لعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة فى وقته ، عظيم الاحترام له . ولعلها أيضا هى التى حملت المأمون على الاهتمام بنقل الكتب اليونانية إلى العربية ، فإن المقريزى يقول : إنه ترجم بأمر المأمون فى بضعة أعوام من حكمه عدداً من الكتب ، فتلقاها المعتزلة وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها ، فاشتد ساعدهم بها .

وأول معتزلى استفاد من تلك الكتب فائدة ملموسة هو النظام الذى طالع ، كما يروى الشهرستانى ، كثيرا من كتب الفلاسفة ، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، ثم اقتدى به غيره . فكان المعتزلة أقدم المتكلمين فى الإسلام ، وهذه هى شهرتهم الأولى فى التاريخ ، وذلك واحد من أعمالهم المجيدة التى رفعت ذكرهم وخلدت اسمهم .

ويقول نيبرج إن هؤلاء المعتزلة المتكلمين قد قاموا بأشد ما احتاج إليه الإسلام فى ذلك العصر ، ألا وهو الاستعانة بما استعانت به الأديان المحيطة بهم كلها ، من أسلوب متين وطريق فلسفى لإبراز ما كمن فى الدين من القوى والفضائل . فكان لابد للمعتزلة من الاستغراق فى تلك الأبحاث والدقائق ، حتى يظهر الإسلام بمظهر التحدى ويفوز بما أراد الفوز به . فالمعتزلة بعملهم هذا لم يدافعوا عن الدين الإسلامى فحسب ، بل قربوه إلى أذهان الأمم الأخرى وجعلوهم يفهمونه ويدخلون فيه ، وبذلك ساعدوا على نهوضه وانتشاره .

قال آير : إن يحيى الدمشقى آخر آباء الكنيسة الشرقية وممثل اللاهوت المسيحى فيها ، وإن كتاباته هى زبدة تعاليم تلك الكنيسة . وقال مكيفرت إن اللاهوت المسيحى وصل ذروته فى زمن يحيى الدمشقى الذى وضع فى كتبه خلاصة ما بلغه الفكر المسيحى فى الشرق ، كما يبدو من مطالعة أقوال الدمشقى فى كتابه " الإيمان الأرثوذكسى " . والذى يظهر من كل هذا أن الأمويين الأولين كانوا متسامحين فى الدين ، فلم يمانعوا فى قيام مناقشات من هذا النوع . وقد توقفت تلك المناقشات مدة

طويلة ثم استؤنفت فى زمن المأمون الذى كان أكثر من الأمويين تسامحا وأعظم تقديرا للعلم .

جاء فى نفح الطيب أنه حدثت مناظرة بين العتابى وبين أبى قرة أمام المأمون فى المسيح عليه السلام . كذلك جرت لأبى قرة محاورة فى حضرة المأمون بينه وبين بعض العلماء من العراق والشام دونها فى كتاب خاص ، وكانت لأبى قرة منزلة رفيعة بين اللاهوتيين الشرقيين ، ذلك بأنه سار على أعقاب يحيى الدمشقى وجاراه فى طريقته ، فأصبح أعظم الكتبة الكنسيين وأبرعهم فى المصنفات الجدلية ، حتى صار يتخذ حجة فى تفنيد مزاعم المبتدعين من المسيحيين (١) .

ويرى البغدادى أن البدع والضلالات فى الأديان ما ظهرت إلا من أبناء السبايا ، وقد اصطلح المسلمون على تسمية أولئك الذين يظهرون الإسلام ويبطنون عداوته بالزنادقة .

وذكر المقريزى أن أول من تكلم بالقدر فى الإسلام هو معبد الجهنى (+٨٠هـ = ٦٩٩م .) ، أخذ ذلك عن نصرانى من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه ويعرف بالأسوارى (٢) . أما ابن نباتة فقد أتى برواية أخرى ، وهى أن أول من تكلم بالقدر فى الإسلام رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر وعنه أخذ معبد الجهنى . (٣) وروى ابن قتيبة أن غيلان الدمشقى أكبر داعية إلى القدر بعد الجهنى ، كان قبطيا فهو يدعوه "غيلان القبطى " (٤) ، وفى ذلك إشارة إلى أصله المسيحى .

روى ابن الأثير أن أول من نشر القول بخلق القرآن عدو النبى - صلى الله عليه وسلم - اللدود الذى كان يقول بخلق التوراة . ثم أخذ ابن أخته طالوت هذه المقالة عنه وصنف فى خلق القرآن ، فكان أول من فعل ذلك فى الإسلام . وكان طالوت هذا زنديقا فأفشى الزندقة (٥) . وذكر الخطيب البغدادى أن بشرا المريسى (+ ٢١٨هـ = ٨٣٣م) ، المرجئ المعتزلى أحد كبار الدعاة إلى خلق القرآن كان أبوه يهوديا صباغا بالكوفة (٦) . وفى رواية أخرى لابن قتيبة أن أول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن

(١) جهم بن صفوان ومكانته فى الفكر الإسلامى - خالد العسلى .

(٢) الخطط : ج٤ ص ١٨١ .

(٣) شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون: ص١٥٧ .

(٤) كتاب المعارف : ص ١٦٦ ، ٢٠٧ .

(٥) ابن الأثير : ج ٧ ص ٤٩ .

(٦) تاريخ بغداد : ج ٧ ص ٦١ .

سعيد العجلى (+١١٩هـ = ٧٣٧م) . وكان من أتباع عبدالله بن سبأ اليهودى [(١)] ، وروى أن الحسن كان يقول [(٢)] : إياكم ومعبدا فإنه ضال مضل . وروى أن مسلم بن يسار كان يجلس إلى سارية فى المسجد يقول : إن معبدا يقول بقول النصارى ، ومازال كذلك حتى أخذه عبد الملك بن مروان فى سنة ثمانين [(٣)] فقتله وصلبه بدمشق [(٤)] .

وقد أخذ عن معبد الجهنى غيلان بن مروان (أو ابن مسلم) الدمشقى فقال بالقدر خيره وشره : إنه من العبد ، وقال فى الإمامة : إنها تصلح فى غير قريش .

كذلك هناك من الأدلة التى تشير إلى تأثر المعتزلة بالمسائل اللاهوتية التى أثارها المسيحيون ، والتى كانت تشغل لاهوتيى المسيحيين أنفسهم ، كثيرة : منها أن الأمويين قربوهم إليهم ، واستعانوا بهم ، وأسندوا إليهم بعض المناصب العالية . فقد جعل معاوية بن أبى سفيان سرجون بن منصور الرومى المسيحى كاتبه وصاحب أمره ، [(٥)] وبعد أن قضى معاوية بقيت لسرجون مكانته ، فكان اليزيد يستشيره فى الملمات ويسأله الرأى [(٦)] . ثم ورث تلك المكانة ولده يحيى الدمشقى [(٧)] الذى خدم الأمويين زمنا ثم اعتزل العمل سنة (١١٢هـ . = ٧٣٠م .) والتحق بأحد الأديرة القريبة من القدس ، حيث قضى بقية حياته يشتغل فى الأبحاث الدينية ويصنف الكتب اللاهوتية .

وروى عمر الباهلى أنه قرأ الجزء الأول من كتاب الألف مسألة فى الرد على المانوية لواصل وكان فيه نيف وثمانون مسألة [(٨)] . وشهد عمرو بن عبيد فى واصل ، وهو

---

(١) عيون الأخبار : ج٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) لمعبد الجهنى ترجمة فى تاريخ الإسلام للذهبى : (٣/ ٣٠)، وفى تهذيب التهذيب : (١٠/ ٢٢٦)، وقد اختلف فى اسم أبيه واسم جده ، فيقال : هو معبد بن عبد الله بن حكيم (أو ابن عكيم ، أو ابن عليم) . ويقال : معبد بن عبيدالله بن عويمر (أو ابن عويم) . ويقال : معبد بن خالد ، ويقع اسم معلمه النصرانى فى بعض الأصول " سويس " ويقال : سنسويه .

(٣) ويقال : مات قبل التسعين .

(٤) وانظر التاريخ الكامل لابن الأثير : (٤/ ١٨٩)، والنجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى : (١/ ٢٠١) .

(٥) الطبرى : ج٦ ص١٨٣ ، وابن الأثير : ج٤ ص٧ .

(٦) الطبرى : ج٦ ص١٩٤ ، ١٩٩ ، وابن الأثير : ج٤ ص١٧ .

(٧) هو القديس يحيى الدمشقى (٨١-١٣٧هـ = ٧٠٠-٧٥٤م) .

(٨) البيان والتبيين : ج١ ص٣٦-٣٧ .

أعرف الناس به ، فقال : " ليس أحد أعلم بكلام غالبة الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة والرد عليهم منه " (١) . ولم يكتف واصل بالرد على المخالفين وهو قابع فى بيته بالبصرة ، بل كان يرسل الوفود من أصحابه إلى جميع الجهات لهذا الغرض كحفص بن سالم الذى أوفده إلى خراسان فناظر جهم بن صفوان وقطعه وجعله يرجع إلى قول الحق ، ولكن جهما ارتد بعد سفر حفص إلى قول الباطل (٢) .

٢ ـ رواد الفكر القديم " جهم وشيوخه "

وانتقل الخلاف حول طبيعة المسيح الناسوتية واللاهوتية فى الفكر المسيحى ، أى الخلاف حول إثبات الصفات البشرية للمسيح ونفى الصفات اللاهوتية عنه أو العكس بين تنزيهه عن البشرية وإثبات اللاهوتية له . وعلى هذا تردد القول بين مقاتل بن سليمان وإثباته للصفات وبين جهم الذى ذهب إلى نفيها ، وشق ذلك الخلاف وحدة الفكر الإسلامى إلى قولين : قول النفاة المعطلة وقول المثبتين المنزهة ، ومحور القولين : جهم وشيوخه والجهمية . ونعرض أولا القول عن شيوخه .

ثم نشأت مسألة كان على الظروف بعد ذلك أن تزيدها خطرا ، وهى مسألة القرآن غير المخلوق التى تعود بأصلها فى ما يبدو وكما أثبته (بكر) إلى مسألة الكلمة .

نحن نعلم أن القرآن يقول فى عيسى إنه " كلمة الله " أو روحه وما كان ليشق على مسيحى تأويل هذه التسميات ، ومن هنا نشأ الاعتراض الذى جمعه أهل الجدل من المسيحيين إلى المسلمين .

" من هو المسيح " ؟ إنه كلمة الله . فهل هذه الكلمة مخلوقة أم غير مخلوقة؟

---

(١) خزانة الأدب : ج٣ ص٤٥٩ .

(٢) تكملة الفهرست : ص ١ .

إن كانت غير مخلوقة كان المسيح هو الله ، وإن كانت مخلوقة لم يكن الله قبل تولدها ذا كلمة وروح .

وبكلام آخر : كان المسيحيون يستخدمون البرهان بالكلمة المخلوقة أو غير المخلوقة ليرغموا المسلمين على الاعتراف بلاهوت المسيح ، فاضطر المسلمون إلى الإجابة .

وربما كان ذلك هو الأصل فى القرآن المخلوق أو غير المخلوق (١) .

(١) بيان بن سمعان التميمى :

بيان بن سمعان التميمى (٢) أصله من سواد الكوفة ، فهو مولى لا صريح (٣) . وكان تبانا يتبن التبن بالكوفة (٤) . ولا تعرف سنة ولادته ، ولا نشأته الأولى وثقافته ، ومن هم أشهر أتباعه ، وما هو دوره الفكرى والاجتماعى والسياسى فى الكوفة ، وقد لاقى بيان مصرعه على يد خالد القسرى (٥) . يقول الشاعر (٦) :

طال التجاوز عن بيان واقفا *** وعن المغيرة عند مرج العاشر .

وقتل بيان مع المغيرة بن سعيد (٧) فى يوم واحد مع خمسة عشر رجلا من أصحابه ،

---

(١) فلسفة الفكر الدينى بين الإسلام والمسيحية ، ص ٦١ ، ٦٢ لويس غرويه . ح قنواتى ترجمة صبحى الصالح - د . فريد جبر (الأدب) .

(٢) التبصير فى الدين : ص٣٥ ، ١٠٩ ، مقالات الإسلاميين : ج١ص٦٦ ، الفرق بين الفرق : ص١٤٥ ، الفصل فى الملل : ج٤ص١٨٥ ، أبومحمد ، الفرق والتواريخ : ص٩٦ ، الحورالعين : ص١٦١ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ج١ ص٦٦ ، ابن حجر : لسان الميزان ج٢ص٦٩ ، الدهلوى : مختصر التحفةالاثنى عشرية ص١١-١٢ . ويرد اسمه بنان بن سمعان النهدى عند الشهرستانى فى الملل والنحل : ج٢ص ٤ ٠ ٢(الطبعةالأدبية) والرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص٥٧ .

(٣) المطهر بن طاهر المقدسى : البدء والتاريخ ج٥ ص١٣٠ .

(٤) النوبختى : فرق الشيعة ص٥١ النجف ، ٩٥١ وسأشير له " فرق الشيعة " ، القمى : كتاب المقالات والفرق ص٣٣ ، ابن قتيبة : عيون الأخبارص١٤٨ .

(٥) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج٢ص١٤٨ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج٢ص١٦٢٠ عن الأعمش ، النوبختى ، فرق ص٤٨ ، ٥٥ .

(٦) ابن قتيبة : " عيون الأخبار ج٢ص١٤٨ ، البدء والتاريخ : ج٥ص١٣٠ .

(٧) انظر عن المغيرة ابن حجر : لسان الميزان ج٦ ص ٧٥ .

وذلك فى سنة ١١٩هـ/ ٧٣٧م (١) ، بأمر من خالد القسرى أيضا ، حيث شدهم بأطناب القصب وصب عليهم النفط فى مسجد الكوفة ، وألهب فيهم النار ، فأفلت رجل فخرج بنفسه ، ثم التفت فرأى أصحابه تأخذهم النار فكر راجعا إلى أن ألقى بنفسه فى النار فاحترق معهم (٢) .

وسبب قتله ، فيما يظهر ، أراؤه الغريبة عن الإسلام وادعاؤه أنه هو البيان الذى ذكر فى القرآن وادعاؤه الألوهية وتنزيه نفسه عن المعاصى .

والسبب الآخر الذى دعا خالدا لقتل بيان هو ادعاؤه الإمامة ، وهذا يعنى عدم اعترافه بالخليفة الأموى ، الحاكم آنذاك ، فاستغل خالد آراءه الغريبة فاتهمه ثم قتله .

آراؤه : أ - يعد النوبختى والتسترى بيانا وفرقته من الغلاة ، (٣) إذ لعنه محمد بن الحسن فقال : لعن الله بيان التبان ، وإن بيانا لعنه الله كان يكذب على أبى أشهد أن على بن الحسين كان عبدا صالحا (٤) .

ب - وكما مر سابقا ، فإن بيانا ادعى بنبوته بعد موت أبى هاشم ، إذ استغل موته بلا عقب فادعى أنه أوصى إليه (٥) .

وقد قال بيان : حل فى علىّ جزء إلهى ، واتحد بجسده : فيه كان يعلم الغيب ، إذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار ، وله النصرة والظفر ، وبه قلع باب خيبر (٦) وعن هذا قال : والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركة

(١) الفصل فى الملل : ج٢ ص١٨٥ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج٢ ص١٦٢٠ عن الأعمش .

(٣) فرق الشيعة : ص٥٥ ، التسترى : قاموس الرجال ج٢ ص٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٤) التسترى : قاموس الرجال ج٢ ص٢٤٤ .

(٥) الفرق بين الفرق : ص٢٧ ، ١٤٥ ، الفصل فى الملل : ج٤ ص١٨٥ ، الملل والنحل : ج١ ص١٣٦ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ج١ ص١١٦ ، الدهلوى : مختصر التحفة الاثنى عشرية ص١١ ، ١٢ .

(٦) الطبرى : تاريخ ج١ ص١٥٨١ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر ج٢ ص١٣٥ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص١٦٧ .

غذائية ، ولكن قلعته بقوة رحمانية ملكوتية ، بنور ربها مضيئة . فالقوة الملكوتية فى نفسه كالمصباح فى المشكاة ، والنور الإلهى كالنور فى المصباح . قال : وربما يظهر (على) فى بعض الأزمان . وقال فى تفسيره قوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام** ﴾ (١) : أراد به عليا فهو الذى يأتى فى الظلل ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه . ثم ادعى بيان أنه قد انتقل إليه الجزء الإلهى ، بنوع من التناسخ ولذلك استحق أن يكون إماما وخليفة . وذلك الجزء هو الذى استحق به آدم عليه السلام سجود الملائكة (٢) .

وأضاف أصحاب بيان لعلى صفات أخرى ، هى : أن عليا يعلم الغيب ، ويعلم ما فى الغد وما تشتمل عليه الأرحام من الأولاد ، وما يغيب الناس فتجيبه (٣) .

ينسب إلى بيان أنه أول من قال بأن القرآن مخلوق (٤) ، إذ تذكر الروايات أنه أخذ آراءه عن طالوت بن أعصم عن لبيد (٥) ، وأن الجعد بن درهم أخذها من بيان .

(٢) الجعد بن درهم :

اختلف الرواة فى نسب الجعد بن درهم ، فيذكر الثعالبى (٦) أنه مولى بنى مروان ، ويذكر ابن نباتة المصرى أنه مولى الحكم (٧) ، أما السمعانى فيذكر أنه مولى سويد بن غفلة (٨) .

---

(١) البقرة : ٢١٠ .

(٢) الملل والنحل : ج١ ص١٣٦ ، التبصير فى الدين : ص٣٥، الفرق بين الفرق : ص١٤٥ ، الإيجى : المواقف ص٤١٩ .

(٣) التبصير فى الدين : ص١٠٩ ، مقالات الإسلاميين : ج١ ص١٦٠ ، الفرق بين الفرق : ص١٤٥ ، الحور العين : ص ١٦١ .

(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج٢ ص١٤٨ ، سرح العيون ص١٦٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٧ ص ٢٦ (١٢٩٠هـ) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٩ ص ٣٥٠ .

(٥) لبيد بن الأعصم كان يتعاطى السحر ، وهو من عظماء يهود. البلاذرى : أنساب الأشراف ج١ ص٢٨٥ .

(٦) الثعالبى : لطائف المعارف ص٤٣ ، القاهرة ١٩٦٠ تحقيق إبراهيم الإبيارى وحسن كامل الصيرفى .

(٧) سرح العيون : ص٩٦٨ ، ولا يذكر ابن نباتة أن الحكم هو ولى الجعد .

(٨) السمعانى : أنساب ص ١٣١ (اليعقوبى : التاريخ ج٢ ص٢٤٠) سكن الكوفة وتوفى سنة اثنتين وثمانين، النووى : تهذيب الأسماء ج٢ ص ٢٤٠, ٢٤١ .

أما أصله فيذكر ابن كثير أنه من خراسان دون أن يشير إلى اسم المدينة التى ينتسب إليها [١] . ويذكر ابن نباتة أن أخت الجعد بن درهم كانت أم مروان بن محمد [٢] ، وربما دفعه إلى ذلك كون أم مروان هى أم ولد [٣] ، وأن مروانا يدعى بالجعدى .

وإذا سلمنا بأن أم مروان هى أم ولد فعلا ، وهو ما تجمع عليه المصادر ، فإننا لا نستطيع الجزم بأنها كانت هى أخت الجعد بن درهم ، ولكننا نرجح أنها لم تكن أختا للجعد . إذ لو كانت هذه الصلة بينهما لتردد خالد القسرى فى قتله ؛ لأن مروان بن محمد كان فى هذه الفترة حاكما على الجزيرة ، فكيف يأمر هشام بقتل خال حاكمه على الجزيرة وهو أحد أفراد أسرته .

ولا يعرف المكان أو السنة التى ولد فيها الجعد . وكل ما نعرف عنه أنه كان يقيم بدمشق إذ كانت له دار بالقرب من القلاسيين إلى جانب الكنيسة[٤] . كما لا تعرف مهنته ومن كان يتصل بهم بدمشق .

ذهب الجعد إلى الجزيرة عندما كان واليها مروان بن محمد [٥] ويقول البلاذرى إنه ذهب إلى الجزيرة هربا من هشام بن عبد الملك [٦] .

وخلال وجود الجعد فى الجزيرة مع مروان أخذ ينشر آراءه فى نفى الصفات [٧] ، وبعد أن عظم أمر الجعد نفاه إلى البصرة كما يذكر أبو محمد[٨] .

وفى عيد الأضحى سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٧م[٩] ، جلب خالد القسرى الجعد معه إلى مسجد واسط ، وخطب خطبة العيد . ومما قال فى خطبته : الحمد لله الذى اتخذ

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج٩ ص٣٥٠ ، بينما يذكر الذهبى أن أصله من حران : تاريخ الإسلام . ج٤ ص ٢٣٩ . (٢) سر العيون : ص ١٦٨ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج٥ ص٣١٥ ، الطبرى : تاريخ ج٣ ص٥١ ، التنبيه والإشراف : ص٢٨١ .

(٤) سرح العيون : ص ١٦٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٩ ص ٣٥٠ .

(٥) السمعانى : الأنساب ص ١٣١ آ .

(٦) البلاذرى : أنساب ج٨ ص ٢٤١ ، نقلا عن مقال إحسان عباس فى مجلة الأبحاث السنة التاسعة ج٣ أيلول ١٩٥٦ .

(٧) السمعانى : الأنساب ص ١٣١ آ .

(٨) الفرق والتواريخ : ص ١١٨ .

(٩) وعلى الأغلب أن سنة قتله كانت قريبا من سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٧م ، كما يذكر ابن عساكر : التاريخ الكبير ج٥ ص٦٨ .

إبراهيم خليلا ، وموسى كليما . فقال الجعد وهو بجانب المنبر : لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولا موسى كليما ولكن من ورا ورا . فلما أكمل خطبته قال : أيها الناس ضحوا قبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولا موسى كليما . ثم نزل وذبحه فى أسفل المنبر [١] .

آراؤه : وأهم آرائه هى نفيه الصفات إذ يذكر ابن عماد ، وابن تيمية ، وابن القيم أن الجعد بن درهم نفى الصفات عن الله تعالى ، ونفى أن يكون الله قدر سمواته على عرشه [٢] .

يذكر ابن كثير أن الجعد كان يتردد على وهب بن منبه [٣] .

يعد عبد القاهر البغدادى الجعد من القدرية [٤] . إذ غالى فى قدرة الإنسان حتى قال : إن الخمر ليس من فعل الله ولكنه من فعل الخمار . وكان يقول : إن من وضع اللحم حتى يدود كان الدود من خلقه ، ومن دفن الأجد لتتبن حتى تولد منه العقرب كان العقرب من فعله ، ومن دفن الكماة حتى صارت حية كانت الحية من فعله . فنسبوا خلق الدود والحية إلى الإنسان [٥] .

(٣) مقاتل بن سليمان :

مقاتل بن سليمان بن بشر مولى الأزد [٦] ، من خراسان ، ويكنى أبا الحسن البلخى ، لأن أصله من بلخ ، ولكنه انتقل إلى مرو [٧] ، فنسب إليها كذلك [٨] ، ثم

---

(١) ابن تيمية : العقيدة الحموية ص١٥ ، مجموعة الرسائل ج١ ص٩٢ . وجهم بن صفوان ومكانته فى الفكر الإسلامى .

(٢) ابن تيمية : الرسالة الحموية ص ١٥ ، اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٥٤ . (٣) الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب ص٢٥ ، ٢٦ .

(٤) الفرق بين الفرق : ص ١٧ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج٩ ص ٣٥٠ .

(٦) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج١٣ ص١٦٨ .

(٧) الخطيب : تاريخ بغداد ج٣١ ص ١٦٩ .

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص ١١٢ (مصر ١٣١٠هـ) .

انتقل بعد ذلك إلى البصرة وذهب إلى بغداد [١] ، ثم رجع إلى البصرة حيث توفى فيها سنة [٢] ١٥٠ هـ/ ٧٦٧م [٣] .

اشتهر مقاتل بن سليمان بالتفسير [٤] ، وقد وثقه الشافعي وقال : " الناس كلهم عيال ثلاثة ، على مقاتل بن سليمان فى التفسير ، وعلى زهير بن أبى سلمى فى الشعر ، وعلى أبى حنيفة فى الكلام [٥] .

ووثقه كذلك عباد بن كثير ، [٦] واستحسن عبد الله بن المبارك تفسيره ولكن أخذ عليه أنه ليس فيه إسناد [٧] ، وكذلك فعل أحمد بن حنبل [٨] .

اعتمد الملطى على تفسير مقاتل فى باب مشابه القرآن [٩] فى كتابه " التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع " .

التقى مقاتل فى بلخ بجهم بن صفوان ، وناقشه فى الصفات قبل أن يلتحق هذا بالحارث بن سريج ، وكان جهم يذهب إلى نفى الصفات عن الله تعالى أما مقاتل فيثبت الصفات [١٠] .

كان مقاتل يذهب إلى إثبات الصفات ، وقد غالى فى ذلك غلوا شديدا [١١] ، فكان يقول : " إن الله جسم ، وإن له جمة ، وإنه على صورة الإنسان ، لحم ودم وشعر وعظم ، له جوارح وأعضاء من يد ، ورجل ، ورأس ، وعينين ، مصمت ، وهو مع

---

(١) الخطيب : تاريخ بغداد ج١٣ ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر : ج١٣ ص ١٦٩ .

(٣) نفس المصدر : ج١٣ ص١٦٩ . وجهم بن صفوان ومكانته فى الفكر الإسلامى .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص١١٢ . قال عبد الله بن المبارك " ما أحسن تفسيره لو كان ثقة " . الخطيب : تاريخ بغداد ج١٣ ص١٦٠ - ١٦٣ .

(٥) الخطيب : تاريخ بغداد ج١٣ ص١٦٢ .

(٦) الخطيب : تاريخ بغداد ج١٣ ص١٦٢ .

(٧) الخطيب : تاريخ بغداد ج١٣ ص١٦١ .

(٨) جهم بن صفوان - خالد العسلى .

(٩) التنبيه والرد : ص٥٨ - ٨٢ .

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ج٩ ص٣٥٠ : تاريخ الإسلام ج٥ ص٥٦ .

(١١) ابن كثير : البداية والنهاية ج٩ ص٣٥٠ .

هذا لا يشبه غيره ولا يشبهه غيره» [١] وقال " بأنه لا يمكن أن نشاهد شيئا موسوما بالسمع والبصر ، والعقل والعلم والحياة والقدرة إلا ما كان لحما ودما. [٢] " وفسر آيات من القرآن على أنها تؤدى إلى التجسيم ، ففسر قوله تعالى : **﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾** إنما هو شىء فيه الروح . كما قال ههنا للملكة سبأ " وأوتيت من كل شىء لم تؤت إلا ملك بلادها " . وكما قال " وآتيناه من كل شىء سببا ، لم يؤت إلا ما فى يده من الملك . ولم يدع فى القرآن من كل شىء إلا سرده علينا " [٣] .

٣ ـ " الجهميـــــة "

الجهمية فرقة من فرق المسلمين ، انتحلت مذهب الجهم بن صفوان .

(١) جهم بين صفوان وفلسفته :

لأسباب سياسية ، قتله سلم بن الأحوز . فقد كان ينتمى إلى مناصرة الحارث بن سريج ، وحين غلب عليه سلم بن الأحوز وأسر يومئذ جهم بن صفوان فقال لسلم : إن لى وليا من ابنك حارث . فقال : ما كان ينبغى له أن يفعل ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب وأبراك إلى عيسى بن مريم ما نجوت ، والله لو كنت فى بطنى لشققت بطنى حتى أقتلك ، والله لا يقوم علينا من اليمانية أكثر مما قمت . فقتله [٤] .

ولا شك أن هذا الحوار يحمل فى نفسه السبب الذى من أجله قتله سلم بن الأحوز،

---

(١) مقالات الإسلاميين : ج١ ص٢١٤ ، الإيجى : المواقف ص ٢٧٣ ، البدء والتاريخ : ج١ ص٨٠ ، الحور العين : ص٢٥٤ ، الفرق والتاريخ : ص ١١٨ .

(٢) الحور العين : ص ١٤٩ .

(٣) الخطيب : تاريخ بغداد ج١٣ ص ١٦٢ .

(٤) تاريخ الجهمية والمعتزلة – جمال الدين القاسمى : ج٧ ص ١٦ .

وهو أنه لا يقوم علينا من اليمانية أكثر مما قمت، ورجح هذا الرأى الشيخ القاسمى، فإنه قال : ومن تأمل ما قص يعلم أن قتل جهم إنما كان لأمر سياسى لا دينى . . وكان مقتله على ما حكاه الطبرى عام ١٢٨ .

وهناك رأى حكاه ابن حنبل أنه قتل فى زمن هشام بن عبد الملك . قال : قرأت فى دواوين هشام بن عبد الملك إلى نصر بن سيار عامل خراسان : أما بعد، فقد نجم قبلك رجل يقال جهم من الدهرية، فإن ظفرت به فاقتله . غير أن القاسمى يرجح أن إلحاق جهم بالدهرية لزيادة الإغراء بقتله ليكون حجة له وتمويها على العامة، والسبب الحقيقى أمر سياسى محض فيقول : ومن لا يدرى حقيقة الأمر فى هدر دمه . وقد علمت أن الباعث على قتله أمر سياسى محض ، لأن جهما كان خطيب الحارث وقارئ كتبه فى المجامع، والداعى إلى رأيه وإلى الخروج معه على بنى أمية وعمالهم لسوء سيرتهم وقبح أعمالهم وشدة بغيهم كما أثرناه قبل .

ولا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل أن الدهرية لا يقرون بألوهية ولا نبوة . وجهم كان داعية للكتاب والسنة ، ناقما على من انحرف عنهما ، مجتهدا فى أبواب من مسائل الصفات [(١)] ، المجلد السادس عشر .

وقال الحافظ ابن عساكر فى تاريخه : أقام الجعد بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن ، فطلبه بنو أمية فهرب وسكن الكوفة ، فلقيه بها الجهم بن صفوان فتقلد عنه هذا القول .

وقال ابن الأثير فى سيرة هشام : قيل إن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام بن عبد الملك، فأخذه هشام وأرسله إلى خالد القسرى وهو أمير العراق وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله . فبلغ الخبر هشاما ، فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس فى وثاقة ، فلما صلى العيد يوم الأضحى ، قال فى آخر خطبته : انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم ، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم ، فإنه يقول ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلا، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا : ثم نزل فذبحه .

---

(١) القاسمى : المرجع السابق .

مرجع فلسفته ، وخلاصة مذهبه : هو تأويل آيات الصفات كلها والجنوح إلى التنزيه البحت ، وبه نفى أن يكون لله تعالى صفات غير ذاته ، وأن يكون مرئيا فى الآخرة ، وأن يتكلم حقيقة ، وأثبت أن القرآن مخلوق . هذه أشهر مسائل جهم التى يقال لها (مقالة الجهمية) . وله من الآراء سوى ذلك ، كالقول بنفى جهة العلو ، والقول بالقرب الذاتى ، وإنه تعالى مع كل أحد ذاتا كما حكاه الرازى الحنفى فى كتابه (حجج القرآن) عن الجهمية ، وأورد أدلتهم من الكتاب والسنة فانظره .

وللإمام ابن دقيق العيد تقريب آخر قرره فى ذلك ، حيث قال : المنزهون لله عن سمات الحدوث ومشابهة المخلوقات بين رجلين : إما ساكت عن التأويل وإما متأول . (ثم قال) والأمر فى التأويل وعدمه فى هذا قريب عند من يسلم التنزيه . فإنه حكم شرعى أعنى الجواز وعدمه . فيؤخذ كما يؤخذ سائر الأحكام . إلا أن يدعى مدع أن هذا الحكم ثبت بالتواتر عن صاحب الشرع - أعنى المنع من التأويل - ثبوتا قطعيا فخصمه يقابله حينئذ بالمنع الصريح . وقد يتعدى بعض خصومه إلى التكذيب القبيح بالمنع الصريح (١) .

وبالجملة فتأثير مذهب الجهمية فى الأفكار ، إنما كان بتنبيهها إلى التأويل ، وسلوك منهج المجاز فى تلك المسائل . وكان هذا الباب موصدا قبلها ، لا يطرقه أحد ولا يخطر له (٢) .

واشتهر عن جهم القول بالجبر (بفتح الجيم وسكون الموحدة) وهو إسناد فعل العبد إلى الله تعالى ، ففى المواقف للعضد وشرحها للسيد : الجبرية - متوسطة تثبت للعبد كسبا كالأشعرية - وخالصة لا تثبته كالجهمية قالوا : لا قدرة للعبد أصلا لا مؤثرة ولا كاسبة بل هو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها .

لم يعد العضد فى المواقف الجهمية فئة على حدتها ، كما فعل غيره من أرباب المقالات ، بل جعلها قسما من الجبرية ، فلذا عسر السقوط عليها من المواقف إلا بالسير وقد عرفتها .

والجبر المذكور هو أحد آراء الجهمية . قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : ليس الذى أنكروه على الجهمية مذهب الجبر خاصة ، وإنما الذى أطبق السلف على ذمهم بسببه إنكار الصفات حتى قالوا : إن القرآن ليس كلام الله وإنه مخلوق .

---

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة : الشيخ جمال الدين القاسمى .

(٢) جهم بن صفوان ومكانته فى الفكر الإسلامى - خالد العسلى .

مذهب الجهم متلقى عن الجعد بن درهم : روى الأئمة أن أول من قال بخلق القرآن وخاض فيه، هو الجعد بن درهم ، وكان مؤدب [1] مروان آخر ملوك بنى أمية ، ولذا كان يلقب مروان بالجعدى لأنه تعلم من الجعد مذهبه فى القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . وكان الناس يذمون مروان بنسبته إليه . قاله ابن الأثير .

وقال الشهرستانى : كان السلف كلهم من أشد الرادين على جهم ونسبته التعطيل. ومن أشهر كتبهم فى الرد عليه : كتاب الإمام أحمد بن حنبل فى الرد على الجهمية ، وكتاب الإمام الدارمى ، وكتاب التوحيد والرد على الجهمية للإمام البخارى فى آخر صحيحه ، وفى كتابه خلق الأفعال أيضا . وكتاب لابن أبى حاتم وغير هؤلاء .

تفريط الجهمية فى السمع والنقل : من المعلوم أن الجهمية قصروا فى علم السمع والنقل ، وهو علم الرواية ، فجانبوا كثيرا من المرويات المشهورة المعروفة عند أهلها ، وتمحلوا فى ردها أو تأويلها بما لا يرتضيه منصف ، ففاتهم ركن عظيم من أركان أصول الشرع، وهو السنة ، وما يتبعها من علومها المتنوعة ، وفنونها المحررة . وهل يزرى بعلم زخر بحره ، وتلاطم بالشرائع موجه[2]؟!

(٢) أول من تكلم فى القدر :

اشتهر أن أول من أحدث القول بالقدر (معبد الجهنى). قال الذهبى فى الميزان : هو تابعى صدوق، لكنه سن سنة سيئة ، فكان أول من تكلم فى القدر . قتله الحجاج صبرا لخروجه مع ابن الأشعث، وكان أولا يجلس إلى الحسن البصرى، ثم سلك أهل البصرة بعده مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله .

ويروى أن أول من تكلم فى القدر (غيلان بن أبى غيلان الدمشقى)، ويقال إنه أخذ

(١) المؤدب : معلم الأدب ، وهو رياضة النفس على حسن الأخلاق وفعل المكارم، بمثابة المربى والمرشد ، أو معلم العلوم الأدبية . ولا يخفى أن الأمراء تعنى بانتقاء أماثل الفضلاء لتربية أبنائها على العلوم والأخلاق الفاضلة .

(٢) جهم بن صفوان: خالد العسلى – تاريخ الجهمية والمعتزلة : الشيخ جمال الدين القاسمى .

عن معبد ، ولا منافاة فالأولية نسبية ، بمعنى أن كلا منهما سبق وتقدم على كل من خاض فى القدر بعدهما .

وغيلان هذا كان مولى عثمان بن عفان ، وكانت داره بدمشق فى ربض باب الفراديس شرقي دمشق . وحكى ابن عساكر أن عمر بن عبد العزيز كان قد لام غيلان على رأيه ، فكف عن ذلك حتى مات عمر . فلما مات سال غيلان فى القدر سيل الماء ، وكان يفتى الناس لما حج مع هشام سنة (١٠٦). قال الأوزاعى : قدم علينا غيلان القدرى فى خلافة هشام بن عبد الملك ، فتكلم غيلان وكان رجلا مفوها . ثم أكثر الناس الوقيعة فيه والسعاية بسبب رأيه فى القدر ، وأحفظوا هشام بن عبد الملك عليه ، فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه .

للمجتهدين من الجهمية والمعتزلة ما لغيرهم : ويذكر السيوطى بعضا منهم :

(١) ثور بن زيد المدنى . (٢) ثور بن يزيد الحمصى . (٣) حسان بن عطية المحاربى . (٤) الحسن بن ذكوان . (٥) داودين بن الحصين . (٦) زكريا بن إسحق . (٧) سالم بن عجلان . (٨) سلام بن مسكين . (٩) سلام بن عجلان . (١٠) سيف ابن سليمان المكى . (١١) شبل بن عباد . (١٢) شريك بن أبى نمر . (١٣) صالح بن كيسان . (١٤) عبد الله بن أبى لبيد . (١٥) عبدالله بن عمرو . (١٦) عبد الله بن أبى نجيح . (١٧) عبد الأعلى بن عبد الأعلى . (١٨) عبد الرحمن بن إسحق المدنى . (١٩) عبد الوارث بن سعيد الثورى . (٢٠) عطاءبن أبى ميمونة . (٢١) العلاء بن الحارث . (٢٢) عمرو بن أبى زائدة . (٢٣) عمران بن مسلم القصير . (٢٤) عمير بن هانئ . (٢٥) عوف الأعرابى . (٢٦) كهمس بن المنهال . (٢٧) محمد بن سواء البصرى . (٢٨) هارون بن موسى الأعور النحوى . (٢٩) هشام الدستوائى . (٣٠) وهب بن منبه . (٣١) يحيى بن حمزة الحضرمى .

قال السيوطى : هؤلاء رموا بالقدر ، وكلهم ممن روى له الشيخان أو أحدهما . وقال ابن تيمية : فى هؤلاء - يعنى القدرية - خلق كثير من العلماء والعباد ، كتب عنهم وأخرج البخارى ومسلم لجماعة منهم . وقال الإمام أحمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة . قال ابن تيمية : وهذا لأن مسألة خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات مسألة مشكلة .

ومن طالع كتاب (حجج القرآن) للإمام أحمد الرازى الحنفى رحمه الله ، ورأى تمسك كل فرقة من فرق الإسلام بآيات وأخبار ذهب بها اجتهادها إلى أنها نصوص أو ظواهر فيما تذهب إليه ، عذرها ورحمها ، وعلم أنها لم تكل جزافا ، وإنما وزنت

الأمر بمعيار ما أدى إليه النظر ، وتوخت الحق جهدها . نعم، ليس كل من يتوخى الحق يصيبه ، إلا أنه ليس على باذل جهده ملام ، والسلام .

قال الإمام أحمد بن المختار الرازى فى مقدمة كتابه (حجج القرآن)، لما استخرج منه حجج كل طائفة مثاله : وما من فرقة إلا ولها حجة من الكتاب، وما من طائفة إلا وفيها علماء ، نحارير فضلاء ، لهم فى عقائدهم مصنفات ، وفى قواعدهم مؤلفات . وكل منهم يؤول دليل صاحبه على حسب عقيدته ووفق مذهبه . وما منهم من أحد إلا ويعتقد أنه هو المحق السعيد ، وأن مخالفه لفى ضلال بعيد: ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ . [1] (قال) وليس قصدنا بيان مقولات المتكلمين ، من المتأخرين والمتقدمين، ولكن القصد أن نذكر جميع حجج القرآن بطريق الاستيعاب ، ثم نذكر حجج الحديث ، لكل قوم من القديم والحديث ، لكيلا يعجل طاعن بطعنه فى فرقة ، ولا يغلو قادح بقدحه فى طائفة .

وكتابه هذا بديع جدا ، رتبه على ثلاثين بابا ، فى كل باب فصول جمة . وقال رحمه الله فى خاتمته ما صورته : هذا آخر ما أوردنا من حجج القرآن لجميع أهل الملل والأديان ، وهى (بمجموعها حجة) على أصحاب الظواهر الذين يأبون التأويل ، وينسبون مخالفيهم إلى التعطيل، (وحجة أيضا) على المتعصبين الذين يقابلون مخالفيهم بالتكفير والتضليل ، والتخطئة والتجهيل ، (وحجة أيضا) على من ينكر النظر فى كتب الأصول ، أو يقول فيها بالمنقول دون المعقول، (وحجة أيضا) على من يكفر أهل القبلة ، أو يعير طائفة بالقلة ، أو يخرجهم ببدعة عن الملة ، (وحجة أيضا) على من يجزم على مجتهد واحد بالإصابة ، أو يعجل فى تضليل فرقة وعصابة، (وحجة أيضا) على العلماء القاصرين أيضا فى العربية ، الغالين فى الجدل والعصبية .

---

(١) سورة الروم آية : ٣٢ .

٤ ـــ علاقات جهم بن صفوان

جهم بن صفوان ، ويكنى أبو محرز ، مولى لبنى راسب من الأزد . أصله من بلخ[١] ، عاش فترة من حياته فى سمرقند فنسب إليها[٢] .

لا نعرف سنة ميلاده ، أو أى شىء عن أبيه أو اسم وليه . وكل ما نعرف أنه ذهب إلى الكوفة ، واتصل فيها بالجعد بن درهم ، وأخذ عنه القول فى خلق القرآن ونفى الصفات . ولا تذكر المصادر السنة التى ذهب فيها إلى الكوفة ، وإن كان ذلك قبل سنة ١٢٠ هـ/ ٧٣٧م وهى السنة التى يرجح أن الجعد قتل فيها[٣] . ولا يعرف ما هى المناقشات التى دارت بين الجعد وجهم وما الآراء التى أخذها منه ، عدا ما ذكرنا فى دراسة الجعد بن درهم .

علاقة جهم بأبى حنيفة : ناقش جهم أبا حنيفة فى مشكلة الإيمان ، فيروى أن جهما لقى أبا حنيفة ، فلما لقيه قال : يا أبا حنيفة ، أتيتك لأكلمك فى أشياء هيأتها لك . فقال أبو حنيفة : الكلام معك عار ، والخوض فيما أنت فيه نار تتلظى . قال : فكيف حكمت على بما حكمت ، ولم تسمع كلامى ، ولم تلقنى ؟! قال : بلغنى عنك أقاويل لا يقولها أهل الصلاة . قال : أفتحكم على بالغيب . قال : اشتهر ذلك عنك ، وظهر عند العامة والخاصة فجاز لى أن أحقق ذلك عليك . فقال : يا أبا حنيفة ، لا أسألك عن شىء إلا عن الإيمان ، قال له : أو لم تعرف الإيمان إلا الساعة حتى تسألنى عنه ؟! قال : بلى ، ولكن تناقشا فى خلق القرآن ونفى الصفات ، وهى أهم آراء جهم[٤] .

(١) السمعانى : الأنساب ص ١٤٥ب . (٢) الفصل فى الملل : ج٢ ص ١٢٩ .

(٣) انظر فى هذا الفصل الثانى (الجعد بن درهم) .

(٤) جهم بن صفوان – خالد العسلى .

ولا تذكر المصادر اتصال جهم فى الكوفة بغير الجعد وأبى حنيفة ، كما لا تشير إلى ذهابه إلى محل آخر غير الكوفة ، غير أن هذا لا يكفى للجزم بأنه لم يتصل بآخرين فى الكوفة أو أنه لم يذهب إلى محل آخر(١) .

علاقة جهم بمقاتل بن سليمان : ويظهر أن جهما رجع من الكوفة إلى بلخ ، حيث كان يصلى مقاتل بن سليمان فى مسجده . وكان يناظره ، لأن جهما كان يبالغ فى نفى الصفات والتعطيل ، ومقاتلا يسرف فى الإثبات والتجسيم . ويظهر أن مقاتلا كان ذا منزلة كبيرة ونفوذ واسع فى بلخ ، وكان مقربا إلى سلم أحوز المازنى ، قائد نصر بن سيار ، فاستغل هذه المنزلة واستطاع أن ينفى جهما إلى ترمذ(٢) ، حيث بقى فيها إلى أن تركها وانضم إلى جيش الحارث ابن سريج(٣) .

قول جهم فى الإمامة : ومن المحتمل أن يكون لنفى جهم إلى ترمذ سبب سياسى لم تذكره المصادر ، فإن جهما يقول : إن الإمامة يستحقها كل من قام بها إذا كان عالما بالكتاب والسنة ، وأنه لا تثبت الإمامة إلا بإجماع الأمة كلها . (٤) وهذا الرأى مشابه لرأى الخوارج فى الإمامة .

علاقة جهم بالسمنية : ناقش جهم فى ترمذ السمنية الذين جادلوه فى إثبات وجود الله ، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له : ألست تزعم أن لك إلها ؟ قال الجهم : بلى . فقالوا له : فهل رأيت عين إلهك ؟ قال : لا . قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال: لا . قالوا : أشممت له رائحة ؟ قال : لا . قالوا فوجدت له حسا ؟ . قال : لا . قالوا: فوجدت له مجسا ؟ قال : لا . قالوا : فما يدريك أنه إله؟ قال : فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوما .

ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى ، وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذى فى عيسى هو روح الله ، من ذات الله ، فإذا أراد أن يحدث

---

(١) نفس المرجع .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج٩ ص ٣٥٠ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ج٥ ص ٥٧ .

(٣) الفصل فى الملل والنحل: ج٢ ص ١٢٩ .

(٤) فرق الشيعة: ص ٣٠ .

أمرا دخل فى بعض خلقه ، فتكلم على لسان خلقه ، يأمر بما شاء وينهى عما شاء ، وهو روح غائب عن الأبصار. فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة (١) . فقال للسمنى: ألست تزعم أن فيك روحا ؟ قال : بلى . فقال : فهل رأيت روحك ؟ قال: لا . قال : فسمعت كلامه ؟ قال : لا . قال: فوجدت له حسا أو محبسا ؟ قال: لا . قال : فكذلك الله لا يرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولا يشم له رائحة، وهو يخفى عن الأبصار ، ولا يكون فى مكان دون مكان .

علاقة جهم بالخوارج : وقد اتصل جهم خلال بقائه فى ترمذ ، بالحارث بن سريج صاحب " الراية السوداء " ، (٢) الذى جعله كاتبا له (أى أمينا لسره ومستشارا له) . (٣) وكان الحارث مسلما زاهدا مصلحا، ثار على الحكم الأموى سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م، وسيطر على شرق خراسان، وتحالف مع الأتراك . وكان الحارث يدعو إلى الرجوع إلى القرآن والسنة ، وانتخاب خليفة يرضى عنه الناس . ولما أخفقت ثورة الحارث، قتل جهم على يد سلم بن أحوز سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م (٤) .

ويذكر أن هناك سببا آخر لقتل جهم ذكره القاسمى ، هو أن هشام بن عبد الملك أرسل إلى عامله على خراسان ، نصر بن سيار : " أما بعد، فقد نجم قبلك رجل يقال له جهم من الدهرية . فإن ظفرت به فاقتله" (٥) .

ويظهر أن فكرة نفى الصفات عن الله تعالى كانت واضحة عند جهم ، بينما لم تكن كذلك عند واصل بن عطاء (٦) الذى عاصره . فعندما سألت السمنية جهما فى ترمذ عن وجود الله تعالى ، أثبت جهم وجوده كالروح التى لا يمكن الحس بها أو حبسها ، ولا يمكن رؤيتها أو سمعها أو شمها، فكذلك الله ليس كمثله شىء . فجهم اتصل بالسمنية وهى فرقة بوذية فى ترمذ حيث كانت البوذية هى السائدة فيها إبان الفتح الإسلامى . وجادله السمنية الذين يعتقدون بقدم العالم ، وأنه لا موجود إلا ما وقعت

(١) إن مقارنة حجة جهم بالنصارى هو رأى أحمد بن حنبل.

(٢) الطبرى : تاريخ ج١ ص١٥٧٠ ، ١٥٧٧ ، ١٥٨٣ وما بعدها ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٠ ص ٢٦ .

(٣) الطبرى : تاريخ ج٢ ص ١٩١٨ وما بعدها .

(٤) الطبرى : تاريخ ج ٢ ص ١٩١٩ .

(٥) القاسمى : تاريخ الجهمية والمعتزلة ص ١٢ .

(٦) الملل والنحل: ج١ ص ٥١ ط٢ . بدران .

عليه الحواس ، فجادلهم جهم لكى يثبت وجوده تعالى ، وينفى فى الوقت نفسه عنه تعالى الصفات .

ويلاحظ أن فكرة نفى الصفات كانت واضحة عند جهم ، قبل ذهابه إلى ترمذ ومناقشته للسمنية ، لأنه كان فى بلخ يناقش مقاتل بن سليمان الذى كان من المشبهة ، وقد نفى جهم الصفات فرارا من التشبيه (١) .

هذا ولا تذكر المصادر تأثر جهم بالفلسفة اليونانية ، أو اطلاعه على كتب الفلسفة عموما . على أن هذا لا يبعد كون جهم قد تأثر بالفلسفة اليونانية بصورة غير مباشرة ، فقد كانت بلخ أحد مراكز الثقافة الإغريقية (٢) . وكان بعض الفلاسفة ينادون بتنزيه الله عن صفات الخلق (٣) .

وقد ذهب جهم إلى أنه لا يمكن أن يطلق على الله تعالى كلمة شيء ، وذلك لأن الشيء هو الذى له مثله (٤) ، كما أن الشيء هو المحدث ، والبارى سبحانه منشئ الأشياء (٥) .

الجبـــر : إن فكرة القضاء والقدر كانت موجودة عند العرب فى الجاهلية ، وقد رويت أبيات غير قليلة لشعراء من الجاهلية يظهر منها أنهم كانوا جبريين (٦) .

---

(١) المطهر بن طاهر : البدء والتاريخ ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : مادة " بلخ " (الترجمة العربية) . وانظر عن أثر الثقافة الاغريقية فى جنديسابور دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٤ - ٢٥ (ط ٤ القاهرة ١٩٥٧) ، أوليرى : علوم الاغريق وسبل انتقالها إلى العرب ص ١٦٤ - ١٧٩ . وجهم بن صفوان .

(٣) من الفلاسفة الذين كان لهم رأى واضح فى ذات الله ونفى الصفات القديمة عنه ، وكان له تأثير فى تفكير المسلمين ، هو " أفلوطين " ، فقد تحدث عن وحدانية الله ، ونفى أن تطلق عليه صفة وراء ذاته ، فان فى ذلك تشبيها له بالأفراد (راجع : جار الله المعتزلة ص ٦٣) . وزينوفان الذى قال فى صفات الله " ولا يشبه فى هيئته أو عقله أى واحد من البشر . . . موجود فى كل مكان بغير أن يتحرك ، إذ لا يليق به أن يتحرك من مكان إلى آخر ، وأن يغير موضعه " . الأهوانى : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط ص ٩٦ ، القاهرة ١٩٥٤ . جهم بن صفوان ومكانته فى الفكر الإسلامى - خالد العسلى .

(٤) مقالات الإسلاميين : ج١ ص ٢٣٣ ، ج٢ ص ١٨٠ ، البدء والتاريخ : ج١ ص١٠٥ ، الحور العين : ص ١٤٨ .

(٥) الشهرستانى : نهاية الإقدام فى علم الكلام ص ١٥١ .

(٦) البخارى : خلق أفعال العباد ص ٨٢ عن قتادة ، المعتزلة : ص ٨٧ ، انظر عن أمثلة لهذا الشعر الأغانى : ج٨ ص ٧٦ (القاهرة ١٣٢٣) ، ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ص ٣٦ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج١ ص ٢٠٦ .

وفى القرآن آيات كثيرة تدل بعمومها على أن كل شىء بقدر ، وأن الإنسان مجبر على أفعاله . قال تعالى : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ **ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يُغويكم هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾ (٢) ، قال تعالى : ﴿**أفمن حُق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار**﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾ (٤) .

وقد أكثر المسلمون من البحث في القدر . ولعل السبب فى ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات تقول إن الإنسان مجبور على أفعاله بجانب آيات أخرى تجعل الإنسان مسئولا أمام الله عن أفعاله كما مر ذلك . فكان أكثر المسلمين فى صدر الإسلام أميل إلى إثبات القدر منهم إلى نفيه ، وأقرب إلى القول بسلطة الله المطلقة على جميع أفعال الإنسان منهم إلى حرية الإنسان فى اختيار أفعاله . فإن عقيدتهم العامة فى القدر هى أن أفعال العباد جميعها خلقها الله تعالى فى فاعليها (٥) .

ويتضح ذلك من الأحاديث الكثيرة المروية عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة وكلها يفهم منها الجبر (٦) .

وقد بدأ المسلمون يبحثون فى القدر ويتساءلون كيف يقدر الله تعالى الشر على الإنسان ثم يحاسبه عليه ؟ ويظهر أن بداية الشك كان فى عهد الخلافة الراشدة، إذ يروى أن رجلا من الخوارج جاء إلى على بن أبى طالب ، فقال : أرأيت من جنبنى سبل

---

(١) البقرة : ٧ . (٢) هود : ٣٤ .

(٣) الزمر : ١٩ . (٤) النحل : ٣٦ .

(٥) ابن حزم : الفصل فى الملل ج٣ ص ٣٢ ، الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص٣١ (القاهرة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) ، مقالات ج١ ص١٣١ ، تأويل مختلف الحديث ص٣٥ .

(٦) صحيح مسلم : ج٨ ص٤٥ (الآستانة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م)ج٤ ص٢٠٥ كتاب القدر (القاهرة ١٩٥٥م) : صحيح البخارى ج٧ (القاهرة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨م)، مسند ابن حنبل : ج٢ ص٨١ ج٥ ص٣١٧ ج٦ ص٤٤ .

الهدى وسلك بى سبل الردى ، أأحسن إلى أم أساء ؟ قال له علىّ : إن كنت استوجبت عليه حقا فقد أساء ، وإن كنت لم تستوجب عليه شيئا فهو يفعل ما يشاء (١) .

ويظهر أن مسألة الجبر شغلت أفكار كبار الصحابة أيضا . فقد سأل عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى : أيقدر الله على شيئا ثم يعذبنى عليه ؟ قال أبو موسى : نعم . قال عمرو : ولم ؟ قال أبو موسى : لأنه لا يظلمك . فسكت عمرو (٢) .

فى هذا الصراع الفكرى الذى انتاب المسلمين قالت المعتزلة بالقدر ، وقال جهم بالجبر .

وربما كان قول جهم فى الجبر هو إثبات التوحيد المطلق ، وأنه لا يشترك مع الله تعالى أحد من خلقه فى فعل الأفعال ، فأدت به مبالغته فى هذا الرأى إلى جعله الإنسان كالريشة المعلقة فى الهواء ، وأن الفعل يسند إلى الإنسان مجازا ، كقولهم اخضر الزرع ، وأضاءت الشمس ، وأمطرت السماء (٣) .

ويلاحظ أن الشهرستانى والإيجى يقسمان الجبرية إلى قسمين :

١ - الجبرية الخالصة : وهى لا تثبت للعبد فعلا ، ولا قدرة على الفعل أصلا (٤) .

٢ - الجبرية المتوسطة : وهى التى لا تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا .

ويعتبر جهم من الجبرية الخالصة التى لا تثبت للعبد فعلا ، ولا قدرة على الفعل

---

(١) الطرطوشى : سراج الملوك ص ٣٤٦ (القاهرة ١٩٣٥م) .

(٢) الملل والنحل : ج١ ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) انظر ابن القيم : شفاء العليل ص١٩٦ وما بعدها ، حيث يذكر مناظرة جرت بين جبرى وسنى جمعهما مجلس مذاكرة . قال الجبرى : القول بالجبر لازم لصحة التوحيد ، ولا يستقيم التوحيد إلا به ، لأنا إذا لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلا للحوادث مع الله إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر .

(٤) الملل والنحل : ج١ ص ٧٩ (طبعة بدران ٢) . ويعتبر الإيجى والأشعرى من هذه الفرقة . المواقف ص ٤٢٨ . وانظر كذلك ابن حزم الذى يعتبر الأشعرى من الجبرية الذى يعتبر " الاستطاعة التى يكون بها الفعل لا تكون مع الفعل ولا يتقدمه البتة الفعل " (الفصل فى الملل ج٣ ص ٢٢) .

أصلا (١) . واعتبر جهم من الجبرية الخالصة ، لأن الناس اختلفوا فى الفاعل والمفعول والفعل ، فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ليست من الله . وقالت الجبرية : الأفاعيل كلها من الله ، وقالت الجهمية : الفعل والمفعول واحد ، لذلك قالوا لكن مخلوق . وقال أهل العلم : التخليق فعل الله ، وأفاعيلنا مخلوقة (٢) .

الإيمـــــان : وقد اختلف المسلمون فى تعريف الإيمان ، وما هى أركانه ؟

أما جهم الذى يعتبر من مرجئه الجبرية ، فقد قال : " الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء من عند الله فقط (٣) " وإن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان ، والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله والتعظيم لهما والخوف منهما ، والعمل بالجوارح ، فليس إيمانا . وإن الكفر بالله هو الجهل به(٤) . وذلك لأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا فى القلب دون غيره من الجوارح (٥) . وعلى هذا ، فمن عرف الله ولم ينطق بالإيمان لم يكفر لأن العلم لا يزول بالصمت وهو مؤمن به (٦) .

ونسب ابن حزم والذهبى إلى جهم " أن الإيمان عقد بالقلب ، وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب ، وأعلن التثليث فى دار الإسلام ، ومات على ذلك ، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل من أهل الجنة (٧) " . وإن صح قول جهم : " لو قال رجل بلسانه لله ولد أو له جارية أو له شريك أو غير ذلك ، وهو يعتقد بقلبه خلافه أنه مؤمن ، لا يضره ما ذكره بلسانه (٨) " ، فإن قوله هذا يمكن أن يكون تبريرا للظروف التى يمر بها المسلم عند أسره لما يلاقيه من أذى من قبل الكفار ، فإعلان الكفر فى هذه الحالة تقية لا يؤثر فى الإيمان .

---

(١) الملل والنحل : ج١ ص ٧٩ (طبعة بدران ط ٢) ، الإيجى : المواقف ص٤٢٩ .

(٢) البخارى : خلق أفعال العباد ص ٩٥ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ١٢٨ ، مقالات الإسلاميين : ج١ ص٣١٢ . ج١ ص ٩٠ .

(٤) مقالات الإسلاميين : ج١ ص١٩٧ . (٥) مقالات الإسلاميين : ج١ ص ١٩٨ .

(٦) المقريزى : خطط ج٤ ص ١٧٠ .

(٧) الفصل فى الملل : ج١ ص١١١-١١٢ ، ج٤ ص٢٠٤ ، تاريخ الإسلام : ج٥ ص٣٦ .

(٨) الفرق والتواريخ : ص ١٤٤ .

ويلاحظ أن ابن حزم نسب قول جهم فى الإيمان أيضا للأشعرى ولمحمد بن كرام السجستانى [١] . وقد دافع السبكى عن هذه التهمة المسندة لجهم ، بالرغم من أنه اعتبر قول جهم " إن الإيمان هو المعرفة فقط ولا يشترط النطق " ، بدعة شنعاء لا أقبح منها . [٢] " فيقول السبكى : " وأما جهم ، فلا ندرى ما مذهبه ، ونحن على قطع بأنه رجل مبتدع . ومع ذلك ، لا أعتقد أن ينتهى إلى أن القول من عند الله وأنبيائه ورسله ، وأظهر الكفر وتعبد به يكون مؤمنا لكونه عرف بقلبه ، فلعل الناقل عنه حمل اللفظ ما لا يطيقه أو جارف الناقل عن غيره" [٣] .

جهم والمعتزلة [٤] : عاصر جهم واصل بن عطاء (ت ١٣٢هـ/ ٧٤٨م) ، وعمرو بن عبيد (ت ١٤٤هـ/ ٧٦١م) اللذين نسب إليهما مذهب الاعتزال ، وقد ظهرا فى البصرة . وشاركت المعتزلة الجهمية فى الكثير من الآراء ، ومن أهمها نفى الصفات عن الله تعالى ، والقول بخلق القرآن . إلا أن المصادر لا تذكر من سبق الآخر فى تبنى هذه الآراء ، أو مدى التداخل بينهما . ولا يعرف فيما إذا تسربت آراء جهم إلى فرق المعتزلة أم لا ، وهل كان ذلك صدفة نتيجة لاشتراكهما فى نفى الصفات ، أم أن الاثنين أخذاها عن مصدر واحد لم يشيرا إليه . ولا نستطيع أن نجيب عن هذه الأسئلة إجابة وافية ، لأنه لا يعرف الشيء الكثير عن آراء رجال المعتزلة الأول .

وللإجابة عن هذه الأسئلة يجب ملاحظة الأمور الآتية :

لا تذكر المصادر أى التقاء شخصى بين جهم وواصل بن عطاء [٥] ، أو عمرو بن

(١) الفصل فى الملل : ج٢ ص١١ ، السبكى : طبقات الشافعية ج١ ص ٤٣ .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج ١ ص ٤٢ .

(٣) نفس المصدر : ج١ ص ٤٦ .

(٤) انظر عن المعتزلة : أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٨٨ - وما بعدها ، زهدى جار الله : المعتزلة ، عبدالحكيم بلبع : أدب المعتزلة ، التراث اليونانى فى الحضارة العربية : مقال كرلو ألفونسو نليتو ص ١٧٣-١٩٨ ، ألبير نادر : فلسفة المعتزلة .

(٥) يذكر ألبير نادر أن واصل التقى بجهم بن صفوان ، وكان أحد الينابيع التى استقى منها أصول الاعتزال ، فلسفة المعتزلة : ج١ ص١٣ ، ولا يذكر نادر المصدر الذى استقى منه هذا الخبر ، ولم أجد فى المصادر القديمة التى اطلعت عليها ذكرا لهذا اللقاء .

عبيد ، بالرغم من أن جهما جاء إلى العراق ، وقضى فترة فى الكوفة ، لا يعرف مداها ، واتصل خلالها بالجعد بن درهم الذى تذكر المصادر بأنه أول من نفى الصفات ونفى الكلام عن الله تعالى ، حيث قال : " إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما " ويذكر ابن المرتضى فى " طبقات المعتزلة " أن واصلا " بعث إلى خراسان حفص بن سالم ، فدخل ترمذ ولزم المسجد حتى اشتهر ثم ناظر جهما فقطعه ، فرجع إلى قول أهل الحق فلما عاد حفص إلى البصرة رجع جهم إلى قول الباطل "(١).

ويذكر أيضا " أن بعض السمنية قالوا لجهم بن صفوان : هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة ؟ قال : لا . قالوا : فحدثنا عن معبودك هل عرفته نابها ؟ قال : لا قالوا : فهو إذن مجهول ؟ فسكت وكتب بذلك إلى واصل ، فأجاب وقال : كأن تشترط وجها سادسا وهو الدليل ، فتقول : لا يخرج عن المشاعر ، أو الدليل ، فاسألهم هل يفرقون بين الحى والميت والعاقل والمجنون ، فلابد من نعم ، وهذا عرف بالدليل . فلما أجابهم جهم بذلك ، قالوا : ليس هذا من كلامك . فأخبرهم ، فخرجوا إلى واصل ، وكلموه ، وأجابوا إلى الإسلام " (٢) .

يظهر من النص الأول معرفة جهم بأفكار واصل عن طريق دعوة واصل بترمذ ، وعن طريق المراسلة بينه وبين واصل . إن النص الأول يدعو للتساؤل عن الخلافات التى كانت بين جهم وواصل ، وما النقاط التى اتفقا عليها ، ثم رجع عنها جهم بعد أن ترك حفص بن سالم ترمذ . ومع ذلك فالنص يشير إلى تباين بين آراء جهم والمعتزلة الأوائل .

أما النص الثانى ، فيفترض وجود علاقة طيبة بين جهم بن صفوان وبين واصل بن عطاء ، وأن جهما أجابه عن سؤاله لكى يدحض السمنية . وبعد أن أقنع جهم السمنية ، وأعلمهم بأن هذه الحجة من تفكير واصل ، تركوا ترمذ وذهبوا إلى واصل وكلموه ، وأجابوه إلى الإسلام . هذا ولا يذكر هذا النص فى سائر كتب الفرق وكتب التاريخ . ولا يعرف فيما إذا كان ابن المرتضى قد وضع هذا النص لكى يبين جهود المعتزلة وواصل فى نشر الدين الإسلامى . ويلاحظ من هذا النص أيضا وجود تقارب بين رأى جهم بن صفوان وواصل بن عطاء فى طريقة إثبات وجود الله تعالى ، وفكرة نفى الصفات عنه .

(١) طبقات المعتزلة : ص ٣٢ ، الحور العين : ص ٢٠٨ .

(٢) طبقات المعتزلة : ص ٣٤ .

ويذكر النص الثاني في صيغة أخرى في كتاب " الرد على الجهمية والزنادقة " لأحمد ابن حنبل ، وهو أقدم كتاب ألف في الرد على الجهمية . والنص هنا لا يشير إلى طلب جهم من واصل أن يرد على سؤال السمنية ، بل إن جهما نفسه رد على السؤال بعد أن فكر فيه أربعين يوما ، معتمدا في ذلك على الكلام وآيات قرآنية ، إذ المعروف عن جهم كثرة كلامه في الله [١] وقد ساعده ذكاؤه ، وثقافته في الوصول إلى الرد الوافي .

ومن ناحية ثانية ، يلاحظ أن المعتزلة نفوا أن يكون جهم بن صفوان من أتباعهم ، إذ لم يترجموا له في كتبهم ، بل لقد هاجمه بعضهم . قال الخياط : " ثم قال وشيء آخر وهو أن السكنية [٢] بأسرها تقول في العلم بقول هشام بن الحكم [٣] . والسكنية فرقة من فرق أهل العدل . وجهم يقول بمثل القول الذي أنكره الجاحظ على هشام . (قال) : فإن قال السكنية ليست معتزلة ، وكذلك جهم ، (قال) قلنا : إن لم تكن السكنية معتزلة فإنها عدلية ، وإن لم يكن جهم معتزليا فإنه موحد ، يقال له : إنا لم ندع أن يكون قد شارك هشام بن الحكم في قوله في العلم غيره من أهل الجهل به والكفر به ، وليس بحجة لهشام بن الحكم موافقة جهم له في حديث العلم ، لأن الحجة عليهما فيه واحدة ، وما إضافة صاحب الكتاب لجهم إلى المعتزلة إلا كإضافة العامة لجهم إلى المعتزلة لقوله بخلق القرآن ، ولجهم عند المعتزلة في سوء الحال والخروج من الإسلام كهشام بن الحكم " [٤] .

يذكر ذلك صاحب كتاب " طبقات المعتزلة ٣ " ، ولكن ، منسوبا إلى واصل بن عطاء ، وليس إلى جهم ، وهو يقول : إن جهما عندما سئل عن إثبات وجود الله تحير وكتب إلى واصل . إن نص ابن المرتضى يفترض وجود علاقة طيبة بين جهم وواصل ، وإن كان هناك نص آخر يذكر أن واصلا " بعث إلى خراسان حفص بن سالم ، فدخل ترمذ ، ولزم المسجد حتى اشتهر ثم ناظر جهما فقطعه ، فرجع إلى قول أهل الحق ،

---

(١) ابن حنبل : الرد على الجهمية ص ١٥ .

(٢) السكنية : فرقة مجهولة حتى الآن لم يرد لها ذكر في كتب الفرق ، انظر تعليق الدكتور ألبيرنادر في كتاب الانتصار : ص ١٣٨ .

(٣) انظر عن هشام بن الحكم ، ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٣ ، الكشي : معرفة الرجال ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، عبد الله نعمة : هشام بن الحكم .

(٤) الخياط : الانتصار ص ٩٢ .

فلما عاد حفص إلى البصرة رجع جهم إلى قول الباطل [1] " ، ولا يعرف ما هو النقاش الذى دار بين جهم وحفص بن سالم ، وإن كان يظهر أن النقاش دار حول حرية الإرادة ، إذ إن جهما من الجبرية الخالصة والمعتزلة من القدرية . وعلى كل حال فإن مجىء حفص إلى ترمذ يظهر أهمية جهم فى ترمذ ، وأنه كان من أبرز الشخصيات الإسلامية فيها .

إن أول من تكلم فى نفى الصفات هو الجعد بن درهم ، ومنه اقتبس جهم رأيه فى ذلك [2] فانتشرت مقالته فى خراسان [3] . وجهم أيضا أول من قال بنفى الصفات فى بلاد المشرق ، فكثر أتباعه على أقواله التى تؤدى إلى نفى الصفات [4] . أما الجعد فقد نشر آراءه فى البصرة والكوفة [5] .

أما موقف المعتزلة الأول من نفى الصفات ، فيوضحها الشهرستانى بقوله : " وكانت هذه المقالة فى بدئها " غير نضجية " ، وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر هو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين . قال : ومن أثبت معنى وصفة قديمة ، فقد أثبت إلهين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة ، وانتهى نظرهم فيها إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالما قادرا »[6] .

ومما يؤيد قول الشهرستانى ، أننا لا نجد فى كتاب مقالات الإسلاميين ولا فى كتاب الانتصار ، وكتب الفرق الأخرى إشارة إلى نسبة القول فى نفى الصفات لواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، وهما أقدم رؤساء المعتزلة المعاصرين لجه . [7] وهذا يدل على أن فكرة نفى الصفات غير واضحة عند المعتزلة الأولين وأن جهما كان السابق إليها ، ثم تسربت إلى المعتزلة .

---

(١) ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ص ٣٤ ، وانظر عن علاقة جهم بواصل الفصل السادس .

(٢) تاريخ بغداد : ج٢ ص ٢٤٥ ، سرح العيون : ص ١٥٩ ، ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل (موافقة صريح المعقول : ج١ ص ١٩٢) ، ابن تيمية : الرسالة الحموية ص ١٥ .

(٣) الفصل فى الملل : ج١ ص ٩٠ ، ٩١ .

(٤) الخطط : ج٤ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٥) الدارمى : الرد على الجهمية ص ٤ .

(٦) الملل والنحل : ج١ ص ٥١ (طبعة بدران ٢) .

(٧) انظر س . ينيسس : مذهب الذرة عند المسلمين ص ١٢٣ ، وانظر أبوريدة : إبراهيم بن سيار النظام ص ٨٠.

ويذكر أحمد بن حنبل " واتبعه (جهم) على قوله (فى ذات الله) رجال من أصحاب أبى حنيفة . وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة ، ووضع الجهمية[(١)]" . وقد اعتبر ابن تيمية الجهمية من المعتزلة والنجارية والضرارية ، وأنواع المرجئة ، فكل معتزلى جهمى وليس كل جهمى معتزليا . لكن جهما أشد تعطيلا لأنه ينفى الأسماء والصفات ، والمعتزلة تنفى الصفات [(٢)] ، إذ إن جهما ينفى الأسماء كما نفتها الباطنية ، ومن وافقهم من الفلاسفة ، أما جمهور المعتزلة فلا تنفى الأسماء [(٣)] . وهذا يتفق مع ما ذكره الشهرستانى عن جهم، إذ قال : " وافق المعتزلة فى نفى الصفات وزاد عليها[(٤)] بأشياء " . وبهذا يكون جهم أشد تعطيلا من المعتزلة. ولهذا السبب يسمى ابن تيمية المعتزلة " مخانيث الجهمية [(٥)] " .

ويذكر ابن تيمية أن المعتزلة أخذت من الجهمية نفى الصفات، فيقول : " ثم ظهر بهذا المذهب الجهم بن صفوان ، ودخلت فيه بعد ذلك المعتزلة ، وهؤلاء أول من عرف عنهم فى الإسلام ، أنهم أثبتوا حدوث العالم بحدوث الأجسام ، وأثبتوا حدوث الأجسام بحدوث ما يستلزمها من الأعراض [(٦)] " .

ويؤيد ابن تيمية أن الجهمية هم غير المعتزلة . ويظهر أن سبب تسمية المعتزلة بالجهمية هو اشتراك المعتزلة مع الجهمية فى نفى الصفات وخلق القرآن . وهذا ما دعا كتاب الفرق إلى إطلاق كلمة جهمى على كل من قال بخلق القرآن ونفى الصفات . وخير مثل لذلك أن أعداء المعتزلة أيام المحنة زمن الخليفة العباسى المأمون سموا المعتزلة جهمية .

ويظهر مما سبق أن المعتزلة هم الذين أخذوا عن جهم نفى الصفات ، وكيفوه بما يناسب آراءهم، أى أنهم " أخذوا عنه مسائل الصفات ولا يبالغون فى النفى مبالغته " . فجهم سبق المعتزلة فى نفى الصفات عن الله تعالى ، والمعتزلة قالوا بذلك بعده، إذ إن

---

(١) ابن حنبل : الرد على الجهمية ص ١٦ .

(٢) ابن تيمية : منهاج السنة ج١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، وانظر كذلك ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ج٣ ص ٩٠ ، شرح حديث النزول ص ٢٧ .

(٣) ابن تيمية : مجموعة الرسائل ج٣ ص ٩٠ ، الحسنة والسيئة ص ٢٤١ .

(٤) الملل والنحل: ج١ ص ٧٩ (بدران ط ٢) .

(٥) ابن تيمية : الحسنة والسيئة ص ٢٤٢ .

(٦) ابن تيمية : منهاج السنة ج١ ص ٨٤ .

واصلا ، كما مر سابقا ، كانت أفكاره " غير نضجية " فى نفى الصفات ، أما المعتزلة الذين خلفوه فقد أخذوا يطالعون كتب الفلاسفة [(١)] فتأثروا بها وأخذوا يشرحون نفى الصفات على ضوئها . كما أنهم كانوا يقولون بالتوحيد ، الذى يؤدى إلى قدم الله تعالى ، فتوصلوا إلى نتائج وحلول أخرى ، باقتباسهم عن فلاسفة اليونان قولهم فى الصفات . وكان أولئك الفلاسفة يرون أن الله واجب الوجود بذاته ، وأنه واحد من وجه [(٢)] ، " فنفوا صفات البارى تعالى الزائدة على الذات " ، وقالوا : "إنه تعالى عليم بالذات لابعلم زائد على الذات [(٣)] " .

أما القول بخلق القرآن : فتذكر المصادر أن الجعد بن درهم أخذها عن بيان بن سمعان ، وأن جهم بن صفوان أخذها من الجعد . والقول بخلق القرآن مرتبط ارتباطا وثيقا بنفى الصفات ، لأن نفى الصفات عن الله تعالى يجر إلى نفى الكلام الذى لا يصدر إلا عن جارحة . ولما كان تعالى منزها عن الصفات ، فى نظر جهم والمعتزلة فلابد أن يتفقا على القول بخلق القرآن ، وهذا ما اعترف به المعتزلة أنفسهم ، منذ أن أقروا بمشاركتهم لجهم بن صفوان فى القول بأن القرآن مخلوق .

وقول المعتزلة فى خلق القرآن جاء نتيجة قولهم بأن الله قديم ، ولكى يدافعوا عن وحدانية الله ويقاوموا ما ينافى هذه الوحدانية أو يهدمها . ولقد وجدوا فى القول بأن القرآن غير مخلوق معنى الأزلية ، والقدم والأزلية من صفات الله وحده . وقد تمادوا فى القول بخلق القرآن حتى جعلوه عديل التوحيد ، ورموا من خالفه بالكفر والإلحاد .

---

(١) الملل والنحل : ج١ ص ٥٣ .

(٢) الشهرستانى : نهاية الإقدام فى علم الكلام ص ٩٠ - ٩١ .

(٣) الإمام الغزالى وعلاقة اليقين بالعقل : د . محمد إبراهيم الفيومى .

الفصل الثالث

خراسان مركز الشعوبية

١ ــ خراسان مركز الثورة وحاضرة ثقافية

جعلت سمرقند خاصة مقرا للجيش العربى . فجاءت إليها حامية قوية معدة بكل عدة الحرب ، فاحتلتها وهدمت بيوت النار ومعابد الأوثان . ويروى أنه صدر الأمر بأن يجلو عنها كل وثنى من ليلته . وكذلك اتخذت فيما يظهر فى خوارزم وبخارى إجراءات مماثلة ، وإن لم تبلغ من الصرامة مبلغ الإجراءات التى اتخذت فى سمرقند . وقضى أيضا على الوثنية فى بخارى . أما الرواية القائلة بأنه كان فيها بيت للنار ومعبد وثنى كانت الطواويس توضع فيه ، فلابد من إكمالها بالرواية القائلة بأن هذه المعالم الوثنية قد اختفت بعد ذلك . وكان يقصد من هذه المدن المتقدمة أن تقوم بالنسبة للبلاد المحيطة بها مقام المدن العسكرية العربية مثل نيسابور ومرو ومرو الروذ وهراة بالنسبة لأرض خراسان ، ولا شك فى أن فتح تلك المدن كان له خطره أبعد مما كان يطمح إليه المسلمون ، وله أثره الدائم فى جعل بخارى وسمرقند وخوارزم أيضا حواضر كبيرة انتشر منها الإسلام وصارت حواضر للعناية بالعلوم العربية .

واشتهرت فى خوارزم آنذاك مدينتان : كات والجرجانية إلى الشمال ، كلاهما على نهر أموداريا ، وتعرفان اليوم باسمى كيفا (خيفا) وأوزغنج ، وهما فى روسيا حاليا .

ويقول ياقوت عن خوارزم (١) : أهلها علماء فقهاء أذكياء أغنياء ، فهى لعمرى بلاد طيبة ، فيهم جلد وقوة ، غالب عليهم الطول والضخامة ، وفى رءوسهم عرض ، ولهم جبهات واسعة ، مرنوا على القناعة بالشىء اليسير (والمترفون مثل الفقراء) . ونستنتج أيضا أنهم ذوو تعلق شديد بوطنهم .

(١) معجم البلدان .

ويقول المقريزى أيضا : الجرجانية مدينة عجيبة إذ كل أهلها أجناد، حتى البقال والقصاب والخباز والحائك . وأهلها أهل الصناعات الدقيقة، يغلب عليهم ممارسة علم الكلام فى الأسواق والدروب، يناظرون بلا تعصب، وينكرون من أحد ذلك قائلين : (ليس لك إلا الغلبة بالحجة) .

وعاش البيرونى [(١)] أيضا فى جرجان (إيران) على بحر قزوين وهى (مدينة حسنة على واد عظيم سهلية ، جبلية ، بحرية ، أودية هائلة ، وجبال عالية ، إذا غدا القناص راح بما اشتهى) .

وقد كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام فى القديم على دينهم، إلى أن نجم " زردشت " من آذربيجان، ودعا ببلخ إلى المجوسية وراجت دعوته عند " كشتاسب " ، وقام بنشرها ابنه " إسفنديار " فى بلاد المشرق والمغرب قهرا وصلحا، ونصب بيوت النيران من الصين إلى الروم . ثم استصفى الملوك بعده فارس والعراق لملتهم فانجلت " السمنية " عنها إلى مشارق بلخ، وبقى المجوس إلى الآن بأرض الهند ويسمون بها " مك " . وكان ذلك بدو النفار عن جنبة خراسان فيهم إلى أن جاء الإسلام وذهبت دولة الفرس .

قال البكرى [(٢)] عن خراسان : « ومنهم العلماء والنبلاء والمحدثون والنساك والمتعبدون . وأنت إذا أحصيت المحدثين فى كل بلد وجدت نصفهم من خراسان " .
وإليها انتقلت سطوة الخوارج والشيعة ، بعدما لم يعد لديهم القوة تحت ضربات القواد لمعارضة الحكومة الأموية علنا . ولكن كان عداؤهم للأسرة الحاكمة لم يعدم الوسائل للانتشار . والملاءمة بينه وبين مقتضيات الظروف الجديدة التى نشأت فى الشرق إبان الحكم العربى، وكما يقول فان فلوتن : وامتد نزاع الأحزاب السياسى إلى الدائرة الاجتماعية والدينية [(٣)] .

وفيها اندلعت ثورة الفرس وغالبها من أهل التشيع فى خراسان وكانت هى السبب فى السقوط النهائى لدولة بنى أمية ، لكن الذى مهد لهذه الثورة هو ما سبق ذلك من أحداث فى تاريخ خراسان ، وخصوصا تلك العداوة المستمرة التى كانت بين قبائل العرب هناك ، وهى عداوة كانت قد بدأت فى البصرة من قبل ، وذلك أن خراسان

(١) الخطط .

(٢) معجم ما استعجم: ج٤٩١ .

(٣) تاريخ الغزوات الثقافية فى بلاد الإسلام. فون كريمر مع تعليقات خدابخش - ترجمة د. مصطفى طه بدر

كانت أشبه بمستعمرة تابعة للبصرة ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الموقف فى خراسان فان عليه أن يرجع إلى معرفة الأحوال التى كانت فى البصرة من قبل أو تطورت عما كان هناك .

وفى أول العصر الأموى ، أدى التحاسد بين القبائل فى الكوفة إلى ضروب من التوتر ، لكنه لم يؤد إلى انفجارات معها أعمال عنيفة ، ولم يكن التطاحن الدموى إلا بين الأحزاب السياسية . أما فى البصرة، فكانت الظروف فى أول الأمر تكاد تكون شبيهة بما كانت عليه فى الجاهلية ، فكانت السخائم فى صورتها الكامنه . والظاهرة تملأ نفوس القبائل ، لكنها كانت بين مجموعات القبائل أكثر مما كانت بين القبائل منفردة . وكانت أكبر مجموعة قبلية تتألف من تميم ورباب ، وكان قد انضم إليها أساورة الفرس، ودخل الزط والسبابجة من الهنود فى حماها ، لأنها كانت أقوى مجموعة(١) .

وكانت الأزد هى التى تمثل قبائل اليمن ، على حين أن مذحج وهمدان وكندة - وهى القبائل العربية الأصيلة النابهة - كانت هى أكبر القبائل فى الكوفة (٢) .

ولما كانت تميم حليفة لأهل العالية ، أعنى متحدة مع قيس ، فقد نشأ عن ذلك انقسام إلى قسمين . فكان هناك الأزد (اليمن) وحلفاؤهم من ربيعة فى جانب ، وكانت مضر (تميم وقيس) فى الجانب الآخر . ولكن لا يصح أن يظن الانسان أن جميع الأزد لم يهاجروا إلى البصرة إلا حوالى سنة ٥٦٠هـ ، بل كان هناك أزد من قبل وكانوا هم وأزد الكوفة ينتمون الى الفرع الغربى ، خصوصا إلى دوس . وكان هذا الفرع يقطن جبال الصراة ، لكن لم يكن لهم كبير شأن حتى زادت قوتهم بفضل العدد الجديد الذى لحق بهم وكان أكبر منهم بكثير ، وهو قد جاء من عمان على الساحل الشرقى لجزيرة العرب . وكان أزد عمان ، خلافا لأزد الصراة ، يسمون مزون ، ولكنهم كانوا يكرهون هذه التسمية لما كان يبدو فيها من إشارة الى أصلهم المشترك ،

---

(١) البلاذرى: (ص ٣٧٢ فما بعدها) ، والكامل: (ص ٨٢، ص ١٦ فما بعدها).

(٢) ويقابل أرباع الكوفة أخماس البصرة، وهى : ١-بكر ، ٢- عبد القيس ، ٣- تميم ، ٤- الأزد ، ٥- أهل العالية (أهل المدينة) خصوصا قيس - الطبرى: (ج٢ ص ٤٦١ ص٢١ ، ١٣٨٢) ، ومعنى الربع والخمس معروف ، لكنهما يستعملان كما نستعمل نحن كلمة : الحى أو القسم ، فى تقسيم لا يتحتم أن يكون فى الحقيقة رباعيا أو خماسيا ، ذلك أنه كان يلحق بالقبائل الكبرى التى تسمى الأخماس طبقا لها ، أجزاء من قبائل أصغر ، مثل لحاق كندة وطيىء بقبائل بكر فى البصرة . تاريخ الدولة العربية: فلهوزن .

فقد كان يقطن عمان كثير من غير العرب ، وكانوا ينبزون بصناعتهم القديمة ، وهى صيد السمك ، كما كان ينبز أزد غرب الجزيرة باشتغالهم بالحياكة .

على أن هذا الخصام قد تحول إلى تسابق فى محاربة الخوارج ، هذه المحاربة التى كان لها أثر الدواء لما كان هناك من خصام . ولم تشأ تميم أن تتخلف وراء الأزد الذين كان يقودهم المهلب بن أبى صفرة . على أنه إذا كان العداء بين القبائل قد خفت حدته فى البصرة ، فإنه أخذ فى خراسان صورة أشد خطرا ، وكان ما بين القبائل من عداء قد انتقل من البصرة إلى خراسان ، لأن فتح خراسان كان من جهة البصرة ، وكان عرب خراسان من أهل العراق ، وكان أغلبهم بصريين، وكانوا مقسمين عسكريا إلى خمسة أقسام ، كما كان الحال فى البصرة . وكان والى خراسان فى العادة تابعا لأمير العراق ، برغم أن الخليفة كان فى كثير من الأحيان هو الذى يعينه ، وكان فى بعض الأحيان تابعا للخليفة مباشرة .

وكانت خراسان بمثابة ذلك الركن من أركان الدولة الذى لا تزال القلاقل تحدث فيه ، . وكان لما يقع فيه من أحداث أثر على قلب الدولة أكثر مما كان لإفريقية أو الأندلس مثلا . ولم يدم فى خراسان سلام قط ، ولا كانت لها حدود ثابتة . وكان العرب هناك فى صراع دائم مع الفرس والترك ، ولكنهم فوق ذلك كانوا يغتنمون فترات الهدوء فى إفناء بعضهم . ومع أنهم كانوا معرضين للأخطار ، فإن طريقتهم فى الحياة كانت غير سياسية ، وشبيهة تمام الشبه بما كانت عليه فى وطنهم القديم . وبالرغم من أنهم لم يذهبوا إلى خراسان من تلقاء أنفسهم ، فإنهم كانوا يشعرون بالارتياح إلى أرضهم الجديدة وإلى سعة أرجائها ، لأنها صحراوية من وجوه شتى . وقد كان يهددهم الخطر من الخارج ، لكن ذلك لم يجمع كلمتهم ، بل هو هيجهم وجعلهم أكثر خشونة وأشد غلظة . فأصبحت خراسان أشبه شىء بجزيرة عرب ثانية مع فرق ، هو أن جزيرة العرب الجديدة هذه كانت فى أرض الأعداء ، وأن ظروفها كانت أكثر تعقيدا وأحداثها أوسع نطاقا ، وأنها كانت تسمح للنزعات الفوضوية بالظهور على نحو بعيد عن الاكتراث وعن التقيد بالقيود .

وكان عرب خراسان ، وخصوصا تميم ، يعتزون بالتمسك بقوميتهم، فمضوا فى الشرق الأقصى من الدولة العربية على حياتهم القبلية القديمة وعلى تغنيهم القديم

وفخرهم بما يفعلون وبه يشعرون . ولكن كان يعوز ذلك تلك الصبغة الواقعة المتزنة العميقة التى تصطبغ بها الآثار الباقية للعروبة الأصيلة القديمة .

وكان فتح إيران من جهة البصرة تحت إمرة عبد الله بن عامر الأموى فى عهد عثمان . وكان ذلك الفتح عبارة عن سلسلة من الحملات ، وجهت إلى نواح مختلفة فى وقت واحد . ولم يتم الفتح دفعة واحدة فى سنة واحدة ، وكثيرا ما كانت تعقد معاهدات صلح بمقتضاها يحتفظ مرازية الفرس بمركزهم القديم فى صورة معدلة ومقيدة بعض الشيء [1] .

وفى تلك الأيام ، كان قد هاجر إلى خراسان خمسة وعشرون ألفا من أهل البصرة ، ومثلهم من أهل الكوفة ، ولعلهم لم يكونوا أهدأ الرءوس . ولكن بعض رؤساء القبائل العربية لم يرضوا عن ذلك ، فولى سلم سليمان بن مرثد البكرى على مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان ، وولى أوس بن ثعلبة بن زفر ، وهو من بكر أيضا ، على هراة ، حتى إذا صار سلم بنيسابور ولقى عبد الله بن خازم السلمى سأله عبد الله : من وليت على خراسان ؟ فأخبره ، فلامه قائلا : " أما وجدت فى مضر رجلا تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكربن وائل ومزون عمان [2] ؟! " .

٢ ـــ من قيادات الموالى

(١) حيان النبطى ومؤامراته ضد العرب :

فتولى وكيع قيادة الثورة على قتيبة وأيده حيان النبطى [3] ، أحد القواد الإيرانيين [4] . وكان حيان هذا رجلا خطرا فى مركز متوسط بين السادة العرب وبين الموالى ، له تأثير كبير . وكان يعرف كيف يدبر المؤامرات على نحو ما يعرفه العرب .

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٣٥٠ . (٢) الطبرى : ج٢ ص١٢٥٠ .

(٣) الطبرى : ج١ ص ١٢٥٣ . (٤) نفس المرجع : ص١٢٥٤ .

وكان له شأن خاص بحكم أنه زعيم الموالى ، أولئك الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام . وكانوا يؤلفون فرقة خاصة بهم تحارب فى الجيش العربى . وكانوا هم أنفسهم موالين لقتيبة ، ولكن حيانا عرف كيف يصرفهم عنه وينفرهم منه ، فقال للعجم : هؤلاء - يقصد العرب - يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضا . فأجابوه إلى ذلك .

(٢) أبو الصيداء يطلب مساواة الموالى بالعرب :

لقد ارتفع شأن الأزد فى خراسان بارتفاع المهالبة ، وهم كذلك سقطوا بسقوطهم فتأخروا إلى المحل الثانى ، وانتقلوا إلى جانب المعارضين للحكومة . وقد كان عمر بن عبد العزيز إنما خالف سلفه من الخلفاء بأن لزم الحياد بالنسبة للقبائل ، ولم يظهر بمظهر العداء للأزد ، وإن كان قد قضى على سطوتهم بأن عزل رئيسهم يزيد بن المهلب . ولكن لما انتهى عهد عمر بن عبد العزيز وجاء عهد خلفه ، بدأ رد فعل قوامه التعصب على الحزب الذى مالأه سليمان بن عبد الملك ، وخصوصا بعد القضاء على تلك الثورة الكبيرة التى كان المهالبة قد قاموا بها فى العراق . فلما جاء يزيد بن عبد الملك جعل الانتقام من المهالبة وأتباعهم شعار حكومته ، وقد ذاق وبال ذلك من كان من الأزد فى خراسان أيضا ، وإن لم يكونوا قد اشتركوا فى تلك الثورة على الإطلاق . فأقصى المهالبة عن جميع مناصبهم ، وعذب رؤساءهم ، وأسلموا لباهلة لكى ينتقموا منهم لمقتل قتيبة بن مسلم . وعادت السيادة لمضر مرة أخرى وعلى رأسهم تميم .

وقد أمكن بطبيعة الحال الاحتفاظ بالقواعد الثابتة التى أسسها قتيبة للعروبة والإسلام فى بلاد السغد ، خصوصا سمرقند وبخارى ، كما أن العمل على صبغ تلك البلاد بالصبغة الإسلامية استمر هناك وازداد .

ولكن نشأ من ذلك خطر جديد على السيادة العربية لم يكن متوقعا ، ولم يزل خطبه يتفاقم باستمرار . فقد كان الأمير الذى وجهه عمر بن عبد العزيز إلى خراسان ليحل محل يزيد بن المهلب هو الجراح بن عبد الله الحكمى ، وكان من مدرسة الحجاج ، فغزا الختل فى أرض (Paratacene) بعد أن لم يكن قد غزاهم أحد من قبل غزوا يستحق الذكر ، وكتب الجراح يخبر الخليفة بذلك [١] . وأوفد وفدا : رجلين من العرب ورجلا من موالى بنى ضبة يكنى أبا الصيداء . وكان أبو الصيداء هذا رجلا فاضلا فى دينه ،

---

(١) راجع الطبرى : ج٢ ص ١٣٥٣ ، فما بعدها .

فتكلم العربيان ، وهو جالس لم يتكلم ، فقال له عمر : " أما أنت من الوفد ؟ " قال : " بلى " . قال : " فما يمنعك من الكلام! " . وهنا وجد أبو الصيداء - وإن كان عربيا بالولاء - أن الدين يقضى عليه بأن يقول كلمة طيبة فى مصلحة الأعاجم الذين دخلوا فى الإسلام ، فقال : " يا أمير المؤمنين ! عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة ، يؤخذون بالخراج . وأميرنا عصبى جاف ، يقوم على منبرنا فيقول : " أتيتكم حفيا ، وأنا اليوم عصبى . والله لرجل من قومى أحب إلى من مائة من غيرهم . . . " . وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان " فقال عمر : " إذن مثلك فليوفد " .

وكتب عمر إلى الجراح : يأمره بأن يضع الجزية عن كل مسلم ، فسارع الناس إلى الإسلام . ولما قيل للجراح : إن الناس إنما سارعوا إلى الإسلام نفورا من الجزية ، ونصحوه أن يمتحنهم بالختان ، كتب بذلك الى عمر ، فرد عليه عمر يقول : " إن الله بعث محمدا ، صلى الله عليه وسلم داعيا ، ولم يبعثه خاتنا " !

أبو الصيداء يعيد نسيج الموالى : وكان الوالى الذى جاء بعده هو أشرس بن عبد الله السلمى [(١)] ، وكان أيضا من قيس . فحاول أن يهدئ ثائرة السغد المعاندين ، سالكا فى ذلك الطريق الذى سلكه عمر بن عبد العزيز . وكان الذى دعاه إلى ذلك كاتبه عميرة اليشكرى ، أحد الموالى من الأعاجم . وبعث أشرس يدعو ذلك الرجل الذى كان ذهب فى وفد من أهل خراسان إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان سببا فى أن عمر أمر بالمساواة بين العرب وبين الأعاجم الذين دخلوا فى الإسلام ، وهو أبو الصيداء صالح ابن طريف مولى بنى ضبة ، فوجهه إلى بلاد السغد لدعوة أهلها إلى الإسلام ، على أن يضع الجزية عمن يدخل منهم فى الإسلام . فذهب أبو الصيداء ، ومعه قوم من العرب على رأيه وطريقته ، قاصدا سمرقند ، فساعده على ما أراد ابن أبى العمرطة الكندى ، وهو ابن ذلك الشيعى الكوفى الذى كان قد خرج بسيفه من قبل يحارب من أجل حجر ابن عدى ، وكان ابن أبى العمرطة إذ ذاك واليا .

وقد تزلزلت السيادة العربية فى أرض ما وراء النهر زلزلة شديدة ، بسبب التردد بين اللين والشدة ترددا ليس له ضابط . وكان عمر بن عبد العزيز قد حاول أن يمزج الرعايا الأعاجم بالعرب من طريق الإسلام ، وذلك بأن سوى بين الداخلين فى الإسلام وبين

(١) راجع الطبرى : ج ٢ ص ١٥٠٤ فما بعدها ، و١٥٠٧ فما بعدها .

العرب من الناحية السياسية ، وبأن أسقط عنهم الجزية . ولكن يظهر أن هذا المبدأ لم يلبث أن الغى فى عهد خلفه ، واستعمل سياسة العنف مع أهل السغد لإرغامهم على دفع الجزية ، وقد امتنعوا عن ذلك بطبيعة الحال ، لأنهم قد صاروا مسلمين . ويمكن أيضا الاستدلال على مخالفة المبدإ الذى قرره عمر بأن كثيرا من أهل السغد أرادوا أن يتخلصوا من دفع الجزية ، فتركوا البلاد هم وأمراؤهم وذهبوا إلى بلاد الترك ليدخلوا فى حماهم .

(٣) الحارث بن سريج وجهم والمرجئة والحق الشرعى :

ويجب أن نلاحظ أنه وإن كان المبدأ الذى وضعه عمر كان يجب أن يظل مبدأ مقررا ، فإن مسلمى الأعاجم فى خراسان لم يثوروا عندما خولف ، وذلك أنهم كانوا منذ سنين كثيرة قد تعودوا التبعية السياسية للعرب ، وإن رابطة الإسلام كانت قد ألفت بينهم وبين العرب . ولكنهم إلى جانب ذلك لم يكونوا فى الحقيقة قادرين على الثورة ، وهذا يصدق أيضا بالنسبة للمدن مثل بخارى وسمرقند ، وكانت قد توطدت فيها قواعد السيادة العربية .

ثم جاءت محاولة ترمى إلى مساعدة مسلمى الأعاجم على المساواة الكاملة بالعرب فى الحقوق الوطنية ، غير أنها لم تأت من أعلى ، بل جاءت من أسفل ، من قبل الحارث بن سريج ، من أهل الدبوسية ، وهو الذى صادفناه محاربا شجاعا ، ويقال إنه كان فى أوائل أمره أحد ثوار الخوارج(١) المتشددين فى الدين ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن متشددا فى متابعة الآراء المتطرفة التى تعصب لها الخوارج ، وهو لم يعقد الخلافة لنفسه ، ولا بايع غيره عليها ، وظهر بأنه يرى رأى المرجئة ، وكان كاتبه الجهم بن صفوان أشهر متكلم رئيس فرقة الجهمية فيما بعد . وأيضا كان الحارث نفسه يدخل فى مناظرات حول مبادئها الأساسية (٢) .

وانتهى مذهب المرجئة بالفعل إلى أن صار بمثابة سياسة للتوفيق بين المتخالفين ، فتركت مسائل الخلاف وخصوصا مسألة الإمام الحق – وهى المسألة التى لم يكن قط أن يوصل فيها إلى حل – فى المحل الثانى ، وهى قد تركت لكى يحكم الله فيها . وفى مقابل ذلك صارت الجماعة الثائرة تؤكد شيئا يمكن أن تتفق عليه كلمة الطوائف المختلفة

(١) راجع الطبرى: ج٢ ص ١٩٢٣ س ٣، و ص ١٩٢٧ س ١٢ . وقارن أيضا ص١٨٩٠ س ٧ .

(٢) الطبرى: ج٢ ص ١٥٦٧ وص ١٥٧٠ ، ١٥٧١ وص ١٥٧٧ و ١٥٨٣ .

لأهل الديانة من الثائرين ، وهى الدفاع عن الأسس التى تقوم عليها الدولة الإسلامية ، ومعارضة الاستبداد الذى كان قائما ، ونصر جانب الحق الذى قدسه الدين على جانب الظلم والعسف . وكان الولاة الذين عينتهم حكومة الأمويين من قيس قد أفقدوا هذه الحكومة فى خراسان كل ثقة عند الصديق وعند العدو ، وكانت سياستهم مع السغد خاصة سببا فى جلب خطر خارجى عظيم ، وليس هذا فحسب ، بل هى قد تركت وراءها سخطا أدبيا عميقا تجاوز الطائفة التى أصابتها نتائج تلك السياسة ، فبلغ إلى أبعد منها بكثير . وقد بدأ الحارث ثورته (١) مستندا إلى هذا التذمر ، فحرض الموالى وأثارهم بأن وعدهم بإحقاق حقهم فيما وعدوا به من إسقاط الجزية عنهم كما وعدهم بأن يشركهم فى الأعطيات التى كانت تعطى للمقاتلة . وانضوى الدهاقنة وأهل القرى تحت رايته السوداء .

وهكذا سار الحارث على أثر أبى الصيداء ، وكان من بقى من أصحاب أبى الصيداء فى عداد حاشيته ، مثل أبى فاطمة الإيادى (من الأزد) وبشر بن جرموز الضبى (من تميم) . وهكذا تولى العرب مرة أخرى قيادة الحركة لإنصاف الأعاجم الذين دخلوا الإسلام باعتبارهم مواطنين فى الدولة الأموية ، ولكن اشترك فى الثورة على الحكومة عدا هؤلاء القادة عرب كثيرون من تميم والأزد ، ولم تكن الثورة بوجه من الوجوه مقصورة على المرجئة ، وكان الحارث يقبل كل من يؤيده .

وعلى هذا ، صارت الجماعات الدينية غير الإسلامية هى الجماعات التى تدفع الجزية ، وكان ربان اليهود يأخذ الجزية من اليهود ، وأسقف النصارى يأخذها من النصارى ، والمرزبان (٢) يأخذها من المجوس ، وكان المجوس بطبيعة الحال هم الغالبية الكبرى ، وإن كان عدد النصارى لم يكن قليلا . ولكن كيف كان رؤساء الجماعات الدينية هؤلاء قد استطاعوا أن يحولوا الجزية من المجوس والنصارى واليهود ويلقوها على كاهل المسلمين تحت نظر الحكومة العربية ؟

وكانت الطامة الكبرى خروج الحارث بن سريج من بلاد الترك ، وظهوره على المسرح من جديد - وربما كان ذلك قبل آخر سنة ١٢٦ هـ ، لأن يزيد بن الوليد - وكان قد أمنه (٣) - مات آخر سنة ١٢٦ هـ (٤) . ولما كان الحارث عدوا للكرمانى ، فإن نصرا

---

(١) راجع فيما يتعلق بثورة ابن سريج ، (الطبرى : ج٢ ص ١٥٦٦ - ١٥٧٢) .

(٢) المرزبان هو رئيس المجوس - قارن الطبرى : ج٢ ص ١٤٦٢ .

(٣) راجع الطبرى : ج٢ ص ١٨٦٦ - ١٨٦٩ .

(٤) كانت أم يزيد بن الوليد أميرة من أميرات السغد : (الطبرى : ج ٢ ص ١٨٧٤)، وربما كان من أجل ذلك ميالا إلى أهل السغد.

دعاه لكى يخرج من سمرقند - وكان قد نزلها أول الأمر - ويأتى إلى مرو ، فأقبل الحارث إلى مرو فى آخر رمضان سنة١٢٧ هـ (أول يولية سنة ٧٤٥م) . وعلى كثرة أنواع التكريم والهدايا التى غمره بها نصر ، فإنه لم يلزم جانب نصر ، وظل متمسكا بمطالب المرجئة كما كان يفهمها من الناحية العملية ، وهو طالب بها نصرا أيضا .

أطلق نصر أبناء الحارث ، ورد له أمواله ، وأجرى عليه خمسين درهما كل يوم ، وأنزله قصرا . ولكن الحارث باع ما أهدى إليه وفرقه فى أصحابه ، وعرض عليه نصر أن يوليه ولاية وأن يعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل ، وأرسل إلى نصر يقول له : " لست من هذه الدنيا ولا من اللذات ولا من تزويج عقائل العرب فى شىء ، وإنما أسأل كتاب الله عز وجل والعمل بالسنة واستعمال أهل العدل والفضل ، فان فعلت ذلك ساعدتك على عدوك " . وأرسل إلى الكرمانى يقول : " إن أعطانى نصر العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال أهل العدل والتفضل عضدته وقمت بأمر الله ، وإن لم يفعل استعنت عليه وأعنتك إن ضمنت ما أريد من القيام بالعدل والسنة " .

وظل الحارث على مبدئه الذى ثار من أجله قبل ذلك ، وقد قال لنصر : " خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكارا للجور ، وأنت تريدنى عليه " . ولكن ليس هذا مبدأ خاصا للمرجئة ، بل هو أولى أن يكون رأى الخوارج [١] .

وقد انضم إلى الحارث ثلاثة آلاف رجل من قبيلته تميم . والحق أن نصرا أفرط فى التساهل مع هذا المنافس الخطر الذى جلبه على نفسه ، وكان الحارث من أول الأمر وضع نفسه فى خدمة قضية الأعاجم فى أرض الثغرين ، وكتب لهم كتابا بسيرته وسياسته وأغراضه فى إحقاق الحق والعدل . وكان رجاله يقرءون ذلك فى الطرق والمساجد . وقد رضى نصر أن يبعث إلى ثغرى سمرقند وطخارستان من يرضاه أصحاب الحارث ، كما عرض على الحارث أن يوليه ما وراء النهر . ولكن ذلك لم يغن نصرا شيئا ، لأن الحارث لم يكن يطمئن إليه ولا يثق فى أنه سيعادى حكومة الأمويين ذلك العداء الحاسم الذى يملأ نفس الحارث ومن تحت رايته السوداء من الأتباع . هذا إلى أن الحارث لم يكن من غير شك يريد بدافع الأنانية أن يسمح لنصر بأن يكون له سلطان إلى جانب سلطانه .

---

(١) راجع فيما يتعلق بالنصوص الطبرى : ج ٢ ص ١٨٨٨-١٨٩٠ ، ١٩١٩ .

ويروى أن الحارث ونصرا تناظرا، فتراضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان وجهم بن صفوان ، فحكما بأن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى ، فلم يرض نصر . وعند ذلك بدأ النزاع الصريح ، ونزل الحارث معسكرا أمام مرو ، ومن هناك حاول أن يستولى على المدينة ، وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٨هـ (آخر مارس سنة ٧٤٦م) . وفشلت المحاولة بطبيعة الحال ، فأسر جهم بن صفوان وقتل ، وكان الجهم هو الداعى إلى مذهب المرجئة . ولكن الحارث بعد ذلك كتب إلى الكرمانى ، ونحن نسمع عنه الآن من جديد لأول مرة بعد أن اختفى من مسرح السياسة سنة ونصف السنة ، فدخل الكرمانى فى النزاع وغير وجهته . وبعد قتال دام أياما رأى نصر أن يرجع إلى نيسابور ، مقر قيس ، وأن يخلى مروا للثائرين [(١)] .

(٤) بشر بن الجرموز الكرمانى وشعار الإسلام ضد العروبة :

ولكن الثوار من أصحاب الحارث والكرمانى لم يلبثوا حتى اختلفوا ، وذلك أن من كان مع الحارث من تميم ندموا على أنهم قد أعانوا الأزد على إخوانهم الذين كانوا فى مرو يحاربون مع نصر ، وهم لا ينسون للكرمانى أنه فى أيام ولاية أسد بن عبد الله قتل عدة مئات من أصهار الحارث بعد الاستيلاء على قلعة التبوشكان ، وأنه بقر بطون خمسين رجلا منهم ، وقطع أيدى ثلاثمائة منهم وأرجلهم إلى غير ذلك مما نقموه عليه[(٢)] .

وكان أول من نبذ هذا التحالف غير الطبيعى بين الحارث والكرمانى هو بشر بن جرموز ، أكبر أنصار الحارث ، فخرج يدعو إلى الكتاب والسنة ، وقال للحارث إنه إنما قاتل معه طلبا للعدل ، إن انضمام الحارث إلى الكرمانى معناه القتال لأجل الغلبة والعصبية . فاعتزل بشر فى خمسة آلاف أو أربعة آلاف وخمسمائة . ولما بدأ القتال

---

(١) تاريخ الدولة العربية : فلهوزن. ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة . تاريخ الإسلام السياسى : دكتور إبراهيم حسن .

(٢) جاء عند الطبرى (ج٢ ص١٩٢٨) أن الحارث بعد أن هزم نصرا بعث إليه أنه سيكف عن قتاله لأن اليمانية عيروه بهزيمته . تاريخ الدولة العربية .

بعد ذلك ، انضم الحارث إلى بشر وانفصل عن الكرماني . ولكن الأزد وحلفاءهم غلبوا تميما ومضر في آخر رجب سنة ١٢٨ هـ (إبريل سنة ٧٤٦م) ، وأخرجوهم من مرو وخربوا عسكرهم ، وقتل الحارث نفسه وصلب جسده عند مدينة بغير رأس ، فنال الجزاء العادل على أعماله ، مهما كانت آراؤه ومقاصده . فهو في محاولته نصر الإسلام على العروبة ونصر المظلومين على الظالمين ، قد حالف الموت والشيطان على السلطة القائمة ، وحشد قوى الخير والشر جميعا في محاربة الحكومة الأموية . وهو في أول ظهوره قاد الترك لمحاربة العرب . فلما أخفق ظل لاجئا عند الترك سنين كثيرة ، فلما ظهر من جديد فرق كلمة تميم ، وكان لاتحاد كلمتهم في ذلك الوقت الشأن كل الشأن في المحافظة على السيادة العربية . وقد كان الحارث بذلك سببا في أن اليمانية لم يكتفوا بإسقاط الحكومة ، بل في أنهم أردوا مضر كلها ، وبحق ما قيل عنه من أنه رجل مشئوم (١) ، وأنه كان الممهد الحقيقي لأبي مسلم (٢) .

وعلى الرغم من أن نصرا كان من قبل قد تعصب على قيس ، فإنهم لما رجع إلى نيسابور ، أحسنوا لقاءه في ذلك الوقت العصيب (٣) ، كما انحاز إليه المضريون الذين أخرجوا من مرو . ويروى أنه حاول قبل ذلك أن يستنجد بالخلافة ، ولكن طالما كانت العراق وما يلحق بها من بلاد العجم في قبضة الخوارج وفي قبضة عبد الله بن معاوية ابن جعفر ، فإن الطريق كان مقطوعا بين نصر وبين مقر الحكومة الأموية في الشام . ولم تتغير الحال إلا في سنة ١٢٩ هـ ، لما خضعت العراق لمروان بن محمد ، على يد يزيد بن عمر بن هبيرة ، فاعترف له نصر بالرياسة باعتبار أنه رئيسه المباشر ، ولم يكن من نيته قط أن يخرج على الأمويين ، وإنما كان ينتظر أن يهدأ الاضطراب والنزاع بين بني أمية حول الخلافة في الشام . وربما يكون قد بايع مروان بن محمد بعد توليه الأمر بقليل ، ولكن إمكان اتصال نصر بن سيار بيزيد بن هبيرة لم يغنه إلا قليلا ، فبقي مضطرا إلى الاعتماد على نفسه ، عندما أراد في سنة ١٢٩ هـ أن يقوم بمهمة استرداد مرو (٤) .

---

(١) راجع أبياتا تنسب لنصر بن سيار وغيره فيما أدخله الحارث على العرب من الذل والشؤم المردى ، وهي عند الطبري : ج٢ ص١٩٣٥ ، ١٩٣٦ .

(٢) الطبري : ج٢ ص ١٩٢٤ .

(٣) راجع الطبري : ج٢ ص ١٩٢٩ .

(٤) راجع الطبري : ج٢ ص ١٩٧٠ - ١٩٧٦ .

وبعد أن قام قواده بحملات كثيرة للهجوم لم تجد شيئا، تقدم نصر نفسه ، وكان فى الثمانين من العمر ، ووضع كل قوته فى المعركة . وخرج الكرمانى لمحاربته ، وعسكر الفريقان خارج المدينة فى " الخندقين " اللذين بقيت آثارهما زمانا طويلا ، وظلا يقتتلان فترة طويلة من غير أن يقع القتال الحاسم . وقد بعث نصر إلى مروان بن محمد وإلى ابن هبيرة يلح فى الاستعانة وطلب العون، ويصف الخطر وصفا يحرك الهمم ، ولكنه لم يظفر من استغاثته بطائل. [1] غير أن تخوف العرب من عدو لهم جميعا دعاهم إلى العقل والاتحاد مرة أخرى [2] . وقد رأوا بأعينهم أن شيعة بنى العباس - ومعظمهم من الأعاجم - قد تجمعوا تحت راية أبى مسلم ونزلوا معسكرا حصينا غير بعيد من مرو. فدخلت ربيعة - التى مع أنها كانت حتى ذلك الحين حليفة للأزد، فقد كان لها بطبيعتها موقف وسط - فى الفرجة التى كانت تفصل بين اليمن ومضر ، فاتحد يحيى بن نعيم ابن هبيرة ، أكبر سادات بكر ، مع نصر بن سيار ، ووجد أن السبيل الوحيد الممكن لنجاة القبائل العربية هو فى مؤازرة الحكومة . وبدأت مفاوضات بين مضر وبين جديع الكرمانى ، لكنها انقطعت بسبب ابن الحارث بن سريج، كان مع نصر بن سيار ، فاغتنم الفرصة ليثأر من قاتلى أبيه ، فاغتال الكرمانى خلسة .

غير أن ذلك لم يكن هو السبب الذى أدى إلى فشل المفاوضات . لكن سقوط مدينة هراة ، تلك المدينة المهمة ، فى يد أبى مسلم راع العرب كثيرا وفتح أعينهم أيضا . فحل محل الكرمانى رجل من أنصاره لا نعرف عنه شيئا حتى ذلك الحين ، وهو شيبان بن سلمة الحرورى ، فدعاه يحيى بن نعيم بن هبيرة إلى موادعة نصر بن سيار ، فوادعه سنة، فاستطاع نصر أن يدخل مرو فى آخر سنة ١٢٩هـ (٧٤٧م) . ولم يكن الأزد وحدهم هم الذين دخلوا فى هذه الهدنة ، بل دخل فيها أيضا على ابن زعيمهم المقتول: جديع الكرمانى .

ولم يكن من المؤكد أن ينتهى القتال بانتصار أبى مسلم ، غير أن أبا مسلم عرف كيف يقنع على بن جديع الكرمانى بأن قتل أبيه إنما كان بإيعاز من نصر نفسه ، وكان يريد بذلك أن يضم عليا إلى جانبه (أول سنة ١٣٠هـ - سبتمبر سنة ٧٤٧م) . وعلى هذا عاد

(١) وأبيات نصر بن سيار المشهورة التى ذكرها الطبرى (ج٢ ص ١٨٧٣) تدخل فى وصف هذا الموقف (غير أنها تشير إلى الخطر الذى جاء من قبل أبى مسلم . والمؤلف لا يشير هنا إلى الدور الذى لعبه أبو مسلم فى التفرقة بين نصر والكرمانى . راجع الطبرى: ج٢ ص ١٩٧٢).

(٢) راجع الطبرى : ج٢ ص ١٩٦٢ فما بعدها، و١٩٧٥ فما بعدها .

الكرماني ومن تبعه من الأزد إلى قتال نصر من جديد . ويظهر أن القتال استمر في ضواحي مرو وفي شوارعها مدة طويلة ، وقد طال من كانوا يقطنون هناك ، خصوصا في واحة مرو(١) . وكانت مدينة مرو حاضرة لقرى كثيرة ترتبط فيما بينها بنظام رى موحد .

وكان للعرب بطانة وموال من الأعاجم ، كما أنهم تزوجوا نساء أعجميات ، وكان لابد أن يظهر أثر ذلك فى أبنائهم منذ الجيل الثانى . وإنه وإن كانت هجرات العرب المتتالية من العراق إلى خراسان قد زادت من قوة العنصر العربى فى بلاد العجم ، فإن ذلك لم يصل إلى حد أن يجعل العرب من حيث العدد مكافئين للأعاجم ، وخصوصا أن الحروب التى لم تنقطع كانت تأكل العرب أكلا فظيعا . وقد تأقلم العرب فى وطنهم الجديد وأخذ أشراف العرب يظهرون بمظهر المرازية وأسلوبهم فى الحياة . وكان الاشتراك فى الحياة العملية مما دعا إلى التفاهم بين العرب والأعاجم ، حتى كانت الفارسية فى الكوفة والبصرة لغة يتكلمها الناس فى السوق كما يتكلمون العربية على الأقل (٢) .

٣ ـــ العرب يقرون مبدأ الحرية الدينية

هذا إلى أن العرب لم يتدخلوا فى المسائل الدينية للأعاجم . وكان الأساس فى المعاهدات التى يفرض فيها دفع إتاوات أن يبقى أهل البلاد على دينهم ، بل كان للأعاجم أن يبقوا على دينهم حتى فى المدن التى كان يسكنها العرب ، وإن كان ربما تحتم عليهم أن يخفوا المظاهر الخارجية للوثنية . ولكن يظهر أن الأعاجم لم تكن تربطهم بدين زرادشت رابطة جديدة . وكان أهم ما يعنيهم هو الشعائر المصطبغة بصبغة المرح والسرور بالحياة . وكانت هذه الشعائر تتجلى فى أعظم صورها فى الاحتفال بعيدى النيروز والمهرجان . وكان للأعاجم أن يحتفلوا بهذين العيدين حتى

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى .

(٢) تاريخ الدولة العربية الكبرى : فلهوزن .

بعد دخولهم فى الإسلام ، لأن العرب أنفسهم كانوا يشتركون فى الاحتفالات الدينية للأعاجم ، مادامت الاحتفالات مجالا للسرور والتسلية .

وإذا كان الأعاجم قد أقبلوا فى بادئ الأمر على الدخول فى الإسلام، فإنهم لم يفعلوا ذلك من أجل الإسلام نفسه بمقدار ما فعلوه ابتغاء المزايا التى كان يمكنهم منها . فهم قد اتخذوا الإسلام وسيلة للتقرب من الطبقة الحاكمة وللمشاركة فيما كان لها من مزايا ، أى هم اتخذوه وسيلة لكى يستعربوا وينالوا ما كان للعرب من حقوق ومزايا ، ثم سموا أنفسهم بأسماء عربية وألحقوا بالقبائل العربية (١) . وقد استطاع بعض أهل الطموح منهم أن ينالوا حظوة عند العرب ، وأن يلعبوا دورا ذا وجهين فى التوسط بين القوميتين العربية والفارسية . وكانوا يسمون النصحاء ، وأشهرهم سليم وحبان النبطى .

فكان الموالى - وهذه هى بوجه عام التسمية التى كانت تطلق على من دخل فى الإسلام من غير العرب وألحق بالقبائل العربية - يحاربون إلى جانب العرب ويحاربون الأعداء القدماء لوطنهم ، وهم الترك ، ولكنهم أيضا كانوا من أجل الإسلام يحاربون أبناء وطنهم من السغد ، إذا عادى هؤلاء الإسلام وحالفوا الترك . وهكذا تأصل الإسلام فى قلوبهم ، بعد أن كانوا فى أول الأمر قد اعتنقوه لأسباب خارجية . ولقد كانوا فى إسلامهم أكثر إخلاصا من العرب أنفسهم (٢) .

ولكن العرب رغم ذلك لم يكونوا ينظرون إلى الموالى نظرتهم إلى أنفسهم . فإذا كان الموالى فى الجيش ، فإنهم كانوا يحاربون مترجلين لا على الخيل ، وكانوا إذا برزوا ينظر إليهم بشىء من الريبة . وهم وإن كانوا يتقاضون رزقا ويأخذون نصيبا فى الغنيمة ، فإنهم لم تكن لهم أعطيات ثابتة ، فلم يكونوا مقيدين فى الديوان ، أعنى فى سجل المقاتلة الذين تفرض لهم الأعطيات . ومع أنهم كانوا قد اندمجوا فى القبائل العربية ، فإنهم كانوا يسمون " أهل القرى " تمييزا لهم عن " أهل القبائل " . ومع أنهم كانوا مسلمين ، فإنهم لم تسقط عنهم الجزية . أما الخراج الذى كان يؤديه كل من يملك أرضا حتى العرب منهم ، فيظهر أنه على كل حال لم يحدث من التذمر بين أهل خراسان ما أحدثه بين أهل ما وراء النهر ، لأن هؤلاء لم يدخلوا الإسلام إلا على أمل أن تسقط عنهم الجزية . ولكن لا شك فى أن عدوى التذمر تسربت من أهل السغد إلى أهل خراسان - وقد عمل الحارث بن سريج وغيره على ذلك .

---

(١) قارن البلاذرى ص ٤٤١ : أسلم بعض الملوك وتسموا بأسماء عربية .

(٢) الطبرى : ج٢ ص ١٢٩١ .

يقول فلهوزن : ولو أن العرب عاملوا من دخل في الإسلام من الأعاجم معاملة المساوين لهم، لكان من الممكن أن يتحقق مزج بين الأمتين ، لكن العرب بما صنعوه ربوا في أحضانهم أعداء لأنفسهم ، حتى كبر هؤلاء الأعداء . ثم إن الإسلام أحيا الأعاجم من جديد، وشد أزرهم، ووضع في يدهم سلاحا على سادتهم العرب ، بما أصح فيهم من مبادئ الوحدة والعدل والمساواة . وذلك أن إسقاط الدولة العربية لم يأت من أهل ما وراء النهر الذين بقوا على عجمتهم وعلى عدائهم للعرب ، بل جاء من قبل من أسلم من أهل خراسان ، وهم إنما قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين إلى الإسلام، والإسلام هو الذى جمع كلمتهم وكلمة أولئك العرب الذين كانوا يعارضون حكومة بنى أمية مهتدين بالمبادئ التى يجب أن تقوم عليها الدولة الثيوقراطية فى نظر الإسلام - والعرب هم الذين كانوا أول من أثار الموالى ونظمهم .

والإسلام يجعل المحافظة على وحدة " الجماعة " ، أعنى على وحدة الأمة الإسلامية، فوق كل شىء ، وهو أيضا يدعو إلى شد أزر حكومته وإلى طاعتها . ولكن بعد أن حادت الحكومة عن المبادئ التى يجب أن تقوم عليها الحكومة الثيوقراطية، جاء الإسلام الثائر فجعل تلك المبادئ أساسا لمحاربة نظام الحكم الذى كان قائما إذ ذاك، وجعل يدعو للحرب نصرا لله على بنى أمية وعلى عمالهم ، ونصرا للحق على الطغيان والعسف .

أما الخوارج، فلا تسمع عنهم فى شرق الدولة الإسلامية إلا قليلا ، ولكن لا شك فى أنهم كان لهم من الشأن هناك فى خراسان (١) .

٤ ـــ التمرد السياسى والفكرى

ولكن المرجئة كانوا من غير شك أكبر شأنا من الخوارج فى ذلك الوقت، وفى تلك الجهة من الدولة الإسلامية ، وقد تدخلوا بقيادة الحارث بن سريج فى تاريخ تلك الحقبة تدخلا كان له أثره الكبير . وكل من الخوارج والمرجئة قد استنكروا ، من حيث المبدأ ، كل تمييز للعرب على الموالى المسلمين . ولكن كلا من الخوارج والمرجئة تراجعوا آخر الأمر إلى المحل الثانى تماما، أمام الشيعة الذين كانوا قد انتشروا فى خراسان فى وقت مبكر ، ثم جاءوا بالعمل الحاسم فى إسقاط الدولة العربية .

---

(١) تاريخ الدولة العربية . أحزاب المعارضة السياسية : فلهوزن ـ ترجمة د . عبد الرحمن بدوى .

وكان مقر الشيعة فى العراق ، شأنها شأن الأحزاب التى كانت تتخذ من الدين سندا لمقاومة حكومة بنى أمية . على أن فتح شرقى بلاد العجم كان من وجهة العراق ، ومن العراق كانت قبائل العرب لا تزال تهاجر إلى بلاد العجم .

ثم ظل الاتصال بين العراق وبلاد العجم قويا على الدوام ، وكان لا يزال يأتى من جهة العراق سيل القبائل العربية إلى أرض النهر ، ولم يكن هؤلاء المهاجرون أهدأ العرب نفوسا . ويظهر أن أمراء الأمويين فى العراق، ولاسيما زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، أرادوا أن يصرفوا العناصر الخطرة عن الكوفة والبصرة، فيوجهوها إلى خراسان ويستنفدوا قوتها وطاقتها على العمل فى جهاد المشركين ويتخلصوا بذلك من شرها . ومما له مغزاه أن الحجاج كان حريصا على إبعاد جند الشام عن بلاد الأعاجم لكيلا تنتقل إليهم عدوى روح الشر .

أما بدايات ظهور الشيعة فى خراسان، فليس عندنا روايات دقيقة ، وهذا طبيعى . ويبدو كأنما كانت بذور مبادئهم تطير فى الهواء وتنتشر من تلقاء نفسها . أما إلى أى حد كانت أهواء الناس مع الشيعة فى خراسان، فهذا ما يمكن أن يتبينه الإنسان من أن زيد بن على لما أخفق فى محاولته الثورة فى الكوفة أشار البعض على ابنه يحيى بأن يخرج إلى خراسان . وقد عمل يحيى بهذه الثورة . وهو وإن كان قد قتل وهو يقاتل ضد الدولة ، فإن استشهاده أثار سخطا عند الجميع ، حتى يروى أن كل الصبيان الذين ولدوا فى خراسان فى تلك السنة سموا باسمه (١) .

وإذا كان أبو مسلم قد ظهر بمظهر المطالب بثأر يحيى فإنه كان لاشك يعلم تأثير ذلك فى النفوس ، وهو بذلك ضرب نغمة وجدت صدى عند الجميع (٢) . وأيضا كان عبدالله بن معاوية بن جعفر يعتقد أنه إذا خرج إلى خراسان فهو مصيب مكانا أمينا ، ولكن أخطأ ظنه فى أبى مسلم ، لأن أبا مسلم لم يكن عنده مكان لعلوى حى أكثر مما كان عنده لعلوى ميت ، فدس على ابن معاوية من قضى عليه سرا . ولكن ابن معاوية أيضا ظل يعتبر فى خراسان شهيدا يقدسه الناس زمانا طويلا ، وكان قبره هناك يزار كثيرا(٣) .

ولو أن العرب فى خراسان اتحدوا فيما بينهم، وشدوا أزر الحكومة، لما استطاع الشيعة بطبيعة الحال أن يندسوا فى الفجوات التى أوجدها الشقاق . ولكن كما أن العرب لم يريدوا أن يقاسموا الموالى السلطان، فإنهم أيضا لم يمتع بعضهم به بعضا .

---

(١) المسعودى : ج٦ ص ٣ .

(٢) الطبرى : ج٢ ص ١٩٨٥ وج٣ ص ٥٠٦ فما بعدها .

(٣) أحزاب المعارضة السياسية فى الإسلام .

وكانت المناصب والمغانم التي كانت فى يد الدولة تمنحها وتمنعها موضوعا وسببا للتحاسد الشديد بين القبائل . وظلت العصبية داء العرب الباقى على الزمان ، حتى إذا بدأ يتزلزل عرش بنى أمية آخر الأمر اشتدت العصبية اشتدادا مروعا ، كما رأينا . وقد استغل الشيعة - بالمعنى الخاص للكلمة - هذا الموقف . وكان العباسيون قد اتحدوا معهم منذ أن انفصلوا عن العلويين ، وخرجوا من المدينة إلى الحميمة فى الأرض الجبلية (أرض الشراة) الواقعة بين جزيرة العرب وبين الشام [1] ، حيث لا يمكن أن ينافسهم العلويون .

٥ ـــ الشيعة بين الاعتدال وغلو السبئية

وكان الشيعة فرقتين كبيرتين ، وإن كان التمييز بينهما لم يكن دائما تمييزا دقيقا : فرقة معتدلة لا تختلف عن سائر المسلمين إلا فى المبدإ السياسى القائل بأن الخلافة يجب أن تكون فى بيت النبى عليه السلام ، وفرقة متطرفة لها مذهبها الخاص فى العقائد ، وهو مذهب غريب تماما عن الإسلام الأول .

وقد سمى الشيعة الغلاة بأسماء مختلفة ، ولكنها لا تدل إلا على فوارق قليلة الشأن . ففى أول الأمر سموا السبئية . وفى رأى سيف بن عمر أن هؤلاء السبئية كانوا من أول الأمر أصل الشر والبلاء كله فى تاريخ الدولة الإسلامية ، وهم قتلة عثمان، وفاتحو باب الفتنة والحرب الأهلية ، ومؤسسو حزب الخوارج الثائرين ، وهم السبب فى قتل المسلمين بعضهم بعضا .

(١) يرجع نسب العباسيين إلى عبد الله بن عباس ، المحدث الورع ، ابن عم النبى عليه السلام، وابن عم على ابن أبى طالب رضى الله عنه . وبعد أن قتل على وصالح ابن عباس ظل على علاقة طيبة مع الأمويين ولم يكن يعمل ضدهم إلا خفية ، فلما جاء ابنه على بن عبد الله بعده ، وكان مثله فى الورع، وكان يلقب بالسجّاد أو بذى الثفنات ، لم يفعل غير ما فعله أبوه . وفى عهد عبد الملك بن مروان، انتقل إلى دمشق ولكن الوليد بن عبد الملك ، بعد أن مات عبد الملك أساء به ، فانتقل فى سنة ٩٥هـ مكرها كما يروى ، وسكن الحميمة عند أذرح على طريق الحق الآلى من الشام ، ومات وهو شيخ كبير فى سنة ١١٨ هـ (الطبرى : ج٢ ص ١٥٩٢) . وكان لابنه محمد بن على شأن أكبر منه بكثير ، حتى وهو على قيد الحياة ، فظهر أولا بدعوى إمامة الشيعة ، وكان هو مؤسس الدعوة العباسية السرية . وجعلها تعمل من أجله فى الكوفة وخراسان ، فى حين أنه لم يترك مكمنه فى الحميمة ، ومات فى ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ (الطبرى : ج٢ ص ١٧٦٩) ، وبعد وفاته جاء ابنه إبراهيم بن محمد إماما ثانيا للعباسيين . وقد ولد إبراهيم هذا فى سنة ٨٢هـ . تاريخ الدولة العربية .

والحقيقة أن السبئية لم يصبح لهم شأنهم التاريخى إلا على يد المختار الثقفى ، وإن كانوا قد كانوا موجودين قبل ذلك . وكان موطنهم الكوفة وسوادها . ولم يكونوا من العرب فحسب، بل كان معظمهم من الموالى . وكانوا يؤمنون بما ذهب إليه ابن سبأ من الرجعة ، أعنى رجعة الأرواح فى أجساد مختلفة - وخصوصا رجعة روح النبى عليه السلام فى أبنائه . وهذه النقط الثلاث هى النقط الجوهرية التى تميزهم .

أما أشراف العلويين ، أعنى أبناء السيدة فاطمة بنت النبى عليه السلام ، فإنهم لم يخرجوا عن أصول الإسلام ولا عن أصول العروبة ، ولذلك نبذوا السبئية بأحد أبناء على من زوجة أخرى له ، وهو يسمى محمد بن الحنفية باسم أمه .

الفصل الرابع
الشعوبية والتمهيد لتراث الزندقة والإلحاد

١ ــ الإسلام والتراث القديم

دخل الإسلام بلادا كانت تعيش فى كنف حضارات قديمة، وكان من الصعب تحت أى تأثير أن تنبت تفكيرا إسلاميا خالصا من النظم الدينية القديمة، وحركات الإلحاد والإباحية التى كثر عددها كان لها تأثيرها على الإنسان. ولقد حاول أحد المؤرخين أن يبين مساحات انتشار التراث القديم فى خراسان وما حولها، وهو كما يقول المقدسى فى القرن الرابع ما يؤيد هذا، فيذكر أن بخراسان يهودا كثيرين ونصارى قليلين. وأن بالجبل يهودا أكثر من النصارى. وكان بالمشرق أيضا المدينتان الوحيدتان اللتان أطلق عليهما اسم اليهودية: إحداهما قرب أصفهان، والأخرى شرقى مرو. وكذلك وجد المقدسى إقليم خوزستان " قليل النصارى غير كثير اليهود أو المجوس " [١]. وكذلك فى فارس وجد " المجوس أكثر من اليهود، وبه نصارى قليل " [٢]، وكذلك الحال فى جزيرة العرب، فاليهود أكثر من النصارى (مقدسى ص ٩٥)، وهم الغالب على مدينة قزح، ثانية مدن الحجاز عمارة وتجارة [٣]. أما مصر فالأرقام التى ذكرها بنيامين أقل مما تقدم بكثير: فكان بالقاهرة سبعة آلاف وبالإسكندرية ثلاثة آلاف.

انتشرت بذور التمرد فى كل مكان، وكانت الأرض صالحة لإخراج الثمرة عندما ظهرت فيها أى فرق إباحية أو إلحادية. المهم أنها تقف موقف المعارضة من الحكم

(١) البدء والتاريخ المقدس: ص ٤١٤.

(٢) نفس المرجع: ص ٥٣٩. (٣) نفس المرجع: ص ٨٣ - ٨٤.

الأموى. وكانت الكوفة ـ التى تتميز بكراهية شديدة للشام ـ مركزا للمؤامرات السياسية للخوارج والشيعة، كما كانت فى نفس الوقت مركزا للسبئية والغلاة من الشيعة، ومركزا للكيسانية الذين ينادون بالحق السياسى لمحمد بن الحنفية، وهو الشعار الذى رفعه المختار الثقفى، ومنها خرج أبو مسلم الخراسانى، وكان الموالى الفرس هم الذين حركوا تراثهم القديم ليكون عونا لهم على التأليب على بنى أمية، ولذلك كانت الفتن تكثر فى البلاد التى يكثرون فيها ويزيد عددهم فيها على العرب، وذلك مثل خراسان كونوا فيها وحدة قائمة بذاتها. ومن جنوب فارس قامت دعوة القرامطة مازجة بين تعاليمها الدينية والسياسية بالمناداة بحق الحسين فى الإمامة وأعطت نفسها الحق بالمناداة بذلك المبدإ، وترابطت بشعارها هذا مع كثير من الفرق مثل الإسماعيلية. وكانوا يرون أنهم أهل قربة على العرب لأنهم يدافعون عن حق الأئمة فى الخلافة بينما العرب هم الذين قتلوا الحسين. وانطوت تعاليمهم على أسرار خفية تلقن لأبنائهم. وكان اضمحلال الدولة الأموية مثلا صادقا لأول مبدإ من مبادئ علم السياسة وهو أنه لا توجد حكومة تستطيع أن تبقى بدون إخلاص رعاياها وحبهم ومعونتهم الصادقة لها مهما كانت القوة العسكرية التى تساندها.

رأى المخاطرون من الموالى والطامعون فى الخلافة استغلال روح التذمر المنتشرة بين الناس بمثيل يزيد بن المهلب والمختار الثقفى وابن الأشعث وتحت لواء تلك الحركات تجمع الموالى تحت شعار الشعوبية. ولقد زاد من قوة حركتهم انضمام بعض القراء،[1] وهو مصطلح سابق على مصطلح الفقهاء، ولكن وحدتهم نتجت من معاداة العراق التى لا تفتر للأمويين كان لها أثر كبير فى تعريض حكمهم للخطر. فقد كان العراق، الذى اتخذته أشراف القبائل العربية موطنا لها طوال هذا العهد مركز تجمع لكل الاضطرابات والثورات التى قامت ضد الأمويين تقريبا[2]، على أن سياسة الأمويين التى كانت خالية خلوا تاما من العطف على رعاياهم هى التى عرضت كيان هذه الدولة للخطر أكثر من أى شيء آخر.

قال رجل للحسن: وكأنك راض عن أهل الشام. فقال: قبح الله أهل الشام وبرحهم، أليسوا الذين أحلوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام، وأباحوه أنباطهم وأقباطهم، لا يتناهون عن سيئة ولا انتهاك حرمة ثم نصبوا المجانيق يرمون بيت الله ؟!

---

(١) تاريخ الغزوات الثقافية ودخولها بلاد الإسلام - تعليقات خدا بخش ترجمة د. مصطفى بدر.

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية: محمد إبراهيم الفيومى.

هذه هى الروح التى كان المسلمون ينظرون بها إلى الحكم الأموى، وهذه هى الروح التى ساعدت على نمو الفرق المختلفة ، فرق الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرها من الفرق التى لا عد لها ، والتى قامت فى حضن الخلافة وهددت كيانها الهزيل[١] . وهذه هى الروح التى تفسر معارضة الحارث بن سريج وثورة الخارجى عبد الله بن يحيى ، وثورة الموالى الخوارج تحت رئاسة أبى على الكوفى مولى بنى الحارث[٢] .

وقف الموالى الفرس دائما موقف المعارضة من الدولة الأموية ، وانضموا إلى كل ثائر عليها ، واستترت عصبيتهم وشعوبيتهم وراء ستار المطالبة بمساواة الموالى بالعرب[٣]، حتى إذا قامت الدولة العباسية ، انزاح هذ الستار ، وبدأت الشعوبية واضحة للعيان ، فقد انتعش الموالى الفرس وساروا إلى المناصب السياسية والإدارية ، واصطبغ العصر العباسى الأول بالصبغة الفارسية[٤] .

يقول براون عن هؤلاء الشعوبيين : إن كل واحد منهم كان يزهو على وجه الخصوص بمفاخر شعبه، سواء كان سوريانيا أم نبطيا أم مصريا أم روميا أم أسبانيا أم فارسيا . ولكن الفرس كانوا أشدهم حماسا وأكثرهم عددا [٥] .

وبذلك انتعشت القومية الفارسية . وقد كان للفرس ديانات سابقة لم ينسوها جميعا لما اعتنقوا الإسلام ، وكانوا لا يجرءون فى العصر الأموى على أن يظهروها ، فقد كان همهم الأول أن يتحرروا سياسيا لا دينيا ، فكانت دعوتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة ، لا للدين والزندقة ، حتى إذا نجح الموالى الفرس فى معاونة العباسيين فى القضاء على الدولة الأموية ، اعتبروا الدولة العباسية دولتهم ، وظهرت الديانات القديمة وبدأت حركات الزندقة .

---

(١) التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية : ترجمة عبد الرحمن بدوي .

(٢) المعتزلة : زهدى جاد الله .

(٣) جهم بن صفوان ـ خالد العسلي .

(٤) تاريخ الفكر الدينى الجاهلى : محمد إبراهيم الفيومي

(٥)تاريخ الغزوات الثقافية فى بلاد الإسلام . فون كريمر–تعليقات خدابخش .

٢ ـ الشعوبية والصراع الثقافى

كانت حركة الفتح الكبرى قد بلغت نهايتها ، وأخذ الخليفة الأموى هشام يضطلع بمهمة المحافظة على دولة مترامية الأطراف ، لم تتخذ بعد شكلها ونظامها النهائى . فاهتم فيما يبدو بأساليب الإدارة التى استخدمتها الإمبراطوريات القديمة ، وأخذ كتابه يترجمون له ما يحصلون عليه من كتب فى الموضوع . فترجم مولاه سالم ، رئيس ديوانه ، رسائل أرسطو إلى الإسكندر - ونسبتها إلى أرسطو غير محققة - ويقول المسعودى إنه رأى ترجمات لتواريخ ملوك فارس وكتب فارسية أخرى أمر بها هشام . ويتجلى أثر هذه الكتب فى الرسائل الأصيلة التى أنشأها عبد الحميد الكاتب خليفة سالم . فقبل قيام الخلفاء العباسيين ، إذن ، وجد فى بلاط الأمويين أدب مستوحى من مصادر ، أحدها المأثور الساسانى الفارسى .

وكان كتاب العباسيين الأول قد بدءوا عملهم فى الكتابة عند الأمويين ، وبخاصة لدى ولاة العراق ، كأبى أيوب الموريانى ، وزير المنصور ، وروزبه ابن المقفع الذى اشتهر بالترجمة والتعريب من الفارسية ، وإذا كانت كتبه شاهدا على استقواء النزعة إلى تقليد الفرس فما ذاك إلا أمر طبيعى متوقع ، إلا أنه لا ضرورة فى تفسير هذه الظاهرة أن نردها إلى أى ميول فارسية تقدر أنها كانت لدى الخلفاء العباسيين (١) . وكان أدب البلاط يتسع وينمو نحو إقرار التقاليد الساسانية بدافع من ذاته ، دافع بدأت أولياته فى الظهور زمن الأمويين ، وأخذ يستقوى مع ازدياد طبقات الموظفين . أما كتابات ابن المقفع وما أحرزته من رواج ، فلم تكن فى بادئ الأمر سوى حافز آخر يدفع الأدب فى ذلك الاتجاه ، فهم يحفظون رسائل عبد الحميد و " أدب " ابن المقفع استظهارا ، وإذا رغبوا فى مزيد لجئوا إلى مؤلفات فارسية أخرى . وقد ذكر ابن النديم فى كتاب الفهرست بضع مئات من أسماء هذه الكتب المسلية (٢) .

(١) تاريخ الإلحاد والزندقة فى الإسلام - عبد الرحمن بدوى .

(٢) الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما - سميرة مختار الليثى .

وعند نهاية القرن الثانى ، ظهر أول رد فعل أدبى من جانب العرب على ذلك السيل الأدبى الذى يحمل لواء الصبغة الفارسية . فلئن كانت رغبة الطبقات الوسطى الجديدة تنحصر فى كتب التسلية وحدها ، فقد كان فى التراث العربى عناصر يمكن عرضها على نحو يلائم أذواقها . ذلك أنه نشأت من غزل شعراء البادية قصص تعرف بقصص الحب العذرى . ومن بين المؤلفين الكثر فى موضوع الحب والمحبين ممن يذكرهم "الفهرست" أعلام من اللغويين كهشام الكلبى والهيثم بن عدى . ورمى عرب آخرون بسهم فى أدب اللهو هذا ، ومنه النوادر ، وهى مصنفات فى الحكايات كان من بين مؤلفيها الكسائى أحد لغويى الكوفة ، وأبو عبيد أحد علماء البصرة ، ومنه كذلك قصص القيان التى دخلت من بعد بمختلف صورها فى كتاب الأغانى للأصبهانى (القرن الرابع) .

وتأصل النزاع بين التراثين العربى والفارسى حتى مس الجذور . فلم يكن جوهر النزاع مسألة سطحية تتناول الأساليب والأشكال الأدبية ، إنما كان جوهره يتناول الوجهة الثقافية للمجتمع الإسلامى الجديد برمتها - أى هل تكون الثقافة المرجوة إحياء للثقافة الفارسية - الآرامية القديمة بحيث تبتلع العناصر العربية والإسلامية ، أو تكون ثقافة تحتل فيها المآثر الفارسية - الآرامية منزلة ثانوية بالنسبة للمآثر العربية والقيم الإسلامية؟

وكان كلما ازداد وعى الفريقين بالتنافس فيما بينهما ، ازداد تمسك كل منهما بوجهة نظره . وحمى وطيس الروح الحزبية عند كلا الفريقين . فلم يكن هدفهم تقويض الدولة الإسلامية ، بل إعادة تشكيل نظمها الاجتماعية والسياسية والروح الداخلية للثقافة الإسلامية على مثال النظم والقيم الساسانية التى كانت تمثل فى نظرهم ذروة الحكمة السياسية (١) .

وبلغت حملات الكتاب على العرب ذروتها فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . قد صار الموقف يعرف باسم الشعوبية ، وإن كنا لا نعرف هل أطلق عليهم هذه التسمية أتباعهم أو خصومهم . على أن التسمية لم تكن جديدة ، بل كانت ، كما يحدث غالبا ، تسمية قديمة تلبست معنى جديدا . فالشعوبية فى الأصل هم الخوارج الذين ذهبوا لأسباب دينية ينكرون أن يكون بين الشعوب والقبائل أى تفاضل فطرى ، وعارضوا دعوى قريش ، بصفة خاصة ، فى أن تكون الخلافة حقا أصيلا فيها . وحين

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام : جولد زيهر - ترجمة د . محمد يوسف موسى ، د . على حسن عبد القادر ، عبد العزيز عبد الحق .

أنكر الشعوبية الخوارج أفضلية العرب ، أنكروا كذلك الإقرار بأى أفضلية للفرس ، بينما نادى شعوبيو القرن الثالث بأفضلية الفرس (أو غيرهم من الأمم غير العرب) على العرب ، ودافعوا عن دعواهم بحجج اجتماعية وثقافية لا دينية . بيد أنه ليس لدينا شاهد على الإطلاق يدل على أن مؤسسى مدرسة الكتاب وزعماءها الأول ، كعبدالحميد أو حتى ابن المقفع ، كانوا شعوبيين بأى معنى من هذين المعنيين . وفى هذا الوقت كان قد ازداد الوعى بكل من قوة الحركة الشعوبية وما يكمن فيها من أخطار . وكانت قوتها تقوم على أن نتاجها الأدبى يستهوى جميع أصناف الناس ماعدا الفقهاء وعلماء اللغة . وتمخض صراع الأفكار والمصالح هذا عن ولادة أدب جديد ، وتصدى كل من الفريقين المتنازعين للآخر مستخدما أدبا نثريا جديدا [١] .

وكانت أخطار الحركة الشعوبية من الناحية الأخرى لا تكمن فى دعواها الوقحة ضد العرب ، فإن الثقافة الآرامية - الفارسية القديمة فى العراق مركز المانوية كانت لا تزال تحمل جراثيم ذلك الضرب من التفكير الحر الذى عرف " بالزندقة " ، ولم يتضح فحسب فى استمرار وجود الأفكار الثنوية فى الدين ، بل تجلى بصورة أوضح فى الاستهتار والاستخفاف بجميع المذاهب الخلقية وعرف باسم " المجون " [٢] .

لقد قامت الدولة العباسية على تحالف خراسان مع العراق ، وهما ولايتان كانت غالبية سكانهما (باستثناء الكوفة) من السنة . ثم إن الجهود التى كان يبذلها الخلفاء العباسيون لاسترضاء زعماء السنة وكسب تأييدهم معروفة جيدا . وكان سماحهم باتخاذ المراسيم الساسانية فى بلاطهم شيئا ، وتشجيع الكشف عن المشاعر المعادية للعرب شيئا آخر . وعندما حل القرن الثانى ، كان الارتباط الوثيق القائم من أول الأمر بين علوم القرآن وعلوم اللغة قد ازداد توثقا بتوسع الدراسات العربية عموما ، حتى أن الأدب العربى ، أى دراسة الأدب والثقافة قبل الإسلام ، أدمج بالعلوم الدينية إلى حد كبير . وفى الوقت ذاته ، كان انتشار الزندقة والتشكك قد أصبح يعتبر خطرا على الدولة جسيما حتى أن المهدى ، الذى يعد فى الغالب من محبى الفرس ، اضطر إلى محاربة الزندقة ومطاردة أهلها . وعندما قامت ثورة الخرمية على سلطان أهل السنة وقف زعماء الخراسانيين ضدها ، ولم يكونوا يقلون عن الخلفاء تحسبا منها وتوجسا . وإذن فإن عنف الدعوة الشعوبية ، كلما اشتد ، أصبح يعنى أن المشاعر العدائية للعرب موجهة ضد الإسلام نفسه .

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام : ص ٢٥٠ .

(٢) الزندقة والشعوبية - سميرة مختار الليثى .

ولم تكن الزواجر السلبية التى اتخذتها الدولة كافية للقضاء على الشر فى مهده ، فأصبح العثور على علاج أكثر إيجابية ضرورة لازمة . وبالرغم من أن معارفنا الحالية قد تجعل التقدم برأى فى الموضوع من قبيل المجازفة ، فقد نقول إن هذا التحدى الدينى والفكرى والاجتماعى أدى إلى قيام حركة داخل السنة - متصلبة عقلانية انبثقت المعتزلة عنها فيما بعد . وسبق لبشر بن المعتمر المعتزلى فى القرن الثانى أن حاول نشر تعاليمه ، فنظمها شعرا تفهمه عامة الشعب . ونحن مدينون كثيرا للدراسات التى قام بها ميشا لانجلو جويدى ، لأنها عرفتنا أن المعتزلة الأول كانوا فريقا من السنة متطرفا فى معارضته لزندقة الثنوية ، وأنهم اضطروا كى يحققوا مهمتهم إلى اتخاذ أسلحة من الجدل أقوى إقناعا من الاحتجاج بالوحى ، وأبلغ أثرا من تهديد السلطات المدنية (١) .

والذى حدث فى داخل الدولة العباسية فى ظهورها الأول والثانى : أن التيارات الهدامة لمقومات الأمة العقدية والمضاربة كالمزدكية والمانوية والخرمية والقرامطة وحركة الزنج والباطنية ـ بدأت تظهر بمخططاتها تحمل شعار مقاومة السلطة الرسمية والوقوف بجانب المظلومين . . وحين تبينت الجماعة الإسلامية بأن هؤلاء هم الملاحدة تضامن العلماء للرد عليهم (٢) .

وبعض من الفرق الإسلامية رفع شعار تقديس الأئمة وإسباغ الصفات الإلهية عليهم .

ووجدوا ضالتهم فى المنطق والجدل الإغريقيين ، وفى رسائل الجدليين النصارى الأولى ، واستعانوا بها لدحض المعتقدات الوثنية . وليس من قبيل المصادفة المحض إذن أن تنشط ترجمة كتب الفلسفة والمنطق الإغريقية نشاطا كثيرا فى أوائل القرن الثالث . ومن الصعب أن نتصور أن المأمون أسس بيت الحكمة بدافع من رغبته الشخصية فى الفلسفة اليونانية . وأقرب إلى المنطق أن نقول إنه اقتنع بأن الترجمة ستمده بوسائل جد ملائمة تعينه على أن يطهر الإسلام من بقايا زندقة الثنوية(٣) .

وقد أطلق على هؤلاء الناس اسم الزنادقة ، وهى كلمة كانت تدل على معان مختلفة فى الأزمنة المتباينة . ففى بادئ الأمر كانت تطلق على الذين اعتنقوا الآراء الفارسية ، وأخيرا كانت تدل على أتباع الديانة المانوية . ومع ذلك فقد اتسع مدلولها شيئا فشيئا حتى أصبحت مرادفة لكلمة ملحد ، أى لا يعتد بالدين (٤) .

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) تاريخ الإلحاد والزندقة فى الإسلام - عبدالرحمن بدوى .

(٣) تاريخ الإلحاد والزندقة فى الإسلام - عبد الرحمن بدوى .

(٤) الزندقة والشعوبية - سميرة مختار الليثى .

٣ ــ الزنـــــدقـة

(١) مفهوم الزندقة :

ترددت ألفاظ (زندقة) و (زنديق) و (زنادقة) كثيرا على الألسنة فى العصر العباسى الأول ، وشغلت الأذهان ، وكانت مدار الحديث فى المجالس الاجتماعية والثقافية ، فضلا عن انشغال الخلفاء العباسيين بالقضاء على حركات وثورات الزنادقة(١) .

و إذا بدأنا بما جاء فى المعاجم عن الزندقة ، نجد الجوهرى يقول فى الصحاح : " الزنديق من الثنوية ، وهو معرب ، والجمع الزنادقة ، وقد تزندق ، والاسم : الزندقة . وجاء فى لسان العرب : " الزنديق القائل : ببقاء الدهر . فارسى معرب (زندكر) أى يقول ببقاء الدهر ، وقال أحمد بن يحيى : ليس فى كلام العرب زنديق ، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة ، قالوا ملحد ودهرى (٢) .

فى الأساس : فلان شعوبى ومن الشعوبية ، وهم الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم فضلا على غيرهم : والشين مضمومة . وفى التاج : قال ابن منظور : وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبى(٣) .

ويرى الجاحظ أن الزنادقة هم الشعوبيون ، أعداء العروبة والإسلام ، فيقول : " فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية ، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلاتزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هى التى جاءت به وكانوا السلف " (٤) .

(١) تاريخ الغزوات الثقافية فى بلاد الإسلام – فون كريمر – تعليقات خودا بخش .

(٢) ضحى الإسلام – أحمد أمين .

(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : آدم ميتس – ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة مع المصادر الأصلية .

(٤) البيان والتبيين : ج ٣ ص ١٤ .

كما يرى الجاحظ (١) أيضا أن الشعوبية تؤدى إلى الزندقة ، وإلى الخروج على تعاليم الإسلام وقيمه الروحية ، فيقول : " ثم إنك لم تر قوما أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة " .

أما السيد المرتضى ، (٢) فيرى أن الزنادقة هم أعداء الإسلام ، وقد تظاهروا باعتناقه ليكيدوا له ، فيقول : " فقد نشأ جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ، ويحقن بإظهار شعاره والدخول فى جملة أهله ، دمه وماله ، زنادقة ملحدون . وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ ، لأنهم يوغلون فى الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأى جامع ، فصل من قد أمن الوحشة ووثق بالأنسة بما يظهره من لباس الدين هو منه على الحقيقة عار " .

ويرى الثعالبى (٣) أن الزنادقة هم من تظاهروا بالظرف ، فيقول : أما قولهم أظرف من زنديق ، فقد صار مثلا فى زمان كثر ظرفاؤه وهو زمان المهدى ، وكانوا يرمون بالزندقة كصالح بن عبد القدوس ، وبشار ، وحماد الراوية ، وحماد عجرد ، ومطيع ابن إياس . وما منهم فى الظاهر إلا نظيف البزة جميل الشكل ظاهر المروءة .

وينتهى دكتور / أحمد أمين (٤) إلى أن كلمة الزندقة لم تكن ذات معنى واحد ، وإنما كانت تطلق على معان أربعة . أولها : التهتك والاستهتار والفجور مع تبجح فى القول ، يصل أحيانا إلى ما يمس الدين ، ولكن قائله لم يقله عن نظر ، وإنما قاله عن خلاعة ومجون . وثانيها : اتباع دين المجوس ، وخاصة دين مانى مع التظاهر بالإسلام ، كالذى اتهم به الأفشين ، والذى اتهم به بشار وحماد وابن المقفع . وثالثها : أتباع دين المجوس وخاصة مانى ، من غير التظاهر بالإسلام ، كالذى يرويه الجاحظ عن كتب الزنادقة . أما الفئة الرابعة من الزنادقة ، فهم الملحدون الذين لا دين لهم (٥) . ثم يروى الكاتب أن كلمة (زنادقة) كانت تطلق على من اعتنق المانوية باطنا

(١) البيان والتبيين : ج٣ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) أمالي السيد المرتضى : ج١ ص ١٢٧-١٢٨ .

(٣) الثعلبى : ثمار القلوب ص ١٢٨-١٢٩ .

(٤) ضحى الإسلام .

(٥) الزندقة والشعوبية - سهير الليثى .

والإسلام ظاهرا ، ثم توسعوا فى معناها فأطلقوها على الإباحى والملحد الذى لا دين له .

أما الدكتور / طه حسين (١) ، فيرى أن الزندقة فى مطلع العصر العباسى هى " ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص " . ويرى أيضا أنها ضرب " من الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم ، وما ذاع فيها من عقيدة دينية . . فإذا استطاع محب اللذة والمسرف فيها أن يخرج على أصول الإسلام، فيستمتع بلذته فى غير حرج ولا جناح ، فهو مضطر بحكم الطبيعة الإنسانية إلى أن يدفع عن مسلكه ، ويلتمس الحجج والأدلة ، أو التعللات والمعاذير ، يحسن بها سيرته . وقصد ذلك هؤلاء (الزنادقة) ، فوجدوا ما كانوا يحتاجون إليه فى حياة الفرس وما شاع فيها من البدع ، واستحالوا إلى شىء آخر من نصرة اللذة ، وهو التعصب على الإسلام . . . ومن هنا آثروا النار التى يعبدها الفرس ، ويردون إليها كل شىء ، على الطين الذى ترد إليه الديانات السامية على أصل الإنسان والحيوان ، ومن هنا آثروا التثنية الفارسية على التوحيد الإسلامى " .

(٢) الشعوبية والزندقة :

ونستطيع أن نقسم الزنادقة الذين ظهروا فى العصر العباسى الأول إلى طائفتين متميزتين رئيستين : هم الشعوبيون والمجوس ، وبذلك نحصر معنى الزندقة فى هذا العصر فى تحديدين . فالزندقة هى سلاح من أسلحة الشعوبيين موجهة ضد العرب وعقيدتهم ، وهى أيضا محاولات لإحياء العقائد المجوسية التى تعبر فى الوقت نفسه عن القومية الفارسية (٢) .

ومن ذلك ما حكاه أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب " الأغانى " فى أخبار سعيد بن حميد البغدادى الكاتب الشاعر المشهور أن أباه كان وجها من وجوه المعتزلة ، فخالف أحمد بن أبى داود فى بعض مذهبه ، فأغرى به المعتصم ، وقال إنه شعوبى زنديق ، فحبسه مدة .

أما الطائفة الأولى ، أى جماعة الشعوبيين ، فقد تعصبوا تعصبا أعمى ضد العرب وأرادوا الكيد لهم ، ووجدوا أن خير سبيل إلى ذلك هو الكيد للإسلام ، فكانت حركات الزنادقة . وفى ذلك يقول ابن حزم (٣) : " إن الفرس كانوا من سعة الملك

(١) حديث الأربعاء : ج٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الزندقة والشعوبية - سهير الليثى .

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل ج٢ ص ١١٥ .

وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة " .

ويذكر ابن قتيبة أن الشعوبية كانت تدفع أصحابها إلى الغلو فى القول ، وإلى الإسراف فى الذم ، وأنها " تكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف ، وتغض من النبى - صلى الله عليه وسلم – إذا ذكر بالشيء وتطرق منه على القذى وبعد عن الله بعدها ممن قرب واصطفى " .

أما التظاهر بالظرف ، أو الإقبال على الملذات والحرمات ، أو الجهر بالفسق والمجون والخلاعة ، فهى فى رأينا سبل متعددة سلكها هؤلاء الشعوبيون للكيد للإسلام . وكانت الشعوبية هى الدافع الأساسى إذ كانت تعاليم الزنادقة تبعد تماما عن تعاليم الإسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من التعاليم الفاسدة التى تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية ، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للانهيار (١) .

وإلى جانب الكيد للإسلام ، اتخذ الشعوبيون سبلا أخرى متعددة للكيد للعرب ، مثل وضع الكتب فى مثالب العرب وإحياء التراث الفارسى ، وتمجيد الفرس وهجاء العرب ، وغيرها من الوسائل التى سنعددها فى فصول البحث .

كما اعتبر الخلفاء العباسيون الزنادقة خارجين على طاعة الدولة ، وثوارا سياسيين ، فقد عملوا على إحياء الدولة الفارسية المجوسية البائدة، والقضاء على الدولة العباسية الإسلامية . ولما كان الزنادقة يحاربون الإسلام ، فإنهم بالتالى لا يخضعون لدستور الإسلام ، وهو القرآن الكريم ، وهو دستور الدولة العباسية ومصدر قوانينها ونظمها وتقاليدها(٢) .

وهكذا كانت الشعوبية حركة شاملة ، يصفها الدكتور الدورى (٣) بأنها حركة يتضح فيها العداء للعروبة حينا وللإسلام حينا ، وترى جهدها فى كل حقل لثل السلطان القائم وهو فى أساسه عربى ، ولإضعاف الإسلام الذى حمل العرب رسالته قبل غيرهم .

---

(١) الخربوطلى : المهدى العباسى ص ١٥٨ .

(٢) الخربوطلى : المهدى العباسى ص ١٤٧ .

(٣) الجذور التاريخية للشعوبية : ص ١٢٠ .

(٣) الزندقة والمانوية :

وقد كانوا يعتنقون مذهب الثنوية الدينى ، ويعبدون إلهين ، ويتبعون تعاليم مانى . وكان الناس يذكرون عنهم أنهم يعبدون رأسا إنسانية [1] ، وهذه الأشياء كافية فى نظرنا جدا لاعتبار الزنادقة الأول هم المانوية ، ولكن لدينا دليلا أوضح على هذا الرأى ، فإننا نجد فى كلام واحد من أقدم الكتاب العرب وصلتنا مؤلفاته عبارة مهمة جدا يتكلم فيها على كتب الزنادقة الدينية ويذكر محتوياتها ، وكل ما يذكره عنهم يتفق كل الاتفاق مع ما نعرفه عن مبادئ المانوية الدينية وأوامرهم من المصادر الأخرى . وهذه العبارة التى بقيت مجهولة حتى الآن هى كما يلى [2] :

« قال إبراهيم السندى مرة : وددت أن الزنادقة لو يكونوا (كذا) حرصى على المقالات بالورق النقى الأبيض ، وعلى تحلل الحبر الأسود المشرق البرق ، وعلى استجادة الخط والإرغاب لمن يخط ، فإنى لم أر كورق كتبهم ورقا ولا كالخطوط التى فيها خطا . وإذا غرمت مالا كثيرا مع حبى للمال وبغض الغرم كان سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليلا على تعظيم العلم . وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سكر الآفات . قلت لإبراهيم : إن إنفاق الزنادقة على كتب حكم وكتب فلسفة وكتب مقاييس وسنن نبيين وتبيين ، أو لو كانت كتبهم كتبا تعرف الناس أبواب الصناعات أو سبل التكسب والتجارات ، أو كتب ارتفاقات ورياضيات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب ، وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مأثم ، لكانوا ممن قد يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان والرغبة فى التبيين . ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، فإنما إنفاقهم فى ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار ، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب أو كإنفاق الهند على سدنة البددة ولو كانوا أرادوا العلم لكان العلم لهم معرضا ، وكتب الحكمة لهم مبذولة والطرق إليها سهلة معروفة ، فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب ديانتهم كما يزخرف النصارى بيوت عبادتهم . ولو كان هذا المعنى مستحسنا عند المسلمين ، أو كانوا يرون أن ذلك داعية إلى العبادة وباعثة على الخشوع ، لبلغوا فى ذلك بعفوهم ما لا تبلغه النصارى بغاية الجهد . وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ، ومن رآه فقد علم أن أحدا لا يرومه وأن الروم لا تسخو أنفسهم به . فلما قام

---

(١) الأغانى : ج ١٣ ص ٧٤ ، ٧٦ .

(٢) الجاحظ : كتاب الحيوان : ج١ ص٢٨-٣٠ (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) .

عمر بن عبد العزيز جلله بالجلال وغطاه بالكرابيس، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق، وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام، وأن ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع، وأن البال لا يكون مجتمعا وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه .

والذى يدل على ما قلنا إنه ليس فى كتبهم مثل سائر، ولا خبر ظريف، ولا صنعة، أدب ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحة، ولا تدبر حرب، ولا منازعة عن دين، ولا مفاضلة عن نحلة وجل ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد والتهويل بعمود الصبح والإخبار عن شقلون وعن الهامة وهدروعى وخرافة وسخرية وتكذب لا ترى فيه موعظة حسنة ولا حديثا مونقا ولا تدبير معاش ولا سياسة عاملة ولا ترتيب خاصمة . فأى كتاب أجهل وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس إلا طاعة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين . والناس لا يحبون إلا دينا أو دنيا . فأما الدنيا فإقامة سوقها واستمالة الخاصة أن يصور فى صورة مغلطة ويموه تمويه الدنيا والبهرج والذرهم الذى لا يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقة القليل، فليس إنفاقهم عليها من حيث ظننت، وكل دين يكون أظهر فسادا احتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليط فيه إلى أكثر . وقد علمنا أن النصرانية، أشد انتشارا من اليهودية تعبدا حسب ذلك يكون تزيدهم فى توكيده واحتفالهم فى إظهار تعليمه » .

ومن هذه العبارة التى ذكرها العالم العربى، نستنتج على وجه اليقين أن كتابات الزنادقة التى يتكلم عنها ليست إلا كتابات المانوية الدينية . والأدلة على ذلك ثابتة إلى أبعد الحدود . فهو يقرر أن من الصفات الخاصة بكتابات المانوية الزخرفة الفخمة والتفنن . ويقول "أوجستن" عند كلامه على كتابات المانوية : ما أكثر كتاباتهم وما أعظمها وأنفسها [1] ، ولا يزال كتاب مانى (إنجيله) مضرب الأمثال بين الفرس لفخامته وزخرفته . على أن الأمر الحاسم إلى درجة أبعد هو أن ما قاله الجاحظ عن محتويات كتب الزنادقة الدينية يتفق كل الاتفاق مع ما يذكره لنا صاحب الفهرست الذى عاش بعد الجاحظ بمائة سنة عن محتويات كتاب المانوية الدينى، وبخاصة الجزء منه الذى يتناول الكلام على خلق الإنسان وتاريخه الأصلى، فهنا نجد أيضا جميع مصطلحات تعاليم مانى الخاصة مثل صنديد (عامر الصبح). . . . إلخ . ولا شك أن

(١) Flugel, Mani P385 .

كتب المانوية الأصلية كانت فى متناول الجاحظ ، ومن المحتمل كل الاحتمال أنه كانت لديه ترجمة عربية منها . ومما يدل دلالة واضحة على أن تعاليم المانوية كانت معروفة فى ذلك الوقت معرفة جيدة جدا ، وكانت محلا للعناية والتقدير ، أن كاتبين مشهورين مثل الجاحظ وابن النديم (صاحب الفهرست) ذكراها بصراحة ، وأن الأول يوازن بين دين المانوية وبين المسيحية واليهودية . وعلى أى حال فإن ركون المانوية إلى زخرفة كتبهم وتجميلها يدل على أنهم لم يكونوا فقراء ، ولم يكن هناك من الأسباب ما يدعوهم إلى التخفى . ويبدو لنا أن الديانة المانوية كانت تشمل أمورا كثيرة جذبت الناس إليها ، فهى بإدخالها الأفكار المسيحية والمجوسية فى نظامها الدينى ، استمالت بقوة كلا من المسيحيين والمجوس ، كما أن شكل العبادة الظاهرى بها كان قريبا من الإسلام إلى حد عجيب فقد كان واجبا أيضا .

ونظرا للحقائق التى استشهدنا بها : يجب التسليم بأن النظام الفلسفى الفارسى والعربى المعروف باسم التصوف من أصل هندى . على أنه لا يمكن الشك بصفة جدية فى أن أفكارا دينية مسيحية بل ومانوية كثيرة قد تسربت إليه . ويرجع أصل التصوف العربى الأول المعروف بنزعته الصادقة إلى الزهد إلى المسيحية إلى حد كبير . ولكن التصوف المتأخر فى الزمن الذى لا يراعى إلى حد ما العقائد الإسلامية بل ويعتبر إلحادا يشمل على العكس من ذلك آراء الأفلاطونية الحديثة وكثيرا من العناصر الهندية (١) .

وهكذا نستطيع أن نقرر بدرجة من التحديد التغيرات المختلفة التى اعترت تراث الإسلام بتأثير الأفكار الأجنبية . فالمسيحية أولا أدت إلى نمو عناصر الزهد ، ووضعت أساس علوم الدين فى الإسلام ودراسات المدارس الإسلامية التى نمت فيما بعد نموا كبيرا . وكانت المانوية التى تمتعت بأيام من العز الشامل فى عهد المأمون عامل هدم خالص ، إذ إنها أوجدت وتعهدت الاستهتار والإلحاد الدينى بين المسلمين إلى حد أن لفظ الزنديق أصبح مرادفا لحر التفكير والكافر ، وقد دخلت فكرة المسيح إلى الإسلام فى أيامه الأولى من اليهودية ولعبت دورا مهما بين الشيعة . ومن الواضح أن فكرة العصر الألفى ، أى الألف عام التى سيملك فيها المسيح على الأرض ونظرية البعث ، تمت على العكس من ذلك إلى المسيحية . وقد أنتجت هذه المثيرات الدينية حركة فكرية حرة وأيقظت بين المسلمين الرغبة فى دراسة الثقافة الأجنبية ، حتى أنه فى فترة قصيرة جدا أصبحت كثير من مؤلفات المفكرين الإغريق فى متناول العرب بفضل الكتب المترجمة إلى العربية .

---

(١) تاريخ الغزوات الثقافية فى بلاد الإسلام : فون كريمر - تعليقات - خدابخش .

وقد أصبحت فلسفة أرسطو عونا لعلم الكلام فى الإسلام لا يستغنى عنه. ومن جهة أخرى عرفت كتابات " الأولين " العرب بمؤلفات المدرسة الأفلاطونية وعلى الأخص فى شكلها الأفلاطونى الحديث، وبتأثيرها تكونت مدرسة جديدة أصبحت منافسة لفلسفة أرسطو. وهذه المدرسة الفلسفية التى كان أتباعها يلقبون " بالإشراقية "، وجدت فى السهروردى الذى جعل له موته المحزن صيتا بعيدا أعظم بطل لها.

وقد أدخلت البوذية ونظريات مدرسة الفدنته فكرة وحدة الوَجود التى كانت لها شهرة زائدة دائما فى الأقاليم الشرقية بصفة خاصة، وهى الهند وفارس بل وآسيا الصغرى، وأوجدت عددا من طوائف الدراويش.

يقول فون كريمر: وقد يكون من الخطإ الفاضح الزعم بأن إدخال مثل تلك الاصطلاحات يمكن أن يحطم دين القرآن، فهو والحق يقال أثبت وأرسخ فى قلوب الناس من هذا، والأمل كبير فى أن يخرج من هذا الصراع أكثر قوة وأشد طهارة وصفاء.

وكلما ازدادت القوة الدافعة للمسلم إلى أن يتعلم كيف يهيئ نفسه لحاجات الزمن ويتعلمها بحق عن الأوربيين الذين لم يعد ينكر الاعتراف بتفوقهم الكبير كلما زاد اقتناعه بالسير فى الطريق الصحيح طريق الحياة العملية التى أبعدته عنها التخيلات الخرافية والصوفية والتأملات الدينية [1].

(٤) الزندقة دعوة مناقضة للإسلام :

ولكن حركات الزنادقة اتفقت جميعا فى أنها تهدد الدين الإسلامى، فهى تدعو أحيانا إلى آراء تخالف تعاليم الإسلام، وتعارض أحيانا أخرى قيمه الروحية ومثله العليا، مما جعل الخلفاء العباسيين والمسلمين الأتقياء يقفون من الزنادقة موقفا حازما حاسما دفاعا عن دينهم الحنيف.

كما اعتبر الخلفاء العباسيون الزنادقة خارجين على طاعة الدولة، وثوارا سياسيين، فقد عملوا على إحياء الدولة الفارسية المجوسية البائدة، والقضاء على الدولة العباسية الإسلامية، ولما كان الزنادقة يحاربون الإسلام، فإنهم بالتالى لا يخضعون لدستور الإسلام. وهو القرآن الكريم، وهو دستور الدولة العباسية ومصدر قوانينها ونظمها وتقاليدها.

(١) تاريخ الغزوات الثقافية فى الإسلام – تعليقات – خدا بخش.

(٥) من دعاة الزندقة :

ومن الدعاة الذين نتهمهم بوضع أسس الزندقة : خداش ، وهو من أوائل الدعاة العباسيين ومن أقدمهم عهدا بهذه الدعوة . وقام بمجهود لنشر الدعوة فى خراسان سنة ١١٨ هـ وهى السنة التى قتل فيها . ويصفه (فلهوزن) بأنه " المؤسس الحقيقى لشيعة بنى العباس فى مرو " . وقد أصبح الدعاة النقباء الذين بعثهم محمد بن على العباسى أكثر تعلقا بخداش منهم بمحمد بن على . ويقول فلهوزن عن خداش : إن الخميرة أو الطعم الذى رمى به بين مبادئ حزب الشيعة هو مذهب الخرمية . ولا شك أن الحزب الذى نشر مبادئه خداش وتزعمه كان هو حزب الهاشمية ، أما الخرمية فلم تكن حزبا بل كانت نزعة وإباحية عامة .

وكان الخرمية يريدون أن يجعلوا للطبيعة وللمرح مكانهما فى الدين ، وهم فى ذلك يصلون مذهبهم بالديانة الوثنية التى كانت فى بلاد العجم من قبل . ويجوز أنهم كانوا إلى جانب ذلك متأثرين بمبادى اجتماعية كانت تلائم ما يطمح إليه الموالى أحسن ملاءمة .

ويؤكد (فلهوزن) الصلة بين خداش أول دعاة العباسيين ، وبين عقائد الزندقة ، فيقول : " إن الخرمية ، والراوندية قد جددت الدعوة إلى الشيوعية فى النساء ، وهى الشيوعية التى كان مزدك قد دعا إليها من قبل . وعلى هذا ، فإن مما يمكن تصديقه كل التصديق أن يكون خداش لم يحارب هذا الاتجاه الشيوعى ، بل أن يكون قد أيده واستفاد منه " .

وحملت الخرمية راية الثورة المسلحة ، وانتشرت دعوتها فى فارس ، وكانت تمثل فى الحقل الاجتماعى شيوعية مزدك ، وفى الحقل الدينى والسياسى ضرب الإسلام وإعادة السلطان إلى الفرس . وقد حاولت الخرمية الاستتار بأن اتخذت من بعض مبادئ الغلو سبيلا للظهور بمظهر إسلامى .

وحركات الزندقة التى كانوا ينفثونها من حين لآخر أخمدت فى قوة ، وإن كانت قد تركت أثرا ضئيلا . كما أن سعى بعضهم لإحلال اللغة الفارسية محل العربية لم يصادف آذانا صاغية ، وظلت اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وهى لغة الدين ولغة العلم وأقبل الموالى على تعلمها وإجادتها إجادة تقترب من إجادة أهلها .

٤ ـــ من فرق الإلحاد والزندقة : حركة بابك والمزدكية

ابتدأت حركة البابكيين فى صيف سنة ٨١٦ أو ٨١٧ على حدود جمهورية آذربيجان الحاضرة التابعة لمجموع الجمهوريات الروسية أو بالأحرى الداخلة فيه ، أو على حدود آذربيجان وأران بيلقان القديمة حيث كانت مدينة بذا وبذين مركز أركانهم الحربى [١] الواقعة فى القرب من نهر أراكس أو الرس كما كانت تسميه العرب . ثم أخذت هذه الحركة تقوى وتمتد بسرعة نادرة حتى عمت ، كما يستفاد من كلام المسعودى ، " نواحى أصبهان والبرج وكرج أبى دكف والزز بن زز معقل وزز دلف ورستاق الدرستجان وقسم وكوذشت من أعمال الصيمرة من مهرجان قذق وبلاد السيروان وأربوجان من بلاد ماسبذان وهمذان وماه الكوفة وماه البصرة وآذربيجان وأرمينية وقم وقاشان والرى وخراسان وسائر أرض الأعاجم " [٢] فكان عدد من انضم تحت ألويتهم الحمر نحو ثلثمائة ألف مقاتل من آذربيجان والديلم فقط [٣] .

فلما شعروا بقوتهم ، هبطوا من الجبال وأخذوا يزحفون إلى البلاد المجاورة ويضمون إليهم جميع المستائين وحكومة بغداد لاهية عنهم أو غير قادرة على إيقافهم عند حدود معلومة ، لأنها كانت مشغولة وقتئذ بإخماد الثورات التى ظهرت فى مصر والعراق وبلاد العرب ، ورد هجمات الروم من الشمال كما ذكرنا سابقا ، ولهذا لم تلتفت إليهم إلا فى سنة ٢٠٤ (٨١٩) أى بعد ثلاث سنوات من ابتداء الحركة ، فأخذت تبعث عليهم الجند وهم يمزقونها ويأسرون بعضها ويقتلون قوادها إلى أن دخلت سنة ٣١٢ (٨٢٠) .

ذكر الطبرى فى كلامه عن حوادث (٨٢٠) ما حرفه : " نكب بابك بعيسى بن محمد [٤] " . وذكر بين حوادث (٢٠٩) : " ولى المأمون صدقة بن على المعروف

(١) قال ياقوت الحموى : " وفيه (أى فى بذين) تعقد أعلام المحمرة المعروفين بالخرمية " ج٢ ص٥٢٨ .

(٢) كتاب التنبيه والإشراف : ص ٤٥٣ .

(٣) كتاب الفرق بين الفرق : ص ٢٦٨ .

(٤) انظر تاريخه : ج ١٠ ص ٢٥٥ و ٢٦٩ .

بزرديق أرمينية وآذربيجان ومحاربة بابك فأسره بابك، فولى إبراهيم بن الليث بن الفضل التجيبى آذربيجان " . وقال عن حوادث سنتى ٢١٢و٢١٤ : " وجه المأمون محمد بن حميد الطوسى إلى بابك لمحاربته عن طريق الموصل وتقويته إياه . . وقتل محمد بن حميد الطوسى، قتله بابك بهشتاد سر يوم السبت . . . وفض عسكره وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه . " فكان لهذا الانكسار وقع شديد على المأمون وحكومته، وبعض قواد الجيش الخليفى الذين ابتدءوا يترددون من ذلك اليوم فى إخلاصهم لخليفتهم، ويفكرون فى الانضمام إلى بابك ، نذكر منهم على سبيل المثال على بن هشم الذى اطلع على خيانته عميرة بن عتبة فقبض عليه وسلمه إلى الخليفة، ولولا ذلك للحق ببابك وهو يومئذ صاحب الأمر والنهى فى أكثر الأقاليم الفارسية حتى صار الناس يخشون بأسه ويطلبون وده حتى فى العراق بل فى بغداد نفسها، فصار يخشى منه على الدولة والدين.

قال المسعودى يصف حالة البلاد فى تلك الأيام العصيبة : " ثم حمل الرأس (رأس بابك) إلى مدينة السلام، وحمل إلى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها، لما كان فى نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها» (١) .

فكان من نتائج هذه الانتصارات الباهرة التى نالها بابك فى السنين الماضية أن دخل اليأس قلوب العساكر الخليفية وقوادها، فلم تعد تثق بنفسها ولم يعد الخليفة يثق بها ، فلم يبق لديه إلا أحد أمرين : إما أن يترك البلاد لعدوه ، وإما أن يسرح جنوده القديمة التى لم تعد تصلح للقتال، ويحشد جيشا جديدا تحت قيادة أشهر قواده وأعظمهم خبرة فى شئون الحروب الجبلية ليبث فيه روحا جديدة ويدربه على قتال أعداء الدولة ونظامها الاجتماعى فى جبالهم الوعرة . وهذا ما استقر عليه رأيه وأخذ يعمل على تحقيقه ولو لم يتوفه الله بغتة لأتمه بنفسه .

توفى المأمون وفى قلبه حسرة مما أصابه من الفشل فى حروبه مع بابك، ومن خوفه على زوال دولة كان من أعظم خلفائها . فلما شعر بدنو أجله، دعا إليه أخاه المعتصم وألح عليه أن يداوم على حرب البابكية بحزم وصرامة وجلد . ثم أشار عليه أن يمد عامل آذربيجان " بالأموال والسلاح والجنود من (٢) الفرسان والرجالة " ، وأن يتجرد له بمن معه من الأنصار والأولياء إن طالت المدة (٣) .

(١) تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام: بندلى جوزى ج٢ ص٣٥٢طبع١٣٤٦ .

(٢) الطبرى: ج ١٠ ص ٢٩٤ . (٣) الطبرى: ج ١٠ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

فلما تولى المعتصم زمام الملك، رأى من الحكمة أن يعقد هدنة مع إمبراطور الروم، ثم استدعى من إفريقيا حيدر الأفشين بطل برقة وسلمه قيادة الجيش وتدريبه على الطرق الجديدة التى اقتضتها الحروب الجبلية، وأمره أن يستعد للزحف على العدو، فأخذ حيدر يهيئ ما أمره به سيده، وبينما هو فى ذلك، إذ جاءته الأخبار أن إسحاق بن إبراهيم بن مصعب أحد قواد الخليفة المخلصين والمعروفين بالعزم وإصابة الرأى، كسر جيش بابك(١) واضطر فلوله إلى الهرب إلى بلاد الروم حيث تنصروا ودخلوا فى خدمة إمبراطور القسطنطينية. إلا أن هذه الضربة لم تكن بالضربة القاضية على بابك وجيشه، لأن القسم الأكبر من عساكره كان مقيما فى آذربيجان أو على الأصح فى أران، حيث كان مركز الجيش العام وأركان الحرب، وعليه كان فى وسع بابك أن يلم شعثه ويجمع قواه قبل أن يفاجئه الأفشين بجيوشه الجديدة، إلا أن القائد التركى لم يمهله ذلك، بل زحف عليه فى ٢٨ من جمادى الأولى (غرة تموز سنة ٨٣٥) على رأس جيش كبير مؤلف من أتراك وبرابرة ومتطوعة البصرة والعراق، وأخذ يقترب من عاصمة بابك التى اعتصم بها هو وأكثر جيشه، ويسير عليه كل يوم من مدينة برزند - وهى المدينة التى بناها فى الجبال بالقرب من عاصمة بابك - الجند تلو الجند من خيالة ورجالة وكوهبانية وكلفرية وتفاطة.

مضى على وصول حيدر الأفشين إلى بلاد بابك أكثر من سنتين وهو يراقب فيهما خصمه ويتتبع آثاره ويتفهم طرقه الحربية حتى أدرك سر نجاحه، ووقف على مواضع القوة والضعف منه فأخذ يواقعه على أمل أن يظفر به ويقضى عليه وقد كاد يتم له ذلك فى موقعة أرشاق من عمل أران سنة ٨٣٦، إلا أن بابك أفلت منه وانسحب إلى صحراء موغان ومنها إلى هشتادسر حيث انقض فى العام الآتى على مقدمة جيش الأفشين التى كان يرأسها بغا الكبير، أحد القواد المشهورين ومزقها شر ممزق.

فلما بلغ الخبر أفشين، زحف بنفسه على بابك وأخذ يتعقبه حتى التقى به، فكانت بينهما موقعة انكسر فيها بابك، ثم لحق حيدر بأحد قواد المدعو طراخان فقتله وكسر جيشه. وكذلك فعل سنة ٨٣٧ بأذينه قائد بابك الثانى فكانت هذه الضربة الأخيرة أعظم الضربات على بابك وأصحابه، لأنه فقد فى الموقعتين الأخيرتين ميمنة جيشه وميسرته، فلم يبق عنده من العساكر إلا ما كان تحت قيادته، فاضطر أن ينسحب من ساحة الحرب، ويلجأ إلى قلعته فى بذين حيث أقام عدة أشهر يدافع عن نفسه وأصحابه دفاع الأبطال، إلى أن نفدت مئونته وخارت قواه، فاضطر أن يترك عاصمته ليلا

(١) الطبرى: ج ١٠ ص ٢٠٥.

ويحاول أن يدخل مختفيا بلاد الروم ليطلب مساعدة صديقه الإمبراطور ثيوفيل ، فخانته الأقدار ، بل خانه أحد بطارقة الأرمن سنباط بن منهل صاحب شكى الذى استأمنه بابك ، فقبض عليه وعلى أخيه عبد الله ومن كان معهما من الأهل والأصدقاء وسلمهم جميعا ، بعد أن أمنهم ، إلى رسول الخليفة ، فكان من أمرهم والتمثيل بهم ما هو معروف .

ذكر بعض المؤرخين (١) أنه لما انتشر خبر سقوط عاصمة بابك فى أيدى المسلمين ووقوع بابك فى الأسر (٢) ضج الناس بالتكبير وعمهم الفرح وأظهروا السرور " وصارت سكان بغداد وسامرا تتصافح فى الشوارع " . فكان ذلك من أعظم الفتوح فى الإسلام . ويوم قبض عليه كان عيدا للمسلمين . " فرفع المعتصم قدر الأفشين وتوجه وألبسه وشاحين منظومين بالدر والجوهر ، وسوره سوارين ووصله بعشرين ألف درهم ، وأمر الشعراء بمدحه وجعل صلتهم عنده " ولا غرابة فى ذلك فان بابك أراد كما يقول المسعودى " أن يزيل ملكا ويقلب أمة ويبدلها " .

ذكر المؤرخون أنه لما وصل بابك إلى بغداد أمر المعتصم فأنزلوه فى قصر الأفشين المعروف بالمطير ، ة وهناك زاره الخليفة متنكرا (٣) وعرض عليه بعض أسئلة لا أظنها إلا من مختلقات المسعودى الذى هو فى تاريخه أقرب جامع نكات وحكايات منه إلى مؤرخ صادق لا تهمه إلا الحقائق الثابتة ، وكأنى بالمعتصم أراد فى زيارته لبابك ليلا أن يرى بعينيه ذلك الرجل الذى كاد يقضى على دولته ، ويقيم على أنقاضها دولة جديدة أساسها العدل والإخاء والمساواة (٤) .

زار المعتصم عدوه الأكبر ثم عاد إلى قصره ، حيث كان ينتظره وزراؤه وقائد جيشه العام ، ليفكر معهم فى شر قتلة يقتلون بها أسيرهم الضعيف الذى كان يطلق أسراهم بالألوف ويعطف على نسائهم وأولادهم ، فلما جاء الصبح أخذت الناس تهرول إلى رأس الجسر ليروا " عدو الدولة والدين " مصلوبا هناك ، حتى إذا جن الليل أنزلوه عن الصليب ثم قطعوه إربا إربا وأرسلوا رأسه إلى سائر البلدان ، ثم جاءوا بأخيه وبعض أصحابه المقربين فقتلوهم صبرا بعد أن قتلوا عشرات الألوف فى بدين بصورة تقشعر منها الأبدان ، ثم لم يمض على ذلك زمن طويل حتى قبضوا على حيدر الأفشين وأودعوه السجن حيث مات مسموما لخيانة ظهرت منه .

---

(١) انظر كتاب البدء والتاريخ ٦ : ١١٨ ومروج الذهب للمسعودى وغيرهما .

(٢) كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رمضان سنة ٢٢٣ (٨٣٨) .

(٣) انظر تاريخ الطبرى : ١٠/ ٣٣٢ .

(٤) تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام : بندلى جوزى .

مات بابك فماتت معه حركته الاشتراكية فى آذربيجان وما يجاورها من البلاد، إلا أن الأفكار التى حاول أن ينشرها بين قومه ويحققها لم تمت بل بقيت تنتشر فى الخفاء، كما كانت تنتشر قبل ذلك، إلى أواخر الجيل الحادى عشر، فقد ذكر المقدسى - وهو من كتبة الجيل العاشر - أنه زارهم فى بلادهم ورأى بعينه " أن ليس فى بلادهم مساجد، وأنهم لا يقيمون أحكام الإسلام " . وقال أبو منصور البغدادى فى الجيل الحادى عشر إن البابكية «قد بنوا فى جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها لهم وهم يعلمون أولادهم القرآن لكنهم (١) لا يصلون فى السر ولا يصومون فى شهر رمضان ولا يرون جهاد الكفرة » (٢) .

تختلف حركة بابك الخرمى وأتباعه عن غيرها من الحركات الثورية السابقة بأمرين خطيرين : تنظيم الحركة والغاية التى كانت ترمى إليها . أما تنظيم الحركة، فيظهر أولا فى سرعة انتشارها وثبات أصحابها أمام عدوهم المسلح نحو اثنين وعشرين سنة، ثم فى إقبال الناس عليها إقبالا غريبا واشتراك عدد كبير فيها من الأمم المجاورة لبلاد الفرس، كالكود والأرمن والروم وغيرهم من قبائل ما وراء القوقاس الصغيرة اشتراكا فعليا يدل على اتفاق سابق وشعورقوى بالمصلحة العامة . وكان الغرض الذى ترمى إليه هو الانفصال عن الخلافة العباسية، وإقامة ممالك أو إمارات مستقلة من نوع مملكة بنى أمية فى إسبانيا وإمارة الأغالبة فى شمال إفريقيا . لذلك حاول بابك أن يقيم فى جبال قراطاج من الشعوب الإيرانية التى عجز خلفاء بنى العباس عن إدماجها فى الأمة العربية ودينها أو عن إيجاد طريق للتفاهم بينها وبين الأمة الغالبة .

تحالف بابك مع بيزنطة : يقول بندلى : لدينا من الأدلة ما يكفى لأن نفرض أن بابك وأتباعه بدءوا يفكرون بالخروج على خلفاء بغداد، ويهيئون للثورة أسبابها منذ أمد بعيد، وأنهم كانوا ينتظرون الفرص المناسبة للشروع فى العمل وإعلان الحرب على خصمهم الأكبر . نستدل على ذلك من المخابرات السرية بين بابك وإمبراطور بزنطية ثيوفيل (٨٢٩-٨٤٢) وسلفه (٣)، التى نرجح أنها ابتدأت قبل الثورة، فقد ذكر بعض المؤرخين أن بابك ذهب بنفسه إلى عاصمة الروم أو إلى الحدود البيزنطية الجنوبية ليدعو إمبراطورها إلى الاشتراك معه فى حرب عامة يعلنونها على عدوهم المشترك، لكنه يظهر لنا أن لا صحة لهذا الخبر لأنه يصعب علينا أن نصدق أن بابك زار (٤) بيزنطة أيام

---

(١) انظر كتاب الأستاذ بارتولد عضو أكاديمية بطرسبرج العلمية " لمحة تاريخية وجغرافية عن إيران " ص ١٤٩ .

(٢) الفرق ص ٢٥٢ .

(٣) انظر ملحق المؤرخ (فاسيليف) : ج٣و٢١ص١١٢، وميخائيل السريانى : ج٣ص٥٢، وتأليف الأستاذ الروسى فاسيليف " بيزنطة والعرب " ص٣٧ .

(٤) انظر تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام : بندلى جوزى ج١ .

الحرب التى نرجح أنها نشبت فى صيف سنة ٨١٧ . أما أنه زارها قبل إعلان الحرب ، فلا دليل على ذلك . إلا أنه يمكننا أن نقدر ، استنادا على الحوادث التى سنأتى على ذكرها بعد ذلك ، أن بابك ، بعد أن عزم على الخروج على خليفة بغداد ، أطلع بواسطة أحد رسله صديقه وحليفه الطبيعى إمبراطور الروم على عزمه والغرض من خروجه ، وطلب إليه أن يمده بجيوشه أو أن ينضم إليه بنفسه فى هذه الحرب العامة التى كان يرجى منها خير لهما جميعا إن هى انتهت بسقوط عدوهما الألد .

على كل حال ، لا ريب فى أن بابك كان يستطيع أن يعول فى حروبه مع خلفاء بغداد على مساعدة البيزنطيين . وبالعكس ، فنحن نعلم أنه لما ساءت أمور بابك بعد عشرين سنة صرفها فى مقاومة أعظم جيش وأضخم دولة فى ذلك العصر برز لمساعدته إمبراطور الروم وحاول بمناوراته على الحدود العربية (العواصم) أن يصرف قسما كبيرا من جيش الخليفة المرابط فى آذربيجان عن بابك . ونعلم أيضا أن فئة كبيرة من أصحاب بابك حاربت سنة ٨٣١ تحت قيادة رجل إيرانى يسمى تيوفول [1] (Theaphole) فى جانب البيزنطيين ، وأن قسما كبيرا من جيش بابك اجتاز الحدود البيزنطية بعدما أصاب بابك من الفشل ، ونزل فى أرض الروم على الرحب والسعة ، وهناك تنصر .

يستدل من هذا أن صداقة قديمة قوية كانت بين بابك وإمبراطور الروم ، إن لم تكن معاهدة حربية سرية . إلا أن بابك لم يكتف بهذه الصداقة ، وحاول أن يستميل إلى دعوته جيرانه الأقربين ، أى الكرد والأرمن أو على الأقل أن يضمن حيادهم فى الحرب المقبلة على شروط يتفق معهم عليها قبل الحرب لكنه لم يوفق إلى ذلك تماما . وذلك ، لأن الأرمن أبوا أن يدخلوا فى المخالفة التى دعاهم إليها إلا فئة صغيرة منهم كانت تقيم فى مقاطعة سيونيا (صبهيون)، فإنها انضمت إليه عن طيب خاطر ، وارتبطت معه برباط متين ، وثق عراه زواج بابك بابنة أميرهم وقائد جيشهم . أما سائر الأمة الأرمنية فإنها رأت أقرب إلى مصالحها القومية أن تنتهز هذه الفرصة المناسبة لتصلح أمورها التى تضعضعت كثيرا سنة ٧٧٢ بما أصابها من الفشل والخسارة فى حروبها الأهلية ومع عمال خلفاء بغداد ، فقررت لذلك أن تلزم الحياد خوفا من أن تكون نتيجة الحرب بين شيوعى قراطاج وخليفة بغداد وبالا عليها إن هى انحازت إلى جانب الأولين . ولولا هذا الحذر ، ولولا هذا الحياد من طرف أكثر بطارقة الأرمن لكانت نتائج الحرب غير التى نعرفها .

الشعوب التى آزرت بابك : أما اشتراك الكرد فى هذه الحرب ، فقد كاد يكون عاما

(١) انظر Cesemias ج . م ص ١١٩ .

كما يظهر من أقوال المؤرخين الذين ذكروا أن عصمة أمير مرند ورؤساء القبائل الكردية في همذان وكرمنشاه وغيرهما من المقاطعات الشرقية قد انضموا إلى دعوة بابك غير مكرهين ولا مساومين . قال اليعقوبي ، وهو اعرف المؤرخين بأحوال تلك البلاد : " وكان محمد بن البعيث قد شايعه وعصمة الكردي أمير مرند في طاعته [1] " وذكر غيره [2] أن الأكراد كانوا يدخلون في دين بابك أفواجا " ، وهذا يدل على أنهم كانوا مرتاحين إلى عمله وميالين إلى مبادئه الجديدة ، وكذلك القول في الباطنية أو الاسماعيلية وأكثرهم من العجم والكرد ، فإنهم كانوا أيضا في جانب الخرمية يمدونهم بالمال والنصيحة والرجال كما يشهد على ذلك أبو منصور البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق والفرقة الناجية منها [3] .

خيانة الأفشين وتحالفه مع بابك : فأنت ترى مما ذكر أن أكثر الأمم الإيرانية المقهورة في أرمينيا وآذربيجان من خراسان في الشمال إلى العراق العربي في الجنوب أخذت تتألب على دولة بني العباس ، وتعمل جهارا على إسقاطها ، وقد زاد الطين بلة وجعل الخطر على حياة الدولة المذكورة قاب قوسين أو أدنى : هو ممالأة قائد الجيش الخليفي حيدر بن قاووس الأفشين لبابك وحلفائه من شيوعية العجم ، والاتفاق معهم سرا على تحرير الأمم الإيرانية والتركية المقهورة ، وجعلها إمارات وسلطنات مستقلة تحت إدارة رجال منهم . هذا إذا صح ما عزى من الخيانة إلى القائد المذكور الذي طالما أقال الدولة العباسية من عثرتها ، وشتت شمل أعدائها في الخارج والداخل ، ونظم جيوشها ، إلا أنه يظهر من المحاكمة العلنية التي أقيمت على الأفشين بعد أن وضعت حرب بابك أوزارها أن تهمة الخيانة التي اتهم بها لم تكن عارية عن الصحة . فقد تبين من المحاكمة المذكورة التي أمر بإجرائها المعتصم بالله (٨٣٣ ، ٨٤٢) أنه كان للأفشين ضلع مع بابك أو مع حليفه مازيار صاحب طبرستان ، وأنه حقيقة كان ينوي سلخ البلاد التركية أو قسم كبير منها عن الخلافة العباسية ليجعل منها إمارة أو سلطنة مستقلة تحت إدارته . قال مازيار في جلسة من جلسات المحكمة العرفية المذكورة : إن حيدر الأفشين كتب إليه يقول[4] : " لو اتبعتني لاستطعنا أن نقضي على الإسلام ، ونرجع إلى ديننا الفارسي القديم " .

---

(١) انظر تاريخه : ج٢ ص ٥٧٧ .

(٢) أبو منصور البغدادي في " الفرق بين الفرق " ص ٢٦٦ .

(٣) ص ٣٣١ و ٣٣٤.   (٤) انظر : ج١ ص ٤٠٦ .

يؤيد ذلك ما ذكره اليعقوبي في تاريخه عن خروج منكجور على الخليفة قال : " وكان أول سبب حبس الأفشين أن منكجور الفرغاني خال ولد أفشين وخليفته بآذربيجان خلع هناك، وجمع إليه أصحاب بابك وسار إلى ورثان فقتل محمدبن عبيدالله الورثاني وجماعة من أولياء السلطان "(١) .

يقول بندلي جوزي :

إذن لاريب في خيانة أعظم قواد جيش الخليفة لولي نعمته الذي غمره بإحسانه ورفع مرتبته . ولولا ذلك، ولولا أن الخليفة رأى بعينيه أدلة الخيانة، لما أمر بمحاكمته ولما استغنى عنه بتلك السهولة التي يذكرها المؤرخون، وهو في ذلك الوقت أشد الناس احتياجا إليه وإلى أعوانه من الترك .

تحالف العرب معه ومؤامراتهم : تشعب المؤامرة ضد السلطة العربية واشتراك أكثر الأمم المغلوبة فيها، هذا يدل على خطارة العمل الذي أقدم عليه بابك وحرج مركز الدولة العباسية في ذلك الدور من حياتها . وقد زاد في حرج هذا المركز أنه كان بين المتآمرين بعض زعماء العرب ممن أعمت المصالح الشخصية أو العائلية قلوبهم، وأنستهم أو جعلتهم يتناسون أن الغاية الكبرى من هذه المؤامرة هي سحق السلطة العربية في تلك البلاد والقضاء على الإسلام وأهله . وأعظم من ذلك في الغرابة وأدل على ضعف العاطفة القومية في قلوب عرب ذلك العصر، وتغلب مصالح الفرد أو العشيرة على مصالح الأمة، هو ما ذكره اليعقوبي في تاريخه من أن عمال الخليفة الكبار في آذربيجان هم الذين أوعزوا إلى بابك بالخروج على سلطانهم وولي نعمهم، وحرضوه على العصيان واعدين إياه بالمساعدة وأن بين المحرضين كان حاتم بن هرثمة زعيم تلك العائلة العربية . التي عرفت في التاريخ بخدماتها العديدة للخلافة العباسية والأمة العربية وابن هرثمة هذا كان واليا للخليفة على أرمينيا وآذربيجان (٢) حيث ترك آثارا محمودة .

قال المؤرخ المذكور : " واشتدت شوكة بابك، وكان محمد بن البعيث قد شايعه وعصمة الكردي صاحب مرند في طاعته " . (٣) وقال في موضع آخر : "إن محمد بن

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ٥٨٣ .

(٢) كانت أرمينيا وآذربيجان مقاطعة أو إمارة واحدة قبل خروج بابك واستفحال أمره . انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٦٥ (من طبعة ليدن) .

(٣) ٢ : ٥٧٧ .

البعيث انحاز إلى بابك " [١] وما مثل حاتم بن هرثمة ومحمد بن البعيث إلا كمثل غيرهما من عمال الخليفة فى أرمينيا وآذربيجان ورؤساء بعض القبائل العربية هناك، من حيث عدم الإخلاص لخلفاء بغداد وحكومتهم وتقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، فكأنهم كلهم أصبحوا لا يفهمون أن عزهم وسعادتهم بل وجودهم فى البلاد المذكورة كانت تتوقف على طاعتهم لخلفائهم وهيبة الحكومة المركزية وقوتها المادية والمعنوية .

وليست هذه بالمرة الأولى التى تغلبت فيها روح العشيرة ومصالحها الجزئية على روح الأمة ومصالحها الحيوية العامة، فقد ذكر التاريخ أن نصر بن سيار عامل خلفاء بنى أمية على خراسان وآسيا الوسطى، أهاب قبل مئة سنة مضت على ظهور الإسلام برؤساء قيس واليمن أن ألقوا سلاحكم يا قوم ووحدوا كلمتكم فى ديار الغربة، وأمام عدو قوى عنيد يريد بكم الشر وبدولتكم الأذى. فلم يكن من يسمعه أو يفقه لحوادث ذلك العصر معنى، فكان من أمر العرب فى تلك البلاد ومن أمر أسرتهم العربية ما هو معلوم عند الجميع [٢] .

يقول بندلى :

هؤلاء هم خلفاء بابك، وهؤلاء هم المخلصون أو الممالئون له ولدعوته الذين كان يستطيع أن يعتمد عليهم فى مقاومته لسلطة بنى العباس . من هنا نستطيع أن نجمل بعض الأسباب التى رافقت هذه الحرب الطويلة أو سبقتها، وربما ساعدت على الإسراع فى إعلانها، فكثيرة أيضا نقتصر على ذكر بعضها . فمنها : اشتغال جيش الخليفة المأمون فى ذلك الوقت بإخماد الثورات التى استعرت نارها فى العراق ومصر وبلاد العرب [٣] ورد هجمات جيش الروم الذى اجتاز الحدود، بعد أن فتح وهدم قلعة زبطرا سنة ٨٢١، وأخذ يتغلغل فى دار الإسلام، وبالأخص فى أرمينيا الممالئة له التى كاد يحتلها كلها وصار يتصرف بها وبامرائها كما كان يتصرف ببلاده وسكانها. [٤] وأهم من ذلك أن الجيش الرومى أصبح، بعد أن احتل أرمينيا، مجاورا لبلاد بابك، فصار فى وسعه أن يمده برجاله ونصائحه. ولعل هذا الأمر هو الذى حمل إمبراطور الروم على أرمينيا واحتلالها .

---

(١) ٢ : ٥٧٧ .

(٢) الدينورى - كتاب الأخبار الطوال - ص ٣٦٠ (من طبعة بطرسبرج) .

(٣) انظر تأليف Weil " تاريخ الخلفاء " ج٣ ص ٢٣٧ .

(٤) Laurent, L'Armenie, entre Bysance et l'islam, P.318 .

وهناك فرصة أخرى لابد أن بابك استفاد منها وهى خروج حاتم بن هرثمة على عامل الخليفة فى أرمينيا وآذربيجان انتقاما لأبيه هرثمة الذى قتله المأمون غيلة سنة ٨٢٠ . ومن منا لا يعرف منزلة هرثمة بين العرب ، وما كان له من النفوذ بينهم وعلى سياسة الدولة ؟ أما أن بابك قد استفاد من هذه الثورة ، فهذا أمر طبيعى وقد أشار إليه المستشرق اليهودى (Weil) فى تاريخه حيث قال : إن بابك قد استفاد من هذه الحادثة بأن صور المأمون خائنا لمصالح الفرس. [١] ثم أضف إلى ذلك أن خروج حاتم بن هرثمة على الخليفة سهل خروج غيره من العرب المرابطين فى تلك البلاد ، أو من أهل البلاد الناقمين على حكومة بغداد والشعب العربى ، وبينهم بابك وأشياعه . كما أشار إلى ذلك اليعقوبى فى كلامه الذى ذكرناه سابقا ، والذى يفهم منه أن ثورة حاتم بن هرثمة كانت من دواعى الإسراع فى حركة بابك لامن أسبابها ، لأن استعداد بابك للخروج على بغداد وإعلان الحرب على عامل الخليفة فى آذربيجان وأران وأرمينيا كانت سبقت ، كما نرجح ، ثورة حاتم [٢] .

نرى مما ذكر أن حلفاء وأصدقاء بابك كانوا كثيرين ، وأن الظروف كانت فى بادئ الأمر موافقة لحركته وأكثر الشعوب المغلوبة ، وعلى الأخص الطبقات السفلى منها ، تميل إلى دعوته وتدخل فيها راضية مملوءة آمالا بحسن عاقبتها ، وكانت تحارب تحت ألويته الحمر [٣] مستقتلة . قال أبو منصور البغدادى (توفى ١٠٣٨) : " إن عدد الخرمية الذين انضموا إلى جيش بابك فى آذربيجان والديلم فقط بلغ ثلثمائة ألف نفس [٤] وذكر الطبرى " ان جماعة كثيرة من أهل الجبال (Medie) من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق دخل فى دين الخرمية ، وأنهم تجمعوا فعسكروا فى عمل همذان [٥] " . ويستفاد من مصادر أخرى أن عدد البابكيين لم يكن قليلا فى ولايات إيران الجنوبية وفى العراق . [٦] وأن الحركة البابكية أخذت تنتشر انتشارا سريعا بين علوج تلك البلاد ، أى بين العاملين فى أراضى غيرهم بالأجرة .

علاقة بابك بالمزدكية : إذا صح ذلك ، ولا نراه إلا صحيحا ، كانت مبادئ البابكيين الخرميين الاجتماعية عين مبادئ إيران فى العصر السادس للمسيح المعروفين بالمزدكيين

(١) تاريخ الخلفاء ج٢ ص ٢٣٧ . (٢) اليعقوبى : ٢ ص ٥٦٨ .

(٣) كانت ألوية الخرمية حقيقة حمرا . انظر : ZDMG ج٢٣ ص ٥٣٤ .

(٤) الفرق : ٢٦٨ . (٥) ج١٠ ص ٣٠٥ (من طبع القاهرة) .

(٦) تاريخ الطبرى : ج١٠ ص ٢٧٩ .

نسبة إلى صاحب دعوتهم ومؤسس مذهبهم مزدك . وعليه يكون بابك وأصحابه تلامذة أو أتباع مزدك ولو اختلفوا ، كما سنرى ، فى بعض نقط طفيفة اقتضاها الزمن والوسط الاجتماعى الجديد . وقد انتبه إلى هذه الصلة المعنوية بين شيوعيى العصر السادس والعصر التاسع معاصرو بابك ، وأكثر من كتب عن حركته ومبادئه من مسلمى الأعصر المتأخرة كأبى منصور البغدادى والمطهر المقدسى والغزالى وغيرهم ممن كتب فى البدع الإسلامية والنحل الفلسفية .

قال أبو منصور : إن الخرميين كانوا على مذهب المزدكيين . [1] والذى يظهر لى أن ليس فقط بابك وأشياعه أخذوا مذهبهم عن إخوانهم فى الجنس والغاية أصحاب مزدك ، بل سائر شيوعيى فارس وآذربيجان كالمازيارية والجاويدانية وغيرهم ممن عرفوا بأسماء زعمائهم مع اتفاقهم فى المسائل الجوهرية ، مما يدل على أن آراء مزدك لم تمت بموته وموت الألوف من أشياعه الذين كانت دولة بنى ساسان تتعقبهم فى كل البلاد الخاضعة لها ، بل بقيت حية فى صدور كثيرين من تلاميذه الذين سلموا من القتل ولجئوا إلى جبال واران مصدر الحركة المزدكية وعش الشيوعية وكل الحركات الاشتراكية [2] التى ظهرت فى إيران من يوم عرفها التاريخ ، بل ملجأ المضطهدين لدينهم أو مبادئهم الاجتماعية قبل مزدك وبابك . يثبت ذلك ما ذكره صاحب معجم البلدان [3] من أن فئة من أصحاب مزدك اختبأت بعد محنته المعروفة فى جبال آذربيجان المنيعة ، حيث ظلت تحافظ على مبادئها إلى أيام بنى سلجوق وخلفائهم الأقربين لأنها وجدت هناك وسطا ميالا إليها لم تلبث أن انتشرت فيه ، ونمت بعيدة عن عين العدو وحريصة على مذهبها الاشتراكى حرصها على نار أجدادها المقدسة وتقاليدهم وآدابهم القديمة .

انتشار مبادئ مزدك : بقيت آراء مزدك تنتشر خفية بين سكان آذربيجان والبلاد المجاورة لها وتستميل إليها العناصر غير الراضية عن حالتها الاجتماعية كبعض طبقات الفرس والمتطرفين من الشيعيين والباطنية الذين كانوا أشد الناس بغضا وكراهة للإسلام والدولة العباسية وأسهلهم انقيادا لكل حركة كانوا يأملون منها شرا للدولة المذكورة . ولقد ساعد على حفظ هذه المبادئ ونشرها بين الشعوب المستاءة أن الحركة كانت ، كما يستفاد من أقوال بعض المتأخرين ، منظمة وفى أيدى أناس خبيرين بطرق الدعوة

(١) الفرق ص ٢٦٨ .

(٢) انظر : Grundriss d.iranische Philologie, B.11,S,558.

(٣) معجم البلدان : ج٢ ص ٥٦٩ .

يتناقلها بعضهم عن بعض إلى أن وصلت الزعامة إلى رجل يدعى جاويدان بن سهل (المتوفى ٨١٦) . أستاذ بابك وصديقه الأعز ، فسلمه قبل وفاته زعامة الحزب الشيوعى فى آذربيجان لما تفرس فيه من الاستعداد الطبيعى للرئاسة وقوة الإرادة والإخلاص للدعوة ، إلى غير ذلك من الصفات التى يحتاج إليها كل زعيم كبير . وقد برهن بابك بما أدخله على حزبه من الترتيب وأبداه من حسن الإدارة والثبات عند المحن مدة اثنتين وعشرين سنة أمام عدو أقوى منه عدة وعددا ، أنه ذاك الرجل أو ذاك المهدى الذى كانت تنتظره الأمم والطبقات المظلومة المغلوبة على أمرها ليحررها من العبودية الطويلة ويحقق أحلام مزدك الحلوة .

قال بلعامى المؤرخ الفارسى ومختصر تاريخ الطبرى : إن مزدك نسخ الزواج (الشرعى) وملكية الأراضى . وكان يقول : " إن خالق المسكونة قسم الأشياء بين الناس بالقسط ، فلم يعط أحدا أكثر من غيره ، ولهذا لابد من نظام يتساوى فيه عدد النساء ومقدار الأراضى التى يملكها كل شخص ، ويكون من مقتضاه أن من يملك أراضى واسعة لا يستطيع أن يقول إنى لا أعطى منها شيئا لغيرى ، ومثله من يملك عدة نساء لأن النساء مشاعة (بين الناس) ، أى أن امرأة الواحد تخص الآخر وامرأة هذا الآخر تخص من يحب أن يأخذها [1] " . ونقل أبو منصور البغدادى عن غيره بلا تدقيق ولا تحقيق أن للبابكية فى جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر . وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم . فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم ، افتض فيها الرجال النساء على تقدير من عزيز [2] " .

وهذا يشبه ما نقله الشهرستانى [3] وغيره من المؤرخين المتأخرين الذين لم يروا ولم يسمعوا المزدكيين ولا البابكيين ، بل كانوا يرددون أقوال من سبقهم من الكتبة المتغرضين ، نذكر منهم أبا الفرج العبرى [4] الذى أورد فى كلامه عن سنباط بن مهل ، أحد بطارقة أرمينيا الذى قبض على بابك وسلمه لأفشين ، بعد أن خدعه وأهانه وهتك حرمة امرأته وأمه وأخته : " إن بابك الملعون كذا كان يفعل بالناس إذا أسرهم مع حرمهم " [5] . وهناك فئة أخرى من الكتبة ، وجلهم من المتأخرين البعيدين عن زمن

(١) A.Christensem,Le regne du roi Kawadh.P.73

(٢) الفرق : ص ٢٥٢ .

(٣) كتاب الملل والنحل : ج ١ ص ٢٩١ .

(٤) أبو الفرج العبرى : (١٢٨٦٠) .

(٥) تاريخ مختصر الدول : ص ٢٤١ ، وكتاب البدء والتاريخ : م٦ ص ١١٧ .

الحركة البابكية ، كانوا يحشرون أشياع بابك " بين اللصوص وأصحاب الفتن وقطاع الطريق والخراب والذعار " ، ويختلقون عنهم مثل هذه الأعمال ، ويطلقون عليهم هذه الألقاب : إما عمدا ليثيروا عليهم الرأى العام والجهلة وأهل التعصب الدينى والقومى ، وإما لجهلهم الحقيقة وتأويلهم بعض عادات القوم تأويلا يتفق مع ما ألفوه من النظر إلى المرأة فى أعصر الجهل والانحطاط الأدبى .

ومن الأسباب التى استدرجت بعض الكتبة المتأخرين إلى الخطأ فى الحكم على آداب البابكيين وأخلاقهم ، أنهم نسوا أو تناسوا أن بابك وأتباعه كانوا يدينون بدين زرادشت مع تغيير ضعيف طرأ عليه تحت تأثير النصرانية والإسلام ، وأن هذا الدين لم يكن ليمنع الزواج بين الأخ وأخته كما كانت الحال عند البطالسة فى مصر مثلا وبين الأقربين ممن حرم الإسلام الزواج بينهم . ولما كان هذا النكاح " رجسا من عمل الشيطان " فى نظر المسلمين كانوا ينسبونه دائما إلى التهتك والخلاعة والمرح حتى أن يرى بعض كتبة العرب ومن أخذ عنهم من علماء أوربا [1] اشتق كلمة خرميين - وهم اسم أصحاب بابك المتغلب عليهم - من كلمة خرم وهو المرح فى الفارسية .

يقول بندلى : نحن نرجح أنه كان للبابكية ليلة عيد يجتمعون فيها فى جبالهم على الخمر والزمر ، كما أننا لا ننكر أنهم كانوا ينكحون الأخوات وبعض ما حرم الإسلام نكاحه . أما أنهم كانوا يفتضون فى تلك الليلة النساء على تقدير من عزيز ويأتون المنكرات والمحرمات على الإطلاق ، فهذا ما لا نصدقه لأنه يخالف ما نعلمه من مبادئهم الأدبية ، ويناقض تعاليمهم الدينية التى أخذوها عن زرادشت ومزدك وبنوا عليها آراءهم الاجتماعية . فقد عرف عن أصحاب مزدك أنهم كانوا فى عيشتهم اليومية وعلاقاتهم مع بعضهم ومع غيرهم من الناس أقرب إلى الزهاد والنساك منهم إلى أصحاب الأحزاب الاشتراكية أو الاجتماعية .

قال (A.Christensem) فى كتابه المذكورسابقا : إن " أهم شيء عند المزدكيين وعند المانيين (أصحاب مانى) أن يبتعد الإنسان عن كل ما يربط روحه بالمادة ، ولهذا كانوا يحرمون على أنفسهم أكل لحوم الحيوانات وأشياء أخرى لاتأكلها الزهاد (٢) والمزدكيون لم يكونوا يأكلون لحوم الحيوانات لاعتبارات أخرى منها أن ذلك كان يضطرهم إلى ذبح هذه الحيوانات ، وقتل الحيوانات على الإطلاق كان ممنوعا كما هو

(١) مقالة Flugel عن الخرمية فى مجلة Z D M G م٢ ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ .

(٢) Le regne etc . ص ١٠٣ .

معروف عندهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن فى قتلها مانعا لتحرير أرواحهم من السجن المادى الذى هو الجسم. فإن مزدك حرم عليهم العداوة والبغض والنزاع، ودعاهم إلى المساواة، وكان دائما يقول إن أصل البغض والاختلاف بين الناس هو التفاوت فى الدرجات الاجتماعية " (١) .

وقد عرف عن مانى أنه كتب الحصر على الطبقة العالية من أشياعه، وهى " طبقة المؤمنين " أو " المختارين "، وأمرهم ألا يدخروا من المئونة إلا ما يكفيهم يوما واحدا، ومن اللباس ما يكفيهم سنة. وكذلك عرف عن مزدك وبابك وأصحابهما أنهم كانوا يميلون إلى الزهد والتنسك. بناء على ذلك، نستطيع أن نقول إن هذه المبادئ وهذا النظام كانت متبعة أيضا عندهم أو على الأقل عند الطبقة الراقية المسئولة، إلا أنه لم يكن ليخفى على زعماء المذهبين المذكورين أن عامة الناس لا تقدر أن تكبح شهواتها وتتغلب على أميالها السافلة التى كانت ولا تزال تدفع الناس إلى تملك الأراضى - وهى وقتئذ أعظم مصادر الثروة - والنساء أو على الأقل امرأة واحدة محبوبة، إلا إذا أرضوا هذه الأميال وأطلقوا لها الحرية التامة .

٥ ـــ نقطة الالتقاء بين فرق الزندقة

يجعل أبو منصور البغدادى نقطة الدائرة وما فيها من دوائر ينداح بعضها إثر بعض، هى التشيع للإمام على. وذلك، لما قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب بايع الشيعة ابنه الحسن بوصية منه، غير أن بيعة الحسن لم تكن إلا صورة، وكان مقتل علىّ نذير الانحلال فى صفوف العراقيين، فانفض الجند عن الحسن، واضطر أن ينزل عن الخلافة لمعاوية كما رأينا، فنقم الشيعة منه ذلك والتفوا حول أخيه الحسين. ولحق الحسين أولا بمكة، ثم عاد فاعتزم السير إلى الكوفة حينما استدعاه بعض أشرافها، وأخذوا له البيعة .

(١) Le regne etc . ص ١٠٣، ١٠٤ .

وسار الحسين إلى الكوفة فى نفر قليل من شيعته بعد أن انصرف عنه معظم أصحابه . ولقيه جند عامل الكوفة الأموى عبيد الله بن زياد على مقربة منها ، وكانت بقيادة عمر ابن سعد بن أبى وقاص ، وحاول القوم إرغامه على الذهاب معهم إلى الكوفة، ثم أنزلوه فى مكان قفر لا ماء فيه فى ظاهر كربلاء . ولكن الحسين أبى وآثر القتال فى صحبه القلائل ، وكانوا اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا ، بينما بلغ جند ابن زياد أربعة آلاف مقاتل ، وكان ذلك فى العاشر من المحرم سنة ٦١هـ (١٠ من أكتوبر سنة ٦٨٠م) وقتل الحسين بعد صلاة الظهر من سهم أصابه ، ثم تعاقبت عليه الطعان ، ومثل بجثته واحتز رأسه ، وقتل معه عدة من أولاده وإخوته ، وأرسلت رءوسهم جميعا إلى يزيد بن معاوية .

وكان لمقتل الحسين على هذا النحو المؤسى وقع عميق فى العالم الإسلامى ، وكان من أعظم العوامل التى صدعت من هيبة الخلافة الأموية ، ثم أدت فى النهاية إلى سقوطها .

ومن ذلك الحين ، ألفى الطامعون من الزعماء فى ثورة الشيعة سلاحا يشهرونه وقت الحاجة ، وفى نظرياتهم وتعاليمهم وسيلة لاستهواء الناقمين والبسطاء .

وكان أول من اشتهر بالدعوة الشيعية ، المختار بن أبى عبيد الثقفى ، كان خارجيا ثم صار شيعيا ، وقد خرج بالكوفة سنة ٦٦ هـ مطالبا بثأر الحسين وقتال الظلمة واستولى عليها ، وطارد قتلة الحسين وقتلهم ، . ونادى بإمامة محمد بن الحنفية ، وحرف تعاليم الشيعة إلى ما يوافق خططه ومشاريعه ، وزعم أنه يعرف الخفى من العلوم والأسرار . وكان يحمل فى حروبه كرسيا قديما غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة ، ويزعم أنه من ذخائر علىّ بن أبى طالب وأنه كالتابوت عند بنى إسرائيل . وقويت شوكته بالكوفة ، حتى سار إليه مصعب بن الزبير سنة ٦٧هـ (٦٨٦م) فقتله ومزق جموعه .

هذا الحزب الذى التف حول علىّ منذ وفاة النبى ، وساعده على نيل الخلافة ، وأيده ضد معاوية إلى النهاية ، ثم التف حول بنيه من بعد مقتله ، هو حزب الشيعة أى الأتباع والصحب .

والشيعة فى عرف علماء الكلام هم أتباع على وبنيه . ويقال لهم شيعة آل البيت . ظهروا لأول مرة عند انشقاق الخوارج . وإنهم سموا كذلك لبقائهم إلى جانب على ، ولبثوا يرقبون الحوادث والفرص حتى ولى الخلافة علىّ . ومذهبهم جميعا هو أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويختار القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن من أركان الدين لا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل

يجب عليه تعيين الإمام لهم ، وأن يكون هذا الإمام معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا هو الذى عينه النبى للخلافة من بعده . وهم يؤيدون ذلك بآيات من القرآن يفسرونها طبقا لرأيهم ، وأحاديث ينسبونها إلى النبى .

وقد اختلف الشيعة فيما بينهم فى مساق الخلافة بعد علىّ ، فمنهم من ساقها فى ولد فاطمة (ابنة النبى وزوج علىّ) بالنص عليهم واحدا بعد واحد ، وهم الإمامية . ومنهم من ساقها في ولد فاطمة بالاختيار ، واشترطوا أن يكون الإمام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ، وأن يخرج داعيا إلى إمامته ، وهم الزيدية . ومنهم من ساقها بعد علىّ وابنيه الحسن والحسين (ابنى فاطمة) إلى أخيهما محمد بن الحنفية ، وهم الكيسانية نسبة إلى مولاه كيسان .

وأما الإمامية ، فقالوا بإمامة على ثم ابنه الحسن بالوصية ، ثم أخيه الحسين ، فابنه زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق .

ومن هنا اختلفوا إلى فرقتين :

قالت الأولى بإمامة ابنه إسماعيل وهم الإسماعيلية ، ولقبوه بالإمام .

وقالت الأخرى بإمامة ابنه موسى الكاظم ، فابنه على الرضا فابنه أبو جعفر محمد ، فابنه على فإبنه محمد الحسن العسكرى ، فابنه محمد المهدى وهو الثانى عشر من هؤلاء الأئمة . ولذا سميت هذه الفرقة بالاثنى عشرية . وإلى هنا تقف بأئمتها ، وتقول إن خاتمهم ، وهو محمد المهدى لم يمت وإنما اختفى وتغيب حين اعتقل مع أمه ، ولا يزال مختفيا إلى آخر الزمان ثم يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا ، ويسمونه بالمهدى المنتظر (١) .

وأما الإسماعيلية ، فقالوا بإمامة إسماعيل الإمام ، ثم ابنه محمد المكتوم ، وهو أول الأئمة المستورين لأن الإمام عندهم قد لا يكون ذا شوكة فيستتر ، فإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته . ثم من بعده إلى ابنه جعفر الصادق ، ثم ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين ، ثم ابنه عبيد الله المهدى الذى فر إلى إفريقية ، وقام بدعوته هنالك ، وأسس دولة العبيديين ، وأسس بنوه دولة الفاطميين فى مصر . ويسمى هؤلاء الإسماعيلية أيضا بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام المستور أى الباطن .

---

(١) تاريخ الجمعيات السرية فى الإسلام : محمد عبد الله عنان .

وقد عنينا بذكر ما تقدم من فرق الشيعة ، وترتيب أئمتهم وأنسابهم ، تمهيدا لذكر الفرق الثورية والسرية فى المجتمع الإسلامى .

ومن الشيعة طوائف يسمون الغلاة قالوا بألوهية هؤلاء الأئمة ، إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية ، أو أن الإله حل فى ذواتهم البشرية ، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى . ومنهم من قال إن كمال الإمام لا يكون لغيره ، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال، وهو قول بالتناسخ . ومن هؤلاء من وقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره ، ويقول إنه حى لم يمت، إلا أنه غائب عن الأعين . ومن ذلك قول الاثنى عشرية - نسبة إلى الثانى عشر من أئمة الإمامية وهو محمد بن الحسن العسكرى - إنه لم يمت بل اختفى وإنه يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا ويلقبونه بالمهدى المنتظر .

إلى غير ذلك من النظريات والمزاعم . نوضح ، كيف أسفر نضال الشيعة الخفى لقلب الدولة العباسية عن انفجار ثورى هائل هز تعاليم الإسلام إلى الأعماق ، ودفع إلى قبضة الشيعة بمعظم أقطار الدولة العباسية .

٦ ـ الإسماعيلية[١] تاريخا ومبادئًا

(١) الرؤية السياسية والاجتماعية :

أ - منشأ الحركة الإسماعيلية وأكثر الحركات الاشتراكية والسياسية والأدبية، التى هزت العالم الإسلامى هزات عنيفة وزلزلت أرضه وسماءه، هو الشيعة العلوية .

ب - هذه الشيعة المعتدلة انشقت إلى فرعين : فرع يعرف بالاثنى عشرية ، وفرع

(١) يقول الشهرستانى : وأشهر ألقابهم الباطنية ، وإنما لزمهم هذا اللقب ، لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا . ولهم ألقاب كثيرة : فبالعراق يسمون : الباطنية ، والقرامطة ، والمزدكية ، وبخراسان : التعليميه ، والملحدة . وهم يقولون : نحن الإسماعيلية ؛ لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص . الملل والنحل: ج١ ص ١٧٢ .

آخر يعرف بالسبعية سمى أصحابه بهذا الاسم لأنهم وقفوا عند الإمام السابع وهو إسماعيل بن جعفر الصادق الأكبر الإمام السادس من أئمة هذا الفرع ، ومعلوم أيضا أن جعفر الصادق رفض أن يقيم ابنه إسماعيل خلفا وإماما من بعده نظرا لسوء سيرته ولأنه كان يدمن الخمر إلا أن حزب إسماعيل - وهم الأكثرية فى الفرع المذكور - اعترض على ذلك وأيد إسماعيل واعترف بإمامته ، فعرف باسمه إلى هذا اليوم .

جـ - توفى إسماعيل سنة ١٤٥هـ ، أى قبل أبيه ، ودفن فى المدينة حيث بقيت عائلته تقيم إلى أواخر الجيل الثامن ، حين اضطر أعضاؤها إلى مهاجرة بلدهم لاشتراكهم فعلاً فى حوادث ذلك الوقت السياسية ، أو لأنه خيل لأصحاب السلطة يومئذ أنهم اشتركوا فيها ، فتفرق أولاد إسماعيل وأحفاده فى البلاد فهبطوا شمالى فارس (١) والعراق وسوريا ، ثم نزحوا إلى بلاد الهند وشمالى إفريقيا . . . إلخ . إلا أن عيون بنى العباس كانت تتبعهم أينما حلوا وأين رحلوا ، لأنهم كانوا يخافون نفوذهم ويحسبونهم أعظم الناس عليهم خطرا ، فاضطر ذلك بنى إسماعيل إلى التخفى وسكنى البيوت البعيدة والمدن الصغيرة من حيث بدءوا يرسلون دعاتهم إلى أطراف الخلافة العباسية لبث دعوتهم السياسية ، ونشر تعاليمهم الدينية والاجتماعية التى أخذت تختلف رويدا رويدا عن الدين الإسلامى ، بل عن الدين كله لما أخذ يتسرب إليها من العناصر الغريبة والآراء الفلسفية ، حتى أصبحت بعد زمن قليل مذهبا بل دينا قائما بذاته .

تأليف بين المتناقضات : ولو فتشت صفوف الإسماعيليين لوجدت حقيقة بينها ممثلى جميع الأمم الخاضعة يومئذ لخلفاء بغداد من عرب وعجم وكرد وأتراك . . . إلخ ، وجميع الأحزاب السياسية والاجتماعية من أصحاب اليمين إلى أصحاب اليسار ، ولرأيت بينهم الفوضويين والشيوعيين على اختلاف نحلهم ومبادئهم وممثلى جميع الأديان والمذاهب من أهل السنة والشيعيين المعتدلين إلى الملحدين والدهريين « الذين لا يؤمنون بشىء » . صارت مع الزمن تدل على أصحاب مذاهب دينية مختلفة وأحزاب سياسية واجتماعية متعددة وآراء فلسفية وعلمية متنوعة . إلا أن هذا الاختلاف العظيم فى المبادئ والآراء ، وهذا التباين الظاهر فى المصالح بين الأحزاب والنحل الداخلة فى

(١) قال عماد الدين الأصفهانى صاحب كتاب " مختصر تاريخ آل سلجوق " : " إن خراسان كانت عش الباطنية وملجأهم " ص ٨٨ .

مذهب الإسماعيليين لم تكن لتمنع أصحاب هذا المذهب من السعى وراء تحقيق غاية واحدة والوصول إلى نتائج لم يصل إليها أحد قبلهم، وهذا من غرائب الأمور التى لابد منها لفهمها .

يقول دوزى : لم يقم حتى اليوم وأرجح أنه لن يقوم فى المستقبل، حزب أو دين أو مذهب أو جمعية أو شركة تضم تحت لوائها « الغالبين والمغلوبين وأصحاب الأفكار الدينية الحرة الذين ينظرون إلى الدين نظرهم إلى لجام ضرورى للطبقات السفلى من الناس فقط ، والمتعصبين للدين من جميع الطوائف ، وتتخذ المؤمنين واسطة لنقل السلطة إلى الكافرين ، وتستعمل الغالبين آلة لهدم ما بنوه من الملك وتسليمه إلى غيرهم ، ثم هى تؤلف حزبا كبيرا مطيعا تستند عليه لوضع تاج الملك عند سنوح الفرصة ، إن لم يكن على رأس مؤسس ذلك المذهب فعلى رأس أحد خلفائه .

هذه كانت غاية عبد الله بن ميمون الأساسية ، وهذه كانت أفكاره، وهى كما ترى، أفكار غريبة مدهشة جريئة قد ساعده على تحقيقها دهاؤه النادر ولباقته الغريبة ومعرفته العميقة لقلوب الناس » [١] .

من هنا نشأت الإسماعيلية جمعية سرية محضة، لم يكن واقفا على أغراضها وطرقها إلا زعماؤها الأقلون، وقادة أفكارها المقربون إلى زعيم هذه الجمعية، وهم الذين وقفوا على أسرارها بعد أن قطعوا مراتب أو مراحل التكريس المطلوبة منهم وأقسموا القسم الغليظ [٢] أن لا يبوحوا لأحد بأسرار جمعيتهم ، أما سائر أعضائها وهم الأكثرية فلم يكونوا يعرفون من أمر هذه الجمعية إلا الشيء القليل الذى كانت تطلعهم عليه دعاة الجمعية المتوقف عليهم اختيار الأعضاء وابتلاؤهم وإعدادهم لتسلم الرتب السبع أو التسع [٣] التى كانت يومئذ عند الإسماعيلية .

(١) انظر B.Dozy, Histoire des Imusulmans d'Espagne, .

(٢) والباطنية لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم بعد إحلافهم إياه على أن لا يذكر أسرارهم لغيره (انظر كتاب الفرق بين الفرق : ص ٢٧٨) .

(٣) كان عدد الرتب فى أول الأمر سبعة، ثم أصبح تسعة. وكان لكل درجة اسم يلائم العلم الذى كان يتلقاه المدعو فى تلك الدرجة. وهذه أسماء الدرجات : التفرس . التأنيس . التشكيك . التعليق . الربط . التدليس . التأسيس (الفرق ٢٨٢). وهذه الأسماء مأخوذة على ما يظهر لى من كتاب للإسماعيلية، وليست مختلقة وتأدية القسم أمام الداعى حقيقة لا ريب فيها إذ ورد ذكرها فى غير كتاب أبى منصور البغدادى انظر مثلا تأليف M.de Goeje المستشرق الهولاندى الشهير تحت عنوان :

Memoire sur les Carmates de Bahrein, P.172 .

ويظهر أن مطالب الإسماعيلية السياسية فى الدور الأول لم تكن لتختلف كثيرا عن مطالب غيرهم من الشيعة، أى أنها كانت ترمى إلى نزع السلطة من أيدى بنى العباس ونقلها إلى خلفاء على وأبنائه الذين اختطفت منهم. والمعروف أن هذه المطالب كانت فى بادئ الأمر علانية يشترك فى تأييدها بعض أعضاء العائلة المغتصبة حقوقها وأتباعهم من العرب والفرس، فكانت هذه الحركات تؤدى أحيانا إلى ثورات شيعية كانت تضع الدولة العباسية فى مراكز خطرة تضطرها إلى استعمال القوة لمعاقبة القائمين بها معاقبة شديدة تشمل البرىء والمجرم، إلا أن هذه الوسائل لم تكن لتثنى أصحاب تلك الحركات الفكرية عن عزمهم أو تحملهم على الاستسلام، لأنهم كانوا يعتقدون أن الحق فى جانبهم، وأنهم لابد أن يبلغوا غايتهم المنشودة.

وقد تحول هذا الاعتقاد تحت تأثير عوامل وأفكار غريبة عن الإسلام، إلى إيمان قوى فى قرب ظهور رجل - مهدى - يتغلب على دولة بنى العباس، ويسترد منهم الملك ليسلمه إلى أصحابه. فلما ظهر هذا المهدى أو إمام الزمان، أخذوا يعلقون عليه - وذلك تحت تأثير العوامل المذكورة، وما أصاب العلويين من الفشل والمحن، وما دخل على دولة بنى العباس من التغيرات الاجتماعية والسياسية - أمالاً جديدة غير آمالهم السياسية المعلومة، فصاروا ينتظرون من مهديهم أو إمامهم الأكبر أن يعمم العدل بين الناس، ويشفى الأرض من أمراضها الاجتماعية، إلى غير ذلك من الأعمال التى تنطوى تحت كلمة عدل وأن يحقق كثيرا من المبادئ والأفكار التى أخذت تتسرب فى هذا الوقت إلى عقول زعماء الإسماعيلية من الخارج، أى من كتب فلاسفة اليونان وتلاميذهم فى الشرق، أو من الأحزاب الشيوعية والنحل الدينية والعناصر الأجنبية الماقتة لدولة بنى العباس.

(٢) شروط الانتساب إلى الإسماعيلية :

والمعلوم عن هؤلاء الأعضاء المبتدئين أنه لم يكن يؤذن لهم بالانخراط فى سلك الجمعية إلا بعد أن يبلوهم الدعاة ويثبت لديهم أنهم ذوو ثقة لا خوف منهم ولا خطر، وأنهم أصبحوا قادرين على بث الدعوة الإسماعيلية والدفاع عن الجمعية بكل ما لديهم من الوسائل، ومهما كلفهم ذلك من الأتعاب والأخطار. ولهذا لم يكن الدعاة يقبلون فى الجمعية إلا أصحاب الإرادات القوية والعقول السليمة، ومن كان يحسن القراءة والكتابة، وكانوا إذا قبلوا أحدا فى جمعيتهم علموه ودربوه، ثم أطلعوه على بعض

أسرار مذهبهم، حتى إذ بلغ المدعو درجة معلومة سمحوا له أن يقسم قسمهم المعروف، وهذه صورته كما حفظت في كتاب أبي منصور البغدادي، قال:

«وأما أيمانهم، فإن داعيهم يقول: جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسله وما أخذ الله تعالى من النبيين من عهد وميثاق أن تستر ما تسمعه منى، وما تعلمه من أمرى ومن أمر الإمام الذى هو صاحب زمانك وأمر أشياعه وأتباعه فى هذا البلد وفى سائر البلدان، وأمر المطيعين له من الذكور والإناث، فلا تظهر من ذلك قليلاً ولا كثيرا، ولا تظهر شيئا يدل عليه من كتابة أو إشارة إلا من أذن لك فيه الإمام صاحب الزمان، أو أذن لك فى إظهاره المأذون له فى دعوته، فتعمل فى ذلك حينئذ بمقدار ما يؤذن لك فيه. وقد جعلت على نفسك الوفاء بذلك وألزمت نفسك فى حالتى الرضا والغضب والرغبة والرهبة». فيجيب العضو المحلف «نعم».

ثم يقول له الداعى: «وجعلت على نفسك أن تمنعنى وجميع من أسميه لك مما تمنع منه نفسك بعهد الله تعالى عليك وميثاقه وذمته وذمة رسله، وتنصحهم نصحا ظاهرا وباطنا، وألا تخون الإمام وأولياءه وأهل دعوته فى أنفسهم ولا فى أموالهم، وأنك لا تتأول فى هذه الأيمان تأويلاً ولا تعتقد ما يحلها، وأنك إن فعلت شيئا من ذلك فأنت برىء من الله ورسله وملائكته ومن جميع ما أنزل الله تعالى من كتبه وإنك إن خالفت فى شىء مما ذكرناه لك فلله عليك أن تحج إلى بيته مئة حجة ماشيا نذرا واجبا، وكل ما تملكه فى الوقت الذى أنت فيه صدقة على الفقراء والمساكين، وكل مملوك يكون فى ملكك يوم تخالف فيه أو بعده يكون حرا، وكل امرأة لك الآن لو يوم مخالفتك أو تتزوجها بعد ذلك تكون طالقا منك ثلاث طلقات. والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت به». فيقول المحلف «نعم».

ولا يقول نعم إلا إذا صح اعتقاده فى دينه الجديد. وعقد النية على أن يفى به مهما كلفه ذلك. ولا عبرة لما يتهمهم به أبو منصور من «أنه ليس لأيمانهم مقدار ولا حرمة، وأنهم لا يرون فيها ولا فى حلها إثما ولا كفارة ولا عارا ولا عقابا فى الآخرة»(1).

ذكر ابن الأثير أنه «جاء إنسان إلى على بن عيسى (وزير المقتدر) وأخبره أن فى جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة، يكاتب أباطاهر (زعيم القرامطة فى ذلك الوقت) بالأخبار، فأحضره وسأله. فاعترف وقال: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لك»(2).

---

(1) ص ٢٩٠.

(2) ج ٨ ص ١٢٧ (من طبعة ليدن سنة ١٨٦٢).

يقول بندلى : لا شك فى أن الأيمان وما كان يتخذه الدعاة من وسائل التأثير على إرادة الأعضاء البسطاء وسير حياتهم اليومية، كان من شأنه أن يربط هؤلاء الأعضاء رباطا متيناً برئيسهم الأعظم وبعضهم ببعض، ويجعلهم فى أيدى الدعاة الخبيرين آلة صماء بل أجسادا لا حراك لها (PERINDEAC CADAVER) يتصرفون فيها كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم وغاياتهم . ومن منا لم يسمع بجماعة الفدائيين أو الحشاشين - وكلهم من الإسماعيلية - الذين ذاع صيتهم فى أيام الصليبيين والسلجوقيين، واشتهر عنهم أنهم يقدمون على أعظم الأمور خطرا، ويضحون بأنفسهم حبا وإطاعة لرؤسائهم الروحيين ؟! ومعلوم أنهم لم يكونوا ليبلغوا هذه الدرجة من الإيمان وهذه الطاعة العمياء لزعمائهم إلا بعد رياضة عقلية طويلة، وبعد أن يتدرجوا من رتبة إلى رتبة أعلى منها، كما هى الحال فى الجمعيات السرية التى نرجح أنها ظهرت تحت تأثير الإسماعيلية(١) .

(٣) أساليبهم الجهنمية :

يقول بندلى جوزى : إن المطلع على أساليب الإسماعيلية وطرقهم السيكولوجية الدقيقة التى كانوا يستعملونها : إمّا لاستمالة الناس إلى مذهبهم، وإما للتسلط على إرادتهم وإبقائهم تحت طاعتهم التامة، ليعجب جدا من مهارة هؤلاء الناس ومعرفتهم الكاملة للنفس الإنسانية .

إن الغاية القصوى من هذه الأساليب والطرق الجهنمية، كما يذكر أبومنصور البغدادى والغزالى : أن يثير الداعى الشك فى نفس المدعو وفى عقائده الأصلية، ومبادئه السياسية والأدبية والاجتماعية، ويحمله على الدخول فى سلك الجمعية السرية صاحبة العلم الصحيح وكنز المعارف الحقيقية على زعمهم . والذى نعرفه عن أعمال هؤلاء الدعاة أن طرقهم كانت تؤدى إلى الغرض المطلوب إلا فيما ندر من الأحايين، وأن «بذورهم» كانت - كما كانوا هم يعبرون - تقع تقريبا دائما «فى أراض طيبة»، وأنه لم يكن ليضرهم إن وقعت فى «أرض سبخة» لأنهم كانوا دائما على حذر مما (٢) يقولون ويفعلون وممن كانوا يخاطبون، حتى إذا رأوا منهم إعراضا عن كلامهم أو

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام - بندلى جوزى أستاذ فى جامعة باكو ودكتور فى الآداب العربية .

(٢) وقالوا أيضا لدعاتهم لا تطرحوا بذركم فى أرض سبخة، وأرادوا بذلك منع دعاتهم عن إظهار بدعتهم عند من لا يؤثر فيهم بدعتهم كما لا يؤثر البذر فى الأرض السبخة أيضا» (انظر الفرق ٠٠٠ ص ٢٨٣) .

تفرسوا فيهم الخيانة وعدم الإخلاص للدعوة كانوا يحجمون عن الكلام أو يغيرون موضوعه، ويدخلون فى موضوع جديد لا علاقة له بالدعوى ولا خطر عليهم منه .

وهذا لم يكن بالأمر الصعب على الداعى الخبير، لأنه لم يكن بعد أدلى إلى مخاطبه بأمور مهمة، ولا كشف له عن سر من أسرار جمعيته يكون من ورائه ضرر عليها، وذلك لأن الدعاة لم يكونوا يطرقون فى أحاديثهم الأولى مع المبتدئين إلا المواضيع العامة التى كان يقصد بها التعرف بنفسية وعقلية المقبلين على الدعوة، وإثارة الرغبة فيهم إلى الدخول فى دين جديد، حتى إذا دخلوه وأقاموا فيه سنين أطلعوهم بالتدريج على تعاليم جمعيتهم وغاياتها الاجتماعية والأدبية وهكذا إلى أن يبلغ المدعو الرتبة السابعة - وقليل من كان يبلغها - ويقف بنفسه على غاية الجمعية القصوى وطرق الوصول إليها .

أما الدعاة أنفسهم، فلم يكونوا يبلغون إلا الدرجة الخامسة، وهى الدرجة التى كان يقف الداعى فيها على بعض أسرار الجمعية بعد أن يكون حلف الأيمان المذكورة فى الرتبة الرابعة . ومن لم يكن يبلغ هذه الدرجة كان يبقى عضوا بسيطا مطيعا مربوطا بإرادة غيره، وبالأخص بإرادة إمام الزمان الذى هو أعرف الناس بغايات الجمعية وأسرارها وأقدرهم على استخدام هؤلاء البسطاء .

يستفاد من أقوال بعض المؤرخين أن أعضاء الجمعية الإسماعيلية الذين بلغوا الدرجة الرابعة فقط، ولم يقسموا بعد الأيمان المطلوبة منهم، لم يكونوا يعرفون من بروجرام الجمعية إلا مبادئها الدينية والأدبية ، أما تعاليمها السياسية والاجتماعية فلم يكن يكشف لهم عنها إلا بعد الدرجة الرابعة وتأدية القسم المعلوم .

وذلك ليس فقط فى كتب المتقدمين، بل فى كتب معاصريهم من مسلمين ومسيحيين . فمنهم من زج الإسماعيلية بين الماديين ، ومنهم من حسبهم زنادقة يقولون بأزلية العالم ويكفرون بالشرائع والأنبياء ، ومنهم من كان يحشرهم بين أصحاب زرادشت والمجوس الذين كانوا لا يزالون يحلمون بإحياء دين الفرس القديم، ومنهم أخيرا من كان ينسبهم إلى السبئيين أو أصحاب الفلسفة اليونانية القديمة على اختلاف نحلها وطرقها .

خذ مثالا على ذلك رسالة تعزى [1] إلى بعض الإسماعيلية، تجد فيها من التهم القبيحة والأقوال الفظيعة الموجهة إلى الإسماعيلية، فقد جاء عنهم فى تلك الرسالة أنهم

(١) انظر مقالة المستشرق MASSIGNON فى دائرة المعارف الإسلامية ع٣٠ ص ٨١٦ .

« ملحدون دهريون إباحيون يستحلون المحرمات ويرتكبون أكبر الجرائم » ويسوغون استعمال جميع الوسائل إن هى أدت إلى الغاية المنشودة، وذكر أبو منصور البغدادى أن صاحب الرسالة المذكورة قال فيها ما يأتى: « وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسنا، وليست له زوجة فى حسنها، فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى. ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى. [1] وما وجه ذلك إلا لأن صاحبهم (النبى) حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذى يزعمونه، وأخبرهم بما لا يرونه أبدا من البعث من القبور والحساب والجنة والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً، وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا، واستباح بذلك أموالهم بقوله: **﴿ لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ﴾**. [2] فكان أمره معهم نقدا، وأمرهم معه نسيئة. وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟! وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج؟!»[3].

(٤) الإسماعيلية تنكر الشرائع والأديان:

نحن لا ننكر أن الإسماعيلية لم تنبذ فى الظاهر الشرائع المنزلة عامة والقرآن خاصة، وذلك لأنهم كانوا يرون فيها فائدة لطبقات الشعب الدنيا طبقات « العميان والحمير »، كما كانت الإسماعيلية تسميها. أما الطبقات العالية التى « فتح الله بصائرها وأبصارها» فأدركت الحقيقة، فهى - فى نظر الإسماعيلية وحسب اعتقادهم - فى غنى عن هذه الشرائع وشعائرها الخارجية، مما ينتج عنه أن زعماء الإسماعيلية كانوا يكفرون بالأديان الموحاة وعقائدها الأصلية، وهو ما ذكره كتبة المسلمين مرارا، وما لا يمكن أن ينكره أحد.

قال أبو منصور البغدادى إن القيروانى كتب فى رسالته التى وضعها لسليمان بن الحسن القرمطى ما حرفه: « إنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة فى السماء وإبطال الجن فى الأرض ». [4] وقال فى موضع آخر:

---

(١) الفرق: ص ٢٨١.

(٢) الشورى: ٢٣.

(٣) الفرق بين الفرق: ص ٢٩٠.

(٤) الفرق: ٢٨٠.

«والذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع» (١) .

إنهم كانوا يؤولون الشرائع الدينية وشعائرها تأويلاً باطنيا - ومنه عرفوا بالباطنية - يخالف ظواهرها، ولكن لا يخالف العقل السليم، وإنهم أخذوا تأويلهم هذا عن فلاسفة اليونان وخصوصا الأفلاطونيين الأحداث .

فكان من نتائج هذا التأويل أنهم قضوا على الشرائع المنزلة، وبذلك رفعوا شأن «إمام الزمان» وحصروا السلطة فى يديه .

منهجهم التأويل الباطنى : وجاء فى رسالة (٢) لهم محفوظة إلى اليوم ما معناه: «أن القول بالبحث مهزأة، لأن المراد من قولنا «الحياة الخالدة» و«خلود النفس» هو رجوع النفس إلى مصدرها الأصلى». وعلى هذه الطريقة أوّلوا عقيدة الدينونة فى اليوم الآخر وغيرها من العقائد الدينية الأساسية، وقالوا إن المؤمن الحقيقى هو من يؤول الوحى الإلهى على طريقتهم ، وأما من يتبع الشرائع المنزلة وأحكامها على ظواهرها فليس هو إلا كافرا وحمارا (٣) .

فأنت ترى من هذا أن الإسماعيلية كانوا يكرهون التفسير الظاهرى، وكانوا يحاولون أن يؤولوا أيات الشرائع وأحكامها تأويلاً باطنيا مبنيا على العقل (ratio) فقط. فهم إذن أول بدعة فى الإسلام يجوز أن تطلق على أصحابها اسم (العقليين) أو أهل العقل ،(rationalistes) بمعنى هذه الكلمة العصرى، فالفرق بينهم وبين المعتزلة أن الإسماعيلية كانوا يؤولون الديانات وأحكامها وشعائرها تأويلا يؤدى إلى نفيها، على حين أن المعتزلة كانوا يحاولون أن يوفقوا بين الدين والعقل بدون أن يضحوا أحدهما للآخر (٤) .

مراتب العقول : إن هذا المذهب الجديد الذى أراد الإسماعيلية أن ينشروه بين المسلمين وغير المسلمين ليس هو إلا إحدى نتائج تعليمهم الأساسى عن الدين ومكانه

(١) الفرق: ٢٧٨ .

(٢) انظر تأليف M . de Goeje ص ١٧١ .

(٣) انظر تأليف M . de Goeje ص ١٧١ .

(٤) تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام .

فى نظامهم الفلسفى . وما الدين الحقيقى فى نظرهم (١) إلا « أن يتوصل الإنسان بالتمرين المستمر والترقى من درجة إلى درجة إلى معرفة منازل الكون التى قطعتها العوالم (المسكونة) بعد أن انفصلت عن الله » ، أى « عن الفكر الواحد المطلق » (الغير المجسم) أو « العقل الأول » أو « النور الأعلى » المشع من نفسه فى المنزلة الثانية العقل العام والنفس العالمية ، وهما اللذان يحدثان - بعد أن يتغيرا - العقول الإنسانية وعقول الأنبياء والأئمة وخيرة الناس » ، أما سائر الناس فليس لهم عقول بل « أشباه العدم » ، إلا إذا انتقلوا إلى المنزلة الثانية بواسطة التنوير والتعليم . ولهذا التعليم درجات عديدة تقابل درجات التكريس التى تكلمنا عنها سابقا إذا سار الإنسان فيها بلغ الدرجة القصوى من الكمال العقلى والأدبى اللذين هما الغرض الأكبر من حياة الإنسان الدنيا . اما السبيل إلى بلوغ هذه الغاية فهو - على رأيهم - انماء القوى العقلية ثم السيرة الحسنة والحياة الأدبية الموافقة لمطالب العقل السليم وهذا يؤيد ما ذكرناه سابقا عن علو آداب الإسماعيلية على الاطلاق وينافى ما كان يتهمهم به بعض أعدائهم .

الأخوية الإسماعيليه فوق الشعوبية : أخيرا لأنه كانت بين الإسماعيلية - وما الإسماعيلية كما بينا إلا اخوية مؤلفة من جميع الأمم والنحل - فئة صغيرة من الفرس تعمل فى السر على إحياء مملكة العجم وإعادة مجد بنى ساسان ، إلا أن هذا الأمر - إذا صح - لا يقدح فى مذهب الإسماعيلية على الاطلاق لأنه كان أمميا مبنيا على أوليات فلسفية معلومة ، وما على المرتاب إلا أن ينعم النظر فى العناصر القومية المؤلفة منها أخوية الإسماعيلية فيرى هناك الفارسى والعربى والكردى والنبطى والهندى والتركى والبربرى . . . الخ قال أبو منصور البغدادى ، وقوله فى هذه المسائل ثقة ، « والذى يروج عليهم مذهب الباطنية أصناف احدها العامة الذين قتلت بصائرهم بأصول العلم والنظر كالقبط والأكراد وأولاد المجوس والصنف الثانى الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب . . والصنف الثالث أغنام (أغتام) بنى ربيعة من أجل غيظهم من مضر لخروج النبى منهم » (٢) .

نرى من هذه العبارة ومن غيرها مما لا حاجة إلى ذكره هنا ان الإسماعيلية هم حقيقة أول من تغلب فى الإسلام على العصبية القومية التى لم يقو عليها بنو أمية ولا بنو العباس وعلة ذلك أن الإسماعيلية أعلنوا من يوم أن ظهروا أن المسائل القومية لا تهمهم

(١) انظر Encyclop . musulmane ج ٣٠ ص ٨١٥ .

(٢) الفرق : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

لأن الغرض الذى يرمون إليه ويسعون إلى تحقيقه ليس بغرض قومى ، ولأن الأوهام القومية التى كانت تمزق فى تلك الأعصر جسم الدولة العباسية لا تتفق مع مبادئهم الفلسفية . فهم والشعوبية من هذا القبيل على طرفى نقيض بل ربما كان ظهورهم رد فعل ضد الشعوبية فإذا جاز أن نسمى الشعوبية حزب العصبية القومية (chauvinistes) المتطرف كانت الإسماعيلية حزب اللاقومية أو الأصح البينقومية international.

على أنه لا يجب أن يفهم من كلامنا هذا أن الإسماعيلية كانوا أعداء الشعوبيه او ظهروا لمقاومتهم فقط . كلا ! لأن كلا من هذين الحزبين كان مستقلا عن الثانى، يرمى إلى غايات متباينة، كان يتخذ للوصول إليها أساليب ووسائط مختلفة . بل يجوز أن يقال إنهما تلاقيا فى طريقهما التى قطعاها مستقلين، وسارا زمنا معلوما جنبا إلى جنب بدون أن يتصادما أو يقتتلا ، ولو اختلفت مبادئهما . وما ذلك إلا لأنه كانت هناك نقطة تجمع بينهما، وهى بغضهما للدولة الحاكمة والعصبية العربية . وهذا ما لاحظه وأشار إليه أبو منصور بقوله : « إن الشعوبية كانت تدخل فى دين الإسماعيلية وتؤيده »[١] .

يقول بندلى : وهنا يجدر بنا أن نستلفت نظر القارئ مرة أخرى إلى أن دعاة الإسماعيلية كانوا ينشرون دعوتهم بين جميع الأمم الخاضعة للدولة العباسية، وبين جميع الأحزاب والنحل الدينية ، لا يفرقون بين دين ودين أو حزب وحزب، لأن غرضهم الأكبر كان أن يدخلوا فى جمعيتهم عقلاء الناس . ولهذا كنت ترى بينهم ممثلى جميع الأمم والطبقات والأديان والآراء المتباينة المتضادة .

ازدهرت الإسماعيلية ثلاثة أعصر وأدت فى آخر الأمر إلى بناء دولة ضخمة فى مصر وشمالى إفريقيا وأبقت من الآثار ما خلد اسمها، ثم خلفت من الجماعات كالحشاشين والقرامطة والدروز وغيرهم من لا يزال أكثرهم حيا عاملاً إلى هذا اليوم[٢] .

ولو أردنا أن نبحث بالتدقيق عن تأثير الأفكار الإسماعيلية فى الآداب والفلسفة الإسلامية وحياة المجتمع الإسلامى، نكتفى بالإشارة إلى أن الأفكار التى بثها دعاة الإسماعيلية بين طبقات المسلمين وغير المسلمين كان من شأنها أن قلبت حياتهم رأسا على عقب، وأحدثت بينهم من التغيير ما لا تزال آثاره باقية إلى هذا اليوم .

---

(١) الفرق : ٢٨٥ .

(٢) تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام .

فالفلسفة مديونة لهم برسائل « إخوان الصفا »، وهى أول دائرة للعلوم والمعارف ظهرت فى العالم. وقد حاولوا أن يبثوا فيها مبادئهم العلمية ونظرهم الخاص إلى الطبيعة والإنسان، وينشروا فيها آراء فلاسفة اليونان الذين كانوا فى نظرهم من درجة الأنبياء أو أعلى. فمهدوا بذلك السبيل لفلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا وغيرهم، إذ لا شك فى أن كثيرا من نظريات هؤلاء الفلاسفة وأفكارهم السامية مأخوذ عن كتب الإسماعيلية. نذكر من ذلك نظرية الفلاسفة المذكورين إلى ما يعرف بالاستعداد للنبوة أو بعبارة أخرى «بالإمام الكامل» أو « الحكيم الكامل »، فإنها ولا شك من بنات أفكار الإسماعيلية. [1] ومثلها النظريات المبتكرة التى نجدها فى رواية حى بن يقظان لابن طفيل. ثم إن لهم أثارا بينة عميقة فى علم التفسير حيث ساعدوا على نشر مبدإ التأويل، وفى فلسفة التصوف حيث شعر بتأثيرهم فى كتب ابن عربى والغزالى والحلاج وغيرهم ناهيك عن متصوفى الفرس الذين كانوا ولا يزالون أكثر ميلاً إلى المبادئ الإسماعيلية من إخوانهم العرب. وأهم من ذلك فى نظرى أن الحركة الإسماعيلية مهدت السبيل لنشر الأفكار الحرة فى العالم الإسلامى، وجرأت الناس على المجاهرة بها بعد أن كانوا يخافون من البحث فى ما هو أقل منها خطرا، ولولا ذلك لما تجاسر ابن عربى أن يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى *** إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى (إلخ)

(٥) النتائج :

تكتم الإسماعيلية وإخفاؤهم عن الناس أسرارهم، واختلاف عناصرهم ونزعاتهم، وأن دعاتهم كانوا يراعون فى أقوالهم درجة سامعيهم العقلية والأدبية وعلاقتهم بالدين عامة وبالإسلام خاصة، وينظرون إلى قومياتهم وأميالهم السياسية والاشتراكية فكانوا يخاطبون كلا منهم بلسانه وبما يوافق أمياله وعواطفه ودرجة نموه العقلى، فربما كانوا يخاطبون الفارسى بغير ما كانوا يخاطبون به العربى، ويصطادون المسلم بخلاف ما كانوا يصطادون به غير المسلم، ويكاشفون الفلاسفة وأهل العلم والطبقة الراقية من الناس بغير ما كانوا يدعون به الطبقة السفلى وهلم جرّا. مما ينتج عنه أنه كان للإسماعيلية برنامجان (أعلى وأدنى) (maximum et minimum).

وحبذا أيضا لو اهتم علماؤنا بالبحث عن تأثير آرائها أن نذكر تاريخ الجماعات التى ولدتها الحركة الإسماعيلية كالفاطميين والحشاشين والقرامطة والإسماعيلية المتفرقة

(١) انظر مقالة Massignon عن القرامطة فى دائرة المعارف الإسلامية.

اليوم فى كثير من البلاد، ولهذا نرانا مجبرين أن نقتصر على ذكر جماعة واحدة فقط تجلت فيها روح الإسماعيلية فى أكمل صورة، وتحققت بينها أحلامهم الاجتماعية ونظامهم الاشتراكى. ولكنى أحب قبل أن أتكلم عن هذه الجماعة أن أبحث عن تهمة طالما اتهم بها الإسماعيلية خصومهم (١).

يعزو بعض المستشرقين ظهور الجزويت ونظامهم إلى تأثير الأخوية الإسماعيلية أو إلى من تأثر بتعاليمها ونظامها الداخلى من أصحاب الطرق الصوفية. ثم حبذا لو اعتنى أحد علمائنا بالبحث عن تأثير نظام الإسماعيلية وتعاليمهم فى نظام وتعاليم الماسونية وسائر الهيئات والجمعيات السرية والأخويات الرهبانية والأصناف أو نقابات المحترفين وطرق الدراويش . . . . إلخ.

نعم قد ظهرت فى السنوات الأخيرة بعض أبحاث فى هذه الموضوعات، حاولت أن تلقى أشعة من نور على بعض هذه المسائل الغامضة، إلا أنها جاءت ضعيفة لا تفى بالغرض ولا أصحابها من أهل العلم، ولا لهم معرفة باللغات والفلسفة الشرقية، ولهذا لا تزال هذه الأبحاث فى مهد الطفولية. ونحن وإن توافرت لدينا المواد المتعلقة بالموضوعات المذكورة وبما كان للإسماعيلية من التأثير على الهيئات الاجتماعية فى ذلك الوقت وبعده ونتائج مبادئهم العملية، فإنا لا نقدر لسوء الحظ ان نأتى عليها هنا وإلا اضطررنا أن نذكر زعماء هذا المذهب الذين أظهروا قساوة شديدة فى حروبهم ومعاملاتهم مع أعدائهم فى المبدإ، وأنهم أفرطوا فى قتل الأفراد والجماعات من أصحاب النفوذ والسلطة، وأنهم كانوا يستعملون كل الوسائل لإبادة أعدائهم والوصول إلى غاياتهم مهما كانت هذه الغايات. وحجة القائلين بذلك أعمال القرامطة والحشاشين وغيرهم من جماعات الإسماعيلية الذين دخلوا فيما بعد فى خدمة بعض السلاطين والأمراء، وأصبحوا آلة صماء فى أيديهم يستعملونها للانتقام من أعدائهم الشخصيين لأنه رسخ فى عقولهم (٢) « أن ضرر الإسماعيلية على الإسلام أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان . . . ولأن فضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر » (٣)، فلا ريب إذن فى أن الإسماعيلية حزب شديد البأس يكاد يكون حزبا حربيا خطته أقرب إلى الهجوم منها إلى الدفاع، حزب

---

(١) تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام - بندلى جوزى.

(٢) تاريخ الجمعيات السرية فى الإسلام - محمد عبد الله عنان.

(٣) الفرق: ٢٦٥، ٢٦٦.

حاول من يوم ظهر أن يقضى على دولة بنى العباس ويبنى على أنقاضها دولة جديدة ذات نظام اشتراكى، إلا أن هذا الحزب لم يكن يعمد فى بادئ الأمر إلا إلى الوسائل السلمية وهى الحجة والإقناع، إلى أن اضطره خصمه إلى الخروج عليه بالسلاح كما حدث سنة ٩٠٩ يوم دعته إلى ذلك ظروف الحال ومصالحه الحيوية . أما اغتيال الأفراد وقتلهم على غرة فلم يكن معروفا إلا عن فئة صغيرة من جماعة الحشاشين، وهى فئة - وإن كان لها صلة قرابة بالإسماعيليين - عرفت بينهم بالترف وكان لها برنامج وغايات تختلف عما لغيرها من جماعات الإسماعيلية كما كان لها وسائط خصوصية تستعملها للوصول إلى غايتها القصوى .

وحسبنا شاهدا على فسادها ما نتج عنها وخرج من بطنها القرامطة والفاطميون والحشاشون والدروز ، وإسماعيلية هذا اليوم والبابية والبهائية . . . . إلخ وما تحدثه من حروب أهليه .

على كل لا ريب فى أن الحروب الأهلية أشد همجية من غيرها ، وأن فوز أحد الطرفين المتطاحنين على مبدإ أو نظام جديد يكلف الإنسانية ضحايا أكثر مما تكلفها الحروب السياسية أو غيرها .

(٦) منهج أبى منصور البغدادى فى تأريخ فرق الإلحاد والزندقة :

يذهب أبو منصور البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق إلى ربط الفرق الإسلامية وفق قانون التجانس الفكرى . فمنها ما هو إسلامى يترابط بالأصول الإسلامية ، ومنها ما هو منتسب إلى الإسلام ظاهرا ويكيد له باطنا ، وهم الفرق الضالة . . . . . إلخ .

ويترابط هذا الصنف الخارج عن الملة الإسلامية بأصول شعوبيته أو عرقيته ، فقدم لفرق الإلحاد والزندقة وقد ارتد بتاريخهم ظهريا ليصنع منها سلسلة متواصلة الحلقات . فنراه يطلق اسم الروافض، أى الذين بدءوا فى تشويه التاريخ الإسلامى وصانعى الحضارة الإسلامية فيقول :

أما الروافض ، فإن السبئية منهم أظهروا بدعتهم فى زمان على رضى الله عنه ، فقال بعضهم لعلى : أنت الإله ، فأحرق علىّ قوما منهم ، ونفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن . وهذه الفرقة ليست من فرق أمة الإسلام لتسميتهم عليا إلها .

يقول أبو منصور البغدادى ، يبين صلة الروافض بفرق الغلاة : ثم افترقت الرافضة - بعد زمان علىّ رضى الله عنه - أربعة أصناف : زيدية ، وإمامية ، وكيسانية ، وغلاة .

وافترقت الزيدية فرقا ، والإمامية فرقا ، والغلاة فرقا . كل فرقة منها تكفر سائرها . وجميع فرق الغلاة منهم خارجون عن فرق الإسلام . فاما فرق الزيدية وفرق الإمامية فمعدودون فى فرق الأمة [1] .

ويقول فى موضع آخر : والفرق المنتسبة إلى الإسلام فى الظاهر مع خروجها عن جملة الأمة عشرون فرقه :

سبئية ، وبيانية ، وحربية ، ومطيرية ، ومنصورية ، وجناحية ، وخطابية ، وغرابية ، ومفوضية ، وحلولية ، وأصحاب التناسخ ، وضابطية، وحمارية ومُعَنّعية، ورزامية، وزيدية ، وميمونية ، وباطنية، وحلاجية ، وعذاقرية ، وأصحاب إباحة . وربما تشعبت الفرقة الواحدة من هذه الفرق أصنافا كثيرة .

(١) الفرق بين الفرق : ص ٢١ .

٧ ـ من فرق الزندقة والإباحية

(١) الرزامية :

وأما الرزامية [(١)] ، فقوم بروأفرطوا [(٢)] فى موالاة أبى مسلم صاحب دولة بنى العباس [(٣)] ، وساقوا الإمامة من أبى هاشم [(٤)] إليه ، ثم ساقوها من محمد بن على إلى أخيه عبد الله بن على السفاح ، ثم زعموا أن الإمامة بعد السفاح صارت إلى أبى

(١) انظرفى شأن هذه الفرقة(الرزامية) : مقالات الإسلاميين : ١/ ٩٤–والملل والنحل : ١/ ١٥٣–والتبصير : ص٧٦ .

(٢) لم يزدالأشعرى فى تسمية صاحب هذه الفرقةعن قوله " أصحاب رجل يقال له رزام " . وقال الشهرستانى : " أتباع رزام بن رزم " وسكت الإسفرائينى عن تسميته البتة كما سكت المؤلف .

(٣) أبومسلم : هوعبدالرحمن بن مسلم، وقيل : عثمان ، الخراسانى ، القائم بالدعوة إلى العباسيين . ويقال : هو إبراهيم بن يساربن سدود ، من ولد بزرجمر بن البختكان ، الفارسى ، يقال : إن إبراهيم الإمام قال له : غير اسمك ، فما يتم لنا هذا الأمر حتى تغير اسمك . فسمى نفسه عبدالرحمن ، وقد بذل الجهد فى إقامة دولة بنى العباس ، فلما توطدت أركانها وأقيمت دعائمها ، قتله أبو جعفر المنصور فى شعبان من سنة ١٣٧ ، ويقال : سنة ١٣٦ ،ويقال : من سنة ١٤٠ (الترجمة رقم٣٤٥ من وفيات الأعيان لابن خلكان) .

(٤) فى هذه العبارة نقص أحدث فيها اضطرابًا ، وقد وقعت على وجه الصواب فى التبصير وفى الملل والنحل ، وهى هكذا : " وقالوا : إن الإمامة انتقلت من أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن عبدالله بن العباس بوصية من أبى هاشم ، ثم انتقلت من محمد إلى ابنه إبراهيم ثم من إبراهيم إلى عبد الله الذى كان يدعى أبا العباس السفاح ، ومنه إلى أبى مسلم " اهـ من التبصير . وقال الشهرستانى فزاد فى الانتقال خطوة «ساقوا الإمامة من على إلى ابنه محمد ، ثم إلى ابنه أبى هاشم، ثم منه إلى على بن عبد الله بن العباس بالوصية، ثم إلى محمد بن على ، وأوصى محمد .

مسلم، وأقروا - مع ذلك - بقتل أبى مسلم وموته ، إلا فرقة منهم يقال لهم " أبو مسلمية " [1] أفرطوا فى أبى مسلم غاية الإفراط ، وزعموا أنه صار إلهيا بحلول روح الإله فيه ، وزعموا أن أبا مسلم خير من جبريل وميكائيل وسائر الملائكة . وزعموا أيضا أن أبا مسلم حى لم يمت ، وهم على انتظاره ، وهؤلاء بمرو هراة يعرفون بالبركوكية . فإذا سئل هؤلاء عن الذى قتله المنصور قالوا : كان شيطانا تصور للناس فى صورة أبى مسلم .

(٢) المقنعية :

وأما المقنعية : فهم المبيضة [2] بما وراء نهر جيحون . وكان زعيمهم المعروف بالمقنع رجلا أعور قصارا بمرو ، من أهل قرية يقال لها " كازه كيمن دات " وكان قد عرف شيئا من الهندسة والحيل والنيرنجات ، وكان على دين الرزامية بمرو ، ثم ادعى لنفسه الإلهية ، واحتجب عن الناس ببرقع من حرير [3] ، واغتر به أهل جبل إبلاق وقوم من الصغد ، ودامت فتنته على المسلمين مقدار أربع عشرة سنة ، وعاونه كفرة الأتراك الخلجية على المسلمين للغارة عليهم ، وهزموا عساكر كثيرة من عساكر المسلمين فى أيام المهدى بن المنصور .

وكان المقنع قد أباح لأتباعه المحرمات وحرم عليهم القول بالتحريم ، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات . وزعم لأتباعه أنه هو الإله ، وأنه كان قد تصور مرة فى صورة آدم ، ثم تصور فى وقت آخر بصورة نوح ، وفى وقت آخر بصورة إبراهيم ،

---

(١) انظر فى شأن هذه الفرقة مقالات الإسلاميين : ١/ ٩٤ ، وقد جعل هاتين الفرقتين الرزامية والأبو مسلمية فرعين لفرقة سماها الراوندية . وقد سمى الرازى متبوع هذه الفرقة أبا هريرة الراوندى (انظر اعتقادات فرق المسلمين ص ٦٣) .

(٢) انظر فى شأن هذه الفرقة : الملل والنحل : ١/ ١٥٤-والتبصير ص ٧٦ - ويقول الذهبى فى حوادث سنة ١٦١ (العبر : ١/ ٢٣٥) : " وفيها كان ظهور عطاء المقنع الساحر الملعون الذى ادعى الربوبية بناحية مرو ، واستغوى خلائق لا يحصون ، وأرى الناس قمرا ثانيا فى السماء ، كان يرى إلى مسيرة شهرين " اهـ .

(٣) ويقول فى حوادث سنة ١٦٣ (العبر : ١/ ٢٤٠): " فيها قتل المهدى جماعة من الزنادقة ، وصرف همته إلى تتبعهم ، وأتى بكتب من كتبهم فقطعت بحضرته بحلب . وفيها بالغ سعيد الجرشى فى حصار عطاء المقنع ، فلما أحس الملعون بالغلبة استعمل سما ، وسقى نساءه فأهلكهم الله ، ودخل المسلمون الحصن فقطعوا رأسه ووجهوا به إلى المهدى ، فوافاه بحلب ، وكان قد اتخذ وجها من ذهب ، واستغوى الناس بالسحر ، وأطلع لهم قمرا يرى من مسيرة شهرين " . وانظر مع ذلك الترجمة رقم ٣٩٣ من وفيات الأعيان لابن خلكان .

ثم تردد فى صور الأنبياء إلى محمد ، ثم تصور بعده فى صورة علىّ ، وانتقل بعد ذلك فى صور أولاده ، ثم تصور بعد ذلك فى صورة أبى مسلم . ثم إنه زعم أنه فى زمانه الذى كان قد تصور بصورة هشام بن حكيم وكان اسمه هشام بن حكيم .

وزعموا أنه صعد إلى السماء . وأتباعه اليوم فى جبال إيلاق أكرة أهلها ، ولهم فى كل قرية من قراهم مسجد لا يصلون فيه ، ولكن يكترون مؤذنا يؤذن فيه . وهم يستحلون الميتة والخنزير ، وكل واحد منهم يستمتع بامرأة غيره .

(٣) الحلمانية :

وأما الحلمانية من الحلولية (١) : فهم المنسوبون إلى أبى حلمان الدمشقى ، وكان أصله من فارس ، ومنشؤه حلب ، وأظهر بدعته بدمشق ، فنسب لذلك إليها . وكان كفره من وجهين :

أحدهما : أنه كان يقول بحلول الإله فى الأشخاص الحسنة . وكان مع أصحابه إذا رأوا صورة حسنة سجدوا لها يوهمون أن الإله قد حل فيها .

والوجه الثانى من كفره : قوله بالإباحة ، ودعواه أن من عرف الإله على الوصف الذى يعتقده هو زال عنه الحظر والتحريم ، واستباح كل ما يستلذه ويشتهيه . وأمر بقتل ابن أبى العذافرة وصاحبه ابن أبى عون ، فقال له ابن أبى العذافرة : أمهلنى ثلاثة أيام لتنزل فيها براءتى من السماء ونقمة على أعدائى . وأشار الفقهاء على الراضى بتعجيل قتلهما ، فصلبهما ثم أحرقهما بعد ذلك ، وطرح رمادهما فى الدجلة .

(٤) أصحاب الإباحية من الخرّمية (٢) :

فهؤلاء صنفان : صنف منهم كانوا قبل دولة الإسلام ، كالمزدكية الذين استباحوا المحرمات وزعموا أن الناس شركاء فى الأموال والنساء . ودامت فتنة هؤلاء إلى أن قتلهم أنو شروان فى زمانه .

---

(١) قد سمعت فى عبارة الذهبى أنه كان قد اتخذ وجها من ذهب (١٧ الفرق بين الفرق) .

(٢) تحدث المسعودى فى مروج الذهب (٣/ ٣٠٥) عن الخرمية وفروعها ، وانظر – مع ذلك – التبصير : ص ٧٩ – وانظر عن المزدكية : التبصير : ٧٩ ـ والملل والنحل : ١/ ٢٤٩ – والفصل لابن حزم : ١/ ٣٤ ، ٣٧ .

والصنف الثانى [1] : الخرمية ، ظهروا فى دولة الإسلام ، وهم فريقان بابكية ، ومازيارية ، وكلتاهما معروفة بالمحمرة .

فالبابكية منهم : أتباع بابك الخرمى الذى ظهر فى جبل البدين بناحية آذربيجان ، وكثر بها أتباعه ، واستباحوا المحرمات ، وقتلوا الكثيرين من المسلمين ، وجهز إليه خلفاء بنى العباس جيوشا كثيرة مع أفشين الحاجب .

(٥) الخرمية الباطنية : (٢)

ولما نمى قتل أبى مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال ، اضطربت الخرمية ، وهى الطائفة التى تدعى بالمسلمين والقائلون بأبى مسلم وإمامته ، وقد تنازعوا فى ذلك بعد وفاته : فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلا ، وفرقة قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة وهؤلاء يدعون الفاطمية . وأكثر الخرمية ٣٣٢ الكركديه واللودشاهيه من أعظم فرق الخرمية ومنهم بابك الخرمى الذى خرج على المأمون والمعتصم بالبدين من أرض الران وآذربيجان .

وأكثر الخرمية ببلاد خراسان والرس وأصبهان وآذربيجان وكرج وأبى دُلف والبرج وبموضع المعروف بالرذ بورسنجان . . . . . إلخ من بلاد ماسبذان من تلك الأمصار وأكثر هؤلاء فى القرى والضياع ، وهؤلاء يعرفون فى خراسان وغيرها بالباطنية .

وأما المازيارية منهم ، فهم أتباع مازيار الذى أظهر دين المحمرة بجرجان .

وللبابكية فى جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر وتختلط فيها

(١) بابك : رجل فارسى مجوسى الأصل ، دخل فى الإسلام ، وتسمى الحسن – ووقع فى بعض الأصول الحسين – وكان قوى النفس . شديد البطش ، صعب المراس . وحدثته نفسه الخبيثة بأن يسترجع ملك فارس ودينها . فاستعصم بالجبل المعروف بالبدين من أصل الران . وفى سنة ٢٠١ فى عهد المأمون العباسى أظهر أمره ، وأعلن العصيان . وفى سنة ٢١٢ جهز له المأمون جيشا بقيادة محمد بن حميد الطوسى ، والتقى الجيشان فى سنة ٢١٤ فهزم بابك جيش الخليفة ، وقتل محمد بن حميد الطوسى . وفى سنة ٢٢٠ جهز المعتصم جيشا بقيادة الأفشين ، فالتقى الجيشان فهزم الأفشين جيش بابك ، وقتل من الخرمية أتباع بابك نحو الألف ، ثم هرب بابك إلى موقان . ثم التقيا مرة أخرى فى سنة ٢٢٢ فهزمهم الأفشين هزيمة منكرة ، ونجا بابك . فلم يزل الأفشين يتحيل له حتى أسره فى جبال أرمينية ، ثم أخذه إلى المعتصم . وفى سنة ٢٢٣ أمر المعتصم بقطع أطرافه وصلبه (العبر : ١/ فى مواضع شتى انظرها فى الفهرس – ومروج الذهب : ٤/ ٥٥ بتحقيقنا) .

(٢) رأى المسعودى : مروج الذهب ج٣ .

رجالهم ونساؤهم ، فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال النساء على تقدير من عزيز .

والبابكية ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم فى الجاهلية اسمه شروين ، ويزعمون أن أباه كان من الزنج ، وأمه بعض بنات ملوك الفرس ، ويزعمون أن شروين كان أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء . وقد بنوا فى جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها المسلمون ، وهم يعلمون أولادهم القرآن ، لكنهم لا يصلون فى السر ، ولا يصومون فى شهر رمضان ، ولا يرون جهاد الكفرة .

مازيار : وكانت فتنة مازيار قد عظمت فى ناحيته ، إلى أن أخذ فى أيام المعتصم أيضا ، وصلب بسر من رأى بحذاء بابك الخرمى .

وأتباع مازيار اليوم فى جبلهم أكرة من يليهم من سواد جرجان ، يظهرون الإسلام ويضمرون خلافه ، والله المستعان على أهل الزيغ والطغيان .

(٦) أصحاب التناسخ :

* فأصحاب التناسخ من السمنية قالوا بقدم العالم ، وقالوا – أيضا – بإبطال النظر والاستدلال ، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس ، وأنكر أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت . وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح فى الصور المختلفة ، وأجازوا أن ينقل روح الإنسان إلى كلب ، وروح الكلب إلى إنسان ، ومن أعجب الأشياء دعوى السمنية فى التناسخ الذى لا يعلم بالحواس ، مع قولهم : إنه لا معلوم إلا من جهة الحواس .

* وقد ذهبت المانوية أيضا إلى التناسخ ، وذلك أن مانى قال فى بعض كتبه : إن الأرواح التى تفارق الأجسام نوعان : أرواح الصديقين ، وأرواح أهل الضلالة . فأرواح الصديقين إذا فارقت أجسادها سرت فى عمود الصبح إلى النور الذى فوق الفلك ، فبقيت فى ذلك العالم على السرور الدائم . وأرواح أهل الضلال إذا فارقت الأجساد وأرادت اللحوق بالنور الأعلى ، ردت منعكسة إلى السفل ، فتتناسخ فى أجسام الحيوانات إلى أن تصفو من شوائب الظلمة ثم تلتحق بالنور العالى .

وذكر أصحاب المقالات عن سقراط وأفلاطون وأتباعهما من الفلاسفة أنهم قالوا بتناسخ الأرواح ، على تفصيل قد حكيناه عنهم فى كتاب " الملل والنحل " .

وقال بعض اليهود بالتناسخ ، وزعم أنه وجد فى كتاب دانيال أن الله تعالى مسخ بختنصر [١] فى سبع صور من صور البهائم والسباع ، وعذبه فيها كلها ثم بعثه فى آخرها موحدا .

وأما أهل التناسخ فى دولة الإسلام فإن البيانية والجناحية والخطابية ، والراوندية من الروافض الحلولية ، كلها قالت بتناسخ روح الإله فى الأئمة بزعمهم .

وأول من قال بهذه الضلالة السبئية من الرافضة ، لدعواهم أن عليّا صار إلها حين حل روح الإله فيه .

وزعمت البيانية منهم أن روح الإله دارت فى الأنبياء ، ثم فى الأئمة إلى أن صارت فى بيان بن سمعان .

وادعت الجناحية منهم مثل ذلك فى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر .

وكذلك دعوى الخطابية فى أبى الخطاب ، وكذلك دعوى قوم من الديوندية فى أبى مسلم صاحب دولة بنى العباس .

فهؤلاء يقولون بتناسخ روح الإله دون أرواح الناس ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً .

وأما أهل التناسخ من القدرية فجماعة ، منهم : أحمد بن خابط ، وكان معتزليا منتسبا إلى النظام ، وكان على بدعته فى الطفرة ، وفى نفى الجزء الذى لا يتجزأ ، وفى نفى قدرة الله تعالى على الزيادة فى نعيم أهل الجنة أو فى عذاب أهل النار ، وزاد على النظام فى ضلالته فى التناسخ .

ومنهم : أحمد بن محمد القحطى ، وافتخر بأنه كان منهم فى التناسخ والاعتزال .

---

(١) بختنصر : رجل من العجم ، كان فى خدمة لهراسب الملك . ووجهه لهراسب إلى الشام وبيت المقدس ليجلى اليهود عنها ، فسار إليها ثم انصرف . ثم وجهه بهمن الملك ليجلى اليهود عن بيت المقدس مرة أخرى بسبب وثوب صاحب بيت المقدس على رسول كان بهمن وجهه إليه . وأمر بهمن بختنصر أن يقتل مقاتلتهم ويسبى ذراريهم، فسار إليهم فى جموع كثيرة ، فسباهم وهدم البيت وانصرف إلى بابل (تاريخ الطبرى : ٢/ ٥٤١ط دار المعارف) .

(٧) عبد الكريم بن أبى العوجاء :

ومنهم : عبد الكريم بن أبى العوجاء، وكان خال معن بن زائدة ، وجمع بين أربعة أنواع من الضلالة ، أحدها : أنه كان يرى فى السرّ دين المانوية من الثنوية ، والثانى : قوله بالتناسخ ، والثالث : ميله إلى الرافضة فى الإمامة ، والرابع : قوله بالقدر فى أبواب التعديل والتجوير . وكان وضع أحاديث كثيرة بأسانيد يغتر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل ، وتلك الأحاديث الشريفة . وهو الذى أفسد على الرافضة صوم رمضان بالهلال ، وردهم عن اعتبار الأهلة بحساب وضعه لهم ، ونسب ذلك الحساب إلى جعفر الصادق . ورفع خبر هذا الضال إلى أبى جعفر محمد بن سليمان عامل المنصور على الكوفة ، فأمر بقتله ، فقال : لن يقتلونى ، لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت بها الحرام وحرمت بها الحلال ، وفطرت الرافضة فى يوم من أيام صومتهم فى يوم من أيام فطرهم .

اعلموا - أسعدكم الله - أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم ، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان ، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال فى وقت ظهوره ، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يوما ، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر .

(٨) ميمون بن ديصان المعروف بالقداح :

وقد حكى أصحاب المقالات أن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة : منهم : " ميمون بن ديصان " المعروف بالقداح (١) ، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق ، وكان من الأهواز . ومنهم : محمد بن الحسين الملقب بدندان ، اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان فى سجن والى العراق ، فأسسوا فى ذلك السجن مذاهب الباطنية ، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان ، وابتدأ بالدعوة فى ناحية توز ، فدخل فى دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدين . ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب وانتسب فى تلك الناحية إلى عقيل بن أبى طالب ، وزعم أنه من نسله . فلما دخل فى دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم

---

(١) عند الفخر الرازى: " عبد الله بن ميمون القداح " .

ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، فقبل الأغبياء ذلك منه على جهل منهم بأن محمد بن إسماعيل جعفر مات ولم يعقب عند علماء الأنساب .

(٩) القرامطة :

ثم ظهر فى دعوته إلى دين الباطنية رجل يقال له حمدان قرمط ، لقب بذلك لقرمطة فى خطه أو فى خطوه وكان فى ابتداء أمره أكارا من أكرة سواد الكوفة ، وإليه تنسب القرامطة .

ثم ظهر بعده فى الدعوة إلى البدعة أبو سعيد الجنابى وكان من مستجيبة حمدان ، وتغلب على ناحية البحرين ، ودخل فى دعوته بنو سنير[١] .

ثم لما تمادت الأيام بهم ، ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن ميمون بن ديصان القداح ، فغير اسم نفسه ونسبه ، وقال لأتباعه : أنا عبد الله بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق . ثم ظهرت فتنته بالمغرب وأولاده اليوم مستولون على أعمال مصر .

وظهر منهم المعروف بابن زكرويه بن مهرويه الدندانى ، وكان من تلامذة حمدان قرمط ، وظهر مأمون أخو حمدان قرمط بأرض فارس ، وقرامطة فارس يقال لهم " المأمونية " لأجل ذلك .

ودخل أرض الديلم رجل من الباطنية يعرف بأبى حاتم فاستجاب له جماعة من الديلم منهم أسفار بن شرويه .

وظهر بنيسابور داعية لهم يعرف بالشعرانى ، فقتل بها فى ولاية أبى بكر بن حجاج عليها . وكان الشعرانى قد دعا الحسين بن على المروزى ، وقام بدعوته بعده محمد بن أحمد النسفى داعية أهل ما وراء النهر ، وأبو يعقوب السجزى المعروف ببندانه ، وصنف النسفى لهم كتاب " المحصول " وصنف لهم أبو يعقوب كتاب " أساس

---

(١) هكذا وقع فى مطبوعتى هذا الكتاب . ويترجح عندنا أن صوابها " ابن سنير " فقد ورد هذا الاسم فى وفيات الأعيان فى موضوع الحجر الأسود وأخذ القرامطة له ثم ردهم إياه . قال ابن خلكان (١/ ٤١١) : " ولما أرادوا رده حملوه إلى الكوفة ، وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس ، ثم حملوه إلى مكة ، وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة ، وقد ذكر غير شيخنا (يزيد بن الأثير) أن الذى رده هو ابن سنير ، وكان من خواص أبى سعيد " اهـ .

الدعوة " وكتاب " تأويل الشرائع " وكتاب " كشف الأسرار " وقتل النسفى والمعروف ببندانه على ضلالتهما .

(١٠) الباطنية والبابكية :

وذكر أصحاب التواريخ أن دعوة الباطنية ظهرت أولا فى زمان المأمون ، وانتشرت فى زمان المعتصم ، وذكروا أنه دخل فى دعوتهم الأفشين[١] صاحب جيش المعتصم ، وكان مراهنا لبابك الخرمى . وكان الخرمى مستعصيا بناحية البدين ، وكان أهل جبله خرمية على طريقة المزدكية ، فصارت الخرمية مع الباطنية يدا واحدة . واجتمع مع بابك - من أهل البدين وممن انضم إليهم من الديلم مقدار ثلاثمائة ألف رجل ، وأخرج الخليفة لقتالهم الأفشين فظنه ناصحا للمسلمين ، وكان فى سره مع بابك ، وتوانى فى القتال معه ، ودله على عورات عساكر المسلمين ، وقتل الكثير منهم ، ثم لحقت الأمداد بالأفشين ، ولحق به محمد بن يوسف الثغرى ، وأبو دلف القاسم بن عيسى العجلى[٢] ، ولحق به بعد ذلك قواد عبد الله بن طاهر . واشتدت شوكة البابكية والقرامطة على عسكر المسلمين ، حتى بنوا لأنفسهم البلدة المعروفة ببرزند خوفا من بلاد البابكية ، ودامت الحرب بين الفريقين سنين كثيرة ، إلى أن أظفر الله المسلمين بالباكية ، فأسر بابك وصلب "بسر من رأى " سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ثم أخذ أخوه إسحاق ، وصلب ببغداد مع مازير صاحب المحمرة بطبرستان وجرجان . ولما قتل بابك ظهر للخليفة غدر الأفشين وخيانته للمسلمين فى حروبه مع بابك ، فأمر بقتله وصلبه ، فصلب لذلك .

أساس الباطنية : وذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولم يجسروا على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين ، فوضع الأغمار منهم أسسا من قبلها منهم صار فى الباطن إلى تفضيل أديان المجوس ، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبى عليه السلام على موافقة أسسهم . وبيان ذلك أن الثنوية زعمت أن النور والظلمة صانعان قديمان ، والنور منهما فاعل الخيرات والمنافع ، والظلام فاعل الشرور والمضار ، وأن الأجسام ممتزجة من النور والظلمة وكل واحد منهما مشتمل على أربع طبائع - وهى : الحرارة ، والبرودة ،

---

(١) قدمنا ترجمة الأفشين ، وذكرنا أراء الناس فيه ، وسر مقتله .

(٢) تقدمت ترجمة أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى فى .

والرطوبة ، واليبوسة. والأصلان الأولان مع الطبائع الأربع مدبرات هذا العالم ، وشاركهم المجوس فى اعتقاد صانعين ، غير أنهم زعموا أن أحد الصانعين قديم وهو الإله الفاعل للخيرات ، والآخر شيطان محدث فاعل للشرور. وذكر زعماء الباطنية فى كتبهم أن الإله خلق النفس ، فالإله هو الأول، والنفس هو الثانى ، ثم قالوا : إنهما يدبران العالم " هو بعينه قول المجوس بإضافة الحوادث لصانعين أحدهما قديم والآخر محدث ، إلا أن الباطنية عبرت عن الصانعين بالأول والثانى، وعبر المجوس عنهما بيزدان وأهرمن. فهذا هو الذى يدور فى قلوب الباطنية ، ووضعوا أساسا يؤدى إليه " .

ولم يمكنهم إظهار عبادة النيران ، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين : ينبغى أن تجمر المساجد كلها ، وأن تكون فى كل مسجد مجمرة يوضع عليها الند والعود فى كل حال، وكانت البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبدا ، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة .

ثم إن الباطنية لما تأولت أصول الدين على الشرك احتالت أيضا لتأويل الشريعة.

والذى يدل على أن هذا مرادهم بتأويل الشريعة أنهم قد أباحوا لأتباعهم نكاح البنات والأخوات ، وأباحوا شرب الخمر وجميع اللذات .

ويؤكد ذلك أن الغلام الذى منهم بالبحرين والأحساء بعد سليمان بن الحسن القرمطى سن لأتباعه اللواط ، وأوجب قتل الغلام الذى يمتنع على من يريد الفجور به، وأمر بقطع يد من أطفأ نارا بيده ، وبقطع لسان من أطفأها بنفخه . وهذا الغلام هو المعروف بابن أبى زكريا الطامى ، وكان ظهوره فى سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، وطالت فتنته إلى أن سلط الله تعالى عليه من ذبحه على فراشه .

ويؤكد ما قلناه من ميل الباطنية إلى دين المجوس أنا لا نجد على ظهر الأرض مجوسيا إلا وهو موادهم، منتظر لظهورهم على الديار ، يظنون أن الملك يعود إليهم بذلك . وربما استدل آغمارهم على ذلك بما يرويه المجوس عن زرادشت أنه قال لكشتاسف : إن الملك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ، ثم يعود إلى الفرس ، ثم يزول عن الفرس إلى العرب ، ثم يعود إلى الفرس ، وساعده جاماست المنجم على

ذلك ، وزعم أن الملك يعود إلى العجم لتمام ألف وخمسمائة سنة من وقت ظهور زرادشت .

وكان فى الباطنية رجل يعرف بأبى عبد الله العردى يدعى علم النجوم، ويتعصب للمجوس ، وصنف كتابا فيه أن القرن الثامن عشر من مولد محمد صلى الله عليه وسلم يوافق الألف العاشر ، وهو نوبة المشترى والقوس . وقال : عند ذلك يخرج إنسان يعيد الدولة المجوسية . ويستولى على الأرض كلها . وزعم أنه يملك مدة سبع قرانات ، وقالوا : قد تحقق حكم زرادشت وجاماسب فى زوال ملك العجم إلى الروم واليونانية فى أيام الإسكندر ، ثم عاد إلى العجم بعد ثلاثمائة سنة ، ثم زال بعد ذلك ملك العجم إلى العرب ، وسيعود إلى العجم لتمام المدة التى ذكرها جاماسب . وقد وافق الوقت الذى ذكروه أيام المكتفى والمقتدر ، وأخلف موعودهم ، وما رجع الملك فيه إلى المجوس . وكان القرامطة قبل هذا الميقات يتواعدون فيما بينهم ظهور المنتظر فى القران السابع فى المثلثة النارية .

وخرج منهم سليمان بن الحسن من الأحساء على هذه الدعوى (١) ، وتعرض للحجيج ، وأسرف فى القتل منهم ، ثم دخل وقتل من كان فى الطواف وأغار على أستار الكعبة ، وطرح القتلى فى بئر زمزم ، وكسر كثيراً من عساكر المسلمين. وانهزم فى بعض حروبه إلى هجر ، فكتب للمسلمين قصيدة يقول فيها :

أغركم منى رجوعى إلى هجر؟!	وعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ فى أرض بابل	وقارنه النجمان فالحذر الحذر
ألست أنا المذكور فى الكتب كلها؟!	ألست أنا المبعوث فى سورةالزمر؟!
سأملك أهل الأرض شرقا ومغربا	إلى قيروان الروم والترك والخزر

وأراد بالنجمين زحل والمشترى . وقد وجد هذا القران فى سنى ظهوره، ولم يملك من الأرض شيئا غير بلدته التى خرج منها ، وطمع فى أن يملك سبع قرانات، وما ملك سبع سنين ، بل قتل بهيت ، رمته امرأة من سطحها بلبنة على رأسه فدمغته .

وفى آخر سنة ألف ومائتين وأربعين للإسكندر تم من تاريخ زرادشت ألف

(١) سنتحدث عن سليمان هذا فيما يلي إن شاء الله .

وخمسمائة سنة ، وما عاد فيها ملك الأرض إلى المجوس ، بل اتسع بعدها نطاق الإسلام في الأرض ، وفتح الله تعالى للمسلمين بعدها بلاد بلاساغون ، وأرض التبت ، وأكثر نواحى الصين ، ثم فتح لهم بعدها جميع أرض الهند من لمفات إلى قنوج ، وصارت أرض الهند إلى سيتر سيقا بحرها من رقعة الإسلام فى أيام يمين الدولة أمين الملة محمود بن سبكتكين(١) رحمه الله ، وفى هذا رغم ألوف الباطنية والمجوس الجاماسبية الذين حكموا بعود الملك إليهم ، فذاقوا وبال أمرهم ، وكان عاقبة أمانيهم بورا بحمد الله ومنه .

ثم إن الباطنية خرج منهم عبيد الله بن الحسين بناحية القيروان (٢) وخدع قوما من كتامة ، وقوما من المصامدة ، وشرذمة من أغتام بربر بحيل ونيرنجات أظهرها لهم كرؤية الخيالات بالليل من خلف الرداء والإزار ، وظن الأغمار أنها معجزة له فتبعوه لأجلها على بدعته ، فاستولى بهم على بلاد المغرب . ثم خرج المعروف منهم بأبى سعيد الحسن ابن بهرام على أهل الأحساء والقطيف والبحرين فأتى بأتباعه على أعدائه ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وأحرق المصاحف والمساجد ، ثم استولى على هجر ، وقتل رجالها ، واستعبد ذراريهم ونساءهم . ثم ظهر المعروف منهم بالصناديقى باليمن وقتل الكثير من أهلها ، حتى قتل الأطفال والنساء ، وانضم إليه المعروف منهم بابن الفضل

---

(١) هو يمين الدولة أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبو منصور سبكتكين . كان أبوه أمير الغزاة الذين يغيرون من بلاد ما وراء النهر على أطراف الهند ، فأخذ عدة قلاع . وأما محمود فافتتح غزنة ثم بلاد ما وراء النهر ، ثم استولى على سائر خراسان وأفغانستان وتركستان وطبرستان وسجستان وكشمير وشمالى الهند ، وعظم ملكه ، ودانت له الأمم ، وفرض على نفسه غزو الهند فى كل عام ، فافتتح منه بلادًا واسعة ، وكان قوى العزم صادق النية فى الجهاد وإعلاء كلمة الله ، ما خلت سنة من سنى ملكه عن غزوة أو سفرة ، وكان – مع ذلك – ذكيا ، بعيد الغور ، موفق الرأى ، مظفرا فى غزواته ، وكان مجلسه مورد العلماء ، وقد صنفت فى أيامه تواريخ ، وحفظت حركاته وأحواله ، ومنها تاريخ أبى نصر العتبى الذى سماه "اليمينى" نسبة إليه ، وقد طبع شرح له بمصر فى سنة ١٢٨٦ . وتوفى يمين الدولة فى جمادى الأولى من سنة ٤٢١ (العبر : ٣/ ١٤٥ مع زيادات) .

(٢) هو عبيد الله الملقب بالمهدى ، والد الخلفاء العبيديين الفاطميين . كان قد افترى أنه من ولد جعفر الصادق، وكان بسلمية – وهى بليدة فى ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين ، وكانت تعد من أعمال حمص – فبعث دعاته إلى اليمن والمغرب ، واستولى على بلاد المغرب ، وأنشأ فيها دولة ، وامتدت أيامه بضعا وعشرين سنة ، ثم هلك فى شهر ربيع الأول من سنة ٣٢٢ بالمهدية التى بناها ، وكان يظهر الرفض ويبطن الزندقة (العبر : ٢/ ١٩٣) .

فى أتباعه ، ثم إن الله تعالى سلط عليهما وعلى أتباعهما الآكلة والطاعون فماتوا بهما .

ثم خرج بالشام حفيد لميمون بن ديصان يقال له أبو القاسم بن مهرويه(١) ، وقال لمن تبعهما : هذا وقت ملكنا ، وكان ذلك سنة تسع وثمانية ومائتين ، فقصدهم سبك صاحب المعتضد ، فقتلوا سبكا فى الحرب ودخلوا مدينة الرصافة ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وقصدوا بعد ذلك دمشق فاستقبلهم الحمامى غلام ابن طيلون وهزمهم إلى الرقة ، فخرج إليهم محمد بن سليمان كاتب المكتفى فى جند من أجناد المكتفى فهزمهم وقتل منهم الألوف ، فانهزم الحسن بن زكريا بن مهرويه إلى الرملة ، فقبض عليه والى الرملة ، فبعث به وبجماعة من أتباعه إلى المكتفى ، فقتلهم ببغداد فى الشارع بأشد عذاب .

ثم انقطعت بقتلهم شوكة القرامطة إلى سنة عشر وثلاثمائة .

وظهر بعدها فتنة سليمان بن الحسن فى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ، فانه كبس البصرة وقتل أميرها سبكا المفلحى ، ونقل أموال البصرة إلى البحرين .

وفى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة وقع الحجيج فى نهب لعشر بقين من المحرم ، وقتل أكثر الحجيج وسبى الحرم والذرارى ، ثم دخل الكوفة فى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة فقتل الناس وانتهب الأموال .

وفى سنة خمس عشرة وثلاثمائة حارب ابن أبى الساج ، وأسره ، وهزم أصحابه(٢) .

---

(١) الذى ذكره الذهبى وغيره من المؤرخين أن الخارج بالشام فى سنة ٢٨٩ هو يحيى بن زكرويه القرمطى . ويذكرون أن يحيى هذا قصد دمشق فحاربه متوليها طغج بن جف غير مرة إلى أن قتل يحيى فى سنة ٢٩٠(العبر : ٢/ ٨٢). ويقول الذهبى: " وفى سنة تسعين ومائتين حاصرت القرامطة دمشق فقتل طاغيتهم يحيى بن زكرويه ، فخلفه أخوه الحسين صاحب الشامة ، فجهز المكتفى عشرة آلاف لحربهم عليهم الأمير أبو الأغر ، فلما قاربوا حلب كبستهم القرامطة ليلا ووضعوا فيهم السيوف ، فهرب أبو الأغر فى ألف نفس ، فدخل حلب وقتل تسعة آلاف ووصل المكتفى إلى الرقة ، وجهز الجيوش إلى أبى الأغر ، وجاءت من مصر العساكر الطولونية مع بدر الحمامى ، فهزموا القرامطة وقتلوا منهم خلقًا . وقيل : بل كانت الواقعة بين القرامطة والمصريين بأرض مصر ، وأن القرمطى صاحب الشامة انهزم إلى الشام ، ومر على الرحبة ينهب الأموال ويسبى الحرم ، حتى دخل الأهواز . وكان زكرويه القرمطى يكذب ويزعم أنه من ولد الحسين بن على رضى الله عنهما " اهـ (العبر : (٢/ ٨٤-٨٥) .

(٢) قال الذهبى : ونازلت القرامطة الكوفة ، فسار يوسف بن أبى الساج ، فالتقاهم ، فأسر يوسف وانهزم عسكره وقتل منهم عدة ، وسار القرمطى إلى أن نزل غرب الأنبار ، فقطع المسلمون الجسر ، فأخذ يتحيل فى العبور ، ثم عبر وأوقع بالمسلمين . فخرج نصر الحاجب ومؤنس فعسكروا بباب الأنبار ، وخرج أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته . ثم إن القرمطى قتل ابن أبى الساج وجماعة معه ، وسار إلى هيت ، فبادر العسكر وحصنوها ، فرد القرمطى إلى البرية ، فدخل الوزير ابن عيسى على المقتدر . وقال : قد تمكنت هيبة هذا الكافر من القلوب (العبر : ٢/ ١٦٠). ثم يقول : وفى سنة ٣١٦ دخل القرمطى الرحبة (رحبة مالك بن طوق) بالسيف واستباحها ، ثم نازل الرقة وقتل جماعة بربضها ، وتحول إلى هيت . ثم انصرف وبنى دارًا وسماها دار الهجرة ، ودعا إلى المهدى ، وتسارع إليه كل مريب ، ولم يحج أحد ، ووقع بين المقتدر وبين مؤنس الخادم ، واستعفى ابن عيسى من الوزارة ، وولى بعده أبو على بن مقلة الكاتب (العبر : ٢/ ١٦٣) .

وفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة دخل مكة وقتل من وجده فى الطواف ، وقيل : إنه قتل بها ثلاثة آلاف ، وأخرج منها سبعمائة بكر ، واقتلع الحجر ، وحمله إلى البحرين ، ثم رد منها إلى الكوفة ، ورد بعد ذلك من الكوفة إلى مكة على يد أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى [1] النيسابورى فى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة . فلما ورد هيت رمته امرأة من سطحها بلبنة فقتلته ، وانقطعت بعد ذلك شوكة القرامطة ، وصاروا بعد قتل سليمان بن الحسن متصدين للحجيج من الكوفة والبصرة إلى مكة حفاة ليضمن لهم مال إلى أن غلبهم الأصفر العقيلى على بعض ديارهم .

وكانت ولاية مصر وأعمالها للإخشيدية . لجأ بعضهم إلى ابن عبيد الله الباطنى الذى كان قد استولى على قيروان ، ودخلوا مصر فى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، وابتنوا بها مدينة سموها القاهرة يسكنها أهل بدعته . وأهل مصر ثابتون على السنَّة إلى يومنا ، وإن أطاعوا صاحب القاهرة فى أداء خراجهم إليه .

وكان أبو شجاع فنا خسرو بن بويه [2] قد تأهب لقصد مصر وانتزاعها من أيدى الباطنية ، وكتب على أعلامه بالسواد : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين والطائع لله أمير المؤمنين ، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . وقال قصيدة أولها :

أما ترى الأقدار لى طوائعا   قواضيا لى بالعيان كالخبر
ويشهد الأنام لى بأننى   ذاك الذى يرجى وذاك المنتظر
لنصرة الإسلام والداغل إلى   خليفة الله الإمام المفتخر

---

(١) هو أبو إسحاق : إبراهيم بن محمد بن يحيى . المزكى ، النيسابورى ، شيخ نيسابور فى عصره ، كان من العباد المجتهدين الحجاجين المنفقين على العلماء والفقراء ، سمع ابن خزيمة وأبا العباس السراج وخلقًا كثيرًا ، وأملى عدة سنين . وكان يحضر مجلسه أبو العباس الأصم فمن دونه . توفى بعد خروجه من بغداد فى سنة ٣٦٢ ، ونقل إلى نيسابور فدفن بها (العبر : ٢/ ٣٢٧) .

(٢) هو أبو شجاع عضد الدولة فناخسرو ابن الملك ركن الدولة الحسن بن بويه ، ولى سلطنة بلاد فارس بعد عمه عماد الدولة على ، ثم حارب ابن عمه عز الدولة ، واستولى على العراق والجزيرة ، ودانت له الأمم ، وهو أول من خوطب بشاهنشاه فى الإسلام . وكان أديبا مشاركا فى فنون من العلوم . وقد صنف له أبو على الفارسى كتاب الإيضاح وكتاب التكملة ، وقد قصدته الشعراء من البلاد منهم المتنبى وأبو الحسن السلامى . وقد مات بعلة الصرع ببغداد فى شوال من سنة ٣٧٢وسنه ثمان وأربعون سنة ، ولما نزل به الموت كان يكرر قوله تعالى : ﴿ **ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه**﴾(العبر : ٢/ ٣٦٣) . وانظر الترجمة رقم٥٠٥ فى ابن خلكان بتحقيقنا .

فلما خرج إلى مضاربه للخروج إلى مصر ، غافصه وفاجأه الأجل ، فمضى لسبيله . فلما قضى فناخسرو نحبه طمع زعيم مصر فى ملوك نواحى الشرق ، فكاتبهم يدعوهم إلى البيعة له . فأجاب ابن [1] وشمكير عن كتابه بقوله : إنى لا أذكرك إلا على المستراح . وأجابه ناصر الدولة أبو الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور [2] بأن كتب على ظهر كتابه إليه : ﴿ **قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون** ﴾ [3] إلى آخر السورة ، وأجابه نوح بن منصور [4] والى خراسان بقتل دعاته إلى بدعته . ودخل فى دعوته بعض ولاة الجرجابية من أرض خوارزم ، فكان دخوله فى دينه شؤما عليه فى ذهاب ملكه ، وقتل أصحابه . ثم استولى يمين الدولة وأمين الملة محمود بن سبكتكين على أرضهم ، وقتل من كان بها من دعاة الباطنية . وكان أبو على بن سيمجور [5] قد وافقهم فى السر ، فذاق وبال أمره فى ذلك ، وقبض عليه والى خراسان نوح بن منصور ، وبعث به إلى سبكتكين ، فقتل بناحية غزنة .

وكان أبو القاسم الحسن بن على الملقب بدانشمند داعية أبى على بن سيمجور إلى مذهب الباطنية ، وظفر به بكتوزون [6] صاحب جيش السامانية بنيسابور فقتله ، ودفن فى مكان لا يعرف .

كان أمير الطوسى [7] والى ناحية التاروذية قد دخل فى دعوة الباطنية ، فأسر وحمل إلى غزنة وقتل بها فى الليلة التى قتل فيها أبو على بن سيمجور .

---

(١) لشمس المعالى قابوس بن وشمكير ترجمة فى معجم الأدباء : ١٦/ ٢١٩- ويتيمة الدهر : ٤/ ٥٦ بتحقيقنا - وفى وفيات الأعيان رقم ٥١٢ بتحقيقنا ، وفى العبر : ٣ فى مواضع ترشد إليها الفهارس .

(٢) تجد أخباره فى شرح تاريخ العتبى (ص ١٥٢) . (٣) الكافرين : ١ ، ٢ .

(٤) هو نوح بن الملك منصور بن الملك نوح بن الملك نصر ، أبو القاسم ، السامانى ، ملك بخارى وسمرقند . ولى الملك اثنتين وعشرين سنة ، وولى بعده ابنه المنصور ، وبعد عامين توثب عليه أخوه عبد الملك بن نوح الذى هزمه السلطان محمود بن سبكتكين ، وبهزيمته انقرضت الدولة السامانية ، وكانت وفاة الملك نوح فى سنة ٣٨٧ (العبر : ٣/ ٣٨) .

(٥) هو أبو على : محمد بن أبى الحسن بن سيمجور ، تولى قيادة الجيوش بعد أبيه ، وتوفى فى سنة٣٨٦(تجد أخباره فى شرح تاريخ العتبى : ١/ ١٥٢و١٩٣) .

(٦) أخباره فى شرح تاريخ العتبى ، فانظره ابتداء من : ١/ ٣٠١ .

(٧) أخباره فى تاريخ العتبى فانظره ابتداء من ١/ ٢٠٩ .

وكان أهل مولتان من أرض الهند داخلين فى دعوة الباطنية ، فقصدهم محمود رحمه الله فى عسكره ، وقتل منهم الألوف ، وقطع أيدى ألف منهم. وباد بذلك نصراء الباطنية من تلك الناحية . ومن هذا، بان شؤم الباطنية على منتحليها ، فليعتبر بذلك المعتبرون .

أصل نسبة الباطنية : وقد اختلف المتكلمون فى بيان أغراض الباطنية فى دعوتها إلى بدعتها .

فذهب أكثرهم إلى أن غرض الباطنية الدعوة إلى الدين المجوسى بالتأويلات التى يتأولون عليها القرآن والسنّة . واستدلوا على ذلك بأن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسيا من سبى الأهواز . ودعا ابنه عبد الله بن ميمون الناس إلى دين أبيه . واستدلوا أيضا بأن داعيهم المعروف بالبزدوى قال فى كتابه المعروف " المحصول " : إن المبدع الأول أبدع النفس ، ثم إن الأول والثانى مدبران للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع . وهذا فى التحقيق معنى قول المجوس : إن يزدان خلق أهرمن ، وإنه مع أهرمن مدبران للعالم ، غير أن يزدان فاعل الخيرات ، وأهرمن فاعل الشرور .

ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية . واستدل أيضا بأن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم ، والباطنية أيضا لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم بعد إحلافهم إياه على ألا يذكر أسرارهم لغيرهم .

(٨) القرامطة

(١) الرؤية السياسية :

كانت الحركة الشيعية حتى منتصف القرن الثالث تميل إلى الاصطباغ بالصبغة الدينية ، ولا تقصد بالهدم من المبادئ إلا ما ترى أنه يخالف مبادئها ويتعارض مع غاياتها السياسية . غير أنها تحولت بعد ذلك إلى أداة هائلة لهدم المعتقدات الدينية والنظم السياسية . بل تحول بعضها فى الوقت نفسه ، وهم فرق الغلاة والملاحدة، إلى أداة خطرة ، تعمل لسحق جميع المبادئ الاجتماعية والأخلاقية إسلامية أو غيرها[١] .

وكان أول من أشهر معول الهدم على هذا النحو الشامل رجلا لعله أعظم هدام وأذكى متآمر عرفه التاريخ . ذلك الرجل هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو ابن فقيه ملحد من جنوب فارس هو ميمون بن ديصان . ونشأ ابنه عبد الله منذ حداثته فى جو المبادئ الحرة ، والتعاليم الفلسفية والمادية ، وتفقه فى جميع الأديان . وكان شديد الإلحاد والإنكار . غير أنه ادعى اعتناق مبادئ الشيعة الإسماعيلية وزعم أنه وقف على الأسرار الروحية والعلوم الخفية التى يقول الإسماعيلية إن إمامهم إسماعيل علمها لابنه محمد المكتوم . فذاعت دعوته فى جنوب فارس حوالى سنة ٢٦٠هـ (٨٧٤م)، والتف حوله الإسماعيلية . ولم يلبث أن قبض على ناصية الحركة الشيعية . ولم تكن دعوته إلى إمامة إسماعيل وبيته إلا قناعًا يستتر وراءه[٢] . وقد كانت غايته الحقيقية بث

---

(١) انظر عن الخرمية والباطنية كلمة فى مروج الذهب: ٣/ ٣٠٥ و ٤/ ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٦ .

(٢) انظر مبدأ ظهور القرامطة فى مروج الذهب : ٤/ ٢٨٠ ، والكامل لابن الأثير ابتداء من حوادث سنة ٢٧٨ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان: ١/ ٤٠٩ بتحقيقنا ، وضبط قرمط بكسر القاف والميم وسكون الراء بينهما فى ٣/ ٤٥٩ وسنتحدث عن هذا ونترجم لهذه الأعلام فيما بعد . أخبار القرامطة : جمع وتحقيق ودراسة د. سهيل زكار - دار إحسان .

التعاليم المادية ، فنشط إلى إدماجها فى مذهب خاص ، ونظم طائفة الباطنية (١) إلى جمعية سرية هائلة ذات مراتب سبع وصف العلامة دوزى برنامجه المدهش فى هذه النبذة القوية :

أن يدمج المغلوبين والغالبين فى هيئة واحدة ، وأن يجمع فى حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين - الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لسيادة الشعب - وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وأن يجعل من المؤمنين آلات صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التى شادوها ، وأن ينشئ حزبًا كبيرًا مؤتلفا منظما يرفع فى الوقت المناسب - إن لم يكن هو - فعلى الأقل أبناءه إلى العرش . . . هكذا كانت غاية عبد الله بن ميمون ، وهى فكرة عجيبة نفذها بحذق مدهش ، وبراعة نادرة ، وخبرة عميقة بأسرار القلب البشرى . وكانت الوسائل التى اختطها غاية فى الخبث والدهاء .

ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص ، ولكن بين الثنوية (٢) والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ، ولم يكن يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة ، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضى بسره وخفى عقيدته ، وهى أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية ، وأن باقى البشر - أو الحمر يسميهم - ليسوا أهلا لفهم هذه التعاليم . غير أنه تحقيقا لغايته ، لم يكن يمقت مؤازرتهم بل كان يلتمسها ، ويحذر فى نفس الوقت من أن يضم الأنفس المخلصة الخانعة إلا إلى المرتبة الأولى من طائفته . وكان دعاته الذين علموا أن أول ما يجب عليهم هو إخفاء حقيقة عواطفهم واعتناق آراء سامعيهم ، يظهرون فى أثواب مختلفة ، ويحادثون كل طبقة باللغة التى تروق لها ، يغنمون العامة والبسطاء بأعمال الشعوذة فيعتبرونها معجزات ، أو يثيرون طلعتهم بالألغاز والأحاديث الخفية ، ويتحجبون أمام المخلصين بقناع الزهد والفضيلة ، ويتظاهرون أمام الصوفية بأنهم صوفية ، ويكشفون عما خفى من معانى الغيب أو يشرحون الأساطير ومجازاتها .

---

(١) قدمنا أن الإسماعيلية يسمون أيضا بالباطنية لقولهم بالإمام المستور والباطن . وقيل سموا كذلك لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره إذ يزعمون أن للقرآن ظاهرا هو الألفاظ وباطنا هو المعانى الخفية . وقيل لأنهم كانوا يلقون تعاليمهم سرا ويكتمونها عن العامة . تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام : ج١ .

(٢) أصحاب مذهب فلسفى دينى يقول بأن كل كائن مركب من عنصرين هما الخير والشر أو النور والظلام .

أسفرت هذه الوسائل عن نتيجة مدهشة، هى أن جمهورا عظيما من رجال يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معا لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم [1].

وما كاد ابن ميمون ينظم جمعيته السرية الهائلة فى جنوب فارس، حتى بعث بدعاته إلى جميع الأقطار يبثون مبادئ التقويض والهدم باسم الدعوة الإسماعيلية والتبشير بالمهدى المنتظر. وكان داعيته فى العراق رجلا يسمى الفرج بن عثمان القاشانى، ويعرف بذكرويه. فلبث حينا يبث الدعوة سرا. ثم نهض فى سنة ٢٧٨هـ رجل من صحبه داهية فى الاستهواء والدس بمكان يعرف بالنهرين على مقربة من الكوفة يبث الدعوة جهرا. وكان يدعو إلى إمام من آل البيت هو المهدى الذى يملأ الأرض بعدله. ويمعن فى الزهد والتقشف والعبادة، ويزعم أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون فى اليوم، فاستجاب له جمع كثير، ولقب قرمط [2] وأطلق على أنصاره قرامطة نسبة إلى لقب داعيتهم قرمط. وأذاع بعض هؤلاء القرامطة كتابا نسبوه إلى الفرج بن عثمان داعية المهدى نثبت بعض ما جاء فيه متضمنا لمزاعمهم ومبادئهم:

« بسم الله الرحمن، يقول الفرج بن عثمان داعية المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدى، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل. وذكر أن المسيح تصور له في جسم إنسان، وقال له: إنك الداعية وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك زكريا وإنك روح القدس.. والقبلة إلى بيت المقدس. والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شىء.

والسورة: الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه، المنجد لأوليائه بأوليائه. قل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها لأوليائى الذين عرفوا عبادتى وسبيلى. فاتقونى يا أولى الألباب، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذى أبلو عبادى وأمتحن خلقى. فمن صبر على بلائى ومحنتى واختبارى، ألقيته في جنتي وأخلدته في نعيمى، ومن زال عن أمرى، وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى، وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة

---

(١) تاريخ الجمعيات السرية فى الإسلام: الأستاذ عبد الله عنان.

(٢) إن رواية ابن خلدون عن شخص قرمط مضطربة جدا. ففى مبدإ كلامه عن القرامطة يقرر بوضوح أن قرمطا والفرج بن عثمان أو ذكرويه شخصان مختلفان (ج٤ ص٨٥). بيد أنه بعد ذلك بقليل (ص٨٦) فى روايته عن محاربة عامل الكوفة للقرامطة يشعر بأن ذكرويه هو قرمط. غير أن ابن الأثير واضح فى التفريق بين الرجلين: (ج٧ ص١٤٧). ويرى بعض الباحثين أن كلمة قرمط ربما اشتقت من لغة القبائل الأرمنية بالجزيرة ومعناها " المدلس ".

رسلى . فأنا الذى لا يتكبر على جبار إلا وضعته ، ولا عزيز إلا أذللته . . . والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز ، والنبيذ حرام ، والخمر حلال . . . ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخلب . ومن خالف وحارب وجب قتله ومن لم يحارب أخذت منه الجزية .

ويقول المستشرق دى صاصى فى وصف الناحية الدينية من مذهب القرامطة ما يأتى :

ولما رأى قرمط أنه صار السيد المتسلط على عقولهم ، ووثق من طاعتهم ، بدأ يسير بهم نحو طريق أخرى ، فنشر فيهم مذهب الثنوية ، واعتنقوا كل تعاليمه بسهوله . ولم يلبث أن نزع منهم كل دين وأحلهم من كل فروض العبادة والتقوى ، وأباح لهم النهب ، وكل ضروب الرذيلة ، وأمرهم أن يتركوا الصلاة والصوم وغيرها ، وعلمهم أن لا فريضة عليهم ، وأن لهم أن ينهبوا أموال خصومهم ، وأن يسفكوا دماءهم بلا وازع ولا عقاب . وأن معرفة رب الحقيقة الذى دعاهم إليه ، يملأ لديهم فراغ كل شىء آخر ، وأن هذه المعرفة تبعد عنهم كل خطيئة وكل عقاب (1) .

ولم يلبث مجتمع القرامطة أن تحول فى ظل هذه النزعة الشيوعية وفى ظل هذه الإباحة المطلقة ، إلى عصابة هائلة من الخوارج والسفاكين ، تستحل النفوس والأموال والأعراض ، وتنشر الدمار والرعب فيما حولها من الأنحاء . ولم تلبث أن نشبت بينهم وبين جند الخلافة العباسية معارك دامية . فهرب ذكرويه إلى حى من الأحياء النائية واختفى فى القفر فى مغار بناه لذلك .

وبعث أولاده للدعوة فى قبائل الصحراء ، فتفرقوا مدعين أنهم من ولد إسماعيل الإمام . وكانوا ثلاثة : يحيى وحسين وعلىّ ، فلم ينجح منهم سوى يحيى حيث بايعه بعض القبائل على أنه يحيى بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الإمام ولقبوه بالشيخ .

وقصد يحيى بمجموعته دمشق (سنة ٢٩٠هـ ـ ٩٠٢م) فخرج لقتاله واليها طغج مولى ابن طولون فى عساكر مصر والشام ونشبت بينهما عدة معارك دموية قتل فيها يحيى ، فاجتمع عسكره حول أخيه حسين الذى تلقب بأمير المؤمنين أبى العباس المهدى . ثم عاث فى مدن الشام فغزا حمص وحماة والمعرة وغيرها واستباحها . وسار إليه الخليفة المكتفى بنفسه فى جيش كبير فهزمه وارتد فى فلوله إلى حلب . وارتاع أمراء الشام ومصر لهذا الخطر الجديد ، فحشدوا الجند ، وسار بدر مولى بن طولون لقتال القرامطة . فلقيهم وهزمهم مرارا وأثخن فيهم . ثم لقيهم جند المكتفى ثانية فهزموهم

---

(١) تاريخ الجمعيات السرية فى الإسلام : عبد الله عنان .

كذلك، وأمعنوا فيهم قتلا وأسرا . وقبضوا على المهدى وعلى بعض أصحابه، وبعثوهم إلى المكتفى، فأمر بصلبهم وتقطيع أجسادهم . أما على بن ذكرويه، ففر بعد مقتل أخيه يحيى إلى اليمن واجتمع إليه القرامطة هنالك ، وتغلب على كثير من مدنها، ولبث يعيث بجنده فيها حتى توفى هنالك .

ولبث ذكرويه مختفيا فى مغاره نحو عشرين سنة . ثم اجتمع إليه القرامطة فاستخلف عليهم أحمد بن القاسم وأمرهم بطاعته ، ولبث يدير شئونهم ، وهو محتجب يدعونه السيد ولا يرونه ، والقاسم ينفذ أوامره وخططه ويغير على أحياء العرب قتلاً ونهبًا ، ويبطش بقوافل الحجاج والتجار ، وينهب أموالهم ويعيث فى مدن الشام ، حتى سير المكتفى إليه جندا كثيفا بقيادة ابن صوارتكين، فأدركوا القرامطة بظاهر حمص ونشبت بينهما موقعة هائلة ، هزم فيها القرامطة وجرح ذكرويه وأسر ، وأرسل إلى بغداد حيث توفى من جراحه بعد بضعة أيام (سنة ٢٩٤هـ - ٩٠٧م) .

وفى ذلك الحين ، اجتاحت دعوة القرامطة أنحاء البحرين ، والتف القرامطة حول زعيم لهم يسمى الحسن بن بهرام ويعرف بأبى سعيد الجنابى ، وكان أبو سعيد داهية صارم العزم فاجتمع إليه جمع غفير من القرامطة والأعراب وسار فى سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦م) يطلب البصرة ، وكان حاكمها أحمد الواثقى قد أحاطها بالأسوار المنيعة فبعث قوة للقاء أبى سعد بظاهر البصرة فهزمها ومزقها شر ممزق ، واحتوى على معسكرها وأحرق الأسرى .

وفى سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م)، سار سليمان إلى مكة وفتك بالحجاج فتكا ذريعا ، ونهب أموالهم ، واقتحم البيت الحرام ونزع كسوته وقسمها فى أصحابه ، واقتلع الحجر الأسود وانصرف به إلى الأحساء ، وأراد أن يجعل فيها الكعبة بدلا من مكة . فارتاع العالم الإسلامى لذلك الاجتراء ، وسخط الخليفة الفاطمى فى القيروان على القرامطة ، وأمرهم برد الحجر الأسود . وبذلت لهم حكومة بغداد خمسين ألفا من الذهب لرده فأبوا وزعموا أنهم حملوه بوحى من إمامهم ، وإنما يردونه بأمره وأمر خليفته ، ولم يردوه إلا فى سنة تسع وثلاثين .

واستطال ملك سليمان زهاء ثلاثين سنة . فلما توفى ثارت الحرب الأهلية حينا بين أخيه وولده الأكبر من أجل الملك . وثارت من بعد ذلك بين أبنائه حتى استقرت الأمور لأخيه الحسن الملقب بالأعصم ، فاستطالت دولته وقوى أمره ، وعاد القرامطة فى عهده إلى غزو أنحاء العراق والعيث فيها ، ومحاربة عمال الخليفة العباسى فى تلك الأنحاء،

حتى كان خلاف الحسن مع إمامه الخليفة الفاطمى ، فعاد القرامطة إلى الدعوة لبنى العباس .

وذلك أن المعز لدين الله الفاطمى استولى على مصر ، واستولى قائده ابن فالح على دمشق من يد أميرها السابق ابن طغج . وكانت للقرامطة إتاوة مفروضة على دمشق فطالب الحسن بها ، فامتنع الأمير الجديد عن دفعها . وسخط المعز على الحسن، وهدده وحرض شيعة سليمان على الثورة ورد الأمر لبنيه . وعلم الحسن بذلك، فقطع الدعوة الفاطمية . وكان القرامطة يدعون للفاطميين مذ قامت دولتهم بإفريقية ، ويقرون زعامتهم الروحية باعتبارهم أئمة الشيعة القائمين بالأمر . ثم دعا للمطيع العباسى ، ولبس السواد (شعار بنى العباس) وزحف على دمشق وهزم جندها واستولى عليها (٣٦٠هـ) .

وبعد أن عاث الحسن بجيوشه حينا فى جنوب الشام، تأهب لغزو مصر فسار إليها فى جيش كثيف من القرامطة . فاستطاع جوهر أن يثخن فى القرامطة ، وأن يردهم نحو الشام . ولولا ذلك لانتزع القرامطة مصر من يد الفاطميين منذ البداية، ولقامت لهم فيها دولة، وكان ذلك سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م) . وللحسن الأعصم فى تلك الموقعة شعر، منه :

زعمت رجال الغرب أنى هبتها *** فدمى إذا ما بينهم مطلول

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم *** يروى ثراك فلا سقانى النيل

ثم دب الخلاف بين جعفر وإسحق، وأراد كلاهما الاستئثار بالملك فثارت بين القرامطة حرب داخلية مزقت شملهم . وانتهز الفرصة متغلب من تلك النواحى يسمى الأصفر الثعبى، فوثب بالبحرين، وقاتل القرامطة قتالا شديدا وانتزع الأحساء من أيديهم، وقطع دعوتهم ودعا للطائع العباسى ، واستقر الأمر له ولبنيه هنالك .

وهكذا انحل مجتمع القرامطة، بعد أن لبث زهاء قرن ينشر ألوية الدمار والموت فيما حوله من الأقطار الإسلامية ، ويتهدد بالانحلال والفناء كل مجتمع مسلم منظم ، ويقصد بالإفساد والهدم كل تعاليم الإسلام الدينية والأخلاقية التى قامت عليها السلطة الروحية والزمنية وقام عليها النظام والأمن . أن تهدم تعاليم الإسلام الدينية والأخلاقية من أساسها ، بل أن يهدم الايمان الدينى عامة ، هى الغاية التى عمل لتحقيقها عبد الله ابن ميمون . وقد كان القرامطة أول هيئة ثورية منظمة نشطت لتحقيق مبادئ ابن ميمون بالعنف والسفك ، ولكن القرامطة انحرفوا عن الطرق الأصيلة التى رسمها ابن ميمون .

كانت فكرة ابن ميمون لا ترتكز على العنف الظاهر ، ولكن على تعاليم سرية تقصد

بالتدريج إلى هدم كل المعتقدات الدينية من الأساس ، وإلى خلق حالة من الفوضى العقلية لا الفوضى المادية ، لأن العنف دائما يستثير العنف ، ولكن القرامطة عجلوا الانفجار قبل أوانه ، وحولوا الطائفة السرية الهائلة قبل أن ينضج تنظيمها ، وقبل أن تجتاح تعاليمها مجتمعا عظيما ، إلى جماعة صغيرة من الخوارج ممن دفعتهم خيبة الأمل أو استهواهم أمل النهوض والكسب إلى اعتناق المبادئ الجديدة ، وجعلوا منها حركة محلية قبل أن تصبح حركة شاملة .

وكان عمادهم فى الحروب عصابات جريئة من بدو شجعان مخاطرين ، يصبرون فى تقشفهم وقناعتهم على مكاره الحروب أكثر مما يطيقه جند المدن الذين ذاقوا لذة الدعة والرخاء . لذلك ، كانت ثورة القرامطة خطرا عظيما على الدولة العباسية ، استغرق الجم من جهودها وأموالها ، فى وقت اشتد فيه ساعد الدولة البيزنطية وأرهقتها بالغزو والحملات الناهبة ، بل ليس من المبالغة أن نقول إن انفجار القرامطة كان من أهم الأسباب التى مهدت إلى سقوط الدولة العباسية .

وقد كانت هذه الدولة الغريبة التى تتسم بسمة الإسلام دولة ثورية هدامة ، خارجة على سائر الأمة الإسلامية ، وقائمة على أصول وتعاليم تنكرها تعاليم الإسلام الصحيحة السياسية والاجتماعية ، فضلا عن الدينية . كانت كما رأينا دولة شيوعية ، تقوم على شيوع الثروات الطبيعية والمكتسبة ، ولا تحترم مبدأ الملكية الشخصية ، الذى يعتبر قاعدة أساسية فى تكوين المجتمع الإسلامى الاقتصادى ، والذى تحيطه الشريعة الإسلامية بضمانات قوية . بل لقد ذهب القرامطة فى تطبيق مبدإ الشيوع إلى حد الإباحة المروعة ، فأباحوا شيوع النساء . وكانت المرأة عنصرا بارزا فى مجتمع القرامطة ، يسمح لها بالانتظام فى سلك الدعوة والتدرج فى مراتبها . وكان الدعاة من المراتب العليا يطبقون هذا النوع من الشيوع الممقوت بطريقة منظمة ، وكانوا يعتبرونه نوعا من الكمال الذى يقوم على أقصى درجات الصداقة والإخاء والتسامح . ويروى لنا ابن الأثير عن زعيم القرامطة أبى سعيد الجنابى حادثا من هذا النوع ، يؤيد انحدار القرامطة إلى هذه الفوضى الأخلاقية المروعة التى كانت عنوان مذهبهم .(١) وقد كان من الطبيعى أن تقترن هذه الإباحة المغرقة بإلغاء أحكام الإسلام الأساسية من الصلاة والصوم وسائر الفرائض الأخرى .

---

(١) ابن الأثير (مصر) ج٧ ص ١٦٣ . وراجع أيضا الفرق بين الفرق ص٢٨١ .

وقد تأثرت فلسفة القرامطة فيما يبدو بمبادئ الخوارج الكلامية والسياسية . وقد كان بين الخوارج فرق ترى إباحة شرب الخمر والسرقة وغيرهما إذا ارتكبت بغير إصرار.[1]

وقد كانت هذه النزعة الإباحية المغرقة تقترن عند القرامطة بالعنف الذريع ، فكان ذلك مما يضاعف خطرها على المجتمع الإسلامى . وقد استطال هذا الخطر السياسى والاجتماعى زهاء قرن . ولم يتحطم مجتمع القرامطة إلا بعد جهود ومعارك عنيفة ، اشتركت فيها الدولة العباسية ومصر الفاطمية ، على ما بينهما من أسباب الخصومة والتباعد [2] .

(٢) القرامطة والفاطميون :

إن علاقة القرامطة بالفاطميين كانت علاقة ودية ملؤها الإخلاص والطاعة ، وإنهم كانوا فى أول الحركة الفاطمية يساعدونهم بالمال والرجال ويظهرون لهم الطاعة والمحبة ، لا لأنهم كانوا يخشون بأسهم ، بل لأنهم كانوا يعتقدون أن مؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله هو حقيقة « إمام الزمان » و « المهدى » المنتظر ، وآخر إنسان تجسم فيه العقل الأعلى ، أى هو ذلك الإنسان الذى كانت القرامطة وسائر فرق الإسماعيلية تعوّل عليه فى دك دولة الظلم ، وإقامة دولة العدل والمساواة ومملكة « السلم والمحبة » ، إلى غير ذلك من الآمال التى كان ولا يزال أصحاب الإمام المحجوب يعلقونها على ظهوره . إلا أن أبا طاهر وأصحابه أخذوا يدركون مع الزمن ، وبعد أن تعرفوا بالفاطميين فى سوريا ومصر وشاهدوا عيشتهم وأعمالهم هناك ، وما أدخلوه من الأنظمة الجديدة فى مصر وشمالى إفريقيا ، أن مؤسس هذه الدولة أفاق كاذب وممخرق محتال كبير لا صلة بينه وبين الإمام السابع إسماعيل بن جعفر ولا نسبه ، وأن هذا الإمام الكاذب خدعهم واستخدمهم آلة للوصول إلى غاياته الشخصية .

فلما صح عند القرامطة هذا الخبر كان له وقع شديد على هؤلاء الأعراب ، الذين عرفوا دائما بسذاجتهم وصفاء قلوبهم ، فثار غضبهم على مؤسس الدولة المذكورة وأولاده ، فقطعوا علاقاتهم بهم وأخذوا يتقربون من أعدائهم الذين أصبحوا فى نظرهم خيرا من حلفائهم السابقين الكاذبين ، فنتجت عن ذلك حروب كلفت الفاطميين ضحايا لا تحصى ، وخسائر مادية ، لا تعد لأن القوة كانت فى أغلب الأحيان فى جانب

---

(١) هم الأزارقة وأتباعهم : (الشهرستانى فى الملل والنحل : ج١ ص١٦٦) تاريخ الجمعيات السرية فى الإسلام .

(٢) تاريخ الجمعيات السرية فى الإسلام : محمد عبدالله عنان .

القرامطة فاضطر خلفاء القاهرة أن يلجئوا إلى سياسة الدفاع بعد أن كانوا قبل ذلك يفضلون عليها سياسة الهجوم. ولعل هذا هو الذى اضطرهم بين عامى ٣٧١و٣٨٥ إلى بناء قلعة القاهرة، عاصمة مصر اليوم، للدفاع عن عاصمتها القديمة المعروفة سابقا بالفسطاط (١).

ولم يقف القرامطة عند هذا الحد، بل أخذوا يتقربون من حكومة بغداد ويعقدون معها المعاهدات السياسية والتجارية، ويكاتبون خلفاء بنى العباس ويهدون إليهم الهدايا، وهم مع كل هذا محافظون على حقوقهم ومصالحهم غير متساهلين فى شيء مما له مساس بعقائدهم الدينية.

قال ابن النديم صاحب الفهرست: « . . . ومنذ نحو عشرين سنة تناقص أمر المذهب (مذهب القرامطة) وقل الدعاة فيه حتى إنى لا أرى من الكتب المصنفة فيه شيئًا بعد أن كان فى أيام معز الدولة فى أوله ظاهرا شائعا ذائعا والدعاة منبثون فى كل صقع وناحية ».

كان ينتظر أن تتبدل هذه الحال بأحسن منها فى أيام الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢١) الذى عرف بميله إلى مذهب المتطرفين من الإسماعيلية، أوفى أيام الخليفة الطاهر حين كان الفاطميون ينتظرون سقوط دولة بنى العباس، فلما لم تتحقق هذه الأمانى المبنية على أسس فاسدة، رأى القرامطة أن يخلدوا إلى السكينة، وألا يفكروا إلا فى المحافظة على استقلالهم وتقوية نظامهم، محافظين عليه زمنًا طويلاً كما يظهر من كلام ناصر خسرو الذى زارهم فى أواسط سنة ٤٤٣-١٠٥٢، وأقام بينهم نحو نصف سنة.

(٣) أصل تسمية القرامطة(٢) :

الرأى الأول: وإنما سموا القرامطة: زعموا أنهم يدعون إلى محمد بن إسماعيل

---

(١) من (fossatum): اللاتينية، ومعناها الحفير أو الخندق (من الفارسية خنده =محفور).

(٢) يراجع:

* أخبار القرامطة: سهيل ذكار.
* تاريخ الجمعيات السرية فى الإسلام: محمد عبد الله عنان.
* تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام: بندلى جوزى.
* الفرق بين الفرق: أبو منصور البغدادى، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد.
* الملل والنحل، للشهرستانى: تحقيق د. محمد بن فتح الله بدران.

ومصادر أخرى.

ابن جعفر بن على ، ونسبوا إلى قرمط . وهو حمدان بن الأشعث . كان بسواد الكوفة وإنما سمى قرمطا لأنه كان رجلا قصيرا ، وكانت رجلاه قصيرتين ، وكان خطوه متقاربا ، فسمى بهذا السبب قرمطا . وكان قرمط قد أظهر الزهد والورع ، وتسوق به على الناس مكيدة وخبثا .

الرأى الثانى : وكانت أول سنة ظهر فيها أمر القرامطة سنة أربع وستين ومائتين ، وذكر بعض العلماء أن لفظة قرامطة إنما هو نسبة إلى مذهب يقال له : القرمطة خارج عن مذاهب الإسلام فيكون على هذه المقالة عزوه إلى مذهب باطل لا إلى رجل ، وإنما قيل لهذا القرمطى صاحب الخال لأنه كان على خده الأيمن خال ، ويعرف بابن المهزول ذكرويه بن مهرى الصوانى من أهل صوان من سواد الكوفة .

الرأى الثالث : وقيل هو وأخوه من قيس من بنى عبادة بن عقيل من بنى عامر ثم من بنى قرمطى بن جعفر بن عمرو بن المهيأ بن يزيد بن عبد الله بن يزيد بن قيس بن جوثه ابن طهفة بن حزن بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعه بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفه بن قيس عيلان . فادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر فعلى هذا يكون منسوبا إلى جدهم قرمطى ولا يبعد أن يكون الأمران جميعا والله أعلم .

الرأى الرابع : وقيل إن القرمطى من يهود نجران ، وأنه دعى .

(٤) مبادئهم :

العصمة : واعلم أن مذهبهم ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر ، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول أن تكون مدركة للحق لما يعترضها من الشبهات . والمعصوم يطلع من جهة الله تعالى على جميع أسرار الشرائع ، ولابد فى كل زمان من إمام معصوم يرجع إليه .

مرجعية الإمام المعصوم : واتفقوا على أنه لابد فى كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق ، يرجع إليه فى تأويل الظواهر وحل الإشكال فى القرآن والأخبار ، وأنه يساوى النبى فى العصمة ، ولا يتصور فى زمان واحد إمامان ، بل يستظهر الإمام بالدعاة ، وهم الحجج ، ولابد للإمام من اثنى عشر حجة ، أربعة منهم لا يفارقونه .

القول بإلهين علة ومعلول : إنهم يقولون بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان إلا أن أحدهما علة لوجود الثانى ، واسم العلة السابق ، واسم المعلول التالى . وإن السابق خلق العالم بواسطة التالى لا بنفسه ، وقد يسمون الأول عقلا والثانى نفسا ، والأول تاما والثانى ناقصا ، والأول لا يوصف بوجود ولا عدم ، ولا موصوف ولا غير موصوف ، فهم يومئون إلى النفى لأنهم لو قالوا معدوم ما قبل منهم ، وقد سموا هذا النفى تنزيها (١) .

مذهبهم فى النبوات : ومذهبهم فى النبوات قريب من مذهب الفلاسفة ، وهو أن النبى عبارة عن شخص ، فاضت عليه من السابق بقوة التالى قوة قدسية صافية ، وأن جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه لا أنه شخص ، وأن القرآن هو تعبير محمد عن المعارف التى فاضت من العقل فسمى كلام الله مجازا لأنه مركب من جهته . وهذه القوة الفائضة على النبى لا تفيض عليه فى أول أمره ، وإنما تتربى كنطفة .

ينكرون البعث : وكلهم أنكر القيامة ، قالوا : هذا النظام وتعاقب الليل والنهار وتولد الحيوانات لا ينقضى أبدا . وأولوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام ، ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ، ولا الجنة ولا النار . ومعنى المعاد عندهم عود كل شىء إلى أصله . قالوا : فجسم الآدمى يبلى ، والروح - إن صفت بمجانبه الهوى ، والمواظبة على العبادات ، وغذيت بالعلم - استعدت بالعود إلى وطنها الأصلى ، وكمالها بموتها إذ به خلاصها من ضيق الجسد .

القول بالتناسخ : وأما النفوس المنكوسة المغموسة فى عالم الطبيعة المعرضة عن طلب رشدها عند الأئمة المعصومين ، فإنها أبدا فى النار ، على معنى أنها تتناسخ فى الأبدان الجسمانية ، وكلما فارقت جسدا تلقاها آخر ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها**﴾ .

القول بتأويل ظاهر : ثم إنهم يعتقدون استباحة المحظورات ، ورفع الحجر ، ولو ذكر لهم هذا لأنكروه ، وقالوا لابد من الانقياد للشرع على ما يفعله الإمام ، فإذا

(١) نفس المرجع السابق .

أحاطوا بحقائق الأمور انحلت عنهم القيود والتكاليف العملية ، إذ المقصود عندهم من أعمال الجوارح تنبيه القلب ، وإنما تكليف الجوارح للغمر الذين لا يراضون إلا بالسياقة(١) وغرضهم هدم قوانين الشرع .

قالوا : وكل ما ذكر من التكاليف فرموز إلى باطن . فمعنى الجنابة مبادرة المستجيب(٢) بإفشاء سر إليه من قبل أن ينال رتبة الاستحقاق لذلك ، ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك ، والزنا إلقاء نطفة العلم الباطن إلى نفس معه تجدد العهد ، والاحتلام (٣) أن يسبق اللسان إلى إفشاء السر في غير محله ، والصيام الإمساك عن كشف السر ، والمحرمات عبارة عن ذوى السر (٤) والبعث عندهم الاهتداء إلى مذاهبهم . ويقولون ﴿ **للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ (٥) الذكر : الإمام ، والحجة الأنثى .

وقالوا : ﴿ **يوم يأتي تأويله** ﴾ (٦) أي يظهر محمد بن إسماعيل ، وفي قوله : ﴿ **حرمت عليكم الميتة** ﴾ (٧) . قالوا : الميتة الحامل على الظاهر الذى لا يلتفت إلى التأويل .

وأكثر مذاهبهم يوافق الثنوية ، والفلاسفة في الباطن ، والروافض في الظاهر ، وغرضهم بهذه التأويلات انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الناس ، حتى تبطل الرغبة والرهبة .

ومن أتباعهم طائفة انقطعت دولة أسلافهم بدولة الإسلام كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس ، فهؤلاء موتورون قد استكن الحقد في صدورهم ، فهؤلاء كالداء الدفين فإذا حركته مخايل المبطلين اشتعلت نيرانه .

وقد نبغ منهم قوم أظهروا إمامة محمد بن الحنفية وقالوا : إن روح محمد انتقلت

---

(١) توضح هذه الفقرة ما كتبه الغزالي في كتابه فضائح الباطنية : ٤٧ : " وإنما تكليف الجوارح في حق من يجرى بجهله مجرى الحمر التى لا يمكن رياضتها إلا بالأعمال الشاقة " .

(٢) من أدنى المراتب في الدعوة الإسماعيلية ، انظر فضائح الباطنية : ٥٥-٥٦ .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) توضح كذا في الأصل ، وفي فضائح الباطنية : ٥٦ " المحرمات عبارة عن ذوى الشر من الرجال وقد تعبدنا باجتنابهم " .

(٥) النساء : ١١ .

(٦) الأعراف : ٥٣ .   (٧) المائدة : ٣ .

إليه ، ثم انتقلت منه إلى أبى مسلم صاحب الدعوة ، ثم إلى المهدى ثم إلى رجل يعرف بابن القصرى ثم خمدت نارهم .

ثم نبغ لهم فى أيام المأمون رجل ، فاحتال فلم تنفذ حيلته ، ثم تناصروا فى أيام المعتصم وكاتبوا الأفشين [1] وهو رئيس الأعاجم فمال إليهم واجتمعوا مع بابك ، ثم زاد جمعهم على ثلثمائة ألف فقتل المعتصم منهم ستين ألفا وقتل الأفشين أيضا ، ثم ركدت دولتهم [2] .

ثم نبغ منهم جماعة وفيهم رجل من ولد بهرام جور ، وقصدوا إبطال الإسلام ورد الدولة الفارسية وأخذوا يحتالون فى تضعيف قلوب المؤمنين وأظهروا مذهب الإمامية ، وبعضهم مذهب الفلاسفة وجعل لهم رأس يعرف بعبد الله بن ميمون بن عمرو ، ويقال ابن ديصان القداح ، الأهوازى وكان مشعبذا ممخرقا ، وكان معظم مخرقته بإظهار الزهد والورع ، وأن الأرض تطوى له وكان يبعث خواص أصحابه إلى الأطراف معهم طير ، ويأمرهم أن يكتبوا إليه بالأخبار عن الأباعد ثم يحدث الناس بذلك فيقوى شبههم .

وكانوا يقولون : إن المتقدمين منهم ، يستخلفون عند الموت ، وكلهم خلفاء محمد ابن إسماعيل بن جعفر الطالبى ، وإنهم من الدعاة إلى الإمام محمد بن تميم وابنه إسماعيل ، وهم المتغلبون على بلاد المغرب ، ومن استجاب لهم عرفوه أنه إن عمل ما يرضيهم صار إماما ونبيا ، وأنه يرتقى المبتدى منهم إلى الدعوة ، ثم إلى أن يكون حجة ثم إلى الإمامة [3] ثم يلحق مرتبة الرسل ، ثم يتحد بالرب فيصير ربا ، ولا يجوز لأحد أن يحجب امرأته عن إخوانه .

" بسم الله الرحمن الرحيم : يقول الفرج بن عثمان : إنه داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية ، وهو جبريل . وإن المسيح تصور له فى جسم إنسان ، وقال له : إنك الداعية ، وإنك الحجة ، وإنك الناقة ، وإنك الدابة ، وإنك يحيى بن زكريا ، وإنك روح القدس . وعرفه أن الصلاة أربع ركعات : ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها ، وأن الأذان فى كل صلاة أن يقول المؤذن :

---

(١) اختلف حول تورط الأفشين فى قضية بابك ، وقد جرت له محاكمة أيام المعتصم قتل أثرها . انظر مروج الذهب : ٣/ ٣٠٥ . وراجع ما كتبه قاسم العزيز فى أطروحته عن بابك . ط . بيروت – دار الفارابى .

(٢) أخبار القرامطة . جمع وتحقيق ودراسة د . سهيل زكار .

(٣) نجد مصداق هذا في سيرة حمزة بن عليّ هادي المستجيبين وقيام الدعوة الدرزية .

الله أكبر ثلاث مرات

أشهد ألا إله إلا الله مرتيـــن

أشهد أن آدم رسول الله

أشهد أن نوحا رسول الله

أشهد أن إبراهيم رسول الله

(أشهد أن موسى رسول الله) (١)

أشهد أن عيسى رسول الله

أشهد أن محمدا رسول الله

أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية (رسول الله) (٢)

والقراءة فى الصلاة :

الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه ، المنجد لأوليائه بأوليائه . قل إن الأهلة مواقيت للناس ، ظاهرها ليعلموا عدد السنين والحساب والشهور(٣) والأيام ، وباطنها لأوليائى الذين عرفوا عبادتى وسبيلى ، فاتقونى يا أولى الألباب ، . وأنا الذى لا أسأل عما أفعل ، وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذى أبلو عبادى وأمتحن خلقى ، فمن صبر على بلائى ومحنتى واختبارى أدخلته فى جنتى ، وأخلدته فى نعيمى ، ومن زال عن أمرى ، وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى ، وأتممت أجلى ، وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى وأنا الذى لم يعل جبار إلا وضعته ، ولا عزيز إلا أذللته ، وليس الذى أصر على أمره ، ودام على جهالته ، وقال : « لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون » ثم يركع (٤) .

---

(١) ، (٢) زيد ما بين الحاصرتين عن الكامل لابن الأثير : ٧/ ١٧٩ .

(٣) انظر سورة البقرة : ١٨٩ فقد تم التصرف بها ، ونال هذا عددا آخر من الآيات .

(٤) فى ابن الأثير الكامل : ٧/ ١٧٩ بعدهذا اللفظ جملة تكميلية هذا نصها : ويقول فى ركوعه سبحان ربى رب العزة وتعالى عما يصف الظالمون ، يقولها مرتين . فإذا سجد قال : (الله أعلى) الله أعلى ، الله أعظم ، الله أعظم .

ومن شرائعه : صيام يومين في السنة هما : المهرجان [1] والنوروز . [2] وإن الخمر حلال ، ولا غسل من جنابة ، ولكن الوضوء كوضوء الصلاة . ولا يؤكل ما له ناب أو له مخلب ولا يشرب النبيذ ، وإن القبلة إلى بيت المقدس ، والحج إليه ، وإن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شغل .

(٥) من دعاة القرامطة :

وكان أكبر دعاته عبدان ، وكان فطنا خبيثا ، خارجا عن طبقة نظرائه من أهل الوادى ذا فهم وحذق ، وكان يعمل عند نفسه على نصب له ، من غير أن يتجاوز به إلى غيره ، ولا يظهر غير التشيع والعلم ، ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن إسماعيل بن جعفر .

فكان أحد من تبع عبدان ذكرويه بن مهرويه ، وكان شابا ذكيا فطنا من قرية بسواد الكوفة على نهرهد ، فنصبه عبدان على إقليم نهر هد وما والاه ، ومن قبله دعاة جماعة متفرقون في عمله . وكان (٢٤ - ظ) داعية عبدان على فرات بادولى : الحسن بن أيمن وداعيته على طسوج تستر : المعروف بالبورانى - وإليه نسب البورانية - وداعيته على جهة أخرى المعروف بوليد وفى أخرى أبو الفوارس . وهؤلاء رؤساء دعاة عبدان ، ولهم دعاة تحت أيديهم ، فكان كل داع يدور في عمله ويتعاهده في كل شهر مرة ، وكل ذلك بسواد الكوفة .

ودخل في دعوته من العرب طائفة ، فنصب فيهم دعاة ، فلم يتخلف عنه رفاعى ولا ضبعى ، ولم يبق من البطون المتصلة بسواد الكوفة بطن إلا دخل في الدعوة منه ناس كثير أو قليل : من بنى عابس ، وذهل وعنزة ، وتيم الله ، وبنى ثعل ، وغيرهم من بنى شيبان ، فقوى قرمط وزاد طمعه ، فأخذ في جمع الأموال من قومه .

---

(١) كان المهرجان من أعياد الفرس القديمة ويوافق موسم جمع المحاصيل والغلال .

(٢) النوروز - ويقال النيروز - لفظ فارسى معرب ، ومعناه اليوم الجديد : وكان الرس يتخذونه عيدا أيضا وكان يوافق عندهم يوم الاعتدال الربيعى . انظر المعرب للجواليقى .

(٦) مراتب القرامطة :

الفطرة : فابتدأ يفرض عليهم أن يؤدوا درهما عن كل واحد ، وسمى ذلك : (الفطرة) على كل أحد من الرجال والنساء ، فسارعوا إلى ذلك .

الهجرة : فتركهم مديدة ، ثم فرض " الهجرة " وهو دينار على كل رأس أدرك ، وتلا قوله تعالى : **﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾** (١) .

وقال : (هذا تأويل هذا) فدفعوا ذلك إليه ، وتعاونوا عليه ، فمن كان فقيرا أسعفوه ، فتركهم مديدة .

البلغة : ثم فرض عليهم " البلغة " وهى سبعة دنانير ، وزعم أن ذلك هو البرهان الذى أراد الله بقول : **﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾** (٢) . وزعم أن ذلك بلاغ من يريد الإيمان ، والدخول فى السابقين المذكورين فى قوله تعالى **﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون ﴾** (٣) .

وصنع طعاما طيبا حلوا لذيذا ، وجعله على قدر البنادق ، يطعم كل من أدى إليه سبعة دنانير منها واحدة ، وزعم أنه طعام أهل الجنة نزل إلى الإمام فكان ينفذ إلى كل داع منها مائة بلغة ، ويطالبه بسبعمائة دينار ، لكل واحدة منها سبعة دنانير .

الخمس : فلما توطأ له الأمر فرض عليهم أخماس ما يملكون وما يتكسبون ، وتلا عليهم : **﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ﴾** الآية (٤) . فقوموا جميع ما يملكونه من ثوب وغيره وأدوا ذلك إليه ، فكانت المرأة تخرج خمس ما تغزل ، والرجل خمس ما يكسبه .

الألفة : فلما تم ذلك ، فرض عليهم " الألفة " وهو أن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد وأن يكونوا فيه أسوة واحدة لا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه فى ملك يملكه ،

---

(١) التوبة : ١٠٣ . (٢) البقرة : ١١١ .

(٣) الواقعة : ١٠ ، ١١ . (٤) الأنفال : ٤١ .

وتلا عليهم ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ **لو أنفقتَ ما في الأرض جميعا ما ألَّفْتَ بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ (٢) .

وعرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم . وقال : « هذه محنتكم التى امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون » . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده وذلك كله فى سنة ست وسبعين ومائتين .

وأقام الدعاة فى كل قرية : رجلا مختارا من ثقاتها يجمع عنده أموال أهل قريته من بقر وغنم وحلى ومتاع ، وغيره . وكان يكسو عاريهم وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيرا بينهم ولا محتاجا ولا ضعيفا ، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش فى صناعته والكسب بجهده ، ليكون له الفضل فى رتبته ، وجمعت المرأة كسبها من مغزلها ، والصبى أجرة نظارته للطير ، وأتوه به فلم يتملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه .

فلما استقام له ذلك أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ، ويختلطن بالرجال ، ويتراكبن ولا يتنافرن ، فأعلن ذلك من صحة الود والألفة بينهم .

فلما تمكن من أمورهم ، ووثق بطاعتهم ، وتبين مقدار عقولهم ، أخذ فى تدريجهم ، وأتاهم بحجج من مذهب الثنوية ، فسلكوا معه فى ذلك حتى يقضى ما كان يأمرهم به فى مبدإ أمرهم من الخشوع والورع والتقوى ، وظهر منهم بعد تدين كثير إباحة الأموال والفروج ، والغناء عن الصوم والصلاة والفرائض ، وأخبرهم أن ذلك كله موضوع عنهم ، وأن أموال المخالفين ودماءهم حلال لهم ، وأن معرفة صاحب الحق تغنى (عن) كل شيء ، ولا يخاف معه إثم ولا عذاب - يعنى إمامه الذى يدعو إليه ، وهو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق - وأنه الإمام المهدى الذى (٢٥ و) يظهر فى آخر الزمان ويقيم الحق ، وإن البيعة له ، وإن الداعى إنما يأخذ على الناس له ، وإن ما يجمع من الأموال مخزون له إلى أن يظهر ، وإنه حى لم يمت ، وإنه يظهر فى آخر الزمان ، وإنه مهدى الأمة .

فلما أظهر هذه الأمور كلها بعد تعلقه بذكر الأئمة والرسل والحجة والإمام ، وأنه المأمول والمقصد والمراد ، وبه اتسقت هذه الأمور ، ولولا هذه لهلك الخلق وعدم

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الأنفال : ٦٣ .

الهدى والعلم ، ظهر فى كثير منهم الفجور ، وبسط معهم أيديهم بسفك الدماء ، وقتلوا جماعة ممن خالفهم ، فخافهم الناس واستوحشوا من ظهور السلاح بينهم ، فأظهر موافقتهم كثير من مجاوريهم ، جزعا منهم ثم إن الدعاة اجتمعوا ، واتفقوا على أن يجعلوا لهم موضعا يكون وطنا ودار هجرة يهاجرون إليها ، ويجتمعون بها ، فاختاروا من سواد الكوفة - فى طسوج الفرات من ضياع السلطان المعروفة بالقاسميات - قرية تعرف " بمهتماباذ " فحاذوا إليها صخرا عظيما ثم بنوا حولها سورا منيعا عرضه ثمانية أذرع ، ومن ورائه خندق عظيم ، وفرغوا من ذلك فى أسرع وقت ، وبنوا فيها البناء العظيم ، وانتقل إليها الرجال والنساء فى كل مكان وسميت " دار الهجرة " وذلك فى سنة سبع وتسعين ومائتين ، فلم يبق حينئذ أحد إلا خافهم ولا بقى أحد يخافونه وتمكنوا فى البلاد .

وكان الذى أعانهم على ذلك تشاغل الخليفة بفتنة الخوارج ، وصاحب الزنج بالبصرة وقصر يد السلطان ، وخراب العراق ، وتركه لتدبيره ، وركوب الأعراب واللصوص بعد السبعين ومائتين بالقفر ، وتلاف الرجال ، وفساد البلدان ، فتمكن هؤلاء ، وبسطوا أيديهم فى البلاد وعلت كلمتهم .

وكان منهم مهرويه أحد الدعاة فى مبدإ أمره ينظر النخل ويأخذ أجرته تمرا فيفرغ منه النوى ويتصدق به ، ويبيع النوى ويتقوت به ، فعظم فى أعين الناس قدره ، وصارت له مرتبة فى التقية والدين [(١)] فصار إلى صاحب الزنج لما ظهر على السلطان وقال له : (ورائى مائة ألف ضارب سيف أعينك بهم) .

فلم يلتفت إلى قوله ، ولم يجد فيه مطمعا ، فرجع وعظم بعد ذلك فى السواد ، وانقاد إليه خلق كثير فادعى أنه من ولد عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر ، فقيل له " لم يكن لمحمد بن إسماعيل ابن يقال له عبدالله » [(٢)] .

قال عبد القاهر : الذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة ، يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها ، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع .

والدليل على أنهم كما ذكرناه ما قرأته فى كتابهم المترجم : " السياسة والبلاغ

(١) هذه رواية ثانية عن أصل حركة القرامطة فى العراق ، عرضها المقريزى دون أن ينبه على ذلك .

(٢) بانسياب سريع مزج المقريزى بين بداية حركة صاحب الجمل فى الشام ومسألة نسبه وبين ما كان يجرى فى سواد العراق .

الأكيد، والناموس الأعظم " وهى رسالة عبيد الله بن الحسين القيرواني [1] إلى سليمان ابن الحسن بن سعيد [2] الجنابى ، أوصاه فيها بأن قال له : ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منه رشدا فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ، وأنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء ، وعلى القول بقدم العالم ، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبرا لا نعرفه .

وذكر فى هذا الكتاب إبطال القول بالمعاد والعقاب ، وذكر فيها أن الجنة نعيم الدنيا ، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد .

وقال أيضا فى هذه الرسالة : إن أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم .

وقال فيها أيضا : أكرم بالدهرية فإنهم منا ونحن منهم . وفى هذا تحقيق نسبة الباطنية إلى الدهرية والذى يؤكد هذا أن المجوس يدعون نبوة زرادشت ونزول الوحى عليه من الله تعالى ، وأن الصابئين يدعون نبوة هرمس، وواليس ، وذروثيوس وأفلاطون وجماعة من الفلاسفة ، وسائر أصحاب الشرائع كل صنف منهم مقرون بنزول الوحى من السماء على الذين أقروا بنبوتهم ، ويقولون إن ذلك الوحى شامل للأمر والنهى والخبر عن عاقبة بعد الموت ، وعن ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، يكون فيها الجزاء عن الأعمال السالفة ، والباطنية يرفضون المعجزات ، وينكرون نزول

---

(١) قد تحدثنا قريبا عن عبيد الله بن الحسين ، المهدى (انظر ص ٣٤٣) .

(٢) ذكر الذهبى فى حوادث سنة ٣١١ أن أبا طاهر سليمان بن الحسن الجنابى ، دخل البصرة ليلا فى ألف وسبعمائة فارس ، نصبوا السلالم على السور ثم نزلوا فوضعوا السيف فى أهل البلد ، وأحرقوا الجامع وسبوا الحريم (العبر : ٢/ ١٤٧) . ثم ذكر فى حوادث سنة ٣١٢ أن أبا طاهر هذا عارض ركب العراق ، فوضع السيف واستباح الحجيج ، وساق الجمال بالأموال والحريم (العبر : ٢/ ١٥٠) . ثم ذكر أحداثه فى كل سنة ، وذكر فى حوادث سنة ٣١٦ أنه بنى دارا سماها دار الهجرة ، ودعا إلى المهدى ، وتسارع إليه كل مريب (العبر : ٢/ ١٦٣) . وفى سنة ٣١٧ وافى الحجاج يوم التروية بمكة فقتلهم قتلا ذريعا فى المسجد الحرام وفى فجاج مكة ، وقتل أمير مكة ، وقلع باب الكعبة ، وقلع الحجر الأسود ، وأخذه إلى هجر (العبر : ٢/ ١٦٧) . ثم ذكر إفساده فى سنة ٣٢٣ وأخذه ركب الحجاج العراقى ، ودخوله الكوفة فى سنة ٣٢٥ وضربه إتاوة على ركب الحجاج فى سنة ٣٢٧ ، إلى أن ذكر وفاته فى شهر رمضان من سنة ٣٣٢ بهجر من جدرى نزل به فأهلكه ، وقام بأمر القرامطة بعده أبو القاسم الجنابى (العبر : ٢/ ٢٢٩) .

الملائكة من السماء بالوحي والأمر والنهي ، بل ينكرون أن يكون في السماء ملك ، وإنما يتأولون الملائكة على دعاتهم إلى بدعتهم ، ويتأولون الشياطين على مخالفيهم ، والأبالسة على مخالفيهم .

ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلبا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة ، وكل واحد منهم صاحب دور مسبع إذا انقضى دور سبعة تبعهم في دور آخر ، وإذا ذكروا النبي والوحي قالوا : إن النبي هو الناطق ، والوحي أساسه الفاتق ، وإلى الفاتق تأويل نطق الناطق على ما تراه يميل إليه هواه ، فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البررة ، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة .

ثم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا يورث تضليلا ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام ، والزنى عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق .

وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها ، وتأولوا في ذلك قوله : **﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾** (1) ، وحملوا اليقين على معرفة التأويل .

وقد قال القيرواني في رسالته إلى سليمان بن الحسن : إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل ، وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع ، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور ، وإبطال الملائكة في السماء ، وإبطال الجن في الأرض ، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم .

وفي هذا تحقيق دعوانا على الباطنية أنهم دهرية يقولون بقدم العالم ، ويجحدون الصانع . ويدل على دعوانا عليهم القول بإبطال الشرائع أن القيرواني قال أيضا في رسالته إلى سليمان بن الحسن : وينبغي أن تحيط علما بمخاربي الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم ، كعيسى بن مريم قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى ، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت ، وأباح العمل في السبت ، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها ، ولهذا قتلته اليهود لما اختلفت كلمته .

ثم قال له : ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال : (الرُّوح

---

(1) من الآية ٩٩ من سورة الحجر .

من أمر ربى) (١) لما لم يعلم ولم يحضره جواب المسألة . ولا تكن كموسى فى دعواه التى لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن ، والشعبذة ، ولما لم يجد المحقق فى زمانه عنده برهانا قال : (لئن اتخذت إلها غيرى) (٢) وقال لقومه (أنا ربكم الأعلى)(٣) لأنه كان صاحب الزمان فى وقته .

ثم قال فى آخر رسالته : وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها ، فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته ، من الأجنبى ، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات ، وخوفهم بغائب لا يعقل ، وهو الإله الذى يزعمونه ، وأخبرهم بكون مالا يرونه ، من البعث من القبور والحساب والجنة والنار ، حتى استعبدهم بذلك عاجلا وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا (٤) ، واستباح بذلك أموالهم بقول : (لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) (٥) ، فكان أمره معهم نقدا ، وأمرهم معه نسيئة ، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون ، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج؟

ثم قال لسليمان بن الحسن فى هذه الرسالة : وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس ، فهنيئا لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم .

وفى هذا الذى ذكرناه دلالة على أن غرض الباطنية القول بمذاهب الدهرية واستباحة المحرمات وترك العبادات .

ثم إن الباطنية لهم فى اصطياد الأغنام ودعوتهم إلى بدعتهم حيل على مراتب سموها : التفرس ، والتأنيس ، والتشكيك ، والتعليق ، والربط ، والتدليس ، والمواثيق بالإيمان والعهود ، وآخرها الخلع والسلخ .

---

(١) وردت هذه الجملة فى الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

(٢) وردت هذه الجملة على لسان فرعون فى الآية ٢٩ من سورة الشعراء .

(٣) وردت هذه الجملة على لسان فرعون أيضا فى الآية ٢٤ من سورة النازعات .

(٤) الخول - بفتح الخاء والواو جميعا - الخدم والأتباع .

(٥) من الآية ٢٣ من سورة الشورى .

فأما التفرس ، فإنهم قالوا : من شرط الداعي إلى بدعتهم أن يكون قويا على التلبيس ، وعارفا بوجوه تأويل الظواهر ليردها إلى الباطن ، ويكون مع ذلك مميزا بين من يطمع فيه وفي إغرائه وبين من لا مطمع فيه ، ولهذا قالوا في وصاياهم للدعاة إلى بدعتهم : لا تتكلموا في بيت فيه سراج ، يعنون بالسراج من يعرف علم الكلام ووجوه النظر والمقاييس . وقالوا أيضا لدعاتهم : لا تطرحوا بذركم في أرض سبخة ، وأرادوا بذلك منع دعاتهم من إظهار بدعتهم عند من لا تؤثر فيهم بدعتهم كما لا يؤثر البذر في الأرض السبخة شيئا . وسموا قلوب أتباعهم الأغتام أرضا زاكية لأنها تقبل بدعتهم . وهذا المثل بالعكس أولى ، وذلك أن القلوب الزاكية هي القابلة للدين القويم ، والصراط المستقيم ، وهي التي لا تصدأ بشبه أهل الضلال ، كالذهب الإبريز الذي لا يصدأ في الماء ، ولا يبلى في التراب ، ولا ينقص في النار ، والأرض السبخة كقلوب الباطنية وسائر الزنادقة الذين لا يزجرهم عقل ، ولا يردعهم شرع ، فهم أرجاس أنجاس أموات غير أحياء ، ﴿ **إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ (١) . قد قسم لهم الحظ في الرزق من قسم رزق الخنازير في مراعيها ، وأباح طعمة العنب في براريها ﴿ **لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون** ﴾ (٢) .

وقالوا أيضا : من شرط الداعي إلى مذهبهم أن يكون عارفا بالوجوه التي تدعى بها الأصناف ، فليست دعوة الأصناف من وجه واحد ، بل لكل صنف من الناس وجه يدعى منه إلى مذهب الباطن .

فمن رآه الداعي مائلا إلى العبادات حمله على الزهد والعبادة ، ثم سأله عن معاني العبادات وعلل الفرائض ، وشككه فيها .

ومن رآه ذا مجون وخلاعة قال له : العبادة بله وحماقة ، وإنما الفطنة في نيل اللذات ، وتمثل له بقول الشاعر :

من راقب الناس مات هما ٭٭٭ وفاز باللذة الجسور

ومن رآه شاكا في دينه أو في المعاد والثواب والعقاب ، صرح له بنفي ذلك ، وحمله على استباحة المحرمات ، واستروح معه إلى قول الشاعر الماجن :

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة الفرقان .

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

أترك لذة الصهباء صرفــا *** لما وعدوه من لحم وخمر

حياة ثم موت ثم نشـــــر *** حديث خرافة يا أم عمرو

ومن رآه من غلاة الرافضة - كالسبئية ، والبيانية ، والمغيرية ، والمنصورية ، والخطابية - لم يحتج معه إلى تأويل الآيات والأخبار ، لأنهم يتأولونها معهم على وفق ضلالتهم .

ومن رآه من الرافضة زيديا أو إماميا مائلا إلى الطعن فى أخيار الصحابة دخل عليه من جهة شتم الصحابة وزين له بغض بني تيم لأن أبا بكر منهم ، وبغض بنى عدى لأن عمر بن الخطاب كان منهم ، وحثه على بغض بنى أمية لأنه كان منهم عثمان ومعاوية .
وربما استروح الباطنى فى عصرنا هذا إلى قول إسماعيل بن عباد :

دخول النار فى حب الوصــى *** وفى تفضـيل أولاد النبــى

أحب إلى من جنات عـــدن *** أخلدها بتيم أو عـــدى

قال عبد القاهر : قد أجبنا هذا القائل بقولنا فيه :

أتطمع أنت فى جنات عــدن *** وأنت عدو تيم أو عــدى

وهم تركوك أشقى من ثمـود *** وهم تركوك أفضح من دعى

وفى نار الجحيم غدا ستصلى *** إذا عاداك صـديق النبـى

ومن رآه الداعى مائلا إلى أبى بكر وعمر مدحهما عنده ، وقال : لهما حظ فى تأويل الشريعة ، ولهذا استصحب النبى أبا بكر إلى الغار ، ثم إلى المدينة ، وأفضى إليه فى الغار تأويل شريعته . فإذا سأله الموالى لأبى بكر وعمر، عن التأويل المذكور لأبى بكر وعمر أخذ عليه العهود والمواثيق فى كتمان ما يظهره له ، ثم ذكر له على التدريج بعض التأويلات، فإن قبلها منه أظهر الباقى ، وإن لم يقبل منه التأويل الأول ربطه فى الباقى وكتمه عنه، وشك الغر من أجل ذلك فى أركان الشريعة .

والذين يروج عليهم مذهب الباطنية أصناف :

أحدها : العامة الذين قلت بصائرهم بأصول العلم والنظر ، كالنبط والأكراد وأولاد المجوس .

والصنف الثانى : الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب ، ويتمنون عود الملك إلى العجم .

والصنف الثالث : أغتام بنى ربيعة ، من أجل غيظهم على مضر لخروج النبى منهم ، ولهذا قال عبد الله بن حازم السلمى فى خطبته بخراسان : إن ربيعة لم تزل غضابا على الله مذ بعث نبيه من مضر ، ومن أجل حسد ربيعة لمضر بايعت بنو حنيفة مسيلمة الكذاب طمعا فى أن يكون فى بنى ربيعة نبى كما كان فى بنى مضر نبى . فإذا استأنس الأعجمى الغر أو الربعى الحاسد المبغض بقول الباطنى له : قومك أحق بالملك من مضر ، فيسأله عن السبب فى عود الملك إلى قومه ، فإذا سأله عن ذلك قال له : إن الشريعة المضرية لها نهاية ، وقد دنا انقضاؤها ، وبعد انقضائها يعود الملك إليكم . ثم ذكر له تأول إنكار شريعة الإسلام على التدريج ، فإذا قبل ذلك منه صار ملحدا صريحا ، واستثقل العبادات ، واستطاب استحلال المحرمات ، فهذا بيان درجة التفرس منهم .

ودرجة التأنيس قريبة من درجة التفرس عندهم ، وهى : تزيين ما عليه الإنسان من مذهبه فى عينه ثم سؤاله بعد ذلك عن تأويل ما هو عليه ، وتشكيكه إياه فى أصول دينه ، فإذا سأله المدعو عن ذلك عند الإمام ، ووصل بذلك منه إلى درجة التشكيك ، حتى صار المدعو إلى اعتقاد أن المراد بالظواهر والسنن غير مقتضاها فى اللغة ، هان عليه بذلك ارتكاب المحظورات وترك العبادات .

والربط عندهم : تعليق نفس المدعو بطلب تأويل أركان الشريعة ، فإما أن يقبل منهم تأويلها على وجه يؤول إلى رفعها ، وإما أن يبقى على الشك والحيرة فيها .

ودرجة التدليس منهم قولهم للغر الجاهل بأصول النظر والاستدلال : إن الظواهر عذاب ، وباطنها فيه الرحمة ، وذكر له قوله فى القرآن : **﴿ فضُرِب بينهم بسور له باب باطنُه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذابُ ﴾** (١) . فإذا سألهم الغر عن تأويل باطن الباب قالوا : جرت سنة الله تعالى فى أخذ العهد والميثاق على رسله ، ولذلك قال : **﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم**

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الحديد.

وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾[1] وذكروا له قوله : ﴿ ولا تنقُضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ [2] ، فإذا حلف الغر لهم بالأيمان المغلظة وبالطلاق والعتق وتسبيل الأموال فقد ربطوه بها ، وذكروا له من تأويل الظواهر ما يؤدى إلى رفعها بزعمهم . فإن قبل الأحمق ذلك منهم دخل فى دين الزنادقة باطنا واستتر بالإسلام ظاهرا ، وإن نفر الحالف عن اعتقاد تأويلات الباطنية الزنادقة كتمها عليهم لأنه حلف لهم على كتمان ما أظهروه له من أسرارهم . وإذا قبلها منهم فقد حلفوه وسلخوه عن دين الإسلام ، وقالوا له حينئذ : إن الظاهر كالقشر والباطن كاللب ، واللب خير من القشر .

قال عبد القاهر : حكى لى بعض من كان فى دعوة الباطنية ثم وفقه الله تعالى لرشده وهداه إلى حل أيمانهم أنهم لما وثقوا منه بإيمانه قالوا له : إن المُسَمَّين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم .

قال هذا الحاكى لى : ثم ناقض الذى كشف لى هذا السر بأن قال له : ينبغى أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له : ﴿ إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طُوًى ﴾ . [3] قال : فقلت : سخنت عينك! تدعونى إلى الكفر بالرب القديم الخالق للعالم، ثم تدعونى مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق ، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلاها مرسلا لموسى؟! فإن كان موسى عندك ممخرقا فالذى زعمت أنه أرسله أكذب . فقال لى : إنك لا تفلح أبدا . وندم على إفشاء أسراره إلىّ ، وتبت من بدعتهم .

فهذا بيان وجه حيلهم على أتباعهم ، وأما إيمانهم فإن داعيهم يقول للحالف : جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسله وما أخذ الله تعالى على النبيين من عهد وميثاق أنك تستر ما تسمعه منى ، وما تعلمه من أمرى ، ومن أمر الإمام الذى هو صاحب زمانك ، وأمر أشياعه وأتباعه فى هذا البلد وفى سائر البلدان ، وأمر المطيعين له من الذكور والإناث ، فلا تظهر من ذلك قليلا ولا كثيرا ، ولا تظهر شيئا يدل عليه من كتابة أو إشارة إلا ما أذن لك فيه الإمام صاحب الزمان ، أو أذن لك فى إظهاره المأذون له فى دعوته ، فتعمل فى ذلك حينئذ بمقدار ما يؤذن لك فيه . وقد

(١) من الآية ٧ من سورة الأحزاب .

(٢) من الآية ٩١ من سورة النحل .

(٣) من الآية ١٢ من سورة طه.

جعلت على نفسك الوفاء بذلك ، وألزمته نفسك فى حالتى الرضا والغضب والرغبة والرهبة . قال : نعم ، فإذا قال " نعم " قال له : وجعلت على نفسك أن تمنعنى وجميع من أسميه لك ما تمنع منه نفسك بعهد الله وميثاقه عليك وذمة رسله ، وتنصحهم نصحا ظاهرا وباطنا ، وألا تخون الإمام وأولياءه وأهل دعوته فى أنفسهم ولا فى أموالهم ، وأنك لا تتأول فى هذه الأيمان تأويلا ، ولا تعتقد ما يحلها ، وإنك إن فعلت شيئا من ذلك فأنت برىء من الله ورسله وملائكته ومن جميع ما أنزل الله تعالى من كتبه ، وإنك إن خالفت فى شىء مما ذكرناه لك ، فلله عليك أن تحج إلى بيته مائة حجة ماشيا نذرا واجبا ، وكل ما تملكه فى الوقت الذى أنت فيه صدقة على الفقراء والمساكين ، وكل مملوك يكون فى ملكك يوم تخالف فيه أو بعده يكون حرا ، وكل امرأة لك الآن أو يوم مخالفتك أو تتزوجها بعد ذلك تكون طالقا منك ثلاث طلقات بائنات ، والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت به ، فإذا قال " نعم " قال له : كفى بالله شهيدا بيننا وبينك .

فإذا حلف الغر بهذه الأيمان ، ظن أنه لا يمكن حلها ولم يعلم الغر أنه ليس لأيمانهم عندهم مقدار ولا حرمة ، وأنهم لا يرون فيها ولا فى حلها إثما ولا كفارة ولا عارا ولا عقابا فى الآخرة . وكيف يكون لليمين بالله وبكتبه ورسله عندهم حرمة وهم لا يقرون بإله قديم ، بل لا يقرون بحدوث العالم ، ولا يثبتون كتابا منزلا من السماء ، ولا رسولا ينزل عليه الوحى من السماء ؟! وكيف يكون لأيمان المسلمين عندهم حرمة ومن دينهم أن الله الرحمن الرحيم إنما هو زعيمهم يدعون إليه ، ومن مال منهم إلى دين المجوس زعم أن الإله نور بإزائه شيطان قد غلبه ونازعه فى ملكه ؟ وكيف يكون لنذر الحج والعمرة عندهم مقدار وهم لا يرون للكعبة مقدارا ويسخرون بمن يحج ويعتمر ؟ وكيف يكون للطلاق عندهم حرمة وهم يستحلون كل امرأة من غير عقد ؟ فهذا بيان حكم الأيمان عندهم .

فأما حكم الأيمان عند المسلمين ، فإنا نقول : كل يمين يحلف بها الحالف ابتداء بطوع نفسه فهو على نيته ، وكل يمين يحلف بها عند قاض أو سلطان يحلفه ينظر فيها : فإن كانت يمينا فى دعوى لمدع شيئا على الحالف المنكر ، وكان المدعى ظالما للمدعى عليه فيمين الحالف على نيته ، وإن كان المدعى محقا والمنكر ظالما للمدعى فيمين المنكر على نية القاضى أو السلطان الذى أحلفه ، ويكون الحالف حانثا فى يمينه .

ومنها : مسائلهم فى أحكام الفقه ، كقولهم : لم صارت صلاة الصبح ركعتين ، والظهر أربعا ، والمغرب ثلاثا ؟ ولم صار فى كل ركعة ركوع واحد وسجدتان ؟ ولم

كان الوضوء على أربعة والتيمم على عضوين ؟ ولم وجب الغسل من المنى وهو عند أكثر المسلمين طاهر ؟ ولم يجب الغسل من البول مع نجاسته عند الجميع ؟ ولم أعادت الحائض ما تركت من الصيام ولم تعد ما تركت من الصلاة ؟ ولم كانت العقوبة فى السرقة بقطع اليد وفى الزنى بالجلد ؟ وهلا قطع الفرج الذى به زنى فى الزنى كما قطعت اليد التى بها سرق فى السرقة ؟ فإذا سمع الغر منهم هذه الأسئلة ورجع إليهم فى تأويلها قالوا له : علمها عند إمامنا وعند المأذون له فى كشف أسرارنا . فإذا تقرر عند الغر أن إمامهم أو مادونه هو العالم بتأويله اعتقد أن المراد بظواهر القرآن والسنة غير ظاهرها ، فأخرجوه بهذه الحيلة عن العمل بأحكام الشريعة . فإذا اعتاد ترك العبادة واستحل المحرمات كشفوا له القناع وقالوا له : لو كان لنا إله قديم غنى عن كل شىء لم يكن له فائدة فى ركوع العباد وسجودهم ، ولا فى طوافهم حول بيت من حجر ، ولا فى سعى بين جبلين . فإذا قبل منهم ذلك فقد انسلخ عن توحيد ربه ، وصار جاحدا له زنديقا .

أما عن التفسير الباطنى للقرآن الذى يتجاهل ما تعارف عليه علماء التفسير من ضوابط وقواعد منهجية ، فقد رفضه علماء التفسير ورفضته الأمة وبات محل إجماع منها ، لأن الأخذ به يجعل أمر التفسير خاضعا لأهواء باطنية شتى تفتقد الدليل ويعوزها البرها ن . أو أن تكال أمر التفسير إلى الإمام المعلم ـ وذلك ولا شك تقول على الإسلام ـ فيه صرف العقل عن التدبر وإلغاء الإنسان عن الفكر وهو أمين عليه وفساد مخل للمناهج العقلانية .

(٧) أثر الإسماعيلية و القرامطة :

الإخوان والأخوة : إن النجاح الذى أصابته دعوة الإسماعيلية بين الأمم المؤلفة للخلافة العباسية على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم كان أيضا عظيما حتى بالقياس إلى دعوة حزب الخوارج . وإنى لا أظن أن دعوة أو حركة عقلية أخرى تركت فى تاريخ الإسلام وعقول وحياة أبنائه من الآثار العميقة وكان لها من النتائج العملية مثل ما كان للحركة الإسماعيلية .

إن قسما كبيرا من العالم الإسلامى ظل يشعر بتأثير الأفكار والأنظمة الإسماعيلية سنين عديدة كحزب أو كتلة واحدة ، وما ذلك إلا لأن البذور التى بذرها أصحاب المذهب بين الأمة الإسلامية كانت قوية حتى إن حوافر خيل الترك والمغول والصليبيين

والأهوال التى رافقت هجرة هؤلاء الأقوام من آسيا الوسطى ومنغوليا وأوربا الغربية لم تقو على قتلها .

بقى أثر تعاليم الفرق الإسماعيلية واضحا فى أنظمة جماعات أخرى والطرق الصوفية وغيرها من الطرق الدرويشيه .

إن من أهم مميزات الأخويات التعبيرعن فكرة التضامن بين الطبقات والدفاع عن حقوقها الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك بجمع كلمة أعضائها وتكوين جماعات او حلقات منها موثقة العرى ومرتبطة بنظام واحد وغاية واحدة ووسائل واحدة .

وغنى عن البيان يقول بندلى : لم تكن الجماعات أو الهيئات فى الشرق تربطهم وحدة الحرفة والرغبة فى تحسين أحوال أعضائها المالية فقط كما هى الحال فى أوربا وبعض البلاد الشرقية فى عهد الأتراك الذين ، نظرا لضعف عقولهم وضيق صدورهم وميلهم إلى الاستبداد وحصر السلطة فى يد واحدة ، منعوا الجماعات من التدخل فى السياسة والمسائل الاجتماعية وأجبروها أن تقف عند غايات مادية فقط . مما ينتج عنه أن الجماعات الشرقية كانت فى أول ظهورها أقرب إلى الجمعيات الخيرية الدينية منها إلى نقابات العمال فى عصرنا هذا ، وأنها كانت تقوم بأداء وظائفها المتنوعة تحت مراقبة رؤساء خبيرين منتخبين ذوى مراتب عالية يعرفون بالشيوخ والأئمة .

والمعروف عن أعضاء هذه الجماعات أنهم كانوا متساوين فى الحقوق والواجبات يعاملون بعضهم بعضا معاملة الأخ لأخيه ، ولهذا أطلق عليهم اسم[1] « الإخوان » ، وهو الاسم الذى لا يزال مستعملا حتى اليوم عند أكثر أصحاب الجماعات . وعلى شهادات بعض الكتبة المعاصرين نرجح أن أول حلقة أو أخوية ظهرت بين القرامطة كانت حلقة «إخوان الصفا » التى تأسست فى النصف الثانى من العصر العاشر كما يستفاد من بعض «رسائلهم» [2] .

إخوان الصفا : « إخوان الصفا » جمعية أو حلقة علمية مصرية لم يشأ أعضاؤها أن يطلع الناس على أسمائهم وأغراضهم ومحل إقامتهم ، ولهذا ترى أكثر من بحث عن هذه الجمعية أو ذكر شيئًا عن أحوالها ومبادئها من علماء هذا العصر يخبطون فيها خبط

---

(١) انظر عن أصل هذه التسمية المجلة الألمانية Der Islam ١ : ٢٢-٢٦ ، و٤ : ٣٢٤ .

(٢) طبعت هذه الرسائل (٥٢ رسالة) لأول مرة فى بومباى من أعمال الهند ، ثم أعيد طبع قسم منها فى القاهرة ، ونحن الآن فى حاجة إلى طبعة ثالثة علمية لا تجارية .

عشواء، ويظنون فيها الظنون، إلا أنه يظهر من بعض سطور فى رسائلهم ومما نعرفه اليوم عن محل إقامتهم وزمن ظهورهم ونوع فاعليتهم ، أن إخوان الصفا حلقة أو أخوية قرمطية أسست فى البصرة لنشر المبادئ الإسماعيلية، والسعى وراء تحقيقها بالطرق السلمية العقلية . قال الأستاذ فون بوير (T. Von Boer) أحد المشتغلين بالفلسفة الإسلامية : " إنا أمام أمر واقع وهو نشوء عصبة دينية اجتماعية ذات ميول متطرفة أو بالأحرى ذات ميول ومبادئ إسماعيلية. أما أعضاء هذه العصابة التى كانت البصرة من أهم مراكزها فقد أطلق عليهم اسم «إخوان الصفا» لأن غايتهم الكبرى كانت أن يعمل الناس على خلاص نفوسهم بالتعاون وسائر الوسائل وخاصة « بالعلم المطهر» . وإنا لا نعرف فى الشرق الإسلامى عصابة أخرى كانت تعول على قوة العلم والحكمة (الفلسفة) فى تمهيد سبل السعادة الإنسانية فى الحياة الدنيا مثلما كانت تعول عليها جمعية «إخوان الصفا » [١] .

وإنا نرجح أن رد الفعل الذى أخذت تبدو ظواهره فى النصف الثانى من العصر العاشر وتقهقر القرامطة فى البحرين ثم ما طرأ على خلافة بنى العباس من الحوادث السياسية المهمة فى أوائل العصر الحادى عشر كان لها تأثير فى " إخوان الصفا " وفاعليتهم، وإنه كان من نتائج هذا التأثير أن أصحاب السلطة المدنية والدينية أخذوا يضطهدون الإخوان ويقيمون عليهم العيون فاضطروهم إلى التخفى والعمل " تحت الأرض " أو إلى إيقاف عملهم أو تغيير نوعه . أن تتجنب السياسة وتوقف حياتها على المسائل الاجتماعية والاقتصادية أو الأدبية والدينية فقط فصار بعضها يشتغل بهذه المسائل وبعضها بتلك. وإنا نرجح حصول هذا التطور فى حياة " إخوان الصفا وخلاياها المتعددة »[٢] .

يرى بندلى : أن مما تأثر بإخوان الصفا جماعات كإخوان (أخيار) ، برادران ، وبعض الطرق الصوفية والدراويش كالنقشبندية والرفاعية .

قال المستشرق الروسى غوردلنسكى أستاذ اللغة التركية فى " مدرسة اللغات والعلوم الشرقية " فى موسكا وما تعريبه : " استدل من أعمال "إخوان" (أخيار) آسيا الصغرى - وأعمالهم تكاد تنحصر فى إكرام الضيوف والاعتناء بالسياح والغرباء -

---

(١) انظر Encyclop. Musulmane ج٢٥ ص ٤٨٧ .

(٢) من أراد أن يقف على تاريخ الأصناف فى الشرق فليطالع كتاب :

H. Thorning, BEitrage Zur Kenntniss d. Islamichen VereinwesensBerlin1913

أنهم غرباء الأصل أو بعبارة أوضح أنهم من أصل إيرانى، وأن كلمة " يا أخى " أو "أخى " التى كانت شائعة بين " إخوان الصفا " والنزعات الشيوعية والتشيع الظاهر لعلى بن أبى طالب أو " للفتى " كما كانوا يسمونه ولأولاده ثم نوع أعمال هؤلاء "الأخيار " ونظامهم الداخلى والخارجى وأمور أخرى لا يسعنا ذكرها تحملنا على الظن فى أن هذه الجماعات وما هو من جنسها وليدة جماعة القرامطة ووريثتها الشرعية (١) .

الدراويش والطرق الصوفية : ونحن لو أنعمنا النظر فى هذا النظام لوجدناه يقرب جدا من نظام الدراويش الذين يعنون أكثر من " الأصناف " بالحياة الروحية النظرية وتربية السالكين فى طرقهم تربية دينية، وإن كانوا أحيانا يتدخلون فى الأمور السياسية كما كان يفعل أسلافهم الإسماعيلية، ويدافعون عن حقوق الشعب المهضومة ويطالبون سلاطين آل عثمان بإصلاحات اجتماعية .

إن من يقف على تاريخ الطرق الدرويشية كالمولوية والبكطاشية والنقشبندية ويطالع كتب شيخ الطريقة المولوية ويدقق فى أعمال بعض أعضائها الاجتماعية لابد أن يعثر هناك على نزعات شيعية متطرفة وروح إيرانية (٢) أو روح إسماعيلية . وهما ثورة الدراويش فى تركيا سنة ١٤١٥-١٤١٨ وحركة البابيين أو البهائيين فى بلاد العجم .

إن زعيم الثورة وهو الدرويش العالم بدر الدين سيماوى أوغلى، جاء من بلاد العجم، أى من عش الإسماعيلية الكبير ومصدر الحركات الاجتماعية والأدبية فى كل الشرق، وهناك تشرب المبادئ الاشتراكية المتعارفة التى حاول هو وتلميذاه بركلدجه مصطفى واليهودى المهتدى طورلاق كما أن يبثوها بين سكان آسيا الصغرى الذين كانوا فى ذلك الوقت أقرب الناس إلى اتباعها والعمل بموجبها لما أصابهم قبيل ذلك من المحن والمصائب التى جرها على بلادهم الفاتح المغولى دميرلنك والحروب الأهلية التى عقبت هذا الفتح وحولت أكثر البلاد الخصبة إلى صحارى يهيم فيها من بقى من سكانها ولا مأوى لهم ولا طعام .

---

(١) طالع عن "أخيار " فى آسيا الصغرى سياحة ابن بطوطه (ج٢ص٢٦٠- ٣٦٠ من الطبعة الباريزية) وكتاب رئيس فرع الآداب فى جامعة الأستانة الأستاذ كويريلى زاده محمد فؤاد - تحت عنوان: " إيلك متصوفلر ص٢٣٧.

(٢) نرجح أن جماعات كثيرة من الإسماعيلية انتقلت من بلاد العجم - على أثر دخول هولا كوخان إليها - إلى آسيا الصغرى وهناك دخل قسم كبير منها فى طريقة النقشبندية .

رأى بدر الدين وأشياعه هذه الحالة ثم رأى سلاطين وأمراء البلاد وأصحاب الأملاك الواسعة فيها لا يهتمون إلا بأنفسهم وبجمع المال من الفقراء المعدمين فاحتج على ذلك فى الجوامع والطرق فكان لكلامه وقع شديد على طبقات الفقراء والمظلومين، فأخذوا يلتفون حوله ويؤيدون كلمته، فكان لدعوته هذه صدى قوى فى البلاد حمل كثيرين من المستائين من الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى ذلك الوقت على الانضمام إليه وتأييده وأصحابه بالقوة المسلحة. فدارت بينهم وبين الحكومة حروب عديدة استغرقت نحو ثلاث سنوات، فتغلبت عليه قرب مدينة أزمين جيوش السلطان محمد الأول المعروف بجلبى، فقبضت عليه أيضا فى جبال مكدونيا، وقتلته فتشتت أصحابه وماتت الحركة ولم تبلغ غايتها (١).

أما الحركة البابية أو البهائية المشبعة - كما هو معلوم - بالأفكار الشيعية المتطرفة فأمرها معلوم لأنها حديثة العهد.

إن الحركة ظهرت فى بلاد العجم وبين الشيعيين المتطرفين، إذ من المحقق أن "على محمد" (١٨٢١-١٨٥٠) المعروف "بالباب" كان من فرقة الاثناعشرية وأن كلمة "باب" ولغة "بيانه" وأساليب تأويله وبعض أفعاله وأنظمته الرمزية ناهيك عن تعاليمه تقودنا توا إلى مذهب الإسماعيلية، حيث ورد لأول مرة فى الإسلام استعمال كلمة "باب" بمعناها الحاضر (٢).

على أنه لا يجوز أن يستنتج أحد من كلامنا هذا أن الهيئات المذكورة كانت دائما مصدر الحركات الاجتماعية الحرة فى الإسلام وأن أفكار ومبادئ حسن الصباغ وأشياعه التى تسربت إليها بشتى الطرق كانت دائما تتجلى فى تعاليم وسيرة هذه الجماعات. كلا ثم كلا! لأننا نعرف أن زوايا كثيرة من زوايا الدراويش كانت مبعثا للحركات الرجعية والتعصب الدينى أو القومى الأعمى وآلة لاستغلال عواطف جماهير الناس الدينية الطيبة. وإنما عنينا بعض الطرق الصوفية لا كلها وعلى الأخص تلك الطرق التى نبتت فى أرض إيران وتشربت منها الأفكار الشيعية.

فكم من حركة ابتدأت باسم الله وبركته وانتهت باسم الشيطان. فهذه حركة "باب" و"بهاءالله" كانت فى دورها الأول حركة مباركة حرة يرجى منها خير للأمة والبلاد الفارسية، إلا أنها تحولت بعد وفاة مؤسسيها إلى بدعة دينية أو أخوية أدبية بسيطة ذات

---

(١) انظرعن هذه الحركة تواريخ تركيا وتأليف الأستاذ كوبريلى زاده "إيلك متصوفلر" ص ٢٣٤.

(٢) انظر Encyclop. musulmane ج٧ ص٥٥٥.

صيغة رجعية وبرنامج اجتماعى ضعيف . فكلنا يذكر كيف أن أصحابنا البهائيين الذين كانوا يؤيدون من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٠٩ حزب الأحرار وبرنامجهم السياسى القائل بوجوب إعطاء بلاد العجم دستورا يقرب من دستور إنكلترا ويشدون أزرهم أصبحوا عاجلاً من حزب الملكيين وأخذوا يقاومون زعماء الشيعة الذين انضموا إلى الأحرار وصاروا من قادة الحركة القومية الناقمة على الشاه وحكومته الرجعية .

لم يخف علينا ما فى تعاليم " الباب " و " بهاء الله " من التساهل الدينى ، ثم لا حاجة بنا لأن نذكر بأنه وقع فى أول الحركة البابية من الخلاف بل من العداء بين " بهاء الله " وأخيه " صبحى أزل " ما أدى إلى انقسام البابيين إلى فرقتين متعاديتين متطاحنتين كانت تسعى كل واحدة منها ، إلى إبادة الأخرى بالسلاح والوشايات وسائر الوسائط المحرمة .

إن الأستاذ براون (Brown) المعروف بعطفه عليهم ومساعداته لهم يذكر فى بعض تآليفه عنهم أنه سمع من أحدهم فى شيراز ما حرفه : "للنبى (رئيس الجماعة) أن يتخلص من كل شخص يحسبه عدوا للدين ويرى فيه خطرا على الإنسانية كما يبعد الطبيب العضو المصاب بداء معد" . زد إلى ذلك أن البهائيين أنفسهم يقرون بأنهم لن يحصلوا على السلطة المدنية فى بلادهم إلا بعد حروب دينية تسيل فيها الدماء أنهارا قد يكون من ورائها تحسين أحوال اليهود والمسيحيين ولكن لا المسلمين ولا أصحاب " صبحى أزل " و (الشيخين) الذين ولا شك ستسوء حالهم وربما يقضى عليهم .

عدم الارتياح إلى نسبتهم لآل البيت : يذهب بعض المؤرخين إلى أن الفاطمية والقرامطة فرعان من الإسماعيلية لدعواهما ، هما أنفسهم ، أنهما ينشقان من تلك الأرومه . وانطلت تلك الدعوة بالنسبة إليها لدى مؤرخى الفرق الإسلامية ، وكان هناك من الأصول والمبادئ التى تجمع بين الأصل وفرعيه كالقول بالمهدية والتقية والعصمة وسلسلة المراتب للأئمة وغير ذلك من تلك الاصطلاحات والمصطلحات ، وكأن الأمر بات مسلما على صحة تلك النسبة مع أنه يحتاج إلى دراسة . غير أنه ظهر من وراء ما وقع بين الفاطمية والقرامطة من صراع حاد ، كان فى ظاهره صراع المصالح والغايات ثم انقلب إلى تناكر وازدراء ، أنه أنكرت القرامطة نسبة الفاطمية إلى الإسماعيلية كما أنكرت الفاطمية عليها حقيقة تلك النسبة أيضا . ولما كانت تلكما الحركتان يعلمان حقيقة رباط النسب الحقيقى الذى يدعيانه إلى الإسماعيلية وقع التخاصم بينهما فتكاشفا أمر نسبهما وتعريا فعرت إحداهما الأخرى . وأنا أميل إلى أن مثل هذه الجمعيات السرية التى نشأت وغايتها هدم الإسلام هى أبعد ما تكون عن

انتسابها لآل البيت ، فلا دينهم دين الإسلام ولا مصطلحاتهم مصطلحات أهل الإسلام ولا أسماء ذويها التى ظهرت مع تلك الجمعيات السرية عربية . فإذن على أى معيار رضينا بنسبتهم لآل البيت ؟ فما هو دين القرامطة إذا لم يكن هو الإسلام ؟

ديـن القرامطة : إذا عنينا بالدين وشعائره ما يفهم منها اليوم أو ما ألفه الشعب البسيط من معنى هذه الكلمة فيصح أن نقول إنه لم يكن للقرامطة دين أو شعائر دينية تذكر ، ولو استعمل أحيانا زعماؤهم وكتبتهم من المفردات والاصطلاحات المتداولة بين أصحاب الدين ما قد يوهم السامع غير الواقف على مذهب القرامطة أن لهم دينا وشعائر دينية كغيرهم من معاصريهم من المسلمين وغير المسلمين ، كاعتقادهم مثلا بتجسد الله الدورى أو بتجسم العقل الأول فى أئمتهم أو المهديين أو الرجال العظام والحكماء الذين وكل إليهم أمر تحقيق المطلب الأكبر . قال القرمطى الشيرازى المذكور آنفا : «إنه لابد لله من حجة فى أرضه ، وإن إمامنا المهدى هو محمد حفيد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق " .

إلا أن هذه العقيدة أقرب ما تكون إلى فكر سياسى أو فلسفى منها إلى عقيدة دينية محضة . ثم لا يغرنا أن القرامطة كانوا يبنون تحقيق أحلامهم الاشتراكية على رجل من نسل على لا من بيت آخر ، لأن حبهم لبيت على لم يكن منهم إلا خطة سياسية وسببا متينا يربطهم بغيرهم من الشيعة ويستميل إليهم قلوب الناقمين من بنى العباس ، وإلا فسواء عندهم أكان الإمام ، مخلص هذا العالم ومهديه ، من أبناء على أو من بيت آخر لأنه لم يكن يهم القرامطة إلا مبدؤهم الأساسى وهو إيمانهم بإمكان تحقيق مطلبهم الأكبر الاشتراكى فى هذه الحياة الدنيا ، أما من يحقق هذا المطلب فهذا فى نظرهم أمر ثانوى وفى نظر زعماء الحركة أمر لا أهمية له البتة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن تحقيق آمالهم وأحلامهم السياسية أمر منوط بأى شخص تجسمت فيه الحكمة العالية والعقل الأعلى الذى هو الله .

ترى مما ذكر أن ديانة القرامطة لم تكن فى الحقيقة إلا عبارة عن عبادة العقل ، أى العقل الأعلى ولهذا لم تكن عندهم شعائر أو طقوس دينية ولا كانت لهم حاجة إليها ، وهذا ما انتبه إليه الكتبة المسلمون وأشاروا إليه مرارا بقولهم إن القرامطة " ينكرون الرسل والشرائع كلها " ، [١] وإنهم " تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلاً يورث

(١) كتاب الفرق بين الفرق : ص ٢٧٧ .

تضليلا فزعموا أن معنى الصلاة موالاة إمامهم والحج زيارته وإدمان خدمته والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سرهم بغير عهد ولا ميثاق وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وحملوا اليقين على معرفة التأويل ». [1] ومع ذلك فهم لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من بناء المساجد وإقامة الصلاة وسائر أصول الدين وشعائره : قال ناصر خسرو ما تعريبه : " وليس فى الأحساء مسجد تقام فيه صلاة الجمعة وهم لا يخطبون ولا يصلون، إلا أنهم (سمحوا) ببناء مسجد على حساب أحد الفرس السنيين» . [2] وقال بعد ذلك : " ولا يمنعون هنا أحدا من إقامة الصلاة، أما هم فلا يقيمونها»(٣) .

أما وقد نبذوا كل ديانة من الديانات التاريخية الوضعية فلم يعد يصعب عليهم بل كان من الواجب عليهم أن ينبذوا أيضا كل ما يستند على هذه الأديان من الحدود والسنن المتعلقة بالأكل والشرب واللبس . . . . إلخ، وأن يقولوا بتحليل كل ما ليس منه ضرر على الصحة ولا يحول دون تتميم الواجب والحصول على السعادة فى هذه الدنيا لا فى العالم الآخر . وهذا خسرو يشهد لهم " أنهم كانوا يبيعون فى الأحساء لحوم جميع الحيوانات كالقطط والكلاب والحمير والثيران والخرفان . . . إلخ، على شرط أن يضع البائع رأس الحيوان وجلده قرب لحمه، وهم يربون الكلاب كالخرفان فى المراعى حتى إذا سمنت وعجزت عن الجرى ذبحوها وأكلوها » [4] . وبذلك قضوا على سنن الأديان القديمة وحدودها المتعددة وجاهروا بأنهم أعلى من أن ينقادوا لهذه الحدود التى وضعت فى نظرهم لضعفاء العقول وصغارها أو " للحمير " كما كانوا يسمون الطبقات السفلى غير الراقية من الناس . وكان من جملة الحدود التى ألغوها : تحريم الخمر فصار بعضهم يشربه جهـــارا .

---

(١) الفرق : ص ٢٧٨ . (٢) سفر نامه : ص ٢٢٨ .

(٣) سفر نامه : ص ٢٢٨ . (٤) سفر نامه : ص ٢٢٩ .

الفصل الخامس

تحالف الفرق لمناصرة الشعوبية

١ ـ تحالفات متناقضة أسقطت الأمويين

كان سقوط دولة بنى أمية وقيام الدولة العباسية نتيجة لتحالفات متناقضة وثمرة لنزاعات دامية ومحصولا لانتفاضة لعب فيها الحقد على "سيطرة العرب المطلقة " دورا لا شبيه له فيما أحصى التاريخ من سقوط الدول . وهذا شأن النظام المتولد عن هذه الخصومات والتحالفات المتناقضة. قبائل بينها عداوات قبلية . . وفرق فرقت بينها أصولها وأهدافها وانتماءاتها القبلية المتعاونة المتناصرة ، ومَوَال يجمعها الكره على الإسلام ، والكره على العرب . هذه الخصومات التى قضت على الأمويين ، كشفت منذ البداية عن أسس غير ثابتة ، فكانت الأحزاب ذاتها التى عملت لصالحه تهدده ، والأطماع تحاصره ، وقوى الانفجار تخربه . وقد عملت من جهة أخرى عدة عناصر ضد السلطة المركزية فى فترة دقيقة من حياة الدولة ، كانعدام الثقة والدسائس ، كالتى حيكت لأبى مسلم الخراسانى ، والشكوك المتبادلة ، والأحقاد الخفية وكثير من العوامل الأخرى التي من هذا القبيل ثم الصعوبات المالية والفوضى فى الإسراف والتباهى وتعارض الأهواء والفرق التى لا حصر لها ، ولذا كان التفكك مآلا طبيعيا للدولة العباسية كما كان مآل الدولة الأموية .

٢ ـ بنو العباس يتحالفون مع أى مذهب

(١) العباسيون والسبئية :

اتخذت السبئية ، وعلى منوالها صنعت الكيسانية من اسم محمد بن الحنفية الرمز الذى كانوا يحتاجون إليه فى مذهبهم ، ولم يكن هناك بأس من أن يتوارى ابن الحنفية دون أن يفعل شيئا ، لأنه حتى لو كان ميتا لما كانت فائدته أقل منه حيا . ولقد قيل حينا

من الدهر إنه لم يمت ، بل كان لا يزال حيا غائبا فى جبل رضوى عند المدينة ، مستعدا للظهور فى الوقت المناسب . ولكن صار ابنه أبو هاشم عبد الله هو الإمام ، ولم يكن شأنه من حيث وراثة الإمامة أكبر من شأن أبيه . ولم يجد غلاة الشيعة الكوفيين ما كانوا يريدونه عند زيد بن عليّ بن الحسين . على أن أبا هاشم انتقل إلى الحميمة وأقام بها واتصل هناك بالعباسيين (١) ، ويروى أنه لما مات سنة٩٨هـ أوصى وصية صريحة بأن تكون الإمامة لمحمد بن عبد الله بن العباس .

وقد نبه فان فلوتن على أهمية هذه الرواية الأخيرة تنبيها شديدا ، ومهما يكن من شيء فالراجح أنها فى صورتها هذه مخترعة (٢) ، ولكن اختراعها كان منذ زمن مبكر ، لأن لها شواهد قوية (٣) ، ولولا ذلك لحذر العباسيون فيما بعد من أن يقيموا حقهم على مثل ذلك الأساس . وهذه الرواية تتضمن أيضا قدرا من الحق ، فقد كان أبو هاشم فى الواقع سلفا لمحمد بن عليّ ، وإن كان يجوز أنه لم يعينه خليفة له تعيينا حقيقيا . وقد كان لأبى هاشم حزبه الخاص ، وكان أتباعه يسمون الهاشمية (٤) ، وهم بعد أن مات أبو هاشم قد صاروا إلى محمد بن عليّ. (٥) وبحسب ما جاء فى الطبرى (٦) كان على رأسهم خداش ، وهو من أكبر دعاة الشيعة نجاحا (٧) ، وكان فى أول الأمر يدعو إلى محمد بن عليّ . وعلى هذا ففى خبر تلك الوصية شيء من الحق : فالعباسيون والوا أبا هاشم لكى يضموا الهاشمية إلى دعوتهم .

وفى هذا ما يدل على الصلة بين العباسيين وبين السبئية أصحاب المختار ، ذلك أنه من بين أصحاب ابن الحنفية ظهر أصحاب ابنه وهم الهاشمية . ولم يقض على السبئية

(١) ربما كان هناك قبل العباسيين وانضموا إليه (٩٥هـ) ولم يكن هو الذى انضم إليهم . تاريخ الدولة العربية : فلهوزن .

(٢) جاء فى الشهرستانى (ص١١٢ س١٩) أن أبا هاشم ، فى رأى بعض فرق الهاشمية ، أوصى لآخرين منهم عبدالله بن عمرو بن حرب الكندى .

(٣) انظر رواية المدائنى عند الطبرى (ج٣ ص٢٤) ، ورواية ابن سعد فى ص١٩ و١٣٠ . وعند فان فلوتن فى كتابه : ص١٤٨ .

(٤) راجع الشهرستانى : ص١١٢ فما بعدها ، والطبرى فلا يرد اسم الهاشمية فى ج٢ ص ١٥٨٩ و ١٩٨٧ و١٩٨٩ .

(٥) الطبرى : ج٢ ص٢٥٠٠ . (٦) الطبرى : ج٢ ص١٥٨٩ .

(٧) تاريخ الدولة العربية .

فى الكوفة بقتل المختار ، بل هم بقوا بين الطبقات الدنيا للشعب . والآراء التى كان يكتمها الهاشمية ، كما يذكرها الشهرستانى ، لا تختلف عن آراء ابن سبإ فى شىء . وتآمر العباسيين يشبه تآمر السبئية شبها تاما ، وكان مقر العباسيين فى الكوفة أيضا ، ومن هناك كانوا ينشرون عن دعوتهم فى خراسان ، وفى كلا الدعوتين : دعوة الهاشمية ودعوة العباسيين ، استندت الحركة إلى الموالى من الأعاجم ، وصارت موجهة إلى محاربة العروبة باسم الإسلام . وإذن فالشبه بين الدعوتين يشمل كل النقاط المهمة . فيشمل الآراء وطريقة الدعوة ومقرها والحزب الذى كونته . ويستطيع الإنسان أن يزيد على ذلك نقطتين من حيث التفاصيل : كانت العمد الخشبية هى السلاح الوطنى عند أهل الطبقة الدنيا من سكان البلاد .

(٢) شيعة بنى العباس والخرّمية والراوندية :

فى أحداث ١١٨ هـ [١] : وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان واليا على شيعة بنى العباس ، فنزل مرو وغير اسمه ، وتسمى بخداش ودعا إلى محمد بن علىّ ، فسارع إليه الناس ، وقبلوا ما جاءهم به ، وسمعوا إليه وأطاعوا .

ثم غير ما دعاهم إليه وتكذب وأظهر دين الخرمية ودعا إليه ، ورخص لبعضهم فى نساء بعض ، وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن علىّ . فبلغ أسد بن عبد الله خبره ، فوضع عليه العيون حتى ظفر به ، فسأله عن حاله ، فأغلظ خداش له القول ، فأمر به أسد فقطعت يده ، وخلع لسانه ، وسملت عينه .

رواية المدائنى : لما قدم أسد آمل فى سنة ١١٨ هـ [٢] أتوه بخداش صاحب الهاشمية ، فأمر به قرعة الطبيب ، فقطع لسانه وسمل عينه ، ثم دفعه إلى عامل آمل ، فقتله وصلبه .

فى أحداث سنة ١٢٠ هـ [٣] : وجهت شيعة بنى العباس بخراسان سليمان بن كثير إلى محمد بن علىّ بن العباس ليعلمه أمرهم وما هم عليه ، وكان السبب فى ذلك أن محمد بن علىّ بن العباس كان واجدا على من كان بخراسان من شيعته من أجل طاعتهم لخداش وقبولهم منه ما روى عن محمد من الكذب ، فترك مكاتبتهم . فلما

---

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٥٨٨ . (٢) الطبرى : ج٢ ص ١٥٨٩ .

(٣) الطبرى : ج ٢ ص ١٦٣٩ فما بعدها .

أبطأ عليهم اجتمعوا فذكروا ذلك بينهم ، فأجمعوا على الرضا بسليمان بن كثير ليلقاه بأمرهم ويخبره عنهم ويرجع إليهم بما يرد عليه . فقدم سليمان بن كثير على محمد بن علي ، وهو متنكر لمن بخراسان من شيعته ، فأخبره عنهم فعنفهم في اتباعهم خداشا وما كان دعا إليه ، وقال : لعن الله خداشا ومن كان على دينه .

ثم صرف سليمان إلى خراسان وكتب إليهم معه كتابا ، فقدم عليهم ومعه الكتاب مختوما . ففضوا خاتمه فلم يجدوا فيه شيئا إلا : بسم الله الرحمن الرحيم . فغلظ ذلك عليهم ، وعلموا أن ما أبلغهم به خداش عن محمد بن علي كان عن غير أمر محمد .

وبعد ذلك وجه محمد بن علي بكير بن ماهان إلى شيعته بخراسان بعد انصراف سليمان بن كثير من عنده إليهم ، وكتب معه كتابا إليهم يعلمهم أن خداشا حمل شيعته على غير منهاجه . فلما قدم بكير بالكتاب لم يصدقوه واستخفوا به ، فرجع بكير إلى محمد بن عليّ فبعث معه بعصيّ مضببة ، بعضها بالحديد وبعضها بالشَّبَه ، فقدم بها بكير وجمع النقباء والشيعة ودفع إلى كل رجل منهم عصا ، فعلموا (١) أنهم مخالفون لسيرته ، فرجعوا وتابوا .

في أحداث سنة ١٢٤هـ (٢) : رواية المدائني : قدم جماعة من شيعة بني العباس ، من خراسان ، الكوفة ، وهم يريدون مكة ، وكان معهم بكير بن ماهان ، وكانوا يجتمعون في الكوفة في دار ، فغمز بهم فأخذوا ، فحبس رئيسهم بكير بن ماهان ، وكان في الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل العجلي ، وكان مع عيسى أبو مسلم يخدمه ، فدعاهم بكير ، فأجابوه إلى رأيه . وسأل بكير عيسى عن الغلام الذي معه ، فقال إنه مملوك له ، ثم اشتراه بكير بأربعمائة درهم . ثم خرجوا ، فبعث ابن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم بن محمد بن عليّ فدفعه هذا إلى موسى السراج ، فسمع منه وحفظه ، ثم صار إلى أن اختلف إلى خراسان (٣) .

ولنذكر إلى جانب ما تقدم رواية أخرى جاءت عند الطبري : (٤) وقال غير المدائني : توجه سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شهيب ، وكانوا

---

(١) لابد أنهم فهموا معنى العصيّ أحسن مما أفهمه أنا ، ولا يمكن أن تكون العصي مجرد علامة تفويض لابن ماهان . تاريخ الدولة العربية .

(٢) الطبري : ج٢ ص١٧٢٦ .

(٣) فيما يتعلق بالعبارة التي ليست واضحة تماما عند الطبري : ج٢ ص١٧٢٦ س١٧ ، قارن بقية الرواية ج٢ ص١٩٤٩ س١٤ .

(٤) الطبري : ج٢ ص١٧٢٦ فما بعدها وص١٧٦٩ .

نقباء شيعة بني العباس في خراسان ، وهم يريدون مكة في سنة ١٢٤هـ . فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس العجلي ، وهو في الحبس قد اتهم بالدعاء إلى ولد العباس ، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل حبسهما يوسف بن عمر فيمن حبس من عمال خالد بن عبد الله القسري - ومعهما أبو مسلم يخدمهما ، فرأوا فيه العلامات ، فقالوا : من هذا ؟ قالوا : " غلام معنا من السراجين " . وقد كان أبو مسلم يسمع عيسى وإدريس يتكلمان في هذا الأمر ، فإذا سمعهما بكى . فلما رأوا ذلك منه دعوه إلى ما هم عليه ، فأجاب وقبل . وقدم القوم مكة للحج . فلقوا ، في قول بعض أهل السير ، محمد بن عليّ ، فأخبروه بقصة أبي مسلم وما رأوا منه ، فسألهم : أحر هو أم عبد ؟ قالوا : أما عيسى فيزعم أنه عبد ، وأما هو فيزعم أنه حر . قال : فاشتروه وأعتقوه . وأعطوا محمد بن عليّ مائتي ألف درهم وكسى بثلاثين ألف درهم ، وقال : ما أظنكم تلقوني بعد عامي هذا ، فإن حدث بي حدث فصاحبكم إبراهيم بن محمد (ابنه) ، فإني أثق به ، وأوصيكم به خيرا ، فقد أوصيته بكم . فصدروا من عنده ، وتوفي محمد بن علي في مستهل ذي القعدة سنة ١٢٥هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة . وكان بين وفاته وبين وفاة أبيه عليّ سبع سنين .

في أحداث سنة ١٢٦هـ (١) : وجه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكير بن ماهان إلى خراسان ، وبعث معه بالسيرة والوصية ، فقدم مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى لهم الإمام محمد بن عليّ ودعاهم إلى إبراهيم ودفع إليهم كتاب إبراهيم فقبلوه . ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة ، فقدم بها بكير على إبراهيم ابن محمد .

في أحداث سنة ١٢٧هـ (٢) : كتب بكير بن ماهان إلى إبراهيم بن محمد يخبره أنه في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وأنه قد استخلف أبا سلمة حفص ابن سليمان بن الخلال مولى السبيع ، وهو رضى للأمر . وكتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه ، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند الأمر إليه . ومضى أبو سلمة إلى خراسان ، فصدقوه وقبلوا أمره ، ودفعوا إليه ما اجتمع قبلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم ، وكان يلقب : " وزير آل محمد " (٣) .

---

(١) الطبري : ج٢ ص١٨٦٩ .

(٢) الطبري : ج٢ ص١٩١٦ فما بعدها .

(٣) الطبري : ج٣ ص ٢٠و٦٠ .

(٣) دعاة العباسيين من العرب والعجم :

فى كل هذه الروايات نجد أن الكوفة مهد دعوة العباسيين ومركزها . ففى الكوفة كان نواب الإمام الغائب وخلفاؤه ، وهم ميسرة وابن ماهان وأبو سلمة ، وكان بالكوفة أيضا عدتهم وأعوانهم ، وكلهم موال ومن أمة الأعاجم ، ومهنتهم التجارة والصناعة .

ولا شك أنه قد كان هناك عرب في شيعة بنى العباس ، لكنهم لم تكن لهم الرياسة . وكانت الدعوة تنشر فى خراسان ، أعنى فى مرو آتية من الكوفة . وبعد سنة ١٠٠هـ بزمان طويل كان الدعاة هناك من أهل الكوفة خاصة ، وكانوا تجارا غرباء . وكانت مبادئ الدعوة غير ظاهرة ، وكاد يقضى عليها فى مهدها . وكان أول من نجح فى الدعوة خداش ، وأول ما نجد ذكره فى سنة ١٠٩هـ . وينبغى أن يشك الإنسان فى أنه فى ذلك الوقت كان قد بدأ يقوم بالدعوة فعلا ، ولكن من البعيد عن الحقيقة أيضا أن يكون إنما قدم من الكوفة إلى خراسان فى سنة ١١٨هـ ، وهى السنة التى قتل فيها . وقد تدفق إليه أهل مرو كالسيل ، وقبلوا كلامه واتبعوه ، فالظاهر أنه هو المؤسس الحقيقى لشيعة بنى العباس فى مرو . ويظهر أيضا أنه هو الذي نظمهم . فلا عجب إذن أن نسمع فى سنة ١١٧ هـ ، لأول مرة ، أخبار الدعاة النقباء من أهل خراسان ، وهم الذين كان محمد بن علىّ بن العباس نفسه قد اختارهم فى سنة ١٠٠ هـ ، كما نسمع أن هؤلاء الدعاة النقباء صاروا أكثر تعلقا بخداش منهم بمحمد بن علىّ نفسه .

وعلى حين كان سواد شيعة بنى العباس فى مرو من الموالى ، كان الدعاة الأولون عربا . ويذكر الطبرى[(١)] ستة منهم ، وكان أكبرهم ، وهو الذى صار رئيسهم بعد موت خداش ، سليمان بن كثير . وكان سليمان من خزاعة قرى واحة مرو ، وقد كان فيهم وفيمن كان معهم من الأكارين الأعاجم طائفة كبيرة جدا تؤيد دعوة شيعة العباسيين . وكان يربط بين خزاعة وبين آل بيت النبى عليه السلام حلف قديم ، هذا إلى أنهم كانوا ينتسبون إلى الأزد ، وكان الأزد منذ سقوط المهالبة يقفون على الدوام تقريبا فى صفوف الحزب المعارض لحكومة بنى أمية ، فكانوا أقرب للتأثر بالثورة على هذه الحكومة من قبائل مضر . على أنه كان من بين الدعاة الستة الذين أخذهم أسد فى سنة ١١٧هـ ثلاثة من خزاعة وواحد من بكر واثنان من تميم .

وعلى هذا ، لا يصح أن يعلق الإنسان كبير شأن على الفوارق بين القبائل . وكان هؤلاء الشيعة ، ومن بينهم العرب أيضا ، يعارضون روح القومية العربية ، وكانوا يرون

---

(١) الطبرى : ج ٢ ص ١٥٨٦ .

أن الإسلام ، لا العروبة ، هو الذى يجعل للإنسان حقوق المواطن فى الدولة . ولم يكن الموالى أيضا يحرمون من أن يكون لهم مكان الزعامة فى الحزب ، ونجد من بين الدعاة الاثنى عشر الذين يذكرهم الطبرى (١) ، أربعة من الموالى إلى جانب ثمانية من العرب .

ولكن محمد بن علىّ لم يتنكر لخداش إلا بعد موت خداش ، وهو لم يتنكر له قبل ذلك ، فقيل عنه إنه الخارج المضل الذى بذر بذور الفساد فى الدعوة، وحمل الشيعة والدعاة على غير منهاج الإمام ، كأنما كان خداش قد وجد حزب الشيعة أمامه ، وكأنما كان قد وجده منظما قبل أن يدخل هو فيه . وقيل أيضا إن الخميرة أو الطعم الذى رمى به بين مبادئ الحزب هو مذهب الخرمية . ولا شك أن الحزب الذى نشر مبادئه خداش وتزعمه كان هو حزب الهاشمية ، أما الخرمية فلم تكن حزبا ، بل كانت نزعة إباحية عامة .

وكان الخرمية ، كما يزعمون ، لا يرضون عما فى الإسلام من نزعة يهودية ، أعنى أنهم كانوا يعترضون على روح التطهر والتشدد الحزينة فى ذلك ، فكانوا يريدون أن يجعلوا للطبيعة وللمرح مكانهما فى الدين . وهم فى ذلك يصلون مذهبهم بالديانة الوثنية التى كانت فى بلادهم العجم من قبل ، ويجوز أنهم كانوا إلى جانب ذلك متأثرين بمبادئ اجتماعية كانت تلائم ما يطمح إليه الموالى أحسن ملاءمة . ويروى أن الخرمية والراوندية قد جددوا الدعوة إلى شيوعية النساء ، وهى الشيوعية التى كان مزدك قد دعا إليها من قبل .

وعلى هذا ، فإن مما يمكن تصديقه كل التصديق أن يكون خداش لم يحارب هذا الاتجاه الشيوعى ، بل أن يكون قد أيده واستفاد منه . غير أنه يجب على الإنسان أن يستبعد القول بأن يكون ذلك بمثابة حجر العثرة الذى من أجله نفر العباسيون من خداش، لأن العباسيين فى ذلك الوقت جمعوا الزنادقة حولهم ، وهم لم ينبذوهم إلا فيما بعد ، ولم يظهروا بمظهر المتمسكين بمذهب الجماعة وأهل السنّة إلا بعد أن وصلوا إلى غايتهم ، أما فى أول أمر دعوتهم، فإنهم كانوا يحاولون أن يستغلوا كل معارضة من جانب فرق الشيعة لحكومة بنى أمية ، أيا كان لون مذهب هؤلاء الشيعة .

وكانت الغاية الأولى للعباسيين هى الناحية السلبية ، أعنى إسقاط حكومة الأمويين، فأما الناحية الإيجابية ، وهى التغلب على الخلافة ، فقد جعلوها فى المحل الثانى . وهم لم يكونوا فى الجملة يظهرون أمام أتباعهم بأنهم طلاب خلافة بقدر ما

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٣٥٨ .

كانوا يزعمون أنهم الأداة التى أرادها الله لقلب حكومة بنى أمية . فهم لم يقدموا أشخاصهم بل قدموا القضية التى أرادوا الدفاع عنها ، وهى الكفاح لنصر الحق والعدل على الباطل والظلم . وهم لم يكونوا يأخذون البيعة لأنفسهم وباسمهم ، بل كانوا يأخذونها لمرضى مجهول من آل بيت النبى عليه السلام ، ستتفق عليه الكلمة فيما بعد. بل إنه فى بعض الأحيان، لم تنفتح أعين أنصارهم الذين اتخذوهم وسيلة لذلك ، حتى رأوا الغرض الحقيقى ، إلا فى وقت متأخر عن بدء الدعوة .

(٤) يرفعون شعار الثأر لشهداء أبناء فاطمة :

وكان العباسيون يعملون ما استطاعوا على أن يخفوا عن الناس أنهم كانوا يريدون تنحية بنى فاطمة ، بل هم كانوا يظهرون أنهم يعملون من أجل بنى فاطمة . وهم قد ظهروا فى خراسان وفى غيرها بدعوى أنهم يريدون أن يثأروا لشهداء أبناء فاطمة . ولذلك، لم يكونوا يستطيعون أن يتنكروا للحزب الآخر من الشيعة ولا أن ينبذوه ، لأنهم كانوا لابد لهم أن يتخذوه عمادا لهم إزاء بنى فاطمة . فأما أن يعتقد الشيعة ما يشاءون ، وأن تكون سيرتهم فى الحياة كما يحبون ، فكان العباسيون يعتبرون ذلك مسألة يمكن حلها فيما بعد . وكان همهم الأول هو أن يتعلق الشيعة بهم ، فلم يعبئوا بالإباحية التى كانت موجودة عند الهاشمية .

أما الذى كان يقلقهم، فهو التنظيم الذى صار للشيعة بخراسان وصار مستقلا عنهم وجاء على أثر اشتداد أمرهم اشتدادا كبيرا برئاسة خداش هناك . وقد تكونت فى مرو رئاسة محلية من أهل خراسان ، وهى لم تشأ - وهذا ما يستطيع الإنسان أن يتبينه بوضوح تام - أن تخضع لتوجيه رئاسة الكوفة وتأتمر بأمرها ، وإن كان ذلك على كل حال لا يؤثر على الولاء لمحمد بن علىّ نفسه .

ولكن نشأ أيضا خطر بالنسبة لمحمد بن علىّ ، وهو أن يفلت من يده زمام أهل خراسان ، ذلك أنه إنما كان يسيطر عليهم من طريق شيعة الكوفة ، ولذلك استعمل مكانته وسلطته الشخصية التى كانت له على دعاته فى خراسان فى أن يحملهم على النزول عن استقلالهم والخضوع " للوزير " فى الكوفة . وقد أفلح بمشقة فى آخر الأمر فى أن يضم إليه رئيسهم سليمان بن كثير . وعلى حين أن أهل خراسان ردوا " وزير الكوفة " سنة ١٢٠ هـ لما جاء إليهم فى مرو ، فإننا نجد أنهم رحبوا به فى سنة ١٢٦ و١٢٧ هـ ، وأعطوه أيضا ما اجتمع قبلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم ، وكانوا من قبل يحملون الأموال إلى الإمام نفسه ، وكانوا لا يزورونه فى الحميمة بل كانوا

يلقونه فى مكة . وكان الحج إلى مكة فرصة مواتية لاجتماع العناصر الثائرة دون أن تلتفت إليهم الأنظار ، وقد صارت العلاقة الشخصية بين الأتباع وبين الإمام تأخذ طابعا أكثر حيوية ، كما صارت من طريق المال تأخذ طابعا أكثر واقعية .

٣ ـ أبو مسلم وقوى المعارضة لبنى أمية

وقد اتخذ إبراهيم بن محمد بن على وخليفته خطوة حاسمة لكى يقبض على زمام الأمر فى خراسان قبضا تاما ، وذلك بأن وجه أبا مسلم إلى خراسان (١) . وأصل أبى مسلم غامض ، والروايات فيه مختلفة ، أما الذى لا شك فيه ، فهو أنه لم يكن عربيا بل كان أعجميا ، وكان مملوكا أو مولى فى الكوفة . وقد استرعى ، وهو ما يزال فى سن الصغر ، انتباه شيعة بنى العباس هناك ، مما دعا إلى إرساله إلى إبراهيم بن محمد ، فأخذه إبراهيم وضمه إلى أسرته وعلمه لنفسه وجعله من خاصته . وفى سنة ١٢٨هـ صار أبو مسلم هو الممثل الدائم لبيت ابن العباس فى خراسان ، فأقام هناك وجعل رئيسا للدعوة ، وكان قد أصبح معروفا فى خراسان بعد زياراته المتكررة إليها . ثم آن الأوان ، فكانت القبائل العربية الثائرة فى خراسان قد أخرجت نصر بن سيار من مرو ، وأصبحت أيدى الحكومة الأموية مشغولة بثورات من كل نوع وفى كل مكان .

وقد بدا أن مولى يتخذه العباسيون أليق وأجدر بالثقة فى خراسان من عربى حر ، كان حتى ذلك الحين على رأس الهاشمية هناك . ولم يكن المقصود من توجيه أبى مسلم هو أن ينحى سليمان بن كثير عن مكانه ، لان الإمام إبراهيم بن محمد أوصاه بألا يخالفه ولا يعصيه وأن يكتفى عندما يشكل عليه أمر بالرجوع إليه . ولكن صار لسليمان ، فى شخص أبى مسلم ، منافس يهدد مركزه . ومن السهل أن تفهم أن سليمان ، جرى على ما فعله غيره ، وكانت الثورة تستند إلى مبادئ دينية ذات طابع سياسى واجتماعى ، وأصلها فى الإسلام .

ولم تكن حركة الثورة من حيث مبادئها موجهة ضد الأجانب ، بل كانت موجهة ضد الزنادقة . وكان أخص أخصاء أبى مسلم ، هم أبا نصر وأبا داود وغيرهم ، ولم يكن القتال موجها إلى العرب من حيث هم عرب ، بل إلى العرب الحاكمين وبالاستناد إلى الإسلام ، لأنهم كانوا لا يحكمون بالعدل ولا يستندون فى حكومتهم إلى الحق

(١) راجع الطبرى : ج ٢ ص ٩٤٧ – المترجم .

والشرع ، ولأنهم كانوا يؤيدون حكومة بنى أمية الخارجة على الدين ، ولا يعترفون بمبدإ المساواة فى الحقوق بين المسلمين من العرب وغير العرب فى الدولة . أما الأحزاب العربية التى كانت معارضة لبنى أمية كأهل العراق وقبائل اليمن فى خراسان، فكان الأعاجم يعتبرونهم حلفاء لهم أولا وقبل كل شىء .

على أن محاربة العروبة فى الدولة الإسلامية باسم الإسلام قد انتهت فى الواقع بأن علا شأن الأعاجم، وبأن صار العرب منذ انتهت سيادتهم بانتهاء سيادة بنى أمية أ ـة مضطهدة . وقد تنبأ بذلك نصر بن سيار . وكان ذلك أيضا مما تقضى به طبيعة الأشياء ، لكنه لم يكن المقصد الأصلى . وقد غلبت قومية الغالبين على الإسلام نفسه ، بعد أن كبرت وترعرعت بين أحضانه . ولكن الإسلام ، لا فكرة القومية ، هو الذى كان القوة الدافعة فى نهوض أهل خراسان ، كما أن الإسلام كان من قبل هو القوة الدافعة فى نهوض العرب أنفسهم . وهنا فى خراسان كان الإسلام مفهوما فهما جديدا حليفا لأمة جديدة يقودها ابن محمد ، وأخيرا يحيى بن جعفربن تمام بن عباس من أحد فروع بنى العباس (١) .

على أن هؤلاء العباسيين لم يستقبلوا فى الكوفة بذراعين مفتوحتين . وذلك أن أبا سلمة " وزير آل محمد " بعد موت إبراهيم بن محمد ، لم يعتبر حقهم فى الخلافة حقا بديهيا ، وخصوصا أن أبا سلمة كانت تربطه ببنى العباس البيعة التى أعطاها للإمام إبراهيم بن محمد نفسه . وقد ضاق أبو سلمة بالعباسيين ، وحاول أن يكتم أمر مجيئهم إلى الكوفة ، فأخفاه نحوا من أربعين يوما عن جميع القواد والشيعة ، ومنع الناس من الاتصال بالعباسيين ، وكان يأمرهم بالاختفاء . وكان إذا سئل عن ظهور

(١) داود بن على وابنه موسى لم يكونا مع الذين جاءوا من الحميمة ، بل هم لم ينضموا إلى العباسيين الذين خرجوا من هناك إلا وهم فى طريقهم عند دومة الجندل . وقد حاول داود أن يثنيهم عن عزمهم فى الذهاب إلى الكوفة . وخصوصا أن شيخ بنى مروان ، مروان بن محمد ، كان بحران مطلا على أهل العراق ومعه أهل الشام وأن شيخ العرب ، يزيد بن عمر بن هبيرة ، كان فى العراق فى حلبة العرب . ولكن بنى العباس لم يستمعوا إليه وساروا وشعارهم كلمة قالها رئيسهم وهى : من أحب الحياة ذل ، وبيت للأعشى وهو :

فما ميتة إن متها غير عاجز **** بعار إذا ما غالت النفس غولها .

فعند ذلك التفت داود إلى ابنه موسى وقال له : صدق والله ابن عمك ، فارجع بنا معه نعش أعزاء أو نمت كراما - الطبرى : ج٢ ص٣٣-٣٤- المترجم . على أن الأسرة العباسية لم تكن دائما مجمعة على الإمام إبراهيم ابن محمد ، وقد انضم عيسى وعبد الله ابنا على بن عبد الله بن عباس ، وأيضا أبو جعفر ، أخو الإمام إبراهيم إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر للخروج على بنى أمية (الطبرى ج٢ ص ١٩٧٧) . ويظهر أن سليمان بن علىّ أيضا لا داود بن على وحده - وسليمان لا يذكر بين العباسيين الأربعة عشر - لم يكن فى الحميمة ، بل كان يقيم فى العراق - قارن أيضا اليعقوبى : ج٢ ص ٤١٩ .

الإمام يدعي أن وقت ظهوره لم يجئ بعد ، وأن واسطا لم تفتح بعد ، بل هو لم يبعث لأبي العباس بمائة دينار سأله إياها ليعطيها للجمال كراء الجمال التي حملتهم إلى الكوفة .

وكان أبو سلمة يفكر ، بعد موت الإمام إبراهيم بن محمد ، في تحويل الأمر إلى آل أبي طالب . ولكن أبا الجهم ، أحد خاصة أبي مسلم الخراساني ، استطاع أن يتصل بالإمام إبراهيم دون علم أبي سلمة ، وركب معه اثنا عشر من قواد أهل خراسان ، وخرج من معسكر حمام أعين ، فتوجه إلى الكوفة ودخل على العباسيين وسلم هو ومن معه على أبي العباس بالخلافة . فاضطر أبو سلمة ، بعد أن علم ذلك ، إلى أن يذهب إلى هناك ويسلم هو أيضا على أبي العباس بالخلافة (١) .

وكان أبو جهم ، بعد أن عاد ، قد خلف بعض أصحابه هناك ليروا ما سيفعله أبوسلمة وليضربوا عنقه إن لم يبايع الإمام ، فلما فعل قال له أبو حميد أحد القواد : على رغم أنفك يا . . . فقال له أبو العباس : مه . وفي يوم الجمعة ١٢ من ربيع الثاني سنة ١٣٢هـ (الجمعة ٢٨ من نوفمبر سنة ٧٤٩م) تمت البيعة العامة لأبي العباس وللأسرة الجديدة في المسجد الجامع بالكوفة .

وصعد أبو العباس المنبر وخطب ، وكان موعوكا ، فاشتد به الوعك ، فجلس على المنبر . وعند ذلك صعد عمه داود بن عليّ ، وكان دونه على مراقي المنبر ، فخطب أيضا . والخطبتان قد وصلتا إلينا ، لكنهما غير صحيحتين ، وإن كان ما تضمنتاه يناسب الموقف . فقد جاء فيهما بيان فضل بيت الرسول وحقوقهم ، وذكر لآيات من القرآن في ذلك . كما أشارت خطبة الإمام إلى الدعوة الباطلة التي يدعيها البعض في أن غير العباسيين أحق منهم بالرياسة والخلافة (٢) ، والمقصود هنا هم العلويون . وقد تضمنت الخطبتان تأكيد المودة والمصلحة المشتركة بين العباسيين وبين أهل الكوفة(٣) ، فخاطبهم الخليفة قائلا :

---

(١) هكذا يروي المدائني (الطبري ج٣ ص ٢٨ فما بعدها) . وثم رواية أخرى تختلف عن ذلك (الطبري : ج٢ ص٣٤ فما بعدها) ، قارن المسعودي : ج٦ ص٩٢ فما بعدها ، واليعقوبي : ج٢ ص٤١٣ .

(٢) جاء في خطبة الإمام : وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة منا . . . . إلخ (الطبري : ج٣ ص٢٩ س١٧) . (والمؤلف على حق فيما يراه من أن السبئية كلمة تشنيع تطلق على بعض شيعة علي الأولين - المترجم) .

(٣) قارن ما جاء على لسان خالد بن عبد الله القسري (الطبري ج٢ ص١٨١٦ س٧) من تهديده هشام بن عبد الملك بالدعوة إلى " عراقي الهوى شامي الدار حجازي الأصل " ، بقصد محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس .

« يأهل الكوفة ! أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا . أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا " .

وخاطبهم داود بن عليّ قائلا : " يأهل الكوفة! إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيض بهم وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومن عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة . فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ، ولا تخدعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، وإن لكل أهل بيت مصرا ، وإنكم مصرنا " .

وهكذا نجد بنى العباس يقولون إن شيعتهم من أهل خراسان ، وهم إذ قضوا على سلطان بنى أمية حرروا أهل العراق أيضا من نير أهل الشام . وهكذا أيضا انتهى الصراع الذى دام بين أهل العراق وبين أهل الشام قرابة قرن ، دون أن يصل إلى نتيجة ، بنصر أهل العراق . وعاد مقر الخلافة إلى الكوفة التى كانت مقر عليّ بن أبى طالب من قبل . والعبارة البارزة فى خطبة داود بن عليّ هى قوله لأهل الكوفة : " إن لكل أهل بيت مصرا ، وإنكم مصرنا " . وكان لابد من ذلك بطبيعة الحال لإرضاء شعور أهل الكوفة ، ولكن محور الثقل فى الدولة الإسلامية قد انتقل بالفعل من دمشق إلى الكوفة والعراق ، وكان ذلك حادثا له شأن حاسم .

على أن أبا العباس لم يكن عظيم الثقة بأهل الكوفة ، فلم يجعل مقامه فى مدينتهم ، بل أقام فى حمام أعين ، بين أهل خراسان . وبعد حين من الزمان ، انتقل إلى الحيرة ، ثم انتقل منها إلى الهاشمية ، وذلك ، فيما يذكره ، لكى يبعد بنفسه عن أبى سلمة . وكان أبو سلمة يقيم فى حمام أعين ، وظل ما بين الإمام وبين أبى سلمة متباعدا . فكان أبو سلمة يميل إلى العلويين ، وكان يجاهر بذلك حتى ثبتت الريبة به ، وثبت أنه لم يكن فى ذلك وحده ، وخصوصا أن أزمة قيادة حزب الشيعة كانت فى يده حتى ذلك الحين .

ولم يجرؤ الخليفة على أن ينفرد بمؤاخذته ، وذلك أن الخليفة لم تكن له قوة ، وكان فى الواقع من صنع القوم الذين كان فى الظاهر يستخدمهم فى الوصول إلى غاياته – كان من صنع أهل خراسان ، صناع الملوك . وكان هؤلاء الخراسانيون ، إلى جانب ذلك يعلمون حق العلم ضعف السند الشرعى لخلافته . فكان الخليفة مفتقرا كل الافتقار إلى حسن نوايا قوم آخرين ، كان لهم من النفوذ والقوة أكثر مما كان له ، فأرسل

أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد إلى خراسان ليعلم له رأى أبى مسلم ، صاحب النفوذ الأكبر على جيش خراسان ، وليعرف هل كان مسلك أبى سلمة إزاءه عن رأى أبى مسلم أم لا . وكان من حسن الحظ أن أبا مسلم لم تكن له يد فيما صنع أبو سلمة . ولا شك أنه قد أقر عين العباسيين ، لما بعث لأبى سلمة من قتله . وفى الوقت نفسه ، قتل أبو مسلم منافسه القديم سليمان بن كثير رئيس النقباء . وذلك أن أبا مسلم بلغه عن سليمان كلام يدل على ميله مع أبى سلمة إلى العلويين ، فاغتنم أبو مسلم ذلك وقتله ، شفاء لما كان فى قلبه من بغض له . وكان أبو جهم ، وهو من خاصة أبى مسلم ، عند الخليفة أبى العباس ليراقب ما يصنع ، وكان غالبا على أبى العباس (١) .

ولكن أهل الشام ظلوا فى الحقيقة على محبتهم لأسرتهم السابقة ، وقد عبروا عن ذلك بالفعل أيضا ، ولكن جهودهم ذهبت سدى ، لأنه كان يعوزهم التنظيم ، ولم يبصروا الحقيقة إلا فيما بعد ، وهى أن القضية كانت قضيتهم ، وأنهم هم الذين خسروا ، فانتقل مقر الحكومة من دمشق إلى الكوفة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد . وفقدت الشام سيادتها ، وتحررت العراق من نير السيادة الأجنبية بعد أن ظلت تحاول أن تطرحه عن عاتقها مائة عام فذهبت جهودها سدى . وبدا الآن أنها قد استعادت السيادة التى كانت لها فى أيام على بن أبى طالب . وقد صرح بنو العباس فى وصف نزعتهم السياسية بأنها عراقية مضادة للسياسة الشامية .

٤ ـ السيادة الشعوبية

ولكن انتهت فى الوقت نفسه سيادة العرب بالمعنى الحقيقى . تلك السيادة التى كان يمثلها بنو أمية وأهل الشام . وخرب وطن العرب القديم ، وأوحش إيحاشا تاما ، حتى صار الحج غير آمن ، ولم تصبح القبائل العربية هى العناصر التى تتكون منها الدولة الثيوقراطية . وفقدت القبائل مكان الصدارة فقدا تاما ، وتحرر الموالى ، وزال الفارق بين المسلمين من العرب ومن غير العرب . وبعد أن نحيت القبلية العربية عن مكانها الذى كان يستند فى الأصل إلى قانون الحرب ، هذا القانون الذى لم يكن فيه محل لغير

(١) الطبرى : ج٣ ص٩ فمابعدها وص٣٨ فمابعدها نقلا عن المدائنى فى الغالب .

العرب ، تراجعت العروبة إلى الميدان المدنى المسالم ، وصارت حضارة عالمية يشترك فيها كل المسلمين – وكان أساس تلك الحضارة هو الدين .

ولكن دين العرب لم ينهدم بانهيار الأمة العربية ، بل هو ازداد قوة ، وظلت اللغة العربية لغة الإسلام ، وابتلعت لغات أهم الأمم النصرانية فى آسيا القريبة وإفريقية . وإلى جانب ذلك ، رسخت قدمها بين الكتاب والعلماء من أهل إيران ، أما شعرهم فقد ظل باللغة الإيرانية وبلغ بها مكانة رفيعة .

بل قد رجح شأن الموالى على شأن العرب ، لا بوجه عام بطبيعة الحال بل من بعض الوجوه . وكان أهل خراسان قد أعانوا العباسيين على النصر ، فقاسموهم الغنيمة ، وصاروا من وجه ما ، هم الورثة لسلطان أهل الشام ، وإن كان موقفهم من رئاسة الدولة موقفا غير موقف أولئك . فكانوا يسمون الشيعة والأنصار ، أو أبناء الدولة(١) . وكانت فى يدهم القوة الظاهرة . وكانوا منظمين تنظيما حربيا ، وكانت فى أيديهم مناصب القيادة ، واستطاع قوادهم أن يظهروا بمظهر السادة الكبراء . وكان يتألف منهم الجيش المرابط حول الخليفة ، وكان الخليفة يقيم بين حرسه هذا .

هذا ، ولم يكن ابتناء بغداد فى الحقيقة لكى تكون حاضرة عالمية ، بل لتكون معسكرا لجند خراسان . وقد أراد الخليفة أن يقيم فى هذا المعسكر بعيدا عن الكوفة . ولكن أهل خراسان كانوا ، وهم فى معسكرهم ، على صلة بوطنهم ، ثم صار رجحان شأنهم ، من حيث هم حزب وجيش فى خدمة بنى العباس ، رجحانا لأمتهم وبلادهم ، أى أن الكفة الراجحة صارت لبلاد العجم الشرقية ، وانتصرت العجمة الإيرانية (Ram-smus) على العروبة ، تحت ستار الإسلام ، لا باعتباره دينا للعرب بل دينا للأمم .

وقد تغيرت بتغير الأسرة الحاكمة الداخلية أيضا . أما أن النفوذ الفارسى كان هو الراجح فى ذلك فهو غير مؤكد ، فأما الذى لا شك فيه فهو أن نظام الحكم الداخلى لم يصبح عربيا على الإطلاق . وكان العرب بحكم أنهم الأمة الفاتحة ، قد أصبحوا طبقة أرستقراطية حاكمة ، وكانت شبكة القبائل بما كان بينها من أنساب تمتد فى الظاهر على البلاد التى تكونت منها دولة العرب . وظل هذا النظام القديم موجودا فى خطوطه الكبرى أيام الأمويين ، وإن كان قد تبين بعد قليل أنه نظام لا يمكن الاحتفاظ به فى أيام بنى العباس ، فقد زال هذا النظام بزوال ما كان يستند إليه من فوارق بين الطبقات ، ولم يكن بنو العباس ، كما كان الأمويون قبلهم ، يقفون على رأس طبقة أرستقراطية واسعة

(١) قارن إنجيل متى ، الإصحاح السابع عشر ، الفقرة الخامسة والعشرين . تاريخ الدولة العربية .

النطاق وينتسبون إليها . وذلك أن أهل خراسان الذين كان بنو العباس يستندون إليهم لم يكونوا بمثابة عصبية لبنى العباس أساسها وحدة الدم والاشتراك فى النسب ، بل كانوا مجرد أداة لهم . وكان جميع المسلمين أمام بنى العباس سواء ، ليس بينهم تفاوت طبيعى فى الحقوق السياسية .

وكان للعباسيين وحدهم الحق المقدس فى الرئاسة باعتبار أنهم ورثة النبى عليه السلام . ولم يكن أمامهم عقبات فى سبيل تنظيم الحكومة طبقا للاعتبارات الفنية، التى يبدو أنها تلائم طبيعة الأشياء وتلائم مصلحتهم الخاصة ، فأصلحوا من نظام الإدارة إصلاحا كبيرا ، وأصلحوا خاصة نظام الخراج والقضاء . وقد أبدوا عناية كبيرة فى الاستماع إلى شكوى من يلجأ إليهم باعتبارهم السلطة العليا وفى إزالة أسباب هذه الشكوى .

ولكن بنى العباس أخمدوا فى الناس روح الاهتمام بمسائل السياسة ، بعد أن كان هذا من قبل جزءا من الدين ، وأفلحوا فى إضعاف هذا الاهتمام أكثر بكثير مما أفلح الأمويون . فأصبح المسلمون جميعا ، العرب منهم وغير العرب ، مجرد رعايا ، ولم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا بنصيبهم فى تدبير الأمور العامة للدولة ، فاندحروا إلى ميدان الصناعات أو الاشتغال بالعلوم والفنون ، ولم يكونوا يستطيعون أكثر من التآمر سرا . وانكمشت الدولة حتى أصبحت مقصورة على بلاط الخليفة ، وكان يحيط بالخليفة فى أول الأمر عدد كبير متنوع من الخدام من الأمتين العربية والفارسية ، ثم أصبح محوطا بطائفة كبيرة جدا أيضا من أبناء الأسرة من الهاشميين . ولكن كان ينتمى لبلاط الخلافة إلى جانب ذلك الجيش أيضا ، وكانت نواة الجيش متجمعة دائما فى مقر الخليفة ، فكانت بغداد من هذا الوجه لا تختلف عن مدينة الرسول .

٥ ـ السلام المصطنع بين العباسيين والشيعة

وأهم ما يميز بين العهد الجديد وبين العهد القديم ، هو العلاقة بين الدولة وبين الدين فكان العباسيون يستندون فى حقهم فى الخلافة إلى أنهم جعلوا كلمة الإسلام هى العليا بعد أن عطل الأمويون أحكامه فى زعمهم . وكانوا يقولون إنهم يريدون إحياء السنَّة

النبوية التى قد درست . فدعوا علماء الشريعة من المدينة ، وكانت مقرا لهم حتى ذلك الحين ، إلى بغداد ، وكانوا دائما يسألونهم رأيهم ، وذلك بأن كانوا يحرصون على وضع المشكلات السياسية فى ثوب فقهى ، ويعملون على أن يكون الحكم فيها طبقا للقرآن والسنّة . وأما الحقيقة ، فهى أنهم كانوا يستغلون الإسلام فى أغراضهم الخاصة ، وكانوا يربون علماء الشريعة فى قصورهم ، وكانوا يحصلون منهم على الإفتاء بصحة أشد الإجراءات بعدا عن الحق . وهكذا تخلص العباسيون من متاعب المعارضة من جانب أهل الديانة بأن ساعدوهم على النصر وجعلوهم مرجعا لهم .

ولما كانت معارضة أهل الديانة قد وصلت بإسقاطها حكومة الأمويين إلى غايتها ، فهى تستطيع الآن أن تطمئن ، وذلك أن السياسة قد أصبحت فى أيد أمينة ، وليس على المسلمين بعد هذا أن يشتغلوا بها . ولما كان قد تحقق قيام الدولة الثيوقراطية ، فيجب أن يزول مبدأ الثورة على السلطة القائمة . وقد أفلح العباسيون فى أن يوجهوا الرأى العام هذه الوجهة ، وقد ساعدهم على ذلك حاجة أهل ذلك العصر إلى الراحة بعد ثورات وحروب لم تنقطع ، وذلك أن العرب كانوا قد استفرغوا فى القتال كل طاقة كانت لهم واستنزفوا دماء أنفسهم .

ويجب أن يتوقع الإنسان من العباسيين أن يحابوا الشيعة ، بعد أن كانوا حلفاء لهم فى أصل الأمر ، ولكن العباسيين غيروا سياستهم . وبعد أن كانوا يعتبرون العلويين وأنفسهم حزبا واحدا ، صاروا يعادون العلويين تفاديا لأطماعهم . وكذلك نبذ العباسيون خاصة أنصارهم ، وهم الشيعة الغلاة (الراوندية) ، الذين كانوا منتشرين فى فارس بنوع خاص . وتنكروا لأصل العباسيين ، فيما يتعلق بالدين ، قد انصرفوا عن الفرس إلى العرب ، وتنكروا لأصل نشأتهم فى طرف من الدولة بعد أن استقروا فى وسطها وأصبحت فى أيديهم السيادة على أرض الدولة كلها ، وانقادوا لمذهب الجماعة التى ليس لها آراء خاصة ، بل تأخذ الدين بالقبول على أنه مأثور منقول ، وتكتفى بالمأثور المنقول الذى ينظم الحياة العامة لجميع الناس على نحو واحد من طريق أداء العبادات وتطبيق أحكام الشريعة .

وأبدت شيعة بنى العباس استعدادها لطاعة أبى مسلم نائبا مفوضا من قبل آل البيت . فتولى أبو مسلم إعداد الثورة بنجاح كبير ، ويظهر أن نشاطه فى ذلك قد انقطع بسبب رحلة قام بها فى جمادى الآخرة سنة ١٢٩ هـ إلى مكة . فهو لم يكن يقصد من الحج سوى غرض ظاهر . أما ما كان يريده فى الحقيقة ، فهو أن يزور الشيعة المتفرقين ، على اختلاف ألوانهم ، لكى يدعوهم إلى الدعوة العباسية ، ويهيئهم إلى الثورة

القريبة . وهو لكى يتصل بزعمائهم جاب كل خراسان الغربية حتى بلغ حدود جرجان ذهابا وإيابا ، وكان يقيم فى كثير من المواضع المهمة للشيعة بعض الوقت ، حتى إذا عاد إلى مرو بدأ فى الظهور جهرة . وكان مع أبى مسلم سبعون رجلا من الشيعة ، وكان قد أوعز إليهم بما يقولونه . فقام رجال منهم فقالوا : إن مضر قتلة آل النبى عليه السلام وأعوان بنى أمية وعمال مروان الجعدى (مروان بن محمد) ، وإن دماء المسلمين فى أعناقهم وأموالهم فى أيديهم ، وإن نصر بن سيار عامل مروان ينفذ أمره ويدعو له ويسميه أمير المؤمنين . وانتهوا بأن اختاروا علىّ بن الكرمانى وأصحابه من ربيعة وقحطان على نصر بن سيار وأصحابه من مضر . فنهض وفد مضر ، وعليهم الذلة والكآبة ، ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين .

إن قرى خزاعة (١) التى كان أبو مسلم يغير معسكره فيما بينها كانت تقع متقاربة فى أرض خرقان . وكان المهد الأصلى للثورة فى قرية سيقذنج التى كان يقيم فيها سليمان ابن كثير رئيس دعاة الهاشمية . وفى قرية سيقذنج عقد اللواءان الأسودان اللذان بعث بهما إبراهيم بن محمد ، وفيها أيضا أوقدت النيران لتنبيه الشيعة ، وفى سيقذنج تجمع هؤلاء الشيعة الذين كانوا فى القرى المجاورة ، من قرب ومن بعد ، وفى سيقذنج أيضا أقيمت فى يوم عيد الفطر سنة ١٢٩ هـ أول صلاة جامعة لشيعة بنى العباس وعلى مذهبهم ، وأم الناس فى ذلك اليوم سليمان بن كثير . وعند ذلك أثار لأول مرة القلق فى نفوس العرب الذين كان يحارب بعضهم بعضا فى مرو . وقد زاد قلق العرب بسبب النجاح الذى أحرزته حركة الشيعة فى نفس الوقت فى مواضع أخرى فى إيبورد ومرو الروذ ، وخصوصا فى هراة (٢) .

فالحقيقة أن أبا مسلم لم يكن له فى أول الأمر من القوة ما يمكنه من أن يتحدى العرب تحديا صريحا ، بل هو تصرف بحكمة سياسية ، فاستوقفهم وذر الرماد فى عيونهم ، بل هو لم يفسد ما بينه وبين مضر إلى حد يجعلهم يعتبرونه عدوا صريحا لهم (٣) .

---

(١) هذه هى الشيعة المشهورة ، لأن قريتى فنين والماخوان لم تكونا خزاعيتين خاصة . تاريخ الدولة العربية .
(٢) الطبرى : ج٢ ص ١٩٦٦ .

(٣) يجد القارئ فى رواية عند الطبرى : ج٢ ص ١٩٩٢ أن أبا مسلم بعد أن نزل قرية الماخوان فاوض كلا من علىّ بن جديع الكرمانى ونصر بن سيار ، وعرض عليهما المسألة واجتماع الكلمة والدخول فى الطاعة ، فقبل ذلك منه علىّ بن جديع الكرمانى . فلما استوثق منه ، كتب إلى نصر بن سيار أن يبعث إليه وفدا يسمعون مقالته ومقالة أصحابه ، وهذا مما يؤيد رأى المؤلف فى حاجة أبى مسلم إلى السياسة والمصانعة . حتى قوى مركزه بضم اليمانية وحلفائهم من ربيعة إليه ونصرهم على المضرية أنصار الدولة الأموية — المترجم . تاريخ الدولة العربية فيلهوزن ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة .

وإذا كان قد دعا إلى الثورة على حكومة الأمويين، فإن ذلك كان فى ذلك الحين شيئا مألوفا لا يستنكره أحد . على أن أبا مسلم لم يضع أوراقه مكشوفة على المائدة . ويحكى المدائنى (١) أن فتية نساكا من أهل مرو كانوا يطلبون الفقه أتوا إليه فى معسكره ليسألوه عن نسبه ، فقال لهم : " خبرى خير لكم من نسبى " . فلما سألوه عن أشياء فى الفقه ، قال لهم : " أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا ، ونحن فى شغل ، ونحن إلى معونتكم أحوج منا إلى مسألتكم ، فاعفونا " .

وكان أكثر أتباع أبى مسلم من الزراع الأعاجم ، من الموالى فى قرى مرو . ولكن كان بينهم بعض العرب ، وكان لمعظمهم مكان الرياسة . وكانت الرابطة التى تربط بين أنصار أبى مسلم هى الدين والمذهب . وكانت نواة جيش خراسان ، أعنى " جند " بنى العباس ، تتكون من الهاشمية ، كما يصرح الطبرى بذلك (٢) . وقد دخل أبو مسلم فى مرو على رأس الهاشمية ، ومن الهاشمية أمر أن تؤخذ البيعة بعد دخوله ، وكان الذى يأخذ البيعة منهم هو أبو منصور طلحة بن رزيق الخزاعى (٣) .

أما هذه البيعة فكانت : " أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله ، وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبدأ بكم ولاتكم (٤) . وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم " .

ومما يستلفت النظر فى البيعة التى كان يأخذها أبو منصور ، وهو الذى يذكر أنه كان رجلا فصيحا مفوها عالما بحجج الهاشمية وغوامض أمورهم ، أنها لا تطلع الجند على غايتها الحقيقية ، بل هى بيعة إجمالية فى صيغتها ، وهى لا تصرح بشخص الإمام العباسى من بين أهل بيت الرسول عليه السلام . وأول ما أخذه على الجند هو الطاعة التامة لولاتهم ، والواقع أن هؤلاء الثائرين قد استخدموا الدين على مبادئ حربية ، فلم يكن الرجل العادى بحاجة إلى أن يعرف أسرار قادته ، بل كان يكفيه الإيمان بالراية السوداء .

---

(١) الطبرى : ج٢ ص ١٩٦٥ . (٢) الطبرى : ج٢ ص ١٩٨٧ .

(٣) قارن فى هذا ما قاله فان فلوتن عن أهل الكافية (الكفاية ؟) فى كتابه : (Recherches) ، ص ٦٦ ، ٨٠ .

(٤) راجع فيما يلى الطبرى : (ج٢ ص ١٩٨٧ - ١٩٨٩ - المترجم) .

أما جند أبى مسلم، فقد أمرهم أبو مسلم بالتزام أدق نظام، وحرم عليهم أن يقتلوا أحدًا من تلقاء أنفسهم . وإذن فمن الجائز أن تكون الروايات هنا كما فى أحوال أخرى قد لطفت من ذكر الحوادث، مراعاة لجانب بنى العباس وإرضاء لهم . ومن الجائز أن يكون الموالى قد أطلقوا لغضبهم العنان فى عنف أشد مما يبدو من الروايات التى ذكرها الطبرى . ولكن لا يجوز أن يبالغ الإنسان رغم ذلك فى تأكيد القول بعداوة الموالى للعرب على أساس الشعور القومى عند الموالى، وذلك لأن حركة الثورة لم تأت من جانب أمة الأعاجم، بل من جانب فرقة ضيقة النطاق إلى حد ما، ولم يكن العرب يمنعون من ذلك . على أن العباسيين من هذه الوجهة ساروا فى الطريق الذى سار فيه الأمويون، رغم ما يبدو خلافا لذلك، غير أنهم كانوا أشد من الأمويين تمسكا بما عليه الجماعة، وأشد ضربا على أيدى الفرق التى تنحرف عن مذهب الجماعة وتفسد الوحدة الدينية والسياسية .

ولما كان العباسيون ورثة الرسول عليه السلام، فإنهم استفادوا أكثر مما استفاد الأمويون من الفكرة القائلة بأن واجبهم لا يقتصر على النهوض بأعباء الرياسة الدنيوية بل هو يشمل الرياسة الروحية، أعنى الإمامة . وعلى حين أن أكبر ما اعتمد عليه الأمويون هو القومية العربية، فإن بنى العباس أقاموا سيادتهم على الدين وعلى حرس اتخذوه لهم . ويستطيع الإنسان أن يصف خلافتهم بأنها سيادة الدولة على الدين (Casareopapie)

وقد استعملوا من يطارد الزنادقة، وأنشئوا نظاما فى امتحان عقائد الناس، وذلك بقصد تعقب الزنادقة فى أول الأمر، ويظهر أن هؤلاء كانوا من نابغة الشيعة الغلاة فى فارس .

الفصل السادس

المعتزلة

١ ـ مشكلة مرتكب الكبيرة ونشأة الاعتزال

لم تكد مأساة كربلاء تنتهى بما أحدثته من مرارة فى النفوس ، وسخط عام سببه الارتباك فى الرأى والفهم والموقف ، حتى هتفت القلوب : فماذا بعد الحسين إلا الثأر والقصاص ؟!

وتفجرت مشكلة التوتر لعثمان رضى الله عنه من جديد ، مع الحسين مرة ثانية تطالب بالقصاص لدم الحسين . ومن يومها أصبح التاريخ تاريخ ثأر وقصاص بين الفرق الإسلامية .

والمشكلة التى أثارت – أكثر من سواها – اهتمامهم ، هى مشكلة مجرمى الأمة أو ما يدعونهم مرتكبى الكبائر ، ومدى حدود الحرية الإنسانية وعلاقتها بسلوكها وما ترتكبه من أعمال دون الشرك . فقد كثر إقدام الناس على ارتكاب الكبائر بسبب اختلاف القادة على الخلافة ، وما جر وراءه من فتن أدت إلى مصرع عثمان بن عفان . ونشبت الحرب بين علىّ بن أبى طالب وبين أصحاب الجمل ، ثم بين علىّ وبين معاوية ، فتفرق المسلمون أحزابا وشيعا ، ووقعوا فى صراع دموى رهيب أجرى دماءهم الزكية أنهارا ،

وأطاح بالطيبين من أعلام الصحابة وأركان الإسلام [1] . . . وراح المسلمون يكفر بعضهم بعضا ، وانشغلوا عن أعمال الفتوح والعمران بتراشق السباب وتبادل اللعنات . يقتل بعضهم بعضا بلا حرج . فعكفوا على هذه المشكلة يدرسونها ويصدرون أحكامهم فيها مستمدة من كتاب الله وسنّة رسوله ، كل حسب اجتهاده فكثرت فى ذلك المناظرات ، واشتدت المجادلات ، واختلف الرأى .

واحتدم النقاش حول قضايا كلامية من صميم قضايا الفكر الإسلامى وتوجهاته المبكرة ، وعلى سبيل المثال : حول الإيمان والإرجاء ، وهل الإيمان وحده ينقذ المؤمن ؟ هل هو فقط اقتناع أو تصريح أو تصديق أو قول أو هو عمل وإيمان ؟

وكذلك مشكلة مرتكب الكبيرة وحلولها ، انشق الرأى الفكرى الدينى فى شأنها ، وتفرقت الفرق كما انشقت وتفرقت حول التحكيم السياسى . وحول تلك القضايا تمذهبت المذاهب وتفرقت الفرق . وهى ولا شك مشكلات لها صبغة اجتماعية نشأت بين المسلمين فى الأمصار ، كان حتما عليهم أن يدرسوها ويجدوا لها حلولا شافية يقبلها الدين وتلتئم مع روح الشريعة السمحة . وتحددت معالم الفرق ومناهج المدارس من حلولها التى طرحتها وهى رؤى مختلفة :

١ - قال أهل السنّة والجماعة فى مرتكب الكبيرة التى ما دون الشرك من ملة الإسلام : إنه مؤمن فكبيرته لا تخرجه من الإيمان ولا تدخله فى الكفر لبقاء التصديق الذى هو حقيقة الإيمان ، ولكنه يعاقب عليها .

٢ - وقد رفض الخوارج حكم أهل السنّة فى مرتكب الكبيرة ، ووضعوا فيه حكما

(١) يراجع :

* المعتزلة - زهدى جاد الله .

* الجهمية والمعتزلة : الشيخ كمال الدين القاسمى .

* طبقات المعتزلة : ابن المرتضى .

* شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد .

* مقالات الإسلاميين : أبو الحسن الأشعرى . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

* الفرق بين الفرق : أبو منصور البغدادى . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

* الملل والنحل : الشهرستانى . تحقيق د . محمد بن فتح الله بدران .

فضلا عن المصادر الأخرى المشار إليها فى الكتاب .

مخالفا ، فقالوا : إن مرتكب الذنوب ، كبيرة كانت أو صغيرة كافر مخلد فى النار (١) . ذلك بأنهم كانوا لا يعتبرون الإيمان ، تاما بدون العمل .

٣ - وكما رفض الخوارج حكم أهل السنّة ، اعترض المرجئة على حكم الخوارج ، وكونوا فى مرتكب الكبيرة رأيا جاء ردا عليهم قبل غيرهم . وإذ كانوا يعتقدون أن الإيمان وحده هو عمود الدين وليس العمل ، وأنه لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة ، فقد قرروا أن مرتكب الكبيرة مؤمن وامتنعوا عن تعيين القصاص الذى يستحقه على كبيرته ، بل أرجئوا أمره إلى يوم القيامة ليحكم الله تعالى فيه بما يشاء (٢) .

٤ - ثم تعاظم الخلاف بين الفرق الإسلامية فى هذا الصدد واحتدم الجدال ، وصارت تعقد فى مساجد البصرة وغيرها حلقات المناظرة التى كان أهمها وأشهرها حلقة الحسن البصرى ، والمعروف أن الحسن البصرى حاول أن يحل هذه المشكلة ، فقال إن مرتكب الكبيرة المسلم " منافق " ، (٣) ولكن البغدادى يسفه هذا القول ، ويرى أن المنافق شر من الكافر المظهر للكفر (٤) .

٥ - فى ذلك الجو ظهر المعتزلة . وقد كانت الحلول المعروضة لمرتكب الكبيرة غير مرضية للجميع . حكم أهل السنّة ، رأى فيه البعض شيئا من التساهل . وحكم الخوارج ، كان عظيم القسوة متناهيا فى التطرف كما هو شأنهم فى أكثر عقائدهم . والمرجئة جبنوا عن إعطاء حكم قطعى ، فكانوا كأن لم يفعلوا شيئا . وأما حكم الحسن البصرى ، فقد كان بادى الضعف . وهكذا كان المجال واسعا والباب مفتوحا لظهور حلول أخرى . وقد ظن واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصرى أن فى مقدوره أن يجىء

(١) العقائد النسفية : ص١١٧ . هناك خلاف بين فرق الخوارج فى هذا الحكم . فقد قال الأزارقة : إن مرتكب الذنوب كبيرها وصغيرها مشرك بالله ، وإن أطفال المشركين مشركون أيضا ، ولذلك استحلوا قتل أطفال مخالفيهم . وقال الصفرية بقول الأزارقة ولم يقروهم على استحلال قتل الأطفال . وقال النجدات : إذا كان الذنب قد أجمع المسلمون على تحريمه فمرتكبه كافر مشرك ، وإذا كان مما اختلف فيه فيترك أمر مرتكبه لأهل الفقه يحكمون عليه باجتهادهم ، وقد عذروا من ارتكب ذنبا وهو يجهل تحريمه . وقال الإباضية : إن مرتكب الكبيرة مع معرفته بالله تعالى وبما جاء من عنده كافر كفران نعمة ، وليس كفران شرك . (الفرق بين الفرق : ص٩٧) .

(٢) الملل والنحل : ج١ ص ١٤٥ .

(٣) الملل والنحل : ج١ ص ١٤٥ .

(٤) الانتصار : ص١٦٤ ، والعقائد النسفية : ص ١١٩ . المعتزلة - جاد الله زهدى .

بحكم خير من الأحكام السابقة . ولما كان واصل يعتقد أن العمل جزء من الإيمان (١) ، وكان يرى أن أحكام المؤمنين والكافرين والمنافقين فى الكتاب والسنة زائلة عن مرتكب الكبيرة (٢) ، فإنه قرر أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر بل هو فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، ودعاه فاسقا (٣) . وذلك هو سبب ظهور المعتزلة وسبب إطلاق اسم " المعتزلة " عليهم . ويبدو من وجهة نظرنا أن قولهم بالمنزلة بين المنزلتين يعنى اعتزالهم فلا يميلون لهؤلاء ولا إلى هؤلاء فهم معتزلة .

٢ ـــ الأسماء التى تطلق على المعتزلة

(١) المعتزلة :

غلب على هذه المدرسة اسم المعتزلة حتى غدا أهم أسمائها وأشهر أعلامها . وقد كثر الخلاف فى منشئه :

١ - فالبغدادى يقول : إن أهل السنة هم الذين دعوهم معتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها فى مرتكب الكبيرة من المسلمين وتقريرهم أنه لا مؤمن ولا كافر بل هو فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر (٤) .

٢ - وروى الشهرستانى سببا آخر ، وهو أن واصل بن عطاء مؤسس المدرسة حين اختلف مع الحسن البصرى فى مسألة مرتكبى الكبائر وأدلى برأيه فيها ، اعتزل مجلس الحسن هو وبعض من وافقه على ذلك الرأى، وجلس قرب إحدى أسطوانات المسجد يشرحه لهم . فقال الحسن البصرى : " اعتزل عنا واصل " . فسمى هو وأصحابه معتزلة (٥) .

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٩٧ .
(٢) العقائد النسفية : ص ١١٧ .
(٣) الانتصار : ص ١٦٧ .
(٤) الفرق بين الفرق : ص ٩٤ ، ٩٨ .
(٥) الملل والنحل : ج ١ ص ٥٥ .

٣ - أما صاحب الوفيات فقد ذكر أن الذى سماهم بهذا الاسم هو قتادة بن دعامة السدوسى (+ ١١٧هـ = ٧٣٥م). [١] وكان قتادة من علماء البصرة وأعلام التابعين ، ومن أصحاب الحسن البصرى المختلفين إلى مجلسه . دخل يوما مسجد البصرة ، وكان ضريرا ، فإذا بعمرو بن عبيد ونفر معه قد اعتزلوا حلقة الحسن البصرى وكونوا لهم حلقة خاصة وارتفعت أصواتهم ، فأمهم وهو يظن أنهم حلقة الحسن ، فلما صار معهم عرف حقيقتهم ، فقال : إنما هؤلاء المعتزلة !! وقام عنهم ، فسموا معتزلة من وقتها[٢].

٤ - ولكن الدكتور نيبرج المستشرق يعترض على هذه التسمية ويرى أنها غير معقولة ولا وجه لها . إذ ورد تسمية هذه المدرسة بأهل الاعتزال وبمن قال بالاعتزال، فلو كان معنى الكلمة ما زعموه لما جاز مثل هذه التسمية . ثم إن لها عدة نظائر فى عرف ذلك الزمان كالمرجئة يرادفها أهل الإرجاء، وهم الذين قالوا بالإرجاء ، والرافضة التى يرادفها أهل الرفض ومن قال بالرفض [٣] . ويؤيد اعتراض نيبرج ما أورده المسعودى من أن كلمة " اعتزال " فى اصطلاح مذهب المعتزلة؛ هو القول بالمنزلة بين المنزلتين ، أى باعتزال صاحب الكبيرة عن المؤمنين والكافرين [٤] .

ومما لا ريب فيه أن رأى المسعودى أقرب من غيره إلى الصواب، وأدعى إلى الإنصاف .

٥ - ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن يجدوا لهذا الاسم تعليلات أخرى : فمن رأى جولدزيهر المستشرق أنهم سموا معتزلة لأن رؤساءهم الأولين كواصل ابن عطاء وعمرو بن عبيد والمردار والجعفرين : جعفر بن مبشر ، وجعفر بن حرب كانوا يعتزلون العالم، ويحيون حياة التقشف والزهد. لكن يضعفه أن جماعة الزهاد لم يطلق عليهم هذا الاسم وهم أدخل فى الزهد من المعتزلة [٥] .

ويميل الأستاذ أحمد أمين إلى الاعتقاد بأن قوما ممن أسلم من اليهود أطلقوه عليهم. والذى نبهه إلى ذلك ما قرأه فى كتاب الخطط من أن بين الفرق اليهودية التى ظهرت بعد العودة من السبى فرقة يقال لها الفروشيم -Pharisees- ومعناها المعتزلة [٦] .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : ج٢ ص ٢٥٢ . (٢) الوفيات : ج١ ص ٦٠٩ .

(٣) مقدمة كتاب الانتصار ، لأبى الحسين الخياط : ص ٥٢ .

(٤) مروج الذهب ج٦ ص ٢٢ ، ج ٧ ص ٢٣٤ .

(٥) نقلا عن " شرح مختصر الفرق بين الفرق " لفيليب حتى ص ٩٨ .

(٦) الخطط ج ٤ ص ٣٦٨ .

فيقول أحمد أمين إن المعاجم اللغوية الحديثة تثبت أن معنى فروشيم هو : المعتزلة .

وهذا المعنى ينطبق على المعنى الذى تؤديه كلمة معتزلة . وقد كان الفروشيم يتكلمون فى القدر كالمعتزلة ويقولون ليس كل الأفعال خالقها الله تعالى . فلا يبعد والحالة هذه أن يكون بعض اليهود الذين أسلموا قد أطلقوا على المعتزلة هذا اللفظ لما رأوا بينه وبين الفروشيم من شبه فى القول بالقدر (١) . غير أنه استبعد ذلك ، لاسيما وأن انفصال الفروشيم عن سائر اليهود تم بطريقة مخالفة تماما لاعتزال المعتزلة (٢) . قول فيه غرابة شديدة فهو يتأول لمدرسة إسلامية عربية خاصة نسبة لليهودية . ومثل هذا الرأى يمثل نزعة تميل إلى ربط ما هو عربى ، إلى غير عربى ولا نرى حاجة إلى هذا التمحل .

٦ - قال أبو بكر الإخشيد : المشهور عند علمائنا ، أن هذا الاسم حدث بعد الحسن لأن عمرو بن عبيد لما مات الحسن وجلس قتادة اعتزله عمرو ونفر معه ، فسماهم قتادة " المعتزله " . واتصل ذلك بعمرو فأظهره وتقبله ورضى به . وقال لأصحابه : إن الاعتزال وصف مدحه الله فى كتابه ، فهذا اتفاق حسن فاقبلوه (٣) .

٧ - وذهب ابن المرتضى الزيدى اليمنى الذى احتج على البغدادى احتجاجا شديدا فى كتابه : " المنية والأمل " ، إلى أن المعتزلة هم الذين أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم لا غيرهم ، (٤) وأنهم لما يخالفوا الإجماع ، بل عملوا بالمجمع عليه فى الصدر الأول من الإسلام . وإذا كانوا قد خالفوا شيئا فإنما الأقوال المحدثة والمبتدعة واعتزلوها . (٥)

ويحاول ابن المرتضى أن يجد مخرجا جميلا لاسم الاعتزال معتمدا على بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة :

أ - ﴿ **واهجرهم هجرا جميلا** ﴾ (٦) . وذلك لا يكون إلا بالاعتزال عنهم .

ب - " من اعتزل الشر سقط فى الخير " .

٨ - روى سفيان الثورى عن ابن الزبير عن جابر عن ابن عبد الله عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : "ستفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة أبرها وأتقاها الفئة

(١) فجر الإسلام : ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) المقالة فى الموسوعة البريطانية : ج ١٧ ص ٦٨٩ .

(٣) المعتبر فى تخريج أحاديث المنهاج : الإمام بدر الدين بن محمد بن عبد الله الزركشى - حققه وعلق عليه حمدى بن عبد المجيد السلفى .

(٤) المنية والأمل : ص ٢ . (٥) المنية والأمل : ص ٤ .

(٦) سورة المزمل آية : ١٠ .

المعتزلة " . ثم قال سفيان لأصحابه : تسموا بهذا اللقب لأنكم اعتزلتم الظلمة . فقالوا له : سبقك بها عمرو بن عبيد وأصحابه . فصار سفيان يروى " الفئة الناجية " بدل المعتزلة (١) .

٩ - ويحاول الإمام ابن المرتضى (+ ٨٤٠هـ = ١٤٣٦م) أن يظهر أنهم أقدم من ذلك بكثير . فقد وضع لهم سندا ينتهى إلى النبى صلوات الله عليه وسلامه . فهو يروى عن أبى إسحق بن عياش أنه قال عن المعتزلة : وسند مذهبهم أصح أسانيد أهل القبلة ، إذ يتصل إلى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، وقد أخذ واصل وعمرو المذهب عن أبى هاشم عبد الله ، وأخذه هذا عن أبيه محمد بن الحنفية ، وهذا عن والده على بن أبى طالب ، وأخذه علىّ عن النبى - صلى الله عليه وسلم - (٢) . ويستدل ابن المرتضى على صحة هذا القول بأن محمد بن الحنفية هو الذى ربى واصلا وعلمه حتى تخرج واستحكم (٣) ، وأخذ عنه علم الكلام (٤) . وقيل سئل أبو هاشم عن مبلغ علم أبيه محمد بن الحنفية فأجاب : " إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره فى واصل بن عطاء " (٥) .

١٠ - وذكر الخوارزمى أن أبا هاشم قال للسائل : " انظر إلى أثره فى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . ماذا أقول فى جمر هذا شرره ، وفى سيف هذا أثره ، وفى كريم هذا نتاج سؤدده وآثار يده . . . ؟! " (٦) .

١١ - روى الشهرستانى أن واصل بن عطاء أخذ الاعتزال عن أبى هاشم عبد الله بن محمد الحنفية (٧) .

١٢ - ويرى المستشرق آدم متز أن هذا السند من وضع الشيعة ، حملهم على وضعه ونسبته إلى على بن أبى طالب أن عددا كبيرا منهم دخل فى مذهب الاعتزال فى القرن الرابع الهجرى (٨) ، ولذلك فهو لا يرد مفصلا إلا فى كتاب إمام الزيود الشيعة فى اليمن .

---

(١) المنية والأمل : ص ٢ - ٣ .

(٢) المنية والأمل : ص ٤ - ٥ . (٣) المنية والأمل : ص ٥ .

(٤) المنية والأمل : ص ١٠ . (٥) المنية والأمل : ص ١١ .

(٦) رسائل الخوارزمى : ص ٥٠ . (٧) الملل والنحل : ج ١ ص ٥٧ .

(٨) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، لآدم متز : ج١ ص٣٣٢-٣٣٣ .

١٣ - وهناك رواية أخرى تقول إن واصل بن عطاء أخذ الاعتزال عن الحسن البصرى[١] . يؤيد ذلك أن ابن المرتضى يعتبر الحسن واحدا منهم ، لأنه قال بالعدل ونفى القدر فى رسالة بعث بها إلى عبد الملك بن مروان [٢] . وقد أقر واصل فى رسالة أرسلها إلى عمرو بن عبيد ، قبل أن ينضم عمرو إليه ، يلومه فيها على مخالفته وشذوذه ، أنه على طريقة الحسن البصرى وعلى آرائه [٣] . ويذكر الخوارزمى أن المعتزلة كانوا يعتدون بالحسن البصرى اعتداد الحجازيين بالشافعى ، والزيدية بزيد بن علىّ[٤] . فإن كان واصل قد انشق عن الحسن البصرى فى مسألة مرتكبى الكبائر فلا يمنع ذلك أن يكون تبعه فى الأصول الأخرى كنفى القدر .

١٤ - يذهب الملطى ، إلى القول ، وهو قول لم أطلع عليه عند غيره من كتاب الفرق ، أو من المؤرخين وغير غريب بالنسبة لنشأة الفرق الإسلامية ، بأنها قد نبتت وترعرعت فى أحضان السياسة ومشكلاتها وقضاياها . وأكاد أميل إلى الأخذ به ، فهو يتفق مع الجو العام للسياسة ، ويشارك الأسباب المشتركة التى ساهمت فى نشأة الفرق الإسلامية . وهو قوله : " وهم سموا أنفسهم معتزلة . وذلك عندما بايع الحسن بن علىّ ، معاوية ، وسلم إليه الأمر اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس . وذلك ، أنهم كانوا من أصحاب علىّ ولزموا منازلهم ومساجدهم ، وقالوا : نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة " [٥] .

وهذا القول يرشح الأخذ به لدينا أنه يستبطن محبة آل البيت وميلهم إلى حق على الشرعى فى الخلافة وصمتهم على بيعة يزيد ، وإعراضهم عنه وعدم المشاركة . وهو رأى يفسر معنى ميل الشيعة إلى الأخذ بالاعتزال ، كما أن المعتزلة فى بعض أفرعهم يعدون من الشيعة .

أما القول بأنها من إطلاقات الحسن البصرى عليهم إثر رأيهم فى مرتكب الكبيرة ،

---

(١) الملل والنحل : ج ١ ص ٥٧ . (٢) المنية والأمل : ص ١٢ - ١٤ .

(٣) العقد الفريد : ج ١ ص ٢٠٨ . (٤) رسائل الخوارزمى : ص ٣٨ .

(٥) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع .

فهو قول مشهور، وأولى بالرفض لأن العبارة التى قالها الحسن البصرى لا ندرى ماذا تعنى وهذا يترتب على شكل نطقها :

* فهل هى : اعتزلَنا واصلاً .

* أو هى : اعتزلْنا واصل .

فالأولى : تعنى خاصمْنا واصلا برأيه فى الكبيرة وقوله بالمنزلة بين المنزلتين . وبالتالى يكون هو الذى قرر الاعتزال وليس واصلا .

ونرى الثانية : تعنى : خاصمَنا واصل بقوله : بالمنزلة بين المنزلتين فى صاحب مرتكب الكبيرة، وبالتالى يكون واصل هو الذى أراد الاعتزال ليس بالرأى وحده ، بل بالرأى والمكان والاستقلال .

وعلى أى توجيه من التوجيهين وهو مربك ، ولا ريب ، فإن واصلا ليس هو الوحيد الذى خالف البصرى ، فالخوارج لهم رأيهم فى الكبيرة . والمرجئة لهم رأيهم فى الكبيرة ، والقدرية لهم رأيهم فى الكبيرة . فلم يكن الخلاف حول الكبيرة من بدع المعتزلة وحدهم .

فكان هناك حكم أهل السنّة الذى رأى فيه البعض تساهلا ، وكان هناك حكم الخوارج الذى كان عظيم القسوة فى التطرف ، وكان هناك المرجئة فوقفوا عن الحكم وأرجئوا الحكم لله .

وهكذا كان الباب واسعا والمجال مفتوحا لظهور آراء أخرى، فإن واصل بن عطاء معروف بمناظراته للجهمية والسمنية وبعض آخر من أصحاب المقالات والزندقة ، فأدلى برأيه حسب ما اهتدى إليه وهو أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر بل هو فى منزلة بين المنزلتين : الإيمان والكفر ،ودعاه فاسقا . وهكذا تميز المعتزلة بالقول بالمنزلة بين المنزلتين . وعلى أثر القول بها حملوا لقب الاعتزال . وهذا ولا شك لا نراه بعيدا، بل وأولى بالقبول على نحو ما ذهب إليه الملطى بأنه يعنى موقفا سياسيا وهو قضية الخلافة التى فجرها معاوية مرة ثانية مع ابنه يزيد، ونقم عليه الحسن بن على حين قال: أربع خصال فى معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة : خروجه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم ، وادعاؤه زيادا ، وقد قال النبى صلى الله

عليه وسلم : " الولد للفراش وللعاهر الحجر " ، وقتله حجر بن عدى ، واستخلافه يزيد ، وهو سكير يلبس الحرير ويضرب بالطنابير [1] .

وقد طبق واصل بن عطاء هذا المبدأ الذى وضعه ، على المتنازعين على الخلافة . وكان أهل ذلك العصر مختلفين فى هذه المسألة أيضا .

فشيعة علىّ بن أبى طالب يكفرون الذين خرجوا عليه وحاربوه وحرموه من حقه فى الخلافة . وجماعة معاوية يلعنون عليًا فى المساجد . والخوارج يقولون إن أصحاب الجمل كفروا بقتالهم عليًا وإن عليًا كان على حق فى قتال أصحاب الجمل ، وفى قتال أصحاب معاوية بصفين إلى وقت التحكيم ثم كفر بالتحكيم . وأهل السنَّة يعتقدون بصحة إسلام الفريقين فى حرب الجمل وصفين ويرون أن الذين قاتلوا عليًا فيهما كانوا عصاة مخطئين ولكن خطأهم لم يكن كفرا ولا فسقا . وأما المرجئة فكانوا يؤمنون بحسن إسلام الفريقين ويرجئون الحكم عليهما إلى يوم القيامة .

فلما قام واصل خالف جميع هذه الأقوال ، وخرج عليها ، وأدلى بحكمه الخاص فى ذلك النزاع فقال فى عثمان وقاتليه وخاذليه : إن أحد الفريقين لا محالة فاسق مخطئ ، غير أنه لا يستطيع أن يعين أيهما المخطىء ، فلا يمكنه لذلك أن يقبل شهادتهما [2] . كذلك قال فى أصحاب الجمل ، وفى المتلاعنين : إن أحدهما مخطئ فاسق ، وقد يكون الفسقة من الفريقين ، وإذ كان يشك فيهما كليهما ولا يعرف أيهما الفاسق رفض شهادتهما . وقد ذهب صاحبه عمرو بن عبيد إلى أبعد من ذلك فحكم بفسق الفريقين من أصحاب الجمل وصفين ولم يقبل شهادتهم جميعا [3] .

لم يكتف واصل بن عطاء بالحكم على المتحاربين على الخلافة فحسب ، بل تعرض لحل ذلك النزاع السياسى من أساسه . وكانت آراء الأحزاب الإسلامية فى الخلافة متضاربة : فأهل السنَّة يقولون إن الخليفة يجب أن يكون عربيا من قريش ، وإنه يصل إلى سدة الخلافة بمبايعة الأمة وموافقتها . والشيعة يرون أن الإمامة محصورة فى أولاد على بن أبى طالب من زوجته فاطمة بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالتعيين الإلهى . والخوارج يصرون على أن تكون الخلافة بانتخاب الأمة إذا دعت الضرورة إلى ذلك . وكل مسلم يحق له أن ينتخب لإشغال ذلك المنصب السامى ولو كان عبدا

(١) فرق وطبقات المعتزلة : القاضى عبد الجبار المتوفى عام ٤١٥ .

(٢) الملل والنحل : ج ١ ص ٥٦ .

(٣) الفرق بين الفرق : ص ١٠٠ – ١٠١ .

حبشيا . فجرب واصل أن يوحد هذه الآراء المتباينة ويكون منها حلا يرضى الجميع ويجيء وسطا بين تطرف الشيعة والخوارج . فقال إن الإمامة باختيار الأمة ، وحجته فى ذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه . ولا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا اجتمع المسلمون على رجل بعينه ، وفى هذا وافق أهل السنة والخوارج . فلماذا لا يكون سبب إطلاق اسم المعتزلة عليهم سببا سياسيا ؟

(٢) أهل العدل والتوحيد :

روى المقبلى أن المعتزلة كانوا يطلقون على أنفسهم اسم أهل العدل والتوحيد(١). وذكر الإمام ابن المرتضى أنهم يسمون أنفسهم العدلية والموحدة (٢) . وجاء فى صبح الأعشى أن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد : ويعنون بالعدل نفى القدر والقول بأن الإنسان هو موجد أفعاله تنزيها لله تعالى عن أن يضاف إليه الشر ، ويعنون بالتوحيد نفى الصفات القديمة والدفاع عن وحدانية الله عز وجل (٣) .

والمعتزلة يفضلون أن يدعوا أهل العدل والتوحيد (٤) ؛ فقد كان الصاحب بن عباد أحد أشياخهم إذا تحدث عنهم لا يستعمل غير هذا الاسم (٥) .

(٣) أهل الحق والفرقة الناجية :

يعتبر المعتزلة أنفسهم أهل الحق والفرقة الناجية ، ويدعون خصومهم بأسماء مختلفة كالمجبرة والقدرية والمجوزة والمشبهة والحشوية (٦) .

---

(١) العلم الشامخ : ص ٣٠٠ ، ٤١٥ - ٤١٦ .

(٢) المنية والأمل : ص ٢ .

(٣) صبح الأعشى للقلقشندى : ج ١٣ ص ٢٥١ .

(٤) المنية والأمل : ص ٢ .

(٥) معجم الأدباء ، لياقوت الحموى : ج٦ ص ١٩٠ ، ٢٨٦ .

(٦) العلم الشامخ ص ٣٠٠ ، المعتزلة : زهدى جاد الله .

(٤) القدرية :

من البحوث التى تعتبر من تجديدات المعتزلة ، مسألة الاختيار والقدرة الإنسانية ، وأدرجها علماء الكلام تحت اسم " القدرية " ومن الصعب تحديد معنى القدرية ، فهى أطلقت على الشيء ونقيضه :

* عند ابن قتيبة [١] : هم الذين أضافوا القدرة إلى أنفسهم على معنى أنهم أصحاب الاختيار ، وهم الذين يخالفون الجبرية .

* وأطلق قديما على الجبرية الذين يقولون بالقدر خيره وشره .

* وزيد بن على كان يقول [٢] : أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله .

وقال بعضهم : إن الله تعالى يخلق الخير ، وإن الشيطان يخلق الشر [٣] .

وهذا ما جعل الأشعرى [٤] يسميهم " مجوس الأمة " .

يقول المقدسى : من غلبة المعتزلة على القدرية أنه لا يميز إحداهما من الأخرى إلا كل نحرير . وحاول القاضى عبد الجبار : أن يثبت من الأحاديث أن اسم القدرية لا ينبغى أن يطلق على المعتزله بل على القائلين بالقدر خيره وشره .

أما عن فرقة القدرية ، فقد سبقت المعتزلة وكان من رؤسائها الأوائل معبد الجهنى وغيلان الدمشقى . ولما ظهر المعتزلة ، أخذوا عن القدرية قولها فى نفى القدر فعلق بهم لذلك اسمها خصوصا وأنهم يعتبرون غيلان الدمشقى واحدا منهم [٥] . ولذلك ، فإننا نرى ابن قتيبة الدينورى [٦] والبغدادى [٧] فى كلامهما عن القدرية والمعتزلة لا يفرقان بينهما ، بل يتحدثان عنهما كأنهما فرقة واحدة .

قال الشهرستانى : المعتزلة يسمون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية : وذلك لإسنادهم أفعال العباد لقدرهم ، وإنكارهم القدر فيها موافقة لرأى معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى القدريين .

---

(١) تأويل مختلف الحديث . (٢) طبقات المعتزلة : ابن المرتضى .

(٣) مقالات الإسلاميين . (٤) ابن قتيبة : مختلف الحديث .

(٥) الانتصار : ص ١٢٧ ، والمنية والأمل : ص ١٥ .

(٦) كتاب المعارف : ص ٢٠٧ .

(٧) أصول الدين : ص ٩٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٧٦ .

وقال أبو منصور البغدادى فى كتاب (الفرق) فى تعداد المسائل التى اتفق عليها القدرية المعتزلة : ومنها قولهم جميعا بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس ، وأن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم ، وأنه ليس لله تعالى فى أكسابهم صنع ولا تقدير ، ولأجل هذا سماهم أهل السنَّة : قدرية .

وقال ابن الأثير : سموا قدرية لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه . وقد قالوا لمخالفيهم أنتم الأولى بتسمية القدرية ، لأنكم تجعلون الأشياء جارية بقدر من الله ، ومثبت الشيء أحق بالنسبة إليه من نافيه . فأجابهم المثبتون بأن مثبت الشيء لنفسه أولى بالنسبة إليه ممن نفاه عن نفسه .

وقال الإمام ابن تيمية : فى آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله ، والإيمان بأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وظنوا أن ذلك ممتنع . وكانوا قد آمنوا بدين ثم كثر الخوض فى القدر ، وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه فى المدينة . فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس فى الإرادة وخلق أفعال العباد ، فصاروا فى ذلك حزبين : النفاة يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلا ما أمر به ، ولم يخلق شيئا من أفعال العباد . وقابلهم الخائضون فى القدر من المجبرة مثل الجهم بن صفوان وأمثاله ، فقالوا : ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهى لا يستلزم إرادة ، وقالوا : العبد لا فعل له البتة ولا قدرة ، بل الله هو الفاعل القادر فقط . وكان جهم مع ذلك ينفى الأسماء والصفات .

يرى صاحب الفرق : أن الأصل فى القول بحدوث كلام الله " قدرية البصرة " ثم نسجت عليه الكرامية . وقدرية البصرة ، جماعة ، قد تكون : من المعتزلة أو المرجئة أو الجهمية . فهؤلاء لدى البغدادى يسمون بالقدرية .

وعلى منوال هذا الضال ، نسجت القدرية البصرية فى القول بحدوث كلام الله ، وعليه نسجت الكرامية قولها بحدوث قول الله وإرادته وإدراكاته .

وأما الضال المذكور ، فهو ابن الراوندى .

غير أن المعتزلة لا يرضون بهذا الاسم ، ويقولون إنه أولى أن يطلق على القائلين

بالقدر خيره وشره من الله تعالى [١] . ولهذا أخبر المقبلى أن المعتزلة والأشاعرة جرى كل منهما على تسمية صاحبه بالقدرية ، هؤلاء لإثبات القدرة للعبد ، وأولئك لنفيها[٢] .

وقد حاول المعتزلة جهدهم أن يتخلصوا من اسم القدرية ، فقال ابن المرتضى إن لفظ القدرية كان يطلق قديما على القائلين بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، ودليله على ذلك قول زيد بن عليّ : " أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله [٣] " . ودافع المقبلى عن المعتزلة فى هذه النقطة ، ورد على شبهة الذين سموهم بالقدرية ، فقال : إذا كان المراد بالقدر نفس العلم الأزلى فإن المعتزلة جميعًا يقرون به ويثبتونه [٤] ، فالمعتزلة إذن يرون أن الذى يثبت القدر لله تعالى أحق أن ينسب إليه من نافيه [٥] ، ولكن ابن قتيبة يرى أن المعتزلة نفوا القدر عن الله وأضافوه إلى أنفسهم ، فوجب أن يسموا قدرية ، لأن مدعى الشىء لنفسه أولى أن يدعى به [٦] .

مفهوم القدرية مربك فى كتب الفرق : من المصطلحات المضللة فى تاريخ الفكر العقدى مصطلح " القدرية " . تارة يراد به نفى قُدْرة الإنسان على الفعل أى عدم القدرة والاستطاعة عليه أى يقولون بالقَدَر . وتارة يطلق ويراد به : القُدْرَة على الفعل والاستطاعة أى قدرة الإنسان على الفعل ومسئوليته . وهكذا يرتبك المطالع فى تاريخ الفرق مع هذا المفهوم بين المثبتين والنفاة ، ولاسيما حين يكتب من غير تفسير ، حتى بلغ الأمر ببعض كتاب الفرق أن ربطوا بين الجهمية نفاة قدرة الإنسان على الفعل والقول بالقَدَر ببعض الفرق الأخرى كالمعتزلة القائلين : بقدرة الإنسان على الفعل ، بينما البون شاسع بينهما .

---

(١) الملل والنحل : ج ١ ص ٥٠ .

(٢) العلم الشامخ : ص ٢٨٤ (ارجع أيضا إلى كتاب الإبانة عن أصول الديانة لأبى الحسن الأشعرى : ص ٧٣) .

(٣) المنية والأمل : ص ١٢ .

(٤) العلم الشامخ : ص ٢٨٧ – ٢٨٩ .

(٥) الإبانة : ص ٧٣ ، المعتزلة – زهدى جاد الله .

(٦) تأويل مختلف الحديث : ص ٩٨ .

وفى نظرنا : أن النسبة ليست واحدة من حيث الشكل اللغوى . فالقول بقُدْرة الإنسان على الفعل تكون نسبته إلى القُدْرة فيقال : قُدَرى بضم القاف . وأما القائلون بعدم القُدرة نفى قدرة الإنسان على الفعل ، فيقال فى النسبه إليه : قَدرى بفتح القاف . لذلك أنصف الشهرستانى حين أطلق على نفاه قدرة الإنسان : الجبرية أى مجبورون على أفعالهم .

راج هذا المذهب فى العصر الأموى . ووجد فيه الأمويون تبريرا لأفعالهم ، حيث إن الأفعال تقع بقدر الله وليست بقدرة الإنسان . وعلى أساس القول بالجبرية ظهرت مشكلة مجرمى مرتكب الكبيرة وظهر أثر هذه المشكلة فى الخلاف ، واضحا ، بين الفرق : على أربعة آراء . وعلى أساس هذه الآراء ظهرت مفاهيم الإيمان . هل معرفة - تصديق - إقرار - ؟ وهل الفعل الإنسانى يزيده أو ينقصه ؟ وهل يترابطان أو على الإرجاء ؟ وهكذا كان النقاش يدور حول الإيمان والإرجاء ، وهل الإيمان وحده هو الذى ينقذ المؤمن أو يدخل فيه العمل .

وربما كان إطلاق اسم قدرية البصرة عليهم على ما بينهم من خلاف فى المفهوم كما بينَّا من قبيل ذمهم جميعا .

يقول الشهرستانى : الجبر : هو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى . و " الجبرية " أصناف :

فالجبرية الخالصة : هى التى لا تثبت للعبد فعلا ، ولا قدرة على الفعل أصلا . **والجبرية المتوسطة** : هى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا . فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما فى الفعل وسمى ذلك كسبا ، فليس بجبرى .

والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة أثرا فى الإبداع والأحداث استقلالا : جبريا ويلزمهم أن يسموا من قال من أصحابهم بأن المتولدات أفعال لا فاعل لها : جبريا ، إذ لم يثبتوا للقدرة الحادثة فيها أثرا . والمصنفون فى المقالات عدوا " النجارية " و " الضرارية " من " الجبرية " وكذلك جماعة " الكلابية " : من الصفاتية و " الأشعرية " سموهم تارة " حشوية " وتارة " جبرية " . ونحن سمعنا إقرارهم على أصحابهم من " النجارية " ، و " الضرارية " فعددناهم من " الجبرية " ولم نسمع إقرارهم على غيرهم فعددناهم من " الصفاتية " .

أما " جهم بن صفوان " وهو من " الجبرية الخالصة " فظهرت بدعته " بترمذ " وقتله " سالم بن أحوز المازنى " (بمرو) فى آخر ملك بنى أمية : فقد وافق المعتزلة فى نفى الصفات الأزلية ، وزاد عليهم بأشياء :

منها قوله : لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، لأن ذلك يقضى تشبيها، فنفى كونه : حيا ، عالما ، وأثبت كونه : قادرا ، فاعلا ، خالقا ، لأنه لا يوصف شىء من خلقه بالقدرة ، والفعل ، والخلق .

ومنها إثباته علوما حادثة للبارى تعالى لا فى محل . قال : لا يجوز أن يعلم الشىء .

ومنها قوله : من أتى " بالمعرفة " ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده ، لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن . قال : والإيمان لا يتبعض أى لا ينقسم إلى : عقد، وقول ، وعمل . قال : ولا يتفاضل أهله فيه ، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد ، إذ المعارف لا تتفاضل . وكان السلف كلهم من أشد الرادين عليه ونسبته إلى التعطيل المحض . وهو أيضا موافق " للمعتزلة " فى : نفى " الرؤية " ، وإثبات خلق الكلام وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود " السمع " .

(٥) الثنوية والمجوسية :

يقول المقريزى : إن المعتزلة يدعون الثنوية لقولهم الخير من الله والشر من العبد [١] . وكان المعتزلة الأقدمون يقولون : إن الله تعالى يخلق الخير وإن الشيطان يخلق الشر [٢] . ولما كان هذان القولان يشبهان قول الثنوية المجوسية ، فإن المعتزلة اكتسبوا علاوة على أسمائهم العديدة اسم المجوس ، فإنهم بسبب هذه الاثنينية سموا مجوس الأمة الإسلامية . وقد أتى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " القدرية مجوس هذه الأمة ، فإن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوا جنائزهم " [٣] .

---

(١) مقالات الإسلاميين .

(٢) الخطط : ج ٤ ص ١٦٩ .

(٣) تأويل مختلف الحديث : ص ٥ .

لا جرم أن المعتزلة لا يقبلون بهذا الاسم . وهم إنما تنصلوا من اسم القدرية وأنكروه بقوة وشدة، تخلصا من وصمة لقب المجوسية ، إذ كان النبى قد ذم القدرية بتسميتها مجوس هذه الأمة [1] .

(٦) الجهمية :

كذلك يلقب المعتزلة بالجهمية [2] . والجهمية فرقة ظهرت قبل المعتزلة وقالت بالجبر وخلق القرآن، ونفت الصفات وأنكرت الرؤية السعيدة . فلما قام المعتزلة بعد ذلك أخذوا عن الجهمية أقوالها فى خلق القرآن ونفى الصفات والرؤية ، فأطلق عليهم أهل السنة اسم الجهمية ، وصاروا يعرفون به عندهم . ويقول الشيخ جمال الدين القاسمى الدمشقى : فإن المعتزلة أخذت عن الجهمية القول بنفى الرؤية والصفات وخلق الكلام ووافقتها عليها ، وإن كان لكل فروع واختيارات غير ما للأخرى ، إلا أن ما توافقوا فيه من هذه المسائل الكبيرة جعلهم كأهل المذهب الواحد ، فلذلك أطلق أئمة الأثر لفظ الجهمية على المعتزلة . فالإمام أحمد فى كتابه الرد على الجهمية ، والبخارى فى الرد على الجهمية ومن بعدهما ، إنما يعنون بالجهمية فيه المعتزلة ، لأنهم كانوا فى المتأخرين أشهر بهذه المسائل من الجهمية ، ولكن كان غرض المتقدمين الرد ومناقشة الجهمية ، لأنها الأم لغيرها ، والسابقة على سواها فى الظهور ، بل هى أول فئة ظهرت فى الإسلام بمذهب التأويل ، وقام حزبها بالدعوة إلى مذهبها فى ريعان الدولة الأموية كما تقدم ، لذا غلب عند السلف اسمها على غيرها ممن قاربها وتلقى عنها .

بما ذكرناه، يزول الإشكال والاشتباه الذى يراه بعضهم من ذكر الجهمية فى تلك المسائل ، مع أنها فى عرفهم وما يدرسونه فى كتب الكلام المتأخرة مضافة إلى المعتزلة . وحاصل دفع الإشكال أن تلقيبهم بالجهمية إنما كان لما وجد من موافقتهم للجهمية فى تلك المسائل، مع مراعاة سبقهم فيها على المعتزلة ، وتمهيدهم السبيل للتوسع فيها . (قال الغزالى) : وأولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سميعا بصيرا ، وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد ، وأولوا عذاب القبر [3] ، وجملة من أحكام الآخرة . ولكن أقروا بحشر الأجساد ، والجنة واشتمالها على الملاذ المحسوسة ، وبالنار وباشتمالها على جسم محسوس محرق يحرق الجلود .

(١) تأويل مختلف الحديث: ص ٩٦ ، ٩٨ والإبانة: ص ٧٣ .

(٢) الملل والنحل: ج١ ص ٥٠، وصبح الأعشى: ج١٣ ص ٢٥١ .

(٣) الإحياء .

قال الإمام ابن تيمية فى منهاج السنّة (١) : لما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات فى أوائل المائة الثالثة على عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق ، ودعوا الناس إلى التهجم وإبطال صفات الله تعالى ، وطلبوا أهل السنة للمناظرة ، لم تكن المناظرة مع المعتزلة فقط ، بل كانت مع جنس الجهمية من المعتزلة والنجارية والضرارية وأنواع المرجئة . فكل معتزلى جهمى ، وليس كل جهمى معتزليا ، لكن جهما أشد تعطيلا ، لأنه ينفى الأسماء والصفات . وبشر المريسى كان من المرجئة ولم يكن من المعتزلة ، بل كان من كبار الجهمية .

ومن جاء بعدهم إنما عنوا بالجهمية المعتزلة ، أما أئمة السنَّة المتقدمون الذين ردوا على الجهمية ، فقد كانوا يقصدون الجهمية الأولى لأنها سابقة للمعتزلة . ويظهر قول القاسمى جليا فى كلام الإمام ابن تيمية الحرانى ، وفى كلام تلميذه ابن قيم الجوزية ، فإنهما كليهما يردان على الجهمية وهما يقصدان بها المعتزلة .

وكما تنصل المعتزلة من اسم القدرية ، كذلك رفضوا بنفس الشدة اسم الجهمية ، وتبرءوا من جهم وأصحابه الجبرية . فكان عندهم فى سوء الحال والخروج من الإسلام ، كهشام بن الحكم الرافضى (٢) .

(٧) الخوارج :

ينسب بعضهم المعتزلة إلى الخوارج ويدعونهم " مخانيث الخوارج " . ذلك بأن المعتزلة ، ولا سيما شيخيهم الأولين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، كانوا يوافقون الخوارج فى تخليد مرتكب الكبيرة فى النار مع قولهم إنه ليس بكافر (٣) .

(٨) المعطلة :

كان أهل السنة يطلقون على الجهمية الأولى نفاة الصفات اسم المعطلة لتعطيلها الله تعالى عن صفاته (٤) ، أى تجريده تعالى منها . وكانوا يرمون من وراء هذه التسمية إلى ذم الجهمية وهجوها ، فإن أهل الموصل أخذوا ، بعد هزيمة مروان بن محمد ، يسبونه

(١) جزء (١) صفحة ٢٥٦ . (٢) الانتصار : ص ١٢٦ .

(٣) مروج الذهب : ج ٦ ص ٢٢ .

(٤) الصواعق المرسلة : ج١ ص ١٩٢ .

وينادونه : يا معطل [١] ، لأن مروان كان على مذهب المعطلة . وحين قام المعتزلة ، واقتبسوا عن الجهمية الأولى قولها بنفى الصفات ، لزمهم اسم المعطلة .

وقد وضع ابن قيم الجوزية كتابه الصواعق المرسلة فى الرد على الجهمية والمعطلة ، وهو يقصد الرد على المعتزلة فى الدرجة الأولى .

(٩) شيعة المعتزلة :

والفرقة الرابعة من الزيدية : هم معتزلة بغداد ، يقولون بقول الجعفرين : ابن مبشر الثقفى ، وجعفر بن حرب الهمدانى ، ومحمد بن عبد الله الإسكافى ، وهؤلاء أئمة معتزلة بغداد ، وهم زيدية يقولون بإمامة المفضول على الفاضل ، ويقولون : إن عليّا عليه السلام أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسبقه بالفضل أحد من الأمة . وزعموا أن إمامة المفضول على الفاضل جائز لما ولى النبى صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على فضلاء المهاجرين والأنصار فى غزوة ذات السلاسل .

وقالوا : لو أن رجلا عالما قارئا ، وآخر دونه فى العلم والقراءة قدم فصلى المفضول بهم وصلى الفاضل خلفه ، جاز ذلك بعد أن يكون هذا الدون يعلم معالم الصلاة والقراءة . قالوا : فكذلك يبايع المفضول على الفاضل إذا علم أنه يقوم بالإمامة ، ويؤدى حقها ، ويعلم علمها . قالوا : فكذلك فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ رأوا أبا بكر - وإن كان علىّ أفضل منه - يصلح لهم فولوه ورضى به على ، وتابعهم ، وأخذ العطاء منهم ، وضرب بين أيديهم بالسوط وصلى خلفهم ، وتزوج من سبيهم أم محمد بن الحنفية . فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعائشة ، وسعد ، وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم كلهم فى الجنة لا شك فيهم ، وإن عليّا أفضلهم ويتولونهم وجميع الصحابة ، إلا أن هؤلاء الذين شهدوا لهم بالجنة لقول النبى صلى الله عليه وسلم: " عشرة فى الجنة " وقوله عليه السلام : "أزواجى فى الدنيا أزواجى فى الآخرة" . ويتبرءون من أبى موسى الأشعرى ، والمغيرة بن شعبة ، والوليد بن عقبة ،

وطوائف زعموا أنهم مالئوا على عداوة على مع معاوية رضى الله عنهم ، وركنوا إلى الدنيا وآثروها على الآخرة ، ويتبرءون ممن يتبرأ من أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وهؤلاء العشرة الذين بشروا بالجنة . ويقولون : من تبرأ منهم فهو فاسق عاص ،

---

(١) ابن الأثير : ج ٥ ص ١٧١ .

ويقولون : على أفضل الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتدون بشهادته ويأخذون بقوله فى العدل ، والتوحيد ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بإحباط الأعمال والقول بالفرض ويقتدون به فى قتال أهل الصلاة ويقولون : هو إمامنا ، ومعلمنا ، وحجة الله علينا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهؤلاء هم الشيعة الخلص عندهم .

٣ ــ انتشار الاعتزال

يقول المالطى[1] : إن المعتزلة بنيت على الأصول الخمسة ، وهم كلهم متمسكون بالقول بذلك ويجادلون عليه . وقد وضعوا فى ذلك الكتب الكثيرة ، ويتبرءون ممن خالفهم فيها . وهذه الأصول الخمسة ملجؤهم ، وأصل مذهبهم مع اختلافهم فى الفروع ، وهم يتوالون عليها ، ويعادون عليها ، ويردون الفروع بها ، وهم معتزلة بغداد ، ومعتزلة البصرة .

معتزلة بغداد ومعتزلة البصرة : وبالبصرة أول ظهور الاعتزال ، لأن أبا حذيفة واصل بن عطاء جاء به من المدينة . ويقال : معتزلة بغداد أخذوا الاعتزال من معتزلة البصرة ، أولهم بشر بن المعتمر خرج إلى البصرة ، فلقى بشر بن سعيد ، وأبا عثمان الزعفرانى ، فأخذ عنهما الاعتزال ، وهما صاحبا واصل بن عطاء . فحمل الاعتزال والأصول الخمسة إلى بغداد ، ودعا إليه الناس ففشى قوله ، فأخذه الرشيد وحبسه فى السجن ، فجعل يقول فى السجن رجزا مزاوجا فى العدل ، والتوحيد ، والوعيد حتى قال أربعين ألف بيت لم يسمع الناس بشعر مثل ذلك ، فألهج الناس بنشدها فى كل مجلس ومحفل . فقيل للرشيد : ما يقوله فى السجن من الشعر أضر على الناس من الكلام الذى بينه . ثم أخذ الكلام من بشر ببغداد أبو موسى بن صبيح الملقب بمردار فكان المجلس له والكلام . وخرج بعده الجعفران : جعفر بن حرب ، وجعفر بن مبشر . وخرج بعد الجعفرين محمد بن عبد الله الإسكافى ، فوضعوا من الكتب وصنفوا فى الفقه ، والكلام والجدل أكثر من أن يحد ، وردوا على جميع المخالفين من أهل الصلاة وغيرها .

(١) التنبيه والرد على الأهواء والبدع .

وأما معتزلة البصرة، [١] فكان أبو الهذيل العلاف أخذ الكلام من بشر بن سعيد ، وأبي عثمان الزعفراني صاحبي واصل بن عطاء ، فوضع من الكتب ألفا ومائتي صنف يرد فيها على المخالفين ، وينقض كتبهم إلا كتاب الحجة ، فإنه وضعه في الأصول . وكان المجلس قبل أبي الهذيل بالبصرة ، والكلام لضرار بن عمرو أظهر الخلاف ، والتبس عليه العدل ، والتوحيد ، والوعيد . ونص رسالة " إلى العامة " ما سبقه إليها أحد في حسن الكلام ونظامه يذكر فيها العدل ، والتوحيد ، والوعيد . ثم كان في آخر أيامه أبو بكر الأصم عبد الرحمن بن كيسان فالتبس عليه أيضا العدل والتوحيد ، وله كتب كثيرة ما سبقه بها أحد ، وكان أبو الهذيل يلقبه بخربان ، لأن الخر بالفارسية هو الحمار والخربان المكاري فجرى عليه هذا اللقب . ثم أخرج أبو الهذيل إبراهيم النظام ، وهشاما الفوطي ، فعابا عليه وخالفاه في الفرع ، لأن الأصل الذي خالفه عليه هشام الفوطي يكون في مائة وعشرين مسألة ، فوضع عليه فيها كتابا ، وكان آخر أيام أبي الهذيل ، وكان كف بصره ، فتقدم إلى بعض تلامذته فنقضها عليه . ثم خالفه إبراهيم النظام أيضا في مائة وعشرين مسألة فوضع فيها نقضا ، ونقضها عليه أبو الهذيل .

وكانت المناظرات بينهم في المجالس لا تنقطع ، وأبو الهذيل هذا لم يدرك في أهل الجدل مثله ، وهو أبوهم وأستاذهم ، وكان الخلفاء الثلاثة : المأمون ، والمعتصم ، والواثق يقدمونه ويعظمونه ، وكان الوزير بن أبي داود من تلامذته . وكان لا يقوم له في الكلام خصم يصوغ الكلام صياغته . ثم خرج من تحت يده النظام بعد أن صنف كتبا كثيرة للجاحظ ، وصنف كتبا . وكان صاحب تصنيف ، ولم يكن صاحب جدل .

وأخرج هشام عباد بن سليمان ، وكان أحد المتكلمين فملأ الأرض كتبا وخلافا ، وخرج عن حد الاعتزال إلى الكفر ، والزندقة لحدة نظره ، وكثرة تفتيشه .

ثم لم يقم للمعتزلة إمام مذكور بالبصرة ، ولا بغداد إلى أن خرج أبو علي محمد بن عبد الوهاب بكورجبي بين البصرة والأهواز ، وكان لقي الشحام بالبصرة قبل خروج علي بن محمد الشحام صاحب أبي الهذيل ، فتعلم منه فخرج لا شبه له ، ووضع أربعين ألف ورقة في الكلام ، ووضع تفسير القرآن في مائة جزء وشيئا لم يسبقه أحد بمثله ، وسهل الجدال على الناس . ثم خرج ابنه أبو هاشم فوضع مائة وستين كتابا في الجدل في أيام قلائل . شيء [٢] ما وصل إلى مثله أحد قبله ولا أبوه ، وخالف أباه في تسعة وعشرين مسألة ، وكان أبوه يخالف أبا الهذيل في تسع عشرة مسألة .

---

(١) بلغ خلف . محسن بن طاهر سمع من هنا إلى آخر الكتاب من الهامش . التنبيه والرد - المالطي .

(٢) يبدو أن " شيء " خبر مبتدإ محذوف ، أي وهذا شيء ما وصل إلخ - نفس المرجع .

وبين معتزلة بغداد ومعتزلة البصرة اختلاف كثير فاحش يكفر بعضهم بعضا فى بعض ذلك الاختلاف أكثر من ألف مسألة .

قال المالطى [١] : واعلم أن للمعتزلة سوى من ذكرناهم جماعة كثيرة قد وضعوا من الكتب ، والهوس ما لا يحصى ولا يبلغ جمعه ، وهى [٢] فى كل بلد وقرية لا تخلو منهم الأرض . فأما البلدان التى غلب عليها الاعتزال حتى لا يظهر فيها غير الاعتزال فعسكر مكرم من أرض الأهواز ، والصيمرة ، ومدينة بأرض فارس يقال لها جهرم[٣] وهراة ، وإصطخر من أرض كرمان ، نصفهم خوارج ، ونصفهم معتزلة ، إلا أن الاعتزال أغلب عليهم .

فأما الذى يكفر فيه معتزلة بغداد معتزلة البصرة فالقول فى الشاك ، والشاك فى الشاك . ومعنى ذلك أن معتزلة بغداد ، والبصرة وجميع أهل القبلة لا اختلاف بينهم أن من شك فى كافر فهو كافر ، لأن الشاك فى الكفر لا إيمان له ، لأنه لا يعرف كفرا من إيمان . فليس بين الأمة كلها والمعتزلة ومن دونهم خلاف حول أن الشاك فى الكافر كافر ، ثم زاد معتزلة بغداد على معتزلة البصرة أن الشاك فى الشاك ، والشاك فى الشاك إلى الأبد إلى ما لا نهاية له كلهم كفار وسبيلهم سبيل الشاك الأول . وقال معتزلة البصرة الشاك الأول كافر لأنه شك فى الكفر ، والشاك الثانى الذى هو شاك فى الشك ليس بكافر ، بل هو فاسق لأنه لم يشك فى الكفر إنما شك فى هذا الشاك أيكفر بشكه أم لا ؟ فليس سبيله فى الكفر سبيل الشاك الأول . وكذلك عندهم الشاك فى الشاك ، والشاك فى الشاك إلى ما لا نهاية له كلهم فساق إلا الشاك الأول فإنه كافر . وقولهم أحسن من قول أهل بغداد .

وتقول معتزلة بغداد : الجعفران ، والإسكافى : إن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إن أبا بكر أفضل من عمر ، ثم إن عمر أفضل من عثمان رضى الله عنهم . ومعتزلة البصرة أبو الهذيل يقول : أبو بكر وعلىّ فى الفضل سواء ، لا فضل بينهما ، ثم أبو بكر أفضل من عمر ، ثم عمر أفضل من عثمان ، وقولهم هذا كله فى التفضيل على ما ذكرت له ، فافهم .

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع .

(٢) هى : يعود إلى الجماعة .

(٣) جهرم على وزن جعفر ، بلد فى أرض فارس كما فى القاموس (ز) .

واعلم أن للمعتزلة من الكلام ما لا أستجيز ذكره، لأنهم قد خرجوا عن أصول الإسلام إلى فروع الكفر . فمن بعض قولهم : إن أطفال المشركين عندهم فى الجنة . وقال هشام منهم : لا أقول إن الله شيء ، ولكن هو منشئ الأشياء . وكيف تدبرت قولهم عرفت جهلهم ووسواسهم وهوسهم، لأنهم يختلفون فى الأجساد والأرواح من الخلق كلهم ، إنسهم وجانهم ، ولا يدعون ذكر بهيمة ، ولا طائر ، ولا شيء خلقه الله عز وجل إلا تكلموا عليه ، ووضعوا قياسا ، ثم عدلوا عن ذلك كله ، فلم يرضوا به ، وهم لا يعلمون . فقالت طائفة : بظاهر التنزيل ، ورد المتشابه إلى المحكم والترك وهم أهل العراق، وبينهم فى ذلك خلاف ومنازعات وأشياء تخرج إلى الكفر والتعطيل والتخليط .

أول فرقة أسست قواعد الخلاف والتأليف فى علم الكلام : وكان موضوع بحث المعتزلة " علم العقائد " بمعناه المحدود. وأول ما عالجوا من ذلك مسألة القدر وما يتصل بها من وصف أفعال الله بالخير والشر . وكانت هذه المسألة أكبر ما أثار اهتمام أدمغتهم التى تأثرت بمذهب زرادشت .

وكان الخلاف أكبر ما ظهرت فيه مقدرة ردوده على التنوير .

ويقول ابن حزم إن المعتزلة هم الذين اخترعوا لفظ الصفات ، وكان المستعمل قبل ذلك هو كلمة " النعوت " أو " الأساس " .

قال السفارينى فى شرح عقيدته : معظم خلافيات علم الكلام مع الفرق الإسلامية خصوصا المعتزلة ، لأنهم أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف ، لما ورد به ظاهر السنّة ، وجرى عليه جماعة الصحابة رضى الله عنهم . فأول من صنف فى علم الكلام والجدال والخصام مع أهل السنة والجماعة أبو حذيفة واصل بن عطاء ، وهو رئيس المعتزلة وأول من سمى معتزليا . وله من التصانيف كتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب الخطب فى العدل والتوحيد، وكتاب السبيل إلى معرفة الحق ، وكتاب معانى القرآن ، وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد ، وكتاب التوبة ، وله غير ذلك . وكانت ولادته سنة (٨٠) وتوفى سنة ١٣١ .

قال ابن خلكان : كان واصل أحد الأئمة البلغاء المتكلمين، وكان فى أيام عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، كما حكاه الشهرستانى .

ومثله فى السبق إلى التصنيف فى ذلك عمرو بن عبيد - من كبار أئمة المعتزلة، له كلام كثير فى العدل والتوحيد على اعتقاد المعتزلة توفى سنة ١٤٣ .

قال الذهبى فى الميزان : كان المنصور - الخليفة الشهير - يخضع لزهد عمرو وعبادته ويقول : كلكم يطلب صيده غير عمرو بن عبيد .

تأثر المعتزلة : لما توطدت أركان الدولة الإسلامية وتوسعت أعمالها فى عهد بنى أمية ، ولما لم تكن للعرب الخبرة الكافية فى أمور الإدارة ، فإنهم اضطروا إلى أن يعتمدوا فى تصريف شئون البلاد على أهل الأمصار المتعلمين الذين اقتبسوا مدنية الفرس وحضارة البيزنطيين، فأسندوا إليهم أعمال الدواوين . وهكذا كانوا يحيون بين ظهرانى المسلمين ، ويحتكون دوما بهم والاحتكاك يؤدى إلى تبادل الرأى ، والآراء سريعة الانتقال شديدة العدوى .

لا جرم أن أرباب تلك الديانات أثاروا بين المسلمين مسائل لاهوتية مهمة لم تكن لتخطر لهم . غير أن السلف تخوفوا منها وتجنبوها وحظروا على الناس الخوض فيها : أولا : لأنهم كانوا يرون فى الكتاب والسنة ما يكفيهم فى حياتهم فلا ضرورة لأن ينصرفوا إلى أبحاث دينية أخرى خارجة عنهما . وثانيا : لأنهم كانوا لا يقرون الجدل فى أمور الدين ولا يحتملون المناقشة، إذ الدين عندهم مجرد إيمان قائم على النقل .

يميل بعض المستشرقين إلى القول بتأثر المعتزلة باللاهوت المسيحى . منهم دى بور الذى أصر على تأثر المسلمين ، فى صدر الإسلام ، بالعقائد المسيحية ولاسيما فى مسألة القدر. ومنهم ماكدونالد الذى يرى أن القدرية تأثروا ، ولا ريب ، بأساليب الكلام اليونانية كما تطورت فى المدارس البيزنطية والسورية .

كذلك يرى فون كريمر أن المعتزلة ظهروا تحت تأثير اللاهوت اليونانى، وأنهم تأثروا بصفة خاصة بيحيى الدمشقى وتلميذه ثيودور أبى قرة، لأن آباء الكنيسة كانوا يتجادلون فى حرية الإرادة وفى الصفات الأزلية، فتسربت أقوالهم فى ذلك إلى المعتزلة بعد فتح المسلمين للشام . ويشير فون كريمر إلى الشبه بين قول آباء الكنيسة فى إنكار عذاب النار، وبين قول جهم بن صفوان فى فناء الجنة والنار وفناء حركات أهلهما ، وهو ما أخذه المعتزلة فيما بعد عن الجهمية، وحوروه، فقالوا: إن الجنة والنار لا يفنيان ولكن تفنى حركات أهلهما فقط . غير أن أحمد أمين يعترض على فون كريمر ويقول إن نشأة

المعتزلة كانت إسلامية بحتة بدليل أن أكثر أصول مذهب الاعتزال إنما وضعت للرد على الفرس لا على النصارى [١] .

وصف الحافظ الذهبى : المعتزلة فى البصرة بأنها " عش القدر " ، [٢] تحت تأثير التيارات الفكرية المختلفة التي وجدوها ، وكانت تعاليمهم خليطا من أقوال القدرية والجهمية . فإنهم وافقوا القدرية فى نفى القدر ، ووافقوا الجهمية فى جميع أقوالها ماعدا الجبر ، فإنهم خالفوها فيه وتحاملوا عليه .

لقد ذابت الجهمية وانقرضت القدرية ، ولكن بعض تعاليمهما بقيت محفوظة فى فرقة المعتزلة التى أخذت تلك التعاليم ودرستها درسا وافيا وشرحتها وتوسعت فيها . ولهذا يمكننا أن نعتبر المعتزلة ورثة الجهمية والقدرية ، وعلى الأخص القدرية ، لأن الجهمية كانت مخالفة للمعتزلة فى مسألة القدر ، ولأنها انحصرت فى نهاوند ، وعمرت مدة طويلة بعد قيام المعتزلة [٣] . أما القدرية ، فلم يكن بينها وبين المعتزلة شيء من الخلاف ، وقد اندمجت بهم حال ظهورهم ، فأصبح القدرية والمعتزلة فرقة واحدة . فالاعتزال ، كفرقة منظمة ، بدأ حوالى سنة ١٠٠ هـ على يد واصل بن عطاء .

هكذا ظهر المعتزلة ، وكان رئيسهم الأول ومؤسس فرقتهم واصل بن عطاء . واضح مما تقدم أن المسلمين فى الوقت الذى ظهرت فيه هذه الفرقة كانت لهم بعض المشكلات الحيوية ، وأن المعتزلة قاموا ليحلوا تلك المشكلات ويضعوا فيها أحكاما حسبوا أنها ترضى الجميع وتحوز قبولهم وتصلح ذات البين بينهم . وممن يذهب إلى هذا القول المستشرق نيبرج . فلا ريب إذن أن القول بالمنزلة بين المنزلتين هو أول قواعد المعتزلة ، ومن أعظم أصولهم . إنه الأساس الذى قاموا عليه ، والنواة التى تجمعوا حولها ، حتى إن اسمهم إنما اشتق من هذا القول لا من غيره .

المنزلة بين المنزلتين ودعوى خرق الإجماع : عرض صاحب كتاب الانتصار فى الرد على ابن الراوندى لأصل من أصول الاعتزال ، بل أطلق وصفا لهم لما تميزوا بالقول به . وكان ابن الراوندى طعن عليهم بالقول بالمنزلة بين المنزلتين بأنهم خرجوا بالقول به عن

---

(١) ضحى الإسلام : ج١ ص ٣٤٦ .

(٢) ميزان الاعتدال : ج٢ ص ٢٠٧ .

(٣) الفرق بين الفرق : ص ٢٠٠ .

الإجماع . فعرض الخياط وهو معتزلى لمناقشة ابن الراوندى نقاشا هادئا علميا دقيقا لا تلمس منه تعصبا لرأى ولا ميلا لمذهب، ولولا أنك تعرف أنه معتزلى لما أدركت نسبته الاعتزالية، كما هو أيضا نص أدبى رفيع يعلم أدب الحوار .

يقول الخياط : قال صاحب الكتاب، أى ابن الراوندى، فى كتابه مطاعن القرآن : وقد خرجت المعتزلة بأسرها من الإجماع لقولها بالمنزلة بين المنزلتين ، وذلك أنه لم يكن بين الأمة خلاف قبل ظهورهم فى فساد قول من زعم أن مذنبى المقرين ليسوا بمؤمنين ولا كافرين ولا منافقين . ولم يكن للناس إلا ثلاثة أقاويل : **أحدها** قول الخوارج فى الإكفار . **والثانى** قول المرجئة . **والثالث** قول الحسن فى النفاق . فجاء واصل بن عطاء وقد تقدمه الإجماع [1] على أن الحق لا يخرج من هذه [2] الثلاثة الأقاويل ، فزعم أنه قد خرج منها، وأن مذنبى أهل الصلاة ليسوا بمؤمنين ولا كافرين ولا منافقين ، فادعت الأمة عليه الخروج من الإجماع فى بعض أقاويلها ، فقد خرجت المعتزلة بأسرها من الإجماع فى عمود دينها . يقال له : إن واصل بن عطاء رحمه الله لم يحدث قولا لم تكن الأمة تقول به فيكون قد خرج من الإجماع، ولكنه وجد الأمة مجمعة على تسمية أهل الكبائر بالفسق والفجور ، مختلفة فيما سوى ذلك من أسمائهم فأخذ بما أجمعوا عليه وأمسك عما اختلفوا فيه (وتفسير ذلك أن الخوارج وأصحاب الحسن كلهم مجمعون والمرجئة على أن صاحب الكبيرة فاسق فاجر . ثم تفردت الخوارج وحدها فقالت : هو مع فسقه وفجوره كافر . وقالت المرجئة وحدها : هو مع فسقه وفجوره مؤمن . وقال الحسن ومن تابعه : هو مع فسقه وفجوره منافق) . فقال لهم واصل : قد أجمعتم أن سميتم صاحب الكبيرة بالفسق والفجور ، فهو اسم له صحيح بإجماعكم، وقد نطق القرآن به فى آية القاذف وغيرها من القرآن فوجب تسميته به . وما تفرد به كل فريق منكم من الأسماء فدعوى لا تقبل منه إلا ببينة من كتاب الله أو من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

ثم قال واصل للخوارج : وجدت أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة فى القرآن كلها زائلة عن صاحب الكبيرة ، فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه ، لأن الحكم يتبع الاسم كما أن الاسم يتبع الفعل . وأحكام الكفر المجمع عليها المنصوصة فى القرآن على ضربين . قال الله عز وجل : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم**

---

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندى ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم، لأبى الحسين عبدالرحيم بن محمد بن عثمان الخياط المعتزلى - تحقيق نيبرج .

(٢) الأصل فى هذا الموضع مخروم .

الآخر ولا يُحرِّمون ما حَرَّم الله ورسوله ولا يَدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ . فهذا حكم الله فى أهل الكتاب وهو زائل عن صاحب الكبيرة . وقال : **﴿ فإذا لَقِيتُم الذين كفروا فضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أثْخَنْتُموهم فشدوا الوَثاق فإما منًّا بعد وإما فداء ﴾** . فهذا حكم الله فى مشركى العرب وفى كل كافر سوى أهل الكتاب ، وهو زائل عن صاحب الكبيرة . ثم قد جاءت السنَّة المجتمع عليها أن أهل الكفر لا يوارثون ولا يدفنون فى مقابر أهل القبلة ، وليس يفعل ذلك بصاحب الكبيرة . وحكم الله فى المنافق أنه إن ستر نفاقه فلم يعلم به ، وكان ظاهره الإسلام فهو عندنا مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . وإن أظهر كفره استتيب فإن تاب وإلا قتل . وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة . وحكم الله فى المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة . قال الله جل ذكره : **﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾** . وقال : **﴿ والله ولى المؤمنين ﴾** . وقال : **﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾** . وقال : **﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾** . وقال : **﴿ يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه ﴾** .

وحكم الله فى صاحب الكبيرة فى كتابه أن لعنه وبرئ منه ، وأعد له عذابا عظيما ، فقال : **﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾** . وقال : **﴿ وإن الفجار لفى جحيم ﴾** . وما أشبه ذلك من القرآن . فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بزوال أحكام المؤمن عنه فى كتاب الله ، ووجب أنه ليس بكافر بزوال أحكام الكفار عنه ، ووجب أنه ليس بمنافق بزوال أحكام المنافقين عنه فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجب أنه فاسق فاجر لإجماع الأمة على تسميته بذلك وبتسمية الله له به فى كتابه . فكيف يكون واصل ابن عطاء رحمه الله والمعتزلة قد خرجت من الإجماع بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ؟ وهل يكون قول أوضح صوابا ولا أصح معنى من قول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين ؟ ! ولو كان شىء من الدين يعلم صوابه باضطرار ، لعلم قول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين باضطرار .

ثم يقال لصاحب الكتاب : خبرنا عن المدعى على المعتزلة الخروج من الإجماع : من هو من الأمة ؟ فإن قال : (المرجئة تقول ذلك) ، قيل له : فللمعتزلة أن تدعى على المرجئة من الخروج من الإجماع مثل ما ادعته المرجئة على المعتزلة ، وهو أنها تقول لها قد أجمعت الأمة كلها سواكم على أن قولكم : إن صاحب الكبيرة مؤمن ، باطل . وكذلك إن كان المدعى على المعتزلة الخروج من الإجماع خارجيا ، قيل له : قد أجمعت الأمة سواكم على أن قولكم : إن صاحب الكبيرة كافر ، باطل .

ويشهد بعظم شأن هذا الأصل عند نشوء الاعتزال، أن كثيرا ممن حكى عن واصل خصوه بالذكر دون غيره من الأصول الخمسة . ويشهد بشأنه أيضا نفس اسم المعتزلة ، لأنه لا ريب فى أن هذا الاسم مشتق من الاعتزال، وصرح المسعودى بأن كلمة "الاعتزال " فى اصطلاح هذا المذهب هى عبارة عن القول بالمنزلة بين المنزلتين، أى القول بأن صاحب الكبيرة قد اعتزل عن الكافرين والمؤمنين (راجع مروج الذهب ٦ : ٢٢ و ٧ : ٢٣٤). واتفق الجمهور من أهل السنة على أنهم سموا بذلك لأنهم اعتزلوا عن مجلس الحسن ، وهذا لا وجه له إذ وردت تسميتهم بأهل الاعتزال وبمن قال بالاعتزال أيضا ، ولو كان معنى الكلمة ما زعموه لما جاز مثل هذه التسمية .

بدأ المعتزلة هذا الجهاد المقدس منذ ظهورهم وتلك كتبهم إنما وضع أكثرها للرد على الرافضة والجهمية الجبرية والثنوية وسائر المجوس ، والدهرية والسمنية دون غيرهم . ومناظراتهم الكثيرة المشهورة إنما كان معظمها مع المخالفين الفرس لا مع سواهم . وأول من فعل ذلك منهم رئيسهم واصل بن عطاء .

إن بحث المعتزلة فى المسائل اللاهوتية التى أثارها أهل الديانات الأخرى ، ودرسهم لها ، جعلهم يقفون على الحقيقة المزعجة التى أشرت إليها ، وهى أن بعض تلك المسائل خطر على الإسلام مفسد لعقيدته ، ولا سيما المسائل التى أثارها الفرس .

لم يكن الخطر على الإسلام آتيا من ناحية أهل الكتاب ، فإن القرآن الكريم أمر أن يعاملوا بالحسنى ، وأوصت الأحاديث الشريفة بعدم إيذائهم أو التعدى عليهم ، وذلك دليل على ضآلة خطرهم على الدين .

٤ ـــ الأصول الخمسة

يقوم الاعتزال على أصول خمسة عامة، من اعتقد بها جميعا كان معتزليا ، ومن أنقص منها أو زاد عليها ولو أصلا واحدا لم يستحق اسم الاعتزال . وتلك الأصول مرتبة حسب أهميتها هى : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين

المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.[1] وكل من دان بالأصول الخمسة ثم خالف بقية المعتزلة فى الفروع لم يخرج بذلك عنهم[2] . وهناك رأى لابن حزم فى الأصول الخمسة، فقال هى : القول بخلق القرآن، ونفى الرؤية السعيدة، ونفى القدر، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، ونفى الصفات (ابن حزم ج٢ ص ٨٩) فإذا اختصرت هذه المسائل أصبحت ثلاثا فقط . فيكون ابن حزم قد أهمل أصلين اثنين وهما : الوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لذلك يجب أن يهمل تقسيمه ويعتمد على تقسيم الخياط والأشعرى والمسعودى .

وأما الأصول الباقية من أصولهم الخمسة فيمنعنا قلة معرفتنا بافتراق السلف أن نثبت الدواعى إليها إلا ظنا، غير أنه ظهر لى بمظهر اليقين أن الأصل الأول موضوع للرد على المجسمة، ونعلم أن التجسيم قد دخل الإسلام فى ذلك الزمان من كل باب، فقال غلاة الشيعة والرافضة منهم بأسرها بأن الله تعالى قد وصورة وأنه جسم ذو أعضاء، ووضع كثيرون من أهل الحديث والرواة والقصاص أحاديث وروايات فيها من تشبيه الله بخلقه ووصفه بصفات البشر ما لا يليق بالعظمة الإلهية . ومن المعروفين بذلك مقاتل بن سليمان الذى عاش فى زمن واصل وعمرو . فرد واصل على كلا الطرفين من المجسمة . ولقد بالغ فى إثبات نقيض ما وجد عليه خصومه وإنه فى ذلك لمعذور . ولم يكن غلوه فى هذا الباب كغلو جهم بن صفوان الذى انقطع إلى الرد على مقاتل بن سليمان وأصحابه فى خراسان فإنه انتهى به الأمر إلى تجاوز حدود الإسلام .

وأما الأصل الثانى، فهو بلا شك موضوع أولا للرد على المجبرة وبعض من قال بوقوع الظلم من الله تعالى من الرافضة . وكانت المجبرة قد قويت ونمت فى ذلك الزمان وظهر على رأسهم جهم بن صفوان الذى أقدم على ما لا يطاق من القول بالجبر وغالى فيه مغالاة لم يسبقه إليها أحد . وثبت بالتاريخ أن المعتزلة القديمة ناظرت الجهمية وتبرأت منه، يشهد بذلك ما ورد فى كتاب ابن المرتضى من إرسال واصل بعض أصحابه لخراسان لمباحثة جهم ومنازلته، ويشهد به ما صرح به الخياط من البغض لجهم والبراءة منه "[3].

---

(١) الانتصار: ص ١٢٦ ، ومقالات الإسلاميين: ج١ ص ٢٧٨ ، ومروج الذهب: ج٦ ص ٢٠ ، ٢٣ .

(٢) مروج الذهب: ج٦ ص ٢٣ ، وابن حزم: ج٢ ص ٨٩ .

(٣) مقدمة الانتصار، والمعتزلة – جاد الله زهدى .

ولقد كانت دار الإسلام فى القرنين الأولين بعد الهجرة دار الحرب والنزاع ، فتشاجرت فرق الأمة ، وتخاصمت الأمة الإسلامية وأمم الأديان السابقة على الإسلام فى الشرق . فإن التاريخ يدل على أن أمر الإسلام لم ينفذ إلا تدريجا ولم يخط إلا خطوة خطوة . ولم يزل فى دار الإسلام عدد كبير من المسيحيين واليهود والثنوية ، لاسيما أصحاب مانى الذين كان مركزهم القديم فى العراق ولم يزل هناك كثيرون على مذهب الديصانية والمرقيونية وغيرهم من فرق الثنوية . وكانت الدهرية وهم الفلاسفة ذات شأن وقوة ونشاط ، وظهرت السمنية وأصلها من بلاد الهند ، وهلم جرا . وكان لكل واحد من هذه المذاهب كلام مدقق وعقائد محررة مقررة مرتبة على أصول فلسفية وفروع منظمة . وكان الإسلام فى بادئ أمره لم يبين علماؤه عقائده ولم يبحثوا عنها على طريق منطقى فلسفى ، فلم يكن للمسلمين ما يكفيهم مئونة الخصوم ولم يستطيعوا أن ينازعوهم بأسلحتهم . وفضلا عن ذلك فكان للأديان المذكورة استعداد وتعود منذ قرون على الرد على خصومهم ببراهين ودلائل ، ولم يكن فى الإسلام من ذلك إلا شيء قليل . ثم دخل من تابعى تلك المذاهب عدد لا يحصى فى الإسلام ، فلما أسلموا لم يتركوا فى الحقيقة ما قد كانوا عليه من الشعور والوجدان والأفكار ، فانسل فى الإسلام ما هو غريب عن روحه بعيد عن أصله وإن كان ظاهره الإسلام .

ويظهر عند البحث التاريخى أن الشيعة كانت محل امتزاج الثنوية بالإسلام خاصة ، إذ فى أفكارها الرئيسية من المناسبة لآراء الثنوية ما لا يخفى . مثال ذلك قولها فى أئمتها وتجسيمها الذى هو أقرب شيء إلى تجسيم الثنوية . ثم ثبت عن كثير من رجالها أنهم جمعوا بين الرفض والزندقة ، والزندقة هى مذهب الثنوية . فذكر صاحب الفهرست[(١)] عدداً ممن أظهر الإسلام وأبطن الزندقة :

منهم أبو شاكر الديصانى الذى يدل مجرد لقبه على أصله ، وعده الخياط من الرافضة .[(٢)] ومنهم أبو عيسى الوراق وهو أستاذ ابن الراوندى ويعد من الرافضة[(٣)] . ثم أخبر الخياط عنه أنه كان يستكره قتل الحى من أى صنف كان ،[(٤)] وهو مذهب مانى بعينه . ومنهم نعمان وابن طالوت وهما من شيوخ ابن الراوندى .[(٥)]

وكان هؤلاء من المتأخرين الذين ظهروا بعد محنة الزنادقة فى أول دولة بنى عباس ،

---

(١) الانتصار : ص ٣٣٨ . (٢) ص ٤١ و ١٤٢ .

(٣) نفس المرجع : ص ١٤٩ و ١٥٠ و ١٥٢ .

(٤) نفس المرجع : ص ١٥٥ . (٥) ص ١٤٢ .

فما ظنك بالمتقدمين . وكان منهم ابن المقفع وإن لم يتضح أمره ، لكنى أميل إلى أنه كان مع المذكورين على حد سواء ، إذ كان أصله مجوسيا ، ثم انتقل إلى الإسلام ، وانتسب إلى الرافضة . وما ورد فى بعض الكتب القديمة من كلامه يدل بالأقل على أنه كان يعبر عن إسلامه بعبارات الثنوية وعن أفكار زنديقية بعبارات إسلامية .

وقد تقدم أن بعض أهم أصول المعتزلة كانت موضوعة أولا للرد على الرافضة والملحدين . والواقع أنهم لم يزالوا على أشد عداوة عليهم إلى آخر أمرهم . فإذا شئت البرهان على ذلك فانظر إلى مجالس أبى الهذيل مع هشام بن الحكم ومجادلات النظام مع رافضة عصره والمناظرات بين السكاك الرافضى وبين الإسكافى وجعفر بن حرب فى البصرة [1] وإلى ما عمله الجاحظ حين سل صارمه عليهم وانظر إلى نفس الكتاب الذى بين يديك .

ولم تقتصر المعتزلة على الرافضة ، بل دعاهم الحال وما وجدوا الرافضة عليه من الصله بالثنوية إلى أن يحولوا الحرب إلى محالفيهم ويحاصروا قلعتهم ويحملوا على مخازنهم ، فتهجموا على الثنوية والديصانية والدهرية وغيرهم ممن استمد الرافضة منهم، ولم يسبقهم فى الإسلام أحد إلى الرد بمثل هذا المقدار .

وتاريخ المعتزلة مفعم بما جرى من هذا الجنس . فتجد فى زمان واصل وعمرو: بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وهما بلا شك من الثنوية ، فقام واصل وعمرو عليهما وناظراهما ونقضاهما وطرداهما . وكذلك فعل عمرو بجرير بن حازم الأزدى السمنى فى البصرة كما جاء فى كتاب الأغانى . [2] ثم جاء أبو الهذيل العلاف وناظر الثنوية فى البصرة ونقل عددا كبيرا منهم إلى الإسلام ، منهم مجوسى اسمه ميلاس كما ورد فى كتاب ابن المرتضى فى ترجمة أبى الهذيل . ثم ظهر النظام وهو من أحذق من تكلم فى الشرق، ولم يزل على حرب مستمرة مع الثنوية والديصانية والدهرية وقطعهم وأبطل كلامهم .

هذا ما قد تجلى شىء منه عند البحث الدقيق عن الأخبار المتفرقة فى الكتب وعن حكايات أهل السنة فى كتبهم فى الفرق مع سعيهم فى تحريف مقاصد المعتزلة ، ثم أخبر عن ذلك صراحة ابن المرتضى والجاحظ فى الكتب الباقية منهما . ثم ظهر الآن كتاب الانتصار، وها هو ذا بين يديك وستقرأ فيه ما يؤيد ذلك كل التأييد وستجد خصوصا تفصيل مناقشات النظام مع المذاهب المذكورة . وهذه المناقشات مما يبطل تماما كذب الخصوم على المعتزلة بأنهم قصدوا إلى الزندقة وهدم الإسلام . والواقع أنهم

---

(١) نفس المرجع: ص ١١٠ - ١١١ و ١٤٢ .

(٢) كتاب الأغانى: (٣ : ٢٤) .

كانوا على ضد ذلك قطعا ، وهم أشد المسلمين دفاعا عن الإسلام فى ذلك الزمان وحمية على مخالفيه (١) .

وأنا أميل إلى القول بأنه لم يكن فى التاريخ أحد نجح نجاح النظام فى إبطال كلام الثنوية وإسقاطهم عن مركزهم وشأنهم فى الشرق الأدنى . ولم يصدر هذا الكد من هوى حل بهم ولم يقع عبثا . بل قامت المعتزلة بأشد ما احتاج إليه الإسلام فى ذلك العصر وهو الاستعانة بما استعانت به الأديان المحيطة به كلها من أسلوب متين، وطريق فلسفى ، لإبراز ما كمن فى الدين من القوى والفضائل ، فلم يكن بد من الاستغراق فى الأبحاث والدقائق ليظهر الإسلام فى مظهر التحدى ويفوز ما أراد فوزه . ولو لم يقم بهذا الواجب من الأمة من كانت له كفاءة له لما تقرب الإسلام إلى الأذهان ولما نهض بين الأديان ولما صار له إلا سلطة ظاهرة فانية .

فحلت المعتزلة من تاريخ الإسلام محل المدافعين عن حوزة المسيحية فى أول أمرها من تاريخ المسيحية . وفى هذا الملحظ مفتاح قيمة المعتزلة ، وبيان جهادهم الفكرى . فكما أنه لا ريب فى أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا : علم اللاهوت بمناظراتهم مع فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك ، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأسسته . ومعنى الكلام هو المكالمة والمناظرة والمجادلة ، وتشهد كل صفحة من الانتصار بأن تلك المناظرات بين المعتزلة والملحدين وأصحاب سائر الأديان هى مصدر كلامها ومأخذ آرائها ومناط دلائلها ، ولا يفهم شىء من مغزى كلامها إلا عند المراجعة على هذا الأصل .

وهذا اجتهاد بقى ثمره إلى الآن ، إذ استمد أهل السنة منه فى كل باب عند الخوض فى مناسبات هذه المسائل كما هو معروف عن الإمام الأشعرى أنه كان من تلاميذ الجبائى قبل ظهوره بمذهبه . ولو لم تكن المعتزلة مهدت الطريق لما كان لأهل السنة تقدم فى هذا الفن مثل تقدمهم (٢) .

ثم نريد أن نشير إلى شىء آخر وهو أن قوما هذا شأنهم وموقفهم إزاء أعداء كثيرين ونحل مختلفة متدربة على المناظرة لابد وأن يكون فى أسلوبهم شىء من الضعف والتردد والعدول عن سواء السبيل ، إذ من نازل عدوا عظيما فى معركته فهو مربوط به مقيد بشروط القتال وتقلب أحواله ، ويلزمه أن يلاحق عدوه فى حركاته وسكناته

(١) المعتزلة - زهدى جاد الله .

(٢) مقدمة كتاب الانتصار - لمحققه دكتور نيبرج .

وقيامه وقعوده ، وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله . كذلك فى معركة الأفكار أيضا . وفى الجملة فللعدو تأثير فى تكوين الأفكار ليس بأقل من تأثير الحليف فيه حتى إن بعض الحنابلة قد شكا أن أصحابه انقطعوا إلى الرد على الملحدين انقطاعا أداهم أنفسهم إلى الإلحاد . ففى عمل المدافعين أجمعين أشياء كثيرة لا بقاء لها، وينبغى أن تزول بزوال شروطها وأن يضرب عليها ويؤتى بأحسن منها وأصوب ، ولا يزعم زاعم أن المعتزلة بريئة من ذلك . لكن نيتها ظاهرة وهى الذب عن الإسلام ، والنية إنما هى ميزان الأعمال كما جاء فى الحديث :

" إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " .

رأى الشهرستانى فى المعتزلة : يرى الشهرستانى فى تقييمه لأصول الاعتزال أن لهم اتفاقات مع أهل السنّة والخوارج والروافض والجهميين وهشام بن الحكم، ولا نخال ذلك راجعا إلا لثقافتهم وقدرتهم على متابعة الفرق والبحث عن الحقيقة خالصة لا يعوقهم عن تحصيلها شيء، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخرجها، فلا نسبتها إلى الخوارج يعفيهم عن تحصيلها ولا نسبتها إلى أهل السنّة مثلا يعفيهم من مسئولية فهمها، فالحقيقة لديهم ثبت البحث، لذلك كانوا جديرين بوصف أحرار الفكر فى الإسلام . وكانوا مدافعين بعلم وعن علم .

غير أن الشهرستانى مدحهم من حيث أراد ذمهم حين وصفهم بأنهم راج عليهم لقلة معرفتهم بمسالك المذاهب. وهذا ولا شك اعتراف منه بأنهم كانوا على معرفة بثقافة الآخرين مهما كان نسبتها. يقول :

" وأما كلام جميع المعتزلة البغداديين فى النبوة والإمامة فيخالف كلام البصريين . فإن من شيوخهم من يميل إلى (الروافض) ومنهم من يميل إلى الخوارج . و " الجبائى " و " أبو هاشم " قد وافقا " أهل السنة " فى الإمامة ، وأنها بالاختيار ، وأن الصحابة مترتبون فى الفضل ترتبهم فى الإمامة ، غير أنهم ينكرون الكرامات أصلا للأولياء : من الصحابة ، وغيرهم . ويبالغون فى عصمة الأنبياء عليهم السلام عن الذنوب : كبائرها، وصغائرها ، حتى منع " الجبائى " القصد إلى الذنب إلا على التأويل . والمتأخرون من المعتزلة مثل القاضى " عبد الجبار " وغيره انتهجوا طريقة " أبى هاشم " وخالفه فى ذلك " أبو الحسين البصرى " وتصفح أدلة الشيوخ ، واعترض على ذلك

بالتزييف والإبطال وانفرد عنهم بمسائل : منها نفى الحال ، ومنها نفى المعدوم شيئا ومنها نفى الألوان أعراضا ومنها قوله : إن الموجودات تتمايز بأعيانها ، وذلك من توابع ومنها رده الصفات كلها إلى كون البارى تعالى : عالما ، قادرا ، مدركا . وله ميل إلى مذهب " هشام بن الحكم " فى أن الأشياء لا تعلم قبل كونها . والرجل فلسفى المذهب إلا أنه روج كلامه على المعتزلة فى معرض " الكلام " فراج عليهم لقلة معرفتهم بمسالك المذهب " .

٥ ـــ موقف المعتزلة من الرفض والرافضة

جرى عرف كتاب تاريخ الفرق أن يصفوا المعتزلة بجميع أوصاف وأسماء الفرق الغالية أو المذمومة فوصفوها بالجهمية والقدرية . إذ القدرية لديهم توصف بالمجوسية ، لزعمهم أن ثمة حديثا ورد يقول " القدرية مجوس هذه الأمة " . وربطوا بينها وبين الخوارج ، وأطلقوا عليها أى على المعتزلة : الرافضة ، فأسبغوا عليها أوصافًا ليحملوها أوزار الفرق الخارجة وإباحية الزنادقة . وهكذا أصبحت المعتزلة فى عرف خصومها مرتعا خصبا ينبت فيها براعم ذوى الآراء الضالة والشاذة ، وموئلا سريا للحركات السرية . وهذا ولا شك إسراف من غير حدود فى التهجم على المعتزلة ، ونسبتها إلى الفرق الخارجة عن حد الاعتدال نسبة مزعومة لا أصل لها ولا سند لها تاريخى ولا شرعى . ولولا المعتزلة الذين حصروا قضايا علم الكلام وقاموا بالرد عليها منذ العصر الأول لاستشرى خطر تلك الفرق وآرائها ولما بان ضلالها وإفكها .

ومن المأثور عن كتاب تاريخ الفرق ربطهم بين الشيعة " الرافضة " وبين المعتزلة . وكان الربط قائما وفق ما ذهب إليه المرتضى من حيث التلمذة تلمذة واصل على محمد ابن على ، غير أن الخصوم جعلوا الربط محكما . لكن الخياط ذهب فى كتابه الانتصار إلى غير ذلك .

يذهب المرتضى حين يتكلم عن نشأة مذهب الاعتزال ، إلى الارتفاع بنسبته إلى

الإمام علىّ . ويقول : إن واصلا أخذ عن محمد بن على بن أبى طالب ، وأن محمدا أخذ عن أبيه ، والزيدية يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها إلا فى مسألة الإمامة (١) .

ويقول آدم متز (٢) : ويدل على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة أن الخليفة القادر جمع بينهما حينما نهى فى عام ٤٠٨ - ١٠١٧ عن الكلام والمناظرة فى الاعتزال والرفض (أى مذهب الشيعة) والمقالات المخالفة للإسلام .

ثم إن الطريقة التى سار عليها ابن بابويه القمى أحد علماء الشيعة فى القرن الرابع الهجرى ، فى كتابه المسمى كتاب " العلل " تذكرنا بطريقة علماء المعتزلة الذين كانوا يبحثون عن علل كل شىء .

كما كان فى مذهب المعتزلة مكان ، لكل ألوان الزندقة (٣) .

أما الخياط فى كتابه فيذهب إلى غير هذا الرأى تماما موضحا قضية "الرفض والرافضة من المعتزلة والاعتزال :

مبدأ القول بالرفض مرفوض : إن المعتزلة لم تعب جملة الرافضة بقول تقرر به بعضها - هذا لا يفعله عاقل ولا يصير إليه إلا جاهل - وإنما عابت جملة الرافضة بقولها بالرفض الذى قد استوى فيه جميعها .

ثم عابت كل فريق منها بما تفرد به دون ما سواه (٤) .

إن ما أثر فى قلوب العامة والخاصة وما نفرهم عن الرافضة ليس إلا قدح قولها وخطأ مذهبها وفساد مقالتها فى ربها من تشبيهه بخلقه ، وتجويره فى حكمه ، ومخالفتهم سنن محمد صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم فى القرآن ، وإكفارهم المهاجرين والأنصار (٥).

---

(١) المنية والأمل .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ج١ ترجمة محمد عبدالهادى .

(٣) نفس المرجع : ج١ .

(٤) كتاب الانتصار : المرجع السابق ص ٤ .

(٥) أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد : نفس المرجع السابق: ص ٥ ، ٦ .

وأما جملة قول الرافضة ، فهو أن الله عز وجل ذو قد وصورة وحد يتحرك ويسكن ويدنو ويبعد ويخف ويثقل ، وأن علمه محدث وأنه كان غير عالم فعلم ، وأن جميعهم يقول بالبداء وهو أن الله يخبر أنه يفعل الأمر ثم يبدو له فلا يفعله . هذا توحيد الرافضة بأسرها إلا نفرا منهم يسيرا صحبوا المعتزلة واعتقدوا التوحيد ، فنفتهم الرافضة عنهم وتبرت منهم . فأما جملتهم ومشايخهم مثل هشام بن سالم وشيطان الطاق وعلى بن هيثم وهشام بن الحكم وعلى بن منصور والسكاك ، فقولهم ما حكيت عنهم . ثم قولهم فى القدر : إن الكافر كفر لعلة وبسبب من قبل الله ألجآه إلى الكفر ، بل ألجآه إلى كفره واضطراه إليه وأدخلاه فيه ، وإن الله يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية . ثم هم بأجمعهم يقولون الرجفة إلى دار الدنيا قبل القيامة . ثم قولهم : إن القرآن بدل وغير وزيد فيه ونقص منه وحرف عن مواضعه . ثم مخالفتهم جميع الأمة فى الصلاة فى كثير من الفرائض والسنن . ثم قولهم : إن النبى صلى الله عليه وسلم استخلف على أمته رجلا بعينه ووسمه ونسبه ، وأن الأمة بأسرها إلا نفرا يسيرا اجتمعوا على خلاف رسول الله ومعصيته وتأخير من قدم واستخلاف غيره .

هذا قول الرافضة بأسرها ، وجميع الأمة له منكر ومكذب .

إبطال الرافضة لأركان الإسلام وأصوله : قصد هشام بن الحكم المعروف بصحبة أبى شاكر الديصانى إلى الإسلام فطعن (فيه من) أركانه فقصد إلى التوحيد بالإفساد بقوله : إن القديم جل ثناؤه جسم ، فأبطل دلالة الأجسام على الحدث بحكمه أن منها ما هو قديم . ثم قصد إلى الرسالة فأبطلها بقوله : إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ارتدت بعد وفاته وخالفت أمره وبدلت حكمه وأزالت خليفته عن مقامه . وإن القرآن الذى خلفه رسول الله فى أمته قد حرف وبدل وغير (وزيد) فيه ونقص منه ، فليس يعرف اليوم محكمه من متشابهه ولا عامه من خاصه . وهذا قول هشام وهو قول الرافضة وهو الإلحاد المجرد يعلم من أنصف أن واضعه إنما أراد إبطال الدين من أصله وإفساده على أهله .

تكفير الفرق بعضها بعضا ونصيب الرافضة من ذلك : هذه الخوارج بعضها يكفر بعضا ويبرأ منه ويستحل سفك دمه وغنيمة ماله . وهذه الروافض بعضها يكفر بعضا ويبرأ منه . وهذه المرجئة بعضها يكفر بعضا ويبرأ منه . وهذه أصناف المشبهة بعضها

يكفر بعضا ويبرأ منه وهذه المجبرة فرق مختلفة وبعضها يكفر بعضا . فهو لازم لفرق الأمة أجمعين ، وهو للرافضة ألزم لإفراط بعضها فى إكفار بعض .

مخالفة الرافضة للقرآن : لقولهم بالمتعة ، ولوطئهم النساء بغير تزويج ولا ملك يمين ، خلافا لكتاب الله نصا . ثم يرون أن يطأ المرأة الواحدة فى اليوم الواحد مائة رجل من غير استبراء ولا قضاء عدة ، وهذا خلاف ما عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

الجاحظ والجارودية : الجارودية يرون الخروج مع ولد علىّ دون غيرهم ، وتجريد السيف فى نصرتهم . فقال الجاحظ : إذا كان من عزمكم إخراجهم وتعريضهم لمحاربة أهل البأس والنجدة ، فلا تمنعوهم من لقاء العلماء وحضور مجالسهم وسماع أخبارهم والتعلم منهم ، بل ينبغى لكم أن تحثوهم على طلب العلم ومجالسة أهله والاختلاف إليهم ودرس كتبهم ، حتى يكونوا فى معرفة ما تريدونه منهم وترشحونهم له كأعدائهم الذين يريدون أن تعرضوهم لمحاربتهم . وما وصف به الجاحظ هذا الصنف من الرافضة ومن صنيعهم بآل أبى طالب مشهور معروف مشاهد. ولم يرد الجاحظ ما توهمه عليه صاحب الكتاب . ومن قال بالإلهام من الرافضة لا يرى الخروج ولا يحدث نفسه به (١) .

أهمية الخبر المتواتر وأنه ناقض لأصول الرافضة : إن القول بأن الخبر المتواتر حق وأنه موجب للعلم مبطل لأكثر دليل الرافضة فى تصحيح الإمامة . وذلك أن من عظيم أدلتهم عند أنفسهم على أنه لابد للناس من إمام معصوم نقى الباطن والظاهر جامع لعلوم الدين كلها ، أن سائر الأمة سواه جائز عليهم السهو والتبديل والتغيير وكتمان ما نصوا عليه والإخبار بغير ما وقفوا عليه . قالوا : ويدل على ذلك ما يرى من اختلاف الأمة فيما بينها فى أصول دينها وفروعه مما يصرف بالسمع ومما يصرف بالعقل (٢) .
(قالوا) فإذا كان هذا على ما وصفنا ، وكان الله قد أوجب علينا العلم والعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فليس من طائفة تروى عنه عليه السلام قولا إلا وبإزائها طائفة أخرى تروى عنه خلافه ، كان واجبا من حكم الله أن ينصب لنا واحدا مأمونا لا

(١) ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) ص ١٥٨ .

يجوز عليه من التبديل والتغيير ما يجوز على غيره، يؤدى إلينا ما وجب علمه والعمل به من أمر ديننا علينا. فإذا زعم هشام بن الحكم أن النقل المتواتر حق، وأن أهله لا يجوز عليهم كتمانه ولا إظهار غيره، فقد أبطل هذا الدليل وأسقطه، وأراحنا من نقضه وإفساده. ثم يقال لصاحب الكتاب: ليس يبلغ بنا الحال مع الرافضة إلى أن نناظرهم فى التواتر لأن أهل العلم مختلفون فى الأخبار ولهم فيها أقاويل مختلفة [1].

مخالفة الرافضة للقرآن وطعنهم فيه وتكذيبهم بالسُّنن: وإنما المناظرة بيننا وبين الرافضة فى مخالفتهم نص القرآن والطعن فيه، وادعائهم عليه بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير ومخالفة السنن وتكذيبهم لكثير منها وزيادتهم فيها ما ليس منها وفى إفراطهم فى التشبيه والإجبار.

الفرق بين خطإ الرافضة وخطإ من سواهم من الفرق الأخرى: أخطاء الرافضة فى الجلى من الأمور بينما أخطاء الفرق الأخرى فى الغامض منها [2]: كقول الرافضة: إن الأمة نصت ووقفت على إمام بعينه واسمه وكتمت ما وقفت عليه من ذلك وأظهرت خلافه، ووقفت أيضا على سنن كثيرة فيما تدعى فكتمتها وروت خلافها. هذا قول الرافضة، وليس يجوزه على الأمة أحد سواهم. فأما ما يعرف بالنظر والقياس، فقد يقع فيه الخلاف بين الناس. ألا ترى أن الأمة قد نقلت بأسرها التوحيد والعدل مجملا، وإن كان بعضهم قد نقضه فى التفصيل لشبهة دخلت عليه. ولعمرى أن لو كان النبى عليه السلام عند المعتزلة نص أمته على خلق القرآن نصا مفسرا، وعلى أن الله لا يرى بالإبصار فى الآخرة مفسرا مشروحا لا يحتمل التأويل، ثم خالفها فيه كثير من الأمة، كان نظير القول الرافضة: إن النبى صلى الله عليه وقفهم على إمام بعينه واسمه، واستخلفه عليهم فاجتمعوا على كتمان ذلك وستره وإظهار خلافه. على أن قول الرافضة أيضا أظهر فسادا وأبين تناقضا، لأنها تزعم أن الأمة اجتمعت غير خمسة أو ستة على كتمان ما نصت عليه والأمة مختلفة فى خلق القرآن وفى أن الله جل ذكره يرى بالأبصار.

ثم قال: ويزعمون أيضا أن أكثر الصحابة اجتمعوا على الخطإ فى كفهم عن معاوية ويزيد. ويقولون فى التابعين وإمساكهم عن بنى أمية مثل قولهم فيهم. فأى شىء

---

(١) ص ١٥٩. (٢) ص ١٦٠ - ١٦١.

يلحق الشيعة من هذا القول لا يلحق المعتزلة أمثاله ، يقال له : هذا كذب منك على المعتزلة . بل تزعم المعتزلة أن الصحابة والتابعين بإحسان الذين كانوا فى زمن معاوية ويزيد وبنى أمية معذورون فى جلوسهم عنهم لعجزهم عن إزالتهم ولقهر بنى أمية لهم بطغام أهل الشام، و ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعا** ﴾ .

غلو الرافضة فى إمامها : لا فرق فى ذلك بين الغلاة منها والمعتدلين فيها (١) : ولكن الرافضة غلت فى إمامها وأفرطت فى وصفه، على حسب غلو النصارى فى المسيح عليه السلام. فبعضهم زعم أنه إله، وبعضهم زعم أنه الواسطة بين الله وخلقه، وبعضهم زعم أنه رسول، وبعضهم زعم أنه نبى وليس برسول، والمقتصد منهم فى وصفه من زعم أنه عالم يجمع ما بالناس إليه حاجة لا يخفى عليه منه شىء، وأنه نقى السريرة والعلانية لا يجوز عليه التغيير والتبديل ، وأنه أعلم الناس بالتدبير وأزهدهم فى الدنيا وأشدهم بأسا، وأن الله هو المتولى لنصبته وإقامته، وأن الأمة أزالته ودفعته عن موضعه وأقامت غيره، وأن من أنكره وخالفه وجحد إمامته فكافر مشرك ولد لغير رشده . وهذا قول الرافضة فى إمامها .

غلو الرافضة غلوا لم يشبهها فيه أحد من سائر الفرق (٢) : لم يرد الجاحظ أن يلزم جميع الشيعة ذنب من غلا منهم وأفرط ، وإنما أراد أن يخبر أن الرفض مشتمل على أجناس من الكفر لا يشتمل عليه مذهب فرقة من فرق الأمة ، لأنك إذا نظرت فى مذاهب الخوارج مذهبا مذهبا لم تجد فيه مشبها ولا واصفا لله بما وصفته به الرافضة، ولا قائلا بالبداء ولا مؤمنا بالرجعة إلى دار الدنيا قبل القيامة ، ولا رادا للقرآن . وكذلك المرجئة لا تجد فيهم من التخليط ومخالفة القرآن والطعن على السنن ما تجده مع الرافضة . وكذلك جميع أصناف فرق الأمة لا تجد مع أحد منهم من الإفراط والعلو ومخالفة نص القرآن ومشهور السنن والطعن على المهاجرين والأنصار والإقدام عليهم بالإكفار، ما تجده مع أصناف الرافضة . وإنما أراد الجاحظ بتصنيفه لفرق الرافضة وإخباره عنهم بقول قول ليعلم الناس اشتمال الروافض على ما لم يشتمل عليه مذهب من مذاهب أهل الملة .

---

(١) ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

المحتويات

الفصل الثالث : الأمويون ومفهوم الخلافة الجديدة ٨٥

الفصل الرابع : بنو أمية والمرجئة ١٠٦

رقم الإيداع ٥٤٣٣ / ٩٨
الترقيم الدولى 2 - 0456 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي

وجدت من الضرورى ، لقراءة كتب الفرق ومؤرخيها ، قراءة المصادر التاريخية قبلها ، إذ يصعب فهم الفكرة مجردة دون فهم خلفيتها التاريخية، وربطها بالحدث التاريخى. فكيف نفهم مشكلة « التحكيم » ، وقد كان حدثا فاصلا بين نظامين سياسيين، الأول : يقوم على البيعة والاختيار وتلاحم الأمة بالخليفة ، والثانى : يقوم على توارث الملك ، وإقامة حواجز منيعة بينه وبين الأمة ، وتنحيتها عن أن تكون فاعلة ، مالم يكن ثمة تأريخ للأفكار !؟

ومع ظهور الفرق السياسية التى جرَّت إليها قضايا دينية ، بدأ فتح السبيل أمام امتزاج السياسة بالدين . وكان كلما انتصرت السياسة ، انتصرت قضايها وشدت الأفكارالدينية إليها ، كقضية « محنة خلق القرآن» أمخلوق أم حادث ؟ وكذلك كلما اعتصم الفقيه بالسياسة، زاد وزنه وسادت قضاياه. وكان الموقف السياسى إذا تعرى، تعلق الاهتمام أكثر بالأفكار الدينية ، كاستقلال الأمراء السياسى من حيث الواقع وانفصالهم عن الخلافة ، مع عدم البوح بالاستقلال الشرعى لإضافة سلطة شرعية عليهم، مكتفين باستقلال فعلى لإضفاء صبغة شرعية على سلطتهم فى نظر رعاياهم.

وبات التأريخ للأفكار السياسية تأريخًا للأفكار الدينية ، وهما معا يمثلان الخلفية التاريخية للفرق والمذاهب ، ومع تلك المذاهب امتزجت السياسة بالدين امتزاجًا عميقًا.

دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)